

وحي القلم

تأليف
مصطفى صادق الرافعي



المكتبة العصرية
مكتبة - بيروت

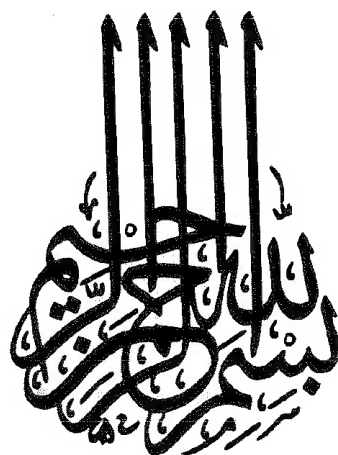
وحي القلم

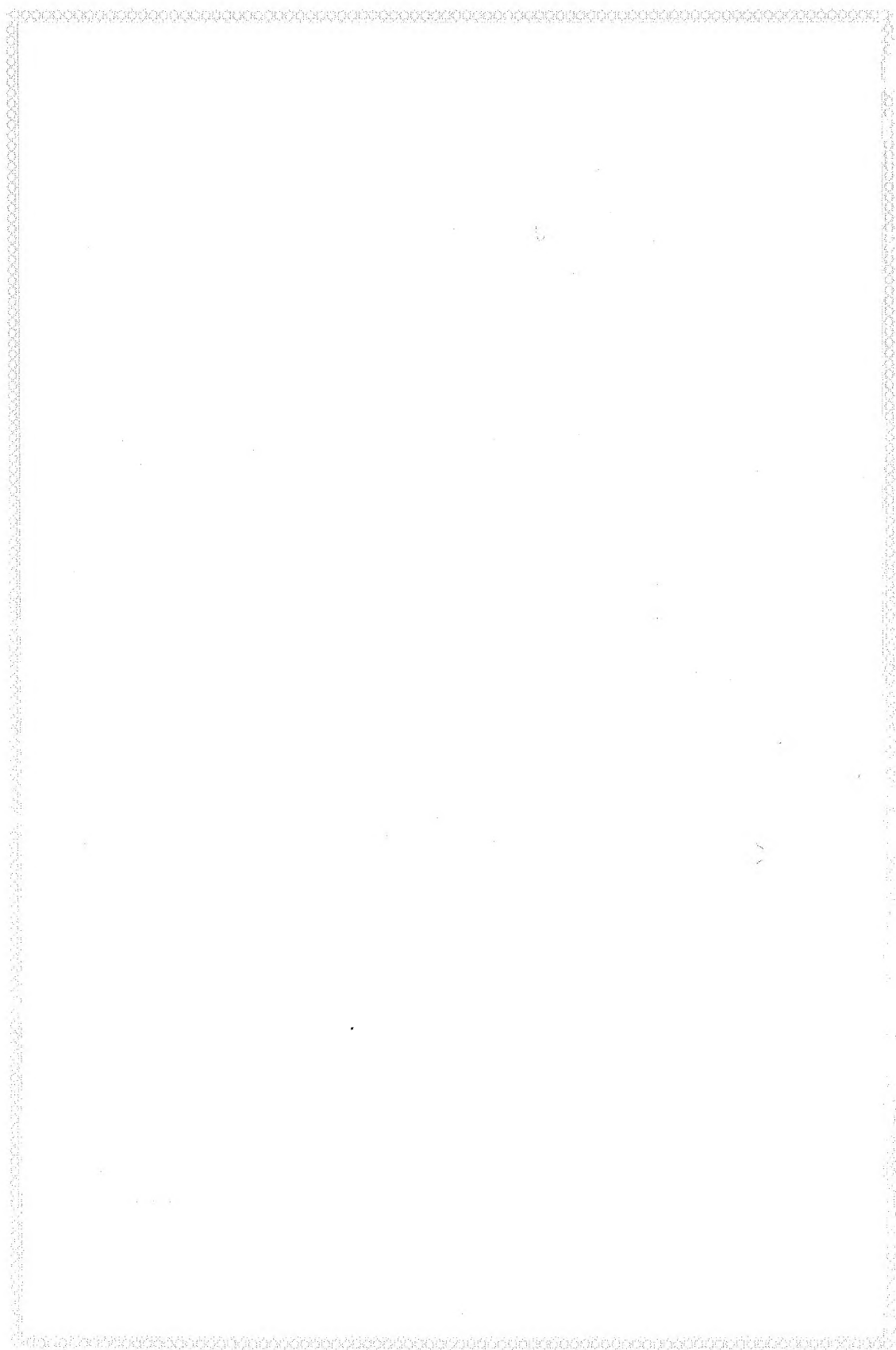
تأليف
مصطفى صادق الرافعي

راجعته واعتنى به
د. درويش الجويدي

الجزء الثالث

المنشأة الحديثة
مكتبة العصرية
بيروت





السَّمُ الرُّوحِيّ الْأَعْظَمُ وَالْجَمَالُ الْفَنِّي فِي الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ

لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَذَا الْفَضْلَ وَهَمَمْتُ بِهِ، عَرَضَتْ لِي مَسْأَلَةٌ نَظَرْتُ فِيهَا جَوَابَهَا، ثُمَّ قَدَرْتُ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ فَلَاسِفَةِ الْبَيَانِ فِي أَوْربَا لِعَهْدِنَا هَذَا رَجُلًا يُحَسِّنُ الْعَرَبِيَّةَ الْمُبِينَةَ، وَقَدْ بَلَغَ فِيهَا مَبْلَغَ أَتْمَتِهَا عِلْمًا وَذَوْقًا، وَدَرَسَ تَارِيخَ النَّبِيِّ ﷺ دَرَسَ الْأَرْوَاحِ لِأَعْمَالِ الْأَرْوَاحِ، وَتَفَقَّهَ فِي شَرِيعَتِهِ فَقَّهَ الْحِكْمَةَ لِأَسْرَارِ الْحِكْمَةِ، وَأُسْتَوْعَبَ أَحَادِيثَهُ وَأَعْتَبَرَهَا بِفَنِّ النِّقْدِ الْبَيَانِيِّ الَّذِي يَبْحَثُ فِي خِصَائِصِ الْكَلَامِ عَنْ خِصَائِصِ النَّفْسِ؛ وَتَمَثَّلَتْ أَتَى لَقِيْتُ هَذَا الرَّجُلَ فَسَأَلْتُهُ: مَا هُوَ الْجَمَالُ الْفَنِّي عِنْدَكَ فِي بَلَاغَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ وَمَاذَا تَسْتَخْرِجُ لَكَ فَلَاسِفَةُ الْبَيَانِ مِنْهُ؟ وَمَا سِرَّهُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ؟

وَلَمْ يَكْذِبْ يَخْطُرُ^(١) لِي ذَلِكَ حَتَّى أَنْكَشَفَ الْخَاطِرُ^(٢) عَنْ وَجْهِ آخِرٍ، وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى هَذَا السُّؤَالِ بَعِينُهُ قَدْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ لِأَبْلَغِ أَوْلَئِكَ الْعَرَبِ الَّذِينَ رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ، وَأَمَنُوا بِهِ، وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَقَدْ صَحِبَهُ فِطَالَتْ صُحْبَتُهُ، لَا يَفُوتُهُ مِنْ كَلَامِهِ فِي الْمَلَأِ شَيْءٌ، وَخَالَطَهُ حَتَّى كَانَ لَهُ فِي الْإِحَاطَةِ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ كِبَعُضِ التَّارِيخِ، فَتَدَبَّرَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سِرُّ الْجَمَالِ فِي بَلَاغَتِهِ ﷺ، وَمَا مَرْجِعُهُ الَّذِي يَرُدُّ إِلَيْهِ؟

لَوْ دَارَ السُّؤَالُ دَوْرَتِيهِ فِي هَذِهِ السَّلِيلَةِ^(٣) الْعَرَبِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي رَجَعَتْ أَنْ تَكُونَ فَلَاسِفَةً تَشْعُرُ وَتُحَسِّنُ، وَفِي تِلْكَ الْفَلَاسِفَةِ الْبَيَانِيَّةِ الْمَلْهَمَةِ الَّتِي بَلَغَتْ أَنْ تَكُونَ سَلِيلَةً تَدْرُسُ وَتَتَفَكَّرُ لَمَّا خُلُصَ مِنْ كِلْتُمَا إِلَّا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ تَلْتَقِي عَلَيْهِ حَقِيقَةُ الْبَيَانِ مِنْ طَرَفَيْهَا: وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْجَمَالَ الْفَنِّيَّ فِي بَلَاغَتِهِ ﷺ إِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ عَلَى الْكَلَامِ مِنْ رُوحِهِ النَّبَوِيِّ الْجَدِيدَةِ عَلَى الدُّنْيَا وَتَارِيخِهَا.

(١) يَخْطُرُ لِي: يَطْرَأُ عَلَى الْبَالِي.

(٢) انْكَشَفَ الْخَاطِرُ: ظَهَرَ وَبَانَ.

(٣) السَّلِيلَةُ: الْمَوْهَبَةُ اللَّغَوِيَّةُ.

وبعد، فأنا في هذه الصفحات لا أصنع شيئاً غير تفصيل هذا الجواب وشرحه، باستخراج معانيه، وأستنباط^(١) أدلته، والكشف عن أسرارِهِ وحقائقِهِ؛ ولقد درستُ كلامَهُ ﷺ، وقضيتُ في ذلك أياماً أتبعُ السِّرَ الَّذِي وَقَعَ فِي التَّارِيخِ الْقَفْرِ الْمُجْدِبِ فَأَخْصَبَ بِهِ وَأُنْبِتَ لِلدُّنْيَا أَزْهَارَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْجَمِيلَةَ، فَكَانُوا نَاساً إِنْ عِبَتْهُمْ بَشْيٌ لَمْ تَعْبَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ دُونَ الْمَلَائِكَةِ؛ وَكَانُوا نَاساً، دَارَتْ أَلْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ فِي عَدَّتِهِمْ ثَلَاثَ دَوَرَاتٍ: وَاحِدَةٌ حَوْلَ الشَّمْسِ، وَثَانِيَّةٌ حَوْلَ نَفْسِهَا، وَثَالِثَةٌ حَوْلَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَلَامَ النَّبَوِيَّ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي وَيُلْهِمُنِي مَا أَفْصَحَ بِهِ عَنْهُ، فَلَكَّأَنِّي بِهِ يَقُولُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ: إِنِّي أَصْنَعُ أُمَّةً لَهَا تَارِيخٌ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ، فَأَنَا أَقْبَلُ مِنْ هُنَا وَهَنَا، وَأَذْهَبُ هُنَاكَ وَهِنَا، مَعَ الْقُلُوبِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَقَائِقِ، لَا مَعَ الْكَلَامِ وَالنَّاسِ وَالْوَقْتِ.

إِنَّ هُنَا دُنْيَا الصَّحَرَاءِ سَتَلِدُ الدُّنْيَا الْمُتَحَضِّرَةَ الَّتِي مِنْ ذُرِّيَّتِهَا أَوْرَبَا وَأَمْرِيكََا؛ فَالْقِرَآنُ وَالْحَدِيثُ يَعْمَلَانِ فِي حَيَاةِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِنُورٍ مُتَمِّمٍ لِمَا يَعْمَلُهُ نُورُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَغْزُونَ الدُّنْيَا بِأَسْلِحَةٍ هِيَ فِي ظَاهِرِهَا أَسْلِحَةُ الْمُقَاتِلِينَ، وَلَكِنَّهَا فِي مَعَانِيهَا أَسْلِحَةُ الْأَطْبَاءِ؛ وَكَانُوا يَحْمِلُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، ثُمَّ مَضَوْا إِلَى سَبِيلِهِمْ وَبَقِيَ الْكَلَامُ مِنْ بَعْدِهِمْ غَازِيَا مُحَارِباً فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ حَرْبَ تَغْيِيرٍ وَتَحْوِيلٍ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامُ عَلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ.

هَذَا مَنْطِقُ الْحَدِيثِ فِي نَفْسِي، وَقَدْ كُنْتُ أَقْرُؤُهُ وَأَنَا أَتَمَثِّلُهُ مَرْسَلاً بِتِلْكَ الْفَصَاحَةِ الْعَالِيَةِ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ يَمُرُّ إِعْجَازُ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ بِهِ الصَّوْتُ الْبَشَرِيُّ إِلَى الْعَالَمِ، فَلَا أَرَى ثُمَّ إِلَّا أَنْ شَيْئاً إِلَهِيّاً عَظِيماً مُتَّصِلاً بِرُوحِ الْكُونِ كُلِّهِ أَتَّصَلَ بِبَعْضِ السَّرِّ بِبَعْضِ السَّرِّ، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ إِنْسَانِيٍّ هُوَ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي يَجِيءُ فِي كَلِمَاتٍ قَوِيَّةٍ رَائِعَةٍ، فَتُهَا فِي بِلَاغَتِهَا كَالشَّبَابِ الدَّائِمِ.

كُنْتُ أَتَأَمَّلُهُ قِطْعاً مِنَ الْبَيَانِ فَأَرَاهُ يَنْقُلُنِي إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أَتَأَمَّلُ فِيهَا رَوْضَةَ تَنْفُسٍ عَلَى الْقَلْبِ، أَوْ مَنْظَراً يَهْزُ جَمَالُهُ الْأَنْفُسَ، أَوْ عَاطِفَةً تَزِيدُ بِهَا الْحَيَاةَ فِي الدَّمِ، عَلَى هَدْوٍ وَرُوحٍ وَإِحْسَاسٍ وَلَذَّةٍ؛ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُضْلِحُ مِنَ الْجِهَاتِ

(١) استنباط: استخراج.

الإنسانية في نفسي، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا في ذوق البيان كأنما أرى
المتكلم ﷺ وراء كلامه .

وأعجب من ذلك أنني كثيراً ما أقف عند الحديث الدقيق أتعرف أسرارهُ، فإذا
هو يشرح لي ويهديني بهديه؛ ثم أحسهُ كأنما يقول لي ما يقول المعلم لتلميذه:
أفهمت؟

وقفتُ عند قوله ﷺ: إِنَّ قوماً رَكِبُوا فِي سَفِينَةٍ، فَأَقْتَسَمُوا، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ
منهم موضع، فنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: هُوَ مَكَانِي
أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ! فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِي نَجَا وَنَجَوْنَا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا.

فكان لهذا الحديث في نفسي كلامٌ طويلٌ عن هؤلاء الذين يخوضون^(١) معنا
البحرَ ويسمّون أنفسهم بالمجددين، وينتحلون ضروباً من الأوصاف: كحرية
الفكر، والغيرة، والإصلاح؛ ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا
وآدابنا بفأسه، أي بقلمه... زاعماً أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما
يشاء، ويتولاه كيف أراد، موجهاً لحماقته وجوهاً من المعاذير والحجج، من
المدنية والفلسفة، جاهلاً أن القانون في العاقبة دون غيرها، فالحكم لا يكون على
العمل بعد وقوعه كما يحكم على الأعمال الأخرى؛ بل قبل وقوعه؛ والعقاب لا
يكون على الجرم يقتطفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما، بل على
الشروع فيه، بل على توجه النية إليه؛ فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة
أو يمسسه من قرب أو بعد ما دامت ملججة في بحرها، سائرة إلى غايتها؛ إذ كلمة
(الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها
إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر)...

ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وأنطلاقه، فهو ههنا
محدود على رغم أنه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها في لغة البحر حدود
الحياة والمصلحة وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر القبر والغرق
والهلاك، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها في الاجتماع الحماقة والغفلة
والبلاهة، وكلمة الحرية يكون من معانيها الجنائية والزيف والفساد وعلى هذا القياس

(١) خاض البحر: ركب متنه مغامراً.

اللغوي فالقلم في أيدي بعض الكتّاب من معانيه الفأس، والكتّاب من معانيه المخرب، والكتابة من معانيها الخيانة؛ قال لي الحديث: أفهمت؟

هكذا يجب تأمل الجمال الفني في كلامه ﷺ، فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى، وتفسيره قريب، قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه بعيد بعيد كالروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، إن وقفت على حد وقف، وإن مددت مد، وما أدبت به تأدي^(١)، وليس فيه شيء مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث القول، وطريقة تأليف الكلام، وأستخراج وضع من وضع، والقيام على الكلمة حتى تبيض كلمة أخرى... والرغبة في تكثير سواد المعاني، وترك اللسان يطيش طيشه اللغوي يتعلق بكل ما عرض له، ويحذو الكلام على معاني ألفاظه، ويجتلب له منها ويستكرهها على أغراضه، ويطلب لصناعته من حيث أدرك وعجز، ومن حيث كان ولم يكن؛ إنما هو كلام قيل لتصير به المعاني إلى حقائقها، فهو من لسان وراءه قلب، وراءه نور، وراءه الله - جلّ جلاله -؛ وهو كلام في مجموع كانه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة، لا تبرح ماضية في طريقها السوي على دين الفطرة؛ فلا تتسع لخلاف، ولا يقع بها التنافر؛ والخلاف والتنافر إنما يكونان من الحيوانية المختلفة بطبيعتها، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتجترم^(٢) وتأنم، فهي نازلة إلى الشر، والشر بعضه أسفل من بعض؛ أما روحانية الفطرة فمتسقة^(٣) بطبيعتها، لا تقبل في ذاتها افتراقاً ولا اختلافاً؛ إذ كان أولها أعلو فوق الذاتية، وقانونها التعاون على البر والتقوى؛ فهي صاعدة إلى الجهير، والخير بعضه أعلى من بعض.

فكلامه ﷺ يجري مجرى عمله: كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة؛ وإنه يخيل إلي وقد أخذت بظهره وجماله أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياماً في الألفاظ.

أما أسلوبه ﷺ فأجد له في نفسي روح الشريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلا قوة قوة أمر نافذ لا يتخلف، وأن له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين، مبيناً بيان الحكمة، خالصاً خلوص السر، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها؛

(١) تأدي: وصل إلى الغاية المرجوة منه.

(٢) تجترم: تقع في الجريمة.

(٣) متسقة: متجانسة.

وكيف لا يكون كذلك وهو أمرُ الروحِ العظيمةِ الموجهة بكلمات ربها ووحيه، ليتوجه بها العالم كأنه منه مكان المخور: دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبما حوله، روح نبي مصلح رحيم، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانية، وهو بالنبوة فوقها، وهو بهذه وتلك في شمائله وطباعه مجموع إنساني عظيم لو شبه بشيء لقليل فيه: إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا.

ومن درس تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق، رأى نسقا من التاريخ العجيب كنظام فلک من الأفلاك موجة بالنور في النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهي، فليس يمتري عاقل مميّز أن هذه الحياة الشريفة، بذلك النظام الدقيق، في ذلك التوجه المحكم - لا يطبقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة إلا إذا كان في لحمه ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة.

ولم يكن مثله ﷺ في الصبر والثبات واستقرار النفس وأطمئنانها على زلازل الدنيا، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي؛ فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة؛ فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس: تدفنهم معاني التراب وهم أحياء فوق التراب، أو يحدتهم الجسم الإنساني من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته؛ وبذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائما، ولرأس الدنيا نظام أفكاره الصحيحة.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط^(١) ممن كان قبلكم حتى أورا المبيت إلى غار فدخلوه، فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم! فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا^(٢) مالا فنأى^(٣) بي في طلب شيء يوماً فلم أرخ عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت وألقدح على يدي أنتظر أستيقظهما حتى برق

(١) رهط: أفراد.

(٢) يقصد أنه كان لا يسقى أحداً من عائلته قبل والديه. والغبوق ما يشرب في العشي.

(٣) نأى: بُعد.

الفجر^(١)، فأستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا^(٢) ما نحن فيه من هذه الصخرة! فأنفَرَجَتْ شيئاً لا يستطيعون الخروج.

قال النبي ﷺ: وقال الآخر: اللهم كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا^(٣) فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا! ففَعَلْتُ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تَفْضَ^(٤) أَلْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ! فَتَحَرَّجْتُ^(٥) مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الْذَهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا. اللهم إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا ما نحن فيه! فأنفَرَجَتْ الصخرةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهم إِنِّي أَسْتَأْجِرُ أَجْرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَرْتُ^(٦) أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَذْ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ، مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ! فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ! فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَأَسْتَأْفَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً. اللهم فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا ما نحن فيه! فأنفَرَجَتْ الصخرةُ فخرجوا يمشون. أَنتهى الحديث.

وأنا فلست أدري، أهذا هو النبي ﷺ يتكلَّم في الإنسانية وحقوقها بكلام بيِّن صريح لا فلسفة فيه، يجعل ما بين الإنسان والإنسان من ألتية هو ما بين الإنسان وربِّه من الدين؛ أم هي الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالي، في شعرٍ من شعرها ضاربة فيه الأمثال، مشيرة فيه إلى الرموز، واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله، مُحْكِمَةٌ عناصر روايتها الشعرية، مُحَقِّقَةٌ في بيانها المكشوف أغمض معانيها في فلسفة الحاسة الإنسانية حين تتصل بأشائها فتظهر الضرورة البشرية وتختفي الحكمة، وفلسفة الروح حين تتصل بهذه الأشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتختفي الضرورة - مبيِّنة أثر هذه وتلك في طبيعة الكون، مقررّة أن الحقيقة

(١) برق الفجر: انبلاج، وأشرقت الشمس.

(٢) فرِّجْ عنا: اكشف عنا.

(٣) أردتها عن نفسها: راودتها.

(٤) تفضّ: تفتح.

(٥) تحرّج: احتسّر وخشي.

(٦) ثمرت: جعلته ينمو.

الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذته، ولا فيما ينجح من أغراضه، ولا فيما يُقنعه من منطق، ولا فيما يلوح من خياله، ولا فيما ينتظم من قوانينه؛ بل هي السمو على هذه الحقائق الكاذبة كلها، وهي الرحمة التي تغلب على الأثرة فيسميها الناس براء، والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسميها الناس عفة، والرحمة التي تغلب على الطمع فيسميها الناس أمانة؛ وهي في ضبط الروح لثلاث من الحواس: حاسة الدعة التي يقوم بها حفظ الخمول، وحاسة اللذة التي يقوم بها حفظ الهوى، وحاسة التملك التي يقوم بها حفظ القوة.

وتزيد الإنسانية على ذلك في نسق شعرها أنها تثبت أن البر من العفة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما؛ فمن نشأ على بر أبيه كان خليقاً أن يتحقق بالعفة والأمانة، وأن العفة من الأمانة والبر هي مساكهما وجامعتهما في النفس، وأن الأمانة من البر والعفة هي كمال هذه الفضائل، وكلهن درجات لحقيقة واحدة، غير أن بعضها أسمى من بعض في الشأن والمنزلة، وبعضها طريق لبعض يجر سبب منها سبباً منها، وأن الرحمة الإنسانية التي هي وخطها الحقيقة الكبرى إنما هي هذا الحب، بادئاً من الولد لأبيه، وهو الحب الخاص؛ ثم من المحب لحبيبته، وهو الحب الأخص، ثم من الإنسان للإنسانية، وهو الحب مطلقاً بعمومه وبغير أسبابه المُلجئة من الحاجة والغريزة؛ وهي درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابه إلى الشيخوخة، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل.

ثم إنه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة، فما قبلها أنواع منها؛ فبر الولد أمانة الطبع المتأدب، وعفة المحب أمانة الكريم، والثالثة أمانة الخلق العالي، وهي أسماء، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب، ودخل في أسبابها الأدب والكرم؛ فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة للإنسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعده جهاته، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب، أو أم، أو قريب؛ ودون التي هي أخص وهي إنسانية الحب.

ونرى في لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة في فصولها الثلاثة، لا يقول إنه فعل ما فعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله)، وقد تطابقوا^(١) جميعاً على هذه الكلمة، وهي من أدق ما في فلسفة

(١) تطابقوا: توافقوا.

الإنسانية في شِعْرِها ذلك، فإنَّ معناها أنَّ الرِّجَلَ في صالحِ عملِهِ إنَّما كانَ مُجاهداً
نفسه، يمتنعُ ما تحرصُ عليه من حظِّها أو لذِّتها أو منفعتها، أي منخلعاً من طبيعته
الأرضية المنازعة لِسواها، المنفردة بذاتها، متحقِّقاً بالطبيعة السماوية التي لا يرحمُ
اللهُ عبداً ألا بها، وهي رحمةُ الإنسانِ غيره، أي اندماجه باستطاعته وقوَّته،
وإعطاؤه من ذاتِ نفسه، ومعاونته كُفُّ أذاه.

والحديثُ كالنصِّ على أنَّ هذه الرحمة في النفسِ هي الدينُ عندَ الله، لا
يصلحُ دينٌ بغيرها، ولا يقبلُ اللهُ صِرْفاً ولا عدلاً من نفسٍ تخلو منها؛ وإذا
كانت بهذا المنزلة، وكانت أساساً ما يُفوضُ على الإنسانِ مِنَ الخيرِ والحقِّ،
فهي من ذلك في معنى الحديثِ أساسٌ ما يُصلحُ هذه الإنسانية من الشرِّ
والباطل؛ وبهذا كله تكونُ الغايةُ الفلسفية التي ينتهي إليها كلامُهُ ﷺ، أنَّ تنشئةَ
الناسِ على البرِّ والعفة والأمانة للإنسانية هي وحدها الطريقةُ العمليةُ الممكنةُ
لِحُلِّ معضلةِ الشرِّ والجريمة في الاجتماعِ البشريِّ. وأنظرُ كيف جعلَ نهايةَ
السموِّ في رحمةِ المالِ الذي يصفونه بأنَّه شقيقُ الرُّوح، فكأنَّ الإنسانَ لا يخرجُ
فيها لغيره من بعضِ ماله، بل ينخلعُ من بعضِ روحه؛ وهذا يُقرِّرُ لك فلسفةَ
أخرى: أنَّ السعادةَ الإنسانيةَ الصحيحةَ في العطاءِ دونَ الأخذِ، وأنَّ الزائفةَ هي
في الأخذِ دونَ العطاءِ؛ وذلك آخرُ ما أتتْهُ إليه فلسفةُ الأخلاقِ؛ فما الأمرُ إلا
ثمرةُ تنضجُ بموادِّها، حتى إذا نضجتُ وأخلوكتُ كانَ مظهرُ كمالِها ومنفعتِها في
الوجودِ أن تهبَ حلاوتها فإذا هي أمسكتِ الحلاوةَ على نفسها لم يكنِ إلا هذه
الحلاوةُ بعينها سببٌ في عَفْنِها وفسادِها من بعد. أفهمتُ؟ ..

وما دُمنا قد وصفنا رحمةَ المالِ، فإنَّنا نُنِمُّ الكلامَ فيها بهذا الحديثِ العجيبِ
في فنِّ تمثيلِهِ وبلاغةِ فنِّهِ: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ
يقول: مثلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ كمثلِ رجلينِ عليهما جُبَتانِ من حديدٍ، من ثديهما إلى
تراقيهما؛ فأما المُنْفِقُ فلا يُنْفِقُ إلا سِغْتاً^(١) أو وَفَرَتْ على جلدِهِ حتى تُخْفِيَ
بنائه^(٢) وتعفو أثره، وأما البَخِيلُ فلا يُريدُ أن يُنْفِقَ شيئاً إلا لَزَقَتْ كُلُّ حلقةٍ مكانها،
فهو يُوسِعُها فلا تتسع. انتهى.

فأنت ترى ظاهرَ الحديثِ، ولكنَّ فنَّه العجيبَ في هذا الحديدِ الذي يُرادُّ به

(١) سبغت النعجة: اتسعت.

(٢) بنائه: أصبعه.

طبيعة الخير والرحمة في الإنسان، فهي من أشدّ الطبائع جموداً وصلابةً وأستعصاءً متى أعترضتها حظوظُ النفس الحريضة وأهواءها، ومع ذلك فإنّ السخاء بالمال ييسطُ منها وينتهي في الطبع إلى أن يجعلها ليّنة، فلا تزال تمتدّ وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة، فمن ألزم^(١) نفسه الجود والإنفاق راضها^(٢) رياضةً عمليّةً كريضةً العُضَل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصّراع ونحوه؛ أمّا الشُّح^(٣) فلا يُناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدةً مستعصيةً لا تليّن ولا تستجيب ولا تتيسر.

وقد جعل العُجبة من ألثدي إلى التراقي، وهذا من أبدع ما في الحديث؛ لأنّ كلّ إنسانٍ فهو منفقٌ على ضروراته، يستوي في ذلك الكريم والبخل، فهما على قدر سواءٍ من هذه الناحية؛ وإنّما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحدّ، فهنا^(٤) ييسطُ الكريم بسطه الإنساني، أمّا البخل فيُريد^(٥) لأنّه إنسان، والإرادة علمٌ عقليّ لا أكثر، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكثرة فيما يُعانيه من يوسّع جبة من الحديد لزقت كلّ حلقة من حلقاتها في مكانها، فهي مستعصيةٌ متماسكة، فهو يوسّعها فلا تتسع.

ألا ترى كيف تتوجّه الحُجّة، وكيف تذق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه؟ وهل تحسب طبيعة البخل في دقائقها النفسيّة لو هي نطقت - بالغة من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفنّ وإبداعه؟ وهو بعد وصف لو نُقل إلى كلّ لغات الأرض لزانها جميعاً، ولكان في جميعها كالإنسان نفسه: لا يختلف تركيبه، فلن يكون بثلاثة أعين، لا في بلاد شكسبير ولا في بلاد الزنوج.

إنّ كلام نبينا ﷺ يجب أن يُترجم بفلسفة عصرنا وآدابه، فستراه حينئذٍ كأنما قيل مرةً أخرى من فم النبوة، وستراه في شرحه الفلسفي كالأزهار الناضرة: حياتها بشاشتها في النور؛ وتعرفه إنسانيّة قائمة تُصحح بها أغلاط الزمن في أهله، وأغلاط الناس في زمنهم؛ وتجده يرفّ على البشريّة المسكينة بحنان كحنان الأم على أطفالها، والناس الآن كالأطفال غابت أمهم، فهم في تنافر صبياني... وما الأم بطبيعتها إلاّ أُمّيزان لا استبدادهم، والحكمة لطيفهم، والآثلاف لتنافرهم^(٥)، والنظام لعبهم^(٦)؛

(١) ألزم: أجب.

(٢) راضها: مَرَّنها وعودها.

(٣) الشُّح: البخل.

(٤) ييسطُ الكريم: يمدّد المساعدة.

(٥) تنافرهم: تنايهم واختلافهم.

(٦) عبثهم: لعبهم.

وبالجملة فحنان قلبها الكبير هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة.

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته، ومعانيه الإنسانية، وأن الأديب ألتام أداة هو الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط، وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار - وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الإنسانية ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلى فوق، ثم إلى فوق، ودائماً إلى فوق.

فإذا تدبرت هذا المقال، وأعتبرت كلام النبي ﷺ على ما بينا وشرخنا، وأخذته من عصره ومن العصر الذي نعيش فيه، ونظرت إلى ألفاظه ومعانيه، وأستبرأت^(١) ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبهناك إليه من التأويل الذي مر بك، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك ألا بخاصة فيها، وأن سر جمالها في خاصتها - إذا جمعت ذلك لم تر مذهباً عن الإقرار بأن النبي ﷺ كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح، فهو أعظم أديب؛ لأن فنه الأدبي أعظم فمن يحقق للإنسانية حياة أخلاقها، وهو بكل ذلك أعظم إنسان. ﷺ.

فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثر تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج إليها الوجود الروحاني على هذه الأرض، ولذا ترى كلامه ﷺ يخرج من حدود الزمان، فكل عصر واجد فيه ما يقال له، وهو بذلك نبوة لا تنقضي، وهو حي بالحياة ذاتها، وكأنما هو لو ن على وجه منها كما ترى البياض مثلاً هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري...

فإذا نظرت في هذا الفن فانظره في حديثه، وفي عمله، وفي الدنيا التي ألفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام، ورد كل ما تدبرته^(٢) من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض؛ فلتعلم حينئذ أن كل بليغ هو شمعة مضيئة صنعت لها مادة النور نوراً وجمالاً، بجانب هذه الشمس التي خلقت فيها مادة النور نوراً وجمالاً وحياة وقوة؛ هناك نور لذي عينين، وهنا النور لكل ذي

(١) استبرأت: خلصت.

(٢) تدبرته: تدارسته.

عينين؛ وذاك يتخايل كالحلم، وهذا يفصح كالحقيقة؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دانية، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا؛ والأول نور بلا روح، والثاني هو روح النور.

تلك في رأينا هي الطريقة التي كان يفهمها بها أصحابه عليه السلام، كما يفهم الشاعر نور القمر في ليلة صيف بمعان من الزمان والمكان، ومن النفس والحالة، ومن الهيئة والشكل، ومن العين والفكر، ومن السماء والأرض؛ ففيه النور وزيادة، أي الحقيقة وما ترتفع به على نفسها؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة ألفن مع ألفن إعجاباً وخباً وأنقياداً وطاعة حتى أنخلعوا^(١) من عصرهم ودنياهم، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم، وأنجذبوا إليه أشدَّ أنجذاب عرفه التاريخ، وأصبحوا مصرفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص، وعادت أنفسهم وكأنَّ تأثير الأرض يلتقي فيها بتأثير السماء فيغسل في سحب عالية فلا يكون فيها كما يريدُه الناس، بل كما يريدُ الله؛ ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأياً ولا هوى، وكأنما وُضِعَ لها هذا الدين حرساً على كلِّ سمع وعلى كلِّ بصر؛ وبألجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النبي صلى الله عليه وآله فأفرغهم ثم ملأهم، وما أنتقلوا إلى منزلتهم العالية في التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة.

وناهيك من رجالٍ يُمثِّلُ لهم بهذا المثل الذي يضربُه لهم في الإيمان ليبلغوه أو يُقاربوه؛ فعن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال: شكَّونا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متوسدٌ بريدة له في ظلِّ الكعبة، قلنا: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجلُ فيمن قبلكم يحفرُ له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقُّ باثنين وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمة من عظم أو عصب وما يصدُّه ذلك عن دينه!

فانظر يا هذا، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشدُّ بعضها بعضاً فنزلت في عبارة من الكلام لتملاً نفوس المؤمنين بقوتها لما وضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار في عظم الإنسان الحي ولحمه. وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب، ولكن له باطناً أعجب من ظاهره، وهو البلاغة كلُّ البلاغة والبيان حقُّ البيان، فإنما يريدُ صلى الله عليه وآله أن الحديد لا يأكل ولا يمزع

(١) انخلعوا: خرجوا.

من أولئك الأقوياء بإيمانهم عَظْماً وَلَحْماً وَعَصَباً، بل هو حديد يأكل حديداً مثله أو أشد منه، فإنَّ للروح المؤمنة المسلَّطة على جسمها قوة تصنع هذه المعجزة، فيمرُّ الحديد في العظم واللحم والعصب يسلبها الحياة، ولكنها تسلبه شدته وجلده وصبره!

* * *

وكلُّ ما جاء من التمثيل في كلامه ﷺ ينطوي فيه من إبداع الفن البياني وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء، حتى لا تشك إذا أنت تدبرته بحقه من النظر والعلم أنَّ بلاغته إنما هي شيء كبلغة الحياة في الحي: هي البلغة ولكنها أبدع ممَّا هي، لأنها الحياة أيضاً.

وأنت خبير أنَّ هذا النبي الكريم ﷺ كانت تأخذه عند نزول الوحي عليه أحوالٌ وصفت في كتب الحديث: قالت عائشة - رضي الله عنها -: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم^(١) عنه وإنَّ جبينه ليتفصد^(٢) عرقاً وفي حديث آخر عنها قالت: فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء^(٣) حتى إنه ليتحدّر^(٤) عنه مثل الجمان^(٥) من العرق في يوم شات. وفي حديث زيد بن ثابت: فأنزل الله - عز وجل - على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرض^(٦) فخذي. وفي حديث يعلى بن أمية حين قال لعمر: أرني النبي ﷺ حين يُوحى إليه -: فأشار عمر إليّ، فجئت وعلى رأس رسول الله ﷺ ثوب قد أظلم به فأدخلت رأسي، فإذا رسول الله ﷺ محمرُّ الوجه وهو يغط^(٧)، أي يردّد نفسه من شدة ثقل الوحي. فهذه كلها أحوال تصف عمل الدماغ بكلِّ ما فيه من جهد أقوى العصبيّة؛ ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ويتركها لوعي الروح وحدها، لا يُشاركها في هذا الوعي فكر ولا هاجس^(٨)، ولا يتصل به شيء من حياة الحي، فيتحقّق للنبي ﷺ وجود آخر غير وجوده المحدود بجسمه وطباعه ودنياه؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبيّة الأرضيّة إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب؛ وبذلك يتلقّى عن روح الكون، ثم يفصم عنه وقد وعى ما أُوحى إليه. وما وصفه زيد بن ثابت من أن فخذه كاد أن تُرض - برهان قاطع على أن روحه ﷺ تنسرح من جسمه ساعة

(١) يفصم البرد: يقطع.

(٢) يتفصد عرقاً: يجري عرقه.

(٣) تُرضن: تحطم.

(٤) برحاء الحمى: شدتها.

(٥) الجمان: اللؤلؤ.

(٦) يغط: يغيب عن عالم المحسوسات.

(٧) يغط: يغيب عن عالم المحسوسات.

(٨) هاجس: ينهمر.

الوحي فيقلُّ الجسم، لآتُهُ إِنَّمَا يَخْفُ بِالرُّوحِ وَتَبْقَى وَظَائِفُ الْحَيَاةِ عَامِلَةٌ أَعْمَالُهَا بِغُسْرِ وَبُطْءٍ، لَا تَصَالِيهَا بِشِعَاعِ مَنْ أَلْرُوحُ دُونَ أَلْرُوحِ بِجَمَلَتِهَا؛ وَلَسْنَا هُنَا بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنِ الْوَحْيِ، فَلَهُ مَوْضِعٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي كِتَابِنَا (أَسْرَارُ الْإِعْجَازِ) وَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْتَهْيِئَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِذَلِكَ الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ لَهَا أَثَرُهَا الْعَظِيمُ فِي فَرْقِ بِلَاغَتِهِ ﷺ، وَبِهَا أَمْتَارٌ عَنِ كُلِّ بُلْغَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْمَلْهَمَ ^(١) مِنْ أَفْذَاذِ الْعَبْقَرِيِّينَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّمَا يُبْلَغُ مَا يَبْلُغُهُ بَعْضُ هَذَا الَّذِي رَأَيْتَ، وَفِي بَعْضِ هَذَا أَبَدُ مَا وَرَثَتِ الدُّنْيَا مِنْ فَنُونِ الْبَيَانِ، وَكَأَنَّ فِي الدِّمَاغِ مَادَّةً فِي مَوْضِعٍ مِنْهُ يُمَيِّزُ بَهَا مَنْ تَخْتَارُ هُمُ السَّمَاءُ لِحِكْمَتِهَا وَإِلْهَامِهَا، وَإِذَا كَانَ فَرْقُ الْعَبْقَرِيِّينَ هُوَ أَسْمَى الْكَلَامِ الْإِنْسَانِي، لِمَا خُصُّوا بِهِ مِنْ هَذِهِ الْتَهْيِئَةِ، فَإِنَّ فَتْنَهُ ﷺ يَكُونُ وَلَا جَرَمَ مِنْ بَابِ الْأَكْبَرِ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ فِي إِلْهَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا.

ولهذه القوةُ النادرةُ كَانَ بَيَانُهُ قَوِيًّا عَلَى مَزْجِ مَعَانِيهِ بِالنَّفْسِ بِمَا فِيهِ مِنْ صُنْعَةِ الْحَيَاةِ، وَإِنَّمَا فَلَسَفَةُ الْبَيَانِ ^(٢) الْفَنِيُّ أَنْ تَمْتَدَّ الْحَيَاةُ مِنَ النَّفْسِ إِلَى الْلَفْظِ، فَتَصْنَعُ فِيهِ صُنْعَهَا، فَتَفْصِلُ الْعِبَارَةَ الْفَنِيَّةَ عَنْ كَاتِبِهَا أَوْ قَائِلِهَا وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ كَلَامِهِ، لِتَسْتَحِيلَ عِنْدَ قَارِئِهَا أَوْ سَامِعِهَا قِطْعَةً مِنَ الْحَيَاةِ فِي صُورَةٍ مِنَ صُورِ الْإِدْرَاكِ؛ فَالْبَيَانُ الْفَنِيُّ هُوَ الْوَسِيلَةُ لِحَمَلِ الْوُجُودِ وَبِعَثَرَتِهِ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ، وَخَلْقِهِ خَلْقًا آخَرَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَبِذَلِكَ يُوَوَّلُ ^(٣) قَوْلُهُ ﷺ: إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ. جَعَلَ نَوْعًا مِنَ الْبَيَانِ هُوَ السِّحْرُ، لَا الْبَيَانُ كُلُّهُ، فَالْحَدِيثُ كَأَلَنْصُ عَلَى مَا تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ الْأَوْرَبِيَّةُ الْيَوْمَ (بِالْبَيَانِ الْفَنِيِّ)، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ مِنْ الْبَيَانِ فَنًا هُوَ سِحْرٌ مِنْ عَمَلِ النَّفْسِ فِي اللَّغَةِ تُغَيِّرُ بِهِ الْأَشْيَاءَ، وَلَهُ عَجَبُ السِّحْرِ وَتَأْثِيرُهُ وَتَصَرُّفُهُ؛ وَهَذَا مَعْنَى لَمْ يَتَنَبَّهَ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا يُذَكَّرُ مَعَهُ كُلُّ مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ، وَبِذَلِكَ التَّأْوِيلِ يَكُونُ هَذَا الْحَدِيثُ قَدْ أَحْتَوَى أَسْمَى حَقِيقَةِ فَلَسَفِيَةِ لِلْفَنِّ.

وَمِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْقُوَّةِ أَيْضًا مَا تَرَاهُ مِنْ شِدَّةِ الْوُضُوحِ فِي كَلَامِهِ ﷺ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ الْبَلَاغَةَ النَّبَوِيَّةَ الْعَجَبِيَّةَ قَانِمَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ هُوَ لَفْظُ الْحَقِيقَةِ لَا لَفْظُ اللَّغَةِ، فَالْعِنَايَةُ فِيهَا بِالْحَقَائِقِ، ثُمَّ الْحَقَائِقُ هِيَ تَخْتَارُ الْفَاطْهَاتِ اللَّغَوِيَّةَ عَلَى مَنَازِلِهَا؛ وَبِذَلِكَ يَأْتِي الْكَلَامُ كَأَنَّهُ نُطِقَ لِلْحَقِيقَةِ الْمَعْبَرِ عَنْهَا، وَالْكَلِمَةُ الْصَادِقَةُ تُنْطَقُ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ فَصُورَتُهَا

(١) تنفلت.

(٢) الملهم: الموهوب.

(٣) يووَّل: يفسر ويتحول.

اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضيء كأنما ألقى فيها النور.

وهو معلوم أنه ﷺ لا يتكلف ولا يتعمّل، ولم يكتب ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التنقيح^(١)، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان، أو كأن هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة، ففتها الجميل هو التركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشجر مثلاً كاسياً من ورقه وزهره؛ فانت منه بإزاء عمل جميل لأنك بإزاء حقيقة طبيعية قد انفردت في ذاتها، ومعنى انفردتها في ذاتها أنها كذلك هي، فليس فيها موضع لشيء غير ما هو فيها؛ ثم لا تنس أن النبوة أكبر السبب في ذلك الوضوح البياني العجيب؛ فإن الحياة لا تستغلّق في البلاغة بإنسان إلا وهي غنية عنه؛ ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة... ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحياناً هو نقص معناها إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشققون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ، فهنا البديع اللفظي؛ وهناك «البديع الفكري»، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة.

ومتى كان النبي قسماً من الحياة، بل مادة لمعانيها الجديدة، فلن يكون بيانه إلا على ما وصفنا لك جمالا، ووضوحاً ومنفعة ودقة وسمواً بقدر ذلك كله.

وهنا معنى نريد أن ننبّه إليه ونتكلّم في سرّه وحقيقته، فإنك تقرأ ما جُمع من الكلام النبوي فلا تُصيب فيه ما تُصيبه في بلاغة أدباء العالم ممّا فنه الكلام في المرأة، والحب، وجمال الطبيعة، وهو في بلاغة الناس كالقلب في الجسم: لا تخلو منه ولا تقوم إلا به، حتى تجد الكلام في المرأة وحدها شطر الأدب الإنساني، كما أن المرأة هي شطر الإنسانية، ولا يعرف له ﷺ في هذه الأغراض إلا كلمات بيانية جاءت بما يفوت الوصف من الجمال والدقة، متناهية في الحسن، طاهرة في الدلالة، يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر: كقوله في النساء: «رفقا بالقوارير»، وقوله لأسامة بن زيد، وقد كساه قبطية^(٢) فكساها أمرأته «أخاف أن تصف حجم عظامها». قال الشريف الرضي في

(١) التنقيح: التصحيح.

(٢) ضرب من الأردية المصرية.

شرح هذه الكلمة: وهذه استعارة، والمراد أن القبطية برقيها تلتصق بالجسم، فبين حجم الثدين، والرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والعضدين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء، حتى تكون كالأظاهرة للحظة، والممكنة للمس، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما استتر بها؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله: «إياكم ولبس القباطي»، فإنها إلا تشفّ تصف. فكان رسول الله ﷺ أبا عذرة هذا المعنى، ومن تبعه فإنما سلك فحّه.

قلنا: وهذا كلام حسن، ولكن في عبارة الحديث سراً هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد إليه الشريف، على أنه هو حقيقة ألفن في هذه الكلمة بخاصيتها، ولا نظراً أن بليغاً من بلغاء العالم يتأتى لمثله، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال: حجم عظامها، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالأدب، إذ ذكر «أعضاء» المرأة في هذا السياق، وبهذا المعرض، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث^(١)، ولفظة «الأعضاء» تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضي في شرحه، وهي توميء إلى صور أخرى من ورائها، فتتزعج النبي ﷺ عن كل ذلك، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة... وجاء بكلمة «العظام»، لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة، لا تقبل أن تلتوي، ولا تثير معنى، ولا تحمل غرضاً؛ إذ تكون في الحي والमित، بل هي بهذا أخص؛ وفي الجميل والقبيح، بل هي هنا أليق؛ وفي الشباب والهرم، بل هي في هذا أوضح. والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام، فالمجاز على ما ترى، والحقيقة هي ما علمت.

ومن كلماته في الوصف الطبيعي قوله ﷺ وهو يذكر أوقات الصلاة: «العصر إذا كان ظل كل شيء مثله، وكذلك ما دامت الشمس حية، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضي كواهل الليل» وكواهل الليل: أوائله وفروعه المتقدمة منه، كالذي يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بعض الأمتداد؛ وقوله وقد سأل رجل متى يصلي العشاء الآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا ملأ الليل بطن كل واد»؛ وقوله: «إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع»؛ وقوله: «إن رجلاً من أهل

(١) الرفث: هو ما يذو من الكلام.

الجنة استأذن ربّه في الزرع، فقال له: ألسنت فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع. قال: فبذر فبذر الطرف نباته وأستواؤه وأستحصاده فكان أمثال الجبال». وقوله: «بيننا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها ثم خرج، فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي! فملاً خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي^(١) فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر».

فهذا ونحوه من ألفن البديع النادر، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه ﷺ إلا في مثل ما رأيت، فلا يراذ منه استجلاب العبارة، ولا صناعة الخيال، فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلوا البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب، دليل على ما ينكره أو يستجفيه^(٢)، ويقول: بداوة وسذاجة ونحو ذلك مما تشبهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا؛ وإنما اتفنى ذلك عن النبي ﷺ لانتفاء الشغل عنه وكونه لا ينبغي له كما بسطناه في موضعه؛ فعمله أن يهدي الإنسانية لا أن يزين لها، وأن يدلها على ما يجب في العمل، لا ما يحسن في صناعة الكلام، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به، لا إلى ما تتخيله لتلهو به. والخيال هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال والتأثر به فقط، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقة ثابتة، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة.

ثم هو ﷺ ليس كغيره من بلغاء الناس: يتصل بالطبيعة ليستملي منها؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليُملي فيها، وقد كانت آخر ابتسامته له في الدنيا ابتسامته للصلاة يتהלّل لطهارة النفس المؤمنة وجمالها قائمة بين يدي خالقها، منسكباً في طهارتها روح النور، وكل إنسان إنما يبدو الكون في عينه على ما يرى مما يشبه ما في نفسه، فكل ما رآه المصلي الخاشع في صلاته يبدو له كأنه يصلي في ضرب من العبادة على نحو من الدين، وكل ما رآه السكران في سكره يكاد يراه متخبطاً يعربد ما يماسك!

ثم إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية، إنما هو باب من الأحلام؛ إذ لا بد فيه من عيني شاعر، أو نظرة عاشق؛ وهنا نبي يوحي إليه، فلا موضع للخيال في أمره، إلا ما كان تمثيلاً يراذ به تقوية

(٢) يستجنيه: يجده قاسياً جافياً.

(١) رقي: صعد.

الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يُعرض من باب الإرشاد والموعظة، كما مرَّ بك من أمثليته، وكقولِه ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذَنْبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ!» وهذا كلامٌ أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النفسُ الفاجرةُ بإحساسِها الرقيق، كأنَّه حاسَّةٌ مِنَ النورِ كُبَّتْ في شعورها، وتلك النفسُ الفاجرةُ بإحساسِها الغليظ، كأنَّه حاسَّةٌ مِنَ التراب... .

ويكادُ المؤمنُ الذي يسمعُ هذا الوصفَ يذكُرُهُ ذَنْبَهُ - أَنْ يُحَسَّ بِحَرَكَةِ جَبَلٍ يَهُمُّ أَنْ يَنْقَلَعَ فَيَمِيلُ عَلَيْهِ، أَمَّا الْفَاجِرُ فَيَسْمَعُهُ يُذَكِّرُهُ ذَنْبَهُ فَإِذَا هِيَ فِي خِيَالِهِ نَقْطٌ سَوْدٌ تَمُرُّ مَروراً أَلَذَّاباً، لَيْسَ مِنْهُ الْجِسُّ بِهِ، كَمَا يُحَسُّ مَنْ يُضْرَبُ عَلَى أَنْفِهِ بِرَجْلِ ذَبَابَةٍ... . وَجَعَلَ الْأَذْبَابَ يَمُرُّ عَلَى أَنْفِهِ دُونَ عَيْنِهِ أَوْ فِيهِ، وَذَلِكَ مَتَهَى الْجَمَالِ فِي التَّصْوِيرِ، لِأَنَّ الْأَذْبَابَ إِذَا وَقَعَ عَلَى الْفَمِ أَوْ الْعَيْنِ ثَبَتَ وَالْح، فَإِذَا وَقَعَ عَلَى قَصْبَةِ الْأَنْفِ لَمْ يَكْذُ يَقِفُ وَمَرَّ مَروره.

الكَوْنُ فِي نَظَرِ النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الْحِكْمَةِ لَا آيَةُ الْفَنِّ، وَمَنْظَرُ الْمُسْتَنِقِينَ لَا مَنْظَرُ الْمُتَخِيلِ، وَمَادَةُ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ لَا مَادَةُ النَّالَةِ لِلْإِنْسَانِ، وَبِذَلِكَ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ أَشْيَاءَ وَكَرِهَ أَشْيَاءَ لَا يَكُونُ الْفَنُّ بغيرِهَا فَنّاً، فِي ضُرُوبٍ مِنَ الشَّعْرِ وَالتَّصْوِيرِ وَالمُوسِيقَى وَالْحُبِّ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْظَرُ لِلْإِنْسَانِ وَاحِداً وَجَمْعاً، وَحَاضِراً وَآتِياً؛ وَوَاجِباً وَمَنْفَعَةً، وَلَذَّةً وَالْمَا؛ وَهَذِهِ كُلُّهَا لَا إِطْلَاقَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْقَيْدِ، عَلَى حِينِ أَنَّ الْفَنَّ لَا قَيْدَ فِيهِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْإِطْلَاقِ، وَأَسَاسُ الدِّينِ حُظُّ الْجَمَاعَةِ وَقِيودُهَا، وَأَسَاسُ الْفَنِّ الْفَرْدُ وَحَرِيَّتُهُ؛ وَهَذِهِ الْحَيَاةُ لَا تَبْدُو فِي حَالَةِ تَرْكِيبٍ وَانْتِظَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لِلْكَوْنِ، فَإِذَا كَانَتْ لِفَرْدٍ ظَهَرَتْ فِي هَيْئَةِ انْحِلَالٍ وَانْتِفَاضٍ، وَأَصْبَحَتْ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ كَأَنَّهَا عَمْرُ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ.

ثُمَّ إِنَّ لِلْفَنِّ أَلْوَاناً لَا بُدَّ مِنْهَا لِتَصْوِيرِهِ الْجَمِيلِ الَّذِي تُعْجِبُ بِهِ النَّفْسُ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ أَلْوَنُ الْأَحْمَرُ فِيهَا... . أَيُّهُ أَسْهَدُهَا زَهواً وَإِشْرَاقاً وَجَمَالاً فِي التَّصْوِيرِ الْفَنِّيِّ لِكُلِّ مَا فِي الْمَرْأَةِ وَالْحُبِّ وَالْجَمَالِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَلَسْنَا نُذَكِّرُ أَنَّ الْحَيَاةَ الْقَوِيَّةَ حِينَ تَمَازُجُهَا هَذِهِ الْفَنُونُ تَكْسِبُ مَرَحاً وَنَشَاطاً وَيَكُونُ لَهَا رَوْنَقٌ، وَفِيهَا مَتَاعٌ؛ وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ بِهَا كَذَلِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهَا تَحْتَسِي (١) خَمَرَهَا... . فَلَهَا بَعْدُ مِنْ عَاقِبَةِ هَذِهِ الْفَنُونِ شَبِيهَةٌ بِمَا يَكُونُ لِلْجَسْمِ الْقَوِيِّ مِنْ عَاقِبَةِ الْخَمْرِ إِذَا

(١) تحتسي: تشرب قليلاً قليلاً.

تغلغلت الخمر في شِعَابِ كبدِهِ وأحاطت رطوبتها يابسة، كما وقع في أطوار كثيرة من تاريخ الأمم؛ فليس أَلَا عِتَابُ في هذا التَّشْبِيهِ بما يعرض من تأثير السَّاعَةِ الزَّائِلَةِ بأفراجها وفنِّ حياتها، بل الشَّأْنُ لِلْعَاقِبَةِ الْمُحْتَمَةِ متى جاءت سَاعَتُهَا أَلْبَاقِيَةُ بِأَحْزَانِهَا وفنِّ هَلَاكِهَا، فَالْإِسْلَامُ فيما حَرَّمَ وَكَرَّهَ من ذلك لم يزد على أَنْ أَرَادَ لِلْحَيَاةِ أَنْ تحيا، لِأَنَّهُ لَا يُقَرُّ صُورَةٌ من صُورِ أَنْتَحَارِهَا.

وَمَنْ كَانَ أَكْبَرَ عَمَلِهِ إِنْشَاءُ الْحَقَائِقِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَقْرِيرُهَا شَرِيعَةً وَعَاطِفَةً وَأَعْمَالًا، فَلَا جَرَمَ كَانَ فَتْنُهُ غَيْرَ الَّذِي أَكْبَرَ عَمَلِهِ تَمْوِيَةُ تِلْكَ الْحَقَائِقِ وَزَخْرَفَتُهَا لِيَقَعَ الْإِحْسَاسُ بِهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، فَتَخَفَّ بِالْوَاقِعِ مِنْهَا عَلَى الْنَفْسِ خِيفَةُ الْكَذِبِ فِي سَاعَةِ تَصْدِيقِهِ وَهَذَا هُوَ أَكْبَرُ عَمَلِ الشَّعْرِ.

وَهُنَا سِرٌّ دَقِيقٌ لَا يَتِمُّ كَلَامُنَا إِلَّا بِشَرْحِهِ، لِنَقْطَعَ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَيُظْهِرُ حَقُّهُ مِنْ بَاطِلِهِ قُلْنَا أَنْفَأَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ: يَتَّصِلُ بِالطَّبِيعَةِ يَسْتَمْلِي مِنْهَا، بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمُضَدِّرِهَا الْأَزَلِيِّ لِيُمْلِيَ فِيهَا. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَعْرُضُ لَهُ مِنْ زَيْغِ الْنَفْسِ مَا يَعْرُضُ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، فَأَحْكُمُ خُكْمَاءَ الدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَبَيَّنَ جُزْءٌ صَغِيرًا مِنَ الْكَوْنِ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ إِذْ كَانَتْ حَوَاسُّ الْجِسْمِ غَيْرَ مُهَيَّاءَ لِذَلِكَ، فَفَهُمْ جُزْءٌ مِنَ الْكَوْنِ فَهَمَّا صَادِقًا جُزْمًا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِفَهْمِ الْكَوْنِ بِأَجْمَعِهِ، فَهُوَ كُلُّهُ ذَرَّةٌ مَكْبَرَةٌ إِلَى مَا لَا يَنْتَهِي وَلَا يُحَدُّ، وَلَيْسَتْ النَّبُوءَةُ شَيْئًا غَيْرَ الْإِتِّصَالِ بِالْكَسْرِ.

وَالْحَاضِرُ الَّذِي يَكُونُ فِي إِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ، هُوَ حَاضِرٌ لَيْسَ غَيْرُ، لِأَنَّهُ يَتَحَوَّلُ وَيَفْنَى، فَهُوَ مِنَ الزَّيْغِ الَّذِي يَعْتَرِي الْنَفْسَ، وَمِنْهُ كُلُّ أَغْرَاضِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ الْفَانِيَةِ، وَلِهَذَا كَانَ طَابِعُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ هُوَ تَجْرِيدُهُ مِنْ زَيْغِ الْهَوَى (١) وَسَرَفِ الطَّبِيعَةِ، فَهُوَ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ مَتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -، وَلَهُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ وَلَا يُطِيقُهُ أَحَدٌ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ سِيرَتَهُ وَشَمَائِلَهُ وَحَدِيثَهُ أَنْ يَبْحَثَ دَائِمًا عَنْ طَابِعِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا، فَإِنَّهُ سِيرَى حِينْتِذِ كَانَهُ يَدْرُسُهَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ لَا مَعَ النَّاسِ، وَسَيُظْهِرُ لَهُ مِنْ تَفْسِيرِهَا أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ غَايَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةَ الْعُلْيَا إِلَّا فِيهَا، وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا، وَكَانَ أَيْضًا حَرَكَةً فِي تَقْدُمِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَأَنَّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ أَنَّهُ أَطَاقَ فِي تَارِيخِهِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْبَشَرِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا، وَأَنَّ كُلَّ أَمْرِهِ

(١) زَيْغُ الْهَوَى: مِيلُهُ.

ﷺ موضوعة وضعا إلهيا كأنها صفات كونها الله وعلقها في التاريخ لمعاني الحياة، تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة.

إن الشهوات والمصالح إنما هي حصر النفس في جانب من الشعور محدود بلذات وهموم وأحاسيس تجعل غرض الإنسان في الإنسان نفسه، فهو كما يملأ معدته ويتأنق في الاختيار لها، يريد من كل ذلك أن يملأ شخصه على هذه الطريقة بعينها، طريقة إشباع معدته . . . وبهذا تسخر منه حقائق الكون، لأنها لا تحد بشخص، ولا تنحصر في أحد، وكل من كانت حدوده الإنسانية جسمه ولذات جسمه، فهو في مقدار هذا الكون كالमित المحدود من الأرض كلها بقبره وتراب قبره؛ وإنه ليجد جسمه وأكاذيب الطبيعة عليه، ولكنه لن يجد أرواح وحقاتها؛ وإذا لم يجد هذه فلن يعرف الكون وأسراره؛ وإذا فقد هذا فهو الحاضر الضيق المشوه المكذوب، ومن ثم ففته شهوة إحساسه وإن كان مخدوعا، وشهوة نظره وإن كان ملبسا عليه، وشهوة خياله، وإن كان التمويه والمزور والحاضر الضيق المشوه المكذوب الخادع هو المسمى في لغة القرآن والحديث «بالدنيا»؛ فإذا اتسع الإنسان لروحه وأدرك حقيقتها، ووعى ما بينها وبين الكون؛ وأخذ يحقق هذه الأرواح السماوية في أعماله، وتخطى حدود جسمه إلى فكرة الخلود؛ فهذا كله هو المسمى في لغة القرآن والحديث «بالآخرة»؛ فهما كلمتان في منتهى الإبداع من الفن والفلسفة؛ وعلى ذلك يؤول قوله ﷺ في خطبته: مَنْ كَانَ هُمُّهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة^(١)؛ وَمَنْ كَانَ هُمُّهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ اللَّهُ أَمْرَهُ وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ.

وأنت إذا فسرت هذه الكلمات بما وصفنا لك ووجهتها على ذلك التأويل، رأيت عجائب معانيها لا تنقضي، وأدركت سير قوله ﷺ: «إني على علم من الله علمتيه» فأتساع الذات الإنسانية ومادتها لحقائق الكون، يجعل الإنسان كالكون نفسه، مجتمعاً غير مفرق على هموم الحياة؛ ويجعل الغنى معنى لا مادة؛ ولو أمتلك إنسان من الناس كل ما طلعت عليه الشمس، وكان له كنز في المشرق وكنز في المغرب، لما بلغ شيئا قليلا من لذة هذا المعنى في قلبه؛ وفي هذه الحالة تصبح الدنيا العريضة التي يهلك الناس في تحصيلها وليست إلا ضرورة صغيرة، قد

(١) راغمة: ذليلة، خاضعة.

تكون في ثوب ولقيمات ونحوها مما لا خطر له، وهذا هو إرغامها وهي مالكة المملوك، فإذا ضاق الإنسان عن روحه أصبحت النفس كالمُنخل يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيمسكه كله ولا يمسك منه شيئاً، وُضِعَ بين عينيها معنى الفقر، فهي تعمل أبداً لتمدليء، ولا تمتليء أبداً؛ وإذا كان المنخل متخذاً على الطريقة التي صُنِعَ بها، فققره ولا جرم معلق عليه من ذات تركيبه. «أفهمت»؟

ولما كان النبي ﷺ متساوفاً^(١) مع الحقيقة، متصلاً بها، محدوداً بربه لا بنفسه، كان لذلك خارجاً من حاضر ما نحن فيه، مُمتداً بِمَعْنَاهُ الْإِنْسَانِي الْكَامِلِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي وراء الحياة، فما نحصره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء لا يلتفت هو إليه بطبيعته؛ ومن ذلك أوصاف الغنى والجلية والنعيم والمتاع والجمال والمطعم والمشرّب، وما داخل الطبيعة من مثل معانيها، وما جرى هذا المجرى، فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطعم فيه؛ إذ كان ضعف إدراكهم وضيق وعيهم مما يبدع لهم أكاذيب الخيال، فتجىء من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم؛ أما النبي ﷺ فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه؛ إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة إلا أعلى النظريّن وأطهرهما، فأخر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أول إدراكه هو الطبيعة والحقيقة، وما تعجز عنه الإنسانية تبدأ منه النبوة.

وعلى هذا فإن من أقوى البراهين على كماله ﷺ ونبوته واتساع روحه ونفاذ إدراكه لحقائق الوجود - أنه لم يتبسّط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء، ولم يأخذ مأخذهم فيها؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين.

وفي قانون الحقيقة أن الأشياء هي كل الأشياء وهي كما هي، أما في قانون الكذب فالأشياء كلها هي ما تختاره أنت منها، وكما تختاره.

بحسب الدنيا من جمال فته ﷺ ما يُضيف إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة، ويدفع الإنسانية في طريقها الواحد الذي هو بين الأب والأم، طريق الأخ إلى أخيه، يكون في الدنيا بين الرجلين كما هو في الدّم بين القلبين رحمة ومودة؛ وبحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدي الإنسان إلى حقيقة نفسه؛ فيقره في الحقيقي من وجوده الإنساني؛ ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب؛ يكبر بها، ثم يكبر، ثم لا يزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى: الله أكبر.

(١) متساوفاً: منسجماً.

قرآن الفجر

كنْتُ في العاشرة من سَنِي وقد جمعتُ القرآنَ كُلَّهُ حِفْظاً وَجَوْدَةً بِأحكامِ الْقِرَاءَةِ؛ ونحنُ يومئذٍ في مَدِينَةِ (دمنهو) عاصمةِ الْبَحِيرَةِ؛ وَكَانَ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَبِيرَ الْقَضَاةِ الشَّرْعِيِّينَ فِي هَذَا الْإَقْلِيمِ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّفُ كُلَّ سَنَةٍ فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ الْأَخِيرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ؛ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَبْرُحُهُ^(١) إِلَّا لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ بَعْدَ أَنْقِضَاءِ^(٢) الصَّوْمِ؛ فَهَنَّاكَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَتَّصِلُ بِمَعْنَاهُ الْحَقِّ، وَيَنْظُرُ إِلَى الزَّائِلِ بِمَعْنَى الْخَالِدِ، وَيُطِلُّ عَلَى الدُّنْيَا إِطْلَالَ الْوَاقِفِ عَلَى الْأَيَّامِ الْكَاسِرَةِ وَيَغْيُرُ الْحَيَاةَ فِي عَمَلِهِ وَفِكْرِهِ، وَيَهْجُرُ تَرَابَ الْأَرْضِ فَلَا يَمْشِي عَلَيْهِ، وَتَرَابَ الْمَعَانِي الْأَرْضِيَّةِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ، وَيَدْخُلُ فِي الزَّمَنِ الْمُتَحَرَّرِ مِنْ أَكْثَرِ قِيُودِ النَّفْسِ، وَيَسْتَقِرُّ فِي الْمَكَانِ الْمَمْلُوءِ لِلْجَمِيعِ بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ؛ ثُمَّ لَا يَرَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا هَذَا النَّوْعَ الْمُرْتَبَّ أَلْرُوحَ بِالْوُضُوءِ، الْمَدْعُوَّ إِلَى دُخُولِ الْمَسْجِدِ بِدَعْوَةِ الْقُوَّةِ السَّامِيَةِ، الْمُنْحَنِيَّ فِي رُكُوعِهِ لِيَخْضَعَ لِغَيْرِ الْمَعَانِي الدَّلِيلَةِ، الْمَسَاجِدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ لِيَدْرِكَ مَعْنَى الْجَلَالِ الْأَعْظَمِ.

وَمَا هِيَ حِكْمَةُ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ الَّتِي تُقَامُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ؟ إِنَّهَا أَمْكِنَةٌ قَائِمَةٌ فِي الْحَيَاةِ، تُشْعِرُ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ فِي نِزَاعِ الدُّنْيَا أَنَّهُ فِي إِنْسَانٍ لَا فِي بَهِيمَةٍ...

وذهبتُ لَيْلَةً فَبِثْتُ عِنْدَ أَبِي فِي الْمَسْجِدِ؛ فَلَمَّا كُنَّا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ أَيْقَظَنِي لِلْسَّحُورِ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَتَوَضَّأْتُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَى قِرَاءَتِهِ؛ فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ الْأَعْلَى هَتَفَ بِالْأَدْعَاءِ الْمَأْثُورِ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ بَهَاءُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ زِينُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ؛ أَنْتَ الْحَقُّ وَمَنْكَ الْحَقُّ... إِلَى آخِرِ الْأَدْعَاءِ.

وَأَقْبَلَ النَّاسُ يَتَابَعُونَ^(٣) الْمَسْجِدَ، فَانْحَدَرْنَا مِنْ تِلْكَ الْعَلِيَّةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا الدُّكَّةَ

(٣) يتابعون: يدخلون.

(٢) انقضاء: انتهاء.

(١) يبرحه: يخرج منه.

وجلسنا ننتظر الصلاة. وكانت المساجد في ذلك العهد تُضاء بقناديل الزيت، في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبص^(١) بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه؛ فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجوّ، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسرارهُ الجميلة، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يوميء إليه ولا يُبينه، فما تشعرُ النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سيرٌ يشف عن سير.

وكان لها منظرٌ كمنظر النجوم يتم جمال الليل بالقائه الشعل في أطرافه العليا والباس الظلام زينتُهُ النورانية؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد؛ وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد، فتعتربه حالة روحانية يستكين فيها للقدّر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه، مجتمعاً في حواسه، منفرداً بصفاته، منعكساً عليه نور قلبه؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار، أو كأن الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض.

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغيب عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء، شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنصر من يئس، ويرق من غلظة. وكأنما جاؤوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتوحاً بالجمال؛ فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور السماوي بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روجه تحت الفجر.

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم في مناظرها من الفلك، وتلك السرج^(٢) ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب، والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه وقد استبهمت الأشياء في نظير العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس، فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل.

لا أنسى أبداً تلك الساعة. وقد أبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم، يشق سُدفة^(٣) الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل:

(١) يبص: ينير. (٢) السرج: مفردة سراج وهو القنديل. (٣) سُدفة: ظلمة

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ
خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المُطرب؛ فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمرى وهو ينوح في أنغامه، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز بجوابها بأسلوبه في جمال التغريد.

كان صوته على ترتيب عجيب في نعماته، يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن أعتراه الفرح على فجأة؛ يصيح الصيحة ترجح في الجوّ وفي النفس، وتردد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيزفئ عليها بمثل الندى، فإذا هي ترف رفيفاً، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل.

وسمِعنا القرآن غصاً طرياً كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه.

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم - سبحانه وتعالى - في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور!

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محييت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية.

أما الطفل الذي كان في يومئذ فكأنما دعي بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء فيه من بعد؛ فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت: ادع إلى سبيل ربك؛ وأنا في كل ضائقة أخضع لهذا الصوت: وأصبر وما صبرك إلا بالله!

اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال

ليست حقيقة الأمة في هذا الظاهر الذي يبدو من شعب مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه؛ ولكن تلك الحقيقة هي الكائن الروحي المكتن في الشعب، الخالص له من طبيعته، المقصور عليه في تركيبه كعصير الشجرة: لا يرى عمله والشجرة كلها هي عمله.

وهذا الكائن الروحي هو الصورة الكبرى للنسب في ذوي الوشيجة من الأفراد، بيد أنه يحقق في الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض؛ فيجعل للأمة شأن الأسرة، ويخلق في الوطن معنى الدار، ويوجد في الاختلاف نزعة التشابه، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة، ويدع للأمة شخصيتها المتميزة، ويوجب لهذه الشخصية بإزاء غيرها قانون التناصر والحمية؛ إذ يجعل الخواطر مشتركة، والدواعي مستوية، والنوازع متازرة؛ فتجتمع الأمة كلها على الرأي: تتساند له بقواها ويشد بعضها بعضاً فيه؛ وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع في كلمة الأمة معناها.

والخلق القوي الذي ينشئه للأمة كائنها الروحي، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه، إذ يعمل في الحيز الباطن من وراء الشعور، متسلطاً على الفكر، مُصرفاً لبواعث النفس؛ فهو وحده الذي يملأ الحي بنوع حياته، وهو طابع الزمن على الأمم، وكأنه على التحقيق وضع الأجداد علامتهم الخاصة على ذريتهم.

أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه؛ فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة؛ والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها هو عمق الروح ودليل الجس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعِلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطموحها،

فإنَّ رُوحَ الاستعبادِ ضيقٌ لا يتَّسعُ، ودأبه^(١) لزومُ الكلمةِ والكلماتِ القليلةِ .

وإذا كانتِ اللغةُ بهذهِ المنزلةِ، وكانتِ أمَّتُها حريصةً عليها، ناهضةً بها، مُتَّسعةً فيها، مُكَبَّرةً شأنها، فما يأتي ذلكِ إلَّا من رُوحِ التسلُّطِ في شعبها والمطابقةِ بينَ طبيعتهِ وعملِ طبيعتهِ، وكونهِ سيدَ أمره؛ ومُحقِّقَ وجوده، ومستعملَ قوَّتهِ، والآخذُ بحقِّه؛ فأما إذا كانَ منه التراخي والإهمالُ وتركُ اللغةِ للطبيعةِ السوقيَّةِ، وإصغارُ أمرها، وتهوينُ خطِّرها^(٢)، وآثارُ^(٣) غيرها بِالْحُبِّ والإكبار؛ فهذا شعبٌ خادِمٌ لا مخدوم، تابعٌ لا متبوع، ضعيفٌ عن تكاليفِ السيادةِ، لا يطيقُ أنْ يحملَ عِظَمَ ميراثه، مُجتزئٌ ببعضِ حقِّه، مُكتَنِفٌ بضروراتِ العيشِ، يُوَضِّعُ لِحكمِهِ القانونَ الَّذي أَكثَرُهُ لِلْجِرمَانِ وأقلُّهُ لِلْفائدةِ الَّتِي هِيَ كَالْجِرمَانِ .

لا جَرَمَ كانتِ لُغةُ الأُمَّةِ هِيَ الِلهْدَفُ الأوَّلُ لِلْمستعمرين؛ فلنْ يتحوَّلَ الشَّعبُ أوَّلَ ما يتحوَّلُ إلَّا من لُغتهِ؛ إذ يَكونُ منشأُ التَّحوُّلِ من أَفكارِهِ وعواطفِهِ وآمالِهِ، وهو إذا انقطعَ من نَسَبِ لُغتهِ انقطعَ من نَسَبِ ماضِيهِ، ورجعتِ قوميَّتهُ صورةً محفوظةً في التاريخ، لا صورةً مُحَقَّقةً في وجوده؛ فليسَ كَاللُّغةِ نَسَبٌ لِلْعاطفةِ وَالْفكرِ؛ حتَّى إِنَّ أبنَاءَ الأَبِ الواحدِ لو اختلفَتِ ألسنتُهُم فنشأَ منهم ناشيءٌ على لُغةٍ، ونشأَ الثاني على أُخرى، والثالثُ على لُغةٍ ثالثةٍ، لكانوا في العاطفةِ كأبنائِ ثلاثةِ آباءَ .

وما ذلَّتْ لُغةُ شعبٍ إلَّا ذَلٌّ، ولا انحطَّتْ إلَّا كانَ أمرُهُ في ذهابٍ وإذْبارٍ؛ ومن هذا يفرضُ الأجنبيُّ المُستعمرُ لُغتهُ فرضاً على الأُمَّةِ المُستعمَرةِ، ويركِبُهم بها، ويُشعرُهُم عِظَمَتَهُ فيها، وَيَسْتَلْجِحُهُم من ناحيتها؛ فيحكمُ عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحدٍ: أمَّا الأوَّلُ فحبسُ لُغَتِهِم في لُغتهِ سِجْناً مُؤَبَّداً؛ وأمَّا الثاني فَالْحُكْمُ على ماضِيهِم بِالْقَتْلِ مَحَوًّا ونِسياناً؛ وأمَّا الثالثُ فتقييدُ مستقبلِهِم في الأغلالِ^(٤) الَّتِي يصنَعُها؛ فَأمرُهُم من بَعْدِها لِأمرِهِ تَبَعٌ .

والَّذينَ يتعلَّقونَ اللُّغاتِ الأجنبيَّةَ ينزِعونَ إلى أَهلِها بطبيعةِ هذا التعلُّقِ، إنْ لم تكنْ عصبِيَّتُهُم، لِليغَتِهِم قوَّةٌ مُستَحِكِمَةٌ من قِبَلِ الدِّينِ أوِ القوميةِ؛ فتراهُم إذا وهَّنتْ فيهِم هذهِ العصبِيَّةُ يَخجلونَ من قوميَّتِهِم، ويتبرَّؤونَ من سَلَفِهِم وينسَلِخونَ من تاريخِهِم، وتقومُ بأنفسِهِم الكراهَةُ لِللُّغَتِهِم وأَدابِ لُغَتِهِم، ولِقوميَّهِم وأشياءِ قوميَّهِم؛

(١) دأبه: عادته .

(٣) إيثار: تفضيل .

(٢) خطرها: أمرها وأهميتها .

(٤) الأغلال: السلاسل .

فلا يستطيع وطنهم أن يوجي إليهم أسرار روحه؛ إذ لا يوافق منهم استجابة في الطبيعة، وينقادون بالحب لغيره، فيتجاوزونه وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم، ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبي؛ ومن ثم تُصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها، وبالخيال المتوهم فيها لا بالحقبة التي تحملها؛ فيكون شيء أجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن، لأن إليه الميل وفيه الأكرام والإعظام؛ وقد يكون الوطني مثله أو أجمل منه، بيد أنه فقد الميل، فصعقت صلته بالنفس، فعادت كل مميزات فضعفت لا تميزه.

وأعجب من هذا في أمرهم، أن أشياء الأجنبي لا تحمل معانيها الساحرة في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملة أسماء الأجنبيّة، فإن سُمي الأجنبي بلغتهم القومية نقص معناه عندهم وتصارَع وظهرت فيه ذلة... وما ذاك إلا صغر نفوسهم وذلتها، إذ يتتخون لقوميتهم فلا يُلهمهم الحرف من لغتهم ما يُلهمهم الحرف الأجنبي.

والشرق مبتلى بهذه العلة، ومنها جاءت مشاكله أو أكثرها؛ وليس في العالم أمة عزيزة الجانب تُقدّم لغة غيرها على لغة نفسها، وبهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبيّة موضعاً إلا من وراء حدود الأشياء الوطنية؛ ولو أخذنا - نحن الشرقيين - بهذا، لكان هذا وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا.

فاللغات تتنازع القومية، ولهي - والله - احتلال عقلي في الشعوب التي ضعفت عصبيتها؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغة الأجنبيّة في الخلُق القومي ما يؤثر الجو الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه.

أمّا إذا قويت العصبية، وعزت اللغة، واثارت لها الحمية؛ فلن تكون اللغات الأجنبيّة إلا خادمة يرتفق بها^(١)، ويرجع شبر الأجنبي شبراً لا متراً... وتكون تلك العصبية للغة القومية مادة وعوناً لكل ما هو قومي؛ فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبية، هي قوة الإيمان بالمجد الوطني وأستقلال الوطن؛ ومتى تعين الأول أنه الأول، فكل قوى الوجود لا تجعل الذي بعده شيئاً إلا أنه الثاني.

والدين هو حقيقة الخلُق الاجتماعي في الأمة، وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية عالية ونازلة وما بينهما؛ فهو بذلك

(١) يرتفق بها: تصبح رديفة.

الضمير القانوني للشعب، وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية، وفيه لا في سواه معنى إنسانية القلب.

ولهذا كان الدين من أقوى الوسائل التي يعول^(١) عليها في إيقاظ ضمير الأمة، وتنبية روجها، وأهتاج خيالها؛ إذ فيه أعظم السلطة التي لها وحدها قوة الغلبة على الماديات؛ فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته؛ ومتى قوي هذا السلطان في شعب، كان حميماً أيتاً، لا تُرغمه قوة، ولا يعنو للقهَر.

ولولا الدين بالشرعية؛ لما استقامت طاعة للقانون في النفس؛ ولولا طاعة النفسية للقوانين؛ لما انتظمت أمة؛ فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحي في فضائل الحياة؛ وتعيين تبعته في حقوقها وواجباتها، وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير، ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل، ودائماً نحو الأكمل.

وكل أمة ضَعُف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية وماج بعضها في بعض؛ فإن من دقيق الحكم في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض، وذلك لتنظيم الغايات الأرضية في الناس فلا يأكل بعضهم بعضاً؛ فيغتنى الغني وهو آمن، ويفتقر الفقير وهو قانع، ويكون ثواب الأعلى في أن يعود على الأسفل بالمبرة، وثواب الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة، التي لا يكبر عليها الكبير، ولا يصغر عنها الصغير؛ وهي الحق، والصّلاح، والخير، والتعاون على البرِّ والتقوى.

وما دام عمل الدين هو تكوين الخلق لأثبت الدائب في عمله، ألمعتز بقوته، المظمئن إلى صبره، النافر من الضعف، الأبى على الذل، الكافر بالاستعباد، المؤمن بالموت في المدافعة عن حوزته، المجزي بتساميه وبذله وعطفه وإثاره ومفاداته، العامل في مصلحة الجماعة، المقيّد في منافع بواجباته نحو الناس - ما دام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق - فيكون الدين في حقيقته هو جعل الحس بالشرعية أقوى من الحس بالمادة؛ ولعمري ما يجد الاستقلال قوة هي أقوى له وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفوس الأمة وأنطبع عليه.

وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبها أن بشرف وتسود وتعتز، يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذلل.

(١) يعول: يعتمد عليها.

وبتلك الأصول العظيمة التي ينشئها الدين الصحيح القوي في النفس، يتهياً النجاح السياسي للشعب المحافظ عليه المنتصر له؛ إذ يكون من خلال الطبيعية في زعمائه ورجاله الثبات على النزعة السياسية، والصلابة في الحق، والإيمان بمجد العمل، وتغليب ذلك على الأحوال المادية التي تعترض ذا الرأي لتفتنه عن رأيه ومذهبه: من مال، أو جاه، أو منصب، أو موافقة الهوى، أو خشية النعمة، أو خوف الوعيد^(١)، إلى غيرها من كل ما يستميل الباطل أو يزهب^(٢) به الظلم.

ولا يذهبن عنك أن الرجل المؤمن القوي الإيمان الممتلئ ثقةً و يقيناً ووفاءً وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثباتاً على ما يلقي في سبيلها - لا يكون رجلاً كالناس، بل هو رجل الاستقلال الذي واجبه جزء من طبيعته، وغايته السامية لا تنفصل عنه، هو رجل صدق المبدأ، وصدق الكلمة، وصدق الأمل، وصدق النزعة؛ وهو الرجل الذي ينفجر في التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنية إلى إطلاق قنابلها للنصر.

* * *

والعادات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر، وهي وحدة تاريخية في الشعب، تجمعته كما يجمعه الأصل الواحد؛ ثم هي كالدين في قيامها على أساس أدبي في النفس، وفي اشتغالها على التحريم والتحليل؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به، يحصره في قبيله ووطنه، ويحقق في أفراد الألفة والتشابك، ويأخذهم جميعاً بمذهب واحد؛ هو إجلال الماضي.

وإجلال الماضي في كل شعب تاريخي هو الوسيلة الروحية التي يستوحي بها الشعب أبطاله، وفلاسفته، وعلماءه، وأدباءه، وأهل الفن منه؛ فيحون إليه وحي عظامتهم التي لم يغلبها الموت؛ وبهذا تكون صورهم العظيمة حية في تاريخه، وحية في آماله وأعصابه.

والعادات هي وحدها التي تجعل الوطن شيئاً نفسياً حقيقياً؛ حتى ليشعر الإنسان أن لأرضه أئمة الأم التي ولدته، ولقومه أبوة الأب الذي جاء به إلى الحياة؛ وليس يعرف هذا إلا من أغرب عن وطنه، وخالط غير قومه، واستوحش من غير عاداته؛ فهناك يثبت الوطن نفسه بعظمة وجبروت كانه وحده هو الدنيا.

(١) الوعيد: التهديد.

(٢) يزهب: يخيف.

وهذه الطبيعة الناشئة في النفس من أثر العادات هي التي تنبئ في الوطني روح التميز عن الأجنبي، وتوحش نفسه منه كأنها حاسة الأرض تنبئ أهلها وتنبذهم الخطر.

ومتى صدقت الوطنية في النفس أقرت كل شيء أجنبي في حقيقته الأجنبية؛ فكان هذا هو أول مظاهر الاستقلال، وكان أقوى الذرائع إلى المجدي الوطني.

* * *

وباللغة والدين والعادات، ينحصر الشعب في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها، فلا يسهل انتزاعه منها ولا انتسافه من تاريخه؛ وإذا ألجىء إلى حال من القهر لم ينخدل^(١) ولم يتضعض^(٢)، وأستمر يعمل ما عمله الشوكة الحادة: إن لم تترك لنفسها، لم تعط من نفسها ألا الوخر.....

(١) ينخدل: ينهزم.

(٢) يتضعض: يتخلخل.

تجديدُ الإسلام رسالةُ الأزهر في القرنِ العشرين

(الأزهر)، هذه هي الكلمة التي لا يقابلها في خيالِ الأُمَّةِ المِصريَّةِ إلَّا كلمةُ (الهُرم)؛ وفي كلِّتا اللفظتين يَكْمُنُ سرٌّ خَفِيٌّ من أسرارِ التاريخِ التي تجعلُ بعضَ الكلماتِ ميراثاً عقلياً للأُمَّةِ، يُنْسِي مادةَ اللُّغةِ فيها ولا يُبْقِي منها إلَّا مادةَ الكُفْسِ؛ إذْ تكونُ هذه الكلماتُ تعبيراً عن شيءٍ ثابتٍ ثباتَ الفِكرَةِ التي لا تتغيَّرُ، مستقرٌّ في الروحِ القُومِيَّةِ استقْرارُهُ في الزَّمنِ، متجسِّمٌ من معناه كأنَّ الطَّبِيعَةَ قد أَفْرَدَتْهُ بِمادَّتِهِ دونَ ما يُشارِكُهُ في هذه المادَّةِ؛ فَالحَجَرُ في الِهُرمِ الأكبرِ يكادُ يكونُ في العِقلِ زماناً لا حَجَراً وفناً لا جِسْماً؛ وَالْمَكَانُ في الأزهرِ يَغِيبُ فِيهِ معنى المَكَانِ وينقَلِبُ إلى قوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ ساحرةٍ تُوجَدُ في المنظورِ غيرِ المنظورِ.

وعندي أنَّ الأزهرَ في زماننا هذا يكادُ يكونُ تفسيراً جديداً للحديثِ: «مِضْرُ كِنَانَةِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ»، فعِلْمَاؤُهُ أَلْيَوْمَ أَسْهُمُ نافذةً من أَسْهُمِ اللَّهِ يَرْمِي بها مَنْ أَرَادَ دِينَهُ بِالسَّوْءِ، فَيُمْسِكُهَا لِلَّهِيبَةِ وَيَرْمِي بها لِلنَّصْرِ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَعْنَى أَوَّلَ مَعَانِيهِمْ فِي هَذَا الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ الَّذِي أَبْتَلَيْ بِمِلْءِ عَشْرِينَ قَرْنًا مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى الْأَدْيَانِ وَإِهْمَالِهَا وَالْإِلْحَادِ فِيهَا.

أولُ شيءٍ في رسالةِ الأزهرِ في القرنِ العشرين، أَنْ يَكُونَ أَهْلُهُ قوَّةً إلهيَّةً مُعَدَّةً للنَّصْرِ، مُهَيَّاةً لِلنُّضالِ، مُسَدَّدةً لِلإِصَابَةِ، مُقَدَّرَةٌ فِي طَبِيعَتِهَا أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ، تُشْعِرُ النَّاسَ بِالْأَطمِئْنانِ إلى عَمَلِهَا، وتُوحِي إلى كُلِّ مَنْ يراها أَلَيْمانَ الثَّابِتَ بِمَعْنَاهَا؛ وَلَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ هَذَا إلَّا إِذَا انْقَلَبُوا إلى طَبِيعَتِهِمُ الصَّحِيحَةِ، فلا يَكُونَ الْعِلْمُ تَحَرُّفاً ولا مِهْنَةً ولا مَكْسَبَةً، ولا يَكُونَ في أَوْرَاقِ الْكُتُبِ خِيالٌ (أَوْرَاقِ الْبَنكِ) . . . بَلْ تَظْهَرُ فِيهِمُ الْعَظَمَةُ الرُّوحانيَّةُ أَمْرَةً ناهيَةً في المادَّةِ، لا مأمورةٌ مِنْهيةٌ بها؛ ويرتفعُ كُلُّ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ، فيَكُونُ مُقَرَّرَ خُلُقٍ في الْحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمَ عِلْمٍ في الْحَيَاةِ، لِيَنْبُتَ مِنْهُمْ مَغْنَطِيسُ النُّبُوَّةِ يَجْذِبُ أَنْفُوسَ بِهِمْ أَقْوَى مِمَّا تَجْذِبُهَا ضَلالَاتُ الْعَصْرِ؛ فَمَا

يحتاجُ النَّاسُ في هذا الزَّمنِ إلى الْعَالَمِ - وَإِنَّ الْكُتُبَ وَالْعُلُومَ لَتَمَلَأُ الدُّنْيَا - وَإِنَّمَا يحتاجونَ إلى ضميرِ الْعَالِمِ .

وقد عَجَزَتِ الْمَدِينَةُ أَنْ تُوجِدَ هذا الضميرَ ، معَ أَنَّ الْإِسْلَامَ في حَقِيقَتِهِ ليسَ شيئاً إِلَّا قانونَ هذا الضميرِ ، إذْ هو دينٌ قائمٌ على أَنَّ اللَّهَ لا ينظرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إلى صورَتِهِ ولكنَّ إلى عملِهِ ؛ فأولُ ما ينبغي أَنْ يَحْمَلَهُ الْأَزْهَرُ من رِسالَتِهِ ، ضَمَائِرُ أَهْلِهِ .

وَالنَّاسُ خاضعونَ لِلْمَادَةِ بقانونِ حَيَاتِهِمْ ، وبقانونِ آخَرَ هُوَ قانونُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ . . . فهم من ثَمَّ في أَشدِّ الْحَاجَةِ إلى أَنْ يجدوا بَيْنَهُمُ الْمَتَسَلِّطَ على الْمَادَةِ بقانونِ حَيَاتِهِ ؛ لِيَرَوْا بِأَعْيُنِهِمُ الْقُوَى الدِّينِيَّةَ مغْلُوبَةً ، ثُمَّ لِيَجِدُوا في هذا الْإِنْسَانِ أَسَاسَ الْقُدُوةِ وَالْإِحْتِذاءِ ، فَيَتَّصِلُوا مِنْهُ بِقُوَّتَيْنِ : قُوَّةَ التَّعْلِيمِ ، وَقُوَّةَ التَّحْوِيلِ .

وهذا هُوَ سِرُّ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلُ الَّذِي نَفَّذَ بِهِ من أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ ولم يَقمْ لَهُ شيءٌ يَصُدُّهُ ، إذْ كَانَ ينفِذُ في الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَفْسَهَا .

ومن أَخْصَصَ واجباتِ الْأَزْهَرِ في هذا الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، أَنْ يَعْمَلَ أولَ شيءٍ لِإِقْرَارِ معنى الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ في الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَلْيَوْمَ قد أَصْبَحُوا مُسْلِمِينَ بِالنَّسَبِ لا غَيْرَ . . . وما مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ في حَاجَةٍ إلى تَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ .

وَالْحُكُومَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ عاجِزَةٌ في هذا ، بَلْ هِيَ من أسبابِ هذا الشَّرِّ ؛ لِأَنَّ لَهَا وجوداً سِيَاسِيًّا ووجوداً مَدْنِيًّا ؛ أَمَّا الْأَزْهَرُ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَصْلُحُ لِإِتِمَامِ نَقْصِ الْحُكُومَةِ في هذا أَلْبَابِ ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْعُهُ ما تَعَجَّرُ عَنْهُ ؛ وَأَسْبَابُ نَجَاجِهِ مُهَيَّأَةٌ ثَابِتَةٌ إِذْ كَانَ لَهُ بِقُوَّةِ التَّارِيخِ حُكْمُ الزَّعَامَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَتْ فِيهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةُ الْوَحْيِ على الْأَرْضِ ، ثُمَّ كَانَ هُوَ صُورَةَ الْمِزْجِ الْفَرْسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الْمُحَضِّ ؛ بَيِّنٌ أَنَّهُ فُرِطَ في وَاجِبِ هذه الزَّعَامَةِ ، وَفَقَدَ الْقُوَّةَ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُ بِهَا ، وَهِيَ قُوَّةُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّتِي كَانَتْ تَجْعَلُ الرَّجُلَ من عِلْمَائِهِ كَمَا قُلْنَا مَرَّةً : إِنْسَانًا تَخَيَّرَهُ الْعَمَانِيُّ السِّيَاسِيَّةُ تَظْهَرُ فِيهِ بِأَسْلُوبِ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ في قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ التَّربِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُتَنَزِّعَةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهذا الْمِثَالِ نَفْسِهِ .

وَالْعَقِيدَةُ في سِوَادِ النَّاسِ بِغَيْرِ هذا الْمَثَلِ الْأَعْلَى هِيَ أولُ مَغْلُوبٍ في صِرَاعِ قُوَى الْحَيَاةِ .

لَقَدْ أَعْتَادَ الْمُسْلِمُونَ من قَدِيمٍ أَنْ يَجْعَلُوا أَبْصَارَهُمْ إلى عُلمَاءِ الْأَزْهَرِ ، فَهَمَّ

يَتَّبِعُونَهُمْ، وَيَتَأَسَّوْنَ^(١) بِهِمْ، وَيَمْنَحُونَهُمُ الطَّاعَةَ، وَيَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِمْ، وَيَلْتَمَسُونَ فِي سِيرَتِهِمُ التَّفْسِيرَ لِمَشْكَلَاتِ النَّفْسِ، وَيَعْرِفُونَ بِهِمْ مَعْنَى صِغَرِ الدُّنْيَا وَمَعْنَى كِبَرِ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ؛ وَكَانَ غِنَى الْعَالَمِ الدِّينِيِّ شَيْئاً غَيْرَ الْمَالِ، بَلْ شَيْئاً أَعْظَمَ مِنَ الْمَالِ؛ إِذْ كَانَ يَجْدُ حَقِيقَةَ الْغِنَى فِي إِجْلَالِ النَّاسِ لِفَقْرِهِ كَأَنَّهُ مُلْكٌ لَا فَقْرَ؛ وَكَانَ زُهْدُهُ قُوَّةً حَاكِمَةً فِيهَا الصَّلَابَةُ وَالشَّدَّةُ وَالْهَيْبَةُ وَالسَّمُوُّ، وَفِيهَا كُلُّ سُلْطَانِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، لِأَنَّ فِيهَا كُلَّ النِّزَاعَاتِ الْأَسْتِقْلَالِيَّةِ؛ وَيَكَادُ الزُّهْدُ الصَّحِيحُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ حَقَائِقَ مُؤَثَّرَةً عَامِلَةً فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَغْنِيَاءَهُمْ وَفُقَرَاءَهُمْ، لَا حَقَائِقَ مَتْرُوكَةً لِنَفْسِهَا يُوحِشُ النَّاسَ مِنْهَا أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِنَفْسِهَا.

وعلماء الأزهر في الحقيقة هم قوانينٌ نفسيةٌ نافذةٌ على الشعب، وعملهم أَرَدٌ على الناس من قوانين الحكومة، بل هم النصحيح لهذه القوانين إذا جَرَتِ الْأُمُورُ عَلَى عِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا وَجُودَهُمْ، وَأَنْ يَتَنَاولُوا الْأُمَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ قُلُوبِهَا وَأَرْوَاحِهَا، وَأَنْ يُعِدُّوا تَلَامِيذَهُمْ فِي الْأَزْهَرِ كَمَا يُعِدُّونَ الْقَوَانِينَ الدَّقِيقَةَ، لَا طُلَّاباً يَرْتَقُونَ بِالْعِلْمِ.

أَيْنَ صَوْتُ الْأَزْهَرِ وَعَمَلُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَائِجَةِ بِمَا فِي السَّطْحِ وَمَا فِي الْقَاعِ... وَأَيْنَ وَحْيُ هَذِهِ الْقُوَّةِ الَّتِي مِثَاقُهَا أَنْ تَجْعَلَ النُّبُوَّةَ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَاقِعٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَصْرِيَّةِ لَا خَبَرَ تَارِيخِيٍّ فِيهَا؟

لَقَدْ أَصْبَحَ إِيمَانُ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ عَادَةُ الْإِيمَانِ لَا الْإِيمَانُ نَفْسُهُ؛ وَرَجَعَ الْإِسْلَامُ فِي كِتَابِهِ الْفَقْهِيَّةِ وَكَأَنَّهُ أَدِيَانٌ مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ لَا دِينَ وَاحِدَ. فَرِسَالَةُ الْأَزْهَرِ أَنْ يُجَدِّدَ عَمَلَ النُّبُوَّةِ فِي الشَّعْبِ، وَأَنْ يُنْقِصَ عَمَلَ التَّارِيخِ فِي الْكُتُبِ، وَأَنْ يُبْطِلَ عَمَلَ الْوَسْطَانِيَّةِ فِي الْعَادَاتِ، وَأَنْ يُعْطِيَ الْأُمَّةَ دِينَهَا الْوَاضِحَ السَّمَحَ^(٢) الْمَيْسَرَ، وَقَانُونَهَا الْعَمَلِيَّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَقُوَّتُهَا.

وَلَا وَسِيلَةَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ جَرِيئاً فِي قِيَادَةِ الْحَرَكَةِ الرُّوحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، جَرِيئاً فِي عَمَلِهِ لِهَذِهِ الْقِيَادَةِ، آخِذاً بِأَسْبَابِ هَذَا الْعَمَلِ، مُلِحّاً فِي طَلَبِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، مُصِرّاً عَلَى هَذَا الطَّلَبِ؛ وَكُلُّ هَذَا يَكُونُ عَبَثاً إِنْ لَمْ يَكُنْ رِجَالُ الْأَزْهَرِ وَطَلَبَتُهُ أَمْثَلَةً مِنَ الْأَمْثَلَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الدِّينِ وَالْخُلُقِ وَالصَّلَابَةِ، لِتَبْدَأَ الْحَيَاةَ

(٢) السَّمَحُ: السَّهْلُ النَّاتِجُ عَنْ طِبِّبِ الْخَاطِرِ.

(١) يَتَأَسَّوْنَ: يَتَّخِذُونَهُمْ قُدْوَةً حَسَنَةً.

النفسية فيهم، فإنها إن بدأت لا تقف؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الإنسانية، مطاع بحكمه فيها، محبوب بطاعتها له.

والمادة المطهرة للدين والأخلاق لا تجد لها الأمانة إلا في الأزهر، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهار عملها لا بالصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاجة...

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الإشراف على التعليم الإسلامي في المدارس، وأن يدفع الحركة الدينية دفعا بوسائل مختلفة، أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها، من مدرسة حرية الفكر... فانزلا: والأمانة الإسلامية كلها تشد رأي الأزهر في هذا.

وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، دللنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في الدعوة.

العلماء ورثة الأنبياء؛ وليس النبي من الأنبياء إلا تاريخ شدائد ومحن، ومجاهدة في هداية الناس، ومراعاة^(١) للوجود الفاسد، ومكابدة^(٢) التصحيح للحالة النفسية للأمة؛ فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط.

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق، وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة، المعاين لها في ضبط الحياة النفسية للشعب وحياتها وأمنها وزفاتها واستقرارها - اتجهت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين، بعد أن يكون قد حقق الذرائع إلى هذه الرسالة، من فتح باب الاجتهاد، وتنقية التاريخ الفقهي، وتهذيب الروح الإسلامي والسمو به عن المعاني الكلامية الجدلية السخيفة؛ ثم استخراج أسرار القرآن الكريم الكامنة فيه، لهذه العصور العلمية الأخيرة؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التي تمسك الإسلام على سنته بين القديم والجديد، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك، وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربي بكتبه ودعائه ومبعوثيه من حاملي علمه ورسل إلهامه.

(١) مراعاة: مصراة ومقاومة.

(٢) مكابدة: معاناة.

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الإسلامية في أوروبا وأمريكا واليابان، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين، في السنة أزهريّة مُرَهَفَة مصقولة، لها بيان الأدب، ودقّة العلم، وإحاطة الفلسفة، وإلهام الشعر، وبصيرة الحكمة، وقُدرة السياسة؛ السنة أزهريّة لا يُوجدُ الآن منها لسان واحد في الأزهر، ولكنها لن تُوجدَ إلا في الأزهر؛ ولا قيمة لرسالته في القرن العشرين إذا هو لم يُوجدَها فتكون المتكلمة عنه، والحاملة لرسالته، وما هذه البعثات التي قرّر الأزهرُ ابتعائها إلى أوروبا إلا أول تاريخ تلك السنة.

إنّ الوسيلة التي نشرت الإسلام من قبل لم تكن أجنحة الملائكة، ولا كانت قوّة من جهنم؛ ولا تزال هي التي تنشره؛ فليس مستحيلاً ولا متعذراً أن يغزو هذا الدين أوروبا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم، ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة لإيجاد إسلام في الأمة الغربيّة عنه، حتى إذا وُجدَ تولى هو الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلح هو الأبقى، وأنحازت إليه الإنسانية لإثمه قانون طبيعتها السليمة، ودين فطرتها القويّة؛ وقد ظلّ الإسلام ينتشر ولم يكن يحمله إلا التاجر، كما كان ينتشر وحامله الجيش؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكمته؛ فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا: أعمال مفصّلة على النفس أدقّ تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطي الحياة في كل عصر عقلها العمليّ الثابت المستقرّ تُنظّم به أحوال النفس على ميزّة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العلميّ المتجدّد المتغير تُنظّم به أحوال الطبيعة على قُصدٍ وهُدًى؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أخصّ معانيه: لا يُغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كما هو نبع في الأرض لمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

ليس على الأزهر إلا أن يُوجدَ من الإسلام في تلك الأمم ما يستمر، ثم الاستمرار هو يُوجد ما يثبت، والاثبات يُوجد ما يدوم؛ وكأنّ النبي ﷺ قد أشار إلى هذا في قوله: نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنِّي شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ.

أما والله إنّ هذا المبلّغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدقّ المعنى إلا أوروبا وأمريكا في هذا الزمن العلميّ إذا نحن عرفنا كيف نُبلّغ.

أنا مستيقن أن فيلسوف الإسلام الذي سَيَنْتَشُرُ الدينُ على يده في أوروبا وأمريكا لن يخرجَ إلَّا مِنَ الْأَزْهَرِ، وما كَانَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدَهُ - رحمه الله - إلَّا أَوَّلَ التَّطَوُّرِ الْمُنْتَهَى إلى هذه الغاية، وسيكونُ عملُ فلاسفةِ الْأَزْهَرِ أَسْتِخْرَاجَ قَانُونِ السَّعَادَةِ لِتِلْكَ الْأُمَّمِ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ وَأَعْمَالِهِ؛ ثُمَّ مُخَاطَبَةِ الْأُمَّمِ بِأَفْكَارِهَا وَعَوَاطِفِهَا، وَالْإِفْضَاءُ^(١) مِنْ ذَلِكَ إِلَى ضَمِيرِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ فَإِنَّ أَوَّلَ الدِّينِ هُنَاكَ أَسْلُوبُهُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ.

* * *

هذه هي رسالة الْأَزْهَرِ في القرنِ العشرين، ويجبُ أن يتحقَّقَ بوسائلِها مَنْ آلآنَ؛ وَمَنْ وَسَائِلُهَا أَنْ يُعَالِنَ بِهَا لِتَكُونَ مَوْثِقاً عَلَيْهِ. ويحسنُ بِالْأَزْهَرِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ كُلَّ مَفْكَرٍ إِسْلَامِيٍّ ذِي إِلهَامٍ أَوْ بَحْثٍ دَقِيقٍ أَوْ إِحَاطَةٍ شَامِلَةٍ؛ فَتَكُونَ لَهُ الْقَابُ عِلْمِيَّةٌ يَمْنَحُهُمْ إِيَّاهَا وَإِنْ لَمْ يَتَخَرَّجُوا فِيهِ، ثُمَّ يَسْتَعِينُ بِعِلْمِهِمْ وَإِلْهَامِهِمْ وَأَرَائِهِمْ.

وبهذه الألقابِ يمتدُّ الْأَزْهَرُ إلى حدودِ فِكْرِيَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَيُصْبِحُ أَوْسَعُ فِي أَثَرِهِ عَلَى الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيُحَقِّقُ لِنَفْسِهِ الْمَعْنَى الْجَامِعِيَّةَ.

وفي تلك السَّبِيلِ يجبُ على الْأَزْهَرِ أَنْ يَخْتَارَ أَيَّاماً فِي كُلِّ سَنَةٍ يَجْمَعُ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (قِرْشُ الْإِسْلَامِ)؛ لِيَجِدَ مَادَّةَ الْنَفَقَةِ الْوَاسِعَةِ فِي نَشْرِ دِينِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ وَلَا مُسْلِمَةٌ لَا يَبْسُطُ يَدَهُ، فَمَا يَحْتَاجُ هَذَا التَّدْبِيرُ لِأَكْثَرِ مِنْ إِقْرَارِهِ وَتَنْظِيمِهِ وَإِعْلَانِهِ فِي الْأُمَّمِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَوَاسِمِهَا الْكُبْرَى، وَخَاصَّةً مُوسَمَ الْحَجِّ.

وهذا الْعَمَلُ هُوَ نَفْسُهُ وَسِيلَتُهُ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ فِي تَنْبِيهِ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَحْقِيقِ الْمَعَاوَنَةِ فِي نَشْرِ الدِّينِ وَحَيَاطَتِهِ؛ وَعَسَى أَنْ تَكُونَ لَهُ نَتَائِجُ اجْتِمَاعِيَّةٌ لَا مَوْضِعَ لِتَفْصِيلِهَا هُنَا، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ (قِرْشُ الْإِسْلَامِ) مَادَّةً لِأَعْمَالِ إِسْلَامِيَّةٍ ذَاتِ بَالٍ، وَهُوَ عَلَى أَيِّ الْأَحْوَالِ صِلَةٌ رُوحِيَّةٌ تَجْعَلُ الْأَزْهَرَ كَأَنَّهُ مُعْطِيهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَا آخِذُهُ.

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةِ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، أَهْتَدَاءُ الْأَزْهَرِ إِلَى حَقِيقَةِ مَوْضِعِهِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) الْإِفْضَاءُ: الْوَصُولُ وَالْإِنْتِهَاءُ.

الأسد

جلس أبو علي أحمد بن محمد الرُّوذبَادِي البَغْدَادِي في مجلسٍ وعظه بمصرَ بعد وفاة شيخه أبي الحسن بُنَانِ الحَمَالِي الزَّاهِدِ الْوَاسِطِيِّ شيخ الديارِ المصرية وكان يُضربُ المثلَ بعبادته وزُهدِهِ، وقد خرجَ أكثرُ أهلِ مصرَ في جنازته، فكانَ يومُهُ يوماً كَالبرهانِ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ لِأَهْلِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا أَقْتَنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ وَأَبَاطِيلِهَا كَالْأَعْمَى فِي سُوءِ تَمْيِيزِهِ بَيْنَ لَوْنِ التُّرَابِ وَلَوْنِ الدَّقِيقِ؛ إِذْ يَنْظُرُ كُلُّ أَمْرِيٍّ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ مِثْلَ هَذِهِ النُّظَرَةِ، بِاللَّمْسِ لَا بِالْبَصَرِ، وَبِالتَّوَهُّمِ لَا بِالتَّحْقِيقِ، وَعَلَى دَلِيلِ نَفْسِهِ فِي الشَّيْءِ لَا عَلَى دَلِيلِ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، وَبِالإِدْرَاكِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ الإِدْرَاكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ ثُمَّ يَأْتِي الْمَوْتُ فَيَكُونُ كَالْمَاءِ صُبَّ عَلَى الدَّقِيقِ وَالتُّرَابِ جَمِيعاً، فَلَا يَرْتَابُ مُبْصِرٌ وَلَا أَعْمَى، وَيَبْطُلُ مَا هُوَ بَاطِلٌ وَيَحُقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ.

وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلِي فَقَالَ: كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنَا الْجُنَيْدِ فِي بَغْدَادَ، فَجَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ يَوْسُفَ بْنِ الْحَسَنِ شَيْخِ الرِّيِّ وَالْجَبَالِ فِي وَقْتِهِ يَقُولُ فِيهِ: لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَهَا لَمْ تَذُقْ بَعْدَهَا خَيْراً أَبَداً! قَالَ: فَجَعَلْتُ أَفَكُرُ فِي طَعْمِ النَّفْسِ مَا هُوَ، وَجَاءَنِي مَا لَمْ أَرْضَهُ مِنَ الرَّأْيِ، حَتَّى سَمِعْتُ بِخَبْرِ بُنَانٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَعَ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ أَمِيرِ مِصْرَ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ قُدُومِي إِلَى هُنَا لِأَرَى الشَّيْخَ لِأَصْحَبِهِ وَأَنْتَفِعَ بِهِ.

وَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالنَّفْسِ الْكَامِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ، هُوَ فِي الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ كِتَابٌ مِنَ الْكُتُبِ الْبَتَّةِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ أَهْلِهِ عُلَمَاءَ، وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ مَحَلَّةٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ، وَفِي كُلِّ دَارٍ مِنْ دُورِهِ خَزَانَةٌ كُتُبٌ؛ فَلَا تُغْنِي هَذِهِ الْكُتُبُ عَنْ الرِّجَالِ؛ فَإِنَّمَا هِيَ صَوَابٌ أَوْ خَطَأٌ يَنْتَهِي إِلَى الْعَقْلِ، وَلَكِنَّ الرِّجَالَ الْكَامِلَ صَوَابٌ يَنْتَهِي إِلَى الرُّوحِ، وَهُوَ فِي تَأْثِيرِهِ عَلَى النَّاسِ أَقْوَى مِنَ الْعِلْمِ، إِذْ هُوَ تَفْسِيرُ الْحَقَائِقِ فِي الْعَمَلِ الْوَاقِعِ وَحَيَاتِهَا عَامِلَةٌ مَرْتَبَةً دَاعِيَةً إِلَى نَفْسِهَا؛ وَلَوْ أَقَامَ النَّاسُ عَشْرَ سِنِينَ يَتَنَظَّرُونَ فِي مَعَانِي الْفَضَائِلِ وَوَسَائِلِهَا،

ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثُمَّ رَأَوْا رَجُلًا فَاضِلًا بِأَصْدَقِ مَعَانِي الْفَضِيلَةِ، وَخَالِطُوهُ وَصَحْبُوهُ - لَكَانَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَكْبَرُ فَائِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمُنَاطَرَةِ وَأَجْدَى^(١) عَلَى النَّاسِ مِنْهَا وَأَدْلُ عَلَى الْفَضِيلَةِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ وَمِنْ أَلْفِ كِتَابٍ؛ وَلِهَذَا يُرْسِلُ اللَّهُ الْأَنْبِيَّ مَعَ كُلِّ كِتَابٍ مُنْزِلٌ لِيُعْطِيَ الْكَلِمَةَ قُوَّةً وَجُودَهَا، وَيُخْرِجَ الْحَالَةَ الْفُتُورَةَ مِنَ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ، وَيُنْشِئَ الْفَضَائِلَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى طَرِيقَةِ النَّسْلِ مِنْ إِنْسَانِيهَا الْكَبِيرِ.

وَمَا مِثْلُ الْكِتَابِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْءُ مِنْهُ حَقَائِقَ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ، إِلَّا كَوْضِعَ الْإِنْسَانُ يَدَهُ تَحْتَ إِبْطِهِ لِيَرْفَعَ جِسْمَهُ عَنِ الْأَرْضِ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْمَلُ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَرْتَفِعَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ شَرُّ النَّاسِ هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُعَلِّمِينَ إِذَا لَمْ تَكُنْ أَخْلَاقُهُمْ دُرُوسًا أُخْرَى تَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَجْلِسُ مَجْلِسَ الْمَعْلَمِ، ثُمَّ تَكُونُ حَوْلَهُ رِذَائِلُهُ تُعَلِّمُ تَعْلِيمًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي، وَيَكُونُ كِتَابُ اللَّهِ مَعَ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِ مِنْهُ، وَكِتَابُ الشَّيْطَانِ مَعَ الْإِنْسَانِ الْخَفِيِّ فِيهِ.

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَقَدِمْتُ إِلَى مِصْرَ لِأَرَى أَبَا الْحَسَنِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَأَحَقَّقَ مَا سَمِعْتُ مِنْ خَيْرِهِ مَعَ أَبِي طُولُونَ؛ فَلَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ تَلَامِيذِ شَيْخِنَا الْجَنِيدِ، يَتَلَأَلُ فِيهِ نُورُهُ وَيَعْمَلُ فِيهِ سِرُّهُ؛ وَهُمَا كَالشَّمْعَةِ، وَالشَّمْعَةُ فِي الضُّوءِ وَإِنْ صَغُرَتْ وَاحِدَةً وَكَبُرَتْ وَاحِدَةً؛ وَعَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْمَلَ وَجُودُهُ فَيَمُنَّ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ، كَأَنَّ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَبَيْنَهُ نَسَبًا^(٢) شَابِكًا، فَلَهُ مَعْنَى أَبُوَّةِ الْأَبِ فِي أَبْنَائِهِ: لَا يَرَاهُ مَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ إِلَّا أَحْسَنَ أَنَّهُ شَخْصُهُ الْأَكْبَرُ؛ فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ التَّكْمِلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ لِلنَّاسِ، وَكَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَاصَّةً لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ مُسْتَطَاعٌ.

وَمِنْ عَجِيبِ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنَّ الْأَمْرَاضَ الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ بِالْعُدْوَى فَيَمُنَّ قَارِبَهَا أَوْ لَامِسَهَا، وَأَنَّ الْقُوَى الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ كَذَلِكَ بِالْعُدْوَى فَيَمُنَّ اتَّصَلَ بِهَا أَوْ صَاحَبَهَا وَلِهَذَا يَخْلُقُ اللَّهُ الصَّالِحِينَ وَيَجْعَلُ التَّقْوَى فِيهِمْ إِبْرَاقًا كَإِبْرَاقِ الْمَرَضِ: تَصْرِفُ عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا كَمَا يَصْرِفُ الْمَرَضُ عَنْهَا، وَتَكْسِرُ النَّفْسَ كَمَا يَكْسِرُهَا ذَاكُ، وَتُقْفِدُ الشَّيْءَ مَا هُوَ بِهِ شَيْءٌ، فَتَتَحَوَّلُ قِيَمَتُهُ، فَلَا يَكُونُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَهْمِ بَلْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ.

وَإِذَا عَدِمَ النَّاسُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي يُعَدِّبُهُمْ بِقُوَّتِهِ الْعَجِيبَةِ فَقَلَمَا يَصْلَحُونَ لِلْقُوَّةِ، فَكِبَارُ الصَّالِحِينَ وَكِبَارُ الزُّعَمَاءِ وَكِبَارُ الْقَوَادِ وَكِبَارُ الشُّجْعَانِ وَكِبَارُ الْعُلَمَاءِ

(٢) نَسَبًا: قَرَابَةً.

(١) أَجْدَى: أَنْفَعُ.

وأمثالهم - كل هؤلاء من باب واحد، وكلهم في الحكمة ككبار المرضى.

قال أبو علي: وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون، فقطعتني هيئته، فقلت: أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرزي: «لا أذاقك الله طعم نفسك»؛ وبينما أهيت في نفسي كلاماً أجري فيه هذه العبارة، جاء رجل فقال للشيخ: لي على فلان مائة دينار، وقد ذهب الوثيقة التي كتبت فيها الدين، وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياها؛ فادع الله لي وله أن يظفرني^(١) بديني وأن يثبتني على الحق. فقال الشيخ: إني رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى، فاذهب فأشترِ رطلاً منها وأتني به حتى أدعو لك!

فذهب الرجل فأشترى الحلوى ووضعها له ألباع في ورقة فإذا هي الوثيقة الضائعة، وجاء إلى الشيخ فأخبره، فقال له: خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهي! ثم إنه التفت إلي وقال: لو أن شجرة أشتت غير ما به صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيق طعم نفسها لأكلت نفسها وذوت.

قال أبو علي: والمعجزات التي تحدث للأنبياء، والكرامات التي تكون للأتقياء، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق - كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ: هو هذا. فلم تبق بي حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون، وكنت كأني أرى بعيني رأسي كل ما سمعت، بيد أنني لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ذاك الذي يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهي واحد وعشرون مصنفاً فيها الكبير والصغير؛ فقال لي: لعلك أشتيت من خبر بنان مع ابن طولون، فمن أجله زعمت جئت إلى مصر. قلت: إنه تواضع فلم يخبرني وهبته^(٢) فلم أسأله. قال: تعال أحدثك الحديث.

كان أحمد بن طولون من جارية تركية، وكان طولون أبوه مملوكاً حملاً نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليه من المال والرقيق

(١) يُظفرني: يُعطيني، يمنحني.

(٢) وهبته: خفته.

والبِراذِين^(١) وغير ذلك؛ فولدَ أحمدُ في منصبِ ذلَّةٍ تستظهرُ بالطغيان، وكأنتَ هاتان طبيعَتُهُ إلى آخرِ عمرِهِ، فذهبَ بِهَمَّتِهِ مذهباً بعيداً، ونشأ من أولِ أمرِهِ على أن يُتَمَّ هذا النقصَ ويكونَ أكبرَ من أصلِهِ، فطلبَ الفُروسِيَّةَ والعِلْمَ والحديثَ، وصحبَ الزهادَ وأهلَ الورعِ، وتميَّزَ على الأتراكِ وطَمَحَ إلى المعالي، وظلَّ يرمي بنفسِهِ، وهو في ذلك يكبرُ ولا يزالُ يكبرُ، كأنما يُريدُ أن ينقطعَ من أصلِهِ ويلتحقَ بالأمرءِ، فلَمَّا ألتحقَ بِهِمْ ظلَّ يكبرُ ليلحقَ بالملوكِ، فلَمَّا بلغَ هؤلاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ على ما يعلمُ اللهَ.

قال: وكانَ عقلُهُ من أثرِ طبيعَتِهِ كالعقلينِ لرجلينِ مُختلفينِ فَلَهُ يَدٌ مَعَ الملائكةِ ويَدُهُ الأخرى مَعَ الشياطينِ، فهو الَّذي بنى المارستانَ وأنفقَ عليه وأقامَ فيه الأطباءَ، وشرطَ إذ جِئَ بالعليلِ^(٢) أن تُنزعَ ثيَابُهُ وتُحفظَ عندَ أمينِ المارستانِ، ثُمَّ يلبسَ ثياباً ويُفرشَ لَهُ ويُغذى عليه ويُراحَ بالأدويةِ والأغذيةِ والأطباءِ حتى يبرأ، ولم يكنِ هذا قبلَ إمارتِهِ؛ وهو أولُ مَنْ نظَرَ في المظالمِ من أمراءِ مصرَ؛ وهو صاحبُ يومِ الصدقةِ: يكثرُ من صدقاتِهِ كُلَّمَا كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عليه، ومراتبُهُ لذلك وغيرِها، يذبحُ فيها البقرَ والكَباشَ ويغرفُ للناسِ، ولكُلِّ مِسْكِينٍ أربعةَ أرغفةٍ يكونُ في اثنينِ منها فالودجُ^(٣) وفي الآخرينِ مِنَ القُدورِ، ويُنادي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يحضُرَ دارَ الأميرِ فَلْيَحضُرْ! وتُفتَحُ الأبوابُ ويدخلُ الناسُ وهو في المجلسِ ينظرُ إلى المساكينِ ويتأملُ فرحَهُمْ بما يأكلونَ ويحملونَ، فيسرُهُ ذلكَ ويحمدُ اللَّهَ على نِعَمَتِهِ؛ وكانَ راتبُ مطبخِهِ في كلِّ يومٍ ألفَ دينارٍ؛ وأقتدى^(٤) بِهِ أبْنُهُ خُمارويهُ، فأنشأ بعدهُ مطبخَ العَامَةِ يُنفِقُ عليه ثلاثةَ وعشرينَ ألفَ دينارٍ كلَّ شهرٍ.

وقد بلغَ ما أرسَلَهُ أبْنُ طُولُونَ إلى فقراءِ بغدادَ وعلمائِها في مدَّةِ ولايَتِهِ ألفي ألفٍ ومائتي ألفٍ دينارٍ وكانَ كثيرَ التلاوةِ للقرآنِ، وقد اتَّخَذَ حُجْرَةً بِقَرْبِهِ فِي القَصْرِ وضعَ فيها رجالاً سَمَّاهُم بِالْمَكْبُرِينَ، يتعاقبونَ اللَّيْلَ نوباً يُكَبِّرونَ وَيُسَبِّحونَ، ويحمدونَ ويهلِّلونَ، ويقرءونَ القرآنَ تطريباً، ويُنشِدونَ قصائدَ الزهدِ، ويؤذنونَ أوقاتَ الأذانِ؛ وهو الَّذي فتَحَ أنطاكيةَ في سنةِ خمسٍ وستينَ ومائتينَ، ثُمَّ مضى إلى طرسوسَ كأنَّهُ يُريدُ فتحَها، فلَمَّا نابذهُ^(٥) أهلُها وقاتلَهُم أمرَ أصحابِهِ أن يَنْهَزموا

(١) البراذين، مفردة برذون، وهو نوع من البغال.

(٢) العليل: المريض.

(٣) الفالودج: ضرب من الحلوى.

(٤) اقتدى: سيرة.

(٥) نابذه: ناجزه وقاتله.

عنها، لِيَبْلَغَ ذَلِكَ طَاعِيَةَ الرُّومِ فَيَعْلَمَ أَنَّ جِيوشَ أبنِ طُولُونٍ عَلَى كَثَرَتِهَا وَشِدَّتِهَا لَمْ تَقُمْ لِأَهْلِ طَرَسُوسَ، فَيَكُونُ بِهِذَا كَأَنَّهُ قَاتَلَهُ وَصَدَّهُ عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلَ هَذَا الْخَبَرَ كَأَلْجِيشٍ فِي تِلْكَ الْأَنَاحِيَةِ!

وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا طَائِشَ السَّيْفِ، يَجُورُ وَيَعْسَفُ^(١)، وَقَدْ أَحْصَى مَنْ قَتَلَهُمْ صَبْرًا^(٢) أَوْ مَاتُوا فِي سِجْنِهِ فَكَانُوا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا؛ وَأَمَرَ بِسَجْنِ قَاضِيهِ بَكَارٍ بِنِ قَتِيَّةٍ فِي حَادِثَةٍ مَعْرُوفَةٍ. وَقَالَ لَهُ: غَرَّكَ قَوْلُ النَّاسِ مَا فِي الدُّنْيَا مِثْلُ بَكَارٍ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرَفْتَ! ثُمَّ حَبَسَهُ وَقَيْدَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ جَمِيعَ عَطَايَاهُ مَدَّةَ وَلَايَتِهِ الْقَضَاءِ، فَكَانَتْ عَشْرَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ، قِيلَ إِنَّهَا وُجِدَتْ فِي بَيْتِ بَكَارٍ بِخَتْمِهَا لَمْ يَمْسُهَا زَهْدًا وَتَوَرُّعًا.

وَلَمَّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبُو الْحَسَنِ يُعْتَفُّ وَيَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَبِنَهَاةٍ عَنِ الْمُنْكَرِ، طَاشَ عَقْلُهُ^(٣) فَأَمَرَ بِالْقَائِيهِ إِلَى الْأَسَدِ، وَهُوَ الْخَبِيرُ الَّذِي طَارَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى بَلَغَكَ فِي بَغْدَادَ . . .

قَالَ: وَكُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَجِئْتُ بِالْأَسَدِ مِنْ قَصْرِ ابْنِهِ خُمَارُويِهِ وَكَانَ خُمَارُويِهِ هَذَا مَشْغُوفًا^(٤) بِالْصَّيْدِ، لَا يَكَادُ يَسْمَعُ بِسَبْعٍ فِي غِيْضَةٍ أَوْ بَطْنٍ وَإِدًّا إِلَّا قَصَدَهُ وَمَعَهُ رَجَالٌ عَلَيْهِمْ لُبُودٌ، فَيَدْخُلُونَ إِلَى الْأَسَدِ وَيَتَنَاوَلُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ غَايَةِ عَثْوَةٍ وَهُوَ سَلِيمٌ، فَيَضَعُونَهُ فِي أَقْفَاصٍ مِنْ خَشَبٍ مُحْكَمَةِ الصَّنْعَةِ يَسَعُ الْوَاحِدُ مِنْهَا السَّبْعَ وَهُوَ قَائِمٌ.

وَكَانَ الْأَسَدُ الَّذِي اخْتَارُوهُ لِلشَّيْخِ أَغْلَظَ مَا عِنْدَهُمْ، جَسِيمًا، ضَارِيًا^(٥)، عَارِمَ الْوَحْشِيَّةِ^(٦)، مَتَزِيلَ الْعِضْلِ، شَدِيدَ عَصَبِ الْخُلُقِ، هَرَّاسًا^(٧)، فَرَّاسًا، أَهْرَتَ الشَّدَقِ^(٨) يَلُوحُ شِدْقُهُ مِنْ سَعَتِهِ وَرُوعَتِهِ كَفَتْحَةِ الْقَبْرِ يُنْبِئُ أَنَّ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ، وَيُظْهِرُ وَجْهَهُ خَارِجًا مِنْ لَيْدَتِهِ، يَهُمُّ أَنْ يَنْقَذِفَ عَلَى مَنْ يَرَاهُ فَيَأْكُلَهُ!

وَأَجْلَسُوا الشَّيْخَ فِي قَاعَةٍ وَأَشْرَفُوا عَلَيْهِ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ فَتَحُوا بَابَ الْقَفْصِ مِنْ أَعْلَاهُ فَجَذَبُوهُ فَأَرْتَفَعَ؛ وَهَجَّهَجُوا^(٩) بِالْأَسَدِ يَزْجُرُونَهُ، فَأَنْطَلَقَ يَزْمِجِرُ وَيَزَارُ زُرِّيْرًا تَنْشِقُ لَهُ الْأَمْرَارُ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ الرُّعْدُ وَرَاءَهُ الصَّاعِقَةُ!

(١) يعسف: يظلم.

(٢) قتلهم صبراً: ظملاً دون ذنب.

(٣) طاش عقله: فقد عقله من الغضب.

(٤) مشغوقاً: مولعاً، محبباً.

(٥) ضارياً: شديد العنف.

(٦) عارم الوحشية: في أقصى حالات التوحش.

(٧) هراساً: يحطم فريسته فيسحقها.

(٨) هرت الشدق: واسعة بشدة.

(٩) هججهج: صاح.

ثُمَّ أَجْتَمَعَ الْوَحْشُ فِي نَفْسِهِ وَأَقْشَعَرَ، ثُمَّ تَمَطَّى^(١) كَالْمَنْجَنِيْقِ يَقْدِفُ الصَّخْرَةَ، فَمَا بَقِيَ مِنْ أَجْلِ الشَّيْخِ إِلَّا طَرْفَةُ عَيْنٍ؛ وَرَأَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَاكِناً مُطَرِّقاً لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَسَدِ وَلَا يَحْفَلُ^(٢) بِهِ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ كَادَ يَنْهَتْكَ^(٣) حِجَابُ قَلْبِهِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرَّعْبِ وَالْإِشْفَاقِ^(٤) عَلَى الرَّجُلِ.

وَلَمْ يَرْعُنَا^(٥) إِلَّا ذَهُولُ^(٦) الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِهِ، فَأَقْعَى^(٧) عَلَى ذَنْبِهِ، ثُمَّ لَصَقَ بِالْأَرْضِ هُنَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِرَاعِيهِ، ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرَى كَأَنَّهُ غَيْرُ الْأَسَدِ، فَمَشَى مَتَرَفَقاً^(٨) ثَقِيلَ الْخَطْوِ تُسْمَعُ لِمَفَاصِلِهِ قَعْقَعَةٌ مِنْ شِدَّتِهِ وَجَسَامَتِهِ^(٩)، وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ وَطَفِقَ يَحْتِكُ بِهِ وَيَلْحِظُهُ وَيَشْمُهُ كَمَا يَصْنَعُ الْكَلْبُ مَعَ صَاحِبِهِ الَّذِي يَأْنَسُ بِهِ، وَكَأَنَّهُ يُعْلِنُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مَصَاوِلَهُ^(١٠) بَيْنَ الرَّجُلِ الْتَقَى وَالْأَسَدِ، وَلَكِنَّهَا مُبَارَزَةٌ بَيْنَ إِرَادَةِ ابْنِ طُولُونَ وَإِرَادَةِ اللَّهِ!

وَضَرَبَتْهُ رُوحُ الشَّيْخِ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآدَمِيِّ عَمَلٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِلَازٍ لَحْمٍ وَدَمٍ، فَلَوْ أَكَلَ الضُّوءُ وَالْهَوَاءُ وَالْحَجَرُ وَالْحَدِيدُ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا الرَّجُلَ الَّتِي تَمَثَّلُ فِي رُوحَانِيَّتِهِ لَا يُجِسُّ لِصُورَةِ الْأَسَدِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا الْفَاتِكَةِ، وَلَا يَرَى فِيهِ إِلَّا حَيَاةً خَاضِعَةً مَسْخَرَةً لِلْقُوَّةِ الْعَظْمَى الَّتِي هِيَ مُؤَمِّنٌ بِهَا وَمَتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا، كَحَيَاةِ الدُّودَةِ وَالنَّمْلَةِ وَمَا دُونَهَا مِنَ الْهَوَامِّ وَالذَّرَا!

وَوَرَدَ النُّورُ عَلَى هَذَا الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلَكِنَّهُ هُوَ وَالْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَكَانَ مَتَدِمِجاً فِي يَقِينِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾!

وَرَأَى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللَّهِ، فَخَافَ مِنْهُ، وَكَمَا خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا الْنَاقِصَةِ، خَرَجَ الْوَحْشُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا الْوَحْشِيَّةُ؛ فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلَا هَمٌّ وَلَا جَزَعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ لَيْسَ فِي الْأَسَدِ فَتْكٌ وَلَا ضَرَاوَةٌ^(١١) وَلَا جَوْعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ.

(١) تَمَطَّى: تَمَدَّدَ.

(٢) يَحْفَلُ: يَهْتَمُّ.

(٣) يَنْهَتْكَ: يَتَمَرَّقُ.

(٤) الْإِشْفَاقُ: الْخَوْفُ.

(٥) يَرْعُنَا: يَدْهَشُنَا.

(٦) ذَهُولُ: تَرَكَ وَحْشِيَّتَهُ وَنَسِيَانَهُ لَهَا.

(٧) أَقْعَى: جَلَسَ عَلَى مَوْخَرَتِهِ.

(٨) مَتَرَفَقاً: مَتَمَهِّلاً.

(٩) جَسَامَتُهُ: ضَخَامَتُهُ.

(١٠) مَصَاوِلُهُ: مَجَاوِلُهُ.

(١١) ضَرَاوَةٌ: شِدَّةُ قَتْلِ.

ونسي الشيخ نفسه فكأنما رآه الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها، ولو أنَّ خطرة من هم الدنيا خطرَتْ على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه .

* * *

قال: وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ، فإذا هو ساهم^(١) مفكر، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً في تفكيره، فمن قائل إنه الخوف أذهله عن نفسه، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد؛ وأكثرنا في ذلك وتجارينا فيه، حتى سأله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟

فقال الشيخ: لم يكن عليّ بأس، وإنما كنت أفكر في لعب الأسد، أهو طاهر أم نجس...

(١) ساهم: مطرق مفكر.

أمرء للبيع

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقب طويز الليل، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة:

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يُخاطب السلطان إلا بقوله: (يا إنسان!) فما يخشاه ولا يتعبد^(١) له ولا ينحله^(٢) ألقاب الجبروت والعظمة ولا يُزيئهُ بالتفاق ولا يُداجيه كما يصنع غيره من العلماء؛ وكان هذا عجيباً؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يُخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان)؛ فما يعلو بالسلطان والأمرء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية!

ثم كان لا يُعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحداً قال له: (يا فقيه)؛ على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين أبين الرقعة، ثم يخص علاء الدين بن ألباجي وحده بقوله: (يا إمام)؛ إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجّة، لا يكاد يقطعه^(٣) أحد في المناظرة والمباحثة؛ فهو كالبرهان. إجلاله إجلال الحق، لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى.

وقلت له يوماً: يا سيدي، أراك تُخاطب السلطان بخطاب العامة؛ فإن علوت قلت: (يا إنسان) وإن نزلت قلت: يا إنسان؛ أفلا يُسخطه هذا منك وقد تذوق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع، وخصّه التفائق بكلمات هي ظل الكلمات التي يوصف الله بها، ثم جعله الملك إنساناً بذاته في وجود ذاته، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة: يستويان في العنصر ويتباينان في القدر، وأقله مهما قل هو أكثرها مهما عظمت، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر؟

(١) يتعبّد: يستذل له.

(٢) ينحله: يعطيه.

(٣) يقطعه: يفحمه ويسكته.

فتبسّم الشيخ وقال: يا ولدي، إيش هذا؟ إننا نفوس ألفاظ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها في نفسها؛ فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردّه الشرع عليه؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً، ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه؛ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود، والمنافق رجل مغطى في حياته، ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطى؛ فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق فقد كذب وغش وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر، ينطقون بكلماتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرأة النور: تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها، فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً.

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم أخذ من نور واحد لا يختلف؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور: يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير!

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها؛ فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويُغيّر ويبدّل ويظهر ويخفي؛ ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول؟

والرجل الدينّي لا تتحوّل أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم، فهو بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذي لو نطق أفعاله لقالَت لله بلسانه: هم يُعطونني الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعضه، فهو زائف كله؛ وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوّة ألهم فيهم... فينزلون بذلك منزلة البهائم: تقدّم أعمالها لتأخذ لبطونها: والبطن الأكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله...

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة، أو رقة فسمّها الضعف، أو

مُحَاسَنَةً فَقُلْ إِنَّهَا أَنْفَاقٌ، أَوْ سَكُوتًا عَنِ الظُّلْمِ فَتِلْكَ رِشْوَةٌ يَأْكُلُونُ بِهَا!

قَالَ الْإِمَامُ: وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ شَيْخِي سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ عَزُّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ فَلَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شَيْئًا تَصْنَعُهُ طَبِيعَتُهُ كَمَا يَصْنَعُ جِسْمُهُ الْحَيَاةَ، فَلَا يُبَالِي هَلْكَ فِيهِ أَوْ عَاشَ، إِذْ هُوَ فِي الدِّمِ كَالْقَلْبِ: لَا تَنَالُهُ يَدُ صَاحِبِهِ وَلَا يَدُ غَيْرِهِ؛ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ وَلَا تَرْفٍ وَلَا نَعِيمٍ، فَكَانَ تَجَرُّدُهُ مِنْ أَوْهَامِ الْقُوَّةِ لَا تَغْلِبُ؛ وَأَنْتَزَعَ خَوْفَ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِهِ فَعَمَرَتْهُ أَلْرُوحُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تُخِيفُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تَخَافُ؛ وَكَانَ بِهَذِهِ أَلْرُوحُ كَأَنَّهُ تَحْوِيلٌ وَتَبْدِيلٌ فِي طِبَاعِ النَّاسِ، حَتَّى قَالَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْرْسُ وَقَدْ رَأَى كَثْرَةَ الْخَلْقِ فِي جَنَازَتِهِ حِينَ مَرَّتْ تَحْتَ الْقَلْعَةِ: أَلَا أَنْ أَسْتَقِرَّ أَمْرِي فِي الْمُلْكِ فِي، فَلَوْ أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيَّ لَا نَتَزَعُ مِنِّي الْمَمْلَكَةَ!

وَكَانَ سُلْطَانُهُ فِي دِمَشْقَ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ، فَاسْتَنْجَدَ^(١) بِالْإِفْرَنْجِ عَلَى الْمَلِكِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُوبَ سُلْطَانَ مِصْرَ؛ فَغَضِبَ الشَّيْخُ وَأَسْقَطَ أَسْمَ الصَّالِحِ مِنَ الْخُطْبَةِ وَخَرَجَ مُهَاجِرًا، فَاتَّبَعَهُ الصَّالِحُ بَعْضَ خَوَاصِهِ يَتَلَطَّفُ^(٢) بِهِ وَيَقُولُ لَهُ: مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَعُودَ إِلَى مَنَاصِبِكَ وَمَا كُنْتَ عَلَيْهِ وَأَكْثَرَ مِمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ تَتَخَشَّعَ^(٣) لِلْسُلْطَانِ وَتُقَبِّلَ يَدَهُ. فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَا مَسْكِينُ! أَنَا لَا أَرْضَى أَنْ يَقْبَلَ السُّلْطَانُ يَدِي! أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا وَادٍ!

ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ ٦٣٩، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُوبَ وَتَحَقَّى^(٤) بِهِ وَوَلَّاهُ خُطَابَةَ مِصْرَ وَقَضَاءَهَا، وَكَانَ أَيُوبُ مَلِكًا شَدِيدَ الْبَاسِ، لَا يَجْسُرُ^(٥) أَحَدٌ أَنْ يُخَاطَبَهُ إِلَّا مُجِيبًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِحَضْرَتِهِ أَبْتَدَاءً؛ وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الْمَمَالِكِ الْتَرِكِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ لِغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، حَتَّى كَانَ أَكْثَرُ أُمَرَاءِ عَسْكَرِهِ مِنْهُمْ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالْخَشُونَةِ وَالْبَاسِ وَالْفِظَازَةِ وَالْاِسْتِهَانَةِ بِكُلِّ أَمْرٍ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْعِيدِ صَعِدَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ وَهُوَ يَعْزُضُ الْجَنْدَ وَيُظْهِرُ مُلْكَهُ وَسُطُوتَهُ وَالْأُمَرَاءُ يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَنَادَاهُ الشَّيْخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ لِيَسْمَعَ هَذَا أَلْمَلَأَ الْعَظِيمُ: يَا أَيُوبُ! ثُمَّ

(١) استنجد: طلب المعونة والنجدة.

(٢) يتلطف: يستميل.

(٣) تتخشع: لا يجسر.

(٤) تحقى: استقبل بحفاوة.

(٥) لا يجسر: لا يجزؤ.

أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة ثباع فيها الخمر؛ فرسم السلطان لوقتِه بإبطال الحانة واعتذر إليه .

فحدثني الباجي قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر، فقلت: يا سيدي، كيف كانت الحال؟

قال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره^(١) فكان ما باديته به .

قلت: أما خفته؟

قال: يا بني، استحضرت هبة الله - تعالى - فكان السلطان أمامي كالقبط ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيته الدنيا كلها؛ بيد أنني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا، بل هو لا شيء في صورة شيء .

نحن - يا ولدي - مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر، فإذا أمرناهم، فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان: وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها؛ فما بد أن يقابلوا من العلماء والأصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها؛ فإذا كان ذلك فهنا المعنى بإزاء المعنى؛ فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت .

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لخطوط نفسه ومنافعها، فيكون باطلاً مزوراً في صورة الحق؛ وهنا تكون الذات مع الذات، فيخشع الضعف أمام القوة، ويدلُّ الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها؛ فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع^(٢) السيف!

كلًا - يا ولدي -! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها، فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير؛ وإذا أنفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذي فيها إذا هي لم تخزه؟

(١) تبطره: تغطيه .

(٢) تقارع: تصارع .

إِنَّ الْعَالَمَ الْحَقَّ كَالْمَسْمَارِ؛ إِذَا أُوْجِدَ الْمَسْمَارُ لِدَّاتِهِ دُونَ عَمَلِهِ كَفَرَتْ بِهِ كُلُّ خَشْبَةٍ...

قال الإمام تقي الدين: وطغى^(١) الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس؛ وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدّة جعلت طغيانها وأستبدادها أدباً وشرية؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها؛ ففكر شيخنا في هؤلاء الأمراء وقال: إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد؛ إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن، وإن كان قبيحاً في ذاته ولا أقبح منه؛ ويزنون كل قبيح عندها هو القبيح، وإن كان حسناً ولا أحسن منه.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هي عماد الفرد الكبير، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله؛ وكان ينبغي أن تكون هذه الإمارة أعمالاً نافعة قد كبرت وعظمت فأستحققت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها في الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس.

وفكر الشيخ فهذه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء ممالك، فحكم الرق مستضحب عليهم لبيت مال المسلمين، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق! وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم؛ ثم احتدم^(٢) الأمراء وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضي ابن عبد السلام.

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي!

ثم جعلوا يتسبون^(٣) إلى رضاء، ويتحملون عليه بالشفاعات، وهو مُصِرٌّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم، ولا يخشى اتسامه بعداوتهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه.

وأستشنع^(٤) السلطان فعله وحنق^(٥) عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه،

(١) طغى: تجبر.

(٢) احتدم: استعجب.

(٣) يتسبون: يسعون.

(٤) استشنع: غضب.

(٥) حنق: حقد.

وقَبَّحَ عملَهُ وسياستَهُ وما تطاولَ إليه، وهو رجلٌ ليسَ لَهُ إلا نفسه وما تكادُ تصلُ يدهُ إلى ما يقيمه وهم وافرونَ وفي أيديهمُ القُوَّةُ ولهمُ الأمرُ والنهيُ.

وأنتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فعَضِبَ ولم يُبالِ بِالسُّلْطَانِ ولا كَبُرَ عليه إعراضُه^(١)، وأزمعَ الهِجْرَةَ من مصر، فأكترى حميراً أركبَ أهلَهُ وولدهُ عليها ومشى هو خَلْفَهُمْ يُريدُ الخروجَ إلى الشام؛ فلم يبعُدْ إلَّا قليلاً نحوَ نصفِ بريدٍ حتى طارَ الخبزُ في القاهرة ففرغَ الناسُ وتبعوه لا يتخلفُ منهم رجلٌ ولا امرأةٌ ولا صبيٌّ، وصارَ فيهمُ العلماءُ والأصلحاءُ والتجارُ والمُحترِفون^(٢) كأنَّ خروجَهُ خروجُ نبيٍّ من بينِ المؤمنين به؛ وَأَسْتَعْلَنَتْ قُوَّةُ الشَّرعِ في مظهرِها الحاكِمِ الأمرِ من هذه الجماهير، فقيلَ لِلسُّلْطَانِ: إنَّ ذهبَ هذا الرَّجلُ ذهبَ مُلكك!

فارتاع^(٣) السُّلْطَانُ، فركبَ بنفسِهِ وَلِجَقَ بِالشَّيْخِ يترصَّاهُ ويستدفعُ بِهِ غضبَ الأُمَّةِ، وأطلقَ لَهُ أن يأمرَ بِما شاء، وقد أيقنَ أَنَّهُ ليسَ رجلٌ الدِّينارِ والدُّرهمِ والعِيشِ والعِجاءِ ولُبْسِ طيلسانِ العلماءِ كما يلصقُ الرِّيشُ على حجرٍ في صورةِ الطائرِ.

ورجعَ الشَّيْخُ وأمرَ أن يُعقدَ المَجلسُ ويُجمَعَ الأمراءُ ويُنادى عليهم لِلْمساومةِ^(٤) في بيعهم، وضربَ لذلك أجلاً بعدَ أن يكونَ الأمرُ قد تَعالَمَهُ كُلُّ القاهرة، ليتَهيأَ مَنْ ينهياً لِلشَّراءِ والسَّومِ في هذا الرِّقيقِ الغالي!

وكانَ مِنَ الأمراءِ المماليكِ نائبُ السُّلْطَانَةِ، فبعثَ إلى الشَّيْخِ يُلَاطِفُهُ ويسترضيه، فلم يعبأَ الشَّيْخُ بِهِ؛ فهاجَ هائجُهُ وقال: كيف يبيعُنا هذا الشَّيْخُ ويُنادي علينا ويُنزلُنا منزلةَ العبيدِ ويُفسدُ محلَّنا مِنَ الناسِ وبيتدِلُ أقدارنا ونحنُ ملوكُ الأرضِ؟ وما الَّذي يَفقدُ هذا الشَّيْخُ مِنَ الدُّنيا فيُدركَ ما نحنُ فيه؟ إِنَّهُ يَفقدُ ما لا يملكُ، ويفقدُ غيرَ الموجودِ، فلا جَرَمَ لا يُبالي ولا يرجعُ عن رأيهِ ما دامَ هذا الرَّأيُ لا يمرُّ في منافعِهِ، ولا في شهواتِهِ ولا في أَطماعِهِ، كَالَّذينَ نراهمُ من علماءِ الدُّنيا؛ أَمَّا - واللَّهِ - لأُضربنَّهُ بسيفي هذا، فما يموتُ رأيُهُ وهو حيٌّ.

ثمَّ رَكِبَ النَّائبُ في عسكرِهِ وجاءَ إلى دارِ الشَّيْخِ وأستلَّ سَيْفَهُ وطرقَ أَلْبابَ،

(١) إعراضه: بعده عنه.

(٣) ارتاع: خاف.

(٢) المحترفون: أصحاب الحرف.

(٤) المساومة: المُنَاداة بالمزاد.

فخرج أبْنُه عَبْدُ اللَّطِيفِ ورأى ما رأى، فَأَنْقَلَبَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ: انْجُ بِنَفْسِكَ، إِنَّهُ
الْمَوْتُ، وَإِنَّهُ السَّيْفُ، وَإِنَّهُ... .

فَمَا أَكْثَرَتْ^(١) الشَّيْخُ لِدَلِكْ وَلَا جَزَعَ وَلَا تَغَيَّرَ، بَلْ قَالَ لَهُ: يَا وَلَدِي! أَبُوكَ
أَقْلُ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ!

وخرَجَ لَا يَعْرِفُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ، فَلَيْسَ فِيهِ الْإِنْسَانِيُّ بَلِ الْإِلَهِيُّ؛ وَنَظَرَ إِلَى
نَائِبِ السُّلْطَانَةِ وَفِي يَدِهِ السَّيْفُ، فَأَنْطَلَقَتْ أَشْعَةُ عَيْنَيْهِ فِي أَعْصَابِ هَذِهِ الْيَدِ فَيَبَسَتْ
وَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْهَا.

وَتَنَاوَلَهُ بِرُوحِهِ الْقَوِيَّةِ، فَأَضْطَرَبَ الرَّجُلُ وَتَزَلَزَلَ وَكَأَنَّمَا تَكَسَّرَ مِنْ أَعْصَابِهِ فَهُوَ
يُرْعَدُ وَلَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَهْدَأُ.

وَأَخَذَ النَّائِبُ يَبْكِي وَيَسْأَلُ الشَّيْخَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا سَيِّدِي، مَا تَصْنَعُ بَنَاهُ؟

قَالَ الشَّيْخُ: أَنَادِي عَلَيْكُمْ وَأَبِيعُكُمْ!

- وَفِيمَ تَصْرَفُ ثَمَنَنَا؟

- فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ.

- وَمَنْ يَقْبُضُهُ؟

- أَنَا.

وَكَانَ الشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ (أَنَا)، فَتَمَّ لِلشَّيْخِ مَا أَرَادَ، وَنَادَى عَلَى الْأَمْرَاءِ
وَاحِدًا وَاحِدًا، وَأَسْتَطَ^(٢) فِي ثَمَنِهِمْ، لَا يَبِيعُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الثَّمَنُ آخَرَ مَا
يَبْلُغُ؛ وَكَانَ كُلُّ أَمِيرٍ قَدْ أَعَدَّ مِنْ شِيعَتِهِ جَمَاعَةً يَسْتَامُونَهُ لِيَشْتَرَوْهُ... .

وَدُمَغَ^(٣) الظُّلْمَ وَالنَّفَاقَ وَالطُّغْيَانَ وَالتَّكْبِيرَ وَالْأَسْطِطَالَةَ عَلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ
الَّتِي أَعْلَنَهَا الشَّرْعُ:

أَمْرَاءُ لِلْبَيْعِ! . أَمْرَاءُ لِلْبَيْعِ... .

(١) أَكْثَرَتْ: اِهْتَمَّتْ.

(٢) اسْتَطَ: بَالِغٌ.

(٣) دُمَغَ: طَبَعَ.

العجوزان

١

قال محدثي: التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة، وكانت مَثَابُهُمَا^(١) ذلك المكان لقائهم على شاطئ البحر في إسكندرية في جهة كذا؛ وهما صديقان كانا في صدر أيامهما - حين كانت لهما أيام... - رجلي حكومة يعملان في ديوان واحد، وكانا في عيشهما أخوي جد وهزل^(٢)، وفضائل وورذائل، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب، فلا تنقطع وسيلة أحدهما من الآخر؛ وكأن بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة والدمة من الدمة.

ولبثا كذلك ما شاء الله، ثم تبددا وأخذتُهما آفاق كدأب «الموظفين»: ينتظمون وينتثرون، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى، وكأن «الموظف» من تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾!

وأفترق الصديقان على مضض^(٣)، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض «موظفيها» هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض؛ ثم تصرفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق لا يلتقيان، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذي مضى: يُحفظ ولا يُري.

قال المحدث: وكنت مع الأستاذ (م)، وهو رجل في السبعين من عمره، غير أنه يقول عن نفسه إنه شاب لن يبلغ من العمر إلا سبعين سنة... ويزعم أن في جسمه الناموس الأخضر الذي يحيي الشجرة حياة واحدة إلى الآخر.

رجل فارة^(٤)، متائق، فاخر البزة، جميل السمات، فارغ الشطاط^(٥)

(١) مَثَابُهُمَا: مكان لقائهما.

(٢) هزل: مزاح.

(٣) مضض: كره، بالرغم عنهما.

(٤) فاره: ممتشق القامة.

(٥) فارغ الشطاط: ممشوق القامة.

كَالْمَصْبُوبِ فِي قَالِبٍ لَا عَوَجَ فِيهِ وَلَا انْحِنَاءَ، مُجْتَمِعٌ كُلُّهُ لَمْ يَذْهَبْ مِنْهُ شَيْءٌ، قَدْ حَفِظَتْهُ أَسَالِيبُ الْقُوَّةِ الَّتِي يُعَانِيهَا فِي رِيَاضَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ؛ وَهُوَ مِنْذُ كَانَ فِي آنْفَتِهِ^(١) وَشَبَابِهِ لَا يَمْشِي إِلَّا مُسْتَأَخِرَ الصَّدْرِ^(٢) مُشْدُودَ الظَّهْرِ، مُرْتَفِعَ الْعُنُقِ، مُسْنَدًا قَفَاهُ إِلَى طَوْقِهِ؛ وَبِذَلِكَ شَبَّ وَشَابَ عَلَى أَسْتَوَاءٍ وَاحِدٍ، وَكَلَّمَا سُئِلَ عَنْ سِرِّ قَامَتِهِ وَعُودِهِ لَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ: أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ إِسْنَادِ الْقَفَا^(٣).

وَهُوَ دَائِمًا عَطِرٌ عَبَقَ، ثُمَّ لَا يَمَسُّ إِلَّا عِطْرًا وَاحِدًا لَا يُغَيِّرُهُ، يَرَى أَنَّ هَذَا الطُّيْبَ يَحْفَظُ خَيَالَ الصَّبِيِّ، وَأَنَّهُ يُبْقِي لِلْأَيَّامِ رَائِحَتَهَا.

وَلَهُ فِلَسْفَةٌ مِنْ جِسْمِهِ لَا مِنْ عَقْلِهِ، وَلِفِلَسْفَتِهِ قَوَاعِدُ وَأَصُولٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ، وَمِنْ بَعْضِ قَوَاعِدِهَا الزَّهْرُ، وَمِنْ بَعْضِهَا الْمَوْسِيقَى، وَمِنْ بَعْضِهَا الصَّلَاةُ أَيْضًا؛ وَكُلُّ تِلْكَ هِيَ عِنْدَهُ قَوَاعِدُ لِحَفِظِ الشَّبَابِ. وَمِنْ فِلَسْفَتِهِ أَنَّ مَبَادِيءَ الشَّبَابِ وَعَادَاتِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ أَتَصَلَّ الشَّبَابُ فِيهَا وَأَطْرَدَ^(٤) فِي الرُّوحِ، فَتَكُونُ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةٌ تَحْرُسُ قُوَّةَ اللَّحْمِ وَالْكَدَمِ، وَتُحْمِسُكَ عَلَى الْجِسْمِ حَالَتَهُ النَّفْسِيَّةَ الْأُولَى.

وَهُوَ يَزِيدُ فِي حِكْمَةِ الصَّلَاةِ فِكْرَةً رِيَاضِيَّةً عَمَلِيَّةً لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ، هِيَ رِيَاضَةُ الْبَطْنِ وَالْأَمْعَاءِ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ؛ وَيَقُولُ إِنَّ ثَرَوَةَ الصَّلَاةِ تُكْتَنَزُ فِي صَنْدُوقَيْنِ: أَحَدُهُمَا الرُّوحُ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْآخَرُ الْبَطْنُ لِمَا قَبْلَ الْمَوْتِ؛ وَيَرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَفْرُضْ صَلَاةَ الصَّبْحِ قَبْلَ الشَّمْسِ إِلَّا لِجَعْلِ الْفَجْرِ يَنْصَبُ فِي الرُّوحِ كُلَّ يَوْمٍ.

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ: وَبَيْنَمَا نَحْنُ جَالِسَانِ مَرَّ بِنَا شَيْخٌ أَعْجَفُ^(٥) مَهْزُولٌ مَوْهُونٌ فِي جِسْمِهِ، يَذْلَفُ^(٦) مُتَقَاصِرُ الْخَطْوِ كَأَنَّ جِمْلَ السِّنِينَ عَلَى ظَهْرِهِ، مُرْعَشٌ^(٧) مِنَ الْكِبَرِ، مُسْتَقْدِمُ الصَّدْرِ مُنْحَنٍ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا، وَيَدُلُّ أَنْحِنَاؤُهُ عَلَى أَنَّ عَمْرَهُ قَدْ أَعْوَجَ أَيْضًا، وَهُوَ يَبْدُو فِي ضَعْفِهِ وَهْزَالِهِ كَأَنَّ ثِيَابَهُ مُلِثَتْ عِظَامًا لَا إِنْسَانًا، وَكَأَنَّهَا مَا خِيطَتْ إِلَّا لِتَمْسِكَ عِظَامًا عَلَى عِظَمٍ...

(١) آنفته: سالف أيامه.

(٢) مستأخر الصدر: بارز الصدر دلالة على الشباب وفتحه.

(٣) إسناد القفا: كتابة عن انتصاب القامة.

(٤) اطرد: يمشي.

(٥) أعجف: هزيل جفت عروقه.

(٦) مرعش: مرتجف.

قال: فحملق^(١) إليه (م) ثُمَّ صَاحَ: رينا! رينا. فَالْتَفَتَ الْعَجُوزُ، وَمَا كَادَ يَأْخُذُنَا بَصَرُهُ حَتَّى أَنْفَتَلَ إِلَيْنَا وَأَقْبَلَ ضَاحِكاً يَقُولُ: أَوْه! . ريت، ريت!

ونَهَضَ (م) فَاحْتَضَنَهُ وَتَلَاظَمَا طَوِيلًا، وَجَعَلَ رَأْسَاهُمَا يَدُورَانِ وَيَتَطَوَّحَانِ، وَكِلَاهُمَا يُقْبَلُ صَاحِبَهُ قُبْلًا ظَامِئَةً لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهَا فِي صَدِيقَيْنِ، حَتَّى يَتَخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَا يَتَعَانِقَانِ وَلَا يَتَلَاثِمَانِ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فِكْرَةٌ يَتَعَتَّقَانِهَا وَيَقْبَلَانِهَا مَعًا . . .

وَقُلْتُ: مَا هَذَا أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ؟

فَضَحَكَ (م) وَقَالَ: هَذَا صَدِيقِي الْقَدِيمُ (ن)، تَرَكْتُهُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ الشَّبَابِ، فَهَا هُوَ ذَا مُعْجَزَةٍ أُخْرَى مِنْ مُعْجَزَاتِ الْهَرَمِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ كَامِلًا إِلَّا اسْمُهُ . . .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا رِينَا؟

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): لَقَدْ أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَى: زَادَ الْعَمْرُ فِي رَجُلِي رَجُلًا مِنْ هَذِهِ أَلْعَصَا. وَرَجَعَ مُصَدِّرُ الْحَيَاةِ فِيَّ مُصَدِّرًا لِلْآلَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَدَخَلْتُ فِي طَبِيعَتِي عَادَةً رَابِعَةً مِنْ تَعَاطِي الدَّوَاءِ.

فَضَحَكَ (م) وَقَالَ: قَبِحَ اللَّهُ هَذِهِ الدَّخِيلَةَ، فَمَا هِيَ الْعَادَاتُ الثَّلَاثُ الْأَصْلِيَّةُ؟
قَالَ الْعَجُوزُ: هِيَ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالنَّوْمُ . . . ثُمَّ أَنْتَ يَا رَيْتَ كَيْفَ تَقْرَأُ
الْصَّحْفَ الْآنَ؟

قَالَ (م): أَقْرَأُهَا كَمَا يَقْرَأُهَا النَّاسُ، فَمَا سَوَالُكَ عَنْ هَذَا؟ وَهَلْ تَقْرَأُ
الْصَّحْفَ يَوْمًا غَيْرَ مَا تَقْرَأُ فِي يَوْمٍ؟

قَالَ: آه! أَنْ أَوَّلَ شَيْءٍ أَقْرَأُ فِي الصَّحْفِ أَخْبَارُ الْوَفَيَّاتِ، لِأَرَى بَقَايَا الدُّنْيَا،
ثُمَّ (إِعْلَانَاتِ الْأَدْوِيَةِ) . . . وَلَكِنْ كَيْفَ أَنْتَ يَا رَيْتَ؟ إِنِّي لَأَرَاكَ مَا تَزَالُ مِنْ وَرَاءِ
أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ذَلِكَ الْعَيْشِ الرَّخِيِّ، وَأَرَاكَ تَحْمِلُ شَيْخُوخَتَكَ بِقُوَّةٍ كَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ
يَخْرُمْكَ^(٢) مِنْ هُنَا وَلَا مِنْ هُنَا، وَكَأَنَّهُ يَلْمُسُكَ بِأَصَابِعِهِ لَا بِمَسَامِيرِهِ، فَهَلْ أَصْبَحْتَ
مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: نَاشِدْتُكَ اللَّهَ، أَفِي مُعْجَزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ مُعْجَزَةٌ لِعَظَمِي؟

(١) حملق: نظر باستغراب وإمعان.

(٢) يخرمك: يند منك وينقصك.

قال (م): ويحك يا رينا! إنَّك على العهدِ لم تبرخ كما كنتَ مزبلةً أفكار...
ماذا يصنعُ فيك العِلْمُ الحديثُ وأنت كما أرى بمنزلةٍ بينَ العَظمِ والخشب...؟

قالَ المحدث: وضحكنا جميعاً، ثُمَّ قلتُ لِالأستاذ (م): ولكن ما (رينا وريت)؟ وما هذه اللغة؟ وفي أي مُعجم تفسرها؟

قال: فتغامزُ الشيخان، ثُمَّ قال (م): يا بُني، هذه لُغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها، فهي كتلك الألفاظِ الأثريةِ الباقيةِ مِنَ الجاهليةِ الأولى.

قلت: ولكنَّ الجاهليةَ الأولى لم تنقضِ إلَّا فيكما... ولا يزالُ كلُّ شابٍّ في هذه الجاهليةِ الأولى، وما أحسبُ (رينا، وريت) في لغتكما القديمةِ إلَّا بمعنى (سوسو، وزوزو) في اللغة الحديثة؟

فقالَ (م): اسمع يا بُني: إنَّ رجلَ سنة ١٩٣٥ متى سألَ في رجلَ سنة ١٨٩٥: ما معنى رينا وريت؟ فردَّ عليه: إنَّ (رينا) معناها (كاترينا)؛ وكانَ (ن) بها صبيّاً^(١) مغرماً، وكانَ مُقتلاً قَتَلَهُ حُبُّها. أما (ريت) فهو لا يعرفُ معناها.

فامتعضَ العجوزُ (ن)، وقال: سبحانَ الله! اسمع يا بُني: أنَّ رجلَ سنة ١٨٩٥ فيَّ يقولُ لك: إن (ريت) معناها (مرغريت)، وكانتِ الجوى الباطنَ وكانتِ اللوعةَ والحريقَ الَّذي لا ينطفئُ في قلبِ الأستاذ (م).

قلت: فأنتما أيها العجوزانِ من عُشاقِ سنة ١٨٩٥، فكيف تريانِ الحُبَّ الآن؟ قالَ العجوزُ (ن): يا بُني، إنَّ أواخرَ العمرِ كالمنفى... ونحن نتكلَّمُ بالألفاظِ الَّتِي نتكلَّمُ بها أنت وأنتما وأنتم... غيرَ أنَّ المعاني تختلفُ اختلافاً بعيداً. قلت: وأضربُ لهم مثلاً.

قال: وأضربُ لهم مثلاً كلمة (الأكل)، فَلها عندنا ثلاثةُ معانٍ: الأكل، وسوءُ الهضم، ووجعُ المَعِدَةِ؛ وكلمةُ (المشي) فلها أيضاً ثلاثةُ معانٍ: المشي، والتعبُ، وغمزاؤُ العَظم... وكلمةُ (النسيم)، النسيمُ العليلُ يا بُني: زِيدْ لنا في معناها: تحرُّكُ (الروماتزم)...

فضحك (م) وقال: يا «شيخ»...

(١) صبيّاً: عاشقاً.

قَالَ الْعَجُوزُ: وتلك الزيادة يا بُنَيَّ لا تَجِيءُ إِلَّا من نقص، فهنا بَقِيَّةٌ من يَدِين، وبقِيَّةٌ من رَجَلِين، وبقِيَّةٌ من بطن، وبقِيَّةٌ من ومن ومن، ومجموعُ كلِّ ذلك بَقِيَّةٌ من إنسان.

قَالَ الْأُسْتَاذ (م): والبقِيَّةُ في حياتك.

قَالَ (ن): وبِالْجَمَلَةِ يا بُنَيَّ فَإِنَّ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ فِي الرَّجْلِ الْهَرِمِ تَكُونُ حَوْلَ ذَاتِهَا لَا حَوْلَ الْأَشْيَاءِ؛ وما أعجَبَ أَنْ تَكُونَ أَقْصَرَ حَرَكَتِي الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا كَذَلِكَ، وَإِذَا قَالَ الشَّابُّ فِي مَغَامِرِهِ: لِيَمِضِ الزَّمَنُ وَلِتَتَصَرَّمْ الْأَيَّامُ! فَإِنَّ الْأَيَّامَ هِيَ الَّتِي تَتَصَرَّمُ وَالزَّمَنُ هُوَ الَّذِي يَمِرُّ؛ أَمَّا الشُّيُوخُ فَلَنْ يَتِمَّنُوهُ أَبَدًا؛ فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ: لِيَمِضِ الزَّمَنُ، فَكَأَنَّمَا قَالَ: فَلَا مِضَ أَنَا...

فَصَاحَ (م): يَا شَيْخَ يَا شَيْخَ...

ثُمَّ قَالَ الْعَجُوزُ: وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْعِلْمَ نَفْسُهُ يَهْرُمُ مَعَ الرَّجْلِ الْهَرِمِ، فَيُصْبِحُ مِثْلَهُ ضَعِيفًا لَاجِئًا عِنْدَهُ وَلَا حِيلَةَ لَهُ؛ وَكُلُّ مِصْنَعٍ لِنَكْشِيرٍ وَمِصْنَعٍ بِنِكَ مِصْرَ وَالْيَابَانِ وَالْأَمْرِيكَتَيْنِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ مِصْنَعِ الدُّنْيَا، لَا فَائِدَةَ مِنْ جَمِيعِهَا؛ فَهِيَ عَاجِزَةٌ أَنْ تَكْسُو عِظَامِي...

قَالَ الْمُحَدِّثُ: فَقَهَقَهُ الْأُسْتَاذ (م)، وَقَالَ: كِذْتُ - وَاللَّهِ - أَتَخَشَّبُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، وَكَادَتْ مَعَانِي الْعَظُمِ تَخْرُجُ مِنْ عِظَامِي؛ لَقَدْ كَانَ الْمُتَوَحِّشُونَ حُكَمَاءَ فِي أَمْرِ شُيُوخِهِمْ، فَإِذَا عَلَتِ السَّنُ بِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتْرَكُوهُمْ أَحْيَاءَ إِلَّا بِأَمْتَحَانٍ، فَهُمْ يَجْمَعُونَهُمْ وَيُلْجِئُونَهُمْ إِلَى شَجَرَةٍ غَضَّةٍ لَيِّنَةٍ الْمَهْرَةِ، فَيُكْرَهُونَهُمْ أَنْ يَصْعَدُوا فِيهَا ثُمَّ يَتَدَلَّوْا مِنْهَا وَقَدْ عَلِقَتْ أَيْدِيهِمْ بِأَغْصَانِهَا؛ فَإِذَا صَارُوا عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ اجْتَمَعَ الْأَشْدَاءُ مِنْ فِتْيَانِ الْقَبِيلَةِ فَيَأْخُذُونَ بِجَذْعِ الشَّجَرَةِ يَرْجُونَهَا وَيَنْفَضُونَهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ؛ فَمَنْ ضَعُفَتْ يَدَاهُ مِنْ أَوْلَئِكَ الشُّيُوخِ أَوْ كَلَّتْ حَوَامِلُ ذِرَاعِيهِ فَأَفَلَّتْ الْغَصَنَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ فَوْقَ، أَخَذُوهُ فَأَكَلُوهُ؛ وَمَنْ اسْتَمْسَكَ أَنْزَلُوهُ فَأَمْهَلُوهُ إِلَى حِينٍ!

فَأَقْشَعَرَ الْعَجُوزُ (ن)، وَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ! هَذِهِ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، وَلَعَنَهَا اللَّهُ مِنْ حِكْمَةٍ، فَإِنَّمَا يَطْبِخُونَهُمْ فِي الشَّجَرَةِ قَبْلَ الْأَكْلِ، أَوْ هُمْ يَجْعَلُونَهُمْ كَذَلِكَ لِيَتَوَهَّمُوهُمْ طُيُورًا فَيَكُونَ لِحْمُهُمْ أَطِيبَ وَالذَّ، وَيَتَسَاقَطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّجَرَةِ حَمَائِمٌ وَعَصَافِيرُ.

قال (م): إِنْ كَانَ فِي الْوَحْشِيَّةِ مَنْطِقٌ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ (بَابُ لَمْ)، وَلَا «بَابُ كَيْفٍ»، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ أَنْ يَأْكُلُوهُمْ لِأَكْلِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْبِيَةُ الطَّبِيعَةِ لِأَهْلِ الطَّبِيعَةِ؛ فَإِنَّ رُؤْيَا الرَّجُلِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَهَزَّهَا وَعَاقَبَتْهَا يُبْعَدُ عَنْهُ الضَّعْفُ وَالتَّخَلُّلُ، وَيُدْفَعُ إِلَى مُعَانَاةِ الْقُوَّةِ، وَيَزِيدُ نَفْسَهُ انْتِشَاراً عَلَى الْحَيَاةِ وَطَمَعاً فِيهَا وَتَنْشِطاً لِأَسْبَابِهَا، فَيَكُونُ سَاعِدُهُ آخَرَ شَيْءٍ يَهْرَمُ، وَلَا يَزَالُ فِي الْحِدَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالْوُثْبَانِ؛ فَلَا يَعْجُزُ قَبْلَ يَوْمِهِ الطَّبِيعِيِّ، وَيَكُونُ الْمُتَوَحِّشُونَ بِهَذَا قَدِ احْتَالُوا عَلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَأَضْطَرُّوْهَا إِلَى مَجْهُودِهَا، وَأَكْرَهُوْهَا عَلَى أَنْ تَبْذُلَ مِنَ الْقُوَّةِ آخَرَ مَا يَسَعُ الْجِسْمَ.

قال (ن): فَتَعَمَّ إِذَنْ، وَلَعَنَ اللَّهُ مُعَانِي الضَّعْفِ؛ كَذَبْتُ - وَاللَّهِ - أَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًا، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَوَحِّشًا تَخَافُ أَنْ تُؤْكَلَ، فَتُظَلُّ شَيْخًا رَجُلًا لَا شَيْخًا طِفْلًا، وَتَرَى الْعَمَرَ كَمَا يَرَى الْبَخِيلُ ذَهَبَهُ: مَهْمَا يَبْلُغُ فَكَثْرَتُهُ غَيْرُ كَثِيرَةٍ.

قَالَ الْمُحَدِّثُ: وَأَضْجَرَنِي حَوَارُهُمَا، إِذْ لَمْ يَعْدُ فِيهِ إِلَّا أَنَّ جِسْمَ هَذَا يَرُدُّ عَلَى جِسْمِ هَذَا؛ وَإِنَّمَا الشَّيْخُ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ زَمَانٌ يَتَكَلَّمُ وَيَقْضُ وَيَعْطُ وَيَنْتَقِدُ، وَلَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ مَعَكَ فِي حَقِيقَتِهِ إِنْ لَمْ تَرْحَلْ أَنْتَ فِيهِ إِلَى دُنْيَا قَدِيمَةٍ؛ فَقُلْتُ لَهُمَا: أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ! أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥...

العجوزان

٢

قال محدثي: ولَمَّا قُلْتُ لهما: أيُّها العجوزان، أريدُ أن أسافرَ إلى سنة ١٨٩٥
نظرَ إليَّ العجوزُ الظريفُ (ن)، وقال: يا بُنيَّ، أحسبُ رؤيتَكَ إيايَ قد دَنَتْ بِكَ مِنْ
الآخرة... فتريدُ أن نلوذَ بأخبارِ شبابنا لِننظرَ إلينا وفينا روحَ الدنيا.

قالَ الأستاذُ (م): وكيف لا تُريهِ الآخرةَ وأكثرَكَ الآنَ في «المجهول»؟.

قال: ويحك يا (م)! لا تزالُ على وجهِكَ مِسحةً مِنَ الشيطانِ هنا وهنا؛
كأنَّ الشيطانَ هو الَّذي يُصليحُ في داخلِكَ ما أختلَّ من قوانينِ الطبيعة، فلا
تُسْتَبِينُ فيكَ السَّنُ وقد نَبَّهْتُ^(١) على السبعين، وما أحسبُ الشيطانَ في تنظيفِكَ
إِلَّا كَالَّذِي يَكْنُسُ بَيْتَهُ...

قال (م): فأنت أيُّها العجوزُ الصالحُ بيتٌ قد تركَهُ الشيطانُ وعلَّقَ عليه كلمةً (لإلحجار)...
فضحك (ن)، وقال: تاللهُ إِنَّ الهَرَمَ لَهُوَ إعادةُ درسِ الدنيا، وفهمُها مرةً
أخرى ففهماً لا خطأ فيه؛ إذ ينظرُ الشيخُ بالعينِ الطاهرة، ويسمعُ بالأذنِ الطاهرة،
ويلمسُ باليدِ الطاهرة... وتاللهُ إِنَّ الشيطانَ لَا معنى لَهُ إِلَّا أَنَّهُ وقاحةُ الأعصاب.
قالَ (م): فأنت أيُّها العجوزُ الصالحُ إنما أصبحتَ بلا شيطانٍ لأنَّ الهَرَمَ قد
أدَّبَ أعصابَكَ...

قالَ العجوزُ الظريفُ: وعندَ مَنْ غيرنا - نحنُ الشيوخُ - تُطاعُ الأوامرُ والنواهي
الأدبيةُ حقَّ طاعتِها؟ عندَ مَنْ غيرِ الشيوخِ تقدَّسُ مثلُ هذهِ الحِكَمِ العاليةِ: لا تعتدِ
على أحد... لا تُفسدِ امرأةً على زوجها...

(١) نبَّهت: زادت.

قال المحدث: وضحكننا جميعاً، وكان العجوز (ن) من الآيات في الظرف والنكتة، فقال: تظنني يا بُني في السبعين؟ فوالله ما أنا بجملتي في السبعين، والله والله.

قال (م): لقد أهرأ الشيخ يا بُني، فإن هذا من خرفه فلا تصدقه.

قال (ن): والله ما خرفتُ وما قلتُ إلا حقاً، فههنا ما عمره خمس سنوات فقط، وهو أسناني...

قلت: «ورينا وريت» سنة ١٨٩٥؟

قال الأستاذ (م): أنت يا بُني من المجذدين، فما هواك في القديم وما شأنك به؟ وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طرَف بعينه وحَدَّ بصره إليّ وقال: أئنك لأنت هو؟ لعمري إن في عينيك لضجيجاً وكذباً وجدالاً واختيالاً وزعماً ودعوى وكفراً وإلحاداً؛ ولعمري...

فقطعتُ عليه وقلتُ: «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون»، لقد وقع التجديد في كل شيء إلا في الشيوخ أجساماً والشيوخ عقولاً؛ فهؤلاء وهؤلاء عند النهاية، وغير مستنكر من ضعفهم أن يدينوا بالماضي، فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضغف!

قال العجوز: رحم الله الشيخ (ع)؛ كان هذا يا بُني رجلاً ينسخ للعلماء في زمننا القديم، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة^(١) الواحدة، وهو رديء الخط، فإذا وُرق لإديب، ولم يُعجبه خطُه فكلمه في ذلك تعلق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة؛ منها عشرة للكتابة، وعشرة غرامة لإهانة الكتابة...

نعم يا بُني، إن للماضي في قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن، ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة)، لا تُعد في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، والحقيقة بنفسها لا بأس بها؛ وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا في رأي المغفل.

قال الأستاذ (م): وكيف ذلك؟

قال العجوز: زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تُضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل، فأحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار، ولم تكن امرأته في دارها فجاء

(١) الكراسة: الدفتر.

بِالْحَطْبِ وَأَضْرَمَ فِيهِ وَجَعَلَ يَنْفَخُ ، وَكَانَ الْحَطْبُ رَطْباً فَدَخَنَ وَلَمْ يَشْتَعَلَ ، فَفَكَّرَ الْمَغْفَلُ قَلِيلاً ثُمَّ ذَهَبَ فَلَيْسَ ثَوْبَ أَمْرَأَتِهِ وَعَادَ إِلَى النَّارِ ، وَكَانَ الْحَطْبُ قَدْ جَفَّ فَلَمْ يَكْذُ يَنْفَخُ حَتَّى اشْتَعَلَ وَتَضَرَّمَ ؛ فَأَيَقَنَ الْمَغْفَلُ أَنَّ النَّارَ تَخَافُ أَمْرَأَتَهُ . . . وَأَنَّهَا لَا تَتَضَرَّمُ إِلَّا إِذَا رَأَتْ ثَوْبَهَا !

* * *

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ الْكَلَامَ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ أَصْبَحَ عِنْدَنَا كَفَنُونَ الْحَرْبِ تُبَدِّعُ مَا تُبَدِّعُ لِتَغْيِيرِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَعَلَى مَا بَلَغَتْ وَسَائِلُ الْمَوْتِ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ فَإِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُمَيِّتَ أَحَداً مَرَّتَيْنِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ يَا بُنَيَّ كَثِيراً فَلَمْ أَرِ إِلَى الْآنَ مِنْ أَثَارِ الْمَجْدُودِينَ عِنْدَنَا شَيْئاً ذَا قِيَمَةٍ ؛ مَا كَانَ مِنْ هُرَاءٍ وَتَقْلِيدٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، وَمَا كَانَ جَيِّداً فَهُوَ كَالنَّفَائِسِ فِي مِلْكِ اللَّصِّ : لَهَا اعْتِبَارَانِ ، إِنَّ كَانَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ مَقْتِنِيهَا . . . فَلَا خَيْرَ عِنْدَ الْقَاضِي .

كَلَّا أَيُّهَا اللَّصِّ ، لَنْ تَسْمَى مَالِكاً بِهَذَا الْأَسْلُوبِ ؛ إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْحَقِّ وَمِنَ نَفْسِكَ .

يَقُولُونَ : الْعِلْمُ وَالْفَنُّ وَالْغَرِيزَةُ وَالشَّهْوَةُ وَالْعَاطِفَةُ وَالْمَرَأَةُ وَحَرِيَّةُ الْفِكْرِ وَأَسْتِقْلَالُ الرَّأْيِ وَنَبْذُ التَّقَالِيدِ وَكَسْرُ الْقِيُودِ ، إِلَى آخِرِهِ وَإِلَى آخِرِهَا . . . فَهَذَا كُلُّهُ حَسَنٌ مَقْبُولٌ سَائِغٌ^(١) فِي الْوَرَقِ إِنْ كَانَ فِي مَقَالَةٍ أَوْ قِصَّةٍ ، وَهُوَ سَائِغٌ كَذَلِكَ حِينَ يَنْحَصِرُ فِي حَدُودِهِ الَّتِي تَصْلُحُ لَهُ مِنْ ثِيَابِ الْمُمَثِّلِينَ أَوْ مِنْ بَعْضِ النُّفُوسِ الَّتِي يُمَثِّلُ بِهَا الْقَدْرُ فَصُولُهُ أَلْسَاخَرَةُ أَوْ فَصُولُهُ الْمُبْكِيَّةُ ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ يُخْرَجُونَ هَذَا كُلُّهُ لِلْحَيَاةِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهَا الْمَوْجِبَةِ ، تَرُدُّهُ الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ أَلْسَالِبَةٍ ، إِذْ لَا تَزَالُ تَخْلُقُ خَلْقَهَا وَتَعْمَلُ أَعْمَالَهَا بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ هَذَا الْقَانُونُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الْمَرِيضَ حِينَ يَهْدُمُ مِنْ صَاحِبِهِ - يَهْدُمُ فِي الْكُونِ بِصَاحِبِهِ ؛ فَفِيهَا أَيْضاً الْقَانُونُ الْآخِرُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الْأَصْحِيحَ أَلْسَامِي حِينَ يُبْنَى مِنْ أَهْلِهِ - يُبْنَى فِي الْكُونِ بِأَهْلِهِ .

* * *

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ سُلْكَى الْكَهْرِبَاءِ كَانَ فِيلَسُوفاً مُجَدِّداً ، فَقَالَ لِلْآخِرِ : مَا أَرَاكَ إِلَّا رَجَعِيًّا ، إِذْ كُنْتَ لَا تَتَبَعُنِي أَبَداً وَلَا تَتَّصِلُ بِي وَلَا تَجْرِي فِي طَرِيقَتِي ؛ وَلَنْ تُفْلِحَ^(٢) أَبَداً إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ مَأْخُذِي وَتَتْرَكَ مَذْهَبَكَ إِلَى مَذْهَبِي . فَقَالَ لَهُ

(٢) تَفْلِحُ : تَنْجَحُ .

(١) سَائِغٌ : مَقْبُولٌ .

صاحبه: أيها الفيلسوف العظيم، لو أنني أتبعثك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب في؛ وما علمتكَ تشتمني في رأيك إلا بما تمدحني به في رأيي.

قال العجوز: وهذا هو جوابنا إذا كنّا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياة أو العفة إلى آخرها وإلى آخره؛ ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات، من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتها تلبّست بعض العقول كما يتلبّس أمثالها بعض الطباع فتزيغ بها؛ وللحياة في لغتها العملية مترادفات كالمترادفات اللفظية: تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد، فالمخرّب والمخرّف والمجدّد بمعنى!

كلّ مجدّد يريد أن يضع في كلّ شيء قاعدة نفسه هو، فلو أطعناهم لم تبقَ لشيء قاعدة.

قال الأستاذ (م) إنّ هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على سنّتها وما تصلح به من الضبط والإحكام، والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدّرة، والسهولة في عملها الصعبة في تدبيرها؛ فعلى نحو ممّا كانت الحياة في بطن الأمّ يجب أن نعيش في بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهياة وحيز معروف؛ وإلا بقيت حركات هذا الإنسان في معناها كحركات الجنين؛ يرتكض ليخرج عن قانونه، فإن استمرّ عمله ألقى به مسحاً مشوهاً من جسد كان يعمل في تنظيمه، أو قدف به ميتاً من جسم كان كلّ ما فيه يعمل لحياته وصيائه.

هذا الجسم كلّهُ يشرع للجنين ما دام فيه، وهذا الاجتماع كلّهُ يشرع للفرد ما دام فيه؛ فكيف يكون أمر من أمر إذا كان الجنين مجدّداً لا يعجبه مثلاً وضع القلب ولا يرضيه عمل الدم ولا يريد أن يكون مُقيّداً لآتة حرّ.

أنظر إلى هذا الشرطي في هذا الشارع يضرب مقبلاً ليذبر، ومُدبراً ليُقبل، وقد البسته الحكومة ثياباً يتميّز بها، وهي تتكلّم لغة غير لغة الثياب، وكأنّها تقول: أيّها الناس، إنّ ههنا الإنسان الذي هو قانون دائماً، والذي هو قوّة أبداً، والذي هو سجن جيناً، والذي هو الموت إذا اقتضى الحال.

أتحسب يا بُنيّ هذا الشرطي قائماً في هذا الشارع كجدران هذه المنازل؟ كلا يا بُنيّ؛ إنّه واقف أيضاً في الإرادة الإنسانية وفي الحس البشري وفي العاطفة

أَلْحَيَّةُ ؛ فَكَيْفَ لَا يَمْحُوهُ الْمَجْدُدُونَ مَعَ أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ إِزْغَامٌ بِمَعْنَى ، وَإِكْرَاهٌ بِمَعْنَى
غَيْرِهِ ، وَقَيْدٌ فِي حَالَةٍ ، وَبَلَاءٌ فِي حَالَةٍ أُخْرَى ؟

لَكِنَّهُ إِزْغَامٌ لِيَقَعَ بِهِ التَّيْسِيرُ ، وَإِكْرَاهٌ لِيَنْطَلِقَ بِهِ الرِّغْبَةُ ، وَقَيْدٌ لِيَتِمَّجَّدَ بِهِ
الْحَرِيَّةُ ؛ وَكَانَ هُوَ نَفْسُهُ بَلَاءٌ مِنْ نَاحِيَةٍ لِيَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ عِصْمَةٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي
تُقَابِلُهَا .

يَا بُنَيَّ ، كُلُّ دِينٍ صَالِحٌ ، وَكُلُّ فَضِيلَةٍ كَرِيمَةٌ ، وَكُلُّ خُلُقٍ طَيِّبٌ - كُلُّ شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى طَرِيقِ الْمَصَالِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَهَذَا الشَّرْطِيِّ بَعِيْنِهِ : فَإِمَّا تَخْرِيبُ
الْعَالَمِ أَيُّهَا الْمَجْدُدُونَ ، وَإِمَّا تَخْرِيبُ مَذْهَبِكُمْ . . .

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : أَنْبَحْتُ عَمَّا نَتَسَلَّطُ بِهِ أَمْ نَبْحُتُ عَمَّا يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا ؟ وَهَلْ
تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ غَرَائِزُنَا أَقْوَى مِنَّا وَأَشَدَّ ، أَوْ نَكُونَ نَحْنُ أَشَدَّ مِنْهَا وَأَقْوَى ؟ هَذِهِ هِيَ
الْمَسْأَلَةُ لَا مَسْأَلَةُ الْجَدِيدِ وَالْقَدِيمِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي يَعْظُمُ بِنَا وَنَعْظُمُ بِهِ ، فَسَدَّ الْحِسُّ
وَفَسَدَتِ الْحَيَاةُ ؛ وَكُلُّ الْأَدْيَانِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ إِنَّ هِيَ إِلَّا وَسَائِلُ هَذَا
الْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْسُّمُوِّ بِالْحَيَاةِ فِي آمَالِهَا وَغَايَاتِهَا عَنِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا فِي وَقَائِعِهَا
وَمَعَانِيهَا .

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَرَأَيْتُنِي بَيْنَ الْعَجُوزَيْنِ كَأَنِّي بَيْنَ نَابِيْنٍ ؛ وَلَمْ أَكُنْ مُجَدِّدًا عَلَى
مَذْهَبِ إِبْلِيسَ الَّذِي رَدَّ عَلَى اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَظَنَّ لِحِمَقِهِ أَنَّ قُوَّةَ الْمُنْطَقِ تَغْيَرُ مَا لَا
يَتَغَيَّرُ ؛ فَسَكَتُ ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَا مِنْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ قُلْتُ : وَالرَّحْلَةَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ؟

العجوزان

٣

قال المحدث: وتبين في العجوز (ن) أثر التعب، فتوجع وأخذ يتن كآن بعضه قد مات لوقته... أو وقع فيه اختلال جديد، أو نالته ضربة اليوم؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه. ثم تأفف وتملل^(١) وقال: إن أول ما يظهر على من شاع وهرم، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به.

قال الأستاذ (م): إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مطبقة فيها) بعض المواد من قانون العقوبات فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث.

فضحك (ن) وقال: قد عرفنا «الحبس البسيط» و «الحبس مع الشغل» فما هو هذا الحبس الثالث؟

قال: هو «الحبس مع المرض»...

قال (ن): صدقت لعمري، فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا: وكأن كرسي الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسي الحكومة، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين... أتدري معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلٍ أَعْمَرَ﴾ ولم سماء الأردل؟

قلنا: فلم سماء كذلك؟

قال: لأنه خلط الإنسان ببعضه ببعض، ومسحبه من أوله إلى آخره، فلا هو رجل ولا شاب ولا طفل، فهو أردأ وأردل ما في البضاعة...

(١) تملل: أظهر ضجره.

فأستضحك الأستاذ (م) وقال: أمّا أنا فقد كنتُ شيخاً حين كنتُ في الثلاثين من عمري، وهذا هو الذي جعلني فتى حين بلغتُ السبعين.

قال (ن): كأنّ الحياة تُصحح نفسها فيك.

قال: بل أنا كرهتها أن تُصحح نفسها؛ فقد عرفتُ من قبل أن سعة الإنفاق في الشباب هي ضائقة الإفلاس في الهرم، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدّاداً) لا يخطيء الحساب، فإذا أنا اقتصدتُ عدتُ لي، وإذا أسرفتُ عدتُ عليّ؛ ولئن تُعطيني الدنيا بعد الشباب ألا ممّا في جسمي، إذ لا يُعطي الكون حياً أراد أن ينتهي منه، فكنتُ أجعل نفسي كالشيخ الذي تقولُ له المَلذّاتُ الكثيرة: لستُ لك؛ ومن ثمّ كانت لذاتي كلّها في قيود الشريعتين: شريعة الدين وشريعة الحياة.

قال: وعرفتُ أن ما يُسميه الناس وَهَنٌ^(١) الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب؛ فما هو إلا عمل الإنسان في تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسُرور والحزن واللذة والألم، فكنتُ مع الجسم في شبابه ليكون معي بعد شبابه، ولم أبرح أتعاهده^(٢) كما يتعاهد الرجل داره: يزيّد محاسنها وينفي عيوبها، ويحفظ قوّتها ويتقي ضعفها؛ ويجعلها دائماً باله وهمّة، وينظر في يومها القريب ليعدها البعيد، فلا ينقطع حساب آخرها وإن بعد هذا الآخر، ولا يزال أبداً يحتاط لِمَا يخشى وقوعه وإن لم يقع.

قال العجوز (ن): صدقت - واللّه -؛ فما أفلح إلا من اغتنم الإمكان؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب؛ وهذا الجسم الإنساني كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسها البلدي) ألقائهم على صيانتها ونظامها وتقويتها؛ ورئيس هذا المجلس الإرادة، وقانونه كلّ واجبات ثقيلة، وهو كغيره من القوانين: إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن في الآخر.

قال الأستاذ (م): وكلّ جهاز في الجسم هو عضو من أعضاء ذلك (المجلس البلدي)؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلي والجهاز العصبي والدورة الدموية، هذه كلّها يجب أن تُترك على حريتها الطبيعية وأن تُعان على سُنتها، فلا يُحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة، أو مفسدة من زينة، أو مطمعة في رفاهية، أو دعوة إلى مدنية، أو شيء مما يُفسد حكمها أو يُعطل عملها ويُضعف طبيعتها.

(١) وهن: ضعف.

(٢) أتعاهده: أعني به.

وَالْقَاعِدَةُ فِي الْعَمْرِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّبَابُ هُوَ الطُّفُولَةُ الثَّانِيَّةُ فِي بَرَاءَتِهِ وَطَهَارَتِهِ، كَانَتْ الشَّيْخُوخَةُ هِيَ الشَّبَابَ الثَّانِي فِي قُوَّتِهَا وَنَشَاطُطِهَا؛ وَمَا رَأَيْتُ كَالْدَيْنِ وَسِيلَةً تَجْعَلُ الطُّفُولَةَ مُمْتَدَّةً بِحَقَائِقِهَا إِلَى آخِرِ الْعَمْرِ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ؛ فَسَرُّ الطُّفُولَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي قُوَّتِهَا عَلَى حَذْفِ الْفُضُولِ وَالزَّوَائِدِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَلَا يُطْغِيهَا^(١) الْغِنَى، وَلَا يَكْسِرُهَا الْفَقْرُ، وَلَا تَذُلُّهَا الشَّهْوَةُ، وَلَا يُفْزِعُهَا الطَّمَعُ، وَلَا يَهْوِلُهَا^(٢) الْإِخْفَاقُ، وَلَا يَتَعَاطَمُهَا الضَّرُّ، وَلَا يُخَيِّفُهَا الْمَوْتُ؛ ثُمَّ لَا تَمَلُّ وَهِيَ الصَّابِرَةُ، وَلَا تَبَالِغُ وَهِيَ الرَّاظِيَّةُ، وَلَا تَشْكُ وَهِيَ الْمُوقِنَةُ، وَلَا تُسْرِفُ وَهِيَ الْقَانِعَةُ، وَلَا تَتَبَلَّدُ وَهِيَ الْعَامِلَةُ، وَلَا تَجْمَدُ وَهِيَ الْمُتَجَوْلَةُ؛ ثُمَّ هِيَ لَا تُكَلِّفُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَّا الْعُطْفَ وَالْحُبَّ وَالْبَشَاشَةَ وَطِبَاعَ الْخَيْرِ الَّتِي يَمْلِكُهَا كُلُّ قَلْبٍ؛ وَلَا تُوجِبُ شَرِيعَتُهَا فِي الْمَعَامِلَةِ إِلَّا قَاعِدَةَ الرَّحْمَةِ، وَلَا تُقَرِّرُ فَلْسَفَتُهَا لِلْحَيَاةِ إِلَّا طَهَارَةَ النَّظَرِ؛ ثُمَّ تَهَكِّمُ بِالدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمُّ لَهَا، وَتَسْتَغْنِي فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُ، وَتَسْتَخْرِجُ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهَا دَائِمًا مِمَّا أَمَكْنَ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

وَبِكُلِّ هَذَا تَعْمَلُ الطُّفُولَةُ فِي حِرَاسَةِ الْحَيَاةِ الْعُضَّةِ وَأَسْتِمْرَارِهَا وَنُمُوِّهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا زَهَا طِفْلٌ وَلَا شَبَّ غُلَامٌ وَلَا رَأَتْ الْعَيُونُ بَيْنَ هُمُومِ الدُّنْيَا ذَلِكَ الْكُرُوءَ وَذَلِكَ الْمَنْظَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَطْفَالِ يُثْبِتَانِ أَنَّ الْبَرَاءَةَ فِي النَّفْسِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ هُوَ أَيْضًا مِنْ خَصَائِصِ الدِّينِ وَبِهِ يَعْمَلُ الدِّينُ فِي تَهْذِيبِ الْحَيَاةِ وَأَطْرَادِهَا عَلَى أَصُولِهَا الْقَوِيَّةِ السَّلِيمَةِ، وَمَتَى قَوِيَ هَذَا الدِّينُ فِي إِنْسَانٍ لَمْ تَكُنْ مَفَاسِدُ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِهِ، حَتَّى كَانَتْهُ فِي أَرْضٍ وَهِيَ فِي أَرْضٍ أُخْرَى، وَأَصْبَحَتْ الْبَرَاءَةُ فِي نَفْسِهِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ.

ثُمَّ قَالَ: وَالْعَجِيبُ أَنَّ اعْتِقَادَ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَتَحَقَّقُ أَبَدًا بِأَحْسَنِ مَعَانِيهِ وَأَكْمَلِهَا إِلَّا فِي قَلِيلَيْنِ: قَلْبُ الطِّفْلِ لِأَنَّهُ طِفْلٌ، وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ.

فَقَالَ الْعَجُوزُ (ن): إِنَّهُ لَكَمَا قُلْتُ، وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْآدَمِيَّةِ الْبَاطِلَةِ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ الْوَاحِدَةَ فِي أَلْفِ نَفْسٍ لَتَجْعَلَ الْحَقِيقَةَ الْوَاحِدَةَ كَأَنَّهَا أَلْفُ حَقِيقَةٍ مُتَعَادِيَةٍ مُتَنَازِعَةٍ؛ وَالطَّامِعَانِ فِي أَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ تَكُونُ شَهْوَةٌ أَحَدُهُمَا هِيَ الشَّهْوَةُ وَهِيَ الْقَتْلُ؛ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْمُلْحِدِينَ وَإِلْحَادِهِمْ، يُزْرُونَ عَلَى الْأَدْيَانِ بِأَنَّهَا تَكَالِيفُ وَقِيُودٌ وَصِنَاعَةٌ لِلْحَيَاةِ، ثُمَّ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِصِنَاعَةِ آلَةِ النَّفْسِ الَّتِي

(٢) يَهْوِلُهَا: يَرْهَبُهَا.

(١) يُطْغِيهَا: يَحْمِلُهَا عَلَى التَّجْبَرِ.

تستطيع أن تحرّك المختلفين حركة واحدة، فما أثبتت الإنسانية بشيء كما أثبتت بهذا الخلاف الذي يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجني، ويجعل الثفرة وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الآلفة والثقة.

لقد جاء العلم بالمعجزات، ولكن فيما بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان ومنافعه، وبين الإنسان وشهوته؛ فهل غير الدين يجيء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس، وبين النفس وهمومها، وبين ما هو حق وما هو واجب؟

قال المحدث: ثم نظر إليّ العجوز (ن) وقال: صل عمك يا بني بالحديث الذي مضى، فأين بلغنا أنفاً من أمر التجديد والمجددين؟ وماذا قلنا وماذا قلت؟ أما إن الحماسة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو قديم في الدنيا؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا إطلاق الحرية في استعمال كل أديب حقه في الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة.

قال الأستاذ (م): وليس الظاهر بما يظهر لك منه، ولكن بالباطن الذي هو فيه، فمستشفى المجاذيب قصر من القصور في ظاهره، ولكن المجاذيب هم حقيقة لا البناء، وكل مجدّد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم، وهو في الحقيقة مستشفى مجاني، غير أن المجانين فيهم طباع وشهوات ونزوات؛ وعلى هذا ما الذي يمنع الفجور المتوقّع أن يسمى نفسه الأدب المكشوف؟

قال (ن): وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفرن وقاحة مقدسة... وأن (لا أدبية) رجل الفر هي (الا أخلاقية العالية)...

قال الأستاذ (م): فوقاحة الشهوة إذا استعلت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت إلى مذهبها، كانت تجديداً ما في ذلك ريب؛ ولكن هذا المذهب هو أقدم ما في الأرض، إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعوا من البهائم منذ خلق الله البهائم...

قال (ن): وقل مثل ذلك في متسخط على الله وعلى الناس يُخرج من كفره بين أهل الأديان جديداً، وفي مغرور يتغفل الناس، وفي لص آراء، وفي مُقلد أعور - كل واحد من هؤلاء وأشبايهم مبتلى بعلة، فمذهبه رسالة علية؛ وأكثرهم لا يكون ثباته على الرأي الفاسد إلا من ثبات العلة فيه.

قال المحدث: وكنت من المجددين، فأرمضني^(١) ذلك وقلت للعجوزين: إن هذا نصف الصحيح، أما النصف الآخر فهو في كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة؛ نعم إنهم لا يستعملون حقهم في الوقاحة، ولكن القروش تستعمل حقها...

فضحك العجوز (ن)، وقال: يا بُني، إن الجديد في كل جمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى... فالجمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه، ولكن التسمية وحدها هي الجديدة؛ ولو كان البرهان في خلق الجمار لصح هذا الجديد، غير أن التصديق والتكذيب هنا في آذان الموسيقيين لا في خلق جمارنا المحترم...

قال (م) وزعموا أن رجلاً نصب فخاً لصيد العصافير، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ إلى شيء جديد، فقال: يا هذا، مالك مطموراً^(٢) في التراب؟ قال الفخ: ذلك من التواضع لخلق الله! قال: فمم كان أحنأوك؟ قال الفخ: ذلك من طول عبادتي لله! قال: فما هذه الحبة عندك؟ قال الفخ: أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها! قال العصفور: فتبيخها^(٣) لي؟ قال: نعم.

فتقدم المكسب إليها، فلما التقطها وقع الفخ في عنقه، فقال وهو يختنق: إن كان العباد يخفون مثل هذا الخنق فقد خلق إبليس جديد...

قال (ن): فالحقيقة أن إبليس هو الذي تجدد ليصلح لزمن الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول؛ وما دام الرقي مُطرداً وهذا العقل الإنساني لا يقف عند غاية في تسخير الطبيعة، فسيتهي الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة... لاستخراج كل ما فيه من الشر.

قال (م): ولكن العجب من إبليس هذا؛ أترأه أنقلب أورياً للأوريين؟ وإلا فما باله يخرج مجددين من جبابرة العقل والخيال، ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة؟

قال المحدث: فقلت لهما: أيها العجوزان القديمان، سأنشر قولكما هذا ليقراه المجددون.

(١) أرمضني: أمني.

(٢) مطموراً: مغطى.

(٣) تبيخها: تسمحها.

قال الأستاذ (م): وأنشز يا بُنيَّ أن الربيع صاحب الإمام الشافعي، مرّ يوماً في أرقة مصر فثرت على رأسه إجانة^(١) مملوءة رماداً، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه، فقيل له: ألا تزجرهم؟ قال: من أستحق النار وصولح بالرماد فليس له أن يغضب!...

ثم قال محدثنا: وأستولى عليّ العجوزان، ورأيت قولهما يعلو قولي، وكنت في السابعة والعشرين، وهي سنّ الحدة العقلية، فما حسبتني معهما إلا ثلث عجوز... ممّا أثرا عليّ، وأنقلب لا أرى في المجددين إلا كل سقيم^(٢) فاسد، وأعتبرت كل واحد منهم بعلة، فإذا القول ما قال الشيخان، وإذا تحت كل رأي مريض مرض، ووراء كل اتجاه إبرة مغناطيسية طرفها إلى الشيطان... وفرغنا من هذا، فقلت للشيخين: لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان، أمّا كنّما في سنة ١٨٩٥ من الجنس البشري...؟

(١) إجانة: قصعة.

(٢) سقيم: مريض.

العجوزان

٤

قال محدثنا: وكنت قد ضقت بهذه اللجاجة الفلسفية، ورأيتني مضطغناً^(١) على الشيخين معاً؛ فقلت للعجوز (ن): حدثني (رحمك الله) بشيء من قديمكما، فأنتما اختصاراً لكل ما من من الحياة يستدل به على أصله المطول إلا في الحب... وما زلتما في جد الحديث تعبان بي منذ اليوم، فقد عدلتما بي إلى شأنكما ورأيكما في القديم والجديد، وبقي أن أميل بكما ميلة إلى سنة ١٨٩٥، وقد - والله - كاذ ينتحر قلبي يأساً من خبر (كاترينا ومرغريت)؛ ولكأنك تخشى إذ أعلمتني خبر صاحبك هذه وهي من وراء أربعين سنة - ما تخافه من رجل سيفجؤك معها في الخلوة على حال من الريبة فيأخذك «متلبساً بالجريمة» كما تقولون في لغة المحاكم...

قال: فضحك العجوزان وقال (ن): لا - والله - يا بني، ولكني أقول ما قال ذلك الحكيم العربي لقومه وقد بلغ مائتي سنة: «قلبي مضغة من جسدي، ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدي» وأعلم يا بني أنه إذا ذهب الحب عن الشيخ بقي منه الخنان يعمل مثل عمله؛ فيحب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أي ذلك كان، ليعيده ذلك إلى الدنيا أو يبقيه فيها (بقدر الإمكان)...

فضحك الأستاذ (م) وقال: ولعل ثرثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن).

ثم قال: وكل شيء يرق في قلب الرجل الهرم ويحول وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا؛ ولهذا لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر، وقدر الأمور على ما هو فيه لا على ما كان فيه؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن

(١) مضطغناً: حاقداً وغاضباً.

هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه، فهو مجتمع من أعمالها وشهواتها، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها؛ أما الحاضر، أما الجسم الهرم، فهو يشعر أنه يحمل أعضاءه كلها وكأنها ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر... وكأن بعضهما يُسلم على بعض سلام الوداع يقول: تُفارقني وأفارقك.

فتململ الأستاذ (م) وقال: أف لك ولما تقول! لا جرم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة^(١) ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية؛ اليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليكون ظاهراً فقط كعمشوش العنقود^(٢) بعد ذهاب الحب منه، يقول: كان هنا وكان هنا؟

ألا فأعلم يا (ن) أن هذه الشيخوخة إنما هي غلبة روحانية الجسم على بشريته، فهذا طور من أطوار الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها؛ غير أن لذاته بين الروح والجمال، ومسراته بين العقل والطبيعة، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة في إدراك الروح وقوتها وشِدَّتْها ونورها؛ وقد قيل لبعض أهل هذا الشأن وكان في مرض موته: كيف تجد العلة؟ فقال: سلوا العلة عني كيف تجدني؟

وإنما تثقل الشيخوخة على صاحبها إذا هي أنتكست فيه وكانت مُراغمة بينه وبين الحياة، فيطمع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلّق به ويتسخط^(٣) على ذهابه ويتصنّع له ويتكلّف أسبابه، وقد نسي أن الحياة رذته طفلاً كالطفل، أكبر سعادته في التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة، وأقوى لذته أن يتفوّق الجمال الذي في خياله والجمال الذي في الكون، وإنه لكما قلت أنت: لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر.

وما أصدق وأحكم هذا الحديث الشريف: «إن الله تعالى بعدله وقسطه^(٤) جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». فهذه هي قاعدة الحياة: لا تعاملك الحياة بما تملك من الدنيا، ولكن بما تملك من

(١) واهنة: ضعيفة.

(٢) عمشوش العنقود: هو ما يبقى منه بعد أكل العنب.

(٣) يتسخط: يظهر غضبه.

(٤) قسطه: عدله.

نفسك، وبذلك تكون السعادة في أشياء حقيقة ممكنة موجودة، بل تكون في كل ما أمكن وكل ما وجد؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها، ومن الأسرار التي فيها، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها وديناها والأخيلة المتقلبة عليها.

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، ألا ما أحكم هذه الآية! فوالله إن قرأت ولا قرأ الناس في تصوير الهرم ألفاني أبدع منها ولا أدق ولا أوفى؛ ألا تحس أن قائلها يكاد يسقط من عَجَفٍ وهزالٍ وإعياء؛ وأنه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه فأخل به، وأن معاني التراب قد تعلقت بهذا الجسم تعمل فيه عملها، فأخذ يتفتت كأنما لمس القبر عظامه وهو حي، وأنه بهذا كله أوشك أن ينكسر أنكسار العظم بلغ المبرد فيه آخر طبقاته؟

قال محدثنا: قلت له: ترى لو أن نابغة من نوابغ التصوير في زمننا هذا تناول بفنّه ذلك المعنى العجيب فكتبه صورةً وألواناً، لا أحرفاً وكلمات، فكيف تراه كان يصنع؟

قال: كان يصنع هكذا: يرسم منظر الشتاء في سماء تعلّق سحابها كثيفاً متراكباً بعضه على بعض يُخيّل أن السماء تدنو من الأرض، وقد سدّت السحب الآفاق وأظلم الجو ظلامه تحت النهار المغطى، وأستطارت بينها وشائج من البرق، ثم يترك من الشمس جانب الأفق لمعة كضوء الشعمة في فتق من فتوق السحاب، ثم يرسل في الصورة ريحاً باردة هوجاء يدلّ عليها أنحناء الشجر وتقلّب النبات، ثم يرسم رجالاً ونساء يغلي الشباب فيهم غليانه من قوّة وعافية، وحُبّ وصباغة، وتغلي فيهم أفكار أخرى... وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى مرقص؛ وهم جميعاً من المجدّدين...

ثم يرسم يا بُنيّ في آخرهم (على بُعد منهم) عمك العجوز (ن)، يرسمه كما تراه، منحلّ القوّة، منحني الصلْب، مُرْعَشاً مُتَزَلِزلاً متضععاً؛ قد زرعته الريح، وضربه البرد، وخنقته السحب؛ وله وجه عليه ذبول الدنيا، يُنبئ أن دمه قد وُضِعَ من جسمه في برّادة، والكون كله من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم...

ثُمَّ يُصَوِّرُهُ وَقَدْ وَقَفَ هُنَاكَ سَاهِمًا كَثِيرًا، رَافِعًا رَأْسَهُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ .

قَالَ الْمَحْدُثُ: وَضَحَكْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ (م): لَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْآدَمِيَّةَ كَأَلَالَةٍ صَاحِبُهَا مَهْنَدُسُهَا؛ فَإِنْ صَلَحَتْ وَاسْتَقَامَتْ فَمِنْ عِلْمِهِ بِهَا وَحَيَاطَتِهِ لَهَا، وَإِنْ فَسَدَتْ وَأَخْتَلَّتْ فَمِنْ عَيْبِهِ فِيهَا وَإِهْمَالِهِ إِيَّاهَا، وَلَيْسَ عَلَى الطَّبِيعَةِ فِي ذَلِكَ سَبِيلٌ لَائِمَةٌ؛ وَالشَّيْخُ الضَّعِيفُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا الصُّورَةُ الْهَزْلِيَّةُ لِمَفْسَادِ شَبَابِهِ وَضَعْفِهِ وَلِيْنِهِ وَدَعْوَتِهِ، تُظْهِرُهَا الدُّنْيَا لِيَسْخَرَ مَنْ يَسْخَرُ وَيَتَّعِظُ مَنْ يَتَّعِظُ .

قَالَ (ن): أَكْذَلِكَ هُوَ يَا أَسْتَاذُ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ: بَلْ هِيَ الصُّورَةُ الْجَدِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي دَأَبُهَا^(١) أَلَّا تُصْرَحَ عَنْ حَقِيقَتِهَا إِلَّا فِي الْآخِرِ، فَتُظْهِرُهَا الدُّنْيَا لِيُجَلَّ الْحَقِيقَةُ مَنْ يُجَلُّهَا؛ وَلَيْسَ إِلَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُعْرَفُ مَنْ خَرَابِ الصُّورَةِ خَرَابُ الْمَعْنَى .

قَالَ الْعَجُوزُ (ن): آه مِنْ إِجْلَالِ الشَّيْخُوخَةِ وَأَحْتِرَامِ النَّاسِ إِيَّاهَا! إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ أَحْتِرَامًا لِلشَّيْخِ وَالشَّيْخُ لَا يَرَاهُ إِلَّا تَعَزُّبَةً . وَمَا الْأَشْيَاخُ الْهَرَمَى إِلَّا جِنَازَاتٌ قَبْلَ وَقْتِهَا، لَا تُوحَى إِلَى النَّاسِ شَيْئًا غَيْرَ وَحْيِ الْجِنَازَةِ مِنْ مَهَابَةٍ وَخُشُوعٍ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ: إِنَّمَا أَنْتَ دَائِمًا فِي حَدِيثِ نَفْسِكَ، وَلَوْ كُنْتَ نَهْرًا يَا مُسْتَنْقِعُ لَمَّا كَانَ فِي لَغَتِكَ هَذِهِ الْأَحْرَفُ مِنَ الْبَعُوضِ .

قَالَ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي نَتَنَازَعُهَا بَيْنَنَا، تَرُدُّ عَلَيَّ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ الْقَانُونِ الَّذِي لَكَ وَحْدَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ أَيُّهَا الْقَاضِي .

قَالَ (م): صَرِّحْ وَبَيِّنْ فَمَا فَهَمْنَا شَيْئًا .

قَالَ الْعَجُوزُ: هَذَا كَلَامٌ قَلْتُهُ قَدِيمًا فِي حَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ؛ فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ قَضِيَّةُ شَيْخٍ هَرِمَ كَانَ قَدْ سَرَقَ دَجَاجَةً؛ وَتَوَسَّمْتُهُ فَإِذَا هُوَ مِنْ أَذْكَى النَّاسِ، وَإِذَا هُوَ يَجُلُّ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الْتَهْمَةِ، وَلَكِنْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ قَدْ سَرَقَ، وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَيْهِ وَوَجِبَ الْحُكْمُ؛ فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، مَا تَسْتَحِي وَأَنْتَ شَائِبٌ أَنْ تَكُونَ لَصًّا؟

قَالَ: يَا سَيِّدِي الْقَاضِي، كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي: مَا تَسْتَحِي أَنْ تَجُوعَ؟

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِنْ جَوَابِهِ مَا حَيَّرَنِي، فَقُلْتُ لَهُ: وَإِذَا جُعْتَ أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تُسْرِقَ؟

(١) دَأَبُهَا: عَادَتُهَا .

قال: يا سيدي القاضي، كأنك تقول لي: وإذا جُعتَ أما تستحي أن تأكل؟
فكانت هذه أشدَّ عليّ، فقلتُ له: وإذا أكلتُ أما تأكلُ إلا حراماً؟
فقال: يا سيدي القاضي، إنك إذا نظرتَ إليّ محتاجاً لا أجدُ شيئاً، لم ترني
سارقاً حينٌ وجدتُ شيئاً.

فأفحمني الرجلُ على جهله وسذاجته، وقلتُ في نفسي: لو سرقَ أفلاطونُ
لكانَ مثلَ هذا؟ فتركتُ الكلامَ بالفلسفة وتكلّمتُ بالقانون الذي لا يملكُ الرجلُ معه
قولاً يُراجعني به، فقلتُ: ولكنك جئتَ إلى هذه المحكمةِ بالسرقة، فلا تذهب من
هذه المحكمةِ إلا بالحبسِ ستين.

قال محدثنا: وأرمضني هذا العجوزُ الثرثارُ وملاً صدري، إذ ما برحَ يُديرني
وأديره عن (كاترينا ومرغريت)، ورأيتُ كلَّ شيءٍ قد هَرَمَ فيه إلا لسانه، فحملني
الضجرُ والطيشُ على أن قلتُ له: وهب^(١) القضيةَ كانتَ هي قضيةَ (كاترينا) وقد
رُفعتَ إليك مُتَّهمة، أفكنتَ قائلاً لها: جئتَ إلى المحكمةِ بالسرقة فلا تذهبنِ من
المحكمةِ إلا بالحبسِ ستين؟

وجرتَ الكلمةُ على لساني وما ألقىْتُ لها بالاً ولا عرفتُ لها خطراً؛ فأكفهرُ
القاضي العجوزُ وتربّدَ وجهه غضباً، وقال: يا بغيض! أحسبتني كنتُ قائلاً لها:
جئتَ إلى المحكمةِ بالسرقة فلا تذهبي من المحكمةِ إلا بالقاضي...؟

وغضبَ الأستاذُ (م)، وقال: ويحك! أهذا من أدبكم الجديد الذي تأدّبتم به
على أساتذة منهم الفجرة الذين يكذبون الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة
ويسوغونكم مذاهبَ الحميرِ والبغالِ في حرية الدم...؟ أما إنني لأعلمُ أنكم نشأتم
على حرية الرأي، ولكنَّ الكلمةَ بينَ اثنين لا تكونُ حرةً كلّ الحرية إلا وهي أحياناً
سفيهة كلّ السفاهة، كهذه القولُ التي نطقَ بها.

لقد كانَ الناسُ في زمننا الماضي أناساً على حدة، وكانتِ الآدابُ حالاتٍ
عقليةً ثابتة لا تتغيّر ولا يجوز أن تتغيّر، وكان الأستاذُ الكافرُ بينه وبين نفسه لا
يكونُ مع تلاميذه إلا كالمومس: تجهدُ أن تربّي بنتها على غير طريقها!

(١) هب: افترض.

قال الحدث : فَلَجَلَجْتُ وَذَهَبْتُ أَعْتَذِرُ، وَلَكِنَّ الْعَجُوزَ (ن) قَطَعَ عَلَيَّ وَأَنْشَأَ يَقُولُ وَقَدْ أَنْفَجَرَ غَيْظُهُ : لَقَدْ تَمَّتْ فِي هَؤُلَاءِ صِنْعُهُ حُرِّيَّةَ الْفِكْرِ، كَمَا تَمَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي ذَلِكَ أَلْوَاعِظِ الْمَعْلَمِ الْقَدِيمِ الَّذِي حَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْصُرُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ كُلِّ أَرْبَعَاءٍ فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيُعْظُهُمْ وَيُحَذِّرُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ أَللَّهُ وَجَنَّتُهُ وَنَارَهُ؛ قَالُوا: فَأَحْتَسِبُ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَطَالَ أَنْتَظَارُهُمْ لَهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُ فَقَالَ: يَقُولُ لَكُمْ أَبُو كَعْبٍ: انْصَرَفُوا فَإِنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ مَخْمُورًا...

هذا أَلْقَاصُ الْمَخْمُورِ هُوَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ السَّخْفَاءِ إِمَامٌ فِي مَذْهَبِ حُرِّيَّةِ الْفِكْرِ، وَفَضْلِيَّتُهُ عَنْدهُمْ أَنَّهُ صَرِيحٌ غَيْرُ مُنَافِقٍ... وَكَانَ يَكُونُ هَذَا قَوْلًا فِي إِمَامِ الْمَسْجِدِ لَوْلَا أَنَّهُ إِمَامُ الْمَسْجِدِ؛ غَيْرَ أَنَّ حُرِّيَّةَ الْفِكْرِ تَبْنِي دَائِمًا فِي كُلِّ مَا تَبْنِي عَلَى غَيْرِ الْأَصْلِ، وَعِنْدَهَا أَنَّ الْمَنْطِقَ الَّذِي مَوْضُوعُهُ مَا يَجِبُ، لَيْسَ بِالْمَنْطِقِ الصَّحِيحِ؛ إِذْ لَا يَجِبُ شَيْءٌ مَا دَامَ مَذْهَبُهَا الْإِطْلَاقَ وَالْحُرِّيَّةَ.

كُلُّ مُفْتَوٍ مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْعَالَمَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَفْكِيرِهِ كَمَا مَرَّ مِنْ إِرَادَةِ الْخَالِقِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَحْكَمَ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ سَخِيفَةٍ تَجْعَلُهُ يَحْكُمُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ (كُنْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جَهْلُهُ؛ وَمَذْهَبُهُ الْأَخْلَاقِي: اطْلُبْ أَنْتَ الْقُوَّةَ لِلْمَجْمُوعِ، أَمَّا أَنَا فَالْتَمَسْ لِنَفْسِي الْمَنْفَعَةَ وَاللَّذَّةَ! وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ الْمَجْتَمَعَ؛ فَإِنَّهُمْ لَيَحْمِلُونَهُ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَةِ الْبِرَاغِيثِ فِي جَنَاحِ النَّسْرِ.

قال (م): وكيف ذلك؟

قال: زَعَمُوا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْبِرَاغِيثِ أَتَصَلَّتْ بِجَنَاحِ نَسْرِ وَأَسْتَمَرَّتْهُ وَرَتَعَتْ^(١) فِيهِ، فَصَابَرَهَا النَّسْرُ زَمَنًا، ثُمَّ تَأَذَّى بِهَا وَأَرَادَ أَنْ يَرْمِيَهَا عَنْهُ، فَطَفِقَ يَخْفُقُ بِجَنَاحِيهِ يُرِيدُ نَفْضَهَا، فَقَالَتْ لَهُ الْبِرَاغِيثُ: أَيُّهَا النَّسْرُ الْأَحْمَقُ! أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّنَا فِي جَنَاحِيكَ لِنَحْمِلَكَ فِي الْجَوِّ؟...

أَمَّا أَسَاتِذَةُ هَذِهِ الْحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الْأَدْبِيَّةِ، فَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: إِنَّ بَغْرَةَ مِنَ الْبَغْرِ كَانَتْ مَعْلَمَةً فِي مَدْرَسَةٍ.

قال (م): وكيف ذلك؟

(١) رتعت فيه: عاشت ترعى في جناحه.

قال: زعموا أنَّ بعرة كِبشٍ كانت معلّمةً في مدرسة الحصى، فألّفت لتلاميذها كتاباً أحكمته وأطالت له الفكرة، وبلغت فيه جهداً ما تقدّر عليه لتظهر عبقريتها الجبّارة؛ فكان الباب الأكبر فيه أنَّ الجبل خرافةٌ من الخرافات، لا يسوغ في العقل الحرّ ألا هذا، ولا يصحّ غير هذا في المنطق؛ قالت: وألبرهان على ذلك أنَّهم يزعمون أنَّ الجبل شيءٌ عظيم، يكون في قدر الكِبش الكبير ألف ألف مرّة؛ فإذا كان الجبل في قدر الكِبش ألف ألف مرّة فكيف يمكن أن يبعره الكِبش؟ ...

قال الأستاذ (م): هذا منطقٌ جديدٌ سيديّ أنّه منطقٌ بعرة!

قال (ن): وكلّ قديم له عندهم جديد، فكلمة (رجل) قد تخنّثت، وكلمة (شاب) قد تأنّثت، وكلمة (عفيفة) قد تدنّست، وكلمة (حياء) قد تنجّست؛ وألزمنا الجديد ألا يعرف الطالب في هذا العام ماذا تكون أخلاقه في العام القادم... والحياء الجديدة أن تُتقن الغش أكثر ممّا تُتقن العمل... والذمة الجديدة أن مال غيرك لا يُسمّى مالاً إلا حين يصير في يدك... والصدق الجديد أن تكذب مائة مرّة، فعسى أن يصدق الناس منها مرّة... ثمّ الإنسان الجديد، والحبّ الجديد، والمرأة الجديدة، والأدب الجديد، والدين الجديد، والأب الجديد، والأبن الجديد، وما أدري وما لا أدري.

قالوا: (السوبرمان)، وتنطّعوا^(١) في إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه، فسخرت منهم الطبيعة فلم تُخرج إلا الناقص أفحش النقص، وتركتهم يعملون في النظرية وعملت هي الحقيقة.

قال محدثنا: ونهض العجوز (ن)، وهو يقول: تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق! لو فهموا عنك لفهموا الحكمة في أنّك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة...

قال: ولما أنصرف العجوز، قلت للأستاذ (م): ولكن ما خبر (كاترينا) و(مرغريت) سنة ١٨٩٥؟

فقال: أيّها الأبله، أما أدركت بعد أن العجوزين قد سخرا منك بأسلوب جديد...

(١) تنطّعوا في الكلام: تعمّقوا وغالوا وتأنّقوا وفي العمل تحدّقوا.

السطر الأخير من القصة

رجعت إلى أوراق لي قديمة يبلغ عمرها ثلاثين سنة أو ليوادها، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، وجعلت أفلي هذه الأوراق واحدة واحدة، فإذا أنا على أطلال الأيام في مدينة قائمة من تاريخي القديم، نائمة تحت ظلماتها التي كانت أنوار عهد مضي؛ وإذا أنا منها عهد في أيام حدثائه ونشاطه إلا أتصل بينهما سر؛ ومن طبيعة القلب العاشق في حنينه أن يجعل كل شيء يتصل به كأنه ذو قلب مثله له حنين ونجوى!

وذلك التلاشي المحفوظ في هذه الأوراق، يحفظ لي فيها وفيما تحويه نفساً وطبيعة كانت نفس شاعر وطبيعة روضة، في عهد من الصبي كنت فيه أتقدم في الشباب وفي الكون معاً كأن الأشياء تُخلق في خلقاً آخر؛ فإذا قرضت^(١) شغراً وأستوى لي على ما أحب، أحسنت إحساس الملك الذي يضم إلى مملكته مدينة جديدة؛ وإذا تناولت طاقة من الزهر وتأملتتها على ما أحب، شعرت بها كأجمل غانية^(٢) من النساء توجي إليّ وحي الجمال كله؛ وإذا وقفت على شاطئ البحر، تخرج البحر بأمواجه في نفسي، فكنت معه أكبر من الأرض وأوسع من السماء. أما الحب... أما الحب فكانت له معانيه الصغيرة التي هي كضرورات الطفل للطفل: ليس فيها كبير شيء، ولكن فيها أكبر السعادة، وفيها نضرة القلب.

عهد من الصبي كانت فيه طريقة العقل من طريقة الحلم؛ وكانت العاطفة هي عاطفة في النفس، وهي في وقت معاً خدعة من الطبيعة؛ وكان ما يأتي ينسي دائماً ما مضى ولا يذكر به؛ وكانت الأيام كالأطفال السعداء: لا ينأى أحدهم إلا على فكرة لعب ولهو، ولا يستيقظ إلا على فكرة لهو ولعب؛ وكانت اللغة نفسها كأن فيها ألفاظاً من الحلوى؛ وكانت الآلام - على قلبها - كالمرضى الذي معه دواؤه المجرب، وكانت فلسفة الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير، الواضح كل

(١) قرضت الشعر: أنشدته.

(٢) الغانية: الشابة اغتنت بجمالها عن الزينة.

الوضوح، المقتصر بكل لفظ على ما يُعرف من معناه، المتفلسف في تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف في تخيل الفكرة!

هو العهد الذي من أخص خصائصه أن تعمل، فيكون العمل في نفسه عملاً ويكون في نفسك لذة.

في أوراقي تلك بحثت عن قصة عنوانها «الدرس الأول في علبة كبريت» كتبها في سنة ١٩٠٥، وأنا لا أدري يومئذ أنها قصة يسبح في جوها قدر روائي عجيب، سيأتي بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذي تيم به فلسفة معناها.

وهأنذا أنشرها كما كتبها؛ وكان هذا القلم إذ ذاك غصاً لم يصلب، وكان كألغصن تميل به التهمة، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل، بلاغة فرجه أو بلاغة حزنه؛ وهذه هي القصة:

«عبد الرحمن عبد الرحيم» غلام فلاح، قد شهد من هذه الدنيا تسعة أعوام، مرّت به كما يمر الزمن على ميت: لا تزيده حياة الأحياء إلا إهمالاً. فنشأ منشأ أمثاله ممن فقدوا الوالدين وانتزعوا من شملهم^(١) فتركوا للطبيعة تفصلهم وتصلهم بالحياة، وتضيّق لهم فيها وتوسع.

وهيأت الطبيعة منه إنساناً حيوانياً، لا يبلغ أشده حتى يغالب على الرزق بالحيلة أو الجريمة، ويستخلص قوته كما يرتزق الوحش بالمخلّب والنّاب؛ ولن يكون بعد إلا مجموعة من الأخلاق الحيوانية الفاتكة الجريئة، فإن الطبيعة متى ابتدأت عملها في تحويل الإنسان عن إنسانيته، نزلت به إلى العالم الحيواني، ووصلته بما فيه من الشر والدناءة، ثم لا تترك عملها حتى يتحوّل هو إليها.

وألّف «عبد الرحمن» في بلده حانوت رجل فقير، يستغني بالبيع عن التكفّف^(٢) وعن المسألة؛ فكان الغلام يكثر الوقوف عنده، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطير، فتأتا وبقايا؛ إذ كان الغلام شحاذاً، وكان صاحب الحانوت لا يرتفع عن الشحاذة إلا بمنزلة تجعل الناس يتصدقون عليه بالشراء من هئاته^(٣) التي يسميها بضاعة: كالخيط، والإبرة، والكبريت والملح، وغزال للولد، وكخل

(١) شملهم: الجمع العائلي.

(٢) التكفّف: التسوّل والمسألة.

(٣) هئاته: التافه من البضائع.

لِلصَّبَايَا، ونشوقٍ لِلعجائز، ونُسَخَةِ الشَّعراني، وما لَفَّ لَفَّهَا^(١) مِمَّا يَصْعَدُ
ثَمْنُهُ مِنْ كَسُورِ الْمَلِيمِ، إِلَى الْمَلِيمِ وَكَسُورَةٍ!

وَتَغَفَّلُهُ^(٢) الْغَلَامُ مَرَّةً وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى ذَخَائِرِ الْحَانُوتِ، فَالْتَقَطَتْ «عَلْبَةَ كَبْرِيتٍ»
كَانَ الْفَرْقُ كُلُّ الْفَرْقِ بَيْنَ أَنْ يَسْرِقَهَا وَأَنْ يَشْتَرِيَهَا - نَصَفَ مَلِيمٌ؛ وَلَكِنْ مَنْ لَهُ «بِالْعَشْرِينَ
الْخُرْدَةَ» وَهِيَ عِنْدَ مِثْلِهِ دِينَارٌ مِنَ الْذَهَبِ يَرِنُ رِنِيًّا وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ رَقْصَةً إِنْجَلِيزِيَّةً؟

وماذا يصْنَعُ بِالْعَلْبَةِ؟ هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ تُجَادِلَهُ وَلَمَّا تَسَكَّنَ رَعَشَهُ يَدِهِ مِنْ هَوْلِ
الْإِثْمِ^(٣)، وَلَكِنَّ الْغَلَامَ كَانَ طَبِيعِيًّا وَلَمْ يَكُنْ فِيلَسُوفًا، وَلِذَلِكَ رَأَى أَنْ يُخْرِزَ الْحَقِيقَةَ
بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا. وَقَدْ أَصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ مَادَّةَ السَّرْقَةِ هِيَ «مُدُّ الْيَدِ»
أَخْطَأَتْ أَمْ أَصَابَتْ، وَجَاءَتْ بِالْغَالِي أَوْ جَاءَتْ بِالرَّخِيسِ؛ فَضَمَّ أَصَابِعُهُ عَلَى الْعَلْبَةِ
وَأَنْتَزَعَهَا، وَتَرَكَ فِي مَكَانِهَا فَضِيلَةَ الْأَمَانَةِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْ لَهُ النَّاسُ قِيَمَتَهَا فَهَانَتْ
كَذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَنْطَلَقَ وَهِيَ تُنَادِيهِ:

أَيُّهَا الْغَلَامُ، أَتَدْفَعُ ثَمَنَ عَلْبَةِ الْكَبْرِيتِ سِتِّينَ مِنْ عَمْرِكَ؟ وَهَلْ خَلَا النَّاسُ
مِمَّنْ يَعْرِفُونَ لِعَمْرِكَ قِيَمَةً؟

وَأَرْتَدُّ رَجْعُ الصَّوْتِ^(٤) الْخَفِيِّ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، فَضَرَبَ قَلْبُهُ
ضَرْبَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ، وَنَزَا نَزْوَةً مُضْطَرِبَةً؛ فَالْتَفَتَ الْغَلَامُ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ أَمْعَنَ^(٥)
فِي الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْأَمَانَةَ تُنَادِيهِ:

أَيُّهَا الْغَلَامُ، إِنَّ لَكَ فِي الْآخِرَةِ نَارًا لَا تُوقَدُ بِهَذَا الْكَبْرِيتِ، وَلَكِنْ فِي الدُّنْيَا
سَجَنُ كَهْذِهِ الْعَلْبَةِ، فَالْعَبِ الْعَبَّ مَا دَامَ النَّاسُ قَدْ أَهْمَلُوكَ! الْعَبُّ بِالثَّقَابِ الَّذِي فِي
يَدِكَ فَسَيَمْتَدُّ فِيكَ مَعْنَى اللَّهَبِ حَتَّى يَجْعَلَ حَيَاتَكَ فِي أَعْمَارِ النَّاسِ دُخَانًا وَنَارًا؛
وَسَتَكُونُ أَيَّامُكَ أَعْوَادًا كَهَذَا الْكَبْرِيتِ: تَشْتَعِلُ فِي الدُّنْيَا وَتُحْرَقُ.

وَكَانَ أَذْنَابُ السَّيَاطِ كَانَتْ تُلْهَبُ ظَهَرَ الْغَلَامِ الْمُسْكِينِ، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يَلْتَفِتُ
هَذِهِ الْمَرَّةَ حَتَّى كَانَ فِي قَبْضَةِ صَاحِبِ الْحَانُوتِ، وَإِذَا هُوَ بِكَلِمَةٍ مِنْ لُغَةٍ كَفَّهُ
الْغَلِيظَةَ، حَيَّلَتْ لَهُ فِي شَعْرِهَا أَنَّ جِدَارًا أَنْقَضَ عَلَيْهِ، وَتَلَّتْهَا جَمْلَةٌ مِنْ قَوَافِي الصَّنُوعِ
جَلَجَلَتْ فِي أَذْنَانِهِ كَالرَّعْدِ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ مِثْلُ الْمَوْجِ مِنْ جَمَاعَاتِ الْأَطْفَالِ أَحَاطَ بِهِ

(١) مَا لَفَّ لَفَّهَا: مَا شَاكَلَهَا وَشَابَهَا.

(٢) تَغَفَّلَهُ: غَافَلَهُ: انْتَهَزَ فُرْصَةَ غَفْلَتِهِ.

(٣) هَوْلُ الْإِثْمِ: فُظَاةُ الْجَرِيمَةِ.

(٤) رَجْعُ الصَّوْتِ: الصَّدَى.

(٥) أَمْعَنَ: زَادَ.

فترك هذا الزورقَ الإنسانيَّ الصغيرَ يتكفأ على صدمات الأيدي، فما أحسن الغلامَ
التَّعِسُ إلا أنَّ الكبريتَ الذي في يده قد آنقَدَحَ في رأسِهِ، وكائنُ أناملِ صاحبِ
الحنوتِ كأنما تحكُّ أَعوادَهُ في جِلْدِ وجهِهِ الحَشيْنِ!

وذهبوا به إلى (دَوَارِ) العُمْدَةِ يقضي فيه اللَّيْلَ ثُمَّ يُصْبِحُ على رِخْلَةٍ إلى المَرَكِزِ
وَالنِّيَابَةِ؛ وَأَنْطَرَحَ الْمَسْكِينُ مُنْتَظِرًا حُكْمَ الصَّبَاحِ، مُؤَمِّلًا في عَقْلِهِ الصَّغِيرِ أَلَّا يُفْصِحَ
النَّهَارُ حَتَّى يَكُونَ «سَيِّدُنَا عِزْرَائِيلُ» قد طَمَسَ^(١) الجَرمِةَ وشَهودَهَا، ثُمَّ أَغْفَى مُطْمَئِنًّا
إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ في عَمَلِهِ بِجَدٍّ، وَأَيَقَنَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّ سَيَسْجُدُ في
الْخَمِيسِ مِمَّا يُوزَعُ في الْمَقْبَرَةِ صَدَقَةً على أَرْوَاحِ الْعُمْدَةِ، وَصَاحِبِ الْحَنُوتِ،
وَالْخَفِيرِ الَّذِي عَهِدُوا إِلَيْهِ جَزَّءَهُ إِلَى الْمَرَكِزِ! . . . وَكَيْفَ يَشْكُ في أَنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِهِمْ
وَهُوَ قَدْ تَوَسَّلَ بِالْوَلِيِّ فَلَانٍ وَنَذَرَ لَهُ شَمْعَةً يَسْرِقُهَا مِنْ حَنُوتِ آخَرٍ! . . .

هَكَذَا عَرَفَ الشَّرَّ قَلْبُ هَذَا الصَّبِيِّ، وَأَنْتَهَى بِهِ عَدْلُ النَّاسِ إِلَى أَفْطَحَ مِنْ ظَلَمِ
نَفْسِهِ، وَكَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ الْقَانُونِ الَّذِي يُصْلِحُونَهُ بِهِ عَلَى زَعْمِهِمْ، قَدْ نَاولُوهُ سُبْحَةً
لِيُظَهَّرَ بِهَا مَظْهَرُ الصَّالِحِينَ؛ وَلَمْ يُفْهَمُوهُ شَيْئًا فَفَهِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ: هَذِهِ الْجَرمِةُ
وَاحِدَةٌ، فَعُدَّ جَرَائِمَكَ عَلَى هَذِهِ السَّبِيحَةِ لِتَعْرِفَ كَمْ تَبْلُغُ!

كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ لُعبَةً لَا سَرِقَةَ، وَكَانَتْ يَدُ الْغَلَامِ فِيمَا فَعَلَتْ مُسْتَجِيبَةً
لِلْقَانُونِ الْمَرَحِ وَالنَّشَاطِ وَالْحَرَكَةِ، كَمَا تَكُونُ أَعْضَاءُ الْوَلَدِ لَا كَمَا تَكُونُ يَدُ اللَّصِّ؛
وَكَانَ أَشْبَهَ بِالرَّضِيعِ يَمُدُّ يَدَهُ لِكُلِّ مَا يَرَاهُ، لَا يَمِيزُ ضَارَةً وَلَا نَافِعَةً، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ
يَشْعَرَ وَيُحَقِّقَ طَبِيعَتَهُ؛ وَكَانَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ وَقُضَارَى مَا بَلَغَ - أَنَّ خِيَالَ هَذَا الْغَلَامِ
أَلْفَ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْهَلْوَ، وَأَنَّ الْكِبَارَ أَخْطَئُوا فِي فَهْمِهَا وَتَوَجَّيْهَا . . . ! لَيْسَتْ
سَرِقَةُ الْوَلَدِ سَرِقَةً، وَلَكِنَّهَا حَقٌّ مِنْ حَقُوقِ ذِكَايَةِ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ.

وَأَنْتَهَى «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» إِلَى الْمَحْكَمَةِ، فَقَضَتْ بِسَجْنِهِ فِي (إِصْلَاحِيَةِ الْأَحْدَاثِ)
مُدَّةَ سَنَتَيْنِ، وَأُسْتَأْنَفَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَيْرِ فِي بِلَدَةٍ؛ صَدَقَةً وَاحْتِسَابًا . . . إِذَا لَمْ
يَكْلِفُ الْأَسْتِنَافُ إِلَّا كِتَابَةً وَرَقَةً؛ فَلَمَّا مَثَلَ الصَّغِيرُ أَمَامَ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ
لِفَقْرِهِ مُحَامٍ يَدْفَعُ عَنْهُ، وَلَكِنْ أَنْطَلَقَ مِنْ دَاخِلِهِ مُحَامٍ شَيْطَانِيٍّ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ،

(١) طمس: غطى.

هو سخريةُ الجريمةِ مِنَ المحكمةِ، وسخريةُ عملِ الشيطانِ من عَمَلِ القاضي...!

سألهُ الرئيسُ: «ما أَسْمُكَ؟».

-: «اسمي عبده، ولكنَّ العُمدَةَ يسميني: يابنِ الكلبِ!».

-: «ما سِنُكَ؟».

-: «أَبُويا هُوَ اللي كان سَنانُ».

-: «عُمُرُكَ إِيه؟».

-: «عُمُرِي؟ عُمُرِي ما عَمَلتْ شَقَاوَة!».

النيابةُ لِلْمَحْكَمَةِ: «ذِكاؤُ مخيف يا حضراتِ القضاةِ! عُمُرُهُ تِسْعُ سنواتِ!»

الرئيسُ: «صَنَعَتِكَ إِيه؟».

-: «صَنَعَتِي أَلْعَبَ مع محمود ومريم، وأضْرَبَ اللي يَضْرِبُنِي!».

-: «تَعِيشَ فِين؟».

-: «في البلد!».

-: «تاكل مِنين؟».

-: «أَكَل مِنِ الأَكَل!».

النيابةُ لِلْمَحْكَمَةِ: «يا حضراتِ القضاةِ، مثْلُ هذا لا يَسْرِقُ عليه كَبْرِيَّةً إِلَّا لِيُحْرِقَ بها البلد...!».

الرئيسُ: «أَلَلَّكَ أَم؟».

-: «أَمِي غَضِبْتُ على أَبُويا، وراحتْ قَعَدْتُ في الثُّرْبَةِ؛ مارِضِيْشْ تَرْجَع!».

-: «وَأَبُوك؟».

-: «أَبُويا لَأَخَزَ غَضِبَ وراخَ لها».

الرئيسُ ضاحِكاً: «وَأَنْتَ؟».

-: «وَأَلَلَّه يا أَفندي عاوِزا غَضِبَ، مُشْ عارفِ أغْضَبَ أَزَّاي!».

-: «إِنْتْ سَرَقْتَ عِلْبَةَ الكَبْرِيَّةِ؟».

-: «دِي هِيَّ طارت من الدكان، حَسَبَتْها عصفورة ومَسَكَتْها...».

النيابةُ: «وليه ما طارَتْشِ العِلْبِ اللي مَعَاها في الدكان؟».

-: «أنا عارف؟ يَمَكِينْ خافت مِنِي!».

النيابةُ لِلْمَحْكَمَةِ: «جِراؤُهُ مخيفَةٌ يا حضراتِ القضاةِ، المَتَهَمُ وهو في هذه السنِّ، يَشْعُرُ في ذاتِ نَفْسِهِ أَنَّ الأشياءَ تَخافُهُ!».

فصاح الغلام مسروراً من هذا الشئاء . . . «والله يا أفندي إنت راجل طيب! أدبك عرفتني، ربنا يكفيك شر العمدة والغفير!» .

وأمضى الحكم في الاستئناف، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين يسوقهم الجند، ثم اختبئوا جميع فترة من الوقت عند كاتب المحكمة، ليستوفي أعماله الكتابية؛ ثم يساقوا من بعد إلى السجن .

وجلس «عبد الرحمن» على الأرض، وقد أكتنفه عن جانبيه طائفة من المجرمين يتحادثون ويتغامزون، وكلهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم؛ فأطمأن شيئاً قليلاً، إذ قدّر في نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أريد بهم شر لما سكنوا هذا السكون، وأن الذي يراؤ بهم لا يناله هو إلا أصغر منه، كصفعة أو صفعتين مثلاً . . . وهو يسمع أن الرجال يقتلون ويحرقون ويسمون ويعتدون وينهبون؛ وما تكون (علبة الكبريت) في جنب ذلك؟ وخاصة بعد أن أستردها صاحبها، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم!

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردّ الأطمئنان في عينيه دموعاً كاد يريقها الجزع^(١)، غير أن القلق اعتاده، فالتفت إلى كتاب المحكمة مرة وإلى الجند مرة، ثم لوى وجهه ولم يستبج لنفسه أن يتجرأ على الفكر فيهم، لأنه قابل مهابتهم بألهة بلده: العمدة والمشايخ والخفراء؛ فأدرك أن الجنود هم الحكومة القادرة، وأستدل على ذلك بأزارارهم اللامعة، وخناجرهم الصقيلة: وتمشّت في قلبه رهبة هذه الخناجر، فأضطرب خشية أن يكونوا قد أسلموه من يذبحه، فنظر إلى الذي يليه من المجرمين وسأله: «راخ ياخذوني فين؟»، فأجابته لكمّة خفية أنطلق لها دمه، حتى أسكتته الذي يليه من الجانب الآخر، وكان في رأيه من الصالحين؟

ثم اتصل الجزع بين قلبه وعينه، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع، وكأنما يحاول أن يستشف^(٢) من أيها سيأتي الموت ذبحاً؛ ولم يكن فيهم معنى (الإصلاحية)، وحكم القضاة عليه كأنه رجل يفهم كل شيء، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مفسرة. وعدل التربية غير عدل القانون، فكان الواجب على القاضي الذي يحكم على الطفل، أن يجعل حكمه أشبه بصيغة القصة منه بصيغة الحكم، وأن يدع الجريمة تنطلق وتذهب فلا يقول لها أمكثي . . .

(٢) يستشف: يستطلع.

(١) الجزع: الخوف.

وَبَقِيَ لِلْخَنَاجِرِ رَهْبَتُهَا فِي نَفْسِ هَذَا الْمَسْكِينِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَادَوْهُ إِلَى حَبْلِ
الْشَّنَاقَةِ^(١) لَأَفْهَمَهُ (الْحَبْلُ) مَعْنَى الْعَقُوبَةِ، أَمَّا وَهُوَ بَيْنَ هَذِهِ الْخَنَاجِرِ الْمُغْمَدَةِ - وَفِي
الْخَنَاجِرِ مَعْنَى الذَّبْحِ - فَإِنَّمَا هُوَ الذَّبْحُ لَا غَيْرُهُ .

وَطَرَقَتْ أُذُنِيهِ قَهْقَهَةُ الْمَجْرَمِ عَنْ يَمِينِهِ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ هَذَا الْخَاطِرِ، فَثَبَّتَ عَيْنِيهِ
فِي الرَّجْلِ، فَإِذَا هُوَ يَرَى وَجْهًا مَتَلَأَلِيًّا، وَجَسْمًا رَابِطَ الْجَاشِشِ، وَهَزْؤًا وَسُخْرِيَّةً
بِهَؤُلَاءِ الْجُنُودِ وَخَنَاجِرِهِمْ .

وَأَسْتَرَاحَ الْغَلَامُ إِلَى صَاحِبِهِ هَذَا، وَالْخُ بِنَظَرِهِ عَلَيْهِ، وَأَبْتَدَأَ يَتَعَلَّمُ فِي وَجْهِهِ
الْفَلَسَفَةَ؛ وَلَيْسَتْ الْفَلَسَفَةُ مَقْصُورَةٌ عَلَى الْكُتُبِ، بَلْ إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَالَةً تَشْغَلُهُ،
فَنَظَرُهُ فِي أَعْتَابِ دَقَائِقِهَا وَكَشْفِ مَسْتَوْرِهَا هُوَ الْفَلَسَفَةُ بَعِينُهَا .

وَقَالَ الْغَلَامُ لِنَفْسِهِ: «هَذَا الرَّجُلُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ؛ فَهُوَ مُحْكَمٌ عَلَيْهِ وَلَا
يُبَالِي، بَلْ يَقْهَقُهُ ضَحْكًا؛ فَهَذَا الْحُكْمُ إِذَنْ لَا يُخِيفُ؛ لَا، بَلْ هُوَ تَعَوُّدٌ أَلْأَحْكَامِ؛
إِذَنْ فَمَنْ تَعَوَّدَ أَلْأَحْكَامَ لَمْ يَخَفِ أَلْأَحْكَامِ؛ إِذَنْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ سَتَتَعَوَّدُ، فَإِنَّ
الْخَوْفَ هَذِهِ الْمَرَّةَ غَطَّكَ مِنْ (عَلْبَةِ الْكِبْرِيتِ) فِي حَرِيقِ مَتَسَعِرٍ، وَمَا قَدَرُ (عَلْبَةِ
الْكِبْرِيتِ)؟ فَلَوْ كَانَتْ أَلْسَرَقَةُ جَامُوسَةٍ مَا لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ يَا لَيْتَنِي إِذَنْ . . .
وَلَكِنِّي لَا أَزَالُ صَغِيرًا، فَمَتَى كَبُرْتُ . . . آه مَتَى كَبُرْتُ . . .» .

وَبَدَأَ الْقَانُونُ عَمَلُهُ فِي الْغَلَامِ؛ فَطَرَدَ مِنْهُ الْطِفْلَ وَأَقَرَّ فِيهِ الْمَجْرَمَ .
وَأَطْرَقَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» هَادئًا سَاكِنًا، . وَقَامَتْ فِي نَفْسِهِ مُحْكَمَةٌ مِنَ الْأَبَالِسَةِ
بِقَضَائِهَا وَنِيَابِتِهَا؛ يُجَادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُدَاوِلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَ هَذَا الْغَلَامِ عَلَى وَجْهِ آخِرٍ .
وَقَالَ شَيْطَانُ مِنْهُمْ: «وَلَكِنَّا نَخْشَى أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ (الْإِصْلَاحِيَّةَ) سَتُخْرِجُهُ
بَعْدَ سَنَتَيْنِ شَرِيفًا يَحْتَرَفُ؛ وَالثَّانِي أَنَّ النَّاسَ رَبَّمَا تَوَلَّوْهُ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي
الْمَدَارِسِ رَحْمَةً وَشَفَقَةً؛ فَيَخْرُجُ شَرِيفًا يَحْتَرَفُ» .

وَمَا أَسْرَعَ مَا نَفَى الْخَوْفَ عَنْهُمْ قَوْلُ الْغَلَامِ نَفْسِهِ بِلَهْجَةٍ فِيهَا الْحَقْدُ وَالْغَيْظُ وَقَدْ
صَفَعَهُ الْجَنْدِيُّ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى السِّجْنِ -: «وِدَاكُلَهُ عَلَى شَأْنِ عَلْبَةِ كِبْرِيتٍ؟ . . .» .

فِي سَنَةِ ١٩٣٤ قَضَتْ مُحْكَمَةُ الْجَنَايَاتِ بِالْمَوْتِ شَنْقًا عَلَى قَاتِلِ مُجْرِمِ خَبِيثِ
عَيَّارٍ مُتَشَطِّرٍ؛ اسْمُهُ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الرَّحِيمِ» .

(١) الشَّنَاقَةُ: الْمَشْنَقَةُ .

عاصفةُ القدر

على شاطئ النيل في إقليم (الغربية) من هذا البر، قرية ليس فيها من جبل، ولكن روح الجبل في رجل من أهلها، فإذا أنت اعتبرتَه بالرجالِ قوَّةً وضعفاً رأيتهُ ينهضُ فيهم بمنكبِهِ نهضةَ الجبلِ فيما حوله؛ وهو بطلُ القرية ولواءُ كلِّ معركةٍ تنشبُ فيها بينَ فتيانِها وبينَ أقرى المتناثرة حولها؛ ولا تزالُ هذه المعاركُ بينَ شبَّانِ القرى كأنَّها من حركةِ الدَّمِ الحرِّ الفاتحِ المتوارثِ فيهم من أجيالٍ بعيدة، ينحدرُ من جيلٍ إلى جيلٍ وفيه تلكَ القطراتُ الثائرةُ التي كانت تغلي وتغور، وهي كعهدِها لا تزالُ تغورُ وتغلي، ويلقبون هذا الرجلَ الشَّدِيدَ (بالجمل)، لِمَا يعرفونه من جسامَةِ خُلُقِهِ وصبرِهِ على الشَّدائدِ، واحتمالِهِ فيها، وكونُهُ مع ذلكَ سَلِسَ القِيادِ سليمَ الفِطْرَةِ رقيقَ الطَّبْعِ؛ على أَنَّهُ أبطشُ ذي يدينِ إنْ ثارَ ثائِرُهُ، وله إيمانٌ قويٌّ يستمسكُ بِهِ كما يتماسكُ الجبلُ بعنصرِهِ الصخري، إلَّا أَنَّهُ يخلطُهُ ببعضِ الخرافاتِ؛ إذ لا بُدَّ له من بعضِ الجرائمِ الشريفةِ التي يحملُ عليها فرطُ القوَّةِ والمروءَةِ في مثلهِ مَعَ مثلهِ.

وليسَ في تلكَ القريةِ من بحر، غيرَ أَنَّ فيها شاباً أعنفَ طيشاً وعُتواً مِنَ الموجهِ على بحرِها في يومِ ريحِ عاتية، حلَّوْ المنظرِ لكَئُهُ مرُّ الطعمِ، صافي الوجهِ لكَئِ لَهُ غوراً بعيداً مِنَ الدهاءِ والخُبثِ، وهو أبْنُ عمدةِ البلدةِ وواحدُ أبويه وألوارثُ من دُنياهما العريضة، يسطُ يديه على خمسمائةِ فدان، وقد أفسدتهُ النعمةُ وأهانتُهُ عزَّتُهُ على أهله؛ ولو اجتمعتْ حستانِ لِيُخرجَ منهما سيئةً مِنَ السيئاتِ بأسلوبِ مَنْ الأساليبِ، لَمَّا وَسِعَهَا إلَّا أسلوبُ نشأتِهِ من أبويه الطيبين. تعلَّم وهو يعرفُ أَنَّهُ لا حاجةَ بِهِ إلى العِلْمِ، فجعلتْ تلفظُهُ المدارسُ واحدةً بعدَ واحدةٍ كأنَّهُ نواةُ ثمرةٍ إنسانيةٍ فإذا قِيلَ لَهُ في ذلكَ قال: إنَّ خمسمائةِ فدانٍ لا تسعُها مدرسة... وذهبَ إلى فرنسا يطلبُ العِلْمَ الَّذي استعصى عليه في مصر، فأرهِفَ ذلكَ العِلْمَ... خياله وصقلَ حسُّه، ورجَعَ من باريسَ رقيقَ الحاشيةِ خِثاً مُتَطَرِّفاً لا يصلحُ شرقياً ولا غربياً!

وليس في تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتفت من جسمها في رداء الجمال الطبيعي الرائع، ولها نفس أشد وعورة مما تنطوي الغابة عليه؛ ففي ظاهرها الرونق الذي يفتن فيجذب إليها، وفي باطنها القوة التي تلتوي فتدفع عنها؛ وهي ابنة عم (أجل) وأسمها (خضراء)، وكأن فيها زهو خضرة الربيع، ولم تكن تعشق إلا القوة، فما يُزِين لها من الرجال إلا ابن عمها، وهي شديدة الإعجاب به؛ وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها.

وكانت (خضراء) جاهلة كنساء القرى، بيد أنها تلميذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها؛ فهي بذلك أقوى نفساً وأشدّ مراساً من الفتيات المتعلّقات؛ إذ اتخذت شكلاً ثابتاً من أشكال الحياة، والحياة هي صنعتها هذه الصنعة أو أقامتها على هذه الهيئة، على حين أن المتعلّقات يمضين أيام النشأة وسن الغريزة في التلقي عن الألفاظ والكتب، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها وفي توقي أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها؛ فيثول ذلك منهن إلى قوة في التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً ما؛ وتتم الواحدة منهن، ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يُعجب وما لا يُعجب.

وكانت خضراء أشبه بدورة النهار: تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم، ولا تزال نهارها في دأب وعمل، فنفي ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلى العيب والدعابة، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل في النظام الإنساني؛ عليه أن يصبر على الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزورة المصنوعة؛ ورأت الرجل يستأثر بجلال الأعمال ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب الساعات لعقرب أثنائي في الرقعة التي تجمعها؛ فهذا الصغير لا يبرح يضطرب في «دائريته الضيقة» يهتز من جزء إلى جزء، حتى إذا أتم الدقيقة في ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطابها خطوة واحدة: ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل عمله ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتبعاً هو أقلهما قيمة وظهوراً؛ ولكن هذا الضعيف المغبون^(١) لم ينله ما ناله إلا من كونه هو وحده الذي بُني في هذا النظام

(١) المغبون: المظلوم.

على فضيلة الصبر والدقة، ليكون أساساً للآخر؛ فعرفت (خضراء) كيف تُقَيَّد طبيعتها من تلقاء نفسها، وتقرأها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعي والاعتباط^(١) به؛ إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً أو أسباب فضل، بل في كونها هي أكثر منه حُباً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً؛ ففضائلها الحقيقية هي التي جعلته الأفضل، كما تجوع الأم لتطعم أبناً!

ورآها (ابن العمدة) ولما تمض أيام على رجوعه من أوروبا، وقد لبث هناك بضعة سنين، وكان عهده بالفتاة صغيرة، فوثبت إلى نفسه في وثبة واحدة، ورأى شاباً وجمالاً وروعة زيتتها في قلبه وسوّلت له مطعماً من المطاعم، وجعلته يرى ما يرى بمعنى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره.

وكانت حين رآها واقفة على الأنيل تملأ جرّتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن^(٢) ويتضحكن، كأن لخصب الأرض في أرواجهن أثراً بادياً، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شؤونهن تددت روح الماء على ذلك الأثر فاهتزت واهتزت المرأة به، فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين لمسحها الأندى، وذهبت تتموج في جسمها، وقد حسرت^(٣) عن ذراعيها، ولمس الماء دماً الجذاب فأرسل فيه تياراً من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحس؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة، فما أحسبه إلا يشرب منها بعينه شرباً يجد له في قلبه نشوة كنشوة الخمر؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى فزيتها له الخبث الذي فيه أضعاف ما زيتها له الجمال الذي فيها، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة؛ فوقف يتأملها بعين أحد من آلة التصوير لا تفوتها حركة، وسلط عليها فكره وذوقه، وأيقظ لها في نفسه المعاني الراقدة، فنصبت في قلبه عدة من تماثيل الجمال تجسدت في كل واحد منها على شكل كأنما أفرغت فيه إفراغاً.

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة؛ إذ قامت من نشأتها

(١) الاعتباط: الشعور بالسعادة.

(٢) يتعابثن: يتلاعبن ويمزحن.

(٣) حسرت: كشفت.

على أن تطلب فتجاب، وتأمّر فططاع، وتشتهي فتجد؛ وكأنّه ما خلق إلا ليستعبد قلبه والديه، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية، ومؤسّرين^(١) لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدنيا إلا أنها الحاجة إلى المال، ومنقطعان من النسل إلا منه، فكأنّه لم يولد لهما، بل قد ولد له... فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه؛ وبذلك أسرف له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها، وهي في نفسها فضائل، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تُشع في أولادهم إلا ما يكون من أضدادها، كالشجر تُفِرط عليه الرّي فلا يحدث فيه إلا اليبس والدوى، وإنّما أنت تسقيه الموت ما دُمّت ترويه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته.

ونشأ الفتى في أحوال اجتماعيّة مختلفة جعلت من أخصّ طباعه تمويه نفسه على الناس، والتباهي بالغنى، والتنبّل بالأصدقاء والعاشية من وزرائه وعُماليه، والتّهيه بالثياب والأزياء؛ فأنصرف باطنه إلى تجميل ظاهره، وردّ ظاهره على باطنه بالشهوات والدنيا، وأعانه على ذلك أنّه جميل فاتن كأنّما خلقت صورته «للصفحة الحساسة» من قلوب النساء؛ وذلك ملك عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منه إلا كما يكون وزير مالية الدولة... ولمّا أرسل إلى باريس وقع منها في بلد عجيب كأنّه خيال متخيل لا يؤمّه رجل في الدنيا من كامل أو ناقص أو عالم أو جاهل وشريف أو ساقط إلا رأى ما يملأ كلّ مداخل نفسه ومخارجها، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانيّة في خيرها وشرّها وطهرها وفجورها واختلالها ونظامها لكانت هي باريس؛ وأنقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء، فلا أهل فيلزموه الفضيلة، ولا إخوان فيردّوه إلى الرّي، ولا خلق متين فيعتصم^(٢) به، ولا نفس مرّة فيفيء إليها، ولا فقر... فيحدّ له حدوداً في الشهوات يقف عندها؛ وما هو إلا خيال متوقّد ومزاج مشبوّ وتربية مدلّلة وطبع جريء ومال يمرّ في إنفاقه، ومن ورائه أب غنيّ مخدوع كأنّه في يد ابنه كرة الخيط: كلّما جذب منها مدّت له مدّاً، ثمّ ما هنالك من فنون الجمال ومُنَع اللذات وأسباب اللهو، ممّا يتناهى إليه فساد الفاسد، وما هو في ذاته كأنّه عقوبة مستأصلة للأخلاق الطيبة؛ فكان الشيطان الباريسي من هذا المسكين في سمعه وبصره ورجله

(٢) يعتصم: يتمسك.

(١) مؤسرين: أغنياء.

ويده، يُوجِّهه حيثُ شاء؛ وبِالجملة فقد ذهبَ ليدرسَ فدرسَ ما شاء ورجعَ أستاذاً في كلِّ علومِ النفسِ المختلَّةِ الطائِفةِ وفنونِها، وأضافَ إلى هذه وتلك كلماتٍ يلوي بها لسانَهُ من علومٍ وأقوالٍ ليسَ فيها إلَّا ما ما يدلُّ الحاذقُ على أنَّ هذا الشابَّ لم يُفلحَ قطُّ في مدرسة.

فلَمَّا وقَعَت (خضرَاء) منه ذلك الموقِعَ وأخذتْ مأخذها في نفسِهِ، اعتدَّها^(١) نزوةً من نزواتِهِ؛ فما بمثله أن يُحبَّ مثلها، ولا هي كفايَتُهُ في شيءٍ إلَّا أن تكونَ لهُوَ ساعةً من ساعاتِهِ، أو حادثةً تجري فيها حالٌ من أحوالِهِ الغرامية؛ وحسبها امرأةٌ ليسَ لِقَلْبِها أبوابٌ تمتنعُ على مثله، فقدَّرَ أن غِناءَهُ وفقرها يقتلعانِ باباً، وعلمُهُ وجهلُها يُحطِّمانِ باباً آخر، وجمالُهُ وحدهُ يَضَعُ ما بقي مِنَ الْأَقْفَالِ عَمَّا بقيَ مِنَ الْأَبْوَابِ! وكانَ يحسبُ أن جمالَ المرأةِ مِنَ المرأةِ كالحليةِ من بائعِها؛ فكلُّ مَنْ ملكَ ثمنها فليسَ بينَهُ وبينها إلَّا هذا الثمنُ؛ ولكنَّ الأيامَ جعلتْ تأتي وتمرُّ وهو لا يزيدُ على أن يعرضَ لها وهي ترميه من صدودِها كلَّ يومٍ بداعيةٍ من دواعي الهوى؛ وكانَ لا يجدُ بنفسِهِ قوَّةً أن يزيدَها على النَّظَرِ شيئاً، وتركَ لوجهِهِ وثيابه ونظراتِهِ وغِناءَهُ أن تَصِلَ بينَ قلبِهِ وقلْبِها بسبب، فلم ينلْ طائلاً؛ وتمادى في حُبِّهِ، وأستولتْ عليه فكرةٌ غمرتَهُ بهذه المرأة؛ أمَّا هي فأشعرتَها غريزَتُها بِمَا في قلبِهِ منها، وكانتْ مُسمَّاةً لَأَبْنِ عَمِّها^(٢) فكانتْ تتحاشى^(٣) هذا الشابَّ وتحذِّره حذراً شديداً، وتوهمُ أن النَّاسَ يُحصونَ عليها النَّظرةَ والالتفاتَةَ ويُحصونَ عليه من مثلِهما، ووقعَ في نفسِها أن لهذا الرجلِ شأنًا غيرَ شأنِ الرِّجالِ الآخرين، فهم لا يستطيعونَ معها حيلةً وهو يستطيعُها بِغِناءِهِ ومنزلتِهِ.

وكانَ لِلرَّجُلِ خادمٌ داهيةٌ قد تخرَّجَ في مجالسِ الْقَضَاءِ... من كثرةٍ ما حُكِمَ عليه في تزويرِ وأحتيالٍ وغشٍّ وأدعاءٍ وإنكارٍ ونحوها، وقد استخلصَهُ لِنَفْسِهِ وأَتَّخَذَهُ مَوَانِساً ورفيقاً؛ وجعلهُ دسيساً^(٤) إلى شهواتِهِ السَّافِلَةِ وكانَ يُسميه فيما بينهما (إيليس)؛ فلما أرادَ أن يرميها بِهِ قال: يا سيدي، هذه قضيةٌ أحتيالٍ عليها، فإذا دخلَ ابْنُ عَمِّها خَصْماً في الدَّعوى كانتْ قِضيةٌ أحتيالٍ على عمري أنا! قال: ويحك! أيُّها الأبله! فأين دهاؤك ومكرُك؟ وإنَّما أرسَلُكَ إلى امرأةٍ فقيرةٍ عيشُها كفافُها،

(١) اعتدَّها: حسبها.

(٢) تتحاشى: تتجنب.

(٣) أي مخطوبة.

(٤) دسيساً: جاسوساً.

وَأَنْتِ تَعُدُّهَا وَتُؤَمِّنُهَا وَتَبْذُلُ عَنِّي مَا شِئْتَ، وَمَتَى أَطْمَعْتَهَا فِي الْمَالِ فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ سَيُوجِدُ مَا يُوْجِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَيُشْرِي مَا لَا يُشْرَى، وَيَبِيعُ مَا لَا يُبَاعُ! قَالَ (إِبْلِيسُ): نَعَمْ يَا سَيِّدِي، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلَكِنْ خَوْفُ الْعَارِ يَطْرُدُ حُبَّ الْمَالِ! قَالَ: فَأَنْتِ إِذَنْ لَا تَقْبِلِي؟ قَالَ: وَلَا أَرْفُضُ... قَالَ الشَّابُّ: قَاتِلَكَ اللَّهُ! لَقَدْ فَهَمْتُ! سَأَشْتَرِيهَا مِنْكَ بِثَمَنَيْنِ: أَحَدُهُمَا لَكَ وَالْآخَرُ لَهَا؛ وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ مَعَهَا وَمَنْ أَيْنَ تَبْلُغُ إِلَيْهَا؟ قَالَ (إِبْلِيسُ) لَمَّا كُنْتُ فِي السَّجَنِ عَرَفْتُ لَصّاً فَاتَكَا أَعْيَا قَوْمَهُ حُبّاً وَشَرّاً؛ وَهَذَا السَّجَنُ يَحْسِبُهُ عِقَاباً وَرَدْعاً وَمَنْهَاجاً عَنِ الْإِثْمِ، عَلَى أَنَّهُ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تُنْشِئُهَا الْحُكُومَةُ بِنَفْسِهَا لِتَلْقَى عِلُومَ الْجَرِيمَةِ عَنْ كِبَارِ أَسَاتِذَتِهَا؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْتَمَعَ كِبَارُهُمْ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا فِيهِ؛ فَالسَّجَنُ طَرِيقَةٌ مِنْ طَرِيقِ حَلِّ الْمَشْكِلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ يُحَدِّثُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مُشْكِلَةً لَا تَحُلُّ! قَالَ الْفَتَى: وَيَحِكْ! أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ؟ إِنَّمَا أُرْسَلْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ لَا إِلَى السَّجَنِ! قَالَ: تُرْسَلُنِي أَنْتِ إِلَيْهَا وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ أَيْنَ يُرْسَلُنِي أَبْنُ عَمِّهَا: إِلَى السَّجَنِ أَمْ إِلَى الْمَسْتَشْفَى...! فَاسْمَعْ يَا سَيِّدِي: كَانَ مِنْ نَصَائِحِ أَسَاتِذِي فِي ذَلِكَ السَّجَنِ: أَنَّ الْحِيلَةَ عَلَى رَجُلٍ يَنْبَغِي لِإِحْكَامِهَا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ أَسْبَابِهَا أَمْرًا، وَالْكِيدُ لِأَمْرَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ وَسَائِلِهِ رَجُلٌ... صَهْ! انْظُرْ! فَالْتَفَتَ الشَّابُّ، فَإِذَا (الْجَمَلُ) مُقْبِلٌ يَتَكَفَّأُ فِي مَشِيَّتِهِ، وَكَانَ غَلِيظًا، فَإِذَا خَطَا شَدَّ عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمَيْهِ وَتَكَدَّسَ^(١) بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ؛ وَكَانَ مُنْطَلِقًا وَقَتْنِذٍ إِلَى بَعْضِ مَذَاهِبِهِ، فَلَمَّا حَاذَاهُمَا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ! فَرَدًّا جَمِيعًا، وَرَمَى أَبْنُ الْعُمْدَةِ بِنَظَرَةٍ، ثُمَّ مَضَى لِيُوجِهَهُ فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى بَلَغَهُ صَوْتُ الشَّابِّ يُنَادِيهِ: يَا فُلَانُ! فَانْكَفَأَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ: لَقَدْ بَعْدَ عَهْدِكَ بِالْقُوَّةِ عَلَى مَا أَرَى. قَالَ: فَمَا ذَاكَ؟ قَالَ أَمَّا بَلَغَكَ أَنَّ فُلَانًا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي تُجَاوِرُنَا سَيَقْتَرُنُ بِزَوْجَتِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَأَنْتِ تَعْرِفُ الْمَوْقِعَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَلَدِنَا وَتِلْكَ الْبَلَدَةِ يَوْمَ عَرْسِ فُلَانٍ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ، وَكَيْفَ أُنْذِفَعُوا عَلَى أَهْلِ بَلَدِنَا وَحَطَّمُوا فِيهِمْ تِلْكَ الْحَطْمَةَ الشَّدِيدَةَ وَلَوْ لَا أَنْتِ أَدْرَكْتَهُمْ وَرَمَيْتَهُمْ بِنَفْسِكَ حَتَّى دَفَعْتَهُمْ عَنِ النَّاسِ وَسُقَّتْهُمْ أَمَامَكَ سَوْقُ النُّعَاجِ، لَكَانَتْ بَلَدُنَا الْيَوْمَ أَذْلَ أَلْبَادٍ، وَلَا سَتَطَلُّوا عَلَيْنَا بِأَنَّهُمْ غَلَبُونَا؛ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي صَاحِبِي هَذَا كَيْفَ تَلَقَّيْتَ بِهَرَاوَتِكَ يَوْمَئِذٍ خَمْسًا وَعَشْرِينَ هَرَاوَةً، فَأَطْرَقَهَا كُلَّهَا فِي جَوْلَتِكَ، وَهَزَمْتَ أَصْحَابَهَا بَعْدَ أَنْ أَحَاطُوا بِكَ وَتَكَلَّبُوا

(١) تَكَدَّسَ: اجْتَمَعَ.

عليك^(١)؛ فأنت فخرُ بلدنا وصاحبُ زعامتها، وما أرى لك إلا أن تنتهزَ هذه الفرصةَ وتسرعَ ألوثبةً إليهم برجالك، فتجزئهم في أرضهم صنيعاً بصنيع مثله!

فهزَّ الجملُ كتفيه العريضتين وقال: بل سأنتظرهم في يوم عرسي بأبنة عمي...! قال الشاب: أبلغت ما أرى؟ فإنك لتخافهم! قال: لا أخافهم ولكن أخافُ الحكومةَ أن تؤخرَ يومَ زواجي... سنةً أو سنتين! قال ألفتى: فإنَّ عملك هذا لا يشدُّ من نفوسِ رجالنا، ولا بُدَّ أن أولئك سينتظرونكم ويعدُّونَ لكم، فإذا لم تُناجزوهم^(٢) في بلدهم عدُّوها عليكم هزيمةً من الهزائم، وكأنَّهم ضربوكم بلا ضرب!

قال الجمل: هم لا يعرفون معنى الضرب بلا ضرب؛ لأنَّهم رجال؛ والذي يُضربُ بلا ضرب لا يكونُ رجلاً... والسَّلامُ عليكم! ثمَّ انطلق، فلمَّا أبعدَ قال الشاب: لقد بدأت الحربُ ولا بُدَّ لي أن أحطِّمَ هذا الفلاحَ اللعين! ولقد عرفتُ الآن من وجهه أنَّ عينه عليّ، ولستُ أشكُّ في أن بنتَ عمِّه لا تمتنعُ بقوةِها بل بقوةِته، ولولا معرفتي أنَّه من انحطاطِ الغريزةِ كالوحشِ في الدِّفاعِ عن أنثاه...!

قال (إبليس): لقد تأملتُ القصةَ فرأيتُ أنَّه لا سبيلَ لك إلى الفتاةِ وهي بعدُ فتاة، فإذا هو وصلَ إلى امرأته قطعْتَ أنت بهذه الخطوةِ نصفَ الطريقِ إليها... وستبلو هي من غلظتهِ وخشونةِ طبعه ما يسهلُ لك أن تُعلمَها قيمةَ ظرفك ورقتك، وستجدُ من سوءِ معاملتهِ وقبحِ تسلُّطه ما يفتحُ قلبها لمن يأتيها قبلَ الرِّفقِ واللين، وستُصيبُ عنده من ضيقِ المعيشةِ وقِلَّتِها ويسبِّها ما يُفهمُها معنى ذلك العيشِ الحلو الخضرِ الذي تعرضه عليها؛ ثمَّ إنَّه لا بُدَّ مبتليها بغيرتهِ العمياءِ بعد ما عرفَ من حُبِّك إيَّاهَا، والغيرةُ منك هي تُوجدُك بينهما دائماً وتنبِّهُ المرأةَ إليك كلِّما كرهتُ من رجلها شيئاً لا ترضاهُ.

ولم تكن إلا مدةً يسيرةً حتى أهديت^(٣) المرأةَ إلى زوجها، وإنَّما تعجَّلَ الزَّفافَ ليأتي له أن ينصبَ يدهُ القويَّةَ ججاً بينها وبين هذا المفتون، وليكتسبَ من القانونِ حقاً لم يكن له من قبلَ إذا هو مدَّ أليدهُ وعصرَ في قبضتها تلك الرِّقبةَ التي تتطلَّعُ إلى امرأتهِ؛ ورأى الشابُّ أنَّ هذه الحالَ لا تعتدلُ به وبخصمه معاً، وكانت الغيرةُ تأكلُ من قلبه أكلًا، وكانَ يعرضُ للمرأةَ كلِّما خرجتُ بمكثليها^(٤) إلى السوقِ

(١) تكلِّبوا عليك: تجزؤا عليك.

(٢) تناجزوهم: تقاتلوهم.

(٣) أهديت: زُفَّت.

(٤) المكثل: الغلق.

أو بِجَرَّتِهَا إِلَى الْمَاءِ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ . . . فَكَانَتْ إِذَا رَأَتْهُ لَمْ تَزِدْ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهَا إِذَا هِيَ أَبْصَرَتْ حِمَاراً يَمْدُ عَيْنَهُ إِلَيْهَا! . . . فَعَمِدَ إِلَى أَمْرَأَةٍ مَقِينَةٍ تَزْفُ الْعَرَائِسَ، وَهِيَ الَّتِي زَفَّتْ (خَضِرَاءَ) فَأَكْرَمَهَا وَأَتَحَفَهَا وَسَأَلَهَا أَنْ تُسَعِّفَهُ^(١) بَعْضَ مَا تَحْتَالُ بِهِ، وَأَنْ تَكُونَ سَبِيلَهُ إِلَى الْمَرْأَةِ؛ وَتَحْمَلَ عَلَيْهَا (بَابِلَيْسَهُ) حَتَّى اسْتَوْثَقَ^(٢) مِنْهَا، فَكَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَمَامَ (خَضِرَاءَ)؛ تَسْتَجِرُّ بِذَلِكَ أَنْ تَلْفَتْهَا إِلَى نِعْمَتِهِ وَجَمَالِهِ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ أَغْلَظَتْ لَهَا وَسَبَّتْهَا وَحَذَّرَتْهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى مِثْلِ كَلَامِهَا، وَقَالَتْ لَهَا آخِرَ مَا قَالَتْ: وَأَعْلَمِي أَنَّنِي لَوْ دُفَعْتُ إِلَى طَرِيقَيْنِ وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا، ثُمَّ كَانَ أَحَدُهُمَا حِصَاةُ الدَّانَانِيرِ وَهُوَ طَرِيقُ الْعَارِ، وَالْآخَرُ حِصَاوَةُ الْجَمْرِ وَيُقْضَى إِلَى الشَّرَفِ، إِذَنْ لَتَتَزَهَّدْتُ أَنْ أَدْنَسَ نَعْلِي بِالذَّهَبِ وَلَتَشْرُتَ لِحَمِّ قَدَمِي عَلَى الْجَمْرِ نَشْراً.

وَالْحُبُّ لَا يَبْقَى حُبّاً أَبَداً، فَإِذَا فَازَ فَبَرَدَ وَرَجَعَ سَلَوّاً، وَإِنَّمَا خَابَ فَأَضْطَرَمَّ وَتَحَوَّلَ إِلَى حِقْدٍ وَنِقْمَةٍ؛ وَكَذَلِكَ أَنْفَجَرَ الشَّابُّ غِيظاً، وَوَجَدَ عَلَى الْخَبِيثَةِ مَوْجِدَةً شَدِيدَةً، وَأَخَذَ يُدِيرُ رَأْيَهُ، فَفَتَقَتْ لَهُ الْحِيلَةُ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلَ الشَّهْمَ بِشَهَامَتِهِ، وَالْمَرْأَةَ الْعَفِيفَةَ بِعِفَّتِهَا؛ فَوَاطَأَ^(٣) إِبْلِيسَهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ إِلَى تِلْكَ الْمَقِينَةِ مَنِيلاً مِنَ الْحَرِيرِ عَقْدَ طَرَفِهِ عَلَى دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ، تُلْقِيهِ فِي صَنْدُوقِ (خَضِرَاءَ) وَتَدُسُّهُ^(٤) فِي طَيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ ثِيَابِهَا؛ فَذَهَبَتِ الْمَرْأَةُ، وَمَا زَالَتْ بِخَضِرَاءَ تَسْتَصْلِحُهَا وَتَعْتَذِرُ إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَلَّتْ^(٥) ضَغِينَةَ قَلْبِهَا، ثُمَّ سَايَلَتْهَا أَنْ تَأْتِيَهَا (بِالْعِيْشِ وَالْمَلَحِ) لِتُصِيبَ كِلْتَاهُمَا مِنْهُ وَتَتَحَرَّمَ بِحُرْمَتِهِ؛ فَلَمَّا نَهَضَتْ تَأْتِيَهَا أَسْرَعَتْ الْخَبِيثَةُ إِلَى الصَّنْدُوقِ فَدَسَّتِ الْمَنَدِيلَ فِي أَعْيُنِ مَوَاضِعِهِ وَأَخْفَاهَا؛ وَكَانَ مَنَدَى بِالْعَطْرِ لَيْسَمَ^(٦) عَلَى نَفْسِهِ إِذَا لَمْ يَنْمَ أَحَدٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ بِمَا فَعَلَتْ إِلَى الشَّابِّ، فَأَطْلَقَ خَادِمَهُ يَهْمِسُ لِبَعْضِ أَصْدِقَاءِ الْجَمَلِ أَنَّهُ رَأَى الْيَوْمَ فِي يَدِ (خَضِرَاءَ) دِينَاراً ذَهِباً عَلَى نُودِرَةِ الذَّهَبِ وَعِزَّتِهِ^(٧)؛ فَجَعَلَ هَذَا الدَّنِيَارُ يَطِيرُ مِنْ نَفْسِ إِلَى نَفْسٍ بِقُوَّةِ الذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ، وَالْحُبُّ الَّذِي أَعْطَاهُ، وَالْجَمَالَ الَّذِي أَخَذَهُ؛ ثُمَّ أَتَتْهُ إِلَى الْجَمَلِ، فَكَأَنَّمَا حَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ إِلَى دَارِهِ كَالْمَجْنُونِ وَقَدْ حَمِيَ دُمُهُ الْحَرُّ، وَجَاشَ^(٨) جَاشُهُ الْعَنِيفُ وَلَمْ تَكُنْ أَمْرَأَتُهُ فِي الدَّارِ،

(١) تسعفه: تساعده.

(٢) استوثق: تأكد.

(٣) واطأ، تأمر.

(٤) تدسه: تضعه خفية.

(٥) استلت: استخرجت.

(٦) ينم: يكشف.

(٧) عزته: ندرته.

(٨) جاش: فار.

فنشَر ما في الصندوق، وما كاذت تَفَعْمُهُ رائحةُ الْعِطْرِ حتى نفَخَ الشَّيْطَانُ بها نفخةَ الغضبِ الكافر، ثُمَّ عَثَرَ على المندبل، ورأى بصيصَ الدنيار، فدارَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وأيقِنَ أَنَّ الْعَارَ قد طرَقَ بابَهُ، وَأَنَّ الْبَابَ قد فُتِحَ لَهُ؛ ثُمَّ رَدَّ نَفْسَهُ على مكروهاها وردَّ مَعَهَا كُلَّ شَيْءٍ إلى موضعه، وتلفَفَ رَأْيُهُ على جريمتين، وخرجَ وروحُهُ تصرخُ من ضربةِ بِمَنْدِيل، وهو الَّذِي كَانَتْ تَتَهَاوَى عَلَيْهِ الضَّرَبَاتُ الْفَاتِلَةُ تَهْشُمُ^(١) منه ولا يتأوُّهُ!

وذكرَ أَنَّ (حماته) أثنت من عهدٍ قريبٍ على ابنِ الْعُمْدَةِ ووصفَتْهُ بِالرَّقَةِ وَالْغِنَى، فوجَّهَ إليها أَنْ تَأْتِيَ فتَبَيَّنَ عِنْدَ أَمْرَاتِهِ لِأَنَّهُ على سفر، وكانَ كَأَلْأَعْمَى في ضلالتِهِ: لا يرى الْأَشْيَاءَ إِلَّا كما يتخيَّلُهَا في نَفْسِهِ دونَ ما هيَ في نَفْسِهَا، فسألَتْهُ زوجته: أينَ أزمَعْتَ وما تبغي مِنْ سَفَرِكَ وكم تلبثُ عِنا؟ فكأَنَّهُ سَمِعَهَا تقول: إرحلْ إلى مكانٍ بعيدٍ وغِبْ زمناً طويلاً، فبنا إلى غيَابِكَ حاجةً شديدةً! وكادَ يَبْطِشُ بها، ولكِنَّهُ كَاتَمَ صدرَهُ الْلوْعَةَ أَسَمَ جِهَةٍ بعيدَةٍ ومضى وَأَلَانْكَسَارُ يُعْرِفُ فِيهِ!

فزعَ النَّاسُ بعدَ أيامٍ في جَوْفِ اللَّيْلِ، فإذا بَيْتُ الْجَمَلِ يحترقُ من أرضِهِ وسمائِهِ، واقتحمُوهُ فإذا الْمَرْأَةُ وَأُمُّهَا فحمتان: وَأَنْطَلَقَتْ أسرارُ الْأَلْسِنَةِ، وَقُبِضَ على الرَّجُلِ في بَلَدٍ آخَرَ، وتولَّى ابْنُ الْعُمْدَةِ توجيةَ الْبَيِّنَةِ عليه، وشَهِدَ الشُّهُودُ على الدِّينَارِ، وشَهِدَ الدِّينَارُ على النَّارِ، وأنكَرَ «الْجَمْلُ» ولم يَقْصُرْ في إقامةِ الْحُجَّةِ ودافعَ عَنِ أَمْرَاتِهِ وبالغَ في أمانتِها وعِفَّتِها وشَهِدَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ عليها من سُوءٍ، وَأَنَّهَا أَطْهَرُ النِّسَاءِ وَأَبْرَهَنُ، ثُمَّ كَانَ الْحُكْمُ أَنْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ شَقًّا!

فلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِنْفَازِ الْحُكْمِ سُئِلَ الرَّجُلُ (هل من شَيْءٍ تُريدُهُ؟ فطلبَ دُخِينَةً^(٢) ففقدَ مَعَهَا لَهُ قَيِّمُ السِّجْنِ، فأشعلَهَا ونفَخَ من دُخَانِهَا نفخةً. ثُمَّ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ وعمرُهُ يَفْنَى مَعَ الدُّخِينَةِ نَفْسًا في نفس، وعادَ هذا الدُّخَانُ الْمَتَطَايِرُ كَأَنَّهُ سَحَابٌ يَسُحُّ فِيهِ الْوَحْيُ بينَ حدودِ الدُّنْيَا وحدودِ الْآخِرَةِ؛ قَالَ الْمَسْكِينُ: لم أَعْلَمُ، ولو تَعَلَّمْتُ ما وَقَفْتُ هنا؛ ولكنَّ رِيَّما كُنْتُ خَرَجْتُ نَذْلًا كَبَعْضِ الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ أَشْرَافًا وفيهم أرواحُ الْقَتْلَةِ وَاللِّصُوصِ!

(١) تهشم: تحطم.

(٢) دُخِينَة: سحابة.

لم أقرّ لأحدٍ بجريمتي خشيةً أن تُذكرَ كلمةُ العارِ معَ اسمي، وآثرتُ أن أموتَ
بِالشنقِ على أن أحيَا ويموتَ اسمي بِالعارِ!

ولكنِّي سأعترفُ الآنَ أمامكم وأنتُم الساعةُ على قبري، فكونوا كَالْملائكةِ لا
يشهدون بما عرفوا إِلَّا عندَ اللَّهِ وحدهُ.

أعترفُ أَني قتلْتُ زوجتي وأمها؛ وقد تقولون: إِنَّه ليسَ من عملِ الرجلِ أنْ
يقتلَ امرأةً فضلاً عنِ اثنتين؛ إِنني رجلٌ سأشتق، أما النساءُ فلا يُشتقنَ وإنَّما يُرسلنَ
الرجالَ إلى المَشنقةِ... لم أرَ أبي؛ إذ تركني طفلاً، ولكن يُقالُ: إِنَّه كانَ رجلاً،
فأنا رجلٌ وأبُنُ رجلٍ، ولم يُذلني رجلٌ قطُّ، ولكن لو خلقَ اللَّهُ قوَّةَ مائةِ جبارٍ في
جسمِ رجلٍ واحدٍ لَأَذَلَّتهُ امرأةٌ!

إِنَّه ليسَ من شِمةِ الرجلِ أنْ يقتلَ النساءَ، ولكنَّ المرأةَ تُذلُّ الرجلَ ذُلًّا يهونُ
عليه قتلُ نفسه، فكيف لا يهونُ عليه قتلها؟

علّموا المتعلّمين ليصيروا في الشرفِ والأمانةِ وَالْعِفَّةِ كرجلٍ جاهلٍ مثلي: لا
يرى لِلحياةِ كُلِّها قيمةً إذا كانَ فيها معنى العارِ، ويُقدِّمُ عُنقَهُ لِلْمَشنقةِ حتى لا يُنكسَ
رأسُهُ للذُّلِّ!

أصلِحوا القانونَ الذي يحكمُ بِالْموتِ شتفاً ويُزهقُ الأرواحَ الكبيرةَ، في حين
تغلبُهُ الأرواحُ الصَّغيرةُ بِحيلِها الدنيئةِ!

ومع ذلك سألقى اللَّهَ وهو يعلمُ سريري إن كُنْتُ بريئاً أو مجرماً!
قيِّمُ السجن: ستلقاهُ طاهراً.

السجين: أرايتم مِنِّي خُلُقَ سوء؟ أعتقدُ عليّ ذنباً مدَّةَ سجنِي؟
القيِّم: كلُّنا راضونَ عنك.

السجين: هذا مثلٌ من أخلاقي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ على أن آخرَ كلمةٍ أسمعُها من
إنسانٍ على الأرض - كلمةُ الرضا.

أشهدُ أن لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ وأنصُرُ محمداً رسولَ اللَّهِ!

نظرت ريشة من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشاً متناثراً،
فامتطت العاصفة وقالت: إلى السماء! ودارت بها العاصفة ما شاء الله أن تدور،
ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال في موضع نفع أم ضرر؛ فأقبلت الريشة تتسخط
وتزعم أنها فوضى نائرة لا حكمة في خلقها، وأن الرياح بعثرة في نظام
العالم... وكان إلى جانبها شجرة تهتز ولا تطير... فلما وعت مقالتها أقبلت
عليها فقالت: أيتها الريشة! إن الرياح لا تكون بعثرة في نظام العالم إلا إذا كان
العالم ريشاً كله!

القلبُ المسكين

١

أقبلَ عليَّ صاحبي الأديبُ وقال: أنظر، هذه هي، وقد حُلَّتْ بهذا البلدِ ومالي عهدٌ بها منذُ سنة. ومدَّ إليَّ يده فنظرتُ إلى صورةِ امرأةٍ كأحسنِ النساءِ وجهاً وجِسماً، تتأوَّدُ^(١) في غلالةٍ^(٢) مِن اللَّادِ^(٣).

وَكأنَّ شُعاعَ الضُّحَى^(٤) في وجهِها، وكأنَّها القمرُ طالعاً من غيمة، ويكادُ صدرُها ينتهَدُ وهي صورة، وتبدو هيئةٌ فَمِها كأنَّها وعدٌ بقبلة، وفي عينيها نظرةٌ كالسكوتِ بعدَ الكلمةِ التي قِيلَتْ هَمْساً بَيْنَها وَبَيْنَ مُجِبِّها. . .

فقلتُ: هذه صورةٌ ما أراها قد رسمَها إلَّا اثنان: المصوِّرُ وإبليس؛ فَمَن هي؟

قال: سَلِّها، أما تراها تكادُ تَثْبُ من الورقة؟ إِنَّها إلَّا تخبرُك بشيءٍ أخبرُك عنها، وجهُها أنَّها أجملُ النساءِ وأظرفُهُنَّ وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً، وثغراً وجيداً والذي بعدَ ذلك. . .

قلتُ: ويحك، لقد شَعُرْتُ بعدي، إنَّ هذا شعراً موزون:

وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً وثغراً وجيداً والذي بعدَ ذلكا. . .
قال: إنَّ شيطانَ هذه لا يكونُ إلَّا شاعراً؛ ألسنتُ تراه ناظماً من فنونها على
الرسمِ شِعْراً معجزاً كلَّ شاعر؟

قلتُ: وهذا أيضاً شعراً موزون:

ألسنتُ تراه ناظماً من فنونها على الرسمِ شِعْراً معجزاً كلَّ شاعر

(٣) اللَّادِ: الحرير الصيني الرقيق الناعم.

(٤) الضُّحَى: الفجر.

(١) تتأوَّد: تتمايل في مشيتها.

(٢) غلالة: قميص رقيق يلبس تحت الثياب.

قال: بلى وَاللَّهِ إِنَّهُ الشَّيْطَانُ، إِنَّهُ شَيْطَانُهَا، يُرِيكَ لِهَذَا الْجِسْمِ رَوْحاً رَشِيقَةً،
تَلِينَ كَلِينَ الْجِسْمِ. بَلْ هِيَ أَرْشَقُ.

قُلْتُ: وهذا أيضاً، وَالْقَافِيَةُ الَّتِي بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ: وَبِهَا شَقُّوا...
فَضَحَكَ صَاحِبُنَا وَقَالَ: حَرُّكَ الصُّورَةُ فِي يَدِكَ، فَإِنَّكَ سَتَرَاهَا وَمَا تَشْكُ أَنَّهَا
تَرْقِصُ.

قُلْتُ: الْآنَ أَنْقَطَعَ شَيْطَانُكَ، فَهَذَا لَيْسَ شَيْعِراً وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ وَزْنَ.
وَتَضَاحَكُنَا وَضَحَكَ الشَّيْطَانُ، وَظَهَرَ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ فِي الرَّسْمِ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ.

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: أَنْظِرْ إِلَى هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ، إِنَّهُمَا مِنَ الْعَيُونِ الَّتِي
تَفْتَنُ الرَّجُلَ وَتَسْحَرُهُ مَتَى نَظَرْتَ إِلَيْهِ، وَتُعَذِّبُهُ وَتُضْنِيهِ مَتَى غَابَتْ عَنْهُ؛ إِنَّ فِي
شُعَاعَيْهِمَا قُدْرَةً عَلَى وَضْعِ النُّورِ فِي الْقَلْبِ السَّعِيدِ، كَمَا أَنَّ فِي سَوَادِهِمَا الْقُدْرَةَ عَلَى
وَضْعِ الظُّلْمَةِ فِي الْقَلْبِ الْمَهْجُورِ.

وَأَنْظِرْ إِلَى هَذَا الْفَمِ، إِلَى هَذَا الْفَمِ الَّذِي تَعْجِزُ كُلُّ حَدَائِقِ الْأَرْضِ أَنْ تُخْرِجَ
وَرْدَةً حَمْرَاءَ تَشْبِهُهُ.

وَأَنْظِرْ إِلَى هَذَا الْجِيدِ تَحْتَهُ ذَلِكَ الصَّدْرُ الْعَارِي، فَوْقَهُ ذَلِكَ الْوَجْهُ الْمَشْرُقُ؛
تِلْكَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الضُّوءِ: أَمَّا الْوَجْهُ فَفِيهِ رَوْحُ الشَّمْسِ، وَأَمَّا الْجِيدُ فَفِيهِ رَوْحُ
النَّجْمِ، وَأَمَّا الصَّدْرُ فَفِيهِ رَوْحُ الْقَمَرِ الضَّاحِي^(١).

أَنْظِرْ إِلَى هَذِهِ الْمَسَافَةِ الْبَيْضَاءِ مِنْ أَعْلَى جَبِينِهَا إِلَى أَسْفَلِ نَهْدَيْهَا، تِلْكَ مَنَاطِقُهُ
الْقُبَلَاتِ فِي جُغْرَافِيَا هَذَا الْجَمَالِ...

وَأَنْظِرْ إِلَى الصَّدْرِ يَحْمِلُ ذَيْنِكَ الثَّيْبَيْنِ الْنَاهِدَيْنِ؛ إِنَّهُ الْمَعْرُضُ الَّذِي اخْتَارَتْهُ
الطَّبِيعَةُ مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ لِلْإِعْلَانِ عَنْ ثِمَارِ الْبَسْتَانِ...

أَنْظِرْ إِلَى الْنَهْدَيْنِ لَمْ يَبْرَزَا فِي صَدْرِ الْمَرْأَةِ إِلَّا إِذَا كَانَا يَتَحَدَّيَانِ الصَّدْرَ
الْآخِرَ...؟!

وَأَنْظِرْ لِهَذَا الْخَصِرِ الدَّقِيقِ وَمَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ، أَلَا تَرَاهُ فِتْنَةً مُتَوَاضِعَةً بَيْنَ
فِتْنَتَيْنِ مُتَكَبِّرَتَيْنِ...؟

(١) الضاحي: السافر.

أَنْظُرْ إِلَيْهَا كُلُّهَا، أَنْظُرْ إِلَى كُلِّ هَذَا الْجَمَالِ، وَهَذَا السَّحَرِ، وَهَذَا الْإِغْرَاءِ؛ أَلَا تَرَى الْكَثْرَ الَّذِي يَحْوِلُ الْقَلْبَ إِلَى لَصٍّ . . . ؟

هذه مخلوقة مرتين: إحداهما مِنْ أَلَلِّهِ فِي الْعَالَمِ، وَالْأُخْرَى مِنْ حُبِّي أَنَا فِي نَفْسِي أَنَا: فَكَلِمَةُ «جَمِيلَةٌ» الَّتِي تُصِفُ الْمَرْأَةَ الْتَامَّةَ، لَا تُصِفُهَا هِيَ بَعْضُ الْوَصْفِ؛ وَرَسْمُهَا هَذَا الَّذِي تَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ حَدُودُ لَتِلْكَ أَلْرُوحِ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّسَلُّطِ، وَهِيَاهُ يُظْهِرُ مِنْ تِلْكَ أَلْرُوحِ إِلَّا مَا يَظْهَرُ مِنْ أَلْجَمْرَةِ أَلْمَشْتَعَلَةِ رَسْمِ هَذِهِ أَلْجَمْرَةِ فِي وَرْقَةٍ.

أَشْهَدُ مَا نَظَرْتُ مَرَّةً إِلَى هَذَا أَلرَّسْمِ ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهَا إِلَّا وَجَدْتُ أَلْفَرْقَ بَيْنَهَا فِي نَفْسِهَا وَبَيْنَهَا فِي أَلْصُورَةِ، كَأَنَّهُ أَعْتَذَارٌ نَاطِقٌ مِنْ أَلَّةِ أَلتَّصْوِيرِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَدَاةً.

قُلْتُ: أَللَّهُمَّ غَفِرَا؛ ثُمَّ مَاذَا يَا صَدِيقِي أَلْمَجْنُونِ؟
فَأَطْرَقَ أَلْأَدِيبُ مَهْمُومًا، وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ تَتَفَجَّرُ فِي دِمَاغِهِ أُنْفِجَارًا هُنَا وَأُنْفِجَارًا هُنَاكَ؛ ثُمَّ رَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ، وَقَالَ:

هذه أَلْغَانِيَّةٌ قَدْ حَبَسَتْ أَفْكَارِي كُلُّهَا فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا هِيَ؛ وَأَغْلَقْتُ أَبْوَابَ نَفْسِي وَمَنَافَذَهَا إِلَى أَلدُّنْيَا، وَأَلْهَبْتُ فِي دَمِي جَمْرَةً مِنْ جَهَنَّمَ فِيهَا عَذَابُ أَلْإِحْرَاقِ وَلَيْسَ فِيهَا أَلْإِحْرَاقُ نَفْسُهُ كَيْلَا يَنْتَهِيَ مِنْهَا أَلْعَذَابُ!

وَبَيْنَمَا حُبٌّ بِغَيْرِ طَرِيقَةٍ أَلْحُبِّ، فَإِنَّ طَبِيعَتِي أَلرُّوحَانِيَّةَ أَلْكََامِلَةَ تَهْوِي فِيهَا طَبِيعَتُهَا أَلْبَشَرِيَّةَ أَلنَّاقِصَةِ، فَأَنَا أُمَازُجُهَا بِرُوحِي فَأَتَأَلَّمُ لَهَا، وَأَتَجَنَّبُهَا بِجِسْمِي فَأَتَأَلَّمُ بِهَا.

حُبٌّ عَقِيمٌ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ لَا يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ أَلْوَاقِعِ . . .
حُبٌّ عَجِيبٌ لَا تَنْتَفِي مِنْهُ أَلْأَمَةُ وَلَا تَكُونُ فِيهِ لِذَاتِهِ . . .
حُبٌّ مَعْقَدٌ لَا يَزَالُ يَلْقَى أَلْمَسْأَلَةَ بَعْدَ أَلْمَسْأَلَةِ، ثُمَّ يَرْفُضُ أَلْحُلَّ الَّذِي لَا تُحْلُ أَلْمَسْأَلَةُ إِلَّا بِهِ . . .

حُبٌّ أَحْمَقُ يَعِشُّ أَلْمَرْأَةُ أَلْمَرْأَةَ أَلْمَبْدُولَةَ لِلنَّاسِ، وَلَا يَرَاهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا قَدِيسَةً لَا مَطْمَعَ فِيهَا . . .

حُبٌّ أَلْبَلَّ لَا يَزَالُ فِي حَقَائِقِ أَلدُّنْيَا كَأَلْمُنْتَظَرِ أَنْ تَقَعَ عَلَى شَفْتَيْهِ قُبْلَةً مِنْ أَلْفَمِ الَّذِي فِي أَلْصُورَةِ . . .

حُبَّ مجنونٍ كالذي يرى الحسناء أمامَ مرآتها فيقول لها اذهبي أنتِ وستبقى في هذه أَلتي في المرأة... .

قلت: اللهم رحمة؛ ثم ماذا يا صاحبي المسكين؟
قال: ثم هذه أَلتي أُحبُّها هي أَلتي لا أريدُ ألاستمتاعَ بها ولا أطيْقُهُ ولا أجدُ في طبيعتي جرأةَ عليه، فكأنَّها الذهبُ وكأنِّي الْفَقِيرُ الَّذِي لا يُريدُ أن يكونَ لَصًّا؛ يقولُ لَهُ شيطانُ المال: تَسْتَطِيعُ أن تَطْمَعُ؛ ويقولُ لَهُ شيطانُ الْحَاجَةِ: وتَسْتَطِيعُ أن تفعل؛ ويقولُ هو لِنَفْسِهِ: لا أَسْتَطِيعُ إِلَّا الْفَضِيلَةَ!
إنَّ عذابَ هذا بِشِيطَانَيْنِ لا بِشِيطَانٍ واحد، غيرَ أنَّ لَذَّتَهُ في انتصارِهِ كَلَذَّةَ مَنْ يقهرُ بطلينِ كلاهما أقوى منه وأشدَّ.

قلت: اللهم عفوًا؛ ثم ماذا يا قاهرَ الشيطانين؟
فأطرقَ مَلِيًّا كالذي ينظرُ في أمرٍ قد حيرَهُ لا يتوجَّهُ لَهُ في أمرِهِ وجه، ثم تنهَّد وقال: يا طولَ عِلَّةٍ قلبي! من أينَ أجيءُ لِأحلامي بِغيرِ ما تجيءُ الْأَحْلَامُ بِهِ، وإنَّما هي تحتَ الْنومِ ووراءَ الْعَقْلِ، وفوقَ الْإِرَادَةِ؟ لقد بلغَ بينَ هواها أن كلَّ كلمةٍ مِنْ كلامِ الْحُبِّ في كِتَابٍ أو رِوَايَةٍ أو شِعْرِ أو حديثٍ - أراها مَوْجَّهَةٌ إِلَيَّ أنا... .
ثم قال: إنطلقْ بنا فتراها حتى تعلمَ مِنْها عِلْمًا، فهي في ذلك الْمَسْرَحِ، هي في ذلك الشَّرِّ، هي في تلك الظُّلُماتِ، هي كاللؤلؤة لا تترى لؤلؤةً إِلَّا في أعماقِ بحرٍ.
وذهبنا إلى مسرحٍ يقومُ في حديقةٍ غنَّاءٍ متراميةِ الْجِهَاتِ بعيدةِ الْأَطرافِ، تظهرُ تحتَ اللَّيْلِ من ظلماتِها وأنوارِها كأنَّها مُثْقَلَةٌ بمعاني الْهَجَرِ وَالْعَشَقِ.
وتقدَّمنا نسيرُ في الْعَبْشِ^(١)، فقالَ صاحبُنا الْمُحِبُّ: إنِّي لَأَشْعُرُ أنَّ الظَّلامَ هنا حيٌّ كأنَّ فيه غوامضَ قلبٍ كبيرٍ، فما أرى فَرْقًا بَيْنَ أن أجلسَ فيه وبينَ أَلْجُلُوسٍ إلى فيلسوفٍ عظيمٍ مهمومٍ بِهِمْ أَلْلاَنهايةَ، فتعالَ نبرزْ إلى ذلك الْأَنورِ حولَ الْمَسْرَحِ لِنراها وهي مَقْبَلَةٌ، فَإِنَّ رُؤْيَها سيدةٌ غيرُ رُؤْيَها راقصةٌ، ولهذه جمالٌ فنٌّ ولتلك فنٌّ جمالٌ.

(١) الغبش: العتمة.

ولم نلبث إلا يسيراً حتى وافت^(١)، ورأيتها تمشي مِشيّة الخفّرات^(٢) كأنّما تحترّم أفكار الناس، يزهوها على ذلك إحساس نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبّة شعبيها؛ وأنفَضَ مجنوّتنا وأغمَضَ عينيه كأنّها تمرُّ بين ذراعيه لا في طريقها، وكأنّ لذة قُربها منه هي الممكن الذي لا يمكن غيره...

وكان عجباً من العجب أن تحرّك الهواء في الحديقة وأضطربت أشجارها، فقال: أنت ترى؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة! قلت: أه يا صديقي! إنّ المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وجدت في جوّ قلب يعشقها.

ونفذنا إلى المسرح، وتحرّى^(٣) صاحبنا موضعاً يكون فيه منظر العين من صاحبيّه ويكون مستخفياً منها، ثمّ رُفِعَ الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها، وقد لبسن ثلاثهين أثواب الريفيات، وظهرن كهيتتهن حين يتجنيّ القطن.

وبرزت (تلك) في ثوب من الحرير الأسود، وهي بيضاء بياض القمر حين يتمّ وقد شدّت وسطها بمشدّة من الحرير الأحمر، فتحبّكت بها وظهرت شيئين: أعلى وأسفل؛ ثمّ ألقت على شعرها الذهبي قلنسوة حمراء من ذلك الحرير أمالّتها جانباً فحبست شيئاً منه وأظهرت سائرته، وأخذت بيديها صفاقتين^(٤) وأقبل الثلاث يرقصن ويغنين نشيد الفلاحة.

لم أنظر إلى غيرها، فقد كانت صاحبتها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقلّ، وما أحسب الحرير الأحمر، كان معها أحمر ولا الأسود كان عليها أسود، ولا لون الذهب في مغمصمها كان لون الذهب؛ كلّاً كلّاً، هذه ألوان فوق الطبيعة، لأنّ ألوانه يُشرق عليها بالجمال والحياة، وذلك الجسم يفيض لها بالخفة والطرب وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة؛ هذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها.

وقال مجنوّتنا: إنّ أجمل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يجعل لكلّ إنسان نوع شعوره بها، وأنا أشعر الساعة أنّ قلبي نصف قلب فقط، وأنّ نصفه الآخر في هذه وحدها؛ فما شعورك أنت؟

(١) وافت: جاءت.

(٢) الخفّرات: الحيات.

(٣) تحرّى: فتن.

(٤) صفاقتين: هما ما تضع الراقصات في أصابعهن، ويقال لهن الساجات.

قلت: يا صديقي. إنَّ اللهَ رحيمٌ، ومن رحمتهِ أنَّه أخفى القلبَ وأخفى بواعثَهُ
ليظلَّ كلُّ إنسانٍ مخبوءاً عن كلِّ إنسانٍ؛ فدغني مخبوءاً عنك!

قال: لا بُدَّ!

قلت: إنَّ المصباحَ في الموضعِ النجسِ لا يبعثُ النورَ نجساً، وما أشعرُ إلاَّ
أنَّ النورَ الذي في قلبي قد أمتزجَ بالنورِ الذي في عينيها.

ثمَّ كأنَّها أحسَّتْ بأنَّ إنساناً قد أمتلأ بها، فأدارَتْ وجهَهَا وهي ترقصُ،
فتلمَّحتْ صاحبَتَا، وجعلتْ تُقطِّعُ الطَّرْفَ بينها وبينَهُ كأنَّها تعرفُهُ وتجهلُهُ، ثمَّ تبيَّنتْ
إلحاحَ نظريهِ فضحكَّتْ لِأنَّها تعرفُهُ ولا تجهلُهُ!

أمَّا هو، أمَّا المجنون، أمَّا صاحبُ القلبِ المسكين!...

* * *

القلبُ المسكين

٢

... أمّا صاحبُ القلبِ المسكينِ فرأى الضحكةَ التي أَلْقَتْ بها صاحبتُهُ وهي ترقصُ حينَ عرفتُهُ - غيرَ ما رأيَتها أنا وغيرَ ما رأى الناسُ : كَأَنَّهُ لَنَا نَحْنُ أَبْتِسَاماً عَذْباً مِنْ فَمِ جَمِيلٍ يَتِمُّ جَمَالُهُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَكَأَنَّهُ لَهُ هُوَ لُغَةٌ مِنْ هَذَا أَلْفَمِ الْجَمِيلِ يُتِمُّ بِهَا حَدِيثاً قَدِيماً كَانَ بَيْنَهُمَا ؛ وَأَعْتَرَانَا مِنْهَا الطَّرْبُ وَأَعْتَرَاهُ مِنْهَا الْفِكْرُ ، وَوَصَفَتْ لَنَا نَوْعاً مِنَ الْحُسْنِ وَوَصَفَتْ لَهُ نَوْعاً مِنَ الشُّوقِ ، وَمَرَّتْ عَلَيْنَا شُعَاعاً فِي الضُّوءِ وَوَقَعَتْ فِي يَدِهِ هُوَ كِبَاطِقَةُ الزِّيَارَةِ عَلَيْهَا أَسْمٌ مَكْتُوبٌ ...

وقوي إحساسُ الراقصةِ الجميلةِ بعدَ ذلكَ فَانْبَعَثَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ ضَرْباً مِنَ الدَّلَالَةِ الْخَفِيَّةِ ، وَرَجَعَتْ بِهَذَا الْإِحْسَاسِ كَالْحَقِيقَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْغَامِضَةِ الْمَمْلُوءَةِ بِفَنونِ الرَّمْزِ وَالْإِيمَاءِ ، وَكَأَنَّهَا زَادَتْ بِهَذَا الْغَمُوضِ زِيَادَةً ظَاهِرَةً ؛ وَلِلْمَرْأَةِ لَحْظَاتٌ تَكُونُ فِيهَا بِفِكْرَيْنِ حِينَمَا يَكُونُ أَحَدُ الْفِكْرَيْنِ مَثَلاً أَمَامَهَا فِي رَجُلٍ تَهَوَّاهُ ؛ ففِي هَذِهِ السَّاعَةِ تَتَحَدَّثُ الْمَرْأَةُ بِكَلَامٍ فِيهِ صَمْتُ يَشْرَحُ وَيُفَسِّرُ ، وَتَضْطَرُّ بِحَرَكَةٍ فِيهَا أَسْتِرْخَاءٌ يَمِيلُ وَيَعْتَنِقُ ، وَتَنْظُرُ بِالْحَاطِظِ فِيهَا أَنْكَسَارٌ يَأْمُرُ وَيَتَوَسَّلُ ؛ وَكَأَنَّهُ هِيَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ... فَغَلَبَتْ - وَاللَّهِ - عَلَى صَاحِبِهَا الْمَسْكِينِ وَتَرَكَّتْ نَفْسُهُ كَأَنَّهَا تَتَقَطَّعُ فِيهِ مِنْ أَسْفٍ وَحَسْرَةٍ ؛ ثُمَّ كَأَنَّهُ لَهُ كَالزَّهْرَةِ الْعَبْقَةِ : بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا جَمَالُهَا وَعِطْرُهَا هَوَاؤُهَا وَالْحَاسَةُ الَّتِي فِيهِ .

وجعلَ يَسْتَشْفِيهَا مِنْ خِلَالِ أَعْضَائِهَا ، ثُمَّ قَالَ لِي : أَنْظِرْ - وَيَحْكُ - ! لَكَأَنَّ ثِيَابَهَا تَضُمُّهَا وَتَلْتَصِقُ بِهَا ضَمٌّ ذِي الْهَوَى لِمَنْ يَهْوَى .

قلتُ : مَا هِيَ إِلَّا كَهَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَرْقِصَانِ مَعَهَا : أَمْرَاءَةٌ بَيْنَ أَمْرَاتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ أَحْسَنَ الثَّلَاثِ .

قالَ : كَلَّا ، هَذِهِ وَحْدَهَا قَصِيدَةٌ مِنْ أَرْوَعِ الشُّعْرِ ، تَتَحَرَّكُ بَدَلاً مِنْ أَنْ تُقْرَأَ

وثرى بدلاً من أن تُسمع؛ قصيدة بلا ألفاظ، ولكن من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره.

قلت: والأخريان؟

قال: كلا كلا، هذا فن آخر، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بمعدتها... ترقص للخبز لا غير؛ أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها؛ إنها كالطاووس يتبخر في أصباغه. في ريشه، في خيلائه، بخترة يضاعفها الحسن ثلاث مرات؛ ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرها وأخضرها وأصفرها وأزرقها، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشىها، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملونة - لظهر فيه وحده اللون الملك بين ألوان هي رعيته الخاضعة.

وأنتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قبلة في الهواء... فقال صاحبنا: آه! لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير، لجعلته لمسة يدها درهما وقبلة...

قلت: يا عدو نفسيه! هذه قبلة محررة مسددة وقد رأيتهما وقعت هنا... ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة؛ تعشق القبلة وتخاصم الفم الذي يلقيها، وتبني العشر وتركه فارغاً من طيره؛ إن امرأة تحبك لا بد متتهية إلى الجنون ما دامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن.

ثم بدأ فصل آخر على المسرح، وظهر رجال ونساء وقصة؛ وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيهاً، وآخر يمثل شرطياً؛ فقال صاحبنا الفيلسوف: لقد جاءت هذه الثياب فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحة الظاهر فقط، ما دام الظاهر يخلع ويلبس بهذه السهولة؛ فكم في هذه الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت^(١) ألباطن منهم - إنما يشرفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر... وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون... وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفجرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة... ليست الإنسانية بهذه السهولة التي يظنها من

(١) بلوت: اختبرت.

يظن، وإلا ففيمَ كانَ تعبُ الأنبياءِ وشقاءُ الحكماءِ وجهادُ أهلِ النفوسِ؟
العقدةُ السماويَّةُ في هذه الأرضِ أنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - لم يخلقِ الإنسانَ
إِلَّا حيواناً مُلَطِّفاً تلطيفاً إنسانياً، ثُمَّ أراهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وقالَ لَهُ إجعلْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ
إنساناً وجِثني .

قلتُ: يا عدوَّ نَفْسِهِ! فما تقولُ في حُبِّكَ هذه الرقصةَ وأنتَ حيوانٌ ملطَّفٌ
تلطيفاً إنسانياً؟

قال: ويحك! وهلِ العقدةُ إِلَّا هنا؟ فهذه مبدولةٌ مُمكنةٌ، ثُمَّ هي لي كَالضَّرورةِ
القاهرةِ، فلا يكونُ حُبُّها إِلَّا إغراءً بَنيلها، ولا تكونُ سُهولةُ نيلها إِلَّا إغراءً لِذلك
الإغراءِ؛ فأنا منها لَسْتُ في امرأةٍ وَحُبٍّ، ولكنِّي في أمتحانٍ شديدٍ عسيرٍ؛ أَغالبُ
ناموساً من نواميسِ الكونِ، وأدافعُ قانوناً من قوانينِ الغريزةِ وأظهرُ قوتي على قوةِ
الضرورةِ الميسرةِ بأسبابِها، وهي أَشدُّ الضروراتِ عُنفاً وإلحاحاً وقَهراً لِلنفسِ، من
قَبْلِ أَنَّها ضرورةٌ لازمةٌ، وأَنَّها مُهيأةٌ سهلةٌ؛ فلو أنَّ هذه المرأةَ المَحبوبةَ كانتَ مُمنَّعةً
بعيدةً أَلَمَّال، لَمَّا كانتَ لي فضيلةً في هذا الحُبِّ العنيفِ، ولكنَّها دانيةٌ ميسرةٌ على
الشَّغفِ^(١) وألهوى؛ فهذا هو الأمتحانُ لِأصنعِ أنا بنفسي فضيلةَ نفسي!

ومرَّ الفصلُ الَّذي مثْلُوهُ وما نشعرُ منه بتمثيلِ، فقد كانَ كَالصورةِ العَقليَّةِ
المعترضةِ لِلعقلِ وهو يفكرُ في غيرها، وكانتِ (الحقيقةُ) في شيءٍ آخرَ غيرِ هذا؛
ومتى لم يتعلَّقِ الشَّعورُ بِالْفَنِّ لم يكنِ فيه فنٌّ؛ وهذا هو سرُّ كُلِّ امرأةٍ مَحبوبةٍ، فهي
وحدها الَّتِي تُثيرُ المُحِبَّ في نَفْسِهِ فيشعرُ من حُسْنِها بِحَقِيقَةِ الحُسْنِ المُطلَقِ، ويجدُ
في معانيها جوابَ معانيه، وتأتيه كأنَّها صُنِعَتْ لَهُ وحده، وتجعلُ لَهُ في الزَّمانِ زَمناً
قلبيّاً يحصرُ وجودَهُ في وجودِها.

وليسَ فنُّ الحُبِّ شيئاً إِلَّا أَسْطَاعَةُ الحَبِيبِ أَنْ يجعلَ شهواتِ المُحِبِّ شاعرةً
بِهِ ممثلةً منه متعلقةً عليه، كأنَّ بِهِ وحدهُ ظهورَ جَسَدِيَّةِ هذا الجسدِ وزُوحانيةِ هذا
الروحِ؛ وكلُّ ما يترزُّنُ بِهِ المَحبُوبُ لِلْمُحِبِّ، فإنَّما هو وسائلٌ مِنَ المبالغةِ لإظهارِ
تلكَ المعاني الَّتِي فيه، كيما تكبِّرَ فيدركَها المُحِبُّ بِدُقَّةٍ، وتثورَ فيحسُّها العاشقُ
بِعُنفٍ وتستبدُّ فيخضعَ لها المسكينُ بِقوَّةٍ.

(١) الشَّغفُ: شدَّةُ الحُبِّ.

وَالشَّهَوَاتُ كَالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَعْصَابِ الْإِنْسَانِ، وَهِيَ تَتَّبِعُ فِكْرَهُ وَخِيَالَهُ؛ وَلَا تَفَاوَتْ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، أَوْ التَّنَبُّهِ وَالْخَمُودِ^(١)، أَوْ الْحِدَّةِ وَالسَّكُونِ؛ غَيْرَ أَنَّهَا فِي الْحُبِّ تَجِدُ لَهَا فِكْرًا وَخِيَالًا مِنَ الْمَحْبُوبِ، فَتَكُونُ كَأَنَّهَا قَدْ غَيَّرَتْ طَبِيعَتَهَا بِسِرِّ مَجْهُولٍ مِنْ أَسْرَارِ الْأَلُوْهِيَّةِ؛ وَمِنْ هُنَا يَتَأَلَّهُ الْحَبِيبُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَزِدْ وَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ تَغْيَرْ وَلَمْ يَتَبَدَّلْ، وَتَرَاهُ فِي وَهْمٍ مُجِبِّهِ يَفْرُضُ فَرُوضًا وَيَشْرَعُ شَرِيعَةً مِنْ حَيْثُ لَا قِيَمَةَ لِفَرُوضِهِ وَشَرِيعَتِهِ إِلَّا فِي الشَّهْوَةِ الْمُؤْمَنَةِ بِهِ وَحْدَهَا.

وَمِنْ ثَمَّ لَا عِصْمَةَ عَلَى الْمُحِبِّ إِلَّا إِذَا وُجِدَ بَيْنَ إِيْمَانَيْنِ، أَقْوَاهُمَا الْإِيْمَانُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ وَبَيْنَ خَوْفَيْنِ، أَشَدَّهُمَا الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ؛ وَبَيْنَ رَغْبَتَيْنِ، أَعْظَمُهُمَا الرَّغْبَةُ فِي السَّمَوِّ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَاشِقُ ذَا دِيْنٍ وَفَضِيلَةٍ فَلَا عِصْمَةَ عَلَى الْحُبِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَقْوَى الْإِيْمَانَيْنِ الْحَرَصَ عَلَى مَكَانَةِ الْمَحْبُوبِ فِي النَّاسِ، وَأَشَدُّ الْخَوْفَيْنِ الْخَوْفَ مِنَ الْقَانُونِ. . . وَأَعْظَمُ الرَّغْبَتَيْنِ الرَّغْبَةَ فِي نَتِيْجَةِ مَشْرُوعَةٍ كَالزَّوْجِ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَقَلَّمَا تَجِدُ الْحُبَّ إِلَّا وَهُوَ فِي جَرَاءَةٍ كُفْرَيْنِ، وَحِمَاقَةٍ جُنُونَيْنِ، وَأَنْحِطَاطٍ سَفَالَتَيْنِ؛ وَبِهَذَا لَا يَكُونُ فِي الْإِنْسَانَيْنِ إِلَّا دَوْنُ مَا هُوَ فِي بَهِيْمَتَيْنِ!

ثُمَّ جَاءَ الْفَصْلُ الثَّلَاثُ وَظَهَرَتْ هِيَ عَلَى الْمَسْرَحِ، ظَهَرَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي ثَوْبٍ مَرْكِيزَةٍ أَوْرَبِيَّةٍ تُخَاصِرُ^(٢) عَشِيقًا لَهَا، فَيَرْقِصَانِ فِي أَدْبٍ أَوْرَبِيٍّ مَتَمَدَّنٍ. . . مَتَمَدَّنٍ بِنَصْفٍ وَقَاحَةٍ؛ مَتَأَدَّبٍ. . . مَتَأَدَّبٍ بِنَصْفٍ تَسْقِلُ؛ مَشْرُوعٍ. . . مَشْرُوعٍ بِنَصْفٍ كُفْرٍ؛ هُوَ عَلَى النِّصْفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لِيَجْعَلَ الْعِذَارَةَ نِصْفَ عِذْرَاءٍ، وَالزَّوْجَةَ نِصْفَ زَوْجَةٍ. . .!

وَكَانَ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْرَ الْعَشِيقِ فَتَاةً أُخْرَى غُلَامِيَّةً مَجْمَمَةَ الشَّغْرِ^(٣) مَمْسُوخَةً بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا صَاحِبُنَا قَالَ: هَذَا أَفْضَلُ. . .

وَهَشَّتِ^(٤) الْحَسَنَاءُ وَتَبَسَّمَتْ وَأَخَذَتْ فِي رَقِصِهَا الْبَدِيعِ، فَانْفَصَلَ عَنِّي

(١) الخمود: السكون. (٢) تخاصر: تمسك بحضره.

(٣) مجممة الشعر: أي قاضية شعرها تشبهاً بالرجال.

(٤) هشت: ابتسمت.

الصديق وأهلمني وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد النظرة، كأنه يُكرّر غير المفهوم ليفهمه ورجع وإياها كأنه في عالم من غير زمننا تقدّمه عن عالمنا ساعة أو تؤخّره ساعة؛ وكانت جملة حاله كأنها تقول لي: إن الدنيا الآن امرأة! وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم، ونقل صاحبته إلى رتبة حواء، ونقل المسرح إلى رتبة الجنة!

والعجيب أن القمر طلع في هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف في الحديقة، فكانه فعل هذا ليتمّ الحسن والحب؛ وأخذ شعاع القمر السماوي يرقص حول هذا القمر الأرضي، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبا وبين الأرض والسماء والقمرين.

ما هذا الوجه لهذه المرأة؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبرُ تعبيراً جديداً بقسماته وملامحه الفتانة؛ كلّ البياض الخاطف في نجوم السماء يحول في أديمه المشرق، وكلّ الأسود الذي في عيون ألمها يجتمع في عينه، وكلّ الحمرة التي في الوردي هي في حمرة هاتين الشفتين.

ما هذا الجسم المتمزّن المتموّج المُفرّغ كأنه يندفق هنا وهنا؟ إنه جسم كامل الأنوثة، إنه صارخ صارخ، إنه عالم جمال كما تقول الفلسفة حين تصف العالم: فيه «جهة فوق» و «جهة تحت»؛ لو امتدّت له يد عاشقه لجعل في خمس أصابعها خمس حواس...

ما هذا؟ لقد ختم الرقص بقبلة ألقاها الخليل على شفتي الخليفة، وكانت تركت خصرها في يديه وأنفلتت تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خلف، نازلة به رويداً رويداً إلى الأرض، هاربة بشفتيها من ألفم المظلل عليها وكان هذا ألفم ينزل رويداً رويداً ليُدرك الهارب...

وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتة إلى... ثم تلت القبلة، أمّا هو، أمّا مجنونا، أمّا صاحب القلب المسكين؟...

القلب المسكين

٣

أما صاحب القلب المسكين فرمقها^(١) وهي تلتفت إليه ألتفات الظبية بسواد عينيها: يجعل سوادهما الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال، تقول إحداها أنت، وتقول الأخرى: أنا، ثم رآها وقد كسرت أجفانها وتفتتت في يدي الممثل العشيقي وأفصح منظرها ببلاغة... ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعي من تحبه؛ ثم اختلجت وصوبت وجهها، وأهدفت شفتيها. وتلفت القبله.

وكان به منها ما الله عليهم به، فأنبعثت من صدره آهة مغولة تئن أنيناً، غير أنها كلمته بعينيها أنها تقبله هو؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى الأنسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم، لمست به النفس النفس، والقبله هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها...

وليس تحت الخيال شيء موجود، ولكن الخيال المتسرح بين الحبيبين تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود؛ إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر، ومسرح شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاورة المعاني؛ وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابين روح طبيعي كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر، ويصل السر بالسر، ويزيد في الأشياء وينقص منها، ويدخل في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي؛ ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن، ولا أمل ولا يأس، ولا سعادة ولا شقاء، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين؛ والذين يعرفون قبله الكشغف والهوى، يعرفون أن العاشق يقبل بلذة أربع شفاء.

(١) رمقها: نظر إليها بطرف عينية متأملاً.

وَأَسْدَلْتُ^(١) بَعْدَ هَذِهِ الْقُبْلَةِ سِتَارَةَ الْمَسْرَحِ، وَغَابَتْ الْجَمِيلَةُ الْمَعشُوقَةُ غِيْبَةً
الْتِمَثِيلِ فَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: إِنَّ رُوحِيكُمَا مَتَزَوِجَتَانِ... قَالَ: آه!
وَمَدَّهَا مِنْ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ ذَنْفٌ سَقِيمٌ.

قُلْتُ: وَمَاذَا بَعْدَ آه؟

قَالَ: وَمَاذَا كَانَ قَبْلَهَا؟ إِنَّهُ الْحُبُّ: فِيهِ مِثْلُ مَا فِي (عَمَلِيَّةِ جِرَاحِيَّةٍ) مِنْ
تَنْهَدَاتِ الْأَلَمِ وَلِذَعَاتِهِ، غَيْرَ أَنَّهَا مَفْرُقَةٌ عَلَى الْأَوْقَاتِ وَالْأَسْبَابِ، مَبْعَثَرَةٌ غَيْرُ
مَجْمُوعَةٍ! «آه» هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا تَفْرُغُ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَهِيَ تُقَالُ
بِلَهْفَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْمَصِيبَةِ الدَّاهِمَةِ، وَالْأَلَمِ الْبَالِغِ، وَالْمَرَضِ الْمَدْنَفِ^(٢) وَالْحُبِّ
الشَّدِيدِ؛ الشَّدِيدِ؛ فَحِينَمَا تُوشِكُ الْفُتْسُ أَنْ تَخْتَنِقَ تَتَنَفَّسُ «بَآه»!

قُلْتُ: أَمَّا رَأَيْتَهَا مَرَّةً وَقَدْ أَوْشَكَتْ نَفْسُهَا أَنْ تَخْتَنِقَ...؟

قَالَ: لَقَدْ هَجَّتْ لِي دَاءً قَدِيمًا؛ إِنَّ لِهَذِهِ الْحَبِيبَةِ سَاعَاتٍ مَغْرُوسَةً فِي زَمَنِ
غَرَسَ الشَّجَرِ، فَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ تُثْمَرُ هَذِهِ السَّاعَاتُ مُرَّهَا وَحُلْوَهَا فِي نَفْسِي كَمَا
يُثْمَرُ الشَّجَرُ الْمَخْتَلِفُ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتَهَا ذَاتَ مَرَّةٍ فِي سَاعَةٍ هَمُّهَا! ثُمَّ ضَحَكَ وَسَكَتَ.

قُلْتُ: يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ! مَاذَا رَأَيْتَ مِنْهَا؟ وَكَيْفَ أَرَاكَ الْوَجْدُ مَا رَأَيْتَ مِنْهَا؟

قَالَ: أَتَصَدَّقُنِي؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: رَأَيْتُ أَلْهَمَّ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الْجَمِيلَةِ كَأَنَّهُ هَمٌّ مُؤْتَتْ يَعِشْقُهُ هَمٌّ مَذْكُورٌ؛ فَلَهُ
جَمَالٌ وَدَلَالٌ وَفِتْنَةٌ وَجَاذِبِيَّةٌ، وَكَأَنَّ وَجْهَهَا يَصْنَعُ مِنْ حُزْنِهَا حُزْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى
أَلْهَمٍ لِقَلْبِهَا، وَالْآخَرُ بِمَعْنَى الثَّوْرَةِ لِقَلْبِي!

قُلْتُ: يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ! هَذَا كَلَامٌ آخَرُ؛ فَهَذِهِ أَمْرَاءُ نَاعِمَةٌ بَصَّةٌ مَطْوِيٌّ بَعْضُهَا
عَلَى بَعْضِهَا، لَفَاءً مِنْ جِهَةٍ هَيْفَاءً مِنْ جِهَةٍ، ثَقِيلَةٌ شَيْءٌ وَخَفِيفَةٌ شَيْءٌ، جَمَعَتْ
الْحُسْنَ وَالْجِسْمَ وَفَنًا بَارِعًا فِي هَذَا وَفَنًا مُفْرَدًا فِي ذَاكَ؛ وَهِيَ جَمِيلَةٌ كُلُّ مَا تَتَأَمَّلُ
مِنْهَا، سَاحِرَةٌ كُلُّ مَا تَتَخَيَّلُ فِيهَا، وَهِيَ مَرَّاحَةٌ دَحْدَاحَةٌ^(٣) وَهِيَ تُطَالِعُكَ وَتُطْعِمُكَ؛
وَأَنْتَ أَمْرُؤُ عَاشِقٌ وَرَجُلٌ قَوِيٌّ الرُّجُولَةِ؛ فَالْجَمِيلَةُ وَالْمَرْأَةُ هُمَا لَكَ فِي هَذَا الْجِسْمِ
الْوَاحِدِ، إِنَّ ذَهَبَتْ نَفْصِلُهُمَا فِي خَيَالِكَ أَمْتَزَجَتَا فِي دَمِكَ؛ وَلَوْ أَمْسَكَتَ آلَةَ التَّصْوِيرِ
نَظْرَاتِكَ إِلَيْهَا لَبَانَتْ فِيهَا أَطْرَافُ أَلْهَبِ الْأَحْمَرِ مِمَّا فِي نَفْسِكَ مِنْهَا؛ وَلَعَمْرِي لَوْ

(١) انسدلت: تددت.

(٢) المرض المدنف: المرض المميت.

(٣) دحداحة: خفيفة الظل ومرحة.

مرّت عربةٌ تدرج^(١) في الطريقِ ونظرت إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة
المحتبسة المكفوفة^(٢) لظنّتك ستري العجلة الحلقية عاشقاً مهتاجاً يطاردُ العجلة
الأمامية وهي تفرّ منه فرارَ العذراء!

فضحك وقال: لا، لا؛ إنّ نوعَ التصويرِ لإنسانٍ هو نوعُ المعرفةِ لهذا
الإنسان، ومن كلّ حبيبٍ وحبيبٍ تجتمعُ مقدمةٌ ونتيجةٌ بينهما تلازمٌ في المعنى،
والمقدمةُ عندي أن إبليسَ هنا في غير إبليسيّته، فلا يُمكنُ أن تكونَ النتيجةُ وضَعَهُ
في إبليسيّته؛ وما أتصورُ في هذه الجميلةِ إلّا ألفنّ الذي أسبغَهُ الجمالُ عليها، فهي
معرفتي وخيالي كالتمثالِ المبدعِ إبداعه: لا يستطيعُ أن يعملَ عملاً إلّا إظهارَ شكلِهِ
الجميلِ التامِّ حافلاً بمعانيه.

وليسَتْ هذه المرأةُ هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمنَ أحببتُ؛ إنّها تكرّرتُ
وإيضاحٌ وتكملةٌ لشيءٍ لا يكملُ أبداً، وهو هذه المعاني النسوية الجميلة التي يزيدُ
الشيطانُ فيها من عشقٍ كلّ عاشقٍ؛ إنّ بطنَ المرأةِ يلدُ، ووجهَ المرأةِ يلدُ!
قلتُ: هذا إنّ كانَ وجهُها كوجهِ صاحبتك، ولكنّ ما بالَ الدميمة؟
قال: لا، هذا وجهٌ عاقر...

قلتُ: ولكنّ الخطأ في فلسفتك هذه أنّك تنظرُ إلى المرأةَ نظرةً عمليةً تريدُ أن
تعملَ، ثمّ تمنعُها أن تعملَ؛ فتأتي فلسفتك بعيدةً من الفلسفة، وكأنّك تغذو المعدةَ
الجاتعةَ برائحةِ الخبزِ فقط.

قال: نعم هذا خطأ، ولكنّه الخطأ الذي يُخرجُ الحقائقَ الخياليةَ من هذا
الجمالِ؛ فإذا سخّرتَ من الحقيقةِ الماديةِ بأسلوبٍ في هذا الأسلوبِ عينه تثبتُ
الحقيقةَ نفسها في شكلٍ آخرٍ قد يكونُ أجملَ من شكلها الأول.

أتعلمُ كيف كانتَ نظرتي إلى نورِ القمرِ على هذه وإلى حُسنِ هذه على
القمر؟ إنّ القمرَ كانَ يُسنيني بشريّتها فأراها مُتممةً له كأنّه ينظرُ وجهه في مرآة، فهي
خيالٌ وجهه؛ وكانتَ هي تُسنيني ماديةَ القمرِ فأراه مُتمماً لها كأنّه خيالٌ وجهها.
أتدري ما نظرةُ الحبِّ؟ إنّ في هذا القلبِ الإنسانيّ شرارةَ كهربائيةٍ متى

(٢) المكفوفة: المكبوتة والمحبوسة.

(١) تدرج: تمشي وتسير.

أَتَقْدَحَتْ زَادَتْ فِي الْعَيْنِ الْحَاظَا كَشَافَةً، وَزَادَتْ فِي الْحَوَاسِّ أَضْوَاءَ مُدْرَكَةٍ؛ فَيَنْفِذُ الْعَاشِقُ بِنَظَرِهِ وَحَوَاسِّهِ جَمِيعاً فِي حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، فَتَكُونُ لَهُ عَلَى النَّاسِ زِيَادَةٌ فِي الرُّؤْيَا وَزِيَادَةٌ فِي الْإِدْرَاكِ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلًا فِيمَا يَرَاهُ وَمَا يُدْرِكُهُ؛ وَبِهَذِهِ الزِّيَادَةِ الْجَدِيدَةِ عَلَى النَّفْسِ لِلدُّنْيَا حَالَةٌ جَدِيدَةٌ فِي هَذِهِ النَّفْسِ؛ وَيَأْتِي السَّرُورُ جَدِيداً وَيَأْتِي الْحُزْنُ جَدِيداً أَيْضاً؛ فَأَلْفُ قُبْلَةٍ يَتَنَاوَلُهَا أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ أَلْفِ حَبِيبٍ، هِيَ أَلْفُ نَوْعٍ مِنَ اللَّذَّةِ وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَلَوْ بَكَى أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ هَجَرِ أَلْفِ مَعْشُوقٍ لَكَانَ فِي كُلِّ دَمْعٍ نَوْعٌ مِنَ الْحُزَنِ لَيْسَ فِي الْآخِرِ!

قُلْتُ: فَنَوْعُ تَصَوُّرِكَ لِهَذِهِ الرَّاqِصَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا، أَنْ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّتِهِ!

قَالَ: هَكَذَا هِيَ عِنْدِي، وَبِهَذَا أَسْخَرُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْإِبْلِيسِيَّةِ.

قُلْتُ: أَوْ تَسْخَرُ الْحَقِيقَةَ الْإِبْلِيسِيَّةَ مِنْكَ، وَهُوَ الْأَصْحُ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى...؟

فَضَحَكَ طَوِيلًا، وَقَالَ: سَأُحَدِّثُكَ بِغَرِيبَةٍ: أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْعَادَةَ لَا تَظْهَرُ أَبَدًا إِلَّا فِي الْحَرِيرِ الْأَسْوَدِ؛ وَهِيَ رَفِيقَةُ الْبَشَرَةِ نَاصِعَةُ أَلْلُونِ، فَيَكُونُ لَهَا مِنْ سَوَادِ الْحَرِيرِ بَيَاضٌ أَلْبِيَّاضٌ وَجَمَالُ الْجَمَالِ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَمْسُ بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي طَرِيقِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ لِأَرَاهَا، وَكَانَ اللَّيْلُ مَظْلَمًا يَتَدَجَّى، وَقَدْ لَبَسَ وَتَلَبَّسَ وَغَلَبَ عَلَى مَصَابِيحِ الطَّرِيقِ فَحَصَرَ أَنْوَارَهَا حَتَّى بَيْنَ كُلِّ مِصْبَاحٍ ظِلْمَةٌ قَائِمَةٌ كَأَلْقَرِيبٍ بَيْنَ الْحَبِيبِينَ يَمْنَعُهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا؛ فَبَيْنَا أَقْلَبُ عَيْنِي فِي النُّورِ وَالْغَسَقِ وَأَنَا فِي مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْأَفْكَارُ الْمَحْزَنَةُ أَشَدَّ حُزْنًا - إِذْ رَفَعَ لِي مِنْ بَعِيدٍ شَيْخٌ أَسْوَدَ يَمْشِي مِشْيَتَهُ مُتَفَتِّرًا قَصِيرَ الْخَطْوِ يَهْتَزُّ وَيَتَبَخَّرُ؛ فَتَبَصَّرْتُهُ فِي هَيْئَتِهِ فَمَا شَكَّكْتُ أَنَّهَا هِيَ، وَفُتِّخَتْ الْجَنَّةُ الَّتِي فِي خِيَالِي وَبَرَزَتْ الْحَقَائِقُ الْكَثِيرَةُ تَلْتَمِسُ مَعَانِيَهَا مِنْ لَذَّةِ الْحُبِّ؛ وَكَانَ الطَّرِيقُ خَالِيًا، فَأَحْسَسْتُ بِهِ لَنَا وَحْدَنَا كَالْمَسَافَةِ الْمَحْصُورَةِ بَيْنَ ثَغْرَيْنِ مُتَعَاشِقَيْنِ يَدْنُو أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ، وَأَسْرَعْتُ إِسْرَاعَ الْقَلْبِ إِلَى الْفُرْصَةِ حِينَ تُمْكِنُ؛ فَلَمَّا صِرْتُ بِحَيْثُ أَتَيْتُ ذَلِكَ الشَّيْخَ إِذَا هُوَ... إِذَا هُوَ قَسِيسٌ...

فَقُلْتُ: يَا عَجَبًا! مَا أَظْرَفَ مَا دَاعَبَكَ إِبْلِيسُ هَذِهِ أَلَمْرَةَ! وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ: إِيَّاهُ يَا صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم في شغل؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد؛ وألقى الشيطان على لساني فقلت لصاحبي: ما يمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها، فليس بينك وبينها إلا كلمة «تعالني» أو تفضلي؟

قال: كلا، يجب أن تنفصل عني لأراها في نفسي أشكالاً وأشكالاً؛ ويجب أن تبتعد لألمسها لمسات روحية؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبي؛ ويجب أن تدع جسمها وأدع جسمي وهناك نلتقي رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة. بهذا ألفهم أنا أكتب، وبهذه الطبيعة أنا أحب!

ما هو الجزء الذي يفتني منها؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه.

وما هو هذا الكل؟ هو الذي يفسر نفسه في قلبي بهذا الحب.

وما هو هذا الحب؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس.

نعم أنا بائس، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى في الفن: لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم، والحبيب الذي لا تناله هو وحده القادر قدرة الجمال والسحر؛ يجعلك لا تدري أين يختبئ منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة؛ ولا تدري أين يسفر^(١) جماله منه فيدعك تراه بلذة أخرى؛ أنا أنضج هذه الحلول على نار مشبوبة، على نار مشبوبة في قلبي!

قلت: يا صديقي المسكين! هذه مشكلة عرضت بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً. وما كان أشد عجبني إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا.

أما هو: أما صاحب القلب المسكين...؟

(١) يسفر: يكشف.

القلب المسكين

٤

أما صاحب القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهي مُقبلَةٌ تَتِيَمُنَا^(١) حتى بَغْتَهُ^(٢) ذلك، فساوَرَهُ^(٣) القلق، وأَعْتَرَاهُ ما يَعْتَرِي الْمُحِبَّ الْمَهْجُورَ إذا فاجأهُ في الطريقِ هاجِرُهُ؛ أَرَأَيْتَ مَرَّةً عاشقاً جفاهُ الْحَبِيبَ وَأَمْتَنَعَ عَلَيْهِ دَهْرًا لا يراه، وصارَمَهُ^(٤) مَدَّةً لا يَكْلُمُهُ، فنَزَعَ نَوْمَهُ من ليلِهِ، وراحَتَهُ من نهارِهِ، ودُنْيَاهُ من يَدِهِ، وبلغَ بِهِ ما بَلَغَ مِنَ السَّقَمِ^(٥) وَالضُّعَى، ثُمَّ بَيْنَا هُوَ يَمْشِي إِذْ باغَتْهُ ذَلِكَ الْحَبِيبُ مُنْحَدِرًا فِي الطَّرِيقِ؟

إِنَّكَ لو أَبْصَرْتَ حَيْثُ قَلْبَ هَذَا الْمَسْكِينِ لَرَأَيْتَهُ عَلَى زَلْزَلَةٍ مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ، وَكَأَنَّهُ فِي ضَرْبَاتِهِ مِتْلَعٌ يَكْرُرُ كَلِمَةً وَاحِدَةً: هي هي هي ...

ولو نَفَذْتَ إِلَى حِسِّ هَذَا الْبَائِسِ لَرَأَيْتَهُ يَشْعُرُ مِثْلَ شَعُورِ الْمُحْتَضِرِ^(٦) أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ نَفَثَتْ مِنْهَا!

ولو أَطْلَعْتَ عَلَى دَمِهِ فِي عُرُوقِهِ لَأَبْصَرْتَهُ مَخْذُولًا يَتَرَجَّعُ كَأَنَّ الدَّمَ الْآخِرَ يَطْرُدُهُ. إِنَّهَا لِحِظَةٌ يَرى فِيهَا الْمَهْجُورُ بَعِينِهِ أَنَّ كُلَّ شَهَوَاتِهِ فِي خِيَةِ، فِيرُدُّ عَلَيْهِ الْحُبَّ مَعَ كُلِّ شَهْوَةٍ نَوْعًا مِنَ الْأَذَلِّ، فَيَكُونُ بِإِزَاءِ الْحَبِيبِ كَالْمَنْهَزِمِ مِائَةَ مَرَّةٍ أَمَامَ الَّذِي هَزَمَهُ مِائَةَ مَرَّةٍ.

لِحِظَةٍ لَا يَشْعُرُ الْمَسْكِينُ فِيهَا مِنَ الْبَغْتَةِ وَالْتِخَاذِلِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْخَوْفِ إِلَّا أَنَّ رُوحَهُ وَثَبَتْ إِلَى رَأْسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فَجَاءَتْهُ إِلَى قَدَمَيْهِ!

(٤) صارمه: قاطعه.

(٥) السقم: المرض.

(٦) المحتضر: المنازع في اللحظات الأخيرة من حياته.

(١) تتيمننا: تتجه نحونا.

(٢) بغته: فاجأه.

(٣) ساوره: انتابه، داخله.

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبتِه، ولكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين، إذ كان دائماً على حدود الإسراف ما دام حباً، فكل شيء فيه قريب من ضده، والصدق فيه من ناحية مهياً دائماً لأن يقابل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى، واليقين معد له الشك بالطبيعة؛ والحب نفسه قضاء على العدل، فإنه لا يخضع لقانون من القوانين، والحبيب - مع أنه حبيب - يخافه عاشقُه من أجل أنه حبيب!

وقد يصفرُ العاشقُ لمباغطة اللقاء كما يصفرُ لمباغطة الهجر، وهذه كانت حال صاحبنا عند ما رآها مُقبلَةً عليه؛ وكان مع ذلك يخشى إلامتها به، توقياً على نفسه من ظنون الناس؛ وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن؛ وهو رجل ذو شأن ضخم، ومقاله السوء إلى مثله سريعة إذا رُوي مع مثيلها، وكأنها هي الممت^(١) بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقر المتروم^(٢)؛ فعدلت عن طريقها إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى، وما بيننا وبينها إلا خطوات؛ ورأيتها قد هيأت في عينيها نظرة غاضبتنا بها، ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى!

وكانها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبتَه لدورها، ثم همت أن ترجع، ثم عادت إليه فجعلت تكلّمه وعيناها إلينا؛ فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها: إنها نبيلة حتى في سقوطها!

ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى، ولكن هذا الرجل لم يظهر لي وقتئذٍ إلا كأنه تليفون معلق!

كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره، ولا تُسارقه النظر بل تغلبه عليه مغالبة؛ ورأته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيّل إلي أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة؛ وكانت تطارحه^(٣) ويطارحها كلاماً مخبوءاً تحت هذه النظرات، وقد نسيأ ما حولهما، وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا ألتقيا في بعض لحظات الروح السامية: أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لأثنين فقط: هو وهي...

(١) الممت: عرفت.

(٢) المتروم: المتربد.

(٣) تطارحه: تبادلته.

وكانَ فمُها الجَمِيلُ لا يَزَالُ يُسَاقِطُ أَلْفَاظَهُ لِرئيسِ المَوسِيقى، وكأَنَّها تَسْرُدُ لَهُ حِكَايَةَ مَروِيَّةً، أو تُعَارِضُ بِحَافِظَتِهِ كَلَاماً تَحْفَظُهُ مِن كَلَامِ التَّمثِيلِ أو الغَناءِ؛ فَهِيَ تَتَحَدَّثُ وَعَيْنَاهَا مَفْكَرَتَانِ شَاخِصَتَانِ، فَلَم يُنْكَرِ الرِّجْلُ هَيْئَتَهَا هَذِهِ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَتْ عَيْنَاهَا؟

لَقَدْ أَرَادَتْ فِي أَلْبَدِ أَنْ تَجْعَلَ قُوَّةَ نَظَرَاتِهَا كَلَاماً، حَتَّى لَحَسِبَتْ أَنَّ هَذِهِ النِّظَرَاتِ الْأَوَّلَى تَهْتَفُ مِن بَعِيدٍ: أَنْتَ يَا أَنْتَ!

ثُمَّ بَدَأَ فِي عَيْنِهَا فَتُورُ الظُّمَأِ، ظَمِ الْحُبِّ الْمَتَكَبِّرِ الْمَتَمَرِّدِ، لِأَنَّهُ حُبُّ الْمَرْأَةِ الْمَعشُوقَةِ، وَلِأَنَّ لَهُ لَذَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا فِي أَنْ يَبْقَى ظَمَأً إِلَى حِينٍ . . .

ثُمَّ أَرْسَلَتْ الْأَلْحَاظَ الَّتِي تَتَوَهَّجُ أحياناً فَوْقَ كَلَامِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا النِّفْسِيَّةِ، فَتَضُرْمُ فِي كَلَامِهَا شَرَارَةً مِنَ الرُّوحِ تُظْهِرُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ يُحْرَقُ وَيَحْتَرِقُ . . .

ثُمَّ تَوَجَّعَتِ النِّظَرَاتُ لِأَنَّهَا تَصِلُهَا بِالرِّجْلِ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الرِّجَالَ، فَلَا يَسْتَوْهَبُ^(١) خُضُوعَهَا وَلَا يَشْتَرِيهِ؛ وَالرِّجْلُ كُلُّ الرِّجْلِ عِنْدَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ هُوَ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الْبَاقِينَ مِمَّنْ تَعْرِفُهُمْ، فَإِذَا أَحَبَّهَا فَكَأَنَّمَا أَحَبَّهَا عِذَاءً خَفِرَةً^(٢) لَمْ تُمَسَّ، وَكَأَنَّهُ مِن ذَلِكَ يَصِلُهَا بِمَاضِيهَا وَطَهَارَتِهَا وَحَيَاتِهَا وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَمَثَّلَهُ إِلَّا فِي مِثْلِ حُبِّهِ.

ثُمَّ ذَبَلَتْ عَيْنَاهَا الْجَمِيلَتَانِ، وَمَا هُوَ ذَبُولُ عَيْنِي أَمْرًا تَنْظُرُ إِلَى مُجِبِّهَا؛ إِنَّهُ هُوَ اسْتِسْلَامُ فِكْرِهَا لِفِكْرَةٍ، أَوْ عِنَادُ مَعْنَى فِيهَا لِمَعْنَى فِيهِ، أَوْ توكِيدُ خَاطِرَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوكِيدِ؛ وَمَرَّةً هُوَ كَقَوْلِهَا: لِمَاذَا؟ وَتَارَةً هُوَ كَقَوْلِهَا: أَفَهِمْتُ؟ وَأحياناً، وَأحياناً هُوَ أَنْتَهَاءُ مُقَاوَمَةٍ.



وَتَمَّتِ الْحِكَايَةُ الْمَروِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُلْقِيهَا لِلتَّلْفِيْفُونِ . . . فَكَرَّتْ^(٣) رَاجِعَةً إِلَى الْمَسْرَحِ بَعْدَ أَنْ صَاخَتْ نَظَرَاتُهَا مَرَّةً أُخْرَى كَمَا بَدَأَتْ: أَنْتَ يَا أَنْتَ . . . فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا: وَيْحَكَ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ! لَوْ اخْتَارَ الشَّيْطَانُ عَيْنَيْنِ سَاحِرَتَيْنِ يَنْظُرُ بِهِمَا إِلَيْكَ نَظَرَ الْفِتْنَةِ، لَمَا اخْتَارَ إِلَّا عَيْنَيْهَا، فِي وَجْهِهَا، فِي هَيْئَتِهَا، فِي مَوْقِفِهَا؛ وَأَرَاكَ مَعَ هَذَا كَمَنْتَظِرٍ مَا لَا يُوجَدُ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ؛ وَأَرَاهَا مَعَكَ فِي حُبِّهَا كَالْحَيَوَانِ الْأَلْيَفِ إِذَا طَمَعَ فِي الْمَسْتَحِيلِ.

(١) يستوهب: يطلب الحصول عليه.

(٢) خفرة: حجة.

(٣) كرّت راجعة: عادت.

قال: وما هو المستحيل الذي يطعم فيه الحيوان الأليف؟
قلت: ذلك يطعم في أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة.
قال: لقد أغمضت في العبارة فبين لي شيئاً من البيان.
قلت: هب كلباً تألف صاحبها وتجنّب فيه له ذليلاً مطواع، ثم يبلغ بها
الحُب أن تطعم في أن يكون لها تمام الشرف، فلا يقول صاحبها عنها: هذه
كلبتي، بل يقول: هذه زوجتي...

قال: وي منك! وي منك^(١)! لقد ضربت على رأس المسمار كما يقولون
هذا هو المستحيل الذي بيني وبينها، هذا هو المثل. يا لفظ الحلوى! يا لفظ
الحلوى! لو كررتك بلساني ألف مرة فهل تضع في لساني طعمها...؟

قلت: خفض^(٢) عليك يا صاحب القلب المسكين، فلست أكثر من عاشق.
قال: بل أنا مع هذه أكثر من عاشق؛ لأن في العاشق راغباً وفي أنا راهب،
وفيه الجريء وفي المنكمش، ويعترف الغزفة من الشلال المتحدّر فيحسوها فيرتوي
وأعترف أنا الغزفة بيدي، وأبقياها في يدي، وأطمع أن تهدر في يدي كالشلال أنا أكثر
من عاشق؛ فأنه يعشق ليتهي من ألم الجمال، وأعشق أنا لأستمر في هذا الألم!
هذه هذه؛ العجيب يا صديقي أن خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرة من صور
الجمال تجيء كما يتفق، ولكنّه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب، هي صورة
العُجب؛ فهذه هذه.

ألم أقل لك إن إبليس هنا في غير حقيقته الإبلية ولم تفهم عني؟ فافهم
الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نحبهم؛ وما دام سر
الحُب يُبدل الزمن والنفس ويأتي بأشياء من خارج الحياة، فكل حقائق هذا الحُب
في غير حقيقتها..

هذه هذه؛ لا أطلب في غيرها امرأة أجمل منها، فهذا كالمستحيل، ولكني
أتمس^(٣) فيها هي امرأة أظهر منها، وهذا كالمستحيل أيضاً؛ إنها أجمل جسم،
ولكن وأسفاه! إنها أجمل جسم للمعاني التي يجب أن أبتعد عنها!

(١) وي: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.

(٢) خفض: هون.

(٣) أتمس: أفتش وأطلب.

وسَكَتَ صاحبُنا، إذ رُفِعَتْ ستارةُ المسرح وظَهَرَتْ هِيَ مرَّةً أُخرى، ظَهَرَتْ
فِي زِينَةٍ لَا غَايَةَ بَعْدَهَا، تَمَثَّلُ العُرُوسَ لَيْلَةَ جَلُوتِهَا^(١)؛ أَلَا مَا أَمْرُهَا سَخِرِيَّةً مِنْكَ
أَيُّهَا الْمِسْكِينَةُ! عُرُوسٌ وَلَكِنْ لِمَنْ؟

كَانَتْ تَبْرِقُ عَلَى الْمَسْرَحِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ نُورُهُ نُورٌ وَجَمَالٌ وَعَوَاطِفُ شَعْرٍ.
وَأَقْبَلَتْ تَتَمَايَلُ بِجِسْمٍ رَخِصٍ لَيِّنٍ مُسْتَرَسِلٍ الْأَعْطَافِ يَتَدَفَّقُ الْجَمَالُ وَالشَّبَابُ
فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ.

وَأَظْهَرَ وَجْهَهَا حُسْنًا وَأَبْدَى جِسْمَهَا حُسْنًا آخَرَ، فَتَمَّ الْحُسْنُ بِالْحُسْنِ.
وَاقِفَةً كَالنَّائِمَةِ، فَالْجَوْ جَوْ الْأَحْلَامِ، وَكَانَ الْحُبُّ يَحْلُمُ، وَكَانَ السَّرُورُ يَحْلُمُ!
مَهْتَزَّةً كَالْمَوْجِ فِي الْمَوْجِ. هَلْ خُلِقَتْ رُوحُ الْبَحْرِ فِي جِسْمِهَا الْمَتَرَجِرِ
فَشِيءٌ يَعْلُو وَشِيءٌ يَهْبِطُ وَشِيءٌ يَثُورُ وَيَضْطَرِبُ؟

ثُمَّ دَقَّتِ الْمَوْسِيقَى بِالْحَانِيهَا الْمَتَكَلِّمَةِ، وَدَقَّتْ أَعْضَاءُ هَذَا الْجِسْمِ بِالْحَانِيهَا
الْمَتَحَرِّكَةِ، وَأَحْسَسْنَا كَأَنَّ رُوحَ الْحَدِيقَةِ جَالِسَةً بَيْنَنَا تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَتَعَجَّبُ. تَتَعَجَّبُ
مِنْ قَوَامِهَا لِلْغَصَنِ الْحَيِّ، وَمِنْ بَدَنِهَا لِلزَّهْرِ الْحَيِّ، وَمِنْ عِطْرِهَا لِلنَّسِيمِ الْحَيِّ.
أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ...

(١) لَيْلَةُ جَلُوتِهَا: لَيْلَةُ زَفَافِهَا وَعَرَسِهَا.

القلبُ المسكين

٥

أما صاحب القلبِ المسكينِ فتزعزعتْ كبدهُ ممَّا رأى ؛ وجعلَ ينظرُ إلى هذه الفتانةِ تمثُّلُ العروسِ وقد أشرقَ فيها رَوْنُفُها وسطعتْ ولمعتْ، فبدتْ لَهُ مُفسِّرةً في هذه الغلائلِ غلائلِ العُرسِ ؛ وما غلائلُ العُرسِ ؟

إنَّها تلكَ الثيابُ الَّتِي تكسو لابستِها إلى ساعةٍ فقط . . . ثيابٌ أجملُ ما فيها أنَّها تُقدِّمُ الجمالَ إلى الحبِّ، فأزهي ألوانها اللونُ المُشرقُ من روحِ لابستِها، وأسطعُ الأنوارِ عليها، النورُ المنبعثُ من فرحِ قلبيْن .

تلكَ الثيابُ الَّتِي تكونُ سَكْباً من خالصِ الحريرِ ورفيعِ الخزِّ، وحينَ تلبسُها مثلُ هذهِ ألفتانَةٍ تكادُ تنطقُ أنها ليستْ مِنَ الحريرِ، إذْ تعلمُ أنَّ الحريرَ ما تحتها .

ثمَّ تنهَّدَ المسكينُ وقالَ : أفهمتْ ؟

قلتُ : فهمتُ ماذا ؟

قالَ . هذا هو انتقامُها .

قلتُ : يا عجباً ! أتريدُها في ثيابِ راهبةٍ مكبَّكةٍ فيها كما أَلقيتِ البِضاعةُ في غِرابَةٍ^(١)، بينَ سوادٍ هو شعارُ الجِدادِ على الألوثةِ الهالكةِ، وبياضٍ هو شعارُ الكفنِ لهذهِ الألوثةِ ؟

قالَ : أنتَ لا تعرفُها ؛ إنَّ الروايةَ الَّتِي تمثُّلُ فيها بينَ الروحِ والجِسمِ، هيَ الَّتِي احتاجتْ إلى هذا الفصلِ يقوَى بِهِ المعنى ؛ وكلُّ عاشقةٍ فعِشقُها هوَ الروايةُ الَّتِي تمثُّلُ فيها، يُؤلَّفُها هذا المؤلفُ الَّذِي أسْمُهُ الحبُّ، ولا تدري هيَ ماذا يصنعُ وماذا يُؤلَّفُ، غيرَ أنَّه لا يفتأُ يُؤلَّفُ ويصنعُ وينقَعُ كما تنزلُ بِهِ الحالُ بعدَ الحالِ، وكما تعرضُ بِهِ المصادفةُ بعدَ المصادفةِ ؛ وعليها هيَ أنْ تمثُّلُ . .

(١) غرابة، بالفتح : صار ذاعرة .

قلت: فهذا؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاماً؟

قال: إنَّ الأفكارَ أشياءَ حقيقيَّة، ولو كشف لك الجوُّ هذه الساعةَ لرَأَيْتَهُ مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنَّهُ مقالةٌ جريدة.

هذا الفصلُ جوارٌ طويلٌ في الهمومِ والآلامِ ورقةَ الشوقِ وتهالكِ الصبوةِ، لو كُتِبَ لَهُ عنوانٌ لَكَانَ عُنوانُهُ هكذا: ما أشهاها وما أحظاها! إنَّ الهواءَ بينَ كلِّ عاشقينِ متقاتلينِ يأخذُ ويُعطي...

قلت: يا عدوَّ نفسيه! ما أعجبَ ما تُدَقِّق! لقد أدركتُ الآنَ أنَّ المرأةَ تتسلَّحُ بما شاءت، لا من أجلِ أنْ تُدافع، ولكن لِتزيدَ أسلحتَها في سلاحِ مَنْ تُحبُّه، فثريدُهُ قوَّةٌ على قَهْرِها وإخضاعِها...

أمَّا هذه (العروسُ) فكانتُ أفكارُها لا تجدُ ألفاظاً تحدُّها فهي تظهرُ كيفما اتَّفَق، مرسلَةٌ إرسالاً في اللَّفتَةِ وَالْحركةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ: وهي مَنْ عَلِمَتْ: امرأةٌ تعيشُ لِلْحقائقِ، وبينَ الْحقائقِ، كَكُلِّ ذي صنعةٍ في صنعةٍ فكانتُ في تماديبها خطراً أيَّ خطرٍ على صاحبِ القلبِ الْمسكينِ، تُمثِّلُ شيئاً لا أدري أهو ظاهرٌ بِخفائِهِ أم هو خافٍ بِظهورِهِ؛ وقد وقعَ صاحبُنَا منها فيما لم يدخلْ في حسابِهِ، فكانتِ الْخبيثَةُ الْماجنةُ كأنَّها تُسكرُهُ بِمُسْكِرِ حقيقيٍّ، غيرَ أَنَّهُ من جسمِها لا من زجاجةِ خمر.

وكانتُ لِذهنِهِ الْمُتخيِّلِ كَالسحابةِ الْمُمتلئةِ بِالبرقِ؛ تُومِضُ كلَّ لحظةٍ بأنوارٍ بعدَ أنوار، وبينَ الْفترَةِ وَالْفترَةِ ترمي الصاعقة.

وظهرتُ كأنَّها امرأةٌ مخلوقةٌ من دَمٍ وَلَهَبٍ؛ فلقد أيقنْتُ حينئذٍ أنَّ الْحَبَّ إنَّ هُوَ إِلَّا الْغريزةُ الْبهيْمِيَّةُ بعينِها محاولةٌ أنْ تكونَ شيئاً لَهُ وجودٌ فنِّي إلى وجودِهِ الطَّبِيعِيِّ، فهو مصيبتانِ في واحدةٍ، وكلُّ عملِهِ أنْ يجعلَ اللَّذَّةَ اللَّذَّ، وَالْأَلَمَ أَشَدَّ، وَالْقِلَّةَ كَثْرَةً، وَالْكَثْرَةَ أَكْثَرَ، وما هو نهايةٌ كأنَّهُ لا نهاية...

هذه (العروسُ) كانتُ قبلَ الآنِ واقفةً على حدودِ صاحبِها، أمَّا الآنَ فإنَّها تقتحِمُ الْحدودَ وتغزو غزوها وتمتلك...

يا لَسحرِ الْحَبِّ من سِخر! كلُّ ما في الطَّبِيعَةِ من جمالٍ تُظهرُهُ الطَّبِيعَةُ لِعاشقِها في إحدى صُورِ الْفهمِ، أمَّا الْحبيبُ الْجَميلُ فهو وحدهُ الَّذي يُظهرُ لِعاشقِهِ في كلِّ

صَوَّرَ أَلْفَهُمْ، وبهذا يكونُ أَلَوْقْتُ مَعَهُ أَوْقَاتًا مُخْتَلِفَةً مُتَنَاقِضَةً، ففِي سَاعَةٍ يَكُونُ أَلْعَقْلُ وَفِي سَاعَةٍ يَكُونُ أَلْجَنُونُ.

يَا لَسَحْرِ أَلْحُبِّ! لَقَدْ أَرَادَتْ هَذِهِ أَلْمَرَأَةُ أَنْ تَذْهَبَ بِعَقْلِ صَاحِبِهَا، وَأَنْ تَنْقُلَهُ إِلَى وَحْشِيَّةِ أَلْإِنْسَانِ أَلْأَوَّلِ أَلْكَامِنِ فِيهِ، وَأَنْ تَقْذِفَ بِهِ إِلَى بَعِيدٍ بَعِيدٍ وَرَاءَ فُضَائِلِهِ وَعِصْمَتِهِ؛ فَسَنَحَتْ لَهُ كَمَا يَسْنُحُ أَلْصَيْدُ لِلصَّائِدِ يَحْمِلُ فِي جِسْمِهِ لَحْمَهُ أَلْشَّهْيَ . . . وَتَرَكَّتْ شَعُورَهُ جَائِعًا إِلَى مُحَاسِنِهَا بِمِثْلِ جُوعِ أَلْمَعِدَةِ . . . وَبَرَزَتْ لَهُ صَرِيحَةً كَمَا هِيَ، وَلَمَّا هِيَ؛ وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا هِيَ هِيَ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ حِينَ أَلْبَسَتْ جِسْمَهَا ثِيَابَ أَلْحَقِيقَةِ أَلْمُؤَنَّةِ.

أَوْ مِنْ (هِيَ) إِذَا امْتَلَأَتْ أَلْهَاءُ وَأَلْيَاءُ مِنْ قَلْبِ رَجُلٍ يُحِبُّ! وَأَوْ مِنْ (هِيَ) إِذَا خَرَجَتْ هَذِهِ أَلْكَلْمَةُ مِنْ لُغَةِ أَلْنَّاسِ إِلَى لُغَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ! إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ . . . أَمْرَةً يُقَالُ لَهَا (هِيَ) بِأَعْتَابِ أَلْضَمِيرِ لِلتَّأْنِيثِ فَقَطْ، كَمَا يُعْتَبَرُ فِي أَلْدَابَةِ وَأَلْحَشَرَةِ وَأَلْأَدَاةِ وَنَحْوِهَا مِنْ هَذِهِ أَلْمُؤَنَّاتِ أَلَّتِي يَرْجِعُ عَلَيْهَا هَذَا أَلْضَمِيرُ؛ وَلَكِنْ (هِيَ) أَلْمُفْرَدَةُ فِي أَلْكَوْنِ كُلِّهِ لَا تُوجَدُ فِي أَلْنِّسَاءِ إِلَّا حِينَ يُوجَدُ لَهَا (هُوَ) . . .

أَنَا أَلَّذِي يَقْصُ لِلْقُرَاءِ هَذِهِ أَلْقِصَّةً، قَدْ كَابَدْتُ^(١) مِنْ شِدَّةِ أَلْحُبِّ وَإِفْرَاطِ أَلْوَجْدِ^(٢) مَا يُفْعِمُ قَلْبَيْنِ مُسْكِنَيْنِ لَا قَلْبًا وَاحِدًا؛ وَكَانَتْ لِي (هِيَ) مِنْ أَلْهِيَّاتِ عَانِيَتْ فِيهَا أَلْحُبُّ وَأَلْأَلَمُ دَهْرًا طَوِيلًا؛ وَقَدْ ذَهَبَتْ بِي فِي هَوَاهَا كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا مَذْهَبًا يُحِلُّ حَرَامًا، أَوْ مَذْهَبًا يُخِلُّ بِمُرُوءَةٍ؛ وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَلْشَّيْءَ أَلْسَامِي فِي أَلْحُبِّ هُوَ أَلَّا يَخْرُجَ مِنْ أَلْعَاشِقِ مُجْرَمٌ.

فَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَلرَّجُلُ أَلْفَصْلَ بَيْنِ أَلْحُبِّ مِنْ أَجْلِ جَمَالِ أَلْأُنْثَى يَظْهَرُ عَلَيْهَا، وَبَيْنَ أَلْحُبِّ مِنْ أَجْلِ أَلْأُنْثَى تَظْهَرُ فِي جَمَالِهَا؛ فَهُوَ فِي أَلْأَوَّلَى يَشْهَدُ أَلْإِلَهِةَ فِي إِدَاعِهَا أَلْسَامِي أَلْجَمِيلِ، وَفِي أَلْأُخْرَى لَا يَرَى غَيْرَ أَلْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَوَانِيَّتِهَا أَلْمُتَجَمِّلَةِ . . .

وَقَدْ أَدْرَكْتُ مِنْ فِلَسَفَةِ أَلْحُبِّ أَنَّ أَلْحَقِيقَةَ أَلْكُبْرَى لِهَذَا أَلْجَمَالِ أَلْأَزَلِيِّ أَلَّذِي يَمَلَأُ أَلْعَالَمَ - قَدْ جَعَلَتْ حَنِينَ أَلْعِشْقِ فِي قَلْبِ أَلْإِنْسَانِ هُوَ أَوَّلُ أَمَثَلِهَا أَلْعَمَلِيَّةِ فِي تَعْلِيمِ أَلْحَنِينَ إِلَيْهَا إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ، فَكَمَا يُحِبُّ إِنْشَانُ بَرُوحِ أَلْشَّهْوَةِ يُحِبُّ إِنْشَانُ

(١) كَابَدْتُ: شَدَّةَ أَحَبُّ.

(٢) كَابَدْتُ: عَانَيْتُ.

آخرُ بُروحِ الْعِبَادَةِ؛ وهذا هوَ الَّذِي يُسمِيهِ الْفلاسفةُ: (تلطيفُ السرِّ)، أي جعلَهُ مستعدّاً لِلتَّوجُّهِ إِلَى النُّورِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وقد عدُّوا فيما يُعِينُ عَلَيْهِ، الْفَكْرَ الدَّقِيقَ وَالْعِشْقَ الْعَنِيفَ.

وكذلك تبيّنتُ ممّا علّمني الْحُبُّ أَنَّ طَرْدَ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ، كَانَ معناه ثَقُلَ معاني الْفِرْدَوْسِ وعَرَضَها لِكُلِّ آدَمَ وَحَوَاءَ يُمَثِّلَانِ الْروايةَ... فإذا (قطفاً الثمرة) طُرِدَا من معاني الْجَنَّةِ، وهبطا بعدَ ذلك من أُخيلةِ السَّمَاءِ إِلَى حقائقِ الْأَرْضِ.

نعم هوَ الْحُبُّ شيءٌ واحدٌ في كُلِّ عاشقٍ لِكُلِّ جميلٍ، غيرَ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِهِ يَكُونُ في جمالِ الْعَمَلِ أو قُبْحِ الْعَمَلِ؛ وهذه الْنفوسُ مصانِعٌ مختلفةٌ لهذه الْمَادَّةِ الْوَاحِدَةِ؛ فَالْحُبُّ في بعضها يَكُونُ قوَّةً وفي بعضها يَكُونُ ضَعْفاً؛ وفي نفسٍ يَكُونُ الْهَوَى حيوانياً يَراكمُ الظُّلْمَةُ على الظُّلْمَةِ في الْحَيَاةِ، وفي أُخْرَى يَكُونُ رُوحانياً يَكشفُ الظُّلَامَ عن الْحَيَاةِ.

وَالْمُعْجَزَةُ في هذا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ أَنَّهُ لَهُ مَعَ طَبِيعَةٍ كُلِّ شَيْءٍ طَبِيعَةٌ الْإِحْسَاسِ بِهِ، فهو مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ نَفْسِهِ في الْأَلَمِ، قادِرٌ على أَنْ يَأْخُذَ هَبَةً من معاني الْحَرَمَانِ؛ وبهذه الطَّبِيعَةِ يسمو مَنْ يسمو، وهي على أَتَمِّها وَأَقْوَاهَا في عَظَمَةِ الْنفوسِ، حتّى لَكَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَأْتِي هَوَلاءِ الْعَظَمَاءِ سائِلَةً: ماذا يُريدونَ منها؟

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يسمو بِالْحُبِّ فليضعهُ في نَفْسِهِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ: الْخُلُقِ الرَّفِيعِ، وَالْحِكْمَةِ الْناضِجَةِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فلا أَقلَّ من شَيْئَيْنِ: الْحَلَالِ، وَالْحَرَامِ.

أنا الَّذِي يَقْصُرُ لِلْقِراءِ هذه الْقِصَّةَ، أعرفُ هذا كُلَّهُ، وبهذا كُلِّهِ فهِمْتُ قولَ صاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ: إِنَّ ظَهوَرَ صاحِبَتِهِ في فَصلِ الْعَرُوسِ هوَ أَنتقامُها، حاصِرَتْ عيناها عَيْنَهُ، وزَخَفَتْ معانيها على معانيه، وقَاتَلَتْ قِتالَ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ في مَعْرَكَةِ حُبِّها، وبِكَلِمَةٍ واحدةٍ: كَأَنَّمَا لَبِسَتْ هذه الثِّيَابَ لِتَظْهَرَ لَهُ بلا ثِيَاب... .

وأردتُ أَنْ أُعَيِّبَها بِما صَنَعَتْ نَفْسُها لَهُ، وَأَنْ أُعَيِّبَها بِما لا يُشَبِّهُهُ، وَقُلْتُ في غيرِ طائِلٍ ولا جِدْوَى^(١)، فما كُنْتُ إِلَّا كَالَّذِي يَعِيبُ الْوَرْدَ بِقَوْلِهِ: يا عَطَرَ الشَّذَى^(٢)، ويا أَحْمَرَ الْخَدَّيْنِ!

(٢) الشَّذى: العيب.

(١) جدوى: فائدة ونتيجة.

وقد أمسك عن جوابي، وكأنت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء^(١)، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة، وكأنت حلاوتها تجعل أقوالي مرّة، وكأنت ثياب العروس وهي تُزَفُّ تُرِيدُ ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة؛ وكلما غاضبت مع نفسه أوقعت هي الصلح بينه وبين نفسه.

والعجيب العجيب في هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام؛ ليس إلا هذا، ولا يكون أبداً إلا هذا؛ فمهما أعطيت من جدل فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم المستقل؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك، وبينك وبينه نسيائه إليك، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تُعطي وما تمنع.

ثم... ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت.

ضحكت بحزن حزن الذي يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها؛ وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مضمرة للخير الذي إعتدى عليه الشر فاحاله، والإرادة التي أكرهها القدر فأخضعها، والعفة المسكينة التي أدلتها ضرورة الحياة، والفضيلة المغلوبة التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلة!

ويا ما كان أجملها نظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك؛ تنتهد ملامح وجهها وفمها يتسم!

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداً على وجهها بلطف ورقة؛ كان يسأل إنساناً: ألا تحل هذه العقدة؟...

وأنقضى التمثيل وتناهى الناس.

أما صاحب القلب المسكين؟...

(١) شوهاء: بشعة.

القلب المسكين

٦

أما صاحب القلب المسكين فقام ليخرج وقد تفارطته^(١) الهموم وتسابقت إليه فأنكسر وتفتّر؛ وكأنما هو قد فارق صاحبتة باكيةً وبكيةً من حيث لا يرى بكاءه غيرُها ولا يرى بكاءها غيره!

ورأيتُه ينظرُ إلى ما حوله كأنما تَغشى الدنيا لونُ نفسه الحزينة؛ إذ كانت نفسه أَلقت ظلّها على كلِّ شيءٍ يراه؛ وجعلَ يَدْلِفُ ولا يمشي كأنه مُثَقِّلٌ بحملٍ يحمله على قلبه.

إنّه ليس أخفّ وزناً من الدمع، ولكنّ النفوس المتألّمة لا تحمل أثقل منه، حتى لينتثر على النفس أحياناً وكأنّه وكأنّها بناء قائمٌ يتهدّم على جسم؛ وبعضُ التّنهّداتِ على رِقَّتِها وخَفَّتِها، قد تشعُرُ بها النفسُ في بعضِ همّها كأنّها جبلٌ من الأحزانِ أخذته الرّجفةُ فمادت به، فتقلقل، فهو يتغلّقى ويتهاوى عليها.

أه حينَ يتغيّرُ القلبُ فيتغيّرُ كلُّ شيءٍ في رأي العين! لقد كان صاحبنا منذ قليلٍ وكأنّ كلّ سرورٍ في الدنيا يقولُ له: أنا لك! فعاد الآن وما يقولُ له «أنا لك» إلّا الهمُّ؛ وألْتقى هو والظلامُ والعالمُ الصامت!

جعلَ يَدْلِفُ ولا يمشي كأنه مُثَقِّلٌ بحملٍ يحمله على قلبه؛ ومتى وقع الطائرُ من الجوّ مكسورَ الجناح، انقلبت النواميسُ كلّها مُعطّلةً فيه، وظهرَ الجوّ نفسه مكسوراً في عينِ الطائرِ المسكين؛ وتنفصلُ روحه عن السماءِ وأنوارها، حتى لو غمره النورُ وهو ملقى في الترابِ لأحسّه على الترابِ وحده لا على جسّمه...

ثمّ خرجنا، فانتبه صاحبنا ممّا كان فيه؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان

(١) تفارطته: تورّعته وانتابته.

فيه على وجه آخر، فتعذَّب به عذابين: أما واحد فلائته كان ولم يَدُم وأما الآخر فلائته زال ولم يعد؛ والسُرور في الحب شيء غير السُرور الذي يعرفه الناس؛ إذ هو في الأول روح تتضاعف به الروح: فكل ما سرَّك وأنهى شعرت أنه أنتهى؛ ولكن ما ينتهي من سرور العاشق المستهام يشعره أنه مات، فله في نفسه حزن الموت وهم الثكل، وله في نفسه هم الثكل وحزن الموت!

وينظر صاحب القلب المسكين فإذا الأنوار قد أنطفأت في الحديقة، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره.

كان وجه القمر في مثل حزن وجه العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا، فكان أبيض أصفر مكمداً، تتخيل فيه معاني الدموع التي يمسكها التجلد أن تتساقط.

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبه معاً مظهر تأثير القدر المفاجيء بالنكبة. وبدت لنا الحياة تحت الظلمة مُمَفَّرَةً خاوية على أطلالها، فارغة كُفْرَاغ نصف الليل من كل ما كان مُشْرِقاً في نصف النهار؛ يا لك من ساحر أيها الحب؛ إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيام والليالي!

أما الحديقة فلبسها معنى الفراق، وما أسرع ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوها وساعتها، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي ساكنة، وتحولت روحها خشبية جافة، فلا نُضرة فيها على النفس؛ وبدت أشجارها في الظلام، قائمة في سوادها كالأناحيات يَلْطُمْنَ وَيُولُون، وتنكر فيها مشهد الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبت الصلة بين المكان ونفس الكائن.

ماذا حدث؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس، فقد تغيَّرت طريقة الفهم، وكان للحديقة معنى من نفسه فسلِبَ المعنى، وكان لها فيض من قلبه فأنحبس عنها الفيض؛ وبهذا وهذا بدت في السلب والعدم والتنكر، فلم يبق إبداع في شيء مُبدع، ولا جمال في منظر جميل.

أكذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلاً من معاني الفناء كهذا الفراق؟

أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء؟
مسكين أنت أيها القلبُ العاشق! مسكين أنت!

ومضينا فمِلْنَا إلى نديّ نجلِسُ فيه، وأزدتُ معايشةَ صاحبنا المتألمِ بالحُبِّ
وَالْمَتَأَلَمِ بِأَنَّهُ مَتَأَلَمٌ، فقلْتُ لَهُ: ما أراكِ إِلَّا كأنك تزوجتَها وطلقتَها فتبعَتْها نفسُك!
قال: آه! مَنْ أنا الآن؟ وما بالُ ذلك الخيالِ الَّذي نسَّقَ لِي الدُّنيا في أجْمَلِ
أشكالِها قد عادَ فبعثرَها؟ أندري أنَّ الْعَالَمَ كانَ فيَّ ثُمَّ أُخِذَ مِنِّي فَأنا الآنَ فضاءُ فضاءٍ.
قلتُ: أعرفُ أنَّ كلَّ حبيبٍ هوَ الْعَالَمُ الشَّخصيُّ لِمُحِبِّهِ.

قال: ولذلك يعيشُ الْمُحِبُّ المَهْجُورُ، أو المَفْارِقُ، أو المُنْتَظَرُ، وكأنَّهُ في
أيامِ خَلَّتْ، وتَراه كأنما يَجِيءُ إلى الدُّنيا كلَّ يومٍ ويرجعُ.

قلتُ: إنَّ من بعضِ ما يَكُونُ بِهِ الْجَمالُ جَمالاً أَنَّهُ ظالِمٌ قاهرٌ عَنيفٌ، كَالْمَلِكِ
يَسْتَبْدُ لِيَتَحَقَّقَ من نفاذِ أمرِهِ، وكانَ الْجَميلُ لا يَتِمُّ جَمالُهُ إِلَّا إذا كانَ أحياناً غَيْرَ
جَميلٍ في المَعامِلَةِ!

قال: ولكنَّ الْأَمْرَ مع هذه الْحَبِيبَةِ بِالْخِلَافِ؛ فَهِيَ تَطْلُبُنِي وَأَتَنَكَّبُهَا^(١)، وَهِيَ
مُقبِلَةٌ لَكِنَّها مُقبِلَةٌ على أمتناعي؛ وَكَأَنَّها طالِبٌ يَعدو وراءَ مَطْلُوبٍ يَفِرُّ، فلا هذا
يَقِفُ ولا ذلك يُدْرِكُ.

قلتُ: فَإِنَّ هذه هِيَ الْمَشْكِلةُ، وَمتى كَانَتْ الْحَبِيبَةُ مِثْلَها، وَكانَ الْمُحِبُّ
مِثْلَكَ، فَقَدْ جَاءَتْ الْعَقْدَةُ بَيْنَهما مَعْقُودَةً من تَلَقُّاءِ نَفْسِها فلا حَلَّ لَها.

قال: كَذَلِكَ هو، فَهَلْ تَعْرِفُ في الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ كِبُؤْسَ الْعَاشِقِ الَّذِي لا يَتَدَبَّرُ
كَيْفَ يَأْخُذُ حَبِيبَتَهُ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَتْرُكُها؟ ما هِيَ الْمَسافَةُ بَيْنِي وَبَيْنَها؟ خَطْوَةٌ،
خَطْوَتَانِ؟ كَلَّا، كَلَّا؛ بَلْ فُضائِلُ وَفُضائِلُ تَمَلَأُ الدُّنْيا كُلَّها، إِنَّ مَسافَةَ ما بَيْنَ الْحَلالِ
وَالْحَرَامِ مِتراخِيَةٌ مَمْتَدَّةٌ ذاهِبَةٌ إلى غَيْرِ نَهايةٍ؛ وَإِذا كانَ الْحُبُّ الْفاسِداً لا يَقْبَلُ مِنْ
الْحَبِيبِ إِلَّا (نعم) بلا شَرِيطٍ ولا قَيْدٍ لِأَنَّهُ فاسِدٌ، فَالْحُبُّ الطَّاهِرُ يَقْبَلُ (لا) لِأَنَّهُ
طاهر! ثُمَّ هو لا يَرْضَى (نعم) إِلَّا بِشَرِيطِها وَقَيْدِها مِنْ الْأَدبِ وَالشَّرِيعَةِ وَكَرامَةِ
الْإِنسانِيَّةِ في الْمَراةِ وَالرَّجُلِ.

(١) أَتَنَكَّبُها: أَتَجَنَّبُها وَأُحْبِياها.

وإذا لم ينته الحب بالإنثم والرديلة، فقد أثبت أنه حب؛ وشرفه حينئذ هو سير قوته وعنصر دوايمه.

أعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة... إنه بهذا يود ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الجزمان الذي يسمى الشرف، وألا يكون بينهما إلا قيد غريزتها الذي ينحل من تلقاء نفسه في لحظة ما، وأن يترك لقوته وتترك هي لضعفها؛ والقوة والضعف في قانون الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصاب وتسليم.

قلت: وهذا ما يفعله كل عاشق ليمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان؛ فإن بينهما قوة وضعفاً من نوع آخر، فمعه الثمن وبها الحاجة، وهما في قانون الضرورة ملك وتمليك.

قال: وهذا مما يقطع في قلبي؛ فلو أن للأمة ديناً وشرفاً لما بقي موضع الزوجة فارغاً من رجل، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن في تلك المواضع الخالية أول ما ينزلن، فكل بقي هي في المعنى دين متروك وشرف مبتذل في الأمة.

قلت: فحدثني عنك ما هذا ألوجد بها وما هذا الاحتراق فيها، وأنت قد كنت بين يديها خيالاً مخضاً كأنما جمعتها في حواسك فأخذتها وتركتها في وقت معاً، وحواسك هذه لا تزال كما هي، بل هي قد زادت حدة، فكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بُعد؟

قال: أنا في محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذي تقول هي فيه إنك لا تحبني، إذ كان بيننا آخر أسمه الخلق؛ ولكني في غيابها أفقد هذا الميزان الذي يزن المقدار ويحدده، وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المعشوق، فأعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بإزائها ما تقاومه، فتتخلى عنه وتخله؛ وفضيلته لا تجد ما تستغل فيه، فتتوارى وتدعه؛ وشخصيته لا تجد ما تبرز له، فتختفي وتهمله؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من ألوهن والنقص وحده الشوق؛ وهنا ينتقم الحب مما زورت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية، فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لها القوة، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التي كتمت عنه؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدّه وتباعده، وهي في خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القدم وعلى هذه القدم!

لا إِنَّهُ لا بُدَّ في الْحُبِّ من تمثيلِ روايةِ ألامتناعِ أو الصَّدِّ أو التَّهَاونِ أو أي الرواياتِ من مثيلها؛ ولكنَّ ثيابَ المَسْرِحِ هِيَ دائماً ثيابُ استعارَةٍ ما دامَ لا بسُها في دورِهِ مِنَ القِصَّةِ .

ثُمَّ وَضَعَ الْمَسْكِينُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ : آه ! إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ يُغَاضِبُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا مَتَى أَرَادَ أَنْ يَشْعَرَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ غَضَبَان .

مَنْ مِنَ النَّاسِ لا يَعْرِفُ أَحْزَانَهُ؟ وَلَكِنْ مَنْ مِنْهُمْ الَّذِي يَعْرِفُ أَسْرَارَ أَحْزَانِهِ وَحِكْمَتَهَا؟ أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَشَفَ السِّرَّ لَرَأَيْنَا الْأَفْرَاحَ وَالْأَحْزَانَ عَمَلًا فِي الْنَفْسِ مِنْ أَعْمَالِ تَنَازُعِ الْبَقَاءِ؛ فَهَذَا الْأَنَامُوسُ يَعْمَلُ فِي إِيجَادِ الْأَصْلَحِ وَالْأَقْوَى، ثُمَّ يَعْمَلُ كَذَلِكَ لِإِيجَادِ الْأَفْضَلِ وَالْأَرْقِ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَتْ أَلَامُ الْحُبِّ قُوَّةً حَتَّى لَكَائِهَا فِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ تَهَيَّءُ أَحَدَ الْقَلْبَيْنِ لِيَسْتَحَقَّ الْقَلْبَ الْآخَرَ .

آه مِنْ هَذِهِ أَلْوَاعِجِ ! إِنَّهَا مَا تَكَادُ تَضْطَرُّ حَتَّى تَرْجِعَ الْنَفْسُ وَكَائِهَا مَوْقِدٌ يَشْتَعِلُ بِالْجَمْرِ، وَبِذَلِكَ يُضْهِرُ الْمَعْدِنُ الْإِنْسَانِيَّ وَيُصْنَعُ صِنْعَةً جَدِيدَةً؛ وَإِلَى أَنْ يَنْصَهَرَ وَيَتَصَفَّى وَيُصْنَعُ، مَاذَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَبِيهِ؟ يَكُونُ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رَوْحُهُ النَّارِيِّ .

قُلْتُ : بَخِ بَخِ^(١) ! هَكَذَا فَلْيَكِنْ الْحُبِّ؛ إِنَّهَا حِينَ تَهَيَّجُ فِي نَفْسِكَ الْحَنِينَ إِلَيْهَا تُعْطِيكَ مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ جَمَالِهَا وَمَا هُوَ أَبْدَعُ مِنْ جِسْمِهَا، إِذْ تُعْطِيكَ أَقْوَى الشَّعْرِ وَأَحْسَنَ الْحِكْمَةِ .

قَالَ : وَأَقْوَى الْأَلَمِ وَأَشَدَّ أَلْوَعَةٍ ! يَا عَجَباً ! كَأَنَّ الْحَيَاةَ لا تَقْدَمُ فِي عِشْقِ الْمَحْبُوبِ إِلَّا عِشْقَهَا هِيَ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْجَفْوَةُ، أَوْ حُمَّ الْبَيْنُ^(٢)، أَوْ أَعْتَرَى الْيَأْسُ - قَدَّمَ الْمَوْتَ نَفْسَهُ فَكُلَّ ذَلِكَ شَبَهُ الْمَوْتِ .

إِنَّ الْحَزْنَ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ قَبْلِ الْعَدُوِّ يَجِيءُ مَعَهُ بِقُوَّةٍ تَحْمِلُهُ وَتَتَجَلَّدُ لَهُ وَتُكَابِرُ فِيهِ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ ذَلِكَ فِي حَزَنِ مَبْعُوثِ الْحَبِيبِ؟ وَمِنْ أَيْنَ الْقُوَّةُ إِذَا ضَعُفَ الْقَلْبُ؟

(١) بَخِ بَخِ : تعبير إعجاب يقال في حالتي الرضى والمدح .

(٢) البين : الفراق .

قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً؛ فإذا كان غدً وأنسلخ النهار من الليل جئنا إليها فرأيناها في المسرح، ولعل الأمر يصدرُ مصدرًا آخر، قال: أرجو...

ولم يكذ ينطق بهذه الرجية حتى مرَّ بنا سبعة رجالٍ يقهقهون، ثم تلاقينا وجئنا؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلت؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه... من قوله: أرجو...

ولماذا رحلت؟ لماذا؟

وأما هو...؟

القلبُ المسكين

٧

وأما صاحبُ القلبِ المسكينِ فما عَلِمَ أنَّها قد رحلت عن ليلته حتى أظلمَ
الظلامُ عليه، كأنَّها إذا كانت حاضرةً أضاءَ شيءٌ لا يرى، فإذا غابتِ أنطفأ هذا
الضوءُ؛ ورأيتُهُ واجماً^(١) كاسفَ البالِ^(٢) يتنازعُهُ في نفسه ما لا أدري، كأنَّ غيابَها
وقعَ في نفسه إنذارَ حربٍ.

لماذا كانَ الشعراءُ ينوحون على الأطلالِ ويلتأعون^(٣) بها ويرتمضون^(٤) منها
وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا؟ وما الذي يتلقَّاهم به المكانُ بعدَ رحيلِ الأحبة؟ يتلقَّاهم
بالفراغِ القلبي الذي لا يملؤه من الوجودِ كلُّه إلا وجودُ شخصٍ واحدٍ؛ وعندَ هذا
الفراغِ تقفُ الدنيا ملياً كأنَّها انتهت إلى نهايةٍ في النفسِ العاشقة، فتبطلُ حينئذٍ
المبادلةُ بين معاني الحياة وبين شعورِ الحيِّ؛ ويكونُ العاشقُ موجوداً في موضعه
ولا تجدهُ المعاني التي تمرُّ به، فترجعُ منه كالحقائقِ تُلُمُّ بالفراغِ العقلي من وعي
سكرانٍ.

يا أثرَ الحبيبِ حينَ يفارقُ الحبيب! ما الذي يجعلُ فيك تلكَ القُدرةَ الساحرة؟
أهو فصلُك بين زمنٍ وزمنٍ، أم جمعُك الماضي في لحظة؛ أم تحويلُك الحياةَ إلى
فكرةٍ، أم تكبيرُك الحقيقةَ إلى أضعافٍ حقيقتها، أم تصويرُك روحيةَ الدنيا في المِثالِ
الذي تحسُّه الروحُ، أم إشعارُك النفسَ كالموتِ أنَّ الحياةَ مبنيةٌ على الانقلابِ، أم
قدرتُك على زيادةِ حالةٍ جديدةٍ للهَمِّ والحزنِ، أم رجوعُك باللذةِ تُرى ولا تُمكنُ،
أم أنت كلُّ ذلكِ لأنَّ القلبَ يفرغُ ساعةً من الدنيا ويمتلئُ بك وحدك؟

يا أثرَ الحبيبِ حينَ يفارقُ الحبيب! ما هذه القوةُ السحريةُ فيك تجتذبُ بها

(١) واجماً: مطرقاً.

(٢) كاسفَ البال: حزناً.

(٣) يلتأعون: يتألمون.

(٤) يرتعضون: يتلذعون من حزنها.

الصدر ليضمك، وتستهوِي بها الفم ليقبلك، وتستدعي الدمع لينفر لك، وتحتاج
الحنين لينبعث فيك؟ أكل ذلك لأنك أنثر الحبيب، أم لأن القلب يفرغ ساعة من
الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك؟

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم؛ وتلك
هي طبيعة الألم الذي يفاجئ الإنسان من مكن لدته وموضع سروره، فيسلبه نوعاً
من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه في قبر
الماضي، يكون ألماً لأن فيه الممض، وكأبه لأن فيه الخيبة، وذوولاً لأن فيه
الحسرة؛ وتتم هذه الثلاثة الهموم بالضيق الشديد في النفس، لاجتماع ثلاثتها على
النفس؛ فإذا المسكين مبعوث كأن الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع، فقلبه
منها صدوع صدوع...

وجعلت أعذل صاحبنا فلا يعتدل، وكلما حاولت أن أثبت له وجود الصبر
كنت كائماً أثبت له أنه غير موجود؛ ثم تنفس وهو يكاد ينشق غيظاً وقال: لماذا
رحلت؟ لماذا؟

قلت: أنت أذلت جمالها بهذا الأسلوب الذي ترى أنك تُعز جمالها به، وقد
أشدت عليها وعلى نفسك، وتعتت على قلبك وقلبيها؛ كانت طريقة المذهب في
عشقها وكنت خشناً في حبك، وسوغتك حقاً فردته عليها، وتهالكنت وأنقبضت
أنت، ورفعت قدرك عن نفسها تحبباً وتودداً فخفضت قدرها عن نفسك من أطراح
وجفاء، وأستفرغت وسعها في رضاك فتغاضبت، ونضت عن محاسنها شيئاً شيئاً
تسأل بكل شيء سؤالاً فلم تكن أنت من جوابها في شيء...

ومن طبع المرأة أنها إذا أحببت امتنعت أن تكون البادئة، فالتوت على
صاحبها وهي عاشقة، وجأحت^(١) وهي مقررة؛ إذ تريد في الأولى أن تتحقق أنها
محبوبة، وفي الثانية أن يقدم لها البرهان على أنها تستحق المهاجمة، وفي الثالثة
هي تريد ألا تأخذها إلا قوة قوية فتمتحن هذه القوة، ومع هذه الثلاث تأتي طبيعة
السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهذا السرور وهذا الإمتاع
شأن وقيمة، فتذيق صاحبها المر قبل الحلو ليكبر هذا بهذا.

(١) جأحت: أنكرت.

غير أنها إذا غلبها ألوجد وأكرهها الحب على أن تبتدىء صاحبها، ثم أبتدأت ولم تجد الجواب منه، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب، فإن أابتداء حينئذ يكون هو النهاية، وينقلب الحب عدو الحب؛ وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها: سأتألم ولكن لن أغلب، فكان الذي وقع وأسفاه - أنها تألمت حتى جئت، ولكن لم تغلب...

قال: فما بال هذه؟ أما تراها تبتدىء كل يوم رجلا؟

قلت: إنها تبتدىء متكسبة لا عاشقة، فإذا أحببت الحب الصحيح أرادت قيمتها فيما هو قيمتها؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنف وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة؛ فإنها لذات جديدة للمرأة التي لا تجد من يخضعها؛ وفي طبيعة كل امرأة شيء لا يجد تمامه إلا في عنف الرجل، غير أنه العنف الذي أوله رقة وآخره رقة؟

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة؛ والشيء الغريب يسمى غريباً فيكفي ذلك بياناً في تعريفه، غير أنه إذا وقع في الحب سمي غريباً فلا تكفيه التسمية، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شيء غريب، ثم تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه؛ وهكذا يشعرون.

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب؛ وكأن النبوة نبوتان: كبيرة وصغيرة، وعامة وخاصة. فإحدهما بالنفس العظيمة في الأنبياء، والأخرى بالقلب الرقيق في العشاق؛ وفي هذه من هذه شبه، لوجود العظمة الروحية في كليهما غالباً على المادة، مجردة من إنسان الطين إنساناً من النور، محركة هذه الطبيعة الأدمية حركة جديدة في السموات، ذاهبة بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل، واضحة مبدأ التجديد في كل شيء يمر بالنفس، منبعثة بالأفراح من مصدرها العلوي السماوي.

بيد أن في العشاق أنبياء كذبة؛ فإذا تسفل الحب في جلال، وأستعلت البهيمية في عظمة، وتجردت من إنسان الطين إنساناً الحجر، وتحركت الطبيعة الأدمية حركة جديدة في السقوط، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأقبح. والأسوأ،

وتجدد لكل شيء في النفس معنى فاسد، وأنبعثت الأفرأح من مصدرها السفلي -
إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون؟
لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق، كما يقلد
النبوة الكبيرة في بعض الدجالين.

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان في
الحديقة، وكنا دخلناها ليجدد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به؛ وأستفاض
كلامنا في وصف تلك العبهة^(١) الفتاة التي أحلته هذا المحل وبلغت به ما بلغت
وكان في رقة لا رقة بعدها، وفي حب لا نهاية وراءه لمحج؛ وخيل إلي أنه يرى
الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما!

وأفنع ما في حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرجُه من حالة الفكر،
ويؤنس قلبه بالألفاظ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه، ويوجه حواسه إلى
الظاهر المتحرك؛ فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية، وتأتيه بالحقائق على قدرها في
اللغة لا في النفس؛ وفي كل ذلك حيلة على النسيان، وتعلل إلى ساعة؛ وهو تدبير
من الرحمة بالعاشقين في هذا البلاء الذي يسمى الفراق أو الهجر.

وكان من أعجب ما عجبته له أن صديقاً مر بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو
يوميء إلي: أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم: لا هو يقيم غدراً ولا أنا أقيم حجة،
وأحسب أن عندك رأياً فأقض بيننا...

ويسأله الصديق: ما القضية؟ فيقول وهو يشير إلي:

إن هذا قد تحرق قلبه من الحب فلا يدري من أين يجيء لقلبه برقة... وإنه
يعشق فلانة الراقصة التي كانت في هذا المسرح، ويزعم لي... أنها أجمل وأفتن
وأحلى من طلعت عليه الشمس، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى
في كل ما يضيء القمر عليه، وأن عينها مما لا ينسى أبداً أبداً... لأن الحاظها
تذوب في الدم وتجري فيه، وأن الشيطان لو أراد مناجزة^(٢) العفة والزهد في حرب
حائمة بينه وبين أزهدي العباد لترك كل حيله وأساليبه وقدم جسمها وفنها...

فيقول له المسؤول: وما رأيك أنت؟

(٢) مناجزة: منازلة ومصارعة.

(١) العبهة: التامة الخلقة والجمال.

فُجِئُهُ: لو كَانَ عنها صَاحِباً لَقَدْ صَحَا: إِنَّ الْمَشْكَلَةَ فِي الْحُبِّ أَنَّ كُلَّ عَاشِقٍ لَهُ قَلْبُهُ الَّذِي هُوَ قَلْبُهُ، وَحَسْبُهَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ يَصِفُهَا؛ وَمَا يُدْرِينَا مِنْ تَصَارِيفِ الْقَدْرِ بِهَذِهِ الْمُسْكِينَةِ مَا عَلَيْهَا مِمَّا لَهَا، فَلَعَلَّهَا الْجَمَالُ حُكِمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذَّبَ بِقَبْجِ النَّاسِ، وَلَعَلَّهَا السَّرُورُ قُضِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَجَّنَ فِي أَحْزَانٍ!

وَقُلْتُ لَهُ: يَا صَدِيقِي الْمُسْكِينِ! أَوْ كُلُّ هَذَا لَهَا فِي قَلْبِكَ؟ فَمَا هَذَا لَهَا فِي قَلْبِكَ؟ فَمَا هَذَا الْقَلْبُ الَّذِي تَحْمِلُهُ وَتُعَذِّبُ بِهِ؟

قَالَ: إِنَّهُ - وَاللَّو - قَلْبُ طِفْلِ، وَمَا حُبُّهُ إِلَّا أَلْتِمَاسُهُ الْحَنَانَ الثَّانِي مِنَ الْحَبِيبَةِ، بَعْدَ ذَلِكَ الْحَنَانِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأُمِّ؛ وَكُلُّ كَلَامِي فِي الْحُبِّ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءُ هَذَا الْقَلْبِ عَلَى فِكْرِهِ كَأَنَّهُ يَخْلُقُ بِهِ خَلْقَ تَفْكِيرِهِ.

آه يَا صَدِيقِي! إِنَّ مِنَ السَّخَرِيَّةِ بِهَذِهِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَسْتَمِرُّ طِفْلاً بَعْدَ زَمَنِ الطُّفُولَةِ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ: مَنْ كَانَ فِيلَسُوفاً عَظِيماً، وَمَنْ كَانَ مَغْفِلاً عَظِيماً!

وَأَفْتَرَقْنَا؛ ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ خَبْرَهُ فَلَقِيْتُهُ مِنَ الْغَدِ، وَكَانَ لِي فِي أَحْلَامِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ شَأْنٌ عَجِيبٌ، وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ أَعْجَبُ؛ أَمَّا أَنَا فَلَا يَعْنِي الْقِرَاءَ شَأْنِي وَقِصَّتِي.

وَأَمَّا هُوَ؟ ...

القلبُ المسكين

٨

وأما هو فحدثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفئه، قال :
أنصرفْتُ إلى داري وقد عزَّ عليَّ أن يكونَ هذا منها وأن يكونَ هذا مني، وهي إن
غابت أو حضرت فإنها لي كالشمسِ للدينا: لا تُظلمُ الدنيا في ناحيةٍ إلّا من أنها
تُضيء في ناحية؛ فظلمتها من عمل نورها؛ وكانت ليلتي فارغة من النوم فيت
أتململُ، وجعل القلبُ في جنبي كأنه آلة في ساعة لا قلبَ إنسان؛ وكان في الدنيا
من حولي صمتٌ كصمتِ الذي سكتَ بعدَ خطبةٍ طويلة، وفي أنا صمتٌ آخرُ
كصمتِ الذي سكتَ بعدَ سؤالٍ لا جوابَ عليه؛ وكان ألّهواء راكداً كالسكرانِ الذي
أنطرح من ثقله السكر بعد أن هذى^(١) طويلاً وعزباً؛ وألوجد كله يبدو كالمختنق،
لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري؛ ونظرتُ نظرةً في النجوم فإذا هي تتغوَّزُ
نجماً بعدَ نجم، كأن معنى الرحيلِ أنتشرَ في الأرضِ والسماة إذ رحلتِ الحبيبة؛
وكان كلُّ وجهٍ مضى يقولُ لي كلمة: لا تنتظري!

فلما عسعس^(٢) أليلُ رميتُ بنفسي فينمُ والعقلُ يقظان، وصنعتُ الأحلامَ ما
تصنع، فرأيتها هي في تلك الشفوف^(٣) التي ظهرت فيها عروساً؛ وما أعجبَ كبرياء
المرأة المحبوبة! إنها لتبدو لعيني مُحِبَّها كالعارية وراءَ ستُرٍ رقيقٍ يشفُ عنها
كالضوء، ثم تدلُّ بنفسها أن ترفعَ هذا السترَ، فإن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي؛
وكانها تقولُ له: قد رفعته بطريقتي فأرفعه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصورةً في الحلمِ تصويراً آخر؛ فلا ينسكبُ من جسمها معنى الحُسنِ

(١) هذى: تلفظ بما لا يفهم في حالة الجنون.

(٢) عسعس الليل: أقبل ظلامه أو أدبر.

(٣) الشفوف: الأردية الرقيقة التي تنم عما تحتها.

الذي أتأملُهُ وأعقلُهُ، ولكن معنى السُّكْرِ الذي يتركُ المرءَ بلا عقل؛ ولم تكن غلائلُها عليها كالأثيابِ على المرأة، ولكنها ظهرت لي كالألوانِ على الوردَةِ الزاهية: تظهرُ فِتْنَةً وتُتِمُّ فِتْنَةً.

أيُّها الأحلام، ماذا تُبدعينَ إلا مخلوقاتِ أدمِ الإنسانِي، ماذا تُبدعينَ؟
قلت: يا صديقي دَعِ الآنَ هذه الفِلسَفَةُ وخذْ في قصِّ ما رأيتَ، ثُمَّ ماذا بعدَ الوردَةِ ولونِ الوردَةِ؟

قال: إِنَّهُ الْقَلْبُ الْمَسْكِينُ دائماً، إِنَّهُ الْقَلْبُ الْمَسْكِينُ؛ لقد ضحكْتُ لي وقالت: هأنذا قد جِئْتُ! وأقبلتُ ثرائيني بوجهها، وتتغزلُ بعينيها، وتتنهَّدُ بِصدرها، وألقتَ يدها في يدي، فأحسستُ أليدينِ تتعانقانِ ولا تتصافحانِ؛ ثُمَّ تركناهُما نائمتينِ إحداهما على الأخرى، وسكتنا هُنيئَةً وقد خِيلَ إلينا أننا إذا تكلمنا أَسْتَقِظْتُ يدانا!

أما صافحتُكَ امرأةً تُحبُّها وتُحبُّكَ؟ أما أحسستَ يدها قد نامتَ في يدك ولو لحظة؟ أما رأيتَ بعينيك نِعَاسَ يدها وهو ينتقلُ إلى عينيها فإذا هما فارتانِ ذابلتانِ، وتحتَ أجفانهما حُلُمٌ قصيرٌ؟

قلت: يا صديقي دَعِ الفِلسَفَةَ؛ ثُمَّ كَانَ ماذا بعدَ أنْ نامتَ يدُ على يد؟
قال: ثُمَّ كَانَتْ سُخْرِيَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ أَقْبَحُ سُخْرِيَةٍ قَطُّ.
قلتُ: حسبي لكَأَنَّكَ شرختَ لي ما بقي...

فضحك طويلاً وقال: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْخَرُ الآنَ مِنْكَ أيضاً، وكأني به يقولُ لك: وكانَ ما كانَ مِمَّا لَسْتُ أذكرُهُ... أفتردي ما الذي كانَ وما بقيَةُ الخبرِ؟

لقد كنتُ مُولعاً بِأمتحانِ قوَّتي في الضَّغْطِ بيدي على أعوادِ منصوبةٍ مِنَ الحديدِ، أو على أيدي الأقوياءِ إذا سلَّمْتُ عليهم؛ فلماً صافحتُني لبثتُ مُدَّةً مِنَ الزَّمنِ ثُمَّ شددتُ على يدها قليلاً قليلاً، فتنبَّهتُ في هذه العادة، فمسختُ الحُلُمَ وأنصرفتُ وهَمِّي إلى أقبحِ صورةٍ وأشنعها وأبعدها مِمَّا أنا فيه مِنَ الْحُبِّ ولذاتِ الْحُبِّ؛ فإذا بإزائي وجهٌ، وجهٌ مَنْ؟ وجهٌ مصارعِ الأمانِي كُنْتُ أعرفُهُ من عشرينَ سنةً وأضغطُ على يده...

قلت: إنَّما هذه كبرياؤُكَ أو عِفَّتُكَ تَنَبَّهتُ في تلكَ الشَّدَّةِ من يدك، ولا يزالُ أمركَ عجبياً؛ فهل معك أنت ملائكةٌ ومعَ الناسِ شياطينُ؟

قال: والذي هو أعجب أنني رأيت في أضغاث أحلامي كأن قلبي المسكين يُخاصمني وأخاصمه؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يرى ولا يرى إذ لا شكل له؛ وسبني وسبته، وقلت له وقال لي، وتغالطنا كأننا عدوان؛ فهو يرى أنني أنا أمنعه لذته، وأرى أنه هو يمنعني، وأنه أشفى بي على ما أشفى؛ وقلت له فيما قلت: لا قرارَ على جنائتك، فأذهب عني ولا تتسم بأسمي فإنه لا فلان لك بعد اليوم؛ ولولا أنك مخدول^(١) في الحب لعلمت أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخففٌ من التقييل، فإذا هي تركته يرتفع في الدم أنتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها؛ ولولا أنك مخدولٌ في الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوعٌ مخففٌ من العناق، فإذا هي تركته يشتد في الدم أنتهى يوماً إلى ضم الصدر للصدر؛ ولكئك مخدولٌ في الحب، ولكئك مخدول!

وقال لي فيما قال: وأنت أيها الخائب؟ أما علمت أن أناملها الرخصة^(٢) هي أناملها، لا أعوادك من الحديد؟ فكيف شددت عليها - ويحك - تلك الشدة التي أخرجت لك وجه المصارع؟ ولكئك خائبٌ في الحب، ولكئك خائب!

قلت: فهذه قضيةٌ بيني وبينك أيها القلب العدو؛ لقد تركتني من الهموم كالشجرة المتخربة قد بليت وصارت فيها التخاريب؛ فلا حيائها بالحياة ولا موتها بالموت، وكم علقتني بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهي ولا فيها مطعمٌ يتدى؛ ما أنت في إلا وحشرٌ أكبرٌ لذته لطمع الدم!

واستدار الحُلم فلم ألبث أن رأيتني في محكمة الجنایات، وكأني شكوت قلبي إليها فهو جالسٌ في القفص الحديدي بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل^(٣) في أمرهم؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم، وجلس النائب العام في مجلسه يتولى إقامة الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها، ورأيت منها غلافاً كتب على ظاهره: قضية القلب المسكين.

وتكلم رئيس المحكمة أول من تكلم فقال: ليس في قضية القلب مُحام، فأبغوه من يدافع عنه؛ ثم ألتفت إليه وقال: مَنْ عسى تختار للدفاع عنك؟

(١) مخدول: مهزوم لا يفتر لك.

(٢) الرخصة: الطريقة اللدنة.

(٣) الفصل في أمرهم: البت في مصيرهم.

قال القلب: أو هنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس؟ إنه ليس تحت هذه - وأوماً إلى السماء - ولا فوق هذه - وأوماً إلى الأرض - إلا . . .

فبدّر النائب العام وقال: إلا الحبيبة؟ أ كذلك؟ غير أنها أستاذة في الرقص لا في القانون!

- القلب: ولكنني لا أختار غيرها محكوماً لي أو محكوماً علي؛ أنا أريد أن أنظر فيها وأنظروا أنتم في القضية . . .

- الرئيس: فليكن؛ فهذه جريمة عواطف إيذن لها أيها الآذن.

فنادى المخضر: الأستاذة! الأستاذة!

وجاءت مبادرة، ودخلت تمشي مشيتها وقد أفتّر ثغرها^(١) عن النور الذي يسطع في النفس؛ وأومضت بوجهها يميناً وشمالاً، فصرفت الناس جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن؛ وثارث في كل قلب نزعة، وغلبت الحقيقة البشرية فانتقضت طباع الموجودين في قاعة الجلسة، وأبطل قانون جمالها قانون المحكمة، فوقعت الضجة وعلت الأصوات وأختلطت؛ وترددت بين جدران المكان صدى في صدى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين.

أصوات أصوات: سبحان الله! سبحان الله! تبارك الله! تبارك الله! آه! آه! آه! وسمع صوت يقول: اتهموني أنا أيضاً . . . فتقرت الكلمات: وأنا، وأنا، وأنا! وأختفت المحكمة وأنبعث المسرح بدخول فاتيته أراقصة؛ وكان المستشارون والنائب العام في أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط: لا يخشاها أحد أن تنظر إلى ما يصنع!

فصاح الرئيس: هنا المحكمة! هنا المحكمة! سبحان الله . . . المحكمة المحكمة!

- النائب العام: هذا بدّر لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه، نعم إن هذا الوجه الجميل أبرع محام في هذه القضية، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتبه . . . عن المتهم، هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب، وكأنكم يا حضرات المستشارين . . .

(١) افتّر ثغرها: ابتسمت.

قَبَدَرَتِ الْمَحَامِيَةُ تَقُولُ فِي نَعْمَةٍ دَلَالٍ وَفَتُور: وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ
قَدْ نَسِيتُمْ أَنَّ النَّائِبَ الْعَامَّ لَهُ قَلْبٌ أَيْضاً...

وَأَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَى النَّائِبِ، وَتَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ؛ فَقَالَ: يَا حَضْرَةُ
الرَّئِيسِ...

- الرَّئِيسُ مَبْتَسِماً: وَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ، وَأَرْجُو أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَانِيَةٌ، وَمَعْنَى هَذَا
كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَالِثَةٌ... (ضَحْك).

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ: وَكُنْتُ بِلا قَلْبٍ... فَلَمْ أَلْتَفِتْ لِلْجَمَالِ، بَلْ
رَاعَنِي ذِكَاؤُ الْمَحَامِيَةِ وَنَفَادُهَا وَحُسْنُ أَهْتِدَائِهَا إِلَى الْحُجَّةِ فِي أَوَّلِ ضَرْبَاتِهَا،
وَتَعْجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ التَّعْجِبِ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّ النَّائِبَ الْعَامَّ سَيَقَعُ فِي لِسَانِهَا، لَا كَمَا
يَقَعُ مِثْلُهُ فِي لِسَانِ الْمَحَامِيَةِ الْقَدِيرِ، وَلَكِنْ كَمَا يَقَعُ زَوْجٌ فِي لِسَانِ زَوْجَةٍ مَعْشُوقَةٍ
مُتَدَلِّلَةٍ تُجَادِلُهُ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ بَعْضُهَا الْكَلَامُ... وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَا رَحِمَةَ اللَّهِ لَا
تَجْعَلِي مِنَ النِّسَاءِ الْجَمِيلَاتِ الْفَاتِنَاتِ مُحَامِيَاتٍ فِي هَذِهِ الْمَحَاكِمِ، فَلَوْ أَلْبَسُوهُنَّ
لَحَى مُسْتَعَارَةً لَكَانَ الصَّوْتُ الرَّخِيمُ وَحْدَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَفْوَاهِ الْجَمِيلَةِ الْعَذْبَةِ، نَدَاءٌ
قَانُونِيّاً لِلْقُبَلَاتِ...

وَنَهَضَتِ الْمَحَامِيَةُ الْعَجِيبَةُ فَسَلَطَتْ عَيْنَيْهَا السَّاحِرَتَيْنِ عَلَى النَّائِبِ، ثُمَّ قَالَتْ
تُخَاطَبُ الْمَحْكَمَةُ: قَبْلَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ قَضِيَةُ الْحُبِّ وَالْجَمَالِ، قَضِيَةُ قَلْبِي
الْمُسْكِينِ... أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الرَّأْيَ الْقَانُونِيَّ فِي أَعْتَابِ الْجَرِيمَةِ. أَهِيَ شَخْصِيَّةٌ،
فَتَقْصُرُ عَلَى صَاحِبِهَا؛ أَوْ خَاصَّةٌ، فَتَقْصُرُ غَيْرَ جَانِبِهَا؛ أَوْ عَامَّةٌ، فَيَتَنَاوَلُهَا الْعُمُومُ
الْمَحْدُودُ لِمَنْ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةُ الْحُبِّ؛ أَوْ هِيَ أَعْمُ، فَيَتَنَاوَلُهَا الْعُمُومُ الْمَطْلُوقُ لِلْهَيْئَةِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ مَا هِيَ جَرِيمَةُ قَلْبِي؟...

- الرَّئِيسُ: مَا رَأْيُ الْنِيَابَةِ؟

النَّائِبُ ضَاحِكاً: (غَزَلَتْهَا رَايِقَةٌ) كَمَا يَقُولُ الرَّاكِقَاتُ وَالْمُمَثِّلَاتِ... أَرَى
أَنَّهَا جَرِيمَةٌ آتِيَةٌ مِنْ ضَرْبِ الْخَاصِّ فِي الْعَامِ... (ضَحْك).

الْمَحَامِيَةُ: جَوَابٌ كَجَوَابِ الْقَاتِلِ: حُبُّ أَبِي بَكْرٍ: كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يُحِبُّ
زَوْجَتَهُ الْجَمِيلَةَ وَيُخَافُهَا، وَكَانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ قَسْوَةً عَظِيمَةً وَتُغْلِظُ لَهُ الْكَلَامَ، وَهُوَ
يُفَرِّقُ مِنْهَا وَلَا يُخَالِفُهَا؛ فَرَأَاهَا يَوْمًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَهَزَ الْفُرْصَةَ

ويشكّو قسوتها؛ فقال: يا فلانة قَدْ - واللّه - أحرّق قلبي... ولم تدعْهُ يُتَمَّ الكلمة، فحدّثَ نظرَها إليه وَقَطَّبْتُ^(١) وجهها وقالت: أحرّق قلبك ماذا؟ فخافَ ولم يقدِرْ أن يقولَ لها سُوءَ أخلاقك. فقال: حبُّ أبي بكرٍ الصديق - رضي الله عنه - . . . (ضحك) ورثت ضحكة المحامية فَأَضْطَرَبَتْ لها أَلْقُلُوب، ووقعت في كلِّ دم، وفي دمِ النائبِ أيضاً؛ فأنخزلَ ولم يزدْ على أن يقول: أحتجُّ من كلِّ قلبي... .

الرئيس: لنَدْخُلْ في الموضوع وَلَتَكُنِ المرافعةُ مطلقة؛ فإنَّ الحدودَ في جرائمِ أَلْقُلْبِ تُسَدَّلُ وتُرفعُ كهذه أَلَسْتائِرِ في مسرحِ التمثيل. وعشرون سِتارةً قد تكونُ كُلُّها لروايةٍ واحدة.

- النائب العام: يا حضرات المستشارين، لا يطولُ اتِّهامي؛ فإنَّ هذا أَلْقُلْبَ هو نفسهُ تهمةٍ متكلمة.

المحامية: ولكنَّه قلب.

النائب: وأنا يا سيدتي لم أحرّفِ الكلمةَ ولم أقلْ إِنَّه كلب. (ضحك) وتضرّج^(٢) وجهُ المحامية وخجلت.

- الرئيس: الموضوع الموضوع.

النائب: يا حضرات المستشارين، إنَّ أَلَمَ هذه الجريمةِ إمّا أن يكونَ في شخصٍ أَلْجاني أو مالِه، أو صِفَتِه كأن يكونَ زوجاً مثلاً، أو صِيتَه أَلْأدبي؛ فأما أَلْشخصُ فهذا ظاهر، وأما أَلْمالُ فنعم إنَّ أَلْقُلْبَ أَلْمسكينِ قرَّرَ لِنَفْسِه وَلِصاحِبِه أَلَّا يبتاعَ أبداً تذكرةَ دخولٍ إلى جهنم... (ضحك).

- المحامية: أستمحُ أَلْنائبَ عُذراً إذا أنا... إذا أنا فهمتُ من هذا أَلْتعبيرِ أنَّ حضرتَه يعرفُ على أَلْأقلِّ أين تُباعُ هذه «التذاكر»... (ضحك) وتفرّجَ وجهُ أَلْنائبِ العامِّ وخجل.

- الرئيس: كنْتُ رجوتُ أَلَّا تكونَ لِلأولى ثانية، وقلتُ: إنَّ معنى هذا كما هو ظاهرٌ أَلَّا يكونَ لها ثالثة؛ فهل أنا مُحْتَاجٌ إلى أَلْقَوْلِ بِأنَّ أَلْمعنى أَلْمنطقي أَلَّا يكونَ لِلثالثةِ رابعةٌ؟...

(١) قَطَّبْتُ: عبست.

(٢) تضرّج: تورّد احمراراً.

- النائب: يا حضرات المستشارين، وأما الصفة، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج؛ ولا تغرئكم صوفيّة هذا القلب، ولا يخدعنكم تألهه وزعمه السمو. إنّه على كلّ حالٍ يعشق راقصة، وهذا اعتداء في ضميمه اعتداء، على الزواج وعلى الكسوف؛ وهبوه متصوّفاً متألّها ولم يتصل بالراقصة، فهو على كلّ حالٍ قد أخذها وأخذها ولكن بأسلوبه الخاص... وبهذا اقترف الجريمة؛ آه! إنّ هذه القضية ناقصة؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً، فأتّموه أنتم. يا حضرات المستشارين، إنّ النقص فيها أنّها لا شهود فيها؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

- المحامية: هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته، هذا تعبير جسور^(١)! يا حضرة النائب، من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه، بل ألف شاهد على ليلة واحدة... يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أنّ النون والباء في لفظة (نائب) غير النون والباء في لفظة (نبي).

- النائب: يا حضرات المستشارين. لا أرى ممّا يُخرجني في الاتهام أنّ أصرّح لكم أنّ ممّا حيرني في هذه الجريمة أنّ ليس فيها من أوصاف الجرائم إلاّ ثلّم الكرامة، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور، ولا أصغر من ذلك، ولا كأس خمر للراقصة...

- المحامية: لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء، وسيجف حلقه في هذه القضية؛ فلعلّ المحكمة تأمر لي بكأس... (ضحك).

- النائب: يا حضرات المستشارين، يعشق راقصة؛ اسم فاعل من رقص يرقص؛ امرأة لا تلبس ثياباً، بل غريباً في شكل ثياب... امرأة لا كالنساء، كذبها هو صدق من شفيتها، لماذا؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان...

المحامية: تضحك...

- النائب بعد أن تتعج: امرأة لا كالنساء، جعلتها الحزفة امرأة في العمل، ورجلاً في الكسب...

(١) جسور: جرىء.

- المحامية: ولكنك لا تدري أي جمل سقطت فيه المسكينه، وقد يكون في الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب: ذات عظمة...

- النائب: يحب راقصة، أي يضعها في عقله الباطن ويشتتها؛ نعم يشتتها، فمن عقله الباطن، وبتعبير اللغة، من واعيته - تخرج الجريمة أو على الأقل، فكرة الجريمة.

والصيت الأدبي يا حضرات المستشارين؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة؟ لا بل هل من كرامة في الحب؟ ألم يقولوا: إن كرامة الرجل تكون تحت قدمي المرأة المعشوقة كالمسحة الخشنة تمسح فيها نعلها!

الحب؟ ما هو الحب؟ إنه ليس فكرة، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية، وهذا التركيب الحيواني للإنسان هو الذي يهيئ من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه؛ وهل رضي صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه، وعظيم ما أنتهك من أخلاقه السامية؟ هل رضي بعشقه راقصة؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح، أو رضي بقدر ما؛ فعلى كليهما يقوم في نفسه مانع؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة.

- المحامية: ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنة كما في القانون الإنجليزي، وقد قرّر الشراخ أنه ما دام الرضى غير مستلب بكلمه، فالجريمة غير واقعة بكلمها.

- النائب: جنة كل قلب هي جنة من هذا القلب بخصوصه، على طريقة «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»؛ والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية، وقد قرّر الشراخ أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً في تشديد العقوبة، فلا بد من تشديد العقوبة في هذه القضية. لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة.

- المحامية: قد نسي أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء.

- النائب: إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال: وهذا أشق عليه من العقاب بأثني عشرة مادة وبعشرين وثلاثين.

الرئيس: وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الجزمان؟

النائب: تأمر المحكمةُ بالمراقصِ كلها فتُغلق، وبالمسارحِ كلها فتُقفَل،
وبالسينما فتُبطَلُ إلا ما لا جمالَ فيه منها ولا غزل ولا حُب، ويُحرَمُ السفورُ
على النساءِ إلاّ العجائزَ والدميمات^(١)، ويُمنعُ نشرُ صورِ الجمالِ في الصحفِ
والكتب، ...

المحامية: قل في كلمةٍ واحدة: يجبُ إصلاحُ العالمِ كُلِّهِ لإصلاحِ القلبِ
الإنساني!

وجلسَ النائب، فألقتَ الرئيسُ إلى المحاميةِ وقال لها: وأما هو؟ ...

(١) الديميمات: البشعات.

القلب المسكين

تتمة

قالَ صاحبُ القلبِ المسكينِ : ووقفتَ المحاميةُ وكأنَّها بينَ الحُرَّاسِ تزدحمُ عليها من كلِّ ناحية ، وقد ظَهَرَتْ لِلْمُوجُودِينَ ظُهُورَ الْجَمَالِ لِلْحُبِّ ، ونقلتهم في الزَّمنِ إلى مثلِ السَّاعَةِ المصوَّرةِ الَّتِي ينتظرُ فيها الأَطْفَالُ سماعَ القِصَّةِ العجيبةِ ؛ ساعةٍ فيها كلُّ صورِ اللذةِ للقلبِ .

وكانتْ تُدافعُ بِكلاميها ووجهها يُدافعُ عن كلاميها ، فلو نطقَتْ غيًّا أو رُشداً فلهذا صَوَابٌ ولهذا صَوَابٌ ، لِأَنَّ أَحَدَ الصَّوَابِينَ منظورٌ بالأعين .

كانَ صوتُ النَّائِبِ العامِّ كلاماً يُسْمَعُ ويُفْهَمُ : أمَّا صوتُ المحاميةِ الجميلةِ فكانَ يُسْمَعُ ويُفْهَمُ ويَحْسُ وَيَذَاقُ ، تُلقِيهِ هي من ناحيةٍ ما يُدْرِكُ ، وتتلقَّاهُ النَّفْسُ من ناحيةٍ ما يُعَشِّقُ ؛ فهو مُتَّصِلٌ بِحَقِيقَتَيْنِ من معناه ومعناها ، وهو كُلُّهُ حلاوةٌ لِأَنَّهُ من فيها ألحلو .

وبدأتُ فتناولتُ من أشياءها مِرآةً صغيرةً فنظرتُ فيها .

- النائب العام : ما هذا يا أستاذة ؟

- المحامية : إنَّكم تزعمون أنَّ هذه الجريمةَ تأليفُ عيني ، فأنا أسألُ عينيَّ قبلَ أنْ أتكلَّم !

- النائب : نعم يا سيِّدتي ، ولكنِّي أرجو ألاَّ تُدخلِي القِضيةَ في سِرِّ المرأةِ وأخواتها . . . إِنَّ النِّبَاةَ تخشى على آتِهامِها إذا تَكَلَّحَتْ لُغَةُ الدِّفاعِ !
فضحكَّتِ المحاميةُ ضِحْكَةً كانتْ أوَّلَ ألبلاغةِ المؤثرة . . .

- النائب : مِنَ الْوَقَارِ الْقانونيِّ أنْ تكونَ المحاميةُ الْفَتَّانَةُ غيرَ فتانَةٍ ولا جَذَابَةٍ أمامَ المحكمةِ .

- المحامية: تُريدُ أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة...؟ (ضحك).
- النائب: جمالٌ حسناء، في ظرفٍ غانية، في شمائلٍ راقصة، في حماسة عاشقة، في ذكاءٍ مُحامية، في قُدرةٍ حُبٍ - هذا كثير!
- المحامية: يا حضراتِ المستشارين، لم تكنِ المرأةُ هفوةً من طبيعةِ المرأة، ولكنها الكلمةُ الأولى في الدفاع، كلمةٌ كانَ الجوابُ عنها مِنَ النائبِ العامِّ أنه أقرَّ بتأثيرِ الجمالِ وخطَرِهِ، حتى لقد خشيَ على اتهامِهِ إذا تكلَّمتُ له لغتي.
- القضاة يتبسمون.
- النائب: لم أزد على أن طلبتُ أَلوقارَ أَلقانوني، أَلوقار، نعم أَلوقار؛ فإنَّ المحاميةَ أمامَ المحكمة، هي متكلِّمٌ لا متكلِّمة.
- المحامية: متكلِّمٌ بِلِحيةٍ مُقدَّرةٍ منعَ من ظهورِها أَلتعدُّر (ضحك)...
- كلا يا حضرةَ النائب؛ إنَّ لهذهِ أَلقضيةِ قانوناً آخرَ تُنتزعُ منه شواهدُ وأدلة؛ قانونٌ سحرَ المرأةَ لِلرجل، فلو أقتضاني أن أرقصَ لرقصت، أو أغنيَ لغنيت، أو سحرَ أَلجمالِ لأثبتهُ أولَ شيءٍ في النائب...
- الرئيس: يا أستاذة!
- المحامية: لم أجاوزِ أَلقانون، فأَلنائبُ في جريمَتنا هو خصمُ أَلقضية، وهو أيضاً خصمُ أَلطبيعةِ أَلنسوية.
- النائب: لو حدثَ من هذا شيءٌ لكانَ إِيحاءٌ لِعواطفِ أَلمحكمة... فأنا أحتج!
- المحامية: أحتجُّ ما شئت، ففي قضايا أَلحُبِّ يكونُ أَلعدلُ عدلين؛ إذ كانَ أَلاضطرارُ قد حكمَ بِقانونِهِ قبلَ أن تَحكمَ أنتِ بِقانونِكَ.
- النائب: هذهِ أَلعُقْدةُ لَيْسَتْ عُقْدةُ في منديلٍ يا سيدي، بل هي عُقْدةُ في أَلقانون.
- المحامية: وهذهِ أَلقضيةُ لَيْسَتْ قضيةُ إِيحاءٍ دارٍ يا سيدي، بل هي قضيةُ إِيحاءٍ قلب!
- الرئيس: الموضوع، الموضوع!
- المحامية: يا حضراتِ أَلمستشارين، إذا أُنْفى أَلقصدُ أَلجَنائِي وجَبَتْ أَلبراءة.
- هذا مبدأ لا خِلافَ عليه؛ فما هو أَلفعلُ أَلوجودي في جريمةٍ قلبي أَلمسكين؟

- النائب: أوله حب راقصة .

- المحامية: آه! دائماً هذا الوصف؟ هبوا في معناها غير جديرة بأن يعرفها لأنه رجل تقي، أفليست في حُسنها جديرة بأن يُحبها لأنه رجل شاعر؟ أحكموا يا حضرات القضاة؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق، ومعنى ذلك أنها رهنٌ بأسبابها، ومعنى هذا أنها خاضعةٌ للكلمة التي تدفع... فلماذا لم ينلها وهي متعرضةٌ له، وكلاهما من صاحبه على النهاية، وفي آخر أوصاف الشوق؟ أليس هذا حقيقةً بإعجابكم القانوني كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوةً فكر، فما الذي يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها؟..

- القضاة يتسّمون .

- النائب: نسيت المحامية أنها محاميةٌ وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على النهاية وفي آخر أوصاف السوق... فأرجو أن ترجع إلى الموضوع، موضوع الراقصة .

- المحامية: آه! دائماً الراقصة، من هي هذه المسكينة الأسيرة في أيدي الجوع والحاجة والاضطرار؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة؟ أليست هي الجائعة التي لا تجد من الفاجرين إلا لحم الميتة؟ نعم إنها زلت، إنها سقطت، ولكن بماذا؟ بالفقر لا غير، فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها، وفقر العدل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهملها! يا للرحمة لليتيمة من الأهل، وأهلها موجودون! والمنقطعة من الناس، والناس حولها!

تقولون: يجب ولا يجب، ثم تدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط، قلتم له: شائك بنفسك، ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرةً أخرى، - ويحكم يا قوم - غيروا اتجاه الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد، تخرج لكم مسبات أخرى غير فاسدة .

تأتي المرأة من أعمال الرجل لا من أعمال نفسها، فهي تابعة وتظهر كأنها متبوعة؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة، يظلمها الاجتماع ظمناً آخر فآخذها وحدها بالجريمة، ويُقال ساقلة، وساقطة؛ وما جاءت إلا من سافلٍ وساقط!

لماذا أوجبت الشريعة الرجم بالحجارة على الفاسق المُحصن^(١)؟ أهي تريد القتل والتعذيب والمثلة^(٢)؟ كلا؛ فإن القتل مُمكنٌ بغير هذا وبأشد من هذا، ولكنها الحكمة السامية العجيبة: إن هذا الفاسق هدم بيتاً فهو يُرجم بِحِجَارَتِهِ! ما أجلك وأسماك يا شريعة الطبيعة! كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا أنهدم.

تستسقطون المسكينة، ولو ذكرتم آلامها لوجدتم في ألسنتكم كلمات الإصلاح والرحمة لا كلمات الدّم والعار؛ إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق؛ فهل معنى هذا إلا أنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوتها؟ نعم إن ذلك معنى الفجور، ولكن أليس هو نفسه معنى ألقوت أيها الناس؟

- الرئيس وهو يمسح عينيه: الموضوع الموضوع!

- المحامية: ما هو الفعل الوجودي في جريمة قلبي المسكين؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثل بنفسه للشباب في تسامي غريزته عن معناها إلى أظهر وأجمل من معناها؟ لبس القانون إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل ديني من أعمال الفضيلة!

- النائب: ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة؟

- المحامية: ومم يخجل؟ أمن جمال شعوره أم من فن شعوره؟ أيخجل من عظمة في سمو في كمال؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهي نفسها أعمال النصر والمجد؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبه وأن أظهر شيئاً من سرّ فنّها الذي هو سرّ أليان في فنّه؟

- النائب: إنها تتماجن علينا يا حضرات المستشارين، فالذي يُحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجة...

- الرئيس: لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة.

(١) المحصن: الذي تحصن بالزواج.

(٢) المثلة: التعذيب والتغريير.

- المحامية: كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيات المتكلمين بها أو المُضغين إليها؛ فكلمة الحب مثلاً قد تنتهي إلى فكرٍ من الأفكار حاملة معنى الفجور، وهي بعينها تبلغ إلى فكرٍ آخر حاملة إلى سموه من سموها؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوروبيين؛ فالأصل في مدنيّة هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفة... وإكرام المرأة إكرام مغازلة... يقولون إنَّ رقم الواحد غير رقم العشرة، فيضعونه في حياة المرأة، فما أسرع ما يجيء «الصفّر» فإذا هو العشرة بعينها!

أما الشرقيون فالأصل في مدنيّتهم التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها، لا جرّم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين: الاستبداد والعدل، والقسوة والرحمة،...

- النائب: وأمرأة ألبيت وأمرأة الشارع...

- المحامية: وبصر القانون وعمى القانون...

- الرئيس: وحسن الأدب وسوء الأدب... الموضوع الموضوع.

- المحامية: لا والذي شرفكم بشرف الحكم، يا حضرات المستشارين؛ ما يرى القلب المسكين في حبيته إلا تعبير الجمال، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن، وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرّفت إليه فيها، أين أحسن الشاعر سراً من أسرار الطبيعة في منظرٍ من مناظرها، قلتم أجرم وأثم؟...

هذا قلب ذو أفكار، وسبيله أن يُعان على ما يتحقّق به من هذا الفن، قد تقولون: إنَّ في الطبيعة جمالاً غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط منها؛ ولكن ما الذي يحيي الطبيعة إلا أخذها من القلب؟ وما هي طريقة أخذها من القلب إلا بالحب؟ وقد تقولون: إنّه يتألّم ويتعذب؛ ولكن سلوه: أهو يتألّم بأدراكه الألم في الحب، أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار التعقيد في الخير والشر...؟

إنَّ شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا في أحد الطرفين: هم أكبر من ألهم، فرح أكثر من الفرح؛ فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذي لا يكون الحب المعتدل إلا فيه؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة.

هذا قلب مختار من القدرة الموجية إليه، فالتّي يحبها لا تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك ألوحى، وهما بهذا قوتان في يد الجمال لإيداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتا هما عظيمة...

فإن قُلْتُمْ إِنَّ حُبَّ هَذَا الْقَلْبِ جَرِيْمَةٌ عَلَى نَفْسِهِ، قَالَتِ الْحَقِيقَةُ الْفَنِّيَّةُ: بَلِ
أَمْتَنَاعُ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ جَرِيْمَةٌ.

إنَّ خَمْسِينَ وَخَمْسِينَ تَأْتِي مِنْهُمَا مِائَةٌ، فَهَذَا بِدِيْهِئٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ أَبَيَّنَ وَلَا
أَظْهَرَ وَلَا أَوْضَحَ مِنْ قَوْلِنَا: إِنَّ هَذَا الْعَاشِقَ وَهَذَا الْمَعْشُوقَةَ يَأْتِي مِنْهُمَا فَنٌّ.

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ: وَأَنْصَرَفَ الْقَضَاءُ إِلَى عُرْفَتِهِمْ لِيَتَدَاوَلُوا الرَّأْيَ
فِيْمَا يَحْكُمُونَ بِهِ، وَأَوَامَاتُ لِيِ الْمَحَامِيَّةِ الْجَمِيلَةِ تَدْعُونِي إِلَيْهَا، فَنَهَضْتُ أَقُومُ فَإِذَا
أَنَا جَالِسٌ وَقَدْ أَتْبَهْتُ مِنَ النَّوْمِ.

جَائِزَةٌ: لِمَنْ يُحَسِّنُ كِتَابَةَ الْحَكَمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ خَمْسُ نَسَخٍ مِنْ كِتَابِ (وَحْيِ
الْقَلَمِ)، وَتُرْسَلُ الْمَقَالَاتُ (بِأَسْمِنَا إِلَى طَنْطَا)، وَالْمَوْعِدُ (إِلَى آخِرِ شَهْرِ يَنَآيِرِ هَذَا)
وَالْشَّرْطُ رِضَى الْمَحْكَمِينَ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ وَصَاحِبَتُهُ...

انتصار الحب

كلُّ ما يُكتبُ عن حبيبٍ لا يفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما
ينظرُ إلى وجه الآخر .

وما تعرفهُ العينُ من العينِ لا تعرفهُ بالفاظ ، ولكن بأسرار ...
وَالْغَلِيلُ الْمَتَسَعِرُ^(١) في دم العاشقِ كجنونِ المجنون : يختصُّ برأسِهِ وحدَهُ .
وضمَّةُ الْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ إحساسٌ لا يُستعارُ من صدرٍ آخر ، كما لا يُستعارُ
المولودُ لِبطنٍ لم يحمله .

وكلمةُ الْقُبْلَةِ التي معناها وضعُ ألفم ، لن ينتقلَ إليها ما تذوقهُ الشفتان !
ويومُ الْحَبِّ يومٌ ممدود ، لا ينتهي في الزمنِ إلَّا إذا بدأ يومُ السُّلُو في
الزمن ...

فهل يستطيعُ الخَلْقُ أن يصنعوا حَدًّا يفصلُ بينَ وقتينِ لينتهي أحدهما ... ؟
وهبهم صنعوا السُّلوانَ من مادةِ النصيحةِ وَالْمَنْفَعَةِ ، ومن ألفِ برهانٍ وبرهان ،
فكيف لهم بِالْمَسْتَحِيلِ ، وكيف لهم بوضعِ السُّلوانِ في القلبِ العاشقِ ؟
وإذا سالتِ النفسُ من رِقَّةِ الْحَبِّ ، فبأي مادةٍ تُصنعُ فيها صلابَةُ الْحَجَرِ ... ؟

وما هو الْحَبُّ إلَّا إظهارُ الجِسمِ الجميلِ حاملاً للجِسمِ الآخرِ كلَّ أسرارِهِ ،
يفهمُها وحدَهُ فيه وحدَهُ ؟

وما هو الْحَبُّ إلَّا تعلقُ النفسِ بالنفسِ التي لا يملؤها غيرها بِالْإِحْسَاسِ ؟
وما هو الْحَبُّ إلَّا إشراقُ النورِ الذي فيه قوَّةُ الْحَيَاةِ ، كنورِ الشَّمْسِ مِنْ
الشَّمْسِ وحدَها ؟

وهل في ذهبِ الدُّنيا ومِلْكِ الدُّنيا ما يشتري الأسرارَ ، وَالْإِحْسَاسَ ، وذلك
النورُ الحيُّ ... ؟

(١) المتسعر: الملهب .

فما هو الحبُّ إلا أنه هو الحبُّ؟

ما هو هذا السرُّ في الجمالِ المعشوق، إلا أنَّ عاشقَهُ يدرُكُهُ كأنَّهُ عقلٌ للعقل؟
وما هو هذا الإدراكُ إلا أنَّحصارُ الشعورِ في جمالٍ متسلِّطٍ كأنَّهُ قلبٌ للقلب؟
وما هو الجمالُ المتسلِّطُ بإنسانٍ على إنسانٍ، إلا ظهورُ المحبوبِ كأنَّهُ روحٌ للروح؟
ولكنَّ ما هو السرُّ في حُبِّ المحبوبِ دون سِواه؟... هنا تقفُ المسألةُ
وينقطعُ الجوابُ.

هنا سرٌّ خفيٌّ كسرُّ الوحدايةِ، لأنَّها وحدانيةٌ (أنا وأنت).

ناقشوا الحبَّ؛ فقالوا: أصبحت الدنيا دنيا المادة، والروحانيةُ اليومَ كالعظامِ
الهرمةِ لا تكتسي اللحمَ العاشق...
وقال الحبُّ: لا بل المادةُ لا قيمةَ لها في الروح؛ وهذا القلبُ لن يتحوَّلَ إلى
يدٍ ولا إلى رجلٍ...

ناقشوا الحبَّ؛ فقالوا: إنَّ العصرَ عصرُ الآلات، والعملُ الروحيُّ لا وجودَ له
في الآلةِ ولا مع الآلة...

قال الحبُّ: لا، يصنعُ الإنسانُ ما شاء، ويبقى القلبُ دائماً كما صنعه الخالق...
وقالوا: الضعيفان: الحبُّ والدين، والقويان: المالُ والجاه؛ فماذا ردُّ الحبِّ؟...

جاء بلؤلؤة روحانية في (مسز سمبسون)؛ ووضع لها في ميزانِ المالِ والجاهِ
أعظمَ تاجٍ في العالمِ إدواردُ الثامن «ملكُ بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكاتِ
البريطانية فيما وراء البحارِ وملك - إمبراطور الهند».

وتنافسَت الروحانيةُ والماديةُ، فرجعَ التاجُ وما فيه إلا أضعفُ المعنيينِ مِنَ
القلبِ.

وأعلنَ الحبُّ عن نفسه بإحدثٍ اختراعٍ في الإعلان، فهزَّ العالمَ كلُّه هزَّةً
صحافيَّة:

الحُب. الحُب. الحُب...

(مسز سمبسون)، تلك الجميلة بنصف جمال، المطلقة مرتين. هذا هو اختيار الحب!

ولكنها المعشوقة؛ وكل معشوقة هي عذراء لحبيبها ولو تزوجت مرتين؛ هذا هو سر الحب!

ولكنها ألفتنة كل الفتن، والظريفة كل الظرف، والمرأة كل المرأة، هذا هو فعل الحب!

ولكنها ألعقل للأعصاب المجنونة، والأنس للقلب المستوحش، والنور في ظلمة الكآبة؛ هذا هو حكم الحب!

ومن أجلها يقول ملك إنجلترا للعالم: «لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التي أحبها»؛ فهذا هو إعلان الحب...

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه، فذلك معنى من الذبح.

وإذا أنتزعوها أنتزعوها من نفسه، فذلك معنى من القتل.

وهل في غيرها هي روح الלהفة التي في قلبه، فيكون المذهب إلى غيرها؟
لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة.

وكأنهم يريدون منه أن يُجن جنوناً بعقل... هذا هو جبروت الحب!

وللسياسة حُجج، وعند (مسز سمبسون) حُجج، وعند الهوى...

التاج، الملكية، امرأة مُطلقة، امرأة من الشعب؛ فهذا ما تقوله السياسة.

ولكنها امرأة قلبه، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاع ثلاث زوجات؛ وهذا ما يقوله الحب!

واللحظة الناعسة، والابتسامة النائمة، والإشارة الحالمة، وكلمة (سيدي)؛
هذا ما يقوله الجمال.

وأنتصر الحب على السياسة. وأبى المليك أن يكون كالأرملة في ملك
أولادها الكبار...

العرش يقبل رجلاً خلفاً من رجل، فيكون الثاني كالأول.

وَالْحُبُّ لَا يَقْبَلُ أَمْرًا خَلْفًا مِنْ أَمْرَةٍ، فَلَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى .
وِطَارَتْ فِي الْعَالَمِ هَذِهِ الرِّسَالَةُ: «أَنَا إِدْوَارْدُ الثَّامِنُ . . . أَتَخَلَّى عَنِ الْعَرْشِ
وَذَرِيتِي مِنْ بَعْدِي!»
«وَأَعْلَنَ الْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحَدِ أَخْتِرَاعٍ فِي الْإِعْلَانِ؛ فَهَزَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ هَزَّةً
صَحَافِيَّةً» .
الْحُبُّ . الْحُبُّ . الْحُبُّ . . .

قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر ..

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية؛ لقد كتبتم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين...

كلمات «لو أنتسبن لانتسبت كل واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله.

فطلب تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمي إلى هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾^(١).

وطلب الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وطلب إيجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق، إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا. حياكم الله يا شباب الجامعة؛ لقد كتبتم الكلمات التي يصفق لها العالم الإسلامي كله.

كلمات ليس فيها شيء جديد على الإسلام، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها.

كلمات القوة الروحية التي تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوة النصر لا بعوامل الهزيمة.

كلمات الشباب الطاهر الذي هو حركة الرقي في الأمة كلها، فسيكون منها المحرك للأمة كلها.

(١) الرجس: الدنس.

كلمات ليست قوانين، ولكنها ستكون هي السبب في إصلاح القوانين . . .
قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق: إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

يُريدُ الشبابُ مع حقيقة العلم حقيقة الدين، فإنَّ العلم لا يُعلم لا يُعلم الصبر
ولا الصدق ولا الدمة.

يُريدون قوة النفس مع العقل، فإنَّ القانون الأدبي في الشعب لا يضعه العقل
وحده ولا يُنفذه وحده.

يُريدون قوة العقيدة، حتى إذا لم ينفعهم في بعض شوائد الحياة ما تعلموه
نفعهم ما اعتقدوه.

يُريدون السمو الديني، لأنَّ فكرة إدراك الشهوات بمعناها هي فكرة إدراك
الواجبات بغير معناها.

يُريدون الشباب السامي الطاهر من الجنسين، كي تولد الأمة الجديدة سامية
طاهرة.

قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق؛ إنَّ الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

أحسن الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من
الدين .

وما هي الفضائل إلا قوة المناعة من أصدادها؟ فالصدق مناعة من الكذب
والشرف مناعة من الخسة .

والشباب المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها؛ وهل الدين إلا فروض القوة
على النفس؟

وشباب الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعي، يُنفق دائماً ولا
يكسب أبداً

والمدراس تُخرج شبابها إلى الحياة، فتسألهم الحياة: ماذا تعودتُم لا ماذا
تعلمتُم!

قوة الأخلاق يا شباب، قوة الأخلاق؛ إنَّ الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

وأَحْسَ الشَّبَابُ معنى كثرة الفتيات في الجامعة، وأدركوا معنى هذه الرُّقَّة التي خلَقَتْها الْحِكْمَةُ الْخَالِقة .

وَالْمَرْأَةُ أداة أَسْتَمَالَةٍ بِالطَّبِيعَةِ، تعملُ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ ما تعملُهُ بِالإِرَادَةِ، لِأَنَّ رُؤْيَهَا أولُ عملِها .

نعم إِنَّ الْمَغْنَطِيسَ لا يتحرَّكُ حينَ يجذبُ، ولكنَّ الْحَدِيدَ يتحرَّكُ لَهُ حينَ ينجذبُ !

ومتى فهمَ أحدُ الْجَنَسَيْنِ الْجَنَسَ الْآخَرَ، فهمُهُ بِإِدْرَاكِينِ لا بِإِدْرَاكِ واحد! وجمالُ الْمَرْأَةِ إذا أَنْتَهَى إلى قلبِ الرِّجْلِ، وجمالُ الرِّجْلِ إذا أَسْتَقَرَّ في قلبِ الْمَرْأَةِ . . .

. . . هما حيثنَّذِ معنيان . ولكنَّهُما على رِغْمِ أَنْفِ الْعِلْمِ معنيانِ متزوجان . . .

لا، لا؛ يا رجالَ الجامعة، إِنَّ كَانَ هُناكَ شَيْءٌ أَسْمُهُ حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ فليسَ هُناكَ شَيْءٌ إِسْمُهُ حُرِّيَّةُ الْأَخْلَاقِ .

وتقولون: أوربا وتقليدُ أوربا!! ونحنُ نُريدُ الشَّبَابَ الَّذِينَ يعملونَ لاسْتِقْلالِنا لا لَخُضُوعِنا لِأوربا .

وتقولون: إِنَّ أَلْجَامِعَاتِ ليست محلُّ الدِّينِ، ومنَ الَّذِي يجهلُ أَنَّها بهذا صارتَ محلًّا لِفُوضَى الْأَخْلَاقِ .

وتزعمون أَنَّ الشَّبَابَ تعلموا ما يكفي مِنَ الدِّينِ في الْمَدارسِ الْابتدائيةِ وَالثانويةِ فلا حاجةَ إِلَيْهِ في الجامعة . .

أَفْتَرُونَ الْإِسْلَامَ دَرُوساً ابْتدائيةً وَثانويةً فقط؛ أَمْ تُريدونَهُ شجرةً تُغرسُ هُناكَ لِتُقْلَعَ عِنْدَكُم . . .

لا، لا؛ يا رجالَ الجامعة، إِنَّ قَبِيلَةَ الشَّبَابِ الْمُجَاهِدِ تُملأُ بِالْبَارُودِ لا بِالْماءِ الْمَقْطَرِّ . . .

إِنَّ الشَّبَابَ مخلوقونَ لِغَيْرِ زَمَانِكُمْ، فلا تُفسدوا عَلَيْهِمُ الْحَاسَةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي يُحْسِنُونَ بِها زَمَنَهُم .

لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال؛ إنَّهم تلاميذكم، ولكنَّهم أيضاً أساتذةُ الأُمَّة.

لقد تكلمَ بلسانكم هذا البناءُ الصَّغيرُ الذي يُسمَّى الجامعة، وتكلَّم بالسنتِّهم هذا البناءُ الكبيرُ الذي يُسمَّى الوطن.

أمَّا بناؤُكم فمحدودٌ بالآراءِ والأحلامِ والأفكار، وأمَّا الوطنُ فمحدودٌ بالمطامعِ والحوادثِ والحقائق.

لا، لا؛ إنَّ المسلمينَ الذين هدَّوا العالمَ، قد هدَّوه بِالروحِ الدِّينيَّةِ التي كانوا يعملون بها لا بأحلامِ الفلاسفة.

لا، لا؛ إنَّ الفضيلةَ فطرةٌ لا عِلْمٌ، وطبيعةٌ لا قانون، وعقيدةٌ لا فكرة؛ وأساسُها أخلاقُ الدِّينِ لا آراءُ الكُتُب...

مَنْ هذا الـمـتـكـلِّمُ يقولُ لِلأُمَّةِ: «الجامعيون لن يقبلوا أن يدخلَ أحدٌ في شؤونهم مهما يكن أمره»؟

أهذا صوتُ جرسِ المدرسةِ لِأطفالِ المدرسةِ يرنُ يرنُ... فيجتمعون وينصاعون؟

كلا يا رجل! ليسَ في الجامعةِ قلبٌ يُصبُّ فيه المسلمونَ على قياسِكَ الَّذي تُريد.

إنَّ التَّعليمَ في الجامعةِ بغيرِ دينٍ يعصمُ الشَّخصيَّةَ، هو تعليمُ الرَّذيلةِ تعليمُها العالِي...

﴿وَيَسْتَشِيرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقٍ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

قوَّةُ الأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ الأخلاق...؛ إنَّ الخطوةَ المتقدِّمةَ تبدأ من هنا.

شيطان وشيطانة...

شَغَلَنِي مَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ حَدِيثِ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلِبْتُهَا مِنْ وَرَعٍ يَخْجِزُهُمْ^(١) عَنْ مُحَارَمِ اللَّهِ، وَدِينِ يَخْلُصُ بِهِ إِلَى الْإِيمَانِ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقَةٍ؛ ثُمَّ ابْتَعَوْهُ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الشَّبَانِ وَالْفَتَيَاتِ، تَطْهِيراً لِلطَّبَاعِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ، وَاتَّقَاءَ لِسُوءِ الْمَخَالَطَةِ، وَبُعْداً عَنْ مَطْيَةِ الْإِثْمِ، وَتَوْفِيراً لِأَسْبَابِ الرَّجُولَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ الْأُنُوثةِ عَلَى الْأُنْثَى.

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرَتْهُ الصَّحَفُ، وَأَسْتَقْصَيْتُ^(٢) وَبَالِغَتْ، وَنَظَرْتُ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا وَمَعَانِي مَعَانِيهَا؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَّبِعُ بَابَ «فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ» فِي الْمَجَلَّاتِ الْأَسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ الْأَخْتِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ وَتُسَمِّي الْأَسْمَاءَ وَتَصِفُ الْأَوْصَافَ وَتَذَكُرُ الْنَوَادِرَ؛ فَمَلَأْتُ كُلَّ ذَلِكَ صَدْرِي وَاجْتَمَعَ الْكَلَامُ يُتَرَجِّمُ نَفْسَهُ إِلَيَّ فِي رُؤْيَا رَأَيْتُهَا وَهَآنَذَا أَقْصُهَا:

رَأَيْتُنِي عِنْدَ بَابِ الْجَامِعَةِ وَكَأَنِّي ذَاهِبٌ لِأَقْطَعَ بِالْيَقِينِ عَلَى الظَّنِّ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الظَّنَّ يَقُومُ فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَقَامَ الْحَقِيقَةِ، لِبُخْفَائِهَا وَكَثْرَةِ وُجُودِهَا؛ فَإِنْ كَانَ فِي اخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ مَا يُخْشَى أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَالْوَقَاعِ...

... ثُمَّ رَأَيْتُ شَيْطَانَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْجَامِعَةِ وَمَضَتْ تَتَّبِعُ أَنْفَهَا تَتَشَمُّمُ الْهَوَاءَ وَتَسْتَرْوِحُهُ كَأَنَّ فِيهِ شَيْئاً، حَتَّى مَالَتْ إِلَى حَمَرٍ هُنَاكَ^(٣) مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ الْمَلْتَفِّ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ، فَوَقَفَتْ عِنْدَهُ تَتَنَفَّسُ وَتَتَنَهَّدُ؛ ثُمَّ تَبَصَّرَتْ فَإِذَا شَيْطَانٌ مُقْبِلٌ إِلَى الْجَامِعَةِ إِقْبَالَ الْمَغِيرِ فِي غَارَتِهِ، فَأَوْمَأَتْ لَهُ، فَعَدَلَ إِلَيْهَا وَحَيَّاهَا بِتَحِيَّةِ الشَّيَاطِينِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: مَا وَقُوفُكَ هُنَا أَيُّهَا الْخَبِيثَةُ؟ وَكَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتَكَ الَّتِي أَنْتِ مُوَكَّلَةٌ بِهَا؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَعْمَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ إِذَا لَمْ تُؤَازِرْهُ الشَّيْطَانَةُ؟

(١) يَحْجِزُهُمْ: يَصُدُّهُمْ، يَمْنَعُهُمْ.

(٢) اسْتَقْصَيْتُ: فَتَشْتُ.

(٣) الْحَمَرُ بِالْفَتْحِ الْمِيمُ، هُوَ مَا وَرَأَكَ مِنْ شَجَرٍ وَسَوَاهٍ.

قَالَتْ: إِنَّمَا أَجْتَذِبْتَنِي إِلَى هُنَا رَائِحَةُ عَاشِقَيْنِ كَانَا فِي هَذَا الظِّلِّ يُوَارِيهِمَا^(١)
عَنِ الْأَعْيُنِ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مَزْكُومًا، أَفَكُنْتَ فِي الْأَزْهَرِ...؟

فَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يَتَضَاخَكُ وَقَالَ: أَنَا مَرْسَلٌ مِنْ مَسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ مَدَدًا
لِشَيَاطِينِ الْجَامِعَةِ؛ فَقَدْ أَحْتَاجُوا إِلَى النُّجْدَةِ... وَلَكِنْ أَنْتِ كَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتَكَ
مِنْ أَجْلِ رَائِحَةِ قُبْلَةٍ عَلَى خَمْسَمِائَةِ مِترٍ؟ مَا أَحْسَبُهَا الْآنَ إِلَّا جَالِسَةً تَكْتُبُ فِي مَنَعِ
اِخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ وَوُجُوبِ إِدْخَالِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ فِي الْجَامِعَةِ!

قَالَتْ الشَّيْطَانَةُ: إِنَّ صَاحِبَتِي لِأَبْرَعُ مَنِيَّ فِي الْبِرَاعَةِ، وَأَدْقُ فِي الْحِيلَةِ.
وَأَهْدَى لِلْمَعَاذِيرِ، وَأَنْفَذَ إِلَى الْغَرَضِ، وَمَثَلُهَا قَلِيلٌ هُنَا، وَلَكِنْ قَلِيلٌ أَشْرٌ لَيْسَ
قَلِيلًا، فَإِنَّهُ وَضْلَةٌ وَطَرِيقٌ كَمَا تَعْلَمُ؛ وَمَا تَجِدُ الْفَتَاةَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ يَنْفِي عَنْهَا
الرَّبِيبَةَ وَهُوَ يُدْنِيهَا مِنْهَا بِهَذَا الْاِخْتِلَاطِ مَعَ الْفَتَيَانِ، وَيُهَيِّئُ لِعَقْلِهَا أَسْبَابًا تَكُونُ فِيهَا
أَسْبَابُ قَلْبِهَا؛ وَقَدْ كُنْتُ أَنْتِ فِي أَوْرِبَا، أَفَمَا رَأَيْتِ هُنَاكَ شَابًا وَشَابَةً حَوْلَ كِتَابِ
عِلْمٍ وَكَانَهُمَا عَلَى زُجَاجَةٍ خَمْرٍ؟

إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ شَيْءٌ وَمُخَالَطَةُ الشَّبَابِ شَيْءٌ آخَرُ؛ فَذَلِكَ يُطْلِقُ فِكْرَهَا يَتَجَاوَزُ
الْحُدُودَ، وَالْاِخْتِلَاطُ يَجْعَلُ فِكْرَهَا، يَحْضُرُهَا فِي حُدُودِ إِحْسَاسِهَا؛ وَأَحَدُهُمَا يُرْهِفُ
ذَهْنَهَا لِإِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ، وَالْآخَرُ يُزْهِفُ عَوَاطِفَهَا لِإِدْرَاكِ الرَّجُلِ؛ وَقَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِنْ
خَلْقَةِ الْإِنْسَانِ فَمَا تَخْلُقُ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى غَيْرِ الطَّبِيعَةِ الْمَفْطُورَةِ عَلَى الْحُبِّ فِي
صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ الْمُمَكِّنَةِ، وَالصُّورَةُ هِيَ الشَّابُّ هُنَا؛ وَأَنَا الشَّيْطَانَةُ قَدْ تَعَلَّمْتُ فِي
الْجَامِعَةِ أَنَّ قَاعِدَةَ: «لَا حَيَاءَ فِي الْعِلْمِ»، هِيَ الَّتِي تُقَرَّرُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَاعِدَةٌ:
«لَا حَيَاءَ فِي الْحُبِّ!»

قَالَ الشَّيْطَانُ: أَنْتِ أَدْرَى بِسُلْطَانِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ، وَلَكِنْ الَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَا أَنَّ
مَفَاسِدَ أَوْرِبَا تَدْخُلُ إِلَى الشَّرْقِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا الْخَمْرُ وَالنِّسَاءُ وَالْعَادَاتُ
وَالْقَوَانِينُ وَالْكِتَابُ وَنِظَامُ الْمَدَارِسِ!

قَالَتْ الشَّيْطَانَةُ: وَإِنَّ سُلْطَانَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ يَبْحَثُ دَائِمًا عَنْ رَعِيَّتِهِ مَا لَمْ
يُكَبِّحْ^(٢) وَيُرَدِّدْ عَنْ الْبَحْثِ؛ إِذْ هُوَ لَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ سُلْطَانٌ إِلَّا بِتَفَاضُلِ حُكْمِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ؛
وَمِنْ رَعِيَّتِهِ نَظَرَاتُ الْإِعْجَابِ، وَكَلِمَاتُ الثَّنَاءِ، وَعِبَارَاتُ الْإِغْرَاءِ، وَعَوَاطِفُ الْمِيلِ،
وَمَعَانِي الْخُضُوعِ؛ وَرُبَّ كَلِمَةٍ مِنَ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ وَيَكُونُ الرَّجُلُ

(١) يُوَارِيهِمَا: يَسْتَرُهُمَا.

(٢) يُكَبِّحُ: يَشُدُّ وَيَمْنَعُ.

كله فيها ذاهباً إلى قلبها متدسساً إلى خيالها؛ وكم من أم ترى أبتتها راجعة إلى الدار وتحس بالغريزة النسوية أن مع أبتتها خيالاً من الجنس الآخر!

ومم ينبعث الحب إلا من الألفة والمخالطة والمُجاذبة والمُنازعة التي يُسمونها هنا مُنافسة بينَ الجنسين ويعُدونها حسنة من حسنات الاختلاط؟ نعم إنها مشحذة للأذهان وداعية إلى بلوغ الغاية من الاجتهاد، وبها يرقُ اللسان وتنحل عُقدته، ويصبح الشاب كما يقولون: «أبن نكتة ويفهم أطايره...» وتعود الفتاة وهي تجتهد أن تكون حلاوة تذوقها الروح؛ ولكن الأعمال بالنيات والأُمور بخواتيمها: والطبيعة نفسها توازن العقل العلمي بالجهل الخلقي، ولعل أكثر الناس فنوناً في فسقه وفجوره لا يكون إلا عالماً من أهل الفن أو زنديقاً من أهل العلم، ولا يصحح هذه الموازنة إلا الدين، فهو الذي يقرر القواعد الثابتة في كلتا الناحيتين، وهذا ما يطلبه المجانين من شبان هذه الجامعة ويوشك أن يظفروا به، لولا أن هذه الأُمَّ مبتلاة في كل حادثة من دينها بإجالة الرأي حتى يضع الرأي.

اسمع - ويحك - هذا الفتى الذي يقرأ... فألقى الشيطان سمعه فإذا طالب يقرأ على جماعة كلاماً في صحيفة لإحدى خريجات الجامعة تقول فيه: «ولهذا أصرح أن تجربة اشتراك الجنسين في الجامعة نجحت إلى أبعد غاية: ولم يحدث خلالها قط ما يدعو إلى قلق القلقين والمُنادة بالفصل؛ بل بالعكس حدث ما يدعو إلى تشجيع الأخذ بالتجربة أكثر مما هي عليه اليوم».

فقهقه الشيطان وقال: «قلق القلقين»... ما رأيتُ كلاماً أغلظ ولا أجفى من هذا؛ إنها لو دافعت عن الشيطان بهذه القافات لخسر القضية...

ثم إنه لهز^(١) الشيطانة لهزة وقال لها: كذبت عليّ أيتها الخبيثة، فما لكِ عمل في الجامعة وأنت تخرجين لرائحة قبلة بين عاشقين على مسافة خمسمائة متر؛ إن هذه القافات لهيّ الدليل أقوى الدليل على أن الفتاة هنا تُنظر فتاة حين ترى، ولكنها تُسمع رجلاً حين تتكلم!

قالت الشيطانة: ولكن ألم تسمع قولها: «تشجيع التجربة أكثر مما هي عليه اليوم»...؟ ألا يُرضيك هذا الذي لا بُد أن يدعو «إلى قلق القلقين؟» ثم إني أنا

(١) لهز: وكز.

فلانة الشيطانة قد كُتِبَ السبب في حادثة وقعت وطُردَ فيها طالب من الجامعة، أفلا يرضيك الإغراء والكذب في بضع كلمات؟

قال الشيطان: كل الرضى، فهذا فن آخر؛ وألعلُّم الذي يُنكرُ حادثة وقعت من تلميذة ولا يُقرُّ بأنها وقعت، لا يكون إنكاره إلا إجازة لوقوع مثلها!

قالت الشيطانة: وهب^(١) الحادثة لم تقع، فكيف تعرف الجامعة ما يحدث في القلوب؟ ومن هذا الذي يستطيع أن يقرأ قصة تُولفها أربع أعين في وجهين؟ وكيف تُكشَفُ الحقيقة التي أول وجودها كتمان الكلام عنها، وأول الكلام عنها ألهمس بين اثنين دون غيرهما؟ ومن ذا الذي في طاقته أن يمدَّ يده إلى قلبين أصبحا في تلقى الرسائل كصندوقَي البريد...؟

إسمع إسمع هذا الآخر... فاسترق الشيطان السمع فإذا طالب يقرأ في صحيفة أخرى على جماعته:

«والذين يزعمون أن الاتصال بين الطالبات والطلبة خطر، إنما يُسيئون إلى أخلاقكم... وألحق أيها الأصدقاء أن الذي حملني على أن أغضب وأثور إنما هو الدفاع عن الكرامة الجامعية».

قال الشيطان: كل الرضا كل الرضا... هذا كلام داهية أريب^(٢)، فلقد أحسن قاتله الله! إنها عبارات جامعية مُحَكَّمة السبك تقوم على أصولها من فن السياسة الخطابية؛ وكل من طنَّوه بتهمة فلا يستطيع أن يُمخِّق^(٣) على الناس بأحسن من هذا ولا بمثل هذا.

وليس لنا أقوى من هذا الطبع القوي الذي يُشعرُ بالنقص فلا هم له إلا إثبات ذاته في كل ما يُجادل فيه دون إثبات الصواب ولو كان الناس جميعاً في هذا الجانب وكان هو وحده في جانب الخطأ.

ولكن أف! ماذا صنع هذا القائل؟ وأين التهمة التي لا تُبدل اسمها في اللغة؟ وأين الذنب الذي يرضى أن توضع اليد عليه؟ وهل إنكار المذنب إلا احتجاج من كرامته الزائفة وإظهار الغضب في بعض ألفاظ...؟

إن هذا كغيره من الضعفاء حين يُمارون^(٤)؛ ألا ما أكذب الكذب هنا! فإن

(١) هب: افترض.

(٢) أريب: يشعز ويأتي بالكاذب.

(٣) أريب: ذكي.

(٤) يمارون: يتظاهرون بشيء ويضمرون خلافه.

أفسادَ ليقعَ من اختلاطِ الجنسَيْنِ في الجامعاتِ الأوربيَّةِ ثُمَّ لا يُعدُّ ذلكَ عندهم إساءةً إلى الأخلاقِ، ولا غصاً من الكرامةِ الجامعيَّةِ؛ وفي فرنسا يجتمعُ الشبانُ والفتياتُ من طلبةِ الجامعةِ ويحتسونَ الخمرَ ويتراقصون ويتواعدون ثُمَّ لا تقولُ لَهُمُ الأخلاقُ: أينَ أنتم؟... وهناك في الأنديةِ الخاصَّةِ بالطلبةِ ينتخبونَ ملكةَ الجمالِ من بين الطالباتِ كلِّ سنةٍ، ثُمَّ ينزعون بأيديهم ثيابها التي تُسمَّى ثياباً، ويطوفونَ بها غرفَ الأنادي كعروسٍ واحدةٍ مجلوةٍ على مائةِ زوجٍ في المعنى، «وبُلنسوار» أيتها الكرامةُ الجامعيَّةُ...

والاختلاطُ هناك يقربُ أن يكونَ ضرباً من المذاهبِ الاشتراكيَّةِ، وكلُّ ما بقيَ عندهم من لغةِ الحياءِ هو أن يتلطفوا^(١) فيقولوا: إن هذه الطالبةَ صديقةُ فلانِ الطالبِ؛ يعبرون بلفظِ الصداقةِ عن أولِ المعنى ويدعون سائرَ أحواله؛ إذ لا يُبالي أمرهما أحدٌ لا من الطلبةِ ولا من الأساتذِين... وهناك يُعْتَدُّ للشابِّ في مثلِ هذا بأنَّه شابٌّ، فتقومُ كلمةُ الشابِّ في العُرفِ بمعنى كلمةِ الضرورةِ في الشرعِ!

وهم قد عرفوا أنَّ الجامعةَ لحريةِ الفكرِ، ومن حريةِ الفكرِ حريةُ النزعةِ، ومن هذه حريةُ الميلِ الشخصيِّ، ومن حريةِ الميلِ حريةُ الحبِّ؛ وهل يعرفُ الحبُّ في الجامعةِ أنَّه في الجامعةِ فيستحي ويكونُ شيئاً آخرَ غيرَ ما هو في كلِّ مكانٍ؟ أو ليسَ في لغةِ الأزواجِ عندهم عبارةُ «نسيانُ ماضي الفتاة»...

ولكنِ أسمعني أسمعني...

فأصاحتِ الشيطانةُ؛ فإذا طالبٌ من الأزهرِ يقرأ لطالبٍ من كليَّةِ الحقوقِ في صحيفةٍ من دفاعِ أحدِ خريجي الجامعةِ!

«وما بالِ إخواننا الأزهريينَ يسخطون على الجامعةِ واختلاطِ الجنسَيْنِ فيها، وفي مصرَ نواحٍ أخرى هي أحقُّ بحريهم وأولى باهتمامهم؟ لعلَّهم قد نسوا حالنا في الصيفِ على شواطئ البحرِ، والناسُ يمكنون^(٢) هناك شهوراً عراياً أو كالعرايا».

فقالتِ الشيطانةُ: مالهَ ولهذا؟ لقد أخزى نفسه وأخزى الجامعةَ، وهل صنعَ شيئاً إلاَّ أنَّه يقولُ للأزهريينَ: إنَّ أهونَ الفسادِ من هذا اختلاطِ في الجامعةِ، وأكثرهُ في شواطئ البحرِ؛ فما بالكم تدعون أشدَّه وتأخذون على أهونه؟

(١) يتلطفوا: يتصنعوا اللطف والدماثة.

(٢) يمكنون: ييقنون.

قَالَ الشَّيْطَانُ: وَيَحَا! وَهَلْ يَأْخُذُونَ عَلَى أَهْوَاهِ فِي الْجَامِعَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ فِي
الْجَامِعَةِ لَا فِي مَكَانٍ آخَرَ؟ وَلَكِنْ أَسْمَعِي، مَا هَذَا...؟
فَارْغَمَا الصَّوْتُ^(١) سَمِعَهُمَا، فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ فِي مَجْلَةٍ: «ظَهَرَتِ الْآنَسَةُ فَلَانَةُ
وَهِيَ تَلْبِسُ فِسْتَانًا أَحْمَرَ شَفَتَشِي بِمَبِي^(٢) كَرَبِي مَشَجَّرَ بِنْتِي وَفِيونَكَةَ أَحْمَرَ عَلَى
أَبْيَضٍ»...

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ: هَذَا هَذَا، فَهَلْ هِيَ إِلَّا أَلْوَانُ أَفْكَارٍ تَحْتَ أَلْوَانِ ثِيَابٍ؟ وَهَلْ
يُظْهَرُ سُلْطَانُ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ بَاحِثًا عَنْ رَعِيَّتِهِ إِلَّا فِي أَلْوَانٍ جَمِيلَةٍ هِيَ، أَسْئَلُهُ
لِلْعَيُونِ؟ لَقَدْ مَثَلُ سَرَبٍ^(٣) مِنْ أَطَالِبَاتٍ فِي هَذِهِ الْجَامِعَةِ فَصَلًا فِي بَعْضِ الْحَفَلَاتِ
سَمَّوْهُ «عَرَضُ الْأَزْيَاءِ» وَالْفَتَاةُ تَعْرِضُ الثَّوْبَ، وَالثَّوْبُ يَعْرِضُ الْجِسْمَ، وَالْجِسْمُ
وَالثَّوْبُ مَعًا يَعْرِضَانِ الْفَتَاةَ! وَعَرَضُ الْأَزْيَاءِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ أَمْرٌ مِنَ الْجَامِعَةِ بِإِهْمَالٍ
هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾!

قَالَ الشَّيْطَانُ: خَبَّرَنِي عَنْ صَاحِبَتِكَ الَّتِي أَنْتِ مُوَكَّلَةٌ بِهَا، أَتَرَيْنَهَا كَانَتْ تَأْتِي
إِلَى هَذِهِ الْجَامِعَةِ لَوْ أَلْبَسُوهُنَّ مِثْلَ ثَوْبِ الرَّاهِبَةِ وَخَمَّرُوهُنَّ^(٤) بِالْخِمَارِ وَأَضَاعُوا
مِسَاحَةَ الْجِسْمِ فِي مِسَاحَةِ الثَّوْبِ وَأَجْلَسُوهُنَّ فِي آخِرِ الصَّفُوفِ كَأَنَّهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ؟
لَقَدْ فَعَلُوا مِثْلَ هَذَا فِي بَعْضِ جَامِعَاتِ أَوْرِبَا، فَحَرَّمُوا صَنْعَ الشَّفَاهِ عَلَى الْفَتَاتِ،
وَمَنَعُوهُنَّ إِبْدَاءَ الزَّيْنَةِ؛ فَامْتَنَعَتِ الزَّيْنَةُ وَالْمَتَزَيِّنَةُ مَعًا، وَهَجَرَنَ الْجَامِعَةُ، وَقَلَّنَ فِيمَا
قَلَّنَ: إِنَّ الْمَرْأَةَ وَالْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَنَحْوَهَا هِيَ الْحَقَائِقُ فِي عِلْمِ الْمَرْأَةِ، وَهِيَ مِنْ
أَسَالِيبَ بَحْثٍ كُلِّ فِتَاةٍ عَنْ رَجُلِهَا الْمَخْبُوءِ بَيْنَ الرِّجَالِ فِي الْجَامِعَةِ أَوْ غَيْرِ الْجَامِعَةِ،
وَالْعِلْمُ وَسِيلَةُ عَيْشٍ، وَالرَّجُلُ وَسِيلَةُ مِثْلِهَا، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ أَجْدَى^(٥) الْوَسِيلَتَيْنِ عَلَى
الْمَرْأَةِ وَأَحَقُّهُمَا بِالْعَنَايَةِ، إِذْ هِيَ لَا تَتَزَوَّجُ الْكِيمِيَاءَ وَلَا الطَّبِيعَةَ وَلَا الْقَانُونَ، وَمَعْنَى
هَذَا بَغْيِ اللُّغَةِ الَّتِي هُنَا فِي الْجَامِعَةِ الْمَصْرِيةِ أَنَّ وَجُودَ الْفَتَاةِ مَعَ الشَّبَابِ لِلتَّعْلِيمِ، هُوَ
كَذَلِكَ وَجُودُهَا بَيْنَهُمْ لِلْإِسْتِمَالَةِ وَالْمُكْرِ النَّسْوِيِّ الْجَذَابِ.

إِسْمَعِي إِسْمَعِي؛ مَا هَذَا الصَّوْتُ الْمُنْكَرُ الْجَافِي الْخَشَنُ؟
فَتَسْمَعَتْ، فَإِذَا أَلْطَالِبُ الْأَزْهَرِيِّ يَقُولُ لِمُصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: قَالُوا: وَيُحْرَمُ
عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَرَى شَيْئًا مِنَ الرَّجُلِ وَلَوْ بِلَا مَيْلٍ وَلَا خَوْفٍ الْفِتْنَةِ، وَإِذَا هِيَ

(١) أَرْعَا الصَّوْتُ: أَنْصَتَا جِدًّا.

(٢) بِمَبِي: عَامِيَةٌ مَصْرِيةٌ بِمَعْنَى الْأَبْيَضِ. (٤) خَمَّرُوهُنَّ: أَلْبَسُوهُنَّ الْخِمَارَ، وَهُوَ غَطَاءُ الْوَجْهِ لِلْمَرْأَةِ.

(٣) سَرَبٌ: جَمَاعَةٌ. (٥) أَجْدَى: أَنْفَعُ.

فَقَالَتِ الشَّيْطَانَةُ: هَذَا كَلَامٌ رَحِمَهُ اللَّهُ... لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَائِغًا لَوْ أَنَّ الشَّبَانَ
يَتَعَلَّمُونَ فِي الْجَامِعَةِ لِيَحْمِلُوا مَعَهُمُ الْحَقَّ كَمَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمُ الْعِلْمَ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ
بِهَذَا وَمَعَانِي الدِّينِ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ كَأَسْمَاءِ أَلْبَلَادِ الْبَعِيدَةِ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا: لَا
هَمَّ رَأَوْهَا وَلَا هَمَّ حَقَّقُوهَا؟ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَعْلِيمَ الدِّينِ هُنَا. فَيَقُولُ لَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ:
أَلَمْ تَعْرِفُوا الصَّلَاةَ وَأَنَّهَا الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامَ وَأَنَّهُ الصِّيَامُ، وَالزَّكَاةَ وَأَنَّهَا الزَّكَاةُ،
وَالْحَجَّ وَأَنَّهُ الْحَجُّ؟ وَهَذَا كَلَامٌ يُشْبِهُ دَرَسَ مَوَاقِعِ أَلْبَلَادِ عَلَى الْخَرِيطَةِ، فَبَارِيسُ
كَلِمَةٌ، وَلَنْدُنْ كَلِمَةٌ، لَا غَيْرَ؛ أَمَّا الْحَقِيقَةُ الْعَظِيمَةُ الْهَائِلَةُ فَشَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْكَلَامِ
الْجُغْرَافِيِّ التَّعْلِيمِيِّ؛ إِذْ مَا هِيَ كُلُّ فُرُوضِ الدِّينِ إِلَّا أَعْمَالٌ دَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ يَجِبُ فَرْضُهَا
عَلَى الْجَمِيعِ لِتَحْقِيقِ النَفْسِيَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْجَمِيعِ، وَهِيَ سِرُّ الْقُوَّةِ وَالْعَظَمَةِ
وَالنَّجَاحِ؛ فَتَعْلِيمُ الدِّينِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ إِقْنَاعُ النَّفْسِ بِجَعْلِ فُرُوضِهِ مِنْ قَوَانِينِهَا
الثَّابِتَةِ، لَا بِأَدَاءِ هَذِهِ الْفُرُوضِ فَقَطْ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِدَرْسِهِ كَمَا تُدْرَسُ فِلَسَفَةُ
الْقَوَانِينِ وَالْاِقْتِصَادِ وَالتَّرْبِيَةِ، أَيْ بِاعْتِبَارِهِ عِلْمَ فِلَسَفَةِ الرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْأُمَّةِ، ثُمَّ يَجْعَلُ
الْمُدْرِسِينَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِهِ، لِيَتَحَقَّقَ مَعْنَى الْإِقْنَاعِ، فَلَا يَنْقَلِبُ الدَّرْسُ هُزْأً
وَسُخْرِيَةً؛ وَبِذَلِكَ يَخْرُجُ الشَّابُّ مِنَ الْجَامِعَةِ وَفِي رُوحِهِ قُوَّةٌ ثَابِتَةٌ تَعْمَلُ بِهِ الْعَمَلُ
الْصَّالِحُ، وَتُوَجِّهُهُ إِلَى الْخَيْرِ، وَتَحْفَظُهُ بَيْنَ أَهْوَاءِ الْحَيَاةِ وَشَدَائِدِهَا، وَتَجْعَلُهُ دَائِمًا يَشْعُرُ
أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ السَّامِيِّ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَ فِي أَقْلٍ مَرَاتِبِ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَمِنْ ثَمَّ
يَرْجِعُ الشَّبَانُ فِي الْأُمَّةِ آلَاتِ قُوَّةٍ مَنْظُمَةٍ عَامِلَةٍ، وَأَيُسَرُّ مَا تَعْمَلُهُ هَذِهِ الْآلَاتُ، إِزَالَةُ
الْمُنْكَرَاتِ، وَصَنْعُ الشَّعْبِ صَنْعَةً جَدِيدَةً لِلْسَّلَامِ وَالْحَرْبِ، وَ، وَ، وَ، وَ...

قَالَتْ: وَطَرَدْنَا نَحْنُ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجَامِعَةِ!

162

نهضة الأقطار العربية

لا ريب في أنَّ النهضة واقعة في الأقطار العربية، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضرر في كل جهة نارا حامية، ويستمد من كل ما يتصل به لغنصره الملتهب، ولا ريب في أنَّ الشرق قد تفلت^(١) من أوهام السياسة وخرافاتها، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمنا، وتابعه مدة، وعرفه بمقدار ما بلاه، وكذبه ما صدقه، ونفر منه بقدر ما أطمأن إليه؛ ولا ريب في أنَّ العقل الشرقي قد تطوّر وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط في السياسة الغربية، وعلم أنَّ ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة... ولا ريب أنَّ الشرق يجاذب الآن مقاليدته التي ألقاها، ويضرب على سلاسله التي تقيد بها، ويكابد الصعود والهبوط في نهضته هذه؛ وقد كان بلغ من إغضائه على الذلّ وقراره على الضيم، وجهله وتجاهله - أنَّ أوربا ربطت أقطاره كلها في بضعة أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض.

غير أنني مع هذا كله لا أسمي هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسع في العبارة، والدلالة بما كان على ما يكون؛ فإنَّ أسباب النهضة الصحيحة التي تطرد أطراد الزمن، وتنمو نمو الشباب، وتندفع اندفاع العمر إلى أجل بعينه - لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذي يفصل بيننا وبين سلفنا وأوليتنا؛ وإلا فإين الأخلاق الشرقية، وإين المزاج العقلي الصحيح للأمم الشرق، وما هذا الذي نحن فيه من روح لا شرقيّة ولا غربيّة ثمَّ أين المصلحون الذين لا يساومون^(٢) بملك ولا إماره، ولا يطلبون بالإصلاح غرضاً من أغراض الدنيا أو باطلاً من زخرفها؟ ثمَّ أين أولئك تجعلهم مبادئهم العالية القويّة أول ضحاياها، وتروي منهم عرق الثرى الذي يغتذي من بقايا الأجداد لينبت منه الأحفاد؟

(١) تفلت: تخلص وتحزّر.

(٢) يساومون: يتجادلون من أجل الاتفاق على سلعة لشرائها.

إِنَّ الْجَوَابَ عَلَى نَهْضَةِ أُمَّةٍ نَهْضَةٌ ثَابِتَةٌ لَا يَكُونُ مِنَ الْكَلَامِ وَفَنُونِهِ، بَلْ مِنْ مَبْدَأٍ ثَابِتٍ مُسْتَمِرٍّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي نَفُوسِ أَهْلِهَا؛ وَلَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَبْدَأُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ قَائِمًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ، وَخُلُقٌ عَزِيزٌ، وَأَسْتِهَانَةٌ بِالْحَيَاةِ، وَصِبْغَةٌ خَاصَّةٌ بِالْأُمَّةِ.

فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْقَوِيَّةُ فَلَا تَنْقُصُ الشَّرْقِيِّينَ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِيهَا لِإِسَاسَةِ الْغَرْبِ الَّذِينَ بَصَّرُونَا بِأَنْفُسِنَا إِذْ وَضَعُونَا مَعَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى أَمَامَ مَرَاةٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ إِنَّنَا غَيْرُ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي فِي الْمَرَاةِ غَيْرُ هَذَا الْقِرْدِ الَّذِي فِيهَا... وَلَكِنْ أَيْنَ الْخُلُقُ؟ وَأَيْنَ الْعِزَّةُ الْقَوْمِيَّةُ؟ وَأَيْنَ الْعَصَبِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ؟ وَهَذِهِ مَفَاسِدُ أَوْرِبَا كُلِّهَا تَنْصَبُّ فِي أَخْلَاقِ الشَّرْقِيِّينَ كَمَا تَنْصَبُّ أَقْدَارُ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ فِي نَهْرٍ صَغِيرٍ عَذْبٍ؛ فَلَا الَّذِينَ بَقِيَ فِيْنَا أَخْلَاقًا، وَلَا الْأَخْلَاقُ بَقِيَتْ فِيْنَا دِينًا، وَأَصْبَحَتْ الْمِيزَةُ الشَّرْقِيَّةُ فَاسِدَةً مِنْ كُلِّ وَجْهِهَا فِي الرُّوحِ وَالذُّوقِ، وَلَمْ يَخُذْ لَنَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى الْمَدْنِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ، وَأَخَذَ الْحَقْمَى وَالضَّعْفَاءُ مِنَّا يُحَاوِلُونَ فِي إِصْلَاحِهِمْ أَنْ يُؤَلَّفُوا الْأُمَّةَ عَلَى خُلُقٍ جَدِيدٍ يَنْتَزِعُونَهُ مِنَ الْمَدْنِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخُلُقَ الْطَّارِئَ لَا يَرْسُخُ بِمِقْدَارٍ مَا يُفْسِدُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرَاسِخَةِ، وَهُمْ يَغْتَبِطُونَ^(١) إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَثَلًا: إِنَّ عَصْرَ قِطْعَةٍ مِنْ أَوْرِبَا؛ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ تَعْطِيلِ الْمَدْنِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَالذَّهَابِ بِهَا، وَإِفْسَادِهَا، وَتَعْرِضِهَا لِلذَّمِّ، وَتَسْلِيْطِ أَلْبَاءٍ عَلَيْهَا، مِمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى التَّبَسُّطِ فَشَرَحَهُ.

لَسْتُ أَقُولُ إِنَّ نَهْضَةَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا أُسَاسَ لَهَا؛ فَإِنَّ لَهَا أُسَاسًا مِنْ حِمِيَةِ الشَّبَابِ، وَعِلْمِ الْمُتَعَلِّمِينَ؛ وَمِنْ جَهْلِ أَوْرِبَا الَّذِي كَشَفَتْهُ الْحَرْبُ؛ وَلَكِنَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قُوَّتِهِ وَكِفَايَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِإِقَامَةِ الْأَحْدَاثِ الْكَبْرَى وَاهْتِيَاجِ الْعَوَاصِفِ السِّيَاسِيَّةِ - لَا يَحْمِلُ ثِقْلَ الزَّمَنِ الْمَمْتَدِّ، وَلَا يَكْفِي لِأَنْ يَكُونَ أُسَاسًا وَطِيدًا يَقُومُ عَلَيْهِ بِنَاءُ عِدَّةِ قُرُونٍ مِنَ الْحَضَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْعَالِيَةِ، بَلْ مَا أَسْرَعَهُ إِلَى الْهَدْمِ وَالنَّقْصِ، لَوْ صَدَمَتْهُ الْأَسَالِيبُ اللَّيْنَةُ مِنَ الْدِهَائِ الْأَوْرَبِيِّ عَلَى اخْتِلَافِهَا... إِذَا قُدِّرَ لِأَوْرِبَا أَنْ تَفُوزَ بِأَسْلُوبِهَا الْجَدِيدِ، أُسْلُوبِ اسْتِعْبَادِ الشَّرْقِ بِالصَّدَاقَةِ... عَلَى طَرِيقَةِ ادِّعَاءِ الثَّغْلِبِ لِلدَّجَاجِ أَنَّهُ قَدْ حَجَّ وَتَابَ وَجَاءَ لِيُصَلِّيَ بِهَا...

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ نَهْضَةَ هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا تُعْتَبَرُ قَائِمَةً عَلَى أُسَاسٍ وَطِيدٍ إِلَّا

(١) يَغْتَبِطُونَ: يَسْرُونَ.

إذا نهضَ بها الركنانِ الخالدان: الدينُ الإسلامي، واللغةُ العربيَّة؛ وما عداهما فمعى أن لا تكونَ لَهُ قيمةٌ في حُكمِ الزمنِ الَّذي لا يقطعُ بِحُكمِهِ على شيءٍ إلا بِشاهدينِ مِنَ المبدِئِ والنَّهايةِ.

وظاهرٌ أن أغلبيةَ الشرقِ العربيِّ ومادتهُ العظمى هيَ التي تدينُ بِالإسلام، وما الإسلامُ في حقيقتهِ إلا مجموعةُ أخلاقٍ قويَّةٍ ترمي إلى شدِّ المجموعِ من كلِّ جهة، ولَعَمري إنِّي لأحسُّ عظماءَ أمريكا كأنهم مسلمو التاريخِ الحديثِ في معظمِ أخلاقهم، لولا شيءٌ مِنَ الفرقِ هو الَّذي لا يمنعُهم أن ينحطُّوا إذا هم بلغوا القمَّة؛ فإن من عجائبِ الدنيا أن قِمَّةَ الحضارةِ الرفيعةِ هيَ بعينها مبدأ سقوطِ الأمم، وهذا عندنا هو السُّرُّ في أن الدينَ الإسلاميَّ يكرهُ لأهلهِ أنواعَ الترفِ والزينةِ والاسترخاء، ولا يرى النحتَ والتصويرَ والموسيقى والمُغالةَ فيها وفي الشعرِ إلا من المكروهات، بل قد يكونُ فيها ما يحرمُ إن وُجدَ سببٌ لِتَحريمِهِ، إذ كانت هذه الفنونُ في الغالبِ وفي الطبيعةِ الإنسانيةِ هيَ التي تُؤدِّي في نهايتها إلى سقوطِ أخلاقِ الأمم؛ بما تستبَعُه من أساليبِ الرِّفاهيةِ والضعفِ المتفنن، وما تحدِّثُه للنفسِ من فنونِ اللذاتِ والإغراقِ فيها والاستهتارِ بها؛ وما سقطتِ الدولةُ الرومانيَّةُ ولا الدولةُ العربيَّةُ إلا بِكأسِ وِمرَةٍ ووتر، وخيالِ شعريٍّ يفتنُ في هذه الثلاثةِ ويُرِيئُها.

وإذا كانَ لا بُدَّ لِلأُمَّةِ في نهضتها من أن تتغيَّرَ، فإن رجوعنا إلى الأخلاقِ الإسلاميَّةِ الكريمةِ أعظمُ ما يصلُحُ لنا مِنَ التَّغْيِيرِ وما نصلُحُ بِهِ منه، فلقد بُعدَ ما بيننا وبينَ بعضها، وأنقطعَ ما بيننا وبينَ البعضِ الآخر؛ وإذا نحن نبذنا الخمرَ، والفجورَ، والقمارَ، والكذبَ، والرياءَ؛ وإذا أنفنا مِنَ التخنُّثِ، والتبرجِ، والاستهتارِ بالمنكراتِ، والمبالغةِ في المجونِ، والسَّخفِ، والرقاعة^(١)؛ وإذا أخذنا في أسبابِ القوَّةِ، واصطنعنا الأخلاقَ الممتينةَ: مِنَ الإرادةِ، والإقدامِ، والحميةِ؛ وإذا جعلنا لنا صبغةَ خاصَّةٍ تُميِّزنا من سوانا، وتدلُّ على أننا أهلُ روحٍ وحُلُقٍ - إذا كانَ ذلك كُلُّهُ فَلَعَمري أيُّ ضيَرٍ في ذلك كُلِّهِ، وهل تلكَ إلا الأخلاقُ الإسلاميَّةُ الصحيحةُ، وهل في الأرضِ نهضةٌ ثابتةٌ تقومُ على غيرها؟

إنَّ من خصائصِ هذا الدينِ الأخلاقيِّ أنه صلبٌ فيما لا بُدَّ لِلنفسِ الإنسانيةِ منه إذا أرادتِ الكمالَ الإنسانيَّ، ولكنَّهُ مرٌّ فيما لا بُدَّ منه لِأحوالِ الأزمنةِ المختلفةِ

(١) الرقاعة: الخلاعة والمجون.

مِمَّا لَا يَأْتِي عَلَى أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ . وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّهُ لَا يُغْنِي غَنَاءَ الدِّينِ شَيْءٌ فِي نَهْضَةِ الْأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ خَاصَّةً ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْأَصْلُ الرَّاسِخُ فِي الدَّمَاءِ وَالْأَعْصَابِ . وَمَتَى نَهَضَ الْمُسْلِمُونَ وَهَمَّ مَادَّةُ الشَّرْقِ ، نَهَضَ إِخْوَانُهُمْ فِي الْوَطَنِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالْعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَلِيلِ الْأُخْرَى ، وَأَضْطَرُّوا أَنْ يَجَانِسُوهُمْ فِي أَغْلَبِ أَخْلَاقِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا حَجَرٍ عَلَى حُرِّيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَبَعْضِ الْحَجَرِ^(١) عَلَى حُرِّيَّةِ الْمَرِيضِ إِذَا أَوْجَرَتْهُ^(٢) الدَّوَاءُ الْمَرُّ .

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةً بِنَصِّ دِينِهِمْ ، وَكَانَتْ مِبَادِئُهُمْ وَاحِدَةً ، وَمَنَافِعُهُمْ وَاحِدَةً ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدًا ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَ مِنَ السَّهْلِ - لَوْ رَجَعُوا إِلَى أَخْلَاقِ دِينِهِمْ وَاتَّبَعُوا مَا يَصْدُرُ عَنْهَا - أَنْ يُؤَلَّفُوا مِنَ الشَّرْقِ كُلِّهِ ذَوْلًا مُتَّحِدَةً يَحْسُبُ لَهَا الْغَرْبُ حِسَابًا ذَا أَرْقَامٍ لَا تَنْتَهِي . . .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمِبَادِي وَالْأَخْلَاقِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَامِنَةٌ فِيهِ ، وَمُسْتَقْبَلُهُ كَامِنٌ فِيهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي الْفَنُونِ ، بَلْ فِي الرِّجَالِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا . فَالْقُلُوبُ وَالْأَدْمِغَةُ هِيَ أَسَاسُ النُّهْضَةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ ، وَإِذَا نَحْنُ تَأَمَّلْنَا هَذِهِ النُّهْضَةَ الرَّاهِنَةَ وَجَدْنَا أَسَاسَهَا خَرِبًا مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَوَجَدْنَا الْمَكَانَ الَّذِي لَا يَمْلُؤُهُ إِلَّا الْقَلْبُ الْكَبِيرُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خِيَالُ كَاتِبٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يَسُدُّهُ إِلَّا الرَّأْسُ الْعَظِيمُ قَدْ سَدَّتْهُ قِطْعَةٌ مِنْ صَحِيفَةٍ . . .

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ نَبِيُّ هَذَا الدِّينِ ﷺ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الشَّرْقُ الْعَرَبِيُّ بِإِزَاءِ الْغَرْبِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا : كَيْفَ بِكُمْ إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ بَنُو الْأَصْفَرِ اجْتِمَاعُ الْأَكَلَةِ عَلَى الْقِصَاصِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ؟ قَالَ : بَلْ مِنْ كَثْرَةٍ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كُثُثَاءِ السَّيْلِ^(٣) قَدْ أَوْهَنَ^(٤) قُلُوبُكُمْ حُبَّ الدُّنْيَا .

فَوَهْنُ الْقُلُوبِ بِحُبِّ الدُّنْيَا - عَلَى مَا يَنْطَوِي فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ - هُوَ عِلَّةُ الشَّرْقِ ، وَلَا دَوَاءَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ غَيْرُ الْأَخْلَاقِ ، وَلَا أَخْلَاقٍ بِغَيْرِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ عِمَادُهَا . أَلَا وَإِنَّ أَسَاسَ النُّهْضَةِ قَدْ وُضِعَ ، وَلَكِنْ بَقِيََتِ الصَّخْرَةُ الْكَبِيرَى وَسُتُوضِعَ يَوْمًا ، وَهَذَا مَا أَعْتَقَدُهُ ؛ لِأَنَّ الْغَرْبَ يَدْفَعُ مَعْنَا هَذِهِ الصَّخْرَةَ لِيُقَرِّهَا

(١) حجر : حجز ومنع من الخروج .

(٢) أوجرتة : بلغت الدَّوَاءُ كَارَهًا .

(٣) غثاء السيل : هو ما يحمله أثناء جرفه لما تحطَّم وتعفن مما لا قيمة له .

(٤) أوهن : أضعف .

في موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا نحن إلى الحفرة ليدفننا فيها... وهذا عمى في السياسة لا يكون إلا بخذلان من الله قدره وقضاه.

وإنني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص^(١) ويقلّبوه على حالتيه الشرقية والغربية؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد، وما قلّد المقلّد بلا بحث ولا رؤية إلا أتى على شيء في نفسه من ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية؛ على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئاً؛ فإن الفرق بعيد بين الأخذ في المخترعات والعلوم، وبين الأخذ من زخرف المدنية وأهواء النفس وفنون الخيال ورونق الخبيث والطيب؛ إذ الفكر الإنساني إنما ينتج الإنسانية كلها، فليس هو ملكاً لأمة دون أخرى؛ وما العقل القوي إلا جزء من قوة الطبيعة.

فإن نحن أخذنا من النظم السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذي لا يجوز على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها.

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافات الروائية إلى لب الفكر ورائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتبع طريقتهم في الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم في النقد والجدل، وتأتيهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التي هي الحكمة بعينها.

وأما في العادات الاجتماعية فلندكر أن الشرق شرق والغرب غرب - وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده - والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق ولا يختلف؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نتسلخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدي بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمي أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية في الاستقلال الشخصي؛ ولقد

(١) التمحيص: الدرس والتدقيق والبحث.

كُنَّا سَادَةَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْعَادَاتُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي رَأَيْنَا مِنْهَا وَمِنْ أَثَرِهَا فِيْنَا مَا أَفْسَدَ رَجُولَةَ رَجَالِنَا وَأُنُوثَةَ نِسَائِنَا عَلَى السَّوَاءِ؛ وَمَا هُوَ لِأَشْبَانِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْعَادَاتِ وَيَعْمَلُونَ عَلَى بَثِّهَا فِي طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ إِلَّا كَالَّذِي يَحْسَبُ أَنَّ أَوْرَبَا يُمكنُ أَنْ تَدْخَلَ تَحْتَ طَرَبُوشِهِ . . . ؛ وَلَقَدْ غَفَلْنَا عَنْ أَنَّنا نَدْعُو الْأُورَبِيِّينَ إِلَى أَنْفُسِنَا وَإِلَى التَّسَلُّطِ عَلَى بِلَادِنَا بِأَنْتِحَالِنَا عَادَاتِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ؛ لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمُشَاكَلَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَوَجْهٌ مِنَ التَّقْرِيبِ بَيْنَ جَنْسَيْنِ يُعِينُ عَلَى انْتِمَاجِ أَوْضَعِيهِمَا فِي أَقْوَاهُمَا وَيُضَيِّقُ دَائِرَةَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ هُوَ مِنْ أَيْنَ أَعْتَبَرْتَهُ وَجَدْتَهُ فِي فَائِدَتِهِ لِلأُورَبِيِّينَ أَشْبَهَ بِتَلْيِينِ اللَّقْمَةِ الصُّلْبَةِ تَحْتَ الْأَسْنَانِ الْقَاطِعَةِ؛ وَهَلْ نَسِيَ الشَّرْقِيُّونَ أَنَّ لَا حُجَّةَ لِلْغَرْبِ فِي اسْتِعْبَادِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ تَمْدِينَهُمْ؟

وَحَيْثُمَا قُلْنَا «الَّذِينَ الْإِسْلَامِيُّ» فَإِنَّمَا نُرِيدُ الْأَخْلَاقَ الَّتِي قَامَ بِهَا، وَالْقَانُونُ الَّذِي يُسَيِّطِرُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ عَلَى النَّفْسِ الشَّرْقِيَّةِ؛ وَهَذَا فِي رَأْيِنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ.

لا تبجني الصحافة على الأدب ولكن على فنّيته

قالوا: إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُنْكَرُ أَنْ يُقَالَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ (مَالِح)، ويقول: إِنَّمَا هُوَ مَلِح، وَإِنْ (مَالِح) هَذِهِ عَامِيَّةٌ؛ فَلَمَّا أَنْشَدُوهُ فِي ذَلِكَ شِعْراً لَدَى الرِّمَّةِ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَيْهِ قَالَ: إِنَّ ذَا الرِّمَّةِ قَدْ بَاتَ فِي حَوَانِيتِ^(١) الْبَقَالِينَ بِالْبَصْرَةِ زَمَاناً...

يُرِيدُ شَيْخُنَا هَذَا: أَنَّ (المالِح) فِي الْأَكْثَرِ الْأَعْمُ يَكُونُ مِمَّا يَبِيعُهُ الْبَقَالُونَ، وَلُغَتُهُمْ عَامِيَّةٌ مُزَالَةٌ^(٢) عَنْ سُنَنِهَا الْفَصِيحِ، مَصْرُوفَةٌ إِلَى وَجْهِهَا التِّجَارِيِّ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ بَاتَ ذُو الرِّمَّةِ فِي حَوَانِيتِ الْبَقَالِينَ زَمَاناً حَتَّى عَلِقَتْ الْكَلِمَةُ بِمَنْطِقِهِ وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الطَّبِيعُ الْعَامِيَّ، وَلَمْ يَخَالِطْ عَرَبِيَّتَهُ غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَحْدَهَا؟ لَمْ يَقِلِّ الْأَصْمَعِيُّ شَيْئاً، وَلَكِنَّ رِوَايَتَهُ تُخْبِرُ أَنَّ ذَا الرِّمَّةِ أَنْحَدَرَ^(٣) مِنَ الْبَادِيَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ يَلْتَمِسُ مَا يَلْتَمِسُهُ الشُّعْرَاءُ، فَلَمَّا كَانَ بِهَا اسْتِضَاقٌ^(٤) فَلَمْ يُصَبِّ لِجَوْفِهِ غَيْرَ الْخَبْزِ، وَلَمْ يَجِذْ لِلْخَبْزِ غَيْرَ (الْمَالِحِ) يُسَبِّغُهُ بِهِ لِيَجِدَ الْمَسْلَكَ فِي حَلْقِهِ، قَالُوا: فَيَأْتِي الْبَقَالِينَ فَيَتَبَاغُ مِنْهُمْ أَلْسَمَكَةَ (أَلْمَالِحَةِ) وَالْبَقْلَةَ (أَلْمَالِحَةِ)، وَيُعَرِّفُونَهُ مُضِيقاً إِلَى فَرْجٍ، فَيُنْسَوْنَ لَهُ فِي أَلْتَمَنِ إِلَى أَجَلٍ حَتَّى يَمْتَدِّحَ وَيَنَالَ أَلْجَائِزَةَ؛ قَالُوا: ثُمَّ يُمْطَرُهُ الْمَمْدُوحُ وَيَلُوي بِهِ وَلَا يَرَى فِي تَلْفِيْقِ الْعَيْشِ رُخْصاً إِلَّا فِي (الْمَالِحِ)، فَيَتَبَاغُ فِي الشُّرَاءِ وَيَمْضُونَ فِي إِسْلَافِهِ إِبْقَاءً عَلَيْهِ وَحُسْنَ نَظَرٍ مِنْهُمْ لِمَنْزِلَتِهِ وَشَعْرِهِ، وَيَرَى هُوَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِلْوَفَاءِ بِمَا عَلَيْهِ إِلَّا نَفْسَهُ، فَمَا بُدُّ أَنْ يَتَرَاءَى لَهُمْ بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ، فَيُخَالِطُهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ، وَهُمْ عَلَى طَبِيعِهِمْ وَهُوَ عَلَى سَجِيَّتِهِ؛ ثُمَّ لَا يَقْتَضُونَهُ ثَمَناً، وَلَا يَزَالُونَ يَمْدُونُ لَهُ، فَلَا يَزَالُ (المالِح) أَيْسَرَ مَنْالاً عَلَيْهِ، كَمَا هُوَ إِلَى نَفْسِهِ أَشْهَى، وَفِي جَوْفِهِ أَمراً، لِمَكَانِ أَعْرَابِيَّتِهِ وَخُشُونَةِ عَيْشِهِ، فَيُصِيبُ عَنْدهُمْ مَرْتَعَةً مِنْ هَذَا (المالِحِ). قَالُوا: ثُمَّ يَرَى الْبَقَالُونَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِمَا أَجْتَمَعَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ مَعَهُمْ،

(١) حَوَانِيتُ، مَفْرَدَةٌ حَانُوتٌ وَهُوَ الدَّكَانُ.

(٣) انْهَدَرَ: جَاءَ.

(٢) مُزَالَةٌ: مَنْحَطَةٌ وَنَازِلَةٌ.

(٤) اسْتِضَاقٌ: شَعْرٌ بِالضِّيقِ الْمَادِيِّ وَعَدَمِ الْيَسَارِ.

فيلزموته الحوانيت بياض يومه، ويُغلقونها عليه ليلته، فهم يُمسكونه بالنهار وتُمسكه الحيطان والأبواب بالليل!

فلما عظم الدُّين وبلغ الجملة التي أتت حساب الأيّام إلى حساب الأهلّة أحضر الشاعرُ كربته وهمّه، ولم يعد (المالح) ينجع فيه^(١)، ولا يجد به غداء، بل حريقاً في الدم، ورأى أنّه قد أمّتحن بهذا (المالح) الخبيث وأشرط نفسه فيه وأرتهنها به؛ فلا يزال من (المالح) هم في نفسه، ومغص في جوفه، ولفظ على لسانه، ودَيْن على ذمّته؛ ولا يزال مهموماً به؛ إذ كان على طريق من طريقين: إما ألوفاء ولا قدرة عليه من مفلس، وإما الحبس ولا طاقة به لشاعر؛ وحبس ذي الرمة في ثمن (المالح) هو حبس عند الشرطة، ولكنه قتل أو شر من أقتل عند صاحبتّه (ميتة) إذا ترامى إليها الخبر؛ والأعرابي الجلف الذي يُحبس في ثمن (المالح) عند ألوالي بعد أن بات زماناً رهناً به في حوانيت البقالين لا يصلح عاشقاً لمي وهي من هي: «لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيّم الحواشي...» فلا (المالح) من غذائها، ولا لفظ (المالح) من الكلام الذي يكون في فمها العذب، وأبعد الله جاريته الرنجيّة إن لم تأنف لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابي الغليظ الخشن الذي ألحقه (المالح) بالصوص والغارمين^(٢)، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابي لها سواداً على سوادها في الناس، فكيف بمي وهي أصفى من المرأة النقيّة، وأبيض من الزهرة البيضاء؟

قالوا: ويصنع الله لغيلان المسكين، فيمدح وينافق ويحتال، ويعده الممدوح بالجائزة إذا غدا عليه، ويكون ذلك والشمس نازلة إلى خدرها، فينكفي الشاعر إلى حوانيت غرمائه من البقالين يبيت فيها أخرى ليايله، ويُغلقون عليه وقد سئموا أكلاً وماطلاً، وهان عليهم فلا يعتدونه إلا فأراً من فئران حوانيتهم غير يأكل فيستوفى، ولم يعد أسمه عندهم ذا الرمة، بل ذا العُمة... فلم يعطوه لعشائه هذه المرة إلا ما فسد وخبت من عتيق (المالح)، فهو نتن يُسمّى طعاماً، وداء يُباع بثمن، وهلاك يحمل عليه الأضرار كما يحمل على أكل الجيفة؛ وكانوا قد وضعوه في أنية قذرة متلجّنة^(٣) طال عهدُها بال غسل والنظافة وفيها بقية من عفن قديم، فلصق بها ما لصق وتراكب عليها ما تراكب، ووقع فيها ما وقع.

(١) ينجع فيه: يطمر فيه ويثمر.

(٢) الغارمين: المدنين.

(٣) متلجّنة: المغسلة بدون عناية.

ثُمَّ يَتَهَيَّأُ الشَّاعِرُ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ يَرْجُو أَنْ تَنَالَهُ بَرَكَتُهَا، فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُ وَيُفْرِجُ عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ قَدَحٌ مِنَ الْمَاءِ لِيُضَوِّئِهِ، وَلَكِنَّ (الْمَالِحَ) الَّذِي تَغْدَى بِهِ كَانَ قَدْ أَحْرَقَ جَوْفَهُ وَأَضْرَمَ عَلَى أَحْسَائِهِ وَهُوَ فِي صَيْفٍ قَائِظٍ^(١)، فَمَا زَالَ يُطْفِئُهُ بِالشَّرْبَةِ بَعْدَ الشَّرْبَةِ، وَالْمَصَّةِ بَعْدَ الْمَصَّةِ، حَتَّى أَشْتَفَّ^(٢) الْقَدَحَ وَأَتَى عَلَيْهِ، فَيَكْسِلُ عَنِ الصَّلَاةِ وَيَلْعَنُ (الْمَالِحَ) وَمَا جَرَّ عَلَيْهِ! ثُمَّ يَعْضُهُ الْجَوْعُ فَيَكْسِرُ خَبْزَتَهُ وَيَسْمِي وَيَغْمَسُ اللَّقْمَةَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا فَيَجِدُ لَهَا رَائِحَةً مَنَكْرَةً، فَيَنْظُرُ فِي الْآنِيَةِ وَقَدْ نَفَذَ إِلَيْهِ الضُّوءُ مِنْ قِنْدِيلِ الْحَارِسِ، فَإِذَا فِي (الْمَالِحِ) خُنْفَسَاءٌ قَدْ أَنْفَجَرَتْ شِبَعًا، وَيَدْقُقُ الْنَظْرَةَ فَإِذَا دُوبِيَّةٌ أُخْرَى قَدْ تَفْسَخَتْ وَهَرَأُهَا^(٣) (الْمَالِحَ) وَقَعَلَ بِهَا وَقَعْلًا! قَالُوا: وَتَثَبُ نَفْسُهُ إِلَى حَلْقِهِ، وَلَا يَرَى الطَّاعُونََ وَالْبَلَاءَ الْأَصْفَرَ وَالْأَحْمَرَ إِلَّا هَذَا (الْمَالِحَ)، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى كُوَّةِ الْحَانُوتِ يَتَنَسَّمُ الْهَوَاءَ مِنْهَا وَيَتَطَعَّمُ الْرُوحَ وَهِيَ مُضْطَبَّةٌ بِالْحَدِيدِ، وَلَا يَزَالُ يُرَاعِي مِنْهَا اللَّيْلَ وَيَقْدُرُهُ مَنْزَلَةً مَنْزَلَةً بِحَسَابِ الْبَادِيَةِ، وَهُوَ بَيْنَ ذَلِكَ يَلْعَنُ (الْمَالِحَ) عَدَدَ مَا يَسْبُخُ الْعَابِدُ الْقَائِمُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَيَطُولُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَنْشَقُّ لَمَعُ الْفَجْرِ لِعَيْنِهِ، فَلَا يَرَاهُ الشَّاعِرُ إِلَّا كَالْغَدِيرِ يَتَفَجَّرُ بِالْمَاءِ الْأَصَافِيِّ وَيُوَدُّ لَوْ أَنْصَبَ هَذَا الضُّوءُ فِي جَوْفِهِ لِيَغْسِلَهُ مِنْ (الْمَالِحِ) وَأَوْضَارِ (الْمَالِحِ)؛ ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرْجِ وَبِصَاحِبِ الْحَانُوتِ فَيَفْتَحُ لَهُ، وَيَغْدُو ذُو الرِّمَّةِ عَلَى الْمَمْدُوحِ فَيَقْبِضُ الْجَائِزَةَ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى حَوَانِيتِ الْبِقَالَيْنِ فَيُوفِي أَصْحَابَهَا مَا عَلَيْهِ؛ وَلَا يَبْقَى مَعَهُ إِلَّا دَرَاهِمُ مَعْدُودَةٌ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى حِمَارٍ أَكْثَرَاهُ وَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ آفَاقُ الدُّنْيَا، وَكَأَنَّمَا فَرَّ مِنَ مَوْتٍ غَيْرِ الْمَوْتِ، لَيْسَ أَسْمُهُ أَلْبَوَارَ وَلَا أَهْلَاكَ وَلَا أَلْقَتَل، وَلَكِنْ أَسْمُهُ (الْمَالِحُ)!

قَالُوا: وَيُحَرِّكُهُ الْجِمَارُ لِلشَّعْرِ كَمَا كَانَتْ تُحَرِّكُهُ الْأَنَاقَةُ، فَيَقُولُ: أَخْزَاكَ اللَّهُ مِنْ حِمَارٍ بَصْرِيٍّ، إِنَّ أَنْتَ فِي الْمَرَكَبِ إِلَّا (كَالْمَالِحِ) فِي الْأَطْعَمَةِ! ثُمَّ يَغْلِبُهُ الطَّبْعُ وَيَنْزُو بِهِ الطَّرْبُ وَتَهْزُهُ الْحَيَاةُ، فَيَهْتَاجُ لِلشَّعْرِ وَيَذْكُرُ شَوْقَهُ وَحُبَّهُ وَدَارَ مَيِّ، وَفِي (عَقْلِهِ أَلْبَاطُنَ) حَوَانِيتُ وَحَوَانِيتُ مِنْ (الْمَالِحِ)، فَيَأْتِي هَذَا (الْمَالِحَ) فِي شِغْرِهِ وَيَدْخُلُ فِي لُغْتِهِ، فَيَقُولُ الشَّعْرَ الَّذِي أَهْمَلُ الْأَصْمَعِيُّ رِوَايَتَهُ لِأَنَّ فِيهِ (الْمَالِحَ) وَمَا أَدْرِي أَنَا مَا هُوَ، وَلَكِنْ لَعَلَّهُ مِثْلُ قَوْلِ الْآخَرِ:

وَلَوْ تَقَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ (مَالِحٌ) لَأَصْبَحَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْ رِيْقِهَا غَذْبًا

(١) صَيْفٍ قَائِظٍ: حَارٌّ جَدًّا.

(٢) أَشْتَفَّ الْقَدَحَ: شَرَبَ مَا فِيهِ فَأَتَى عَلَى مَحْتَوَاهُ.

(٣) هَرَأُهَا: دَبَّ فِيهَا الْاهْتِرَاءُ وَالْفَسَادُ.

أو مثل قول القائل:

بصريّة تزوّجت بصريّاً بطعمها (المالح) والطريّاً

هذه هي الرواية التمثيلية التي تُفسّر كلام الأصمعيّ، ولا مذهب عنها في التعليل؛ إذ صارح (المالح) كلمة نفسية في لغة ذي الرمة، على رغم أنف الأحمر والأسود والأصمعيّ وأبي عبيدة؛ فالرجل من الحجاج في العربية إلا في كلمة (المالح)، فإنه هنا عامي يقال حوانيتي نزل بطبعه على حكم العيش، وغلبه ما لا بُدّ أن يغلب من تسلط (واعيته الباطنة)^(١).

والجكمة التي تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة، ولا بُدّ أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به ألهاجس على وجه آخر؛ وإذا كان في النفس موضع من مواضعها أفسده العمل - ظهر فسادُه في الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى؛ فلا تنتظر من صحافي قد ارتهن نفسه^(٢) بحرفة الكلام ألا يكون له في الأدب والبلاغة (مالح) كمالح ذي الرمة، وإن كان أبلغ الناس لا أبلغ كتاب الصحف وحدهم.

و(المالح) الذي رأيناه لكاثر بليغ من أصحابنا أنه كتب في إحدى الصحف عن ديوان هو في شعر الاستعارة بعد الكناية ممّا قاله الشاعر، ثم يقول: هذا عجيب تصوّره. لا أعرف ماذا يريد. ألبلى للشعاع غير مقبول؛ ولا يزال ينسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يُعقّب على ذلك بقوله: «والأصل في الكتابة أنها للإفهام، أي نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس؛ ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها^(٣) الضعف والإبهام والركاكّة وقلة العناية بدقّة الأداء؛ وإذا كنت تستعمل اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد به فكيف تتوقع مني أن أفهم منك؟

لا، لا، هذا (مالح) من مالح الأدب، فإذا كان الضعف والإبهام والركاكّة وسوء الإفهام وضعف الأداء - آتية في رأي الكاتب من استعمال اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد له - فإن محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز

(١) يقصد بذلك العقل الباطن.

(٢) ارتهن نفسه: ربط نفسه وجعلها رهينة.

(٣) يتعاورها: يتجاوزها ويدخلها.

وَالْكِنَايَةِ لَيْسَ لَهَا مَاتِي كَذَلِكَ إِلَّا اسْتِعْمَالُ الْكَلِمَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُريدَ لَهُ .
وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ؟

أترأه يقول : كيف قديم الله ، وهل كان غائباً أو مسافراً ، وكيف قديم إلى عمل ،
وهل العمل بيت أو مدينة ؟

ثم كيف يصنع في هذه الآية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ ، أيسأل : وهل
للأرض خلق تحركه عضلاته للبلع ، وإذا كان لها خلق أفلا يجوز أن ترمى فيه
فتحتاج إلى غرغرة وعلاج وطب ؟

وماذا يقول في حديث البخاري : « إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّمِ ، أَوْ صَوْتًا
يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ - كما في الأغاني - » أوجه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه ،
ويسأل : بماذا جرح ، وما لون هذا الدم ، وهل للصوت عروق فيجري الدم فيها ؟

إنَّ الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هي البلاغة وإن كانت منها ، وإلا
فكتابة الصحف كلها آيات بينات في الأدب ، إذ هي من هذه الناحية لا يُقدح فيها
ولا يُغض منها ، وما قصرت قط في نقل خاطر ولا استغلفت دون إفهام .

ههنا خوان في مطعم كمطعم (الحاتي) مثلاً عليه الشواء والملح والفلفل
والكواميش أصنافاً مصنفة ، وآخر في وليمة عرس في قصر وعليه ألوانه وأزهاره ومن
فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة في القلب بنور وجهها
الجميل ، أفترى السهولة كل السهولة إلا في الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد إلا في
الثاني ؟ ولكن أي تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فني ليس إلا ، به ينضاف الجمال إلى
المنفعة ، فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزين المائدة والنفس معاً ؛ وهو كذلك تعقيد
فني لآءم بين إبداع الطبيعة وإبداع الفكر ، وجاء بروح الموسيقى التي يقوم عليها
الكون الجميل فبها^(١) في هذه الأشياء التي تقوم بها المائدة الجميلة ، وأستنزل سر
الجاذبية فجعل للمائدة بما عليها شعوراً متصلاً بالقلوب من حيث جعل للقلوب
شعوراً متصلاً بالمائدة .

وهذا التعقيد الذي صوّر في الجماد دقة فن العاطفة ، هو بعينه فنية السهولة

(١) بئها : نشرها .

وروحيتها؛ وتلك السذاجة التي في المائدة الأخرى هي السهولة المادية بغير فن ولا روح، وفرق بينهما أن أحدهما تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف!

والوجه في الشواء وفي الجميلة واحد: لا يختلف بأعضائه ولا منافعه، ولا في تأديته معاني الحياة على أتمها وأكملها؛ بيد أن انسجام الجميل يأتي من إعجاز تركيبه وتقدير قسماته وتدقيق تناسبه، وجعله بكل ذلك يظهر فنه النفسي بسهولة منسجمة هي فنيته وروحيته؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يظهر منه شيئاً؛ إذ كان قد فقد التدقيق الهندسي الذي هو تعقيد فن التناسب، وجاء على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير، إلى ما يستدير وما يعرض، إلى ما ينشأ من هنا وينخسف من هناك، كالوجنة^(١) البارزة، والشدق الغائر؛ فهذه السهولة المطلقة في الوضع كما يتفق، هي بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذي لا محل فيه للفتنة (كما يتفق).

والطريقة التي يكون بها الجمال جميلاً هي بعينها الطريقة التي يكون بها البيان بليغاً، فالمرجع في أثنين إلى تأثيرهما في النفس، وأنت قل: إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم، وذلك سهل والآخر معقد، وواضح ومغلق، ومستقيم على طريقته ومحول عن طريقته؛ إنك في ذلك لا تدل على شيء تعبه أو تمدحه في الجمال أو البلاغة أكثر مما تدل على ما يمدح أو يعاب في نفسك وذوقها وإدراكها.

ومعاني الاختلاف لا تكون في الشيء المختلف فيه، بل في الأنفس المختلفة عليه؛ فإن محالاً أن تكون الجميلة ممدوحة مذمومة لجمالها في وقت معاً، وإلا كانت قبيحة بما هي به حسنة، وهذا أشد بعداً في الاستحالة، وحكمك على شيء هو عقلك أنت في هذا الشيء.

ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجذت دواعي الاستحسان في أنفسهم مختلفة، وكذلك هم في دواعي الذم إذا عابوا؛ ولكن متى تعينت الوجوه التي بها يكون الحكم، ورجع إليها المختلفون، والتزموا الأصول التي رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم في الذوق والفهم، فذلك ينفي أسباب الاختلاف لما يكون من معاني التكافؤ وخاصة المناسبة، ولهذا كان الشرط في نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع في بيانه لم تفسده نزعة أخرى، وفي نقد

(١) الوجنة: السحنة.

الشعر أن يكون من شاعر علّت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن فليس له نزعة أخرى تُفسده.

وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية؛ إذ هي بطبيعتها تُريد دائماً ما هو أعظم، وما هو أجمل، وما هو أدق؛ وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء في غير مواضعها، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة في التأدية وتمحلّ لا عبرة^(١) به، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها، فتصنع ألفاظها صناعةً توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضعف إحساسها؛ فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة في شعور النفس؛ ومن ذلك يأتي الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية، ليُخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعياً في الطبيعة إلى أن يكون روحانياً في الإنسانية، والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبلد، والبيان في صناعة اللغة يقابل هذا النحو، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت؛ وبهذا لا تكون حقيقة المحسنات البيانية شيئاً أكثر من أنها صناعة فنية لا بُد منها لأحداث الألتياج في ألفاظ اللغة الحساسة كي تُعطي الكلمات ما ليس في طاقة الكلمات أن تُعطيه.

لقد تكلموا أخيراً في جناية الصحافة على الأدب، والصحافة عندي لا تجني على الأدب، ولكن على فنيته؛ فلها من الأثر على سليقة أبلّغ وطبعه قريب مما كان لخوانيت أبقالين في البصرة على طبع ذي الرمة وسليقته، وكلما قرب الصحفي من الصناعة وحقها على الجمهور، بُعد عن الفن وجماله وحقه على النفس، وهذا واضح بلا كبير تأمل، بل هو واضح بغير تأمل...

(١) عبرة، بكسر العين: العظة والدرس.

صعاليك الصحافة

١

لَمَّا ظَهَرَ كِتَابِي (وَحَيَّ الْقَلَمُ) حَمَلْتُ مِنْهُ إِلَى فُضْلَاءِ كِتَابِنَا فِي دَوْرِ الصَّحَفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَهْدِيهِ إِلَيْهِمْ لِيَقْرُؤُوهُ وَيَكْتُبُوا عَنْهُ، وَأَنَا رَجُلٌ لَيْسَ فِيَّ أَكْثَرُ مِمَّا فِيَّ، كَأَلَنَجَمٍ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَسْتَنَقَعٌ؛ فَمَا أَعْلَمُ فِي طَبِيعَتِي مَوْضِعاً لِلنِّفَاقِ تَحَوُّلٌ فِيهِ الْبَصْلَةُ إِلَى تَفَاحَةٍ، وَلَا مَكَاناً مِنَ الْخَوْفِ تَنْقَلِبُ فِيهِ التَّفَاحَةُ إِلَى بَصْلَةٍ، وَلَسْتُ أَهْدِي مَنْ كَتَبِي إِلَّا إِحْدَى هَدِيَّتَيْنِ: فَإِمَّا التَّحِيَّةَ لِمَنْ أَثِقُ بِأَدَبِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَسَلَامَةً قُلُوبِهِمْ، وَإِمَّا إِنْذَارَ حَرْبٍ لِبَعْضِ هَؤُلَاءِ!

وَالْقُرْآنُ نَفْسُهُ قَدْ أَثَبَتَ اللَّهُ فِيهِ أَقْوَالَ مَنْ عَابُوهُ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مَنْ يُنْكِرُهَا وَيُرُدُّهَا، كَحَاجَتِهَا إِلَى مَنْ يَقْرُأُ بِهَا وَيَقْبَلُهَا، فَهِيَ بِأَحَدِهِمَا تُثَبِّتُ وَجُودَهَا، وَبِالْآخَرِ تُثَبِّتُ قَدَرَتَهَا عَلَى الْوُجُودِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

وَالشَّعُورُ بِالْحَقِّ لَا يَخْرُسُ أَبَداً؛ فَإِذَا كَانَتِ الْنَفْسُ قَوِيَّةً صَرِيحَةً مَرَّ مِنْ بَاطِنِهَا إِلَى ظَاهِرِهَا فِي الْكَلِمَةِ الْخَالِصَةِ، فَإِنْ قَالَ: لَا أَوْ نَعَمْ، صَدَقَ فِيهِمَا؛ وَإِذَا كَانَتِ الْنَفْسُ مَلْتَوِيَّةً أَعْتَرَضَتْهُ الْأَغْرَاضُ وَالْأَدْخَالُ، فَمَرَّ مِنْ بَاطِنٍ إِلَى بَاطِنٍ حَتَّى يَخْلَصَ إِلَى الظَّاهِرِ فِي الْكَلِمَةِ الْمَقْلُوبَةِ؛ إِذْ يَكُونُ شَعُوراً بِالْحَقِّ يُعْطِيهِ غَرَضٌ آخَرُ كَالْحَسَدِ وَنَحْوِهِ، فَإِنْ قَالَ: لَا أَوْ نَعَمْ، كَذَبَ فِيهِمَا جَمِيعاً.

وَكُنْتُ فِي طَوَافِي عَلَى دَوْرِ الصَّحَفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَحْسُ فِي كُلِّ مِنْهَا سَوْألاً يَسْأَلُنِي بِهِ أَلَمْ يَكُنْ: لِمَاذَا لَمْ تَجِءْ؟ فَإِنِّي فِي أَبْتَدَاءِ أَمْرِي كُنْتُ نَزَعْتُ إِلَى الْعَمَلِ فِي الصَّحَافَةِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مُتَعَلِّمٌ رِيضٌ^(١) وَمَتَأَدِّبٌ نَاشِئٌ، وَلَكِنَّ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ -

(١) رِيضٌ: مُتَدَرِّبٌ.

ردني عن ذلك ووجهني في سبيلي هذه - والحمد لله - ، فلو أنني نشأت صحافياً
لكنت الآن كـبعض الحروف المـكسورة في الطبع . . .

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهي كلما تمت نقصت ، وكلما نقصت تمت ؛
إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرؤونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين ؛
وهي بهذا كالتريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ؛ فتمامها بمراعاة
قواعد النقص في القارىء . . . وما بُدَّ أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة
نفسها ، فهي مع كـالزوجة التي لم تلد بعد ، لها من رجلها من يأمرها ويجعلها في
حكمه وهواه ، وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها ؛
ثم هي عمـل الساعة واليوم ، فما أبعداها من حقيقة الأدب الصحيح ، إذ ينظر فيه إلى
الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان .

ولا يقتل النبوغ شيء كالعـمل في هذه الصحافة بطريقتها ؛ فإن أساس النبوغ
(ما يجب كما يجب) ؛ ودأبه العـمق والتغلغل في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة
الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق ؛ أمّا هي فأساسها (ما يمكن كما
يمكن) ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كـصناعة العنوان لا غير .

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتم
وأصبح كالدولة على «الخريطة» ، لا كالمدينة في الدولة في الخريطة ؛ فهو حينئذ لا
يسهل محوه ولا تبديله . . . ثم هو يمدّها بالقوة ولا يستمدُّ القوة منها ، ويكون تاجاً
من تيجانها لا خـرزة من خـرزاتها ، ويقوم فيها كالمـنارة العظيمة تـلقي أشعتها من
أعلى الجوّ إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كمصباح من مصابيح الشارع !

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره ؛
إذ كان الرجل السياسي هو صوت الحوادث سائلاً ومجيباً ، ثم يليه الرجل شبه
العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلي . . . والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير
أنه عندنا في الصحافة وراء هؤلاء جميعاً .

ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت بي في نومي
فرايتني ذات ليلة أدخل إحداها لأهدي (وحي القلم) إلى الأديب المتخصّص فيها
للكتابـة الأدبية ؛ ودلوني عليه فإذا رجل مربوع مشوّه الخلق صغير الرأس دقيق العنق

جاحظُ العَينين، تدورانِ في محجريهما دورةٌ وحشيَّةٌ كأنما رعبتُهُ الحَياةُ مُذْ كَانَ جَنيماً في بطنِ أُمِّه، لِأَنَّهُ خَلَقَ لِلإحساسِ وَالوصفِ، أو كأنما رُكِبَ فيه هذا النَظرُ السَاحِرُ ليرى أَكثَرَ ممَّا يرى غيرُهُ من أسرارِ السَخريةِ فينبَغُ في فنونها، أو هو قد خَلَقَ^(١) بهاتينِ العَينينِ الجَاحِظتينِ دَلالةً عَلَيه مِن القُدرةِ الإلهيَّةِ بِأنَّهُ رَجُلٌ فَذٌّ أُرسلَ لِتَدقيقِ النَظرِ.

وقالَ الَّذي عَرَّفني بِهِ: حَضرَتُهُ عمرو أفندي الجَاحِظ... وهو أديبُ الجَريدة.

قُلْتُ: شَيعُنا أبو عثمانَ عمرو بنُ بحر؟

فَضَحَكَ الجَاحِظُ وقالَ: وأديبُ الجَريدة، أي شَحاذُ الجَريدة، يَكتُبُ لَهَا كما يَقرأ القاريُّ على ضَريحٍ: بِالرَغيِفِ وَالجَينِ وَالبيَضِ وَالقرشِ...

قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ! فَكيفَ أَنتَهِيتَ يا أبا عثمانَ إلى هَذه النَهايةِ وَكُنْتَ من أعاجيبِ الدَنيا؟ وَكيفَ خَبتَ^(٢) في الصَحافةِ وَكُنْتَ رَأساً في الكَلامِ؟

قالَ: نَجَحْتُ أخلاقِي فخابَتْ آمالي، ولو جاءَ الوُضْعُ بِالعَكسِ لَكَانَ الأَمْرُ بِالعَكسِ؛ وَالْمَصبِيَّةُ في هَذه الصَحفِ أَنَّ رَجُلًا واحداً هو قانُونُ كُلِّ رَجُلٍ هَنا.

قُلْتُ: وَذاكَ الرَجُلُ الواحِدُ ما قانُونُهُ؟

قالَ: لَهُ ثلاثَةُ قَوانينٍ: الجَهاثُ العَاليَّةُ وما يَستَوحِيه مِنها، وَالجَهاثُ النازلَةُ وما يُوحِيه إِلَيهَا، وَقانُونُ الصَلَةِ بَينَ الجَهِتينِ وهو...

قُلْتُ: وَهو ماذا؟

فَحَمَلُونُ فيَّ وقالَ: ما هَذه أَلبلادَةُ؟ وَهو الَّذي (هو)... أَمَّا تَرى الصَحيْفَةُ كُكُلُ شَيءٍ يُباعُ؟ وَأَنتَ فَخَبَرَنِي - وَلَكَ الدَولَةُ وَالصَولَةُ عَندَ القَراءِ - أَلَم تَرَ بَينَنا أَنَّكَ لو جِئْتَ تَدفَعُ ثَمانمِائَةَ قَروشٍ، لَكُنْتَ في نَفسِهِم أَعظَمَ ممَّا أَنتَ وَقد جِئْتَ تَهدي ثَمانمِائَةَ صَفيحَةٍ مِن أَلبيانِ وَالأَدبِ؟

قُلْتُ: يا أبا عثمانَ، فَمَذا تَكتُبُ هَنا؟

قالَ: إِنَّ أَلكتابَةَ في هَذه الصَحافةِ صَورةٌ مِن الرَؤيَةِ، فَمَذا تَرى أَنتَ في... وفي... وفي؟... لَقد كُنا نَروي في الحَديثِ: «يَكونُ قومٌ يَأكلونَ الدَنيا بِالسَنتِهِم كما تَلحَسُ الأَرضُ البَقَرَةُ بِلسانِها»؛ فَلَعَلَّ من هَذه الأَللسَةِ الطَويِلَةِ لسانُ صَاحبِ الجَريدة...

(١) الخلق، بتسكين اللام: الهيئة.

(٢) خبت: فشلت.

قلت: ولكنك يا شيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة.

قال: القراء ما القراء، وما أدراك ما القراء! وهل أساس أكثرهم إلا بلادة المدارس، وسخافة الحياة، وضعف الأخلاق، وكذب السياسة؟ إن الإبداع كل الإبداع في أكثر ما تكتب هذه الصحف، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة... وما دام المبدأ هو الكذب، فالمظهر هو الهزل؛ والناس في حياة قد ماتت فيها المعاني الشديدة القويّة الساميّة، فهم يريدون الصحافة الرخيصة، واللغة الرخيصة، والقراءة الرخيصة؛ وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصحافة).

ودقّ الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير، فنهض إليه، ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان، بل خارجتان... وقال: أف! ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

كلّا والذي حرّم التزديد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهزج^(١) الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه^(٢).

قلت: ماذا دهاك يا أبا عثمان؟

قال: ويحها صحافة! قل في عمك ما قال المثل: جحظ إليه عمله.

قلت: ولكن ما القصة؟

قال: ويحها صحافة! وقال الأحنف: أربع من كن فيه كان كاملاً، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالح قوميه: دين يُرشدّه، أو عقل يُسدّده^(٣)، أو حسب يصونه، أو حياة يقناه. وقال: «المؤمن بين أربع: مؤمن يحسده، ومنافق ييغضه، وكافر يُجاهده، وشيطان يفتنه. وأربع ليس أقلّ منهن: أليقين، والعدل، ودرهم حلال، وأخ في الله». وقال الحسن بن علي: ...

قلت: يا شيخنا، دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف؛ فمذا دهاك عند رئيس التحرير؟

قال: لم أحسن المهاترة في المقال الذي كتبته اليوم... ويقول رئيس

(١) بهرج: عدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها بقصد التنويه.

(٢) يقصد من ذلك أنه نظر في فعله فرأى سوء صنيعه.

(٣) يسدّده: يهديه إلى الصراط المستقيم.

التحرير: إِنَّ نصفَ التَمويهِ رذيلة؟ فَإِنَّ نصفَهُ الْآخِرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَمويه . ويقول: إِنَّ سَمَوُ الْكِتَابَةِ أَنْحِطَاطٌ فَصِيحٌ، لِأَنَّ الْقُرَاءَ فِي هَذَا الْعَهْدِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَدِرَاسَةِ كِتَابِ الْعُلَمَاءِ وَالْفَصَحَاءِ، بَلْ مِنْ الرَوَايَاتِ وَالْمَجَلَّاتِ الْهَزْلِيَّةِ. وَحِفْظُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ يَضَعُ فِي النَّفْسِ قَانُونََ النَّفْسِ، وَيَجْعَلُ مَعَانِيَهَا مَهْيَأَةً بِالطَّبِيعَةِ لِلْاِسْتِجَابَةِ لِتِلْكَ الْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ فِي الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْجِدِّ وَالْقُوَّةِ؛ وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ الرَوَايَاتُ وَالْمَجَلَّاتُ وَصُورُ الْمُثَلَّاتِ الْمُغْنِيَاتِ وَخَبْرُ الطَّالِبِ فَلَانٍ وَالطَّالِبَةِ فَلَانَةٌ وَالْمَسَارِحُ وَالْمَلَاهِي؟

ويقول رئيس التحرير: إِنَّ الْكَاتِبَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ نَفْسَهُ مَا يُقَالُ عَنِّي فِي التَّارِيخِ، هُوَ كَاتِبُ الصَّحَافَةِ الْحَقِيقِيِّ، لِأَنَّ الْقُرُوشَ هِيَ الْقُرُوشُ وَالتَّارِيخُ هُوَ التَّارِيخُ؛ وَمَطْبَعَةُ الصَّحِيفَةِ النَّاجِحَةِ هِيَ بِنْتُ خَالَةِ مَطْبَعَةِ الْبَنكِ الْأَهْلِيِّ؛ وَلَا يَتَحَقَّقُ نَسَبٌ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي إِخْرَاجِ الْوَرَقِ الَّذِي يُضْرَفُ كُلُّهُ وَلَا يَرُدُّ مِنْهُ شَيْءٌ!

إنَّهم يُرِيدُونَ إِظْهَارَ الْمَخَازِيِ مَكْتُوبَةٍ، كَحَوَادِثِ الْفُجُورِ وَالسَّرْقَةِ وَالْقَتْلِ وَالْعِشْقِ وَغَيْرِهَا؛ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَخْبَارٌ تُرَوَّى وَتَقْصُّ لِلْحِكَايَةِ أَوْ الْعِبَرَةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا أَخْبَارُهُمْ إِلَى أَعْصَابِ الْقُرَاءِ...

* * *

ودقَّ الجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ التحرير...

صعاليك الصحافة...

٢

وغاب شيخنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعض ساعة، ثم رجع تدور عيناه في جحاطتيهما وقد أكفهر وجهه وعبس كائما يجري فيه الدم الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشق من الغيظ، وبعضه يغلي في بعضه كالماء على النار؛ فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقتا على كتفي أنفي تيمان كابة وجهه المشوه، فكان منظرهما من عينيه السوداودين الجاحظتين منظر ذبابتين ولدتا من ذبابتين...

وتركهما الرجل لسانيهما وسكت عنهما؛ فقلت له: يا أبا عثمان، هاتان ذبابتان، ويقال إن الذباب يحمل العدوى.

فضحك ضحكة المغيظ^(١) وقال: إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة. فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ: منها ما يستقدر وما تنقلب له النفس، وما فيه العدوى، وما فيه الضرر؛ وما بُد أن يعتاد الكاتب الصحفي من الصبر على بعض القول مثل ما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه؛ وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراذه على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة... كان أخف عليه وأهون، وكان ذلك أصرح في معنى الطلب والتكليف.

وكيفما دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لو مسحه الله شيئاً غير الحروف المطبعية، لطار كله ذباباً على وجوه القراء!

قلت: ولكنك يا أبا عثمان ذهبت متطلقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقداً فما الذي أنكرت منه؟

(١) المغيظ: الغاضب.

قال: «لو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَشْتَهِيهِ الْغَرِيرُ وَالْجَاهِلُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، لَبَطَلَ النَّظَرُ وَمَا يَشْحَذُ عَلَيْهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَعَانِيهَا وَالْعُقُولُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَلَعَدِمَتِ الْأَشْيَاءُ حُظُوظَهَا وَحُقُوقَهَا»، هناك رجلٌ من هؤلاءِ الْمَعْنِيِّينَ بِالسِّيَاسَةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ... يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْحَوَادِثِ غَيْرَ مَعَانِيهَا، وَيَرْبِطَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ بِأَسْبَابٍ غَيْرِ أَسْبَابِهَا، وَيُخْرِجُ مِنْهَا نَتَائِجَ غَيْرِ نَتَائِجِهَا، وَيُلْفِقُ لَهَا مِنْ الْمُنْطَقِ رُفْعاً كَهَذَا الرُّقْعِ فِي الثُّوبِ الْمَفْتُوقِ؛ ثُمَّ لَا يَرْضَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِذَلِكَ رَدّاً عَلَى جَمَاعَةٍ خُصُومِهِ وَهِيَ رَدُّ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمَاعَتِهِ، وَلَا يَرْضَى مَعَ الرَّدِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَالْأَعَاصِيرِ تَدْفَعُ مِثْلَ تَيَّارِ الْبَحْرِ فِي الْمُسْتَنْفَعِ الرَّكَادِ.

ثُمَّ لَمْ يَجِدْ لَهَا رَئِيسَ التَّحْرِيرِ غَيْرَ عَمِّكَ أَبِي عَثْمَانَ فِي لَطَافَةِ حِسِّهِ وَقُوَّةِ طَبْعِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَأَقْتِدَارِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَضِدِّهِ، كَأَنَّ أَبَا عَثْمَانَ لَيْسَ عِنْدَهُ مِمَّنْ يُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا مِنْ الْمُمَيِّزِينَ فِي الرَّأْيِ، وَلَا مِنْ الْمُسْتَدْلِينَ بِالْأَدْلِيلِ، وَلَا مِنْ الْنَاطِرِينَ بِالْحُجَّةِ؛ وَكَأَنَّ أَبَا عَثْمَانَ هَذَا رَجُلٌ خُرُوفِي...

كحروفِ المطبعة: تُرْفَعُ مِنْ طَبَقَةٍ وَتُوضَعُ فِي طَبَقَةٍ وَتَكُونُ عَلَى مَا شِئَتْ، وَأَدْنَى حَالَاتِهَا أَنْ تَمُدَّ إِلَيْهَا أَلِيْدٌ فَإِذَا هِيَ فِي يَدِكَ.

وَأَنَا أَمْرٌ سَيِّدٌ فِي نَفْسِي، وَأَنَا رَجُلٌ صَدَقَ، وَلَسْتُ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَتَأَمَّمُونَ^(١) وَلَا يَتَذَمَّمُونَ^(٢)؛ فَإِنْ خَضْتُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْتَفَضَ طَبْعِي وَضَعُفَتْ أَسْتَطَاعَتِي وَتَبَيَّنَ النِّقْصُ فِيمَا أَكْتُبُ، وَنَزَلْتُ فِي الْجِهَتَيْنِ؛ فَلَا يَطْرُدُ لِي الْقَوْلُ عَلَى مَا يَرْجُو، وَلَا يَسْتَوِي عَلَى مَا أُحِبُّ؛ فَذَهَبْتُ أَنْاقِضُهُ وَأَرَدْتُ عَلَيْهِ؛ فَبُهِتَ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيَقْلُبُ عَيْنَيْهِ فِي وَجْهِي، كَأَنَّ الْكَاتِبَ عِنْدَهُ خَادِمٌ رَأْيَهُ كَخَادِمٍ مَطْبَخِهِ وَطَعَامِهِ، هَذَا مِنْ هَذَا!.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا أَبَا عَثْمَانَ، إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أُعْتَفَكَ؛ وَبِهَذَا الْقَوْلِ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يُعْتَفَ أَبَا عَثْمَانَ... وَلِهَمْمْتُ - وَاللَّهِ - أَنْ أُشَدَّهُ قَوْلَ عَبَّاسِ بْنِ مُرْدَاسٍ:

أَكْلَيْبُ... مَالِكُ كُلِّ يَوْمٍ ظَالِمًا وَالظُّلُمُ أَنْكَدُ وَجْهَهُ مَلْعُونٌ...
لَوْلَا أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ الْآخِرِ:

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعًا وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرِ حَزِّ الْغَلَاصِمِ

(١) يَتَأَمَّمُونَ: يَشْعُرُونَ بِالْإِلَهَامِ.

(٢) يَتَذَمَّمُونَ: يَشْعُرُونَ بِالذَّمِّ.

وحزُّ الغلاصم^(١) «وقطع الدرهم» من قافية واحدة... وقال سعيد بن أبي عروبة: «لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر - أحب إلي من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين». وقال أيوب السخيتاني...

وهم شيخنا أن يمر في الحفظ والرواية على طريقته، فقلت: وقال رئيس التحرير...؟

فضحك وقال: أما رئيس التحرير فيقول: إن الخلافة والمُواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء - صلوات الله عليهم -؛ فكما انقلبت العصا حية تسعى، وهي عصا وهي من الخشب، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة؛ فتكون للتهويل، وهي في ذاتها أطمثنان، وللتهمة وهي في نفسها براءة، وللجناية وهي في معناها سلامة: ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبها الأحمر في دخانها الأسود. قال: وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتيان الحيلة على أن يصدقك الناس؛ فإن العامة وأشباه العامة لا يصدقون الصدق لنفسه، ولكن للغرض الذي يساق له، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتفديس، فأذفهم حلاوة الإيمان بالكذب فلز يعرفوه إلا صدقاً وفوق الصدق، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهين العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب، ليحققوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودققوا...

ثم قال أبو عثمان: ومعنى هذا كله أن بعض دور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للإعلان لكانت العبارة هكذا: سياسة للبيع...

قلت: يا شيخنا، فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب: تقرأ فيها معانٍ لا تكتب، ويكون في عبارتها حياة وفي ضميرها طلب ما يستحى منه... والحوادث عندهم على حسب الأوقات،

(١) الغلاصم، مفردة الغلصمة وهو اللحم بين الرأس والعنق، أو العجوة على ملتقى... أة أم المرىء، أو رأس الحلقوم.

فَالْأَبْيَضُ أَسْوَدُ فِي اللَّيْلِ، وَالْأَسْوَدُ أَبْيَضُ فِي النَّهَارِ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى فَلَانٍ كَيْفَ يَصْنَعُ
وَكَيْفَ لَا يُعْجِزُهُ بَرَهَانٌ وَكَيْفَ يُخْرِجُ الْمَعَانِي؟

قال: بلى، نَعَمْ الشَّاهِدُ هُوَ وَأَمثَالُهُ! . إِنَّهُمْ مُصَدِّقُونَ حَتَّى فِي تَارِيخِ حَفْرِ زَمْزَمَ .
قلت: وكيف ذلك؟

قال: شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ بَعْضِ الْقَضَاةِ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ، فَأَرَادَ هَذَا أَنْ يَجْرَحَ
شَهَادَتَهُ، فَقَالَ لِلْقَاضِي: أَتَقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ رَجُلٌ يَمْلِكُ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَحْجْ إِلَى
بَيْتِ اللَّهِ؟ فَقَالَ الشَّاهِدُ: بَلَى قَدْ حَجَجْتُ. قَالَ الْخَصْمُ؛ فَاسْأَلَهُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ
زَمْزَمَ كَيْفَ هِيَ؟ قَالَ الشَّاهِدُ: لَقَدْ حَجَجْتُ قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ زَمْزَمَ فَلَمْ أَرَهَا. . .

قال أبو عثمان: فهذه هي طريقة بعضهم فيما يُرْكِي بِهِ نَفْسَهُ: يَنْزِلُونَ إِلَى مِثْلِ
هَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ أَرْتَفَعُوا عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ؛ إِذْ كَانَتْ الْحَيَاةُ السِّيَاسِيَّةُ جَدَلًا فِي
الصَّحْفِ لِنَفْيِ الْمُنْفَى وَإِثْبَاتِ الْمُثْبِتِ، لَا عَمَلًا يَعْمَلُونَهُ بِالْإِثْبَاتِ؛ وَمَتَى
أَسْتَقْلَلْتُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَجِبَ تَغْيِيرُ هَذِهِ الصَّحَافَةِ وَإِكْرَاهُهَا عَلَى الصَّدَقِ، فَلَا يَكُونُ
الشَّأْنُ حِينَئِذٍ فِي إِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ الصَّحَافِيَّةِ إِلَّا مِنْ مَعْنَاهَا الْوَاقِعِ.

وَالْحَيَاةُ الْمُسْتَقْلِلَةُ ذَاتُ قَوَاعِدَ وَقَوَائِنَ دَقِيقَةٍ لَا يُتْرَخَّصُ^(١) فِيهَا مَا دَامَ أَاسَاسُهَا
إِيْجَادَ الْقُوَّةِ وَحَيَاطَةَ الْقُوَّةِ وَأَعْمَالَ الْقُوَّةِ، وَمَا دَامَتْ طَبِيعَتُهَا قَائِمَةً عَلَى جَعْلِ أَخْلَاقِ
الشَّعْبِ حَاكِمَةً لَا مُحْكَمَةً؛ وَقَدْ كَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ إِلَى الْآنِ هُوَ إِيْجَادُ الضَّعْفِ
وَحَيَاطَةُ الضَّعْفِ وَبَقَاءُ الضَّعْفِ؛ فَكَانَتْ قَوَاعِدُنَا فِي الْحَيَاةِ مَغْلُوطَةً؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ
الْخُلُقُ الْقَوِيُّ الصَّحِيحُ هُوَ الشَّاذُّ النَّادِرُ يَظْهَرُ فِي الرَّجُلِ بَعْدَ الرَّجُلِ وَالْفَتْرَةُ بَعْدَ
الْفَتْرَةِ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ عِنْدَنَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُنَافِقِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَرِّ، وَمِنْ
الْكَاذِبِ أَكْثَرُ مِنَ الصَّادِقِ، وَمِنْ الْمُمَارِي أَكْثَرُ مِنَ الصَّرِيحِ؛ فَلَا جَرَمَ أَرْتَفَعَتِ
الْأَلْقَابُ فَوْقَ حَقَائِقِهَا، وَصَارَتْ نَعَوْتُ الْمَنَاصِبِ وَكَلِمَاتُ بَاشَا وَبِكٍ مِنَ الْكَلَامِ
الْمَقْدَّسِ صَحَافِيًّا. . .

يَا لَعِبَادِ اللَّهِ! يَأْتِيهِمْ أَسْمُ الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مَوْضِعًا فِي «مَحَلِّيَّاتِ
الْجَرِيدَةِ»؛ وَيَأْتِيهِمْ اسْمُ الْبَاشَا أَوْ الْبِكِ أَوْ صَاحِبِ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرِ فَبِمَاذَا تَتَشَرَّفُ
«الْمَحَلِّيَّاتُ» إِلَّا بِهِ؟ وَهَذَا طَبِيعِي، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَةِ الْنِفَاقِ؛ وَهَذَا وَاجِبٌ، وَلَكِنْ
حِينَ يَكُونُ الْخُضُوعُ هُوَ الْوَاجِبُ؛ وَلَوْ أَنَّ لِلْأَدِيبِ وَزْنَ فِي مِيزَانِ الْأُمَّةِ لَكَانَ لَهُ مِثْلُ

(١) يترخص: يتساهل.

ذلك في ميزانِ الصحافة؛ فأنت ترى أنَّ الصحافةَ هنا هي صورةٌ من عاميةِ الشعبِ ليسَ غير... ومَنْ ذا الَّذي يُصحِّحُ معنى الشرفِ العاملِ لهذه الأُمَّةِ وتاريخها، وأكثرُ الألقابِ عندنا هي أغلاطٌ في معنى الشرف...؟

ثمَّ ضحك أبو عثمانَ وقال: زعموا أنَّ ذبابةً وقعت في بارجةٍ (أميرال) إنجليزيٍّ أيامَ الحربِ العظمى؛ فرأتِ ألفائدَ العَظيمَ وقد نشرَ بين يديه دُرْجاً منَ الورقِ وهو يُخطِّطُ فيه رسماً من رسومِ الحزبِ؛ ونظرتْ فإذا هو يُلقي النقطةَ بعدَ النقطةِ مِنَ المِدادِ ويقول: هذه مدينةٌ كذا، وهذا حِصْنُ كذا، وهذا ميدانُ كذا. قالوا: فسخرتْ منه الذبابةُ وقالت: ما أيسرَ هذا العملَ وما أخفُّ وما أهون! ثمَّ وقعتْ على صفحةٍ بيضاءَ وجعلتْ تُلقي وَنِيمَهَا^(١) هنا وهناك وتقول: هذه مدينةٌ، وهذا حصن... .

والتفتَ الجاحظُ كأنما توهمَ الجرسَ يدقّ... فلما لم يسمع شيئاً قال: لو أنني أصدرتُ صحيفةً يوميةً لسميتها (الأكاذيب)، فمهما أكذبُ على الناسِ فقد صدقتُ في الاسمِ، ومهما أخطيءُ فلنُ أخطيءُ في وضعِ النفاقِ تحتَ عنوانه. قال: ثمَّ أخطُ تحتَ اسمِ الجريدةِ ثلاثةَ أسطرٍ بِالخطِّ أَلثُك هذا نصّها: ما هي عِزَّةُ الأذلاء؟ هي الكذبُ الهازل. ما هي قوَّةُ الضعفاء؟ هي الكذبُ المكابر. ما هي فضيلةُ الكذابين؟ هي استمرارُ الكذب.

قال: ثمَّ لا يحزُّ في جريدتي إلَّا «صعاليكُ الصحافة» من أمثالِ الجاحظِ؛ ثمَّ أكذبُ على أهلِ المالِ فأمجِّدُ الفقراءَ العاملين، وعلى رجالِ الشرفِ فأعظِّمُ العمالَ المساكينَ، وعلى أصحابِ الألقابِ فأقدِّمُ الأدباءَ والمؤلفين، و... ودقَّ الجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ التحرير...

(١) ونيم الذباب: هو ما تحدّثه من نقط سود على الآنية أو الزجاج وما شاكل.

صعاليكُ الصحافة

٣

ولم يلبث أن رجَعَ أبو عثمان في هذه المرّة وكأنّه لم يكن عند رئيس التحرير في عملٍ وأدائه، بل كان عند رئيس الشرطة في جناية وعقابها؛ فظهر مُنْقَلِبُ السُّحْنَةِ أنقلاباً دميماً شوّه تشويهه وزاد فيه زيادات... ورأيتُه ممطوطَ الوجهِ مطّاً شنيعاً بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنّهما غيرُ مستقرتين في وجهه، بل معلقتان على جبهته...

وجعلَ يضربُ إحدى يديه بالأخرى ويقول: هذا بابٌ على حِدّة في الامتحان والبلوى، وما فيه إلاّ المؤنّة العظيمة والمشقة الشديدة؛ والعملُ في هذه الصحافة إنّما هو امتحانك بالصبر على اثنين: على ضميرك، وعلى رئيس التحرير! «وسألَ بعضُ أصحابنا أبا لقمانَ الممرورَ عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو؟ فقال: الجزء الذي لا يتجزأ عليّ بنُ أبي طالب - عليه السلام - فقال له أبو العيناء محمد: أفليس في الأرضِ جزءٌ لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى، حمزةٌ جزءٌ لا يتجزأ... قال: فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمر؟ قال: أبو بكرٍ يتجزأ... قال: فما تقولُ في عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزبيرُ يتجزأ مرتين... قال: فأيّ شيءٍ تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزأ.

«فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعلَ الأيامَ أجزاءً لا تتجزأ إلى أي شيء ذهب؟ فلمْ نفعِ عليه إلاّ أن يكونَ أبو لقمانَ كان إذا سمعَ المتكلمينَ يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ، هالَهُ ذلك وكَبُرَ في صدره وتوهُّمَ أنّه البابُ الأكبرُ من علمِ الفلسفة، وأنّ الشيءَ إذا عَظُمَ خطرُه سَمُوهُ بالجزء الذي لا يتجزأ».

قلت: ورجع بنا القولُ إلى رئيس التحرير...

فضحك حتى أسفرَ وجهه^(١) ثم قال: إنّ رئيس التحرير قد تلقى الساعةَ أمراً

(١) أسفر وجهه: بان عن شيء.

بأنَّ الجزءَ الَّذي لا يتجزأُ اليومَ هو فلان؛ وأنَّ فلاناً الآخرَ يتجزأُ مرتين... وأنَّ المعنى الَّذي يبني عليه رأيُ الصحيفة في هذا النهار هو شأنُ كذا في عملِ كذا؛ وأنَّ هذا الخبرَ يجبُ أن يُصوَّرَ في صيغةٍ ثلاثٍ جوعَ الشعبِ فتجعلُهُ كَالخَبَرِ الَّذي يَطْعُمُهُ كُلُّ النَّاسِ، وتُثِيرُ لَهُ شهوةً في النفوسِ كشهوةِ الأكلِ وطبيعةَ كطبيعةِ الهضم... وقد رمى إليَّ رئيسُ التحريرِ بِجَمَلَةِ الْخَبَرِ، وعليَّ أنا بعدَ ذلك أنْ أَضْرِمَ^(١) النَّارَ وأنْ أجعلَ التُّرابَ دَقِيقاً أبيضَ يُعَجَّنُ وَيُخَبَزُ وَيُوكَلُ وَيَسْوَعُ في الحلقِ وتستمرُّهُ المَعِدَةُ ويسري في العروقِ.

وإذا أنا كُتِبْتُ في هذا أَحتَجُّ مِنَ التَّرْقِيعِ وَالتَّمْوِيهِ، وَمِنَ التَّدْلِيسِ^(٢) وَالتَّغْلِيطِ، وَمِنَ الْخَبِّ^(٣) وَالْمَكْرِ، وَمِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ - إلى مثل ما يحتاجُ إليه الزنديقُ^(٤) والدَّهْرِيُّ^(٥) وَالْمَعْطَلُ^(٦) في إقامةِ البرهاناتِ على صِحَّةِ مذهبٍ عَرَفَ النَّاسُ جَمِيعاً أَنَّهُ فَاسِدٌ بِالضَّرُورَةِ إِذْ كَانَ مَعْلُوماً مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، أَنَّهُ فَاسِدٌ؛ وَأَيْنَ تَرَى إِلَّا فِي تِلْكَ التَّحْلِ^(٧) وفي هذه الصَّحَافَةِ أَنْ يُنْكَرَ الْمُتَكَلِّمُ وهو عارفٌ أَنَّهُ مُنْكَرٌ، وَأَنْ يَجْتَرِيَ وهو مُوقِنٌ أَنَّهُ مُجْتَرِيٌّ، وَيُكَايِرُ وهو واثقٌ أَنَّهُ يُكَايِرُ؟ فَقَدْ ظَهَرَ تَقْدِيرٌ مِنْ تَقْدِيرِ، وَعَمَلٌ مِنْ عَمَلٍ، وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذْهَبٍ؛ وَالْآفَةُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْإِقْنَاعِ وَالْجَدَلِ وَالْمُغَالَطَةِ إِلَّا الْحَقَائِقَ الْمُؤَكَّدَةَ؛ يَأْخُذُونَهَا إِذَا وَجَدَتْ وَيَصْنَعُونَهَا إِنْ لَمْ تَوْجَدْ، إِذْ كَانَ التَّأْثِيرُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجَعْلِ الْقَارِئِ كَالْحَالِمِ: يَمْلِكُهُ الْفِكْرُ وَلَا يَمْلِكُ هو مِنْهُ شَيْئاً، وَيُلْقَى إِلَيْهِ وَلَا يَمْتَنَعُ، وَيُعْطَى وَلَا يَرُدُّ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ.

قلت: ولكن ما هو الخبرُ الَّذي أرادوك على أن تجعلَ من تراه دَقِيقاً أبيض؟ قال: هو بعينه ذلك الشَّأنُ الَّذي كُتِبْتُ فيه لهذه الصحيفة نفسها أنقضه وأُسْفِهه وأردُّ عليه، وكان يومئذٍ جزءاً يتجزأ... فإن صنعتُ اليومَ بلاغتي في تأييده وتزيينه والإشادة به، ولم يكن هذا كاسراً لي، ولا حائلاً بيني وبين ذاتِ نفسي -

(١) أضرم النار: أشعلها.

(٢) التدليس: هو كتمان عيب السلعة عن المشتري ومنه التدليس في الإسناد وهو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه.

(٣) الخب: الخداع.

(٤) الزنديق: هو من كان يخفي ديناً ويظهر آخر عند الفرس.

(٥) الدهري: هو من يؤمن بإفناء الدهر للمخلوقات، ولا يؤمن بالله سبحانه وتعالى.

(٦) المعطل: هو من يؤمن بأن الله عز وجل غير فاعل في الكون، وأنه لا يسيره.

(٧) النحل، مفردة نحلة أي المذهب.

فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ، أو لو وُضِعَ الرديو في غرف رؤساء التحرير لسمع الناس . . .

قلت: يا أبا عثمان، هذا كقولك: لو وُضِعَ الرديو في غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات.

قال: ليس هذا من هذا، فإن للجيش معنى غير الحذقي^(١) في تدبير المعاش والتكسب وجمع المال؛ وفي أسرار أسرار قوة الأمة وعمل قوتها؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلاناً ارتفع وأن فلاناً انخفض، ولا تُصرفها العشرة أكثر من الخمسة؛ وفي أسرارها أسرار وجود الأمة ونظام وجودها.

قال أبو عثمان: وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القاري المميز الصحيح لقراءة الصحيح التمييز، ثم هي تريد أن تذهب أموالها في إيجاده وتنشئته؛ وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن في تحريكها وتيسير مجراها، غير أن المضحك أن تبارنا مع سفينة ويرجع مع سفينة . . . ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركاً مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة، ولا خرجت عن النسق الطبيعي الذي وضعت له، فإن الشعب تحكمه الحكومة، وإن الحكومة تحكمها الصحافة، فهي من ثم لسان الشعب؛ وإنما يقرأها القاري ليرى كلمته مكتوبة؛ وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع، هو الذي يوجب عليه أن يتابع كل يوم صحيفة اليوم.

قال أبو عثمان: فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها، فهو مشارك في الرأي لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأي، مُتَتَّعٌ للحوادث لأنه هو من مادتها أو هي من مادته، وهو لذلك يريد من الصحافة حكاية الوقت وتفسير الوقت، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر، فيلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية، وتأتي إليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره.

وفي قلة القراء عندنا آفتان: أما واحدة فهي القلة التي لا تُغني شيئاً؛ وأما الأخرى فهم على قِلَّتِهِم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم، وزرابة أناس

(١) الحذق: المهارة.

بآخرين، وتعلّق نفاق بِنفاق، وتصديق كذبٍ لكذب؛ وآفةُ ثالثةٌ تخرجُ من اجتماع الأثنتين: وهي أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلّهون به، أو كالفرّاغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت؛ فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها، ويتعاطون الجِدَّ تعاطي من يلهر به، ويتلقّون الأعمال بروح البطالة، والعزائم بأسلوبٍ عدم المبالاة، والمباحثة بفكرة الإهمال، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير؛ وهم كالمصلّين في المسجد؛ فمثل لنفسك نوعاً من المصلّين إذا أصطفوا وراء الإمام تركوه يُصلّي عن نفسه وعنهم وأنصرفوا...

قال أبو عثمان: بهذا ونحوه جاءت الصحفُ عندنا وأكثرها لا ثبات لهُ إلا في الموضوع الذي تكون فيه بين منافعِهِ ووسائل منافعِهِ؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادةِ عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءةً حكومةً وسلطةً وباشاوتٍ وبيكوات... وكان من الطبيعي أن محلّ الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهية لا يكون من الجريدة إلا في موضع قلب الحي من الحي.

ثم استضحك شيخنا وقال: لقد كتبت ذات يوم مقالةً اقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب، وذلك بوضع لقبٍ جديدٍ يكون هو المفسّر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها، فإذا أنعم به على إنسانٍ كتبت الصحف هكذا: أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال).

ودقّ الجرسُ يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير...

فلم يلبث إلا يسيراً ثم عاد متهللاً ضاحكاً وقد طابّت نفسه فليس له جحوظ العنين إلا بالقدر الطبيعي، وجلس إليّ وهو يقول:

بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال، ولم ير فيه استطرافاً^(١) ولا ابتكاراً ولا نُكتةً ولا حُجةً صادقة، بل قال: كأنك يا أبا عثمان تُريد أن يأكل عددُ اليوم عددُ الغد، فإذا نحن زهدنا في الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكّمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الإنساني وتركت من لم ينلها من ذوي الجاه والغنى يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمراة المطلقة بجانب المتزوجة... وقلنا إنها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والتفاني لمن يدهم الأمر، أو

(١) استطرافاً: جدّة.

وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها في عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان الوسام كآلركة من جلد الدولة يرقع بها الصدر الذي شقوه وأنتزعوا ضميره - إذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا، لم نجد الشعب الذي يحكم لنا، ووجدنا ذوي المال وآجاء والمناصب الذين يحكمون علينا؛ فكنا كمن يتقدم في التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف.

يا أبا عثمان، إنما هي حياة ثلاثة أشياء: الصحيفة، ثم الصحيفة، ثم الحقيقة... فالفكرة الأولى للصحيفة، والفكرة الثانية هي للصحيفة أيضاً؛ ومتى جاء الشعب الذي يقول: لا، بل هي الحقيقة، ثم الحقيقة، ثم الصحيفة - فيومئذ لا يقال في الصحافة ما قيل لليهود في كتاب موسى ﴿تَجْعَلُونَهُمْ قَرَأِيسَ يَبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

قلت: أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير في هذه المرة، فشق عليك ألا تثبته، فغمزته بالكلام عن مرة سالفه.

قال: أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو، وفي مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة)؛ إن الرجل أشتبه في كلمة: ما وجهها: أمر فوعة هي أم منصوبة؟ وفي لفظة: ما هي: أعريئة أم مولدة؟ وفي تعبير أعجمي: ما الذي يؤديه من العربية الصحيحة؟ وفي جملة: أهي في نسقها أفصح أم يبدلها؟ إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا إذا نطق...

ولقد أبليت هذه الأمة في عهدها الأخير بحب سهولة مما أثر فيها الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها وأستهدافه دونها للخطر، فشبه العامية في لغة الصحف وفي أخبارها وفي طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة، وكأنه تنبئت للضعف والخور^(١)، وأنت خبير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلاً، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية في كتابة أكثر المجلات وفي رسائل طلبة المدارس، حتى تبدوا المقالات في ألفاظها ومعانيها كأنها ألفنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره، فقرض عنقوداً من العنب، فألقاه في الأرض وأتربه وتمرغ فيه، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة في عشرين إبرة من شوكة.

(١) الخور: الضعف.

ثُمَّ مَدَّ أَبُو عَثْمَانَ يَدَهُ فَتَنَاوَلَ مَجَلَّةً مِمَّا أَمَامَهُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا اتَّفَاقاً ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: إِقْرَأْ وَلَا تَجَاوِزْ عُنْوَانَ كُلِّ مَقَالَةٍ. فَقَرَأْتُ هَذِهِ الْعُنَاوِينَ:

«مَسْئُولِيَّةُ طَبِيبٍ عَنْ فَتَاةٍ عِذْرَاءٍ»، «مَوَدَّةُ الْأَرَاقِصَاتِ الصَّيْنِيَّاتِ»، «تَخَرُّ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ أَكْتَشَفُوا صُورَةَ حَبِيبِهَا»، «هَلْ يُعْتَبَرُ قَبُولُ الْهَدِيَّةِ دَلِيلًا عَلَى الْحُبِّ»، وَإِذَا كَانَتْ مَلَابِسُ دَاخِلِيَّةٍ . . . فَهَلْ تُعْتَبَرُ وَعْدًا بِالزَّوْاجِ؟»، «هَلْ يَحِقُّ لِلْأَبِ أَنْ يُطَالِبَ صَدِيقَ ابْنَتِهِ . . . بِتَعْوِيزِ إِذَا كَانَتْ ابْنَتُهُ غَيْرَ شَرِيعَةٍ»، «بَيْنَ خَطِيبَتَيْنِ لِشَابٍّ وَاحِدٍ»، «بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَى زَوْجَتِهِ أَخْبَارَ الْكُسْهَرَةِ . . . لِمَاذَا أَطْلَقْتَ عَلَيْهِ الْرِصَاصَ؟»، «عُرُوسٌ تَأْخُذُ (شَبَكَةً) مِنْ شَابِينَ ثُمَّ تَطْرُدُهُمَا»، «زَوْجَةُ الْمُوَظَّفِ أَيْنَ ذَهَبَتْ؟»، «لِمَاذَا خُطِفَتِ الْعُرُوسُ فِي الْيَوْمِ الْمَحْدَدِ لِلزَّفَافِ؟» «فِي الطَّرِيقِ: حُبٌّ بِالْإِكْرَاهِ»، «فِلَانُونَ وَفِلَانَاتُ، زَوَاجٌ وَطَلَاقٌ، وَأَخْبَارُ الْمَرَاقِصِ، وَحَوَادِثُ أَمَاكِنِ الدَّعَارَةِ» إلخ إلخ.

فَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ: هَذِهِ هِيَ حُرِيَّةُ النِّشْرِ؛ وَلَئِنْ كَانَ هَذَا طَبِيعِيًّا فِي قَانُونِ الصَّحَافَةِ إِنَّهُ لِأَثَمٌ كَبِيرٌ فِي قَانُونِ التَّرْبِيَةِ؛ فَإِنَّ الْأَحْدَاثَ وَالضَّعْفَاءَ يَجِدُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَالْتَّخْيِيرِ بَيْنَ الْأَخْذِ بِالْوَاجِبِ وَبَيْنَ تَرْكِهِ، وَلَا يَفْهَمُونَ مِنْ جَوَازِ نَشْرِهِ إِلَّا هَذَا. «وَبَابٌ آخَرٌ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ فَبِكُمْ أَعْظَمُ حَاجَةٍ إِلَى أَنْ تَعْرِفُوهُ وَتَقْفُوهُ عِنْدَهُ، وَهُوَ مَا يَصْنَعُ الْخَبِيرُ وَلَا سَيِّمًا إِذَا صَادَفَ مِنَ السَّامِعِ قَلَّةَ تَجَرِبَةٍ، فَإِنْ قَرَنَ بَيْنَ قَلَّةِ التَّجَرِبَةِ وَقَلَّةِ التَّحْفِظِ - دَخَلَ ذَلِكَ الْخَبِيرُ إِلَى مُسْتَقَرِّهِ مِنَ الْقَلْبِ دُخُولًا سَهْلًا، وَصَادَفَ مَوْضِعًا وَطِيبًا وَطَبِيعَةً قَابِلَةً وَنَفْسًا سَاكِنَةً، وَمَتَى صَادَفَ الْقَلْبَ كَذَلِكَ رَسَخَ رُسُوخًا لَا حِيلَةَ فِي إِزَالَتِهِ.

وَمَتَى أُلْقِيَ إِلَى الْفَتَيَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الْفَتَيَاتِ فِي وَقْتِ الْغُرَارَةِ وَعِنْدَ غَلَبَةِ الطَّبِيعَةِ وَشَبَابِ الشَّهْوَةِ وَقَلَّةِ التَّشَاغُلِ وَ . . .».

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عَثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ . . .

صعاليك الصحافة

تتمة

وجاء أبو عثمان وفي بُرُوزِ عينيه ما يجعلُهُما في وجهه شيئاً كعلامتي تعجب
الفتنهما الطبيعة في هذا الوجه ، وقد كانوا يُلَقَّبُونَهُ (الْحَدَقِي) فوق تلقيبه بِالْجَاحِظِ ،
كَأَنَّ لِقَباً واحداً لا يُبَيِّنُ عن قبح هذا أَلْتَوَّءِ في عينيه إلا بمرادفٍ ومُساعدٍ مِنَ
اللغة . . . وما تَذَكَّرْتُ أَلَلِّقِينَ إِلَّا حِينَ رَأَيْتُ عينيه هذه المرة .

وَأَنحَطُّ في مجلسه كأنَّ بعضَهُ يرمي بعضَهُ من سخطٍ وغيظٍ ، أو كأنَّ من
جسمه ما لا يُريدُ أَنْ يَكُونَ من هذا أَلْخَلْقِ المَشْوَّه ، ثُمَّ نَصَبَ وجهَهُ يتأملُ ، فَبَدَتْ
عيناهُ في خروجِهما كأنَّما تَهْمَانِ بِالْفِرَارِ من هذا أَلْوَجْهِ الَّذِي تحيا أَلْكَابَةُ فيه كما
يحيا أَلْهَمُ في أَلْقَلْبِ ؛ ثُمَّ سَكَتَ عن أَلْكَلامِ لِأَنَّ أَفْكَارَهُ كانت تُكَلِّمُهُ .

فقطعتُ عليه أَلَصَمْتَ وقلتُ : يا أبا عثمان ، رجعتُ من عندِ رئيسِ التحريرِ
زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً ؛ فما هو - يرحمُكَ اللهُ - ؟

قال : رجعتُ زائداً أَنِّي ناقصٌ ، وههنا شيءٌ لا أقوله ولو أَنَّ في الأَرْضِ
ملائكةٌ يمشون مطمئننين لوقفوا على عَمِّكَ وأمثالِ عَمِّكَ من كُتَّابِ أَلْصحفِ
يتعجبون لهذا أَلنوعِ أَلجديدِ مِنَ أَلشهداءِ ! .

وقالَ أَبْنُ يحيى أَلنديم : دعاني أَلمتوكُلُ ذاتِ يومٍ وهو مخمورٌ فقال : أنشدني
قولَ عَمارةٍ في أهلِ بغدادَ . فَأَنشدتُهُ :

وَمَنْ يَشْتَرِي مَنِّي مَلُوكَ مَحْزَمٍ	أَبْغِ حَسَناً وَأَبْنِي هِشامَ بِدَرْهَمٍ
وَأَعْطِ «رَجاء» بَغْدَا ذاكَ زِيادَةً	وَأَمْنَحْ «ديناراً» بَغْيَرِ تَنْدُمٍ

قال أبو عثمان :

فإِنْ طَلَبُوا مَنِّي أَلزِيادَةَ زِدْتُهُمُ أبا دُلْفٍ وَأَلْمستطيلَ بَنَ أَكْثَمِ
ويلي على هذا أَلشاعر! أَثْنانِ بِدَرْهَمٍ ، وَأَثْنانِ زِيادَةً فَوْقَهُما لِعَظَمِ أَلدَرْهَمِ ،

وَأَتْنَانِ زِيَادَةً عَلَى الزِّيَادَةِ لِجَلَالَةِ الدَّرْهِمِ : كَأَنَّهُ رَئِيسُ تَحْرِيرِ جَرِيدَةٍ يَرَى الدُّنْيَا قَدْ مَلِئَتْ كُتُبًا، وَلَكِنْ هُنَا شَيْئًا لَا أَقُولُهُ .

وَزَعَمُوا أَنَّ كَسْرَى أَبْرُويزَ كَانَ فِي مَنْزِلِ أَمْرَأَتِهِ شِيرِينَ ، فَأَتَاهُ صِيَادٌ بِسَمَكَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَأَعْجَبَ بِهَا وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرْهِمٍ . فَقَالَتْ لَهُ شِيرِينَ : أَمَرْتَ لِلصَّيَادِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرْهِمٍ ، فَإِنْ أَمَرْتَ بِهَا لِرَجُلٍ مِنَ الْوُجُوهِ قَالَ : إِنَّمَا أَمَرَ لِي بِمِثْلِ مَا أَمَرَ لِلصَّيَادِ ! فَقَالَ كَسْرَى : كَيْفَ أَصْنَعُ وَقَدْ أَمَرْتُ لَهُ؟

قَالَتْ : إِذَا أَتَاكَ فَقُلْ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذْكَرُ هِيَ أَمْ أَنْثَى؟ فَإِنْ قَالَ أَنْثَى ، فَقُلْ لَهُ : لَا تَقْعُ عَيْنِي عَلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِقَرِينِهَا ، وَإِنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقُلْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا غَدَا الصَّيَادُ عَلَى الْمَلِكِ قَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذْكَرُ هِيَ أَمْ أَنْثَى؟ قَالَ : بَلْ أَنْثَى ، قَالَ الْمَلِكُ : فَأْتِيَنِي بِقَرِينِهَا . فَقَالَ الصَّيَادُ : عَمَرَ اللَّهُ الْمَلِكُ ، إِنَّهَا كَانَتْ بِكَرًّا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ . . .

قُلْتُ : يَا أَبَا عَثْمَانَ ، فَهَلْ وَقَعْتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَعْضَلَةِ مَعَ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ؟ قَالَ : لَمْ يَنْفَعْ عَمَّكَ أَنَّ سَمَكَتَهُ كَانَتْ بِكَرًّا ، فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ إِخْرَاجَهُ مِنَ الْجَرِيدَةِ؛ وَمَا بِلَاغَةُ أَبِي عَثْمَانَ الْجَاحِظِ بِجَانِبِ بِلَاغَةِ التَّلْغَرَاثِ وَبِلَاغَةِ الْخَبَرِ وَبِلَاغَةِ الْأَرْقَامِ وَبِلَاغَةِ الْأَصْفَرِ وَبِلَاغَةِ الْأَبْيَضِ . . . وَلَكِنْ هُنَا شَيْئًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ .

وَسَمَكَتِي هَذِهِ كَانَتْ مَقَالَةً جَوْدَتْهَا وَأَحْكَمَتْهَا وَبَلَّغَتْ بِالْفَاطِظِهَا وَمَعَانِيهَا أَعْلَى مَنَازِلِ الشَّرَفِ وَأَسْنَى^(١) رُتَبِ الْبَيَانِ ، وَجَعَلْتُهَا فِي الْبِلَاغَةِ طَبَقَةً وَحْدَهَا ، وَقَبْلَ أَنْ يَقُولَ الْأَوْرَبِيُّونَ (صَاحِبَةُ الْجَلَالَةِ الصَّحَافَةِ) قَالَ الْمَأْمُونُ : «الْكِتَابُ مَلُوكٌ عَلَى النَّاسِ» ، فَأَرَادَ عَمَّكَ أَبُو عَثْمَانَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَلَكًا بَتَلِكِ الْمَقَالَةِ فَإِذَا هُوَ بِهَا مِنْ (صَعَالِيكِ الصَّحَافَةِ) .

لَقَدْ كَانَتْ كَالْعُرُوسِ فِي زِينَتِهَا لَيْلَةَ الْجَلُودِ عَلَى مُجَبِّهَا ، مَا هِيَ إِلَّا الشَّمْسُ الْأَضَاحِيَّةُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَشْوَاقٌ وَلَذَاتٌ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَكْتِشَافُ أَسْرَارِ الْحُبِّ ، وَمَا هِيَ إِلَّا هِيَ؛ فَإِذَا الْعُرُوسُ عِنْدَ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ هِيَ الْمَطْلَقَةُ ، وَإِذَا الْمُعْجَبُ هُوَ الْمَضْحَكُ ، وَيَقُولُ الرَّجُلُ : أَمَّا نَظْرِيَا فَنَعَمْ ، وَأَمَّا عَمَلِيَا فَلَا؛ وَهَذَا عَصْرٌ خَفِيفٌ

(١) أَسْنَى : أَرْفَعُ .

يُرِيدُ الْخَفِيفَ، وَزَمَنَ عَامِي يُرِيدُ الْعَامِيَّ، وَجَمْهُورٌ سَهْلٌ يُرِيدُ السَّهْلَ؛ وَالْفَصَاحَةُ هِيَ إِعْرَابُ الْكَلَامِ لَا سِيَاسَتُهُ بِقَوَى الْبَيَانِ وَالْفِكْرِ وَاللُّغَةِ، فَهِيَ الْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَنُونِهَا وَاسْتَقَرَّتْ فِي عِلْمِ النَّحْوِ.

وَحَسْبُكَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَارِيءِ الْعَامِيَّ: أَنَّكَ أَنْتَ لَا تَلْحَنُ وَهُوَ يَلْحَنُ.

قال أبو عثمان: وهذه - أكرمَكَ اللَّهُ - منزلةٌ يَاقِلُ فيها الخاصِّي ويكثرُ العامِّي فَيُوشِكُ أَلَّا يَكُونَ بَعْدَهَا إِلَّا غَلْبَةُ الْعَامِيَّةِ، وَيَرْجِعُ الْكَلَامُ الصَّحَافِيُّ كُلُّهُ سُوقِيًّا بَلَدِيًّا (حَنَشِيًّا)، وَيَنْقَلِبُ النَّحْوُ نَفْسُهُ وَمَا هُوَ إِلَّا التَّكْلُفُ وَالتَّوَعُّرُ وَالتَّقَعُّرُ^(١) كَمَا يَرَوْنَ الْآنَ فِي الْفَصَاحَةِ، وَالْقَلِيلُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَقْلَ؛ وَالْأَقْلُ يَنْتَهِي إِلَى الْعَدَمِ، وَالْإِنْحِدَارُ سَرِيعٌ يَبْدَأُ بِالْخَطْوَةِ الْوَاحِدَةِ، ثُمَّ لَا تَمْلِكُ بَعْدَهَا الْخَطَى الْكَثِيرَةَ.

لَا جَرَمَ فَسَدَ الذَّوْقُ وَفَسَدَ الْأَدَبُ وَفَسَدَتْ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ كُلُّهَا صَالِحَةً، وَجَاءَتْ فَنُونٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مَا هِيَ إِلَّا طِبَائِعُ كُتَابِهَا تَعْمَلُ فَيَمْنُ يَقْرُؤُهَا عَمَلُ الطَّبَاعِ الْحَيَّةِ فَيَمْنُ يُخَالِطُهَا، وَلَوْ كَانَ فِي قَانُونِ الدَّوْلَةِ تَهْمَةٌ إِفْسَادِ الْأَدَبِ أَوْ إِفْسَادِ اللُّغَةِ، لَقُبِضَ عَلَى كَثِيرِينَ لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا صِنَاعَةً لَهُوَ وَمَسَلَاةٌ فَرَاغٌ^(٢) وَفُسَادٌ وَإِفْسَادٌ؛ وَالْمُصِيبَةُ فِي هَؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَ لَكَ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَنْشِطُونَ الْقُرَّاءَ وَيُلْهَوْنَهُمْ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي هَذِهِ النِّهَاضَةِ لِمُعَالَجَةِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وَجُودِنَا السِّيَاسِيَّ عَدَمًا؛ ثُمَّ لِمَلِّ الْفَرَاغِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاتِنَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ بَطَالَةً؛ وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا جَعَلَ عَمَكَ أَبَا عَثْمَانَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ مِنْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ)، وَتَرْكُهُ فِي الْمَقَابَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الْكُتَابِ كَأَنَّهُ فِي أَمْسٍ وَكَأَنَّهُمْ فِي غَدٍ.

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عَثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ . . .

فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهُمْ سَيَطْرُدُونَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْزُقْهُ لِسَانًا مَطْبَعِيًّا ثَرَارًا يَكُونُ كَالْمَتَّصِلِ مِنْ دِمَاغِهِ بِصَنْدُوقِ حُرُوفٍ . . . وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَهَؤُلَاءِ السِّيَاسِيِّينَ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ النِّفَاقُ وَيَتَلَوْنَ، وَلَا كَهَؤُلَاءِ الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّضْلِيلُ وَيَتَشَكَّلُ.

وَرَجَعَ شَيْخُنَا كَالْمَخْنُوقِ أُرْخِي عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَيْلِي عَلَى الرَّجُلِ! وَيْلِي مِنَ الْكَلَامِ الظَّرِيفِ الَّذِي يُقَالُ فِي الْوَجْهِ لِيَدْفَعَ فِي الْقَفَا . . . كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَمْلِكَ هَذِهِ الصَّحَافَةُ الْيَوْمِيَّةُ إِلَّا مَجَالِسُ الْأُمَّةِ؛ فَذَلِكَ هُوَ إِصْلَاحُ الْأُمَّةِ وَالصَّحَافَةُ وَالْكَتَابُ

(٢) مسلاة فراغ: مضيعة الوقت.

(١) التوَعُّرُ والتَّقَعُّرُ: وحشي الكلام.

جميعاً؛ أما في هذه الصحف، فالكاتب يخبزُ عيشَهُ على نارٍ تأكلُ منه قدرٌ ما يأكلُ من عيشِهِ؛ ولو أنَّ عمَّكَ في خفضٍ ورفاهيةٍ وسعةٍ، لَكَانَ في استغنائه عنهم حاجتهم إليه؛ ولكنَّ السيفَ الَّذي لا يجدُ عملاً للبطل، تفضُّله الأبرةُ الَّتِي تعملُ للخياط، وماذا يملكُ عمُّكَ أبو عثمان؟ يملكُ ما لا ينزلُ عنه بدولُ الملوك، ولا بالدنيا كلها، ولا بالشمسِ والقمر؛ إذ يملكُ عقلَهُ وبيانه، على أنَّه مستأجرٌ هنا بعقلِهِ وبيانه، يعقلُ ما شاءوا ويكتبُ ما شاءوا.

لَكَ اللَّهُ أَنْ أَصْدُقَكَ الْقَوْلَ في هذه الحِرْفَةِ اليوميَّة: إِنَّ الْكَاتِبَ حينَ يخرجُ من صحيفةٍ إلى صحيفةٍ، تخرجُ كتابتهُ من دينٍ إلى دينٍ...

ورأيتُ شيخنا كأنما وضعَ لَهُ رئيسُ التحريرِ مثلَ البارودِ في دماغِهِ ثُمَّ أشعلَهُ، فأردتُ أَنْ أَمَازَحَهُ وَأَسْرِيَّ عَنْهُ، فقلتُ: إسمعْ يا أبا عثمان، جاءني بِالْأَمْسِ قضيةٌ يرفعُها صاحبُها إلى المحكمة، وقد كتبَ في غُرْضٍ دعواه أَنْ جَارَ بَيْتِهِ غَضَبَهُ^(١) قطعةً من أرضٍ فنائه الَّذي تركَهُ حولَ البيتِ، وبُنِيَ في هذه الرقعة داراً، وفتحَ لهذه الدارِ نافذاتٍ، فهو يُريدُ مِنَ الْقَاضِي أَنْ يحكُمَ بِرَدِّ الْأَرْضِ الْمَغْصُوبَةِ، وهدمَ هذه الدارِ المبنيةَ فوقها، و... و... وسدَ نافذاتها المفتوحة!...

فضحكَ الجاحظُ حتى أمسَكَ بطنَهُ بيدهِ وقال: هذا أديبٌ عظيمٌ كبعضِ الَّذِينَ يكتبونَ الْأَدَبَ في الصحفِ؛ كثُرَتْ ألفاظُهُ ونقصَ عقلُهُ، «وسئلَ بعضُ الْحُكَمَاءِ: متى يكونُ الْأَدَبُ شراً من عدمِهِ؟ قال: إذا كَثُرَ الْأَدَبُ ونقصَتِ الْقَرِيحَةُ. وقد قالَ بعضُ الْأَوَّلِينَ: من لَمْ يكنْ عقلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ، كَانَ حَتْفُهُ^(٢) في أَغْلَبِ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ؛ وهذا كُلُّهُ قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ» وَالْأَدَبُ وَحْدَهُ هُوَ الْمَتْرُوكُ في هذه الصحفِ لِمَنْ يتولاهُ كيف يتولاهُ؛ إِذْ كَانَ أَرْخَصَ ما فيها، وإنَّما هُوَ أَدَبٌ لِأَنَّ الْأُمَمَ الْحَيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يكونَ لَهَا أَدَبٌ، ثُمَّ هُوَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْأَسْمِ الْعَظِيمِ ملءُ فَرَاغٍ لَا بُدَّ أَنْ يُمَلَأَ، وصفحةُ الْأَدَبِ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَظْهَرُ في الْجَرِيدَةِ اليوميَّةِ كبقعةٍ أصدى على الحديد: تأكلُ منه ولا تُعْطِيهِ شيئاً.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ تُتْرِكَ لَهُ هذه الصَّفحةُ إِلَّا أَنْ يجعلَ نَفْسَهُ (رئيسَ تحرير) على الْأَدْبَاءِ، فما يدعُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ النُّبُوغِ وَلَا نَعْتاً مِنْ نَعَوَاتِ الْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا نَحَلَهُ^(٣)

(١) غصبه: استحوذ رغماً عنه على ما يريد منه.

(٢) حتفه: موته.

(٣) نحله: نسبه إليه.

نفسه ووضعه تحت ثيابه؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار.

وقد يكون الرجل في كتابته كالعامة، فإذا عبته بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب، قال: هذا ما يلائم القراء، وقد يكون من أكذب الناس فيما يدعي لنفسه وما يهول به لتقوية شأنه وإصغار من عداه، فإذا كذبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمني، وهو واثق أنه في نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تملأ الساعة، فإذا هم جميعاً يقولون: تك... تك... تك... .

فمن زعم أن ابلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل. جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمغرب، كله سواء وكله بياناً وكان المكئي طيب الحُجج، ظريف الحيل، عجيب العِلل، وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام^(١) ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق؛ وإذا قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه، قلت له مرة: أعلمت أن الشاري حدثني أن المخلوع (أي الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلفظ الديك الحب؟

قال: فإن هذا الحديث أنا ولدته، ولكن أنظر كيف سار في الآفاق... ثم قال أبو عثمان: وقد زعم أحد أدباكم أنه اكتشف في تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون، فنظر عمك في هذا الذي أدعاه، فإذا الرجل على التحقيق كالذي يزعم أنه اكتشف أمريكا في كتاب من كتب الجغرافيا...

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور في الصحف، لا بأنه صدق، ولكن بأنه «مكتوب في الجريدة»... فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب - متى كان مغروراً - أنه إذا تهدد إنساناً فما هدده بصفحته، بل بحكومته...

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة؛ ولكن ويحك: إن ثلاث دبابات ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا!.....

ضحك أبو عثمان وضحكت! فاستيقظت.

(١) الإحكام: الاتقان.

أبو حنيفة ولكن بغير فقه!

قد آتتهينا في الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة، فأصبح كل من يكتب يُنشر له، وكل من يُنشر له يُعدُّ نفسه أديباً، وكل من عدَّ نفسه أديباً جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول في مذهبه ويرد على مذهب غيره.

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها، يتعلّق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة، منها قولهم: أدب الشيوخ وأدب الشباب؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب، وأدب الألفاظ وأدب الحياة، والجمود والتحول، والقديم والجديد، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه، والشافعي ولكن بغير اجتهاد، ومالكاً ولكن بغير رواية، وأبن حنبل ولكن بغير حديث؛ أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها.

وليس يكون الأدب أدباً إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرّفه النوايا من أهله حتى يُورّخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان، إذ لا يجري الأمر فيما علا وتوسّط ونزل إلا على إبداع غير تقليد، وتقليد غير اتباع. واتباع غير تسليم؛ فلا بد من الرأي ونبوغ الرأي واستقلال الرأي حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها، كما أن الحيّ الجالس في كل حي هو مجموعته العصبية، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول في الوجود الإنساني يرجع بالحياة إلى ذرات معانيها، ثم يرسم من هذه المعاني مثل ما أبدعت ذرات الخليفة في تركيب من تركيب، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المُقلد الإلهي.

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربي في عصرنا أو ينتهي؛ وهل تراه يعلو أو ينزل؛ وهل يستجمع أو ينقض، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو في مكان بينهما؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصلُها لأفتحمتُ تاريخاً طويلاً أمرٌ فيه بِعظام مبعثرة في ثيابها لا في قُبورها... ولكنني موجزٌ مقتصرٌ على معنى هو جمهورُ هذه الأطراف كلها، وإليه وحده يرجعُ ما نحن فيه من التعادي بين الأذواقِ والإسفافِ بِمَنَازِعِ الرأْيِ وَالْخَلْطِ وَالْإِضْطِرَابِ فِي كُلِّ ذَلِكَ؛ حتى أصبحَ أمرُ الأَدَبِ على أقبحه وهم يَروْنَهُ على أحسنه، وحتى قيلَ في: الأسلوبِ أسلوبُ تلغرافيٍّ، وفي الفصاحةِ فصاحةٌ عاميةٌ، وفي اللغةِ لغةُ الجرائدِ، وفي الشعرِ شعرُ المقالةِ؛ ونجمتِ الناجمةُ من كُلِّ عِلَّةٍ وَيُزَيَّنُ لهم أَنَّها القُوَّةُ قَدْ اسْتَحْصَفَتْ^(١) وَأَشْتَدَّتْ، ونازعَ الأَدَبُ العَرَبِيُّ إلى سخريةِ التقليدِ وإلى أن يكونَ لصيقاً دَعِيّاً في آدابِ الأممِ، وأستهلكهُ التضييعُ وسوءُ النظرِ لَهُ على حينِ يُوَثَّى لهم أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ من حِفْظِهِ وصِيَانَتِهِ وحُسْنِ الصَّنِيعِ فيه ومن توفيرِ المَادَّةِ عليه.

أين تُصِيبُ الْعِلَّةُ إذا التمسْتَهَا^(٢)؟ أفي الأَدَبِ من لُغَتِهِ وأساليبِ لُغَتِهِ، ومعانيه وأغراضِ معانيه؟ أم في ألقائمينَ عليه في مذاهبِهِم ومناحيهِم وما يَتَّفِقُ من أسبابِهِم وجواذِبِهِم؟

إِنْ تَقُلْ إِنَّهَا فِي اللُّغَةِ وَالْأَسَالِبِ وَالْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ، فهذه كُلُّهَا تصيرُ إلى حيثُ يُرادُ بها، وتَقْلُدُ أَلْبَلِيَّةً من كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ فيها؛ وقد اسْتَوْعَبَتْ وَأَتَسَّعَتْ وَمَادَتْ الْعُصُورُ الْكَثِيرَةُ إلى عَهْدِنَا فلمْ تَوْتْ من ضيقٍ ولا جُمُودٍ ولا ضَعْفٍ ثُمَّ هِيَ مَادَّةٌ ولا عليها مِمَّنْ لا يُحَسِّنُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ منها حيثُ يَمَلَأُ كُفَّهُ أو حيثُ تَقَعُ يَدُهُ على حاجَتِهِ.

وإِنْ قُلْتَ إِنَّ الْعِلَّةَ فِي الْأَدْبَاءِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ ودواعيهِمْ وأسبابِهِمْ، سألناكَ: وَلِمَ قَصُرُوا عَنِ الْغَايَةِ، وَلِمَ وَقَعُوا بِالْخِلَافِ، وكيف ذهبوا عَنِ الْمَصْلَحَةِ، وكيف اعتَقَمَتِ الْخَوَاطِرُ وَفَسَدَتِ الْأَذْوَاقُ مَعَ قِيَامِ الْأَدَبِ الصَّحِيحِ فِي كِتَابِهِ مَقَامَ أُمَّةٍ من أَهْلِهِ أَعْرَاباً وَفُصَحَاءَ وَكُتَّاباً وشُعراءَ، وَمَعَ أَنْفَسَاحِ الْأَفْقِ الْعَقْلِيِّ فِي هَذَا الدَّهْرِ وَاجْتِمَاعِهِ من أَطْرَافِهِ لِمَنْ شَاءَ، حتى لَتَجِدَ عَقُولَ نَوَابِغِ الْقَارَاتِ الْخَمْسِ تَحْتَقِبُ^(٣) فِي حَقِيبَةٍ مِنَ الْكُتُبِ، أو تُصَنِّدُ^(٤) فِي صَنْدُوقٍ مِنَ الْأَسْفَارِ.

كيف ذهبَ الْأَدْبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ نَشْراً مُتَبَدِّدِينَ تَعْلُو بِهِمُ الدَّائِرَةُ وَتَهْبِطُ،

(١) استحصفت: أوجدت رأياً رزيناً.

(٢) التمسها: فتشت عليها وبحث.

(٣) تحتقب: توضع في حقيبة.

(٤) تصندق: توضع في صندوق.

فكلُّ أعلى وكلُّ أسفل؟ هذا فلانٌ شاعرٌ قد أحاطَ بالشعرِ عربيُّه وغربيُّه وهو ينظمُه ويفتنُ في أغراضِه ويولِّدُ ويسرقُ وينسخُ ويمسخُ، وهو عندَ نفسه الشاعِرُ الَّذي فقدتهُ كلُّ أمةٍ من تاريخِها ووقعَ في تاريخِ العربيَّةِ وحدها ابتلاءٌ ومِحنةٌ؛ وهو ككلِّ هؤلاء المغرورينَ يحسبونَ أنَّهم لو كانوا في لغاتٍ غيرِ العربيَّةِ لظهروا نجوماً، ولكنَّ العربيَّةَ جعلتْ كلاً منهم حصاةً بينَ الحصى، وتقرأُ شِعْرُهُ فإذا هو شِعْرٌ تنوَّهُم من قراءتِه تقطيعَ ثيابك، إذ تجاذبُ نفسك لتفرَّ منه فراراً.

وهذا فلانٌ الكاتبُ الَّذي وَالَّذي... وَالَّذي يرتفعُ إلى أقصى السمواتِ على جناحي ذبابة.

وهذا فرعونُ الأدبِ الَّذي يقولُ: أنا ربُّكم الأعلى! وهذا فلانٌ وهذا فلان... أين يكونُ الزُّمامُ على هؤلاءِ وأمثالِهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم^(١)، وليعلموا أنَّ حسابَهم عندَ الناسِ لا عندَ أنفسهم فالواحدةُ منهم واحدةٌ وإن توهَّموها مائةً وتوهَّمها بعضهم ألفاً أو ألفين، ومتى قالَ الناسُ: غلطوا، فقد غلطوا، ومتى قالوا: سخفوا فهم سخفاء.

وأين الزُّمامُ عليهم وقد أنطلقوا كأنَّهم مسخرونَ بالجبرِ على قانونٍ مِنَ التدميرِ والتخريبِ، فليس فيهم إلا طبيعةٌ مكابرةٌ لا إقرارَ منها، باغيةٌ لا إنصافَ معها، نافرةٌ لا مساعٍ إليها، مُتَّهمةٌ لا ثقةَ بها؛ طبيعةٌ يتحوَّلُ كلُّ شيءٍ فيها إلى أثرٍ منها كما يتحوَّلُ ماءُ الشجرِ في العودِ الرطبِ المشتعلِ إلى دُخانٍ أسود!

يرجعُ هذا الخلطُ في رأيي إلى سببٍ واحدٍ: هو خلُّو العصرِ من إمامٍ بالمعنى الحقيقيِّ يلتقي عليه الإجماعُ ويكونُ ملءُ الدهرِ في حكمتهِ وعقلهِ وريهِ ولسانهِ ومناقبهِ وشمائله؛ فإنَّ مثلَ هذا الإمامِ يُخصَّ دائماً بالإرادةِ التي ليسَ لها إلا النصرُ والغلبةُ والتي تُعطي القوَّةَ على قتلِ الصغارِ والسفاسفِ؛ وهو إذا ألقيَ في الميزانِ عندَ اختلافِ الرأي، وُضِعَ فيه بالجمهورِ الكبيرِ من أنصارِه والمعجبينَ بآدابه،

وبالسوادِ الغالبِ من كلِّ الفاعلياتِ المحيطةِ بهِ والمنجذبةِ إليه؛ ومن ثمَّ تنهياً قوَّةُ الترجيحِ ويتعيَّنُ اليقينُ والشكُّ؛ والميزانُ اليومَ فارغٌ من هذه القوَّةِ فلا يرجحُ ولا يُعَيِّنُ.

(١) هواجسهم: خوفهم وهمومهم.

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمانة، ومقداره يزنُ المقادير، فيكون هو المنطقَ الإنسانيَّ في أكثر الخلافِ الإنسانيِّ: تقومُ به الحُجَّة، فتلزمُ وإن أنكرها المنكر، وتمضي وإن عاند فيها المُعاند، ويؤخذُ بها وإن أصرَّ المصِرُّ على غيرها، لأنَّ بالإجماع على القياسِ يبينُ التطرُّفُ في الزيادةِ أو التقصيرِ؛ والإجماعُ إذا ضربَ ضربَ المعصيةِ بالطاعة، والزَّيغُ^(١) بالاستقامة، والعنادُ بالتسليم؛ فيخرجُ مَنْ يخرجُ وعليه وسمه^(٢). ويزيغُ مَنْ يزيغُ وفيه صِفته، ويصِرُّ المُكابِرُ وأسمه المُكابِرُ ليس غير، وإن هو تكذَّب وتأوَّل، وإن زعمَ ما هو زاعم.

ولكلِّ القواعدِ شواذٌ ولكنَّ القاعدةُ هي إمامُ بابها؛ فما من شاذٍّ يحسبُ نفسه مُنطلقاً مخلى، إلا هو محدودٌ بها مردودٌ إليها، مُتصلٌ من أوسع جهاته بأضيقي جهاتها؛ حتى ما يعرفُ أنه شاذٌّ إلا بما تُعرفُ به أنها قاعدة، فيكونُ شأنه في نفسه بما تُعينُ هي له على مكرهته ومحبهته.

والإمامُ ينبثُ في آدابِ عصره فِكراً ورأياً، ويزيدُ فيها قوَّةً وإبداعاً، ويزينُ ماضيها بأنَّه في نهايته، ومستقبلها بأنَّه في بدايته، فيكونُ كالتعديلِ بينَ الأزمنةِ من جهة، والانتقالِ فيها من جهةٍ أخرى؛ لأنَّ هذا الإمامُ إنَّما يختارُ لإظهارِ قوَّةِ الوجودِ الإنسانيِّ من بعضِ وجوهها وإثباتِ شمولها وإحاطتها كأنَّه آيةٌ من آياتِ الجنسِ يؤنِّسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد، ويتلقَّى منه حُكمُ التمامِ على النقص، وحُكمُ القوَّةِ على الضعف، وحُكمُ المأمولِ على الواقع؛ ويجدُ فيه قومه كما يجدون في الحقيقةِ التي لا يُكابِرُ عندها متنطع^(٣) بتأويل، وفي القوَّةِ التي لا يُخالفُ عندها مُبطلٌ بعناد، وفي الشريعةِ التي لا يروغ^(٤) منها مُتَعَسِّفٌ بحيلة؛ ولَنْ يَضِلَّ النَّاسُ في حقِّ عرفوا حدَّه، فإنَّ ما وراءَ الحدِّ هو التعدي؛ ولن يُخطئوا في حُكمِ أصابوا وجهه فإنَّ ما عدا الوجهَ هو الخلافُ والمراء.

وقد طُبِعَ النَّاسُ في بابِ القدوةِ على غريزةٍ لا تتحوَّل، فَمِنْ أَنْفَرَدَ بِالْكَمَالِ كَانَ هُوَ الْقُدْوَةُ، وَمَنْ غَلَبَ كَانَ هُوَ السَّمْتُ؛ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ يَقْتَسُونَ^(٥) بِهِ ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مرادهم^(٦) ومصالجهم، فالإمامُ كأنَّه ميزانٌ من

(١) الزَّيغُ: الميل مع الهوى.

(٢) وسمه: طابعه.

(٣) متنطع: معتمِل بصعوبة رأياً ما.

(٤) يروغ: يخرج ويتخلص بكذب وخداع.

(٥) يقاتسون: يقيسون أنفسهم به.

(٦) مرادهم: عقولهم وما يهتدون به.

عَقْل، فهو يتسلط في الحكم على الناقص والوافي من كل ما هو بسبيله، ثم لا خلاف عليه، إذ كانت فيه أوزان أقوى وزناً بعد وزن، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة.

هو إنسان تختير بعض المعاني السامية لتظهر فيه بأسلوب عملي، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها، مشروحة بهذا المثال نفسه، فإليه يرد الأمر في ذلك ويثلوه يتلى وعلى سبيله ينهج^(١)، فما من شيء يتصل بالفرن الذي هو إمام فيه، إلا كان فيه شيء منه، وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها، لأنه يفتنه حكم عليها، فيكون قوة وتنبيهاً، وتسهيلاً وإيضاحاً، وإبلاغاً وهداية؛ ويكون رجلاً وإنه لمعان كثيرة، ويكون في نفسه وإنه لفي الأنفس كلها، ويعطى من إجلال الناس ما يكون به أسمه كأنه خلق من الحب طريقه على العقل لا على القلب.

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين؛ فلا بد على هذه الأرض من ضوء في لحم ودم، وبعض معاني الخليفة في تنصيصه كبعض معاني «الشهيد المجهول» في الأمم المحاربة المستتصرة المتمدنة: رمز التقديس، ومعنى المفاداة، وصمت يتكلم، ومكان يوحى. وقوة تستمد، وأنفراد بجمع، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة في شرف الحياة والموت؛ بل الحرب مخبوءة في حفرة، والنصر مغطى بقبر؛ بل المجهول الذي فيه كل ما ينبغي أن يعلم.

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه، وإذ كل من يزعم نفسه إماماً هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه! ولعمري ما نشأ قولهم «الجديد والقديم» إلا لأن ههنا موضعاً خالياً يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تمتاز من جهة، فمئذ مات الإمام الكبير الشيخ محمد عبده - رحمه الله - جرت أحداث، ونتاجت رءوس، وزاغت طبائع وكأنه لم يمض رجل، بل رفع قرآن.

(١) ينهج: يسلك.

الأدب والأديب

إذا اعتبرت الخيال في الذكاء الإنساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز، لم تجده في الحقيقة تقليداً من النفس للألوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق.

وهذه النفس البشرية الآتية من المجهول في أول حياتها، وألراجعة إليه آخر حياتها، والمسددة في طريقه مدة حياتها، لا يمكن أن يتقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي؛ فهي لا تتعاطى الموجود فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرغ منه فما يندأ، وتم فما يزدأ، وخلد فلا يتحول؛ بل لا تزال تضرب ظنّها وتصرف وهماها في كل ما تراه أو يتلجلج^(١) في خاطرها، فلا تبرح تتلمح^(٢) في كل وجود غيباً، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه، وتجري دأباً^(٣) على مجاريها الخيالية التي توثق صلتها بالمجهول؛ فمن ثم لا بد في أمرها مع الموجود مما لا وجود له، تتعلق به وتسكن إليه؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء - مع المعاني التي له في الحق - من المعاني التي له في الخيال؛ وها هنا موضع الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية، فكلاهما طبعي فيها كما ترى.

وإذا قيل: الأدب، فأعلم أنه لا بد معه من البيان؛ لأن النفس تخلق فتصور فتحسن الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب في معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته؛ بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئاً مسمى أو متميزاً بنفسه، فلن تكون غير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً، وما بد من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها.

(١) يتلجلج: يتردد.

(٢) تتلمح: ترى.

(٣) دأباً: باستمرار.

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهي هي حتى تُمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونُضجها؛ فإنَّ البيانَ صناعةَ الجمالِ في شيءٍ جماله هو من فائدته، وفائدته من جماله؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحقَ بغيره، وعادَ باباً من الاستعمالِ بعدَ أن كانَ باباً من التأثير؛ وصارَ الفرقُ بين حاله كالفارقِ بينَ الفاكهةِ إذ هيَ بابٌ من النبات، وبينَ الفاكهةِ إذ هيَ بابٌ من الخمر؛ ولهذا كانَ الأصلُ في الأدبِ البيانَ والأسلوبَ في جميعِ لغاتِ الفكرِ الإنساني، لأنَّه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية.

فَالْغَرَضُ الْأَوَّلُ لِلْأَدَبِ الْمُبِينِ أَنْ يَخْلُقَ لِلنَفْسِ دُنْيَا الْمَعَانِي الْمَلَامَةِ لِتِلْكَ الزَّعَةِ الثَّابِتَةِ فِيهَا إِلَى الْمَجْهُولِ وَإِلَى مَجَازِ الْحَقِيقَةِ، وَأَنْ يُلْقِيَ الْأَسْرَارَ فِي الْأُمُورِ الْمَكْشُوفَةِ بِمَا يَتَخَيَّلُ فِيهَا، وَيَرُدُّ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَيَاةِ كَثِيراً وَافِياً بِمَا يُضَاعِفُ مِنْ مَعَانِيهِ، وَيَتْرَكَ الْأَمَاضِي مِنْهَا ثَابِتاً قَارِئاً بِمَا يَخْلُدُ مِنْ وَصْفِهِ، وَيَجْعَلُ الْأَمْوَالَ مِنْهَا لَذِيذاً خَفِيفاً بِمَا يَبُثُّ فِيهِ مِنَ الْعَاطِفَةِ، وَالْمَمْلُوءَ مُنْتِعاً خُلُواً بِمَا يَكْشِفُ فِيهِ مِنَ الْجَمَالِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَمَدَارُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى إِيْتَاءِ النَّفْسِ لَذَّةَ الْمَجْهُولِ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا لَذَّةٌ مَجْهُولَةٌ أَيْضاً؛ فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ طُلْعَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ، لَا تَبْتَغِي مَجْهُولاً صِرْفاً وَلَا مَعْلوماً صِرْفاً، كَأَنَّهَا مُدْرِكَةٌ بِفِطْرَتِهَا أَنْ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ صَرِيحٌ مُطْلَقٌ وَلَا خَفِيٌّ مُطْلَقٌ؛ وَإِنَّمَا تَبْتَغِي حَالَةً مَلَامَةً بَيْنَ هَذَيْنِ، يَثُورُ فِيهَا قَلَقٌ أَوْ يَسْكُنُ مِنْهَا قَلَقٌ.

وَأَشْوَاقُ النَّفْسِ هِيَ مَادَّةُ الْأَدَبِ؛ فَلَيْسَ يَكُونُ أَدْباً إِلَّا إِذَا وَضَعَ الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، أَوْ كَانَ مُتَّصِلاً بِسِرِّ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَيَكْشِفُ عَنْهُ أَوْ يُؤَمِّئُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ، أَوْ غَيْرَ لِلنَّفْسِ هَذِهِ الْحَيَاةَ تَغْيِيراً يَجِيءُ طَبَاقاً لِمُغْرَضِهَا وَأَشْوَاقِهَا؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَزْحَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ جَوْ إِلَى جَوْ غَيْرِهِ، يَنْفُلُهُ الْأَدَبُ مِنْ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى فِيهَا شَعُورُهَا وَلَذَّتُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَكَانٌ وَلَا زَمَانٌ؛ حَيَاةٌ كَمَلَتْ فِيهَا أَشْوَاقُ النَّفْسِ، لِأَنَّ فِيهَا اللَّذَاتِ وَالْآلَامَ بِغَيْرِ ضَرُورَاتٍ وَلَا تَكَالِيفٍ؛ وَلَعَمْرِي مَا جَاءَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي الْأَدْيَانِ عِبْثاً؛ فَإِنَّ خَالِقَ النَّفْسِ بِمَا رَكَّبَهُ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، لَا يَخْهَمُ الْعَقْلُ أَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ خَلْقَهَا إِلَّا بِخَلْقِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَعَهَا، إِذْ هُمَا الصُّورَتَانِ الدَّائِمَتَانِ الْمَتَكَافَتَتَانِ لِأَشْوَاقِهَا الْخَالِدَةِ إِنَّ هِيَ اسْتَقَامَتْ مُسَدَّدَةً^(١) أَوْ أَعْيَسَتْ حَائِلَةً.

وقد صحَّ عندي أَنَّ النَّفْسَ لَا تَتَحَقَّقُ مِنْ حَرِيَّتِهَا وَلَا تَنْطَلِقُ أَنْطِلَاقَتَهَا الْخَالِدَةَ

(١) مسددة: موجهة نحو التوفيق والنجاح.

فُتحسُّ وحدةُ الشعورِ ووحدةُ الكمالِ الأسمى - إلا في ساعاتٍ وفتراتٍ تنسلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقةٍ حيّادٍ) خارجةٍ وراءَ الزمانِ والمكانِ؛ فإذا هبطتها النفسُ فكانتْما انتقلتْ إلى الجنةِ وأستروحتْ الخلدُ؛ وهذه المنطقةُ السحريةُ لا تكونُ إلا في أربعة: حبيبٍ فاتنَّ معشوقٍ أعطيَ قوةَ سحرِ النفسِ، فهي تنسى به؛ وصديقٍ محبوبٍ وفيَّ أوتيَ قوةَ جذبِ النفسِ، فهي تنسى عنده؛ وقطعةً أدبيةً آخذةً، فهي ساحرةٌ كالْحبيبِ أو جاذبةٌ كالصديقِ؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائعٍ، ففيه من كلِّ شيءٍ شيءٌ.

وهذه كلها تنسى المرءَ زمنه مدةً تطولُ وتقصُرُ؛ وذلك فيها دليلٌ على أنَّ النفسَ الإنسانيةَ تُصيبُ منها أساليبُ رُوحيةٍ لا تُصاليها هنيهةً بالروحِ الأزليِّ في لحظاتٍ من الشعورِ كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية؛ ومن ثَمَّ نستطيعُ أنْ نقرَّرَ أنَّ أساسَ الفنِّ على الإطلاقِ هو ثورةُ الخالدِ في الإنسانِ على الفاني فيه؛ وأنَّ تصويرَ هذه الثورةِ في أوهامها وحقائقها بمثلِ اختلافاتها في الشعورِ والتأثيرِ - هو معنى الأدبِ وأسلوبه.

ثُمَّ إِنَّ الاتِّساقَ والخيرَ والحقَّ والجمالَ - وهي التي تجعلُ للحياةَ الإنسانيةَ أسرارها - أمورٌ غيرُ طبيعِيَّةٍ في عالمِ يقومُ على الاضطرابِ والآثرةِ والنزاعِ والشهواتِ؛ فمن ذلك يأتي الشاعرُ والأديبُ وذو الفنِّ علاجاً من حِكْمَةِ الحياةِ للحياةِ، فيُبدعونَ لتلك الصفاتِ الإنسانيةِ الجميلةِ عالمها الذي تكونُ طبيعِيَّةً فيه، وهو عالمُ أركانهُ الاتِّساقُ في المعاني التي يجري فيها، والجمالُ في التعبيرِ الذي يتأدَّى^(١) به، والحقُّ في الفكرِ الذي يقومُ عليه، والخيرُ في الغرضِ الذي يُساقُ له، ويكونُ في الأدبِ من النقصِ والكمالِ بحسبِ ما يجتمعُ له من هذه الأربعة، ولا معيارَ أدقَّ منها إنْ ذهبَتْ تعتبرُهُ بالنظرِ والرأي؛ ففي عملِ الأديبِ تخرجُ الحقيقةُ مُضافاً إليها الفنُّ، ويجيءُ التعبيرُ مزيداً فيه الجمالُ، وتتمثَّلُ الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفسِ حيَّةٍ، ويظهرُ الكلامُ وفيه رِقَّةٌ حياةُ القلبِ وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقُّها الموسيقيُّ؛ وتلبسُ الشهواتُ الإنسانيةُ شكلها المهدَّبَ لتكونَ بسببِ من تقريرِ المثلِ الأعلى، الذي هو السرُّ في ثورة الخالدِ من الإنسانِ على الفاني، والذي هو الغايةُ الأخيرةُ من الأدبِ والفنِّ معاً؛ وبهذا يهبُّ لك الأدبُ تلكَ القوةَ الغامضةَ

(١) يتأدَّى: يحصل.

التي تتسع بك حتى تشعر بالندى وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها؛ وذلك سر الأديب العبقري؛ فإنه لا يرى الرأي بالاعتقاد^(١) والاجتهاد كما يراه الناس، وإنما يحس به؛ فلا يقع له رأيته بالفكر، بل يلهمه إلهاماً؛ وليس يؤاتيه إلهام إلا من كون الأشياء تمر فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر، فيحس أثرها فيه فيلهم ما يلهم، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون، على حين أن حقائق الكون هي النافذة من خلاله.

ولو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثيره بجمال الأشياء ومعانيها، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بالأمها وأفراحها؛ إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصة الكون الشامل، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له، والاتساع الذي كل آخر فيه شيء، أول فيه شيء.

وهو إنسان يده الجمال على نفسه ليدل غيره عليه، وبذلك زيد على معناه معنى، وأضيف إليه في إحساسه قوة إنشاء الإحساس في غيره؛ فأساس عمله دائماً أن يزيد على كل فكرة صورة لها، ويزيد على كل صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها، ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجد لها في الحياة، فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني؛ وبالأدباء والعلماء تنمو معاني الحياة، كأنما أوجدتهم الحكمة لتنقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة؛ وكأن هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه.

ومشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني، إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاء من طريقه، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك، كأن الجمال يقول بالأسلوب: إن هذا هو عمل فلان.

وفضل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، ولكن الأديب فكرة

(١) الاعتقاد: إطالة النظر وإمعان الفكر وكده.

وأسلوبها؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يُشار إليهم جملة واحدة، على حين يُقال في كل أديب عبقرى: هذا هو، هذا حدّه؛ وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس؛ ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار.

وإذا رأى الناس هذه الإنسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه، فالأديب العبقري لا يراها إلا أجزاء، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها. وكأنما أمرها في (معمله)، أو كأن الله - سبحانه - دعاه ليرى فيها رأيه... وبذلك يجيء النابغ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الإنسانية، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة؛ وأساسه على كل هذه الأحوال النقد، ثم النقد، ولا شيء غير النقد؛ كأن القوة الأزلية تقول لهذا الملهم: أنت كلمتي فقل كلمتك...

وترى الجمال حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر، ولكنّ الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس؛ وها هنا يتأله الأديب؛ فهو خالق الجمال في الذهن، والممكن للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه، وهو الذي يقدر لهذا العالم قيمته الإنسانية بإضافة الصور الفكرية الجميلة إليه، ومحاولته إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية، والارتفاع بهذه النفس عن ألوان المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيواني.

وإذا كان الأمر في الأدب على ذلك، فبإضطرار أن تهذب فيه الحياة وتتأدب، وأن يكون تسلطه على بواعث النفس دربة^(١) لإصلاحها وإقامتها، لا لإفسادها والانحراف بها إلى الزيف والضلالة؛ وبإضطرار أن يكون الأديب مكلفاً تصحيح النفس الإنسانية، ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات؛ ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلى فوق، ثم إلى فوق، ودائماً إلى فوق!

وإنما يكلف الأديب ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التمييز وتقدم النظر وتسقط الإلهام، ولأن الأصل في عمله الفني ألا يبحث في الشيء نفسه، ولكن في البديع منه؛ وألا ينظر إلى وجوده، بل إلى سره؛ ولا يعنى بتركيبه، بل بالجمال في

(١) دربة: رياضة.

تركيبه؛ ولأن مادة عمله أحوال الناس، وأخلاقهم، وألوان معاشيهم، وأحلامهم، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن، وتفاوت إحساسهم به، وأسباب مغاوبهم ومراشدِهِمْ؛ يُسدّد على كلّ ذلك رأيته، ويُجِلّ فيه نظره، ويخلطه في نفسه، ويُنفّذه من حواسه، كأنما له في السرائر القبض والبسط، وكأنه ولي الحكم على الجزء الخفي في الإنسان يقوم على سياسته وتدبيره، ويهديه إلى المثل الأعلى، وهل يخلق العبقري إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يقدر على الذي هو أكمل والذي هو أبعد، حتى لا يياس العقل الإنساني ولا ينخدل، فيستمر دائماً في طلب الكمال والإبداع اللذين لا نهاية لهما؟

فالأديب يُشرف على هذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض، وإذا هي دائبة في محق الشخصية الإنسانية، تاركة كلّ حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه؛ فإذا تلخّج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفس العالمة إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والإنسانية والإيمان والفضيلة، وقامت حارسة على ما ضيع الناس، وسخرت في ذلك تسخييراً لا تملك معه أن تأبى منه، ولا يستوي لها أن تُغضض فيه؛ وتقلّت الإنسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت، فتأكد الأمر فيها، ووصل بها، وعلمت أنها من خالصة الله، وأن رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين، وبسط الرحمة للمتنازعين، وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته، وتوصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها، وتُشعرهم بالحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها: فالأدب من هذه الناحية يشبه الدين: كلاهما يعين الإنسانية على الاستمرار في عملها، وكلاهما قريب من قريب؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهي، والأدب يعرض لها ليجمع ويُقابل؛ والدين يوجه الإنسان إلى ربه، والأدب يوجهه إلى نفسه؛ وذلك وحي الله إلى الملك إلى نبي مختار، وهذا وحي الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار.

فإن لم يكن للأديب مثل أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله، فهو أديب حالة من الحالات، لا أديب عصر ولا أديب جيل؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كلّ عصر هم الأرقام الإنسانية التي يُلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته...

ولا يخذعك عن هذا أن ترى بعض العبقريين لا يؤتى في أدبه أو أكثره إلا

إلى الرذائل، يتغلغل فيها، ويتملاً بها، ويكون منها على ما ليس عليه أحد إلا السفلة والحشوة من طعام الناس^(١) ورعايهم؛ فإن هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحققها من جهة ما فيها من النهي، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة؛ وكثيراً ما تكون الموعظة بردائهم أقوى وأشد تأثيراً مما هي في الفضائل؛ بل هم عندي ك بعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي أقوى مما يأمر الأمر، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المبتلى المشوة المتحطم الذي ينهك بصورته أن تكون مثله؛ ولهذه الحقيقة القوية في أثرها - حقيقة الأمر بالنهي - يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه، أو الإحالة في الحادثة التي يصفونها؛ فينتهي الراهب التقي في القصة ملجداً فاجراً، وترتد المرأة البغي قديسة، ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم؛ إلى كثير مما يجري في هذا النسق، كما تراه لأناطول فرانس وشكبير وغيرهما، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر، ولكنه أسلوب من الفن، يقابله أسلوب من الخلق، ليبدع أسلوباً من التأثير؛ وكل ذلك شاذ معدود ينبغي أن ينحصر ولا يتعدى، لأنه وصف لأحوال دقيقة طارئة على النفس، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها.

والشرط في العبقرى الذي تلك صفته وذلك أدبه، أن يغلو بالرديلة... في أسلوبه ومعانيه، أخذاً بغاية الصنعة، متناهياً في حسن العبارة؛ حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارته منه مفسرها العبقرى الشاذ الذي يكون في سمو فيه البياني هو وحده الطرف المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة، فيصنع الإلهام في هذا وفي هذا صنعه الفني بطريقة بدعية التأثير، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجهده فيه، وفي أديب الرديلة ما يقوده ويندفع إليه، كأن منهما إنساناً صار ملكاً يكتب، وإنساناً عاد حيوياً يكتب...

وإذا أنت ميّلت بين رديلة الأديب العبقرى في فنه، ورديلة الأديب الفسل^(٢) الذي يشبه به - في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب - رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف: هذا دموعه ألمه، وذاك دموعه

(١) طعام: سفلة البشر.

(٢) الفسل: الخامل الذكر.

ألمه وشعره؛ وفي كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبي، وأن اللذة به هي علامة الحياة فيه؛ إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية، شاهدتها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست في الحقيقة إلا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها، وأنها على ذلك هي أيضاً مسألة من مسائل الإنسانية مطروحة للنظر والحل، بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل.

واللذة بالأدب غير التلهي به واتخاذهِ للعبث والبطالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون ملهاة وسخفاً ومضيعة؛ فإن اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناولهِ الكون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس، وهي الأصل في جمال الأسلوب؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما رُكِبَ في طبيعة الحي، إذ يحس الذوق لذة الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعي استمرار التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها؛ أما التلهي فيجيء من سَخفِ الأدب؛ وفراغ معانيه، ومؤاتيه الشهوات الخسيسة والتماسيه الجوانب الضيقة من الحياة؛ وذلك حين لا يكون أدب الشعب ولا الإنسانية بل أدب فئة بعينها وأحوالها؛ فإن أديب صناعته أو أديب جماعته، غير أديب قومه وأديب عصره، أحدهما إلى حدٍّ محدود من الحياة، والآخر عمل جامع مستمر متفتن؛ لأن عمله الأدبي هو وجوده، وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له: اكتب...

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف، أنه إذا كانت الدولة للشعب، كان الأدب أدب الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان عيشه، ورُخِرَ^(١) الأدب بذلك وتنوع وافتن وبُني على الحياة الاجتماعية؛ فإن كانت الدولة لغير الشعب، كان الأدب أدب الحاكمين وبُني على النفاق والمُداهنة والمبالغة الصناعية والكذب والتدليس، ونَصَبَ الأدب من ذلك وقلّ وتكرّر من صورة واحدة؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الإحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله، إلى الإحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله؛ أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه، فيصبح أدبه أشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يمل ذهابه ومجيئه.

(١) زجر: امتلاً واحتوى.

وَالْعَجَبُ الَّذِي لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ أَحَدٌ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ مَنْ دَرَسُوا الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، أَنَّكَ لَا تَجِدُ تَقْرِيرَ الْمَعْنَى الْفَلَسْفِيَّ الْأَجْتِمَاعِيَّ لِلْأَدَبِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهِ إِلَّا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَدَهَا، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْهُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ وَحَدَهُم!

فَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُقَرَّرُ الْأُسْلُوبُ شَرْطًا فِيهِ، وَيَأْتِي بِقُوَّةِ اللُّغَةِ صُورَةَ لِقُوَّةِ الطَّبَاعِ، وَبِعِظَمَةِ الْأَدَاءِ صُورَةَ لِعِظَمَةِ الْأَخْلَاقِ، وَبِرِقَّةِ الْبَيَانِ صُورَةَ لِرِقَّةِ النَّفْسِ، وَبِدِقَّةِ الْمَتْنِ فِي الْعُمُقِ صُورَةَ لِدِقَّةِ النَّظَرِ إِلَى الْحَيَاةِ؛ وَيُرِيكَ أَنَّ الْكَلَامَ أُمَّةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ عَامِلَةٌ فِي حَيَاةِ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ، ضَابِطَةٌ لَهَا الْمَقَائِيسَ التَّارِيخِيَّةَ، مُخَكِّمَةٌ لَهَا الْأَوْضَاعَ الْإِنْسَانِيَّةَ، مُشْرِطَةٌ فِيهَا الْمَثَلَ الْأَعْلَى، حَامِلَةٌ لَهَا النُّورَ الْإِلَهِيَّ عَلَى الْأَرْضِ...

... وَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُنْشِئُ الْأُمَّةَ إِنْشَاءً سَامِيًا، وَيَدْفَعُهَا إِلَى الْمَعَالِي دَفْعًا، وَيَرُدُّهَا عَنْ سَفَاسِفِ الْحَيَاةِ^(١)، وَيُوجِّهُهَا بِدَقَّةِ الْإِبْرَةِ الْمَغْنَطِيسِيَّةِ إِلَى الْآفَاقِ الْوَاسِعَةِ، وَيُسَدِّدُهَا^(٢) فِي أَغْرَاضِهَا التَّارِيخِيَّةِ الْعَالِيَةِ تَسْدِيدَ الْقَنْبَلَةِ خَرَجَتْ مِنْ مَدْفِعِهَا الضَّخْمِ الْمُحَرَّرِ الْمُحْكَمِ، وَيَمْلَأُ سَرَائِرَهَا يَقِينًا وَنَفُوسَهَا حَزْمًا وَأَبْصَارَهَا نَظْرًا وَعَقُولَهَا حِكْمَةً، وَيَنْقُذُ بِهَا مِنْ مَظَاهِرِ الْكُؤُنِ إِلَى أَسْرَارِ الْأُلُوهِيَّةِ...

.... إِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْوُجُوهِ مِنَ الْأَعْتَابِ - وَجَدْتَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ قَدْ وَضَعَ الْأَصْلَ الْحَيَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَعْجَبُ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا الْأَصْلَ مَقْدَسًا، وَقَرَضَ هَذَا التَّقْدِيسَ عَقِيدَةً، وَأَعْتَبَرَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ ثَابِتَةً لَنْ تَتَغَيَّرَ؛ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ الْأَدَبَاءُ وَلَمْ يَخَذُوا^(٣) بِالْأَدَبِ حَذُوهُ، وَحَسِبُوهُ دِينًا فَقَطْ، وَذَهَبُوا بِأَدَبِهِمْ إِلَى الْعَبَثِ وَالْمَجُونِ وَالنِّفَاقِ؛ كَأَنَّهُ مِنْهُمْ إِلَّا بَقَايَا تَارِيخٍ مُحْتَضِرٍ بِالْعِلَلِ الْفَاتِلَةِ، ذَاهِبٌ إِلَى الْفَنَاءِ الْحَتَمِ!

وَالْقُرْآنُ بِأُسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ لَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا: إِنَّ الْأَدَبَ هُوَ الْأُسْمُوُّ بَضْمِيرِ الْأُمَّةِ.

وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا: إِنَّ الْأَدِيبَ هُوَ مَنْ كَانَ لِأُمَّتِهِ وَلِللُّغَتِهَا فِي مَوَاهِبِ قَلَمِهِ لَقَبٌ مِنَ أَلْقَابِ التَّارِيخِ.

(١) سَفَاسِفِ الْحَيَاةِ: صَغَائِرُهَا وَالتَّافَهُ مِنْهَا.

(٢) يُسَدِّدُهَا: يُوْجِّهُهَا.

(٣) يَخَذُوا: يَخْطُوا وَيَقْلُدُوا.

سِرُّ النُّبُوغِ فِي الْأَدَبِ

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرُّ في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفه ويديره على أغراضه، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا، وأديناها بمعنى ممّا بين الإنسان والحيوان - لكأنت في العبارة هكذا: ما أنت أيها الأبله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون إلا نبي مرسل ﷺ... ذلك أن التركيب الذي يبين به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دُمِغَ به على خصائصه فأفرغه الله في جلده، ووضع في رأسه ذلك القفل الإلهي الذي حبسه في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية، وأقفل به على الدنيا العقلية المتسعة بينه وبين الإنسان؛ فالكون عنده لغز كله ليس فيه إلا حقائق يسيرة، ثم لا تفسير لهذه الحقائق إلا من طبيعته هو، فجلده أدق تفسير فلكي... للنشمس والنور والهواء وما يجيء منها، وجوفه أصح تعبير جغرافي... للكرة الأرضية وما تحمل، وجوعه وشبعه هما كل فلسفة الشر والخير في العالم!..

فأساس الذكاء عالياً ونازلاً هو التركيب الطبيعي لا غيره: لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت الدنيا صورة أو نقصت؛ فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين جدة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان، وما نشهد من ذلك في أحوال الناس، من الفطنة إلى الذكاء إلى الألمعية^(١) إلى الجهبذة^(٢) إلى النبوغ إلى العبقرية؛ وهي طبقات من ألفاظ اللغة لأحوال قائمة من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ.

وممّا يسجد له العقل الإنساني سجدة طويلة إذا هو تأمل في حكمة الله ومرو يتصفح^(٣) من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ - أن هذا الوجود الذي يحمل أسرار الألوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الأبدي، وأن الأرض التي تحمل

(١) الألمعية: الذكاء المفرط.

(٢) الجهبذة: التفوق في العلم والشعر.

(٣) يتصفح: يكشف.

أسرارَ الْإِنْسَانِيَّةِ، هِيَ كُرَّةٌ طَائِرَةٌ فِيمَا مَدَّ لَهَا مِنَ الْوُجُودِ، وَأَنَّ كُلَّ حَيٍّ فِيهَا يَحْمِلُ
 أَسْرَارَ حَيَاتِهِ فِي كُرَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ رَأْسُهُ. وَأَنَّ الْوُجُودَ مِنْ كُلِّ حَيٍّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ
 لَيْسَ شَيْئاً فِي النَّظَرِ وَلَا فِي الْحِسِّ وَلَا فِي الْفَهْمِ إِلَّا كَمَا يُرَى وَيُحَسُّ وَيُفْهَمُ فِي هَذَا
 الرَّأْسِ بِعَيْنِهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ، فَيَصْعَدُ التَّدْرِيجَ إِلَى الْكَبِيرِ إِلَى الْأَكْبَرِ، وَيَنْزِلُ إِلَى
 الْأَصْغَرِ إِلَى الْأَصْغَرِ؛ ثُمَّ لَا مَعْنَى لِمَا صَعَدَ إِلَّا مِمَّا نَزَلَ، وَبِهَذَا سَتَكُونُ آخِرُهُ جَمِيعُ
 الْعُلُومِ مَتَى نَفَذَ الْعُلَمَاءُ إِلَى الْأَسْرِ الْحَقِيقِيِّ، أَنَّ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ فَهَمُ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ
 يَفْهَمْ شَيْئاً...

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ بِتَرْكِيْبِ أَدْمَغَتِهِمْ عَلَى شَبِيهِ مِنْ هَذَا التَّدْرِيجِ؛ فَأَمَّا وَاحِدٌ
 فَيَكُونُ دِمَاغُهُ بِاعْتِبَارِهِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فِي الذِّكَاءِ وَالْعَقْلِ كَالْوُجُودِ الْمُحِيطِ، وَأَمَّا آخَرُ
 فَكَالْشَّمْسِ، ثُمَّ غَيْرُهَا كَالْأَرْضِ، ثُمَّ الرَّابِعُ كَالْإِنْسَانِ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْهُمْ كَالْحَيَوَانَ وَمِنْهُمْ
 كَالْحَشَرَةِ؛ وَلَا عِلَّةَ لِكُلِّ هَذَا إِلَّا مَا هِيَآتِ الْأَقْدَارُ «بِأَسْبَابِهَا الْكَثِيرَةِ»، لِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي
 تَرْكِيْبِ دِمَاغِهِ فِي نَوْعِ الْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ مِنَ الْمَخِّ، وَأَحْوَالِ التَّرْكِيبِ فِي الْمَلَائِكِينَ مِنَ
 الْخَلَايَا الْعَصْبِيَّةِ، وَمَا لَا يُعَدُّ مِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْخَلَايَا وَشُعَبِهَا: ثُمَّ مَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ
 الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ هَذِهِ الْفُرُوعِ الَّتِي هِيَ لِكُلِّ رَأْسٍ كَرْمَلِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ، ثُمَّ اخْتِلَافِ
 مَقَادِيرِ الْمَوَادِّ الْكِيْمَاوِيَّةِ الَّتِي تَتَخَلَّقُ^(١) فِي غَدَدِ الْجَسْمِ وَتَفْتُنُهَا الْغَدَدُ فِي الْأَدَمِ.

فَقَدْ يَكُونُ الْعَمَلُ الْنَابِغُ الْمَتَمَرِّدُ عَلَى الْعُقُولِ آتِياً مِنْ قَطْرَةٍ فِي هَذِهِ الْغَدَدِ، كَمَا
 يَنْبَعُثُ الْعِمْلَاقُ الْمَارِدُ بِعِظَامِهِ الْمَمْتَدَّةِ وَالْوَاجِهِ الْمَشْبُوحَةِ مِنْ غُدَّتِهِ الْخَامِيَّةِ لَا غَيْرِهَا.

فَالذِّكْيُ مِنْ ذَكْيٍ مِثْلِهِ إِنَّمَا هُوَ كَالْجَيْشِ مِنْ جَيْشٍ بِإِزَائِهِ: يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَهُمَا
 فِيمَا اشْتَمَلَا عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الْجَنْدِ، وَصِفَاتِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، وَأَحْوَالِهِمْ مِنَ
 النِّظَامِ وَالْاِخْتِلَالِ، وَقُوَّةِ آلَاتِهِمْ وَمِقْدَارِهَا وَنَوْعِ الْاِخْتِرَاعِ فِيهَا، ثُمَّ طَبِيعَةِ مَوْضِعِهِمْ
 وَحَسَنِ تَوْجِيهِهِمْ وَقِيَادَتِهِمْ، وَمَا اُكْتَنَفَهُمْ^(٢) مِنْ صَعْبٍ أَوْ سَهْلٍ، وَمَا تَظَاهَرَ^(٣)
 عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَقْدَارِ، ثُمَّ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا حِيلَةَ فِيهِ إِنَّ وَقَعَ فِي حُصَّةٍ
 أَحَدِهِمَا وَاسْتَقَرَّ، أَوْ وَقَعَ هَوْنًا وَطَارَ لِآخَرِ؛ وَبِنْحَوْ مِنْ هَذَا كُلِّهِ تَكُونُ الْمُفَاضَلَةُ إِذَا
 وَازَنْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ النُّوَابِغِ فِي حَقِيقَةِ بُنُوغِهِمَا.

فَالنَّابِغَةُ خَلْقٌ مِنْ خَالِقِهِ، يُصْنَعُ كَمَا تَرَى بِإِقْدَارِ اللَّهِ؛ إِذْ هُوَ قَدَّرَ عَلَى قَوْمِهِ

(١) تَتَخَلَّقُ: تَتَشَكَّلُ.

(٢) اُكْتَنَفَهُمْ: دَاخَلَهُمْ.

(٣) تَظَاهَرَ: اجْتَمَعَ وَقَوِيَ.

وعلى عصره، وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السخب (الانصيب): سلّة يد جعلتها مالا وتركّت الباقيات ورقاً وأحدثت بينهما الفرق الذهبي؛ وبهذا لا يستطيع العالم أن يزيد الدنيا نابغة إلا إذا استطاع أن يزيد في الكواكب نجماً فيصنعه؛ وهبة^(١) صنعه من الكهرباء، فيبقى أن يحمله، وإذا حمله بقي أن يرفعه إلى السموات؛ وهبة قد رفعه فيبقى كل شيء... يبقى عليه أن يُقحمه^(٢) في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلّك.

وكما يُخلق النابغة بتركيبه، تُخلق له الأحوال الملائمة لعمله الذي خُص به في أسرار التقدير عاملاً نافعاً، وإن كانت لا ثلاثه هو منتفعاً؛ فإنه هو غير مقصود إلا من حيث أنه وسيلة أو آلة تُكابد ما تحتل في أعمالها، ويؤتي لها لتأخذ على طريقة وتُعطي على طريقة؛ وبذلك يرجع التقدير إلى أن يكون العقل لنابغة دليلاً للناس من الناس أنفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الأمر.

وإذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ، والخيال يظهر في تعبيرهم، والحكمة تهبط إلى الدنيا في تفكيرهم، والمثل الأعلى هم الداعون إليه، والأشواق النفسية هم موقظوها، والعواصف هم المصورون لها، وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن - إذا كان هذا كله فهذا كله إنما هو تأكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبرة، وأنهم أدواتها في هذه المعاني؛ فما هي أعمالهم أكثر مما هي أعمالها؛ وقد يظن الناس أن النابغة يلتمس القوى المحيطة به ليبدع منها، والحقيقة أنها هي تلتئمسه ليبدع به.

وبعد؛ فالنابغة كأنه إنسان من الفلك، فهو يخزن الأشعة العقلية ويريقها^(٣)، وفي يده الأنوار والظلال والألوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معاني الحياة؛ ولا تزال الحكمة تلقى إليه الفكرة الجميلة ليُعطيها هو صورة فكرتها، وتوحي إليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق؛ والطبيعة خلّقها الله وحده، ولكنها ليست معقولة إلا بالعلم، وليست جميلة إلا بالشعر، وليست محبوبة إلا بالفن؛ فالنوابغ في هذا كله هم شروح وتفسير حول كلمات الله، وكلهم يشعر بالوجود فناً كاملاً ويشعر بنفسه شراً لأشياء من هذا الفن، ويرى

(١) هبة: افترض.

(٢) يقحمه: يدخله بقوة.

(٣) يريقها: ينفقها ويبعثرها.

معاني الطبيعة كأنما تأتيه تلتبس في كتابته وشعره حياة أكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة، وتعرض له أحزان الإنسانية تسأله أن يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل، فإنها وإن كانت آلاماً وأحزاناً إلا أن معناها الخيالي هو سرور تحملهُ للناس؛ إذ كان من طبيعة النفس البشرية أن تسكن إلى وصف الآلام وفلسفة حكميتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الإلهي، كأن المؤلم ليس هو الألم، وإنما هو جهل سره.

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء مفسره العبقري ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضاً... ثم ليؤتي الناس المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر؛ ولهذا تُصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهم في أوقات التجلي عليه كأنه كلام صور نفسه وصاغها، أو كأنه قطعة من الجس قد جمدت في أسطر؛ ولا بد أن تُشعرك الجملة أنها قد فت وحيًا، إذ لا تجدُها إلا وكأن في كلماتها روحاً يزّرعش؛ ولقد يخطر لي وأنا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الأذهان الملهمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما - حين أتأمل اختراع المعنى وإبداع سياقه وضحي البيان عليه وإشراقه فيه وما أتيج له من جلال ظاهر في شكل حي يلمح بسره في النفس - يُخيل إلي من ذلك أن سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن إنساني ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل جلاله.

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الإلهام وأجريت في كتابه كاتب أو شاعر من الذين ليس لهم إلا أذهانهم يكدونها^(١)، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً... لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما أنت واجد له على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الإنسان بالآبرة والخيط، وزهرة أخرى قد أنبتت عطرة ناضرة في غصنها الأخضر من عمل الحياة بالسماء والأرض.

والعبقري هو أبداً وراء ما لا ينتهي من جمال، أوله في نفسه وآخره في الجمال الأقدس الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية؛ فما دام فيه سر العبقري فهو دائم يعمل ممزقاً حياته في سباحات النور تمزيقاً يجتمع منه أدبه؛ وما أدبه إلا صورة حياته؛ وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذي هو أبدع منه؛ فلا يزال متألماً إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله، ومتألماً إن لم يعمل لأن

(١) يكدونها: يشحدونها ويعملونها.

تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ إلا في عمل، وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال الأقدس تمرّد العشق في حامله؛ إذ هما صورتان لأمر واحد كما سنشير إليه؛ فكل ما تجده في نفس العاشق المتمدّد ممّا يترامى به إلى جنونه وهلاكه، تجد شهاً منه في نفس العبقري؛ فكلاهما قانونه من طبيعته وحده؛ إذ قد اتخذت حياته شكلها الفني من ذوقه هو وحده؛ فليس يتبع طريقة أحد، بل هو طريقة نفسه، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع إليه ويستمد منه، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنى، بل رسواً من الجمال أرسل إليه وحده، ولا يزال يشعر في كل وقت أن له رسائل ورسلاً هو بعد في انتظارها، وكلاهما متى ظفر بشيء من مصدر الجمال انتهى من شدة فرجه إلى الظن أنه ربح من الكون ربحاً لم يكن له من قبل، وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع، وبين حريتها التي في خياله وأمله، كأن عليه في سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيداً من قيود الأمتاع أو العيش؛ وكلاهما متصل بقوة غيبية وراء ما يرى وما يحسّ تجعل نظرتهم في الأشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المعشوقتين، فإذا مدّ عينيه في شيء جميل فهناك سؤال وجواب، ووحى وترجمته، ومرور من يقظة إلى حلم، وانتقال من حقيقة إلى خيال!

غير أن طبيعة العبقري تزيد على كل ذلك ألماً تنفر به لا تستقر معه على رضا، ولا يبرح يسلط الإعنان^(١) عليها ويستغرقها بالهموم السامية؛ وذلك ألم الكمال الفني الذي لا يدرك العبقري غايته عند نفسه، وإن كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات؛ فطبيعة كل عبقري تجهّد جهدها في العمل لئلا يخرج به ممّا يستطيعه الناس، فإذا تأتّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منه وبلغ وأعجز، اندفعت طبيعته إلى الخروج ممّا يستطيع هو... كأنه خارج عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً، وكأنه نفسه وفوق نفسه في حال، وهذا سرّ حريته وسموه، كما أنه سرّ ألمه وخبرته.

ومن أثر ذلك ما تحسّه أنت إذا قرأت للأديب البليغ التام صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهم؛ فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدّد فيها ويهتزّ بها طرباً وإعجاباً، فتقول: لا أحسن من هذا! ثم تؤمل مع ذلك أن تجد

(١) الاعنان: الإرهاق.

منه هو أحسن من هذا . . . كأنه وإن تناهى إلى الغاية^(١) لا يزال عندك فوق الغاية؛ وهذا غريب، ولكن لا دليل على العبقريّة إلا الغرابة دائماً؛ فهي نظام لا نظام فيه؛ لأنها طريقة لا طريقة لها؛ وبهذه الغرابة جاءت العبقريّة كلها أمثلة وليس فيها قواعد يُحتذى^(٢) عليها ولا هداية فيها إلا من الروح؛ وإذا كان الفنّ قدرة متصرفّة في الجمال، فالعبقريّة قدرة متصرفّة في الفنّ، والنابعة كالمتكيس^(٣) الذي معه قوى العقل ويُريد أن يزداد على قدره منها، ولكن العبقريّ كالإلهيّ الذي معه قوى الروح ويُريد أن يزيد الناس على قدرهم بها؛ وذلك مرجعه الفكر الدقيق ألباحث، وهذا مناطه البصيرة الشفافة النافذة، وهي أغرب الغرائب في الإنسان؛ إذ هي الجهة المطلقة في هذا المخلوق المقيّد، وبها تتسع النفس لإدراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات، وفيها تحوّل الأشياء من نظام الحاسة إلى نظام الروح، فيسمع المرئي ويُبصر المسموع، وتخلع الأجسام أنغاماً، وتلبس الأصوات أشكالاً، ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيه بقية زائدة على خلقه تركت ليعمل فيها الكاتب أو الشاعر المُحدّث عمل فنّه، الزائدة على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه، وهي التي تُسمّيها الإلهام.

وهذه الحاسة هي كذلك من بعض الغرابة، تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطع في جو السماء إلى غاياتها البعيدة من قطب^(٤) الأرض إلى قطبها الآخر بغير دليل تحمله، ولا رسم تنظر فيه، ولا علم ترجع إليه؛ وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذي يبني عسلته على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة، وحاسة التدبير في النمل الذي يدبّر مملكته بغير علوم الممالك وسياساتها؛ وكثيراً ما يجيء الأديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع وأوصافها بما يُعطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ومثل هذا العبقريّ هو عندي فوق العلم، لا أقول بدرجة، ولكن بحاسة.

وبالإلهام يكون لكل عبقريّ ذهنه الذي معه وذهنه الذي ليس معه؛ إذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيه، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاء

(١) تناهى إلى الغاية: نضج واكتمل ووصل إلى حده الأقصى.

(٢) يحتذى: يقلدها ويتخذها قدوة.

(٣) المتكيس: العاقل الذي يتصرف بحكمة. (٤) قطب: مركز.

في جسمه، هيئة مُنقّدة كأنها تتصرّف على أطرادِ أعادةِ بلا فِكْرٍ ولا رَوِيّةٍ ولا عُسرٍ ما دامت تتجلّى عليه .

وليسَتْ تَتَّصِلُ هذه القوةُ إلّا بتركيبٍ عصبيّ تكونُ فيه الخصائصُ الّتي تصلُحُ أن تتلقّى عنها، وهي في العبقرينَ خصائصُ مرّضيةٌ في الأعمّ الأغلب، بلّ لعلّها كذلك دائماً، لِيَتَسَرَّ بها العبقرى لحالةٍ خفيفةٍ مِنَ المَوْتِ . . . يحملُ بها كدّه وتعبه وما يُعانيه من مضضِ الفِكْرِ وثِقَلِيّته؛ ثُمَّ لِيَتَكُونَ هذه الحالةُ كالْتَقَرُّبِ بينَ عالمِ الشهادةِ فيه وبينَ عالمِ الغيبِ منه؛ فالتركيبُ العصبيّ في دِمَاحِ العبقرى إنسانٌ على حيالِهِ مع إنسانٍ آخر، أحدهما لِمَا في الطّبيعةِ والثّاني لِمَا وراءَ الطّبيعةِ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الرَّجُلُ من هذه الفِئَةِ كَالْمِضْبَاحِ: يَتَّقِدُ وينطفئُ لِأَنَّهُ أَلَهُ نُورٍ تَعْرُضُ لَهَا أَلْعَلُّ فتذهبُ بِقُدْرَتِهَا عليه، وتنضبُ مادةُ النّورِ منها، فكذلك لا تَقْدِرُ عليه، وتكونُ مُضِيئَةً فتتنطفئُ بسببِ ليسَ منها ولا من نورها، وهي على كلّ هذه الأحوالِ لا تملكُ منها حالة؛ فبينما العبقرى الَّذي يَمْلَأُ الدُّنْيَا من آثارِهِ النّابغة، تَرَاهُ في حالةٍ من أحوالِهِ يَذْأَبُ لا يَأْتَلِي فيجدُ في العملِ ويبدلُ الوُسْعَ فيه ويصبرُ على مُطَاوَلَةِ التّعبِ في إحكامِهِ ويفيضُ به فيضاً وكأنَّ في طِبعِهِ الرّبيعَ المُتَفَتِّحَ طولَ أَيّامِهِ بِالْجَمالِ - إذا هو في حالةٍ أُخرى يتلَكَّأُ ويترَبَّصُ^(١) لا يعملُ شيئاً كأنّما دخلَ في قريحَتِهِ الشّتاءُ، وفي ثالثةٍ يتباطأُ ويتلبّثُ فلا يعنُ لَهُ جديداً كأنّما حُبِسَ عنه فِكْرُهُ أو نبا طبعُهُ أو هو في قَيْظِ طِبعِهِ وخُمُولِهَا وضَجَرِهَا؛ ثُمَّ لا تمضي على ذلك إلّا تَوَةً وساعةً فإذا على صيفِهِ هواءٌ نوفمبر وديسمبر . . . وإذا هو منبعثٌ مِلءُ القُوَّةِ والنّشاط؛ ورُبّما يأخذُ في غرضٍ مِنَ الكِتَابَةِ قد رَسَمَ لَهُ المَعْنَى وهيئاً لَهُ المادّة، فلا يكادُ يمضي لِنجوٍ مِنْهُ حتّى تتناسخَ في ذهنِهِ المَعْنَى فإذا هو يكتُبُ ما لا يُشَبِّهُ ما كَانَ أَبْتَدَأَ بِهِ، ويأتيهِ غَيْرُ ما كَانَ قد أَرَادَهُ، كأنّما يُلْقَى عليه فهو يستملي؛ وقد يبتدئُ معنًى ثُمَّ يَقْطَعُ عنه بِطاريءٍ من عملٍ أو حديث، ثُمَّ يُعاوِذُهُ فإذا معنًى أُخرى وإذا جِهَةٌ مِنَ الفِكْرِ هي جِهَةٌ الإبداعِ والاختراعِ في موضوعِهِ، وإذا هو إنّما كَانَ يَجُرُّ بِذلك الأَصْرافَ عن معنائه الأوّلِ جُرّاً لِيَدْعَهُ إلى الأكْمَلِ والأَصَحِّ، وأيقِنَ أَنَّهُ لو كَانَ أَسْتَوْفَى على ما بَدَأَ لَأَسَفَ وَضَعَفَ وجاءَ بِمَا غَيْرُهُ أَقْدَرُ عليه؛ كَأَنَّ هذه القُوَّةَ الخَفِيَّةَ الّتي تُلْهِمُهُ تُنْقِجُ لَهُ أيضاً بِأساليبها الغريبةِ؛ وقد يكونُ أَخْذاً في عملِهِ ماضياً على طبعِهِ مسترسلاً إلى ما

(١) يترَبَّصُ: ينتظر ويتوقّع بحذر.

ينكشفُ له من أسرار المعاني ثَقِفاً مِنْ هُنَا لَقِفاً^(١) من هناك، ثُمَّ ينظرُ فإذا هو قد مُسِحَ لوحُ خياله، ويطلبُ المعنى فلا يُتَاحُ له، ويتمادى فلا يزيدُ إلا كَدّاً وعُسراً كأنما ذهبَ إلهامُهُ في غَمَضٍ من غُمُوضِ الأبدية؛ وكلُّ مَنْ أرتاضَ بصناعةِ الفكرِ وأستحكمتْ له عادتها ومرٌّ في درجاتها حتى بلغَ المكانةَ التي يستشرفُ منها للإلهامِ ويتعرَّضُ فيها بروحه وببصيرته لِنَبْضَاتِ الوحي وأنكشافاتِ الغيب، يعلمُ أنَّ كلَّ معنى بديع يأتي به في صناعته إنما يقعُ له إلهاماً من ذلك المعنى الحيِّ المتمدِّدِ في الكائناتِ كلها، ظاهراً في شيء منها بالضوء، وفي أشياء بالألوان، وفي بعضها بالحركة، وفي بعضها بالانسجام، وفي بعضها بالروعة وال فخامة، وفي غيرها بِنِضْبَةِ ألهيته؛ وظاهراً في حالات كثيرة بآثِهِ غيرِ ظاهر؛ ويعرفُ كذلك أنَّ هذا المعنى الشاملُ الذي لا يُحَدُّ هو الذي ينقلُ الوجودَ كُلَّهُ إلى نفوسِ النوابعِ متى نَبَضَ في هذه النفوسِ الرقيقةِ وأشعرها سرِّه، وإذا هَمَّ النابغةُ أن يتوضَّحَهُ لا يرى شيئاً، وإذا أرادَ حُجَّةَ عليه لم يستطعَ الجلاء عن بَيَانِهِ بكلمة، وإذا أَلْتَمَسَ التعريفَ به لم يجدَ إلا ما يشهدُ له إحساسُهُ وقلْبُهُ، وهذا الذي ينقدحُ^(٢) في أذهانِ النوابعِ أفكاراً حينَ يفيضُ لِكُلِّ منهم بسببٍ من قراءةٍ أو مُشاهدةٍ أو حالةٍ أو مراسٍ^(٣)، هو هو بعينه الذي ينقدحُ عشقاً في قلوبِ المُحِبِّينَ حينَ يتراءى لِكُلِّ منهم في معنى على وجهٍ جميل؛ ومن ثَمَّ كَانَ النابغةُ في الأدبِ لا يَتِمُّ تمامُهُ إلا إذا أَحَبَّ وعَشِقَ، وكانَ الأدبُ نفسه في تحصيلِ حقيقتهِ الفِلسَفيَّةِ ليسَ شيئاً سوى صناعةِ جمالِ الفكرِ .

وهذا العملُ في ذلك الجهازِ العصبيِّ الخاصِّ به في بعضِ الأدمغة هو الذي كَانَ يُسمِّيهِ علماءُ الأدبِ العربيِّ بالتوليد، وقد عرفوا أثره، ولكنَّهُم لم يتنبَّهوا إلى حقيقتهِ ولا أدركوا من سرِّه شيئاً؛ وأحسنُ ما قرأناه فيه قولُ ابنِ رشيقي في كتابِ العمدة: «إنَّما سُمِّيَ الشاعِرُ شاعِراً لأنَّهُ يشعُرُ بما لا يشعُرُ به غيرُهُ؛ فإذا لم يكنْ عندَ الشاعِرِ توليدٌ معنًى ولا اختراعُهُ، أو استطرافُ لَفْظٍ وأبتداعُهُ، أو زيادةٌ فيما أجحفَ^(٤) فيه غيرُهُ مِنَ المعاني، أو نقصٌ ممَّا أطالَهُ سِوَاهُ مِنَ الألفاظِ، أو صَرَفٌ معنًى إلى وجهٍ عن وجهٍ آخر - كَانَ أَسْمُ الشاعِرِ عليه مَجَازاً لا حقيقة، ولم يكنْ له

(١) لَقِفاً: سريع الفهم لما يدور حوله.

(٢) ينقدح: يلتمع.

(٣) المراس من الممارسة الناتجة عن التجربة والمعرفة.

(٤) أجحف: ظلم وقلل.

إِلَّا فَضْلُ الْوِزْنِ». هذا كلامُ أَبِي رَشِيقٍ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَخْلِيطٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَوْضُوعِنَا إِلَّا لَفْظُ التَّوْلِيدِ.

وَمِمَّا لَا نَقْضِي مِنْهُ عَجَبًا فِي تَتَبُعِ فِلْسَفَةِ هَذِهِ الَّلُغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَجِيبَةِ، أَنَّنَا نَرَى أَكْثَرَ الْأَفَاضِ كَالْتَامَةِ لَا يَنْقُضُهَا شَيْءٌ مِنْ دِقَاقِ الْمَعْنَى فِي أَصْلِ وَضْعِهَا، عَلَى حِينٍ لَا يَفْهَمُ عِلْمَاؤُهَا مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَافِ إِلَّا بَعْضَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ، كَأَنَّهَا مَنْزِلَةٌ تَنْزِيلًا مِمَّنْ يَعْلَمُ الْسِّرَ؛ وَقَدْ نَبَّهْنَا إِلَى هَذَا فِي كِتَابِنَا (تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ) وَأَفْضَلُنَا^(١) فِيهِ وَأَسْتَوْفِينَا هُنَاكَ مِنْ فِلْسَفَتِهِ، وَجَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ هَذَا بِالْعَجَائِبِ الَّتِي تَفُوتُ الْعَقْلَ، حَتَّى إِنْ أَكْثَرَ الْأَفَاضِ لَتَكَادُ تَكُونُ مَخْتُومَةً نَزَلَتْ كَذَلِكَ لِتَفْضُ^(٢) الْعُلُومَ وَالْفِلْسَفَةَ خَوَاتِمَهَا فِي عَصُورِ آتِيَةِ لَا رَيْبَ فِيهَا؛ وَكَلِمَةُ التَّوْلِيدِ الَّتِي لَمْ يَفْهَمْ مِنْهَا الْعُلَمَاءُ إِلَّا أَخَذَ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى غَيْرِهِ بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقِ الْأَخْذِ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا فِي كِتَابِ الْأَدَبِ - هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْرَارِ النُّبُوغِ وَلَا تَجِدُ مَا يَسُدُّ فِي ذَلِكَ مَسَدَهَا^(٣) أَوْ يُحِيطُ إِحَاطَتَهَا، وَلَا نَظْنَ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ مَا يُشَبِّهُهَا فِي هَذِهِ الدَّلَالَةِ وَأَسْتِيعَابِهَا كُلِّ أَسْرَارِ الْمَعْنَى؛ إِذْ هِيَ بِلَفْظِهَا نَصٌّ عَلَى حَيَاةِ الْكَوْنِ فِي الذَّهْنِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَنَّهُ يَتَّخِذُهُ وَسِيلَةً لِإِبْدَاعِ مَعَانِيهِ، كَمَا يَتَّخِذُ سِرَّ الْحَيَاةِ بَطْنَ الْأَمِّ وَسِيلَةً لِإِبْدَاعِ مَوْجُودَاتِهِ؛ وَأَنَّ الْمَعَانِي تَتَلَقَّحُ فَيَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي أَسْلُوبٍ مِنَ الْمَعَانِي بَعْضُهَا أَجْمَلُ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْأَنْسِلِ بِوَسَائِلِ التَّقْلِيلِ مِنَ الْأَدْمَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَأَنَّ النُّبُوغَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا التَّرَكِيبُ الْعَصَبِيُّ الْخَاصُّ فِي الذَّهْنِ، ثُمَّ نَمُوَ هَذَا التَّرَكِيبُ مَعَ الْحَيَاةِ فِي طَرِيقَةٍ سَوَاءٍ هِيَ وَطَرِيقَةُ الْوِلَادَةِ الْمُحْيِيَةِ الَّتِي مَرَجَعُهَا كَذَلِكَ إِلَى تَرْكِيبِ خَاصٍّ فِي أَحْشَاءِ الْإِنْسَانِيِّ؛ يَنْمُو، ثُمَّ يَدْرِكُ ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ الْمَعْجَزَ؛ وَإِذَا كَانَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ زَوْجَانِ، فَالْكَلِمَةُ نَصٌّ عَلَى أَنَّ أَذْهَانَ النَّوَاعِجِ أَذْهَانَ مُؤَنَّثَةً فِي طِبَاعِهَا الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا؛ وَهَذَا صَحِيحٌ، إِذْ هِيَ أَقْوَى الْأَذْهَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي الْجَسِّ بِالْأَلَامِ وَالْمَسْرَاتِ، وَمَعَانِي الدَّمُوعِ وَالْأَبْتِسَامِ أَسْرَعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ فِيهَا؛ وَهِيَ وَحْدَهَا الْمُبْدِعَةُ لِلْجَمَالِ وَالْمُنْشِئَةُ لِلذَّوْقِ، وَعَمَلُهَا فِي ذَلِكَ هُوَ قَانُونُ وَجُودِهَا؛ ثُمَّ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِحْتِمَالِ وَالْإِعْطَاءِ وَالرَّضَا بِالْحَرَمَانِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَإِدْمَانِ الْأَصْبَرِ عَلَى الْتَعَبِ وَالِدَقَّةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالتَّفَاصِيلِ وَأَسَاسُهَا الْحُبُّ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ طِبَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَهِيَ النَّابِغَةُ فِيهِ، بَلْ هِيَ النَّابِغَةُ بِهِ.

(١) أَفْضَلُنَا: زِدْنَا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مَطْلُوبٌ.

(٢) لَتَفْضُ: لَتَكْشِفْ وَتَفْتَحْ.

(٣) مَسَدُهَا: مَكَانُهَا.

فسِرُّ النُّبُوغُ فِي الْأَدَبِ فِي غَيْرِهِ هُوَ التَّوْلِيدُ، وَسِرُّ التَّوْلِيدِ فِي نَضِجِ الذَّهْنِ الْمُهَيَّأِ بِأَدْوَاتِهِ الْعَصَبِيَّةِ، الْمَتَّجِهَةِ إِلَى الْمَجْهُولِ وَمَعَانِيهِ كَمَا تَتَّجِهُ كُلُّ آلَاتِ الْمَرَصِدِ الْفَلَكِيِّ إِلَى السَّمَاءِ وَأَجْرَامِهَا؛ وَبِذَلِكَ الْعَنْصَرِ الذَّهْنِيِّ يَزِيدُ النَّابِغَةُ عَلَى غَيْرِهِ، كَمَا يَزِيدُ الْمَاسُ عَلَى الزَّجَاجِ، وَالْجَوْهَرُ عَلَى الْحَجَرِ، وَالْفُلُودُ عَلَى الْحَدِيدِ، وَالذَّهَبُ عَلَى النِّحَاسِ؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا نَبَغَتْ نَبُوغَهَا بِالتَّوْلِيدِ فِي سِرِّ تَرْكِيبِهَا؛ وَبِتَفَاوُثِ النَّوَابِغِ أَنْفُسُهُمْ فِي قُوَّةِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ، فَبَعْضُهُمْ فِيهَا أَكْمَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَتَمَدُّ لَهُمْ فِي الْخِلَافِ أَحْوَالُ أَرْمَانِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ وَحَوَادِثِهِمْ وَنَحْوِهَا؛ وَبِهَذِهِ الْمُبَانِيَةِ تَجْتَمِعُ لِكُلِّ مِنْهُمْ شَخْصِيَّةٌ وَتَنْسَبُ لَهُ طَرِيقَةٌ؛ وَبِذَلِكَ تَنْتَوِعُ الْأَسَالِيبُ، وَيُعَادُ الْكَلَامُ غَيْرَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ، وَتَتَجَدَّدُ الدُّنْيَا بِمَعَانِيهَا فِي ذَهْنِ كُلِّ أَدِيبٍ يَفْهَمُ الدُّنْيَا وَتَتَّخِذُ الْأَشْيَاءَ الْجَارِيَةَ فِي الْعَادَةِ غَرَابَةً لَيْسَتْ فِي الْعَادَةِ وَيَرْجِعُ الْحَقِيقِيُّ أَكْثَرَ مِنْ حَقِيقَتِهِ.

وَقَدْ سُئِلَ مَصَوِّرٌ مُبْدِعٌ بِمَاذَا يَمَزُجُ أَلْوَانَهُ فَتَأْتِي وَلَهَا إِشْرَاقُهَا وَجَمَالُهَا وَنُبُوغُ مَبَانِيهَا وَزَهْوُ الْحَيَاةِ بِهَا فِي الصُّورَةِ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَمَزُجُهَا بِمُخِّي. وَهَذَا هَذَا، فَإِنَّ الْأَلْوَانَ عِنْدَهُ النَّاسُ جَمِيعًا، وَلَكِنْ مُخَّهُ عِنْدَهُ وَحْدَهُ وَلَهُ تَرْكِيبُهُ الْخَاصُّ بِهِ وَحْدَهُ وَسِرُّ الصَّنَاعَةِ فِي تَوْلِيدِ هَذَا الدِّمَاغِ فَكَأَنَّ أَلْوَانَهُ فِي صِنَاعَتِهِ جَاءَتْ مِنْهُ بِخُصُوصِهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْعَبْقَرِيُّ فَإِنَّكَ لَتَجِدُ الشَّعْرَ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُتِمُّ الْغَرَضَ مِنْهُ وَيُضَيِّفُ إِلَى مَعَانِيهِ أَنْقَاءً مِنَ الْجَمَالِ وَحُسْنِهِ وَإِلَى صَوْتِهِ نَغْمًا مِنَ الْمَوْسِيقَى وَطَرِبِهَا. فَمَا أَشْبَهَ الْجِهَازَ الْعَصَبِيَّ فِي دِمَاجِ كُلِّ نَابِغَةٍ أَنْ يَكُونَ وَزْنًا شَعْرِيًّا لِهَذَا النَّابِغَةِ بِخَاصَّتِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ الْأَدِيبَ الْحَقَّ إِلَّا وَجَدْتَ كُلَّ مَا يَكْتَبُهُ يَجِيءُ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ حَتَّى لَا يَخْرُجَ عَنْهُ مَرَّةً، أَوْ تَزِيدُ أَنْتَ فِيهِ وَتَقْصُصُ إِلَّا ظَهَرَ لَكَ أَنَّهُ مَكْسُورٌ...؟

وَالذَّهْنُ الْعَبْقَرِيُّ لَا يَتَّخِذُ الْمَعَانِيَ مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَنَظَرٍ وَتَعَقُّبٍ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا أَوْ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهَا فَهَذَا عَمَلُ الذَّهْنِ الذَّكِيِّ وَحْدَهُ وَهُوَ غَايَةُ الْغَايَاتِ فِيهِ يَبْحَثُ وَيَنْظُرُ وَيَتَصَفَّحُ وَيَجْمَعُ مِنْ هُنَا وَيَأْخُذُ مِنْ ثَمَّ وَيَعْتَرِضُ وَيُصَحِّحُ وَيَأْتِيكَ بِالْمَقَالَةِ يَحْسِبُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ وَمَا فِيهَا إِلَّا أَشْيَاؤُهُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ. أَمَّا الذَّهْنُ الْعَبْقَرِيُّ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَعَانِي إِلَّا مَادَّةُ عَمَلٍ فَلَا تَكَادُ تُلَابِسُهُ حَتَّى تَتَحَوَّلَ فِيهِ وَتَنْتَوِعَ وَتَسَاقَطَ لَهُ أَشْكَالًا وَصُورًا فِي مِثْلِ خَطَرَاتِ الْبَرْقِ، وَرَبَّمَا غَمَرَ بِالْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي جَمَالِهِ وَسُمْوِهِ وَقُوَّةِ تَأْثِيرِهِ مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ لِأَوَّلِكَ الْأَذْكِيَاءِ فَنَسَخَهَا نَسْخًا وَجَعَلَهَا مِنْهُ كَالشَّمْعِ الْمُوقَدَةِ بِإِزَاءِ الشَّمْسِ. فَإِذَا ذَهَبَتْ ثَوَارِزُ بَيْنِ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى وَمِثْلِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي الرُّوعَةِ وَالْجَلَالِ وَرَأَيْتَ عَرَبِدَةَ الْمَقَالَةِ وَغُرُورَهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ تَقُولَ لَهَا: يَا

حصاة الميزان في إحدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الأخرى...؟

وقد عرف الأدباء جميعاً أن كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة، ثم يُنقّحها، ثم يهذبها، ثم يعيدها، ثم يرجع فيها، وهكذا خمس مرات إلى ثمان ويُقدّم ويؤخّر من موضع إلى موضع ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً، وما هو منها في شيء ولا أحسب الأوربيين أنفسهم تنبّهوا إلى سرّ هذه الطريقة، وإنما سرّها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فإذا قرأ كتابة حولها فكره وأبدع له منها من غير أن يعمل في ذلك أو يتكلّف له إلا ما يتكلّف من يهزّ إليه بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جيّئاً. فكلّما قرأ ولد ذهنه فيثبّ ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وإنه لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي إلى طريقته وسياق الفكر فيه إذ كان لم يأت إلا محولاً عن وجهه مرات لا مرة واحدة.

فجهاز التوليد متى استمرّ واستحكم في إنسان أصبح له بمقام ملك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من أقوى الأدلّة على صحّة النبوة وحدوث الوحي وإمكانه إذ لا تتصرّف به إلا قوة غيبية لا عمل للإنسان فيها، بل هي تُبدع إبداعها وتلقّي عليه إلقاء. وليس كل من تعرّض لها أدرك منها، ولا كل من أدرك منها بلغ بها، بل لا بدّ لها من الجهاز العصبيّ المُحكّم كجهاز اللاسلكيّ الدقيق المصنوع لتلقّي أبعد الأمواج الكهربائيّة وأقواها. وهذه القوة إن أرادت معاني الجمال أخرجت الشاعر وإن أرادت كشف السرّ عن الأشياء أخرجت الأديب وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكيم. فإن كان الأمر أكبر من هذا كلّه وكان أمر تغيير الحياة وصّبّ أزمان جديدة للإنسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة أو درجات في الرقيّ - فهنا تكون الوصلة أكبر من البصيرة، فليس لها من قوة الغيب إلا الوحي، ويكون الغرض أكبر من الشاعر والأديب والحكيم، فلا يختار إلا النبي، ثم لا يوحى إليه إلا وهو في جسّ لساعة الوحي وحدها، وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقّى عن روح الخلد؛ وقريب من ذلك خلوة التابغة بنفسه في ساعة التوليد؛ فسّر النبوغ من سرّ الوحي، لا ريب في ذلك، وما أسهل سرّ الوحي وأيسر أمره، ولكن في الأنبياء وحدهم، وهنا كل الصعوبة... «أن نكون أو لا نكون؛ هذه هي المسألة»..

نقد الشعر وفلسفته

الشاعرُ في رأينا هو ذاك الذي يرى الطبيعةَ كلّها بعينين لهما عشقٌ خاصٌّ وفيهما غزلٌ على حدةٍ، وقد خُلِقَتَا مُهيأتين بمجموعةٍ لِنَفْسِ العصبيةِ لرؤيةِ السّحرِ الذي لا يُرى إلّا بهما، بل الذي لا وجودَ له في الطبيعةِ الحيةِ لولا عينا الشاعرِ، كما لا وجودَ له في الجمالِ الحيّ لولا عينا العاشقِ.

فإذا كانَ الشاعرُ العظيمُ أعمى كهوميروس وميلتون وبشارٍ والمعرّي وأضرابهم، أنبعثَ البصرُ الشعريُّ من وراءِ كلّ حاسةٍ فيه، وأبصرَ من خواطرِهِ المنبئةِ في كلّ معنى، فأدّى بِالنفسِ في الوجودِ المُظلمِ أكثرَ ما كانَ يُؤدّيه بهذهِ النفسِ في الوجودِ المُضيءِ، وقصّرَ عن المُبصرينَ في معانٍ وأربى عليهم في معانٍ أخرى، فيجتمعُ للشعرِ من هؤلاءِ وأولئك مدّ النفسِ المُلهمةِ ممّا بينَ أطرافِ النورِ إلى أغوارِ الظلمةِ.

والشعرُ في أسرارِ الأشياءِ لا في الأشياءِ ذاتها، ولهذا تمتازُ قريحةُ الشاعرِ بقدرتها على خَلْقِ ألوانِ النفسيةِ التي تصبغُ كلّ شيءٍ وتلوّنه لإظهارِ حقائقهِ ودقائقهِ حتى يجري مجراه في النفسِ ويجوزُ مجازُهُ فيها؛ فكلُّ شيءٍ تَعَاوَرَهُ النَّاسُ من أشياءِ هذه الدنيا فهو إنّما يُعطيهم مادّةً في هيئتهِ الصامتةِ، حتى إذا أنتهى إلى الشاعرِ أعطاهُ هذه المادّةَ في صورتها المكتملةِ، فأبانت عن نفسها في شعرهِ الجميلِ بخصائصٍ ودقائقٍ لم يكن يراها الناسُ كأنّها ليستَ فيها.

فبِالشعرِ تتكلّمُ الطبيعةُ في النفسِ وتتكلّمُ النفسُ للحقيقةِ وتأتي الحقيقةُ في أظرفِ أشكالها وأجملِ معارضها، أي في البيانِ الذي تصنعهُ هذه النفسُ المُلهمةُ حين تتلقّى النورَ من كلّ ما حولها وتعكسهُ في صناعةٍ نورانيةٍ متموجةٍ بالألوانِ في المعاني والكلماتِ والألغامِ.

والإنسانُ مِنَ الناسِ يعيشُ في عمرٍ واحدٍ، ولكنَّ الشاعرَ يبدو كأنّه في أعمارٍ كثيرةٍ من عواطفهِ، وكأنّما ينطوي على نفوسٍ مختلفةٍ تجمعُ الإنسانيةَ من أطرافها،

وبذلك خُلِقَ لِيُفِيضَ من هذه الْحَيَاةِ عَلَى الدُّنْيَا، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ إِنْسَانِيٌّ لِلْإِحْسَاسِ يَغْتَرِفُ النَّاسُ مِنْهُ لِيَزِيدَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَانِيَ وجودِهِ الْمَحْدُودِ مَا دَامَ هَذَا الْوُجُودُ لَا يَزِيدُ فِي مُدَّتِهِ، ثُمَّ لِيُرْهِفَ^(١) الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ أَعْصَابَهُ فَتُدْرِكَ شَيْئاً مِمَّا فَوْقَ الْمَحْسُوسِ، وَتَكُنُّهُ^(٢) طَرَفاً مِنْ أَطْرَافِ الْحَقِيقَةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تَتَسَبَّحُ بِالنَّفْسِ وَتُخْرِجُهَا مِنْ حُدُودِ الْضُرُورَاتِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا لِتَتَّصِلَ بِذَاتِ الْمَعَانِي الْحَرَّةِ الْجَمِيلَةِ الْكَامِلَةِ؛ وَكَأَنَّ الشَّعْرَ لَمْ يَجِءْ فِي أَوْزَانٍ إِلَّا لِيَحْمَلَ فِيهَا نَفْسَ قَارِيهِ إِلَى تِلْكَ اللَّذَاتِ عَلَى أَهْتَازَاتِ النِّعَمِ؛ وَمَا يَطْرِبُ الشَّعْرُ إِلَّا إِذَا أَحْسَسْتَهُ كَأَنَّمَا أَخَذَ النَّفْسَ لِحِظَةٍ وَرَدَّهَا.

وَالشَّاعِرُ الْحَقِيقُ بِهَذَا الْأَسْمِ - أَيِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الشَّعْرِ وَيَفْتَتِحُ مَعَانِيَهُ وَيَهْتَدِي إِلَى أَسْرَارِهِ وَيَأْخُذُ بِغَايَةِ الصَّنْعَةِ فِيهِ - تَرَاهُ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ مَا يُعَانِيهِ مِنْ الْأَشْيَاءِ وَمَا يَتَعَاطَى وَصْفَهُ مِنْهَا، ثُمَّ يُفَكِّرُ بِعَقْلِهِ عَلَى أَنَّهُ عَقْلُ هَذَا الشَّيْءِ مُضَافاً إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَالِيَةُ، وَبِهَذَا تَنْطَوِي نَفْسُهُ عَلَى الْوُجُودِ فَتُخْرِجُ الْأَشْيَاءَ فِي خَلْقَةٍ جَمِيلَةٍ مِنْ مَعَانِيهَا وَتُصْبِحُ هَذِهِ النَّفْسُ خَلِيقَةً أُخْرَى لِكُلِّ مَعْنَى دَاخِلُهَا أَوْ اتَّصَلَ بِهَا؛ وَمَنْ ثُمَّ فَلَا رَيْبَ أَنَّ نَفْسَ الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ تَكَادُ تَكُونُ حَاسَّةً مِنْ حَوَاسِّ الْكَوْنِ.

وَلَوْ سُئِلَتْ أَزْمَانُ الدُّنْيَا كَيْفَ فَهَمَّ أَهْلُهَا مَعَانِيَ الْحَيَاةِ السَّامِيَةِ وَكَيْفَ رَأَوْهَا فِي آثَارِ الْأَلُوهِيَّةِ عَلَيْهَا، لَقَدَّمَ كُلُّ جَنَلٍ فِي الْجَوَابِ عَلَى ذَلِكَ مَعَانِيَ الدِّينِ وَمَعَانِيَ الشَّعْرِ.

وَلَيْسَتْ الْفِكْرَةُ شَعْراً إِذَا جَاءَتْ كَمَا هِيَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَهِيَ فِي ذَلِكَ عِلْمٌ وَفَلَسَفَةٌ، وَإِنَّمَا الشَّعْرُ فِي تَصْوِيرِ خَصَائِصِ الْجَمَالِ الْكَامِنَةِ فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ عَلَى دِقَّةٍ وَلَطَافَةٍ كَمَا تَتَحَوَّلُ فِي ذَهْنِ الشَّاعِرِ الَّذِي يُلَوِّنُهَا بِعَمَلِ نَفْسِهِ فِيهَا وَيَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةِ أَسْرَارِهَا.

فَالْأَفْكَارُ مِمَّا تُعَانِيهِ الْأَذْهَانُ كُلُّهَا وَيَتَوَاطَأُ^(٣) فِيهِ قَلْبُ كُلِّ إِنْسَانٍ وَلِسَانُهُ، يَبْدَأُ أَنَّ فَنَّ الشَّاعِرِ هُوَ فَنُّ خَصَائِصِهَا الْجَمِيلَةِ الْمُؤَثِّرَةِ، وَكَأَنَّ الْخَيَالَ الشَّعْرِيَّ نَخْلَةً مِنَ النَّحْلِ تَلِمُ بِالْأَشْيَاءِ لِتُبْدَعَ فِيهَا الْمَادَّةُ الْحَلُوهُ لِلذَّوْقِ وَالشَّعُورِ، وَالْأَشْيَاءُ بَاقِيَةٌ بَعْدَ كَمَا هِيَ لَمْ يَغَيِّرْهَا الْخَيَالُ، وَجَاءَ مِنْهَا بِمَا لَا تَحْسِبُهُ مِنْهَا؛ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ وَحْدَهَا هِيَ الشَّاعِرِيَّةُ.

فَالشَّاعِرُ الْعَظِيمُ لَا يُرْسِلُ الْفِكْرَةَ لِإِيجَادِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِ قَارِيهَا حَسْبُ، وَإِنَّمَا هُوَ يَصْنَعُهَا وَيَخْذُو الْكَلَامَ فِيهَا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَيَتَصَرَّفُ بِهَا ذَلِكَ أَلْتَصَرَفَ

(١) يُرْهِفُ: يَرْقُقُ وَيَلَطِّفُ.

(٢) تَكُنُّهُ: تَقَرُّهُ.

(٣) يَتَوَاطَأُ: يَجْتَمِعُ.

لِيُوجِدَ بِهَا الْعِلْمَ وَالذَّوْقَ مَعًا؛ وَعَبَقْرِيَّةُ الْأَدَبِ لَا تَكُونُ فِي تَقْرِيرِ الْأَفْكَارِ تَقْرِيرًا عِلْمِيًّا بَحْثًا، وَلَكِنْ فِي إِرسَالِهَا عَلَى وَجْهِ مَنْ التَّسْديدِ لَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُقْرَأَ فِي مَكَانِهَا مِنْ أَنْفَسِ الْإِنْسَانِيَّةِ حَائِلٌ. وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْأَفْكَارُ الْأَدَبِيَّةُ الْعَالِيَةُ الَّتِي يُلْهَمُهَا أَفْذَاذُ الشُّعْرَاءِ وَالْكِتَابِ هِيَ أَفْكَارَ عَقْلِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ، فَلَا تَفْصِلُ عَنْهُمْ الْفِكْرَةَ فِي أَسْلُوبِهَا الْبَيَانِيِّ الْجَمِيلِ حَتَّى تَتَّخِذَ وَضْعَهَا التَّارِيخِيَّ فِي الدُّنْيَا، وَتَقُومَ عَلَى أَسَاسِهَا فِي أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ، فَتَتَحَقَّقُ فِي الْوُجُودِ وَيُعْمَلُ بِهَا؛ وَهَذَا طَرَفٌ مِمَّا بَيْنَ الْأَدَبِ الْعَالِيِّ وَبَيْنَ الْأَدْيَانِ مِنَ الْمِشَابَهَةِ.

وَمَتَى تُزَلَّتِ الْحَقَائِقُ فِي الشُّعْرِ وَجِبَ أَنْ تَكُونَ مُوزَوْنَةً فِي شَكْلِهَا كَوْزَنِهِ، فَلَا تَأْتِي عَلَى سَرْدِهَا^(١) وَلَا تُؤْخَذُ هَوْنًا كَالْكَلَامِ بِلا عَمَلٍ وَلَا صِنَاعَةٍ، فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا الشَّاعِرُ جَمَالًا وَنَسَقًا مِنَ الْبَيَانِ يَكُونُ لَهَا شَبِيهًا بِالْوِزْنِ، وَيَضَعُ فِيهَا رُوحًا مُوسِيقِيَّةً بِحَيْثُ يَجِيءُ الشُّعْرُ بِهَا وَلَهُ وَزْنَانِ فِي شَكْلِهِ وَرُوحِهِ - فَتَلِكُ حَقَائِقُ مَكْسُورَةٌ تَلُوحُ فِي الذَّوْقِ كَالنَّظْمِ الَّذِي دَخَلَتْهُ الْعِلَلُ فَجَاءَ مُخْتَلًا قَدْ زَاغَ أَوْ فَسَدَ.

وَالْخَيَالُ هُوَ الْوِزْنُ الشُّعْرِيُّ لِلْحَقِيقَةِ الْمُرْسَلَةِ، وَتَخِيلُ الشَّاعِرُ إِنَّمَا هُوَ إلقاءُ النُّورِ فِي طَبِيعَةِ الْمَعْنَى لِيشْفَ^(٢) بِهِ، فَهُوَ بِهَذَا يَرْفَعُ الطَّبِيعَةَ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً، وَيَرْفَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ دَرَجَةً سَمَاوِيَّةً؛ وَكُلُّ بَدَائِعِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَخْتَرَعِينَ هِيَ مِنْهُ بِهَذَا الْمَعْنَى، فَهُوَ فِي أَصْلِهِ ذِكَاءُ الْعِلْمِ، ثُمَّ يَسْمُو فَيَكُونُ هُوَ بِصِيرَةِ الْفَلَسَفَةِ، ثُمَّ يَزِيدُ سُمُوءَهُ فَيَكُونُ رُوحَ الشُّعْرِ؛ وَإِذَا قَلَبْتَ هَذَا النَّسَقَ فَانْحَدَرْتَ بِهِ نَازِلًا كَمَا صَعَدْتَ بِهِ، حَصَلَ مَعَكَ أَنَّ الْخَيَالَ رُوحَ الشُّعْرِ، ثُمَّ يَنْحَطُّ شَيْئًا فَيَكُونُ بِصِيرَةِ الْفَلَسَفَةِ، ثُمَّ يَزِيدُ أَنْحِطَاطًا فَيَكُونُ ذِكَاءُ الْعِلْمِ، فَالشَّاعِرُ كَمَا تَرَى هُوَ الْأَوَّلُ إِنْ أَرْتَقَتِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْأَوَّلُ إِنْ أَنْحَطَّتِ الدُّنْيَا؛ وَكَأَنَّمَا إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ تَبْدَأُ مِنْهُ.

إِذَا قَرَرْنَا لِلشُّعْرِ هَذَا الْمَعْنَى وَعَرَفْنَا أَنَّهُ فَنُّ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ الْحَسَّاسَةِ الْمُلهِمَةِ حِينَ تَتَنَاوَلُ الْوُجُودَ مِنْ فَوْقِ وَجُودِهِ فِي لُطْفٍ رُوحَانِيٍّ ظَاهِرٍ فِي الْمَعْنَى وَاللُّغَةِ وَالْأَدَاءِ - وَجِبَ أَنْ نَعْتَبِرَ نَقْدَ الشُّعْرِ بِاعْتِبَارٍ فِيمَا قَرَرْنَاهُ، وَأَنْ نُقِيمَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَصُولِ؛ فَإِنَّ النَّقْدَ الْأَدَبِيَّ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ - وَخَاصَّةً نَقْدَ الشُّعْرِ - أَصْبَحَ أَكْثَرَهُ، مِمَّا لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَسَاءَ التَّصَرُّفُ بِهِ، وَوَقَعَ الْخَلْطُ فِيهِ، وَتَنَاوَلَهُ أَكْثَرُ أَهْلِهِ بِعِلْمٍ نَاقِصٍ، وَطَبِيعٍ ضَعِيفٍ، وَذَوْقٍ فَاسِدٍ، وَطَمِعَ فِيهِ مَنْ لَا يُحْصِلُ مَذْهَبًا صَحِيحًا، وَلَا يَتَّجِهَ

(٢) لِيَشْفَ: لِيُظْهِرَ وَيَرِقَّ.

(١) سَرْدِهَا: رَوَايَتُهَا.

لِرَأْيِي جَيِّدٌ، حَتَّى جَاءَ كَلَامُهُمْ وَإِنَّ فِي اللَّغْوِ وَالتَّخْلِيضِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَخْفُ مَحْمَلًا، فَإِنَّكَ مِنْ هَذَيْنِ فِي حَقِيقَةٍ مَكشُوفَةٍ تَعْرِفُهَا تَخْلِيضًا وَلَغْوًا، وَلَكِنَّكَ مِنْ نَقْدِ أَوْلَئِكَ فِي أَدَبٍ مُزَوَّرٍ وَدَعْوَى فَارِغَةٍ وَزَوَائِدَ مِنَ الْفُضُولِ وَالتَّعَسُّفِ يَتَزَيَّدُونَ بِهَا لِلنَّفَخِ وَالصَّوْلَةِ وَإِيْهَامِ النَّاسِ أَنَّ الْكَاتِبَ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا هُوَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ . . . عَلَى أَنَّ جَهْدَ عَمَلِهِ إِذَا فَتَّشْتَهُ وَأَعْتَبَزْتَ عَلَيْهِ مَا يَخْلُطُ فِيهِ، أَنَّهُ يَكْتُبُ حَيْثُ يُرِيدُ النَّقْدُ أَنْ يُحَقِّقَ، وَيَمْلَأُ فَرَاغًا مِنَ الْوَرَقِ حَيْثُ يَقْتَضِيهِ الْبَحْثُ أَنْ يَمْلَأَ فَرَاغًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ.

وقد قلنا في كتابنا (تحت راية القرآن): إِنَّ أَسْتَادَ الْآدَابِ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِتَارِيخِهَا وَتَقْصِي مَوَادِّهَا - ذَوْقًا فَنِيًّا مَهْدَبًا مَصْقُولًا، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ لَهُ هَذَا الذَّوْقُ إِلَّا مِنْ إِبْدَاعٍ فِي صِنَاعَتِي الشَّعْرِ وَالنَّثْرِ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَى هَذَيْنِ (أَيِ الْإِحَاطَةِ وَالذَّوْقِ) تِلْكَ الْمَوْهَبَةُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي تَلْفُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ وَالْمُخَيَّلَةِ فَتُبْدِعُ مِنَ الْمَوْرِخِ الْفَيْسَلُوفِ الشَّاعِرِ الْعَالِمِ شَخْصًا مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا هُوَ الَّذِي نُسَمِّيهِ الْنَاقِدَ الْآدِيبِيَّ.

هذه هي صفات الناقِدِ في رأيِنا؛ فَانْظُرْ أَيْنَ تَجِدُهُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَسَاتِدَةِ الْمُخْتَصِرِينَ . . . فِي أَدَبِهِمْ، الْمُطَوَّلِينَ . . . فِي أَلْقَائِهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَتَعَاطَوْنَ النَّقْدَ وَلَيْسَ لَهُمْ وَسَائِلُهُ إِلَّا مَا كَانَ ضَعْفَةً وَقَلَّةً وَإِدْبَارًا، وَقَدْ فَاتَهُمْ مَا لَا تَحْمِلُهُ أَقْدَارُهُمْ وَلَا تَبْلُغُهُ قَوَاهِمُ، وَجَهِلُوا أَنَّ الْنَاقِدَ الْآدِيبِيَّ إِنَّمَا يُلْقِي دَرْسًا عَالِيًا لَا يُدَلُّ فِيهِ عَلَى الْعُيُوبِ الْفَنِيَّةِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْمَحَاسِنِ الَّتِي تُقَابِلُهَا فِي أَسْمَى مَا أُنْتَهَى إِلَيْهِ الْفَنُّ مِنْ أَثَارِ تَارِيخِهِ، فَيَكُونُ النَّقْدُ تَهْدِيًا وَتَلْخِيصًا لِفَنُونِ الْأَدَبِ كُلِّهَا؛ وَهُوَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَجْلُوها عَلَى النَّاسِ وَيُبْدِعُ فِيهَا وَيَزِيدُ فِي مَادَتِهَا وَيُسَهِّلُهَا عَلَى الْقُرَّاءِ وَيُحْصِّلُهَا لَهُمْ تَحْصِيلًا لَا يَلْغُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ، وَيُعْطِيهِمْ مِنْ كُلِّ ضَعِيفٍ مَا هُوَ قَوِيٌّ، وَمِنْ كُلِّ قَوِيٍّ مَا هُوَ أَقْوَى.

ورأيِناهم في نقد الشعر لا يَزِيدُونَ عَلَى أَنْ يُعْلَقُوا عَلَى كَلَامِ الشَّاعِرِ، فَيَجِيءُ عَمَلُهُمْ فِي الْجُمْلَةِ كَأَنَّهُ تُصْنِفُ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ وَشَرَحَ لَهُ وَتَصَفَّحَ عَلَى بَعْضِ مَعَانِيهِ، وَبِهَذَا يَرْجِعُ الشَّاعِرُ وَإِنَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي نَاقِدِهِ يُدِيرُهُ كَيْفَ شَاءَ، وَيَجِيءُ هَذَا الْنَاقِدُ زَائِدًا مُتَطَفِّلًا، فَتَأْتِي كِتَابَتُهُ وَإِنَّهَا لَضَرْبٌ مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُنْقَوْدِ بِنَاقِدِهِ، وَيُصْبِحُ وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى الْعَكْسِ، فَالشَّاعِرُ الْمُنْقَوْدُ لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَكِنَّهُ أَبَانَ قُصُورَ الْنَاقِدِ وَجَهْلَهُ، فَهُوَ الْنَاقِدُ وَإِنْ سَكَتَ، وَذَاكَ هُوَ الْمُنْقَوْدُ وَإِنْ تَكَلَّمَ!

وهذا الّمتعلِّقُ عَلَى أَخْبَارِ الشَّاعِرِ وَشِعْرِهِ كَتَعَلَّقِيَ التَّلْخِيصُ عَلَى أَصْلِهِ الْمُطَوَّلِ وَالشَّرْحُ عَلَى مَتْنِهِ الْمَوْجَزِ، إِنَّمَا هُوَ كَاتِبٌ يَجِدُ مِنْ ذَلِكَ مَادَّةً إِنْشَائِيَّةً فَيَتَصَرَّفُ بِهَا

ليكتب؛ ولا يُراد من النقد أن يكون الشاعرُ وشعرُهُ مادةَ إنشاء، بل مادةَ حسابٍ مُقدَّرٍ بحقائقٍ معيَّنة لا بُدَّ منها؛ فنقدُ الشعرِ هو في الحقيقة عِلْمُ حسابِ الشعرِ، وقواعدهُ الأربعُ التي تُقابلُ الجمعَ والطرحَ والضربَ والقسمةَ: هي الأطلاعُ والدُّوقُ والخيالُ والقريحةُ المُلهمةُ.

وَتَمَّ ضَرْبُ آخَرُ من تعلقِ الضعفاء، يتناولُ الشاعرُ بِاعتباره رجلاً لَهُ موضِعُهُ من الناسِ ومنزلُهُ من الحياة، ثُمَّ لا يعدو ذلك وهو تزويرٌ لِلْمُؤرِّخِ بِجَعْلِهِ ناقداً، وتزويرٌ لِلنَّاقِدِ بِرَدِّهِ مُؤرِّخاً؛ على أَنَّ هذا لا بُدَّ منه في النقدِ الصحيح، ولكنَّهُ لا يقومُ بِنَفْسِهِ ولا تنفَّذُ بِهِ بِصِيرةُ النقدِ، إِذِ الشاعرُ لم يكن شاعراً بِأَنَّهُ رجلٌ من الناسِ وحيٌّ في الأحياءِ وعمرٌ من الحوادثِ المؤرَّخة، ولكن بِمَوْضُوعِهِ من أسرارِ الحياةِ وصِلَةُ نَفْسِهِ بِهَا وقدرُهُ هذه النفسِ على أن تنفَّذَ إلى حقائقِ الطَّبِيعَةِ في كائناتِها عامَّةً، وفي إنسانِها خاصَّةً، ثُمَّ بِقدرةٍ مثل هذه في النفاذِ إلى أسرارِ اللُّغَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي هِيَ الوجودُ المَعْنَوِيُّ لِكُلِّ ذلك، وَالتَّصَرُّفُ بِهَا على طبقاتٍ معانيه حتى لا تُقْصَرَ عن الغايةِ ولا تَقَعَ دُونَ القصدِ، فَإِنَّ الشَّعْرَ إِن هو هو إِلَّا ظُهُورَ عَظَمَةِ النَفْسِ الشَّاعِرَةِ بِمَظْهَرِهَا اللُّغَوِيِّ، وَلِئِنْ كَانَ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ تَارِيخٌ لا يَتِمُّ النِّقْدُ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ تَارِيخُ الشَّعْرِ فِي نَفْسِ قَائِلِهِ، ثُمَّ تَارِيخُ هَذِهِ النَفْسِ فِي مَعَانِي الشَّعْرِ من عصرِها، ثُمَّ أَدَبُ هَذَا الشَّاعِرِ مِنَ الوجودِ الأدَبِيِّ لِلُّغَةِ الَّتِي نَظَمَ بِهَا؛ وَذَلِكَ لا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ تَارِيخُ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ مُحَصَّلاً من نواحيهِ في جِهَاتِ الحياةِ، مُتَعَمِّقاً فِيهِ بِالاستقصاءِ، مُتَغَلِّلاً إِلَيْهِ بِالنِّقْدِ . . .

وإِنَّ لَنَا رَأْيَا بِسَطْنَاهُ^(١) مِرَاراً، وَهُوَ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِضَ لِنَقْدِ الشَّاعِرِ وَالْكَلَامِ عَنْهُ إِلَّا شَاعِرٌ كَبِيرٌ يَكُونُ ذَا طَبِيعَةٍ فِي النِّقْدِ، أَوْ كَاتِبٌ عَظِيمٌ يَكُونُ ذَا طَبِيعَةٍ فِي الشَّعْرِ؛ أَي لا بُدَّ مِنَ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ مَعاً لِنَقْدِ الشَّعْرِ وَحْدَهُ فَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالذُّوقِ وَالْإِحْسَاسِ وَالْإِلْهَامِ جَمِيعاً، فَيَتَبَيَّنُ النَّاقِدُ وَجْهَ النِّقْصِ الْفَنِّيِّ، وَيَعْرِفُ بِمِ نَقْصَتْ وَمَا ذَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا وَمَا وَجْهَ تَمَامِهَا، ثُمَّ يَعْرِفُ مِنَ الْكَمَالِ الْفَنِّيِّ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيُحَسُّ عَلَى الْحَالَتَيْنِ بِالْمَعَانِي الَّتِي أَحْسَّهَا الشَّاعِرُ حِينَ أَنْتَزَعَ شَعْرَهُ مِنْهَا، وَمَا كَانَ يَتَخَالَجُهُ^(٢) وَتَتَنَزَّلُ مِنَ الْفِكْرِ وَيَتَمَثَّلُ لَهُ مِنَ الصُّورِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي

(١) بسطناه: أظهرناه وأوضحناه.

(٢) يتخالجه: يعتمل في نفسه ويحسه.

الهمته إلهامها؛ فإنَّ المعاني المكتوبة هي شعرُ الشاعر، ولكنَّ تلك المعاني المحسوسة هي شعرُ الشعر، وإنَّما يُوقَفُ عليها بالتوهم والاسترسال إلى ما وراء الشعر من بواعثه، وما تموجَّت به روحُ الشاعر عند عمله، وما عرَّضَتْ لها به طبائع المعاني؛ وهذا كله لا يحسه الناقدُ إنَّ لم يكن شاعراً في قوَّة من ينقده أو أقوى منه طبيعة شعر.

وَالنَّقدُ إنَّما هو إعطاء الكلام لساناً يتكلَّم به عن نفسه كلامٌ مُتَّهَمٌ في محكمةٍ لِيُقيمَ أو يُزيحَ شبهةً أو يُقرَّ حقيقةً أو يبسطَ معنى أو يوجِّهَ عِلَّةً أو يكشفَ خافياً أو يُثبتَ نقيصةً أو يُظهرَ إحساناً؛ وبِالجملة فهو نَفْضُ السَّيئةِ وَالْحَسنةِ، ووقوعُ أدلَّةِ الْعِلْمِ وَالْفنِّ وَالذَّوقِ مَوَاقِعَها، وتكلُّمُ الكلامِ بِذاتِ نفسه ما تُنكرُ منه وما تستجيد؛ وَالشَّاعرُ وَالناقدُ يلتقيانِ جميعاً في الْقارِئِ فوجبَ من ثَمَّ أن يكونَ الناقدُ قوَّةً تكشفُ قوَّةَ مثلها أو دونها لِيُصَحِّحَ فنَّ مثله أو يُقرَّه أو يزيده عليه فضلَ بيانٍ ومزيةٍ فِكْرٍ؛ وبهذا يصبحُ الْقارِئُ كَالسَّائِحِ الَّذي معه الدليلُ وأمامه الْمَنظرُ، أي معه التَّاريخُ الْناطِقُ وبِإزائه التَّاريخُ الصَّامتُ. وإذا كانَ الشَّاعرُ وشِعْرُهُ إنَّما هما الْنفسُ الْمُمتازةُ وحوادثُها ومعاني الْحياةِ فيها، فليسَ يَتَّجِهُ أن يكونَ الناقدُ تاماً إلا بنفسٍ من نوعها في دِقَّةِ الْحِسِّ وَلُطْفِ الْنَظْرِ وَالاستشفافِ وقوَّةِ التَّأثيرِ بِمعاني الْحياةِ وَسُمُوِّ الْإلهامِ وَالْعَبقريةِ: وبذلك يجيءُ النَّقدُ الصَّحيحُ بياناً خالصاً منخولاً كأنَّه شَرَحَ نفسَ لِنفسٍ مثليها.

وليسَ الْأَنْفُ هُوَ الَّذي ينقدُ الْوردَةَ الْعَطِرةَ الْفِيَّاحَةَ، وإنَّما تنقدُها الْحاسةُ الَّتِي في الْأَنْفِ، وناقدُ الشَّعرِ إنَّ لم يكن شاعراً فهو أنفٌ صحيحُ التَّركيبِ، ولكنْ بِالْجُلْدِ وَالْعَظْمِ دونَ تلكَ الْحاسةِ الَّتِي هي روحُ الْعَصَبِ الْمُنْبَثِّ في هذا التَّركيبِ وَالْمَتَّصِلِ بِما وراءَهُ من أعصابِ الدِّماغِ، فهذا الْأَنْفُ . . . يستطيعُ أن يتناولَ الْوردَةَ، ولكنْ بِحَسٍّ غليظٍ مَحَقَّتُهُ^(١) آلافةٌ كما يتناولُ حَجَراً أو حديدًا أو خشباً أيَّها كان، فَالْوردَةُ عندهُ شيءٌ مِنَ الْأَشياءِ يمتازُ بِاللِّينِ ويختصُّ بِالنعومةِ ويسطعُ بِالرَّونِقِ ويزهو بِاللونِ، ويذهبُ يتكلَّمُ في هذا كُلِّه، وهذا كُلُّه في الْوردَةَ، ولكنَّه ليسَ الْوردَةَ.

ومتى كانَ الْبَحْثُ هُوَ الْبَحْثُ في السَّماءِ وَأفلاكِها وأجرامِها فلا يستقلُّ بهُ إِلَّا الْناظرُ الْمَرْكَبُ أي الَّذي معه عينُهُ وتلسكوبُهُ وعِلْمُهُ جميعاً، إنْ نقصَ من ذلك

(١) محقته: محته.

فبقدر نقصانه يكون ضعفه، وإن تم فبقدر تمامه يكون وفاءه؛ ولو أمكن أن ينفصل الشاعر من شعره فيقطع ما بينه وبين المعاني من نسب نفسه، ويبتعد عن الشعر ليراه جديداً عليه ويميزه من كل جهاته - لكان هو الناقد؛ فناقذ الشعر هو الشاعر نفسه، ولكن في وضع أتم وأوفى، وحالة أئين وأبصر، أي كأنه الشاعر نفسه منقحاً تاماً بغير ضعف ولا نقص.

ومن أجل ذلك ترى من آية النقد البديع المحكم إذا قرأته ما يُخيّل إليك أن الشعر يعرض نفسه عليك عرضاً ويحصل لك أمره ويبين حالته في ذهن شاعره. وكيف توافي وأتلف، وكيف أنتزع الشاعر من الحياة، وما وقع فيه من قدر الإلهام، وما أصابه من تأثير الإنسان وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء وبالجملة يورد النقد عليك ما ترى معه كأن حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر.

* * *

ألا وإن شعرنا العربي الجميل قد أصبح اليوم في أشد الحاجة إلى من يعلم القارئ كيف يذوقه ويتبينه ويخلص إلى سر التأثير فيه، ويخرجه مخرجاً سرياً في أنغامه وألحانه ويأتي به من نفس شاعره ومن نفسه جميعاً؛ ففوة التمييز في هذا كله على تسديد وصواب هي التي يعطيها الناقد لقراءته؛ والشعر فخر وقراءته فخر آخر، فإن قصر هذا عن أن يبلغ ذاك ليتصل به ويتغلغل فيه فلا بد للفكرين من صلة فكرية هي كتابة الناقد الذي هو من ناحية كمال للطبيعة الناقصة، ومن ناحية أخرى شرح للطبيعة الكاملة، ومن ناحية ثالثة هو يذوقه وفنه قانون الانتظام الدقيق الذي يبين به ما استقام في الكلام وما أعوج.

وطريقتنا نحن في نقد الشعر تقوم على ركنين: البحث في موهبة الشاعر، وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه؛ والبحث في فنه البياني، وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته، وسنقول فيهما معاً:

فأما الكلام في فن الشعر، فالمراد بالشعر - أي نظم الكلام - هو في رأينا التأثير في النفس لا غير، وألفن كله إنما هو هذا التأثير، والاحتياال على رجة النفس له وأهتزازها بالفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفاً متلائماً مستوياً في نسجه لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال، ولا يحمل عليه تعسف ولا استكراه؛ فيأتي الشعر من دقته وتركيبه

الحيّ ونَسَقِهِ الطَّبِيعِيِّ كَأَنَّمَا يُقَرَّعُ بِهِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي لِيَفْتَحَ لِمَعَانِيهِ إِلَى الرُّوحِ؛
وَالشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ إِذَا تَمَّتْ لَهُ فِي صِنَاعَتِهِ وَسَائِلُ التَّأثيرِ وَأَحْكَمُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، كَانَ
أَسْمَى شَعْرٍ إِنْسَانِيٍّ فَتَرَاهُ يَطْرُدُ بِالْفَاطِظَةِ الْجَمِيلَةِ الْأَسَانَةِ وَكَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ فِيهَا مَعَانِيَّ،
بَلْ يَحْمِلُ حَرَكَاتٍ عَصِيَّةً لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَنَسَبَ فِي الدَّمِ حَائِلٌ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا
أَنْ يَغْمُرَكَ بِالطَّرَبِ وَيَهْزِكَ مِنْ أَعْمَاقِ النَّفْسِ وَيُورِدَ عَلَيْكَ مِنْ نَفْحَةِ الرُّوحِ مَا إِنَّ
تَذَرَّتَهُ فِي نَفْسِكَ وَأَفْصَحَتْ عَنْهُ شُعُورَكَ رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ وَجْهًا مِنْ نِسْيَانِ الْحَيَاةِ
الْأَرْضِيَّةِ وَاتَّقَالَ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى مِنْ أَلْسُرٍ وَآلَهْتِاجٍ وَآلَمٍ وَالشَّجْوِ يَحْيَاهَا الدَّمُ
الْثَائِرُ وَحَذَهُ غَيْرَ مُشَارِكٍ فِيهَا إِلَّا مِنَ الْقَلْبِ.

وَالَّذِينَ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي مِزَاجِهِ الْخَاصِّ - فَلَا يَتَعَبَّرُونَ
حَيًّا ذَا طِبَاعٍ وَخَصَائِصٍ لَا بُدَّ مِنْ مِرَاعَاتِهَا وَأَلْزَوِلَ عَلَى حُكْمِهَا وَتَلْقِيْهَا بِمَا يُوَافِقُهَا
كَمَا لَا بُدَّ مِنْ أَشْبَاهِ ذَلِكَ لِأَمْرَةِ جَمِيلَةٍ - تَرَاهُمْ يُخْلُونُ بِقَوَانِينِ صِنَاعَتِهِ الْبَيَانِيَّةِ
وَيُنْزِلُونَ الْفَاطِظَةَ دُونَ مَنَازِلِهَا وَيُرْسِلُونَ مَعَانِيَهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهَا الشَّعْرِيَّةِ وَيَتَلَوْنَ
بِفَضُولٍ كَثِيرَةٍ هِيَ كَالْآفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ، فَيَأْتُونَ بِنِظْمٍ تَقْرُؤُهُ إِذَا قَرَأْتَهُ وَأَنْتَ تَتَلَوْنِ
كَأَنَّمَا يَقَرَّعُ عَلَى قَلْبِكَ بِقَبْضَةٍ يَدٍ أَوْ يَدَقُّ عَلَيْهِ بِحَجَرٍ... وَقَدْ فَشَا هَذَا النَّوْعُ مِنْ
الشَّعْرِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَأَصْبَحَ لِمَا فَسَدَ مِنْ ذَوْقِ الْأَدَبِ وَمَا أَلْتَأَثَّ^(١) مِنْ أَمْرِ اللَّغَةِ
وَمَا أَعْوَجَ مِنْ طَرَقِ الْفَلَسَفَةِ وَمَا عَمَّتْ بِهِ الْبَلُوى مِنَ التَّقْلِيدِ الْأُورُوبِيِّ، وَكَثِيرًا مَا
رَأَيْتُ الْقَصِيدَةَ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ كَأَمْرَةٍ سُلِّخَ وَجْهُهَا وَوَضِعَتْ لَهَا جِلْدَةٌ وَجْهٍ مَيِّتٍ...
وَالنَّائِظُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُصَرِّفُ الشَّعْرَ عَلَى حُدُودِهِ النَّفْسِيَّةِ وَلَا يُحْكِمُهُ فِيهَا، بَلْ
تُصَرِّفُهُ الْأَلْفَافُ كَيْفَ اتَّفَقَتْ لَهُ عَلَى وَجْهِهَا الْمُتَلَوِّيَّةِ، وَتَسْوِسُهُ الْمَعَانِي سِيَّاسَةً
عَمِيَاءَ فَقَدَتْ بَاصِرَتِهَا^(٢) مَعًا، وَيَحْسِبُونَ كَلَامَهُمْ مِنَ النُّورِ الْعَقْلِيِّ، وَلَكِنَّهُ النُّورُ فِي
قَطْعِهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مِيلٍ فِي الثَّانِيَةِ، فَلَا يَكَاذُ يُقَالُ فِي هَذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ
وَيُنْسَى وَيُلْحَقَ بِالْإِلَهِيَّةِ...

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الصَّنَاعَةِ الْفَاسِدَةِ هُوَ بِعَيْنِهِ ذَلِكَ النَّوْعُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي أَفْسَدَ
الشَّعْرَ مِنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ، غَيْرَ أَنَّ الْقَدِيمَ كَانَ فَسَادًا فِي الْأَلْفَافِ يَجْعَلُهَا كُلُّهَا أَوْ
أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ الصَّنَمَةِ، وَالْحَدِيثُ جَاءَ فَسَادًا فِي الْمَعَانِي يَجْعَلُهَا كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا
مُحَالًا مِنَ الْبَيَانِ.

(٢) بَاصِرَتِهَا: نَظَرُهَا.

(١) التَّأَثَّ: شَرُّهُ وَتَلَوُّهُ وَفَسَدُهُ.

ويزعم أصحاب هذا الشعر أنهم فلاسفة، ولكنهم كذلك في سرقة الفلاسفة لا غير... ولو علموا لعلموا أن الفاظ الشعر هي ألفاظ من الكلام يضع الشعر فيها الكلام والموسيقى معاً، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرقى منها تؤدي المعنى بالدلالة والنغم والذوق، فكل كلمة في الشعر تجتلب لمعناها من تركيبه، ثم لموضعها من نفسه، ثم لجرسها في الحانها؛ وذلك كله هو الذي يجعل للكلمة لونها المعنوي في جملة التصوير بالشعر؛ وما يمر الشاعر العظيم بلفظة من اللغة إلا وهي كأنها تكلمته تقول: دعني أو خذني.

وكما أنه لا بد للأزهار من جو الأشعة، كذلك لا بد للمعاني الشعرية من جو اللغة البيانية، فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة؛ وقد يحسبون أن الصناعة البيانية صناعة متكلفة لا شأن لها في جمال الشعر ودقة التعبير، وما ننكر أن من البيان الجميل أشياء متكلفة، ولكنها تنزل من أساليب البلاغة العالية منزلة كمنزلة الظرف والدل والخلاعة في الحبيبة الجميلة.

إن هذه الفنون ليست من جمال الخلقة والتركيب في المرأة، ولكنها متى ظهرت في الجمال ألفتين أصبح بدونها - وهو جميل دائماً - كأنه غير جميل أحياناً.

هنا صناعة هي روح الحس في الحياة، وصناعة مثلها هي روح الحس أحياناً في البلاغة، وما التراكيب البيانية في مواضعها من الشعر الحي إلا كالملاح والتفاسيم في مواضعها من الجمال الحي؛ وكثيراً ما يخيل إلي حين أتأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل في شعر مُحكم السبك، أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأنق يتقرب من حب امرأة جميلة، وعطف أمومة على طفولة، وحنين عاطفة لعاطفة، إلى أشباه ونظائر من هذا النسق الرقيق الحساس؛ فإذا قرأت في شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالشرطي أخذ بتلابيب لفظ كالمجرم... إلى كلمتين هما معاً كالضارب والمضروب... إلى همج ورعاع وهرج ومرج وهيج وفنتة؛ أما القافية فكثيراً ما تكون في شعرهم لفظاً ملاكماً... ليس أمانه إلا رأس القاريء.

وكما يهتملون اختيار اللفظ والقافية يتسهلون في اختيار الوزن الملائم لموسيقى الموضوع فإن من الأوزان ما يستمر في غرض من المعاني ولا يستمر في

غيره؛ كما أن من القوافي ما يطرد في موضوع ولا يطرد في سواه، وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت: يراؤ منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر، فالذين يهملون كل ذلك لا يدركون شيئاً من فلسفة الشعر ولا يعلمون أنهم إنما يفسدون أقوى الطبعيتين في صناعته؛ إذ المعنى قد يأتي نثراً فلا ينقصه ذلك عن الشعر من حيث هو معنى، بل ربما زاده النثر إحكاماً وتفصيلاً وقوة بما يتهيأ فيه من البسط والشرح والتسلسل، ولكنه في الشعر يأتي غناء، وهذا ما لا يستطيعه النثر بحال من الأحوال.

فإذا لم يستطع الشاعر أن يأتي في نظمه بالروبي المونق والتسج المتلائم والحبك المستوي والمعاني الجيدة التي تخلص إلى النفس خلوص طيبة إلى طبيعة ثمازجها، ورأيت أنه يأتي بالشعر الجافي الغليظ والألفاظ المستوخمة^(١) الرديئة والقافية ألقية أنفارة والمجازات المتفاوتة المضطربة والاستعارات البعيدة الممسوخة - فأعلم أنه رجل قد باعدته الله من الشعر وأبتلاه مع ذلك بزيغ الطبيعة وسرف التقليد، فما يجيء الشعر على لسانه في بيت إلا بعد أن يجيء اللغو على لسانه في مائة بيت أو أكثر أو أقل.

ذلك قولنا في فن الشاعر، أما الكلام في موهبته التي بها صار شاعراً وعلى مقدارها يكون مقداره واتصال أسبابه أو انقطاعها من الشعر، فذلك باب لا يمكن بسط المعنى فيه ولا تحصيل دقائقه إلا إذا صوّرت روح الشاعر في تركيبها الدقيق المُنجز ووزنت في ميزانها الإلهي وعرف نقصها إن نقصت وتماؤها إن تمت، وأمكن تتبّع مواقعها من أسرار الأشياء ومساقتها من منازل الإلهام، وهذا ما لا سبيل إليه إلا بالتوهم النفسي، فإن الأرواح القوية يلمح بعضها بعضاً، وقد تكون لمحّة الروح الشاعرة لروح مثليها هي تدبّرهما ووزنها وإدراك ما تنطوي عليه كما ترى من وضع النور بإزاء النور، فإن هذا الوضع هو نفسه وزن لِكليهما في ميزان البصر دون أن يكون ثمة موازنة إلا في التآلق والشعاع؛ فهما في هذه الحالة نوران يضيئان، ولكنهما أيضاً كلمتان يبينان عما فيهما من الأكثر والأقل.

لهذا قلنا: الشاعر لا يتسع لنقده ولا يحيط به من كانت له روح شعرية تكافئه

(١) المستوخمة: المستكرهة.

في وزنها أو تربى على مقداره؛ فإنَّ هناك قُوَى رُوحِيَّةً لإدراكِ الجمالِ وخلقِهِ في الأشياءِ خلقاً هو رُوحُ الشَّعرِ وروحُ فنِّه، وقُوَى أخرى لِصِلَةِ العواطفِ بِالفِكرِ صِلَةً هِيَ سِرُّ الشَّعرِ وسِرُّ فنِّه، وقُوَى غيرُ هذه وتلكِ لِتحويلِ ما يُخالِجُ^(١) النَّفسَ الشَّاعرةَ تحويلَ المُبالغةِ الَّتِي هِيَ قُوَّةُ الشَّعرِ وقُوَّةُ فنِّه؛ وبمجموعِ هذه القُوَى كُلِّها تمتازُ رُوحُ الشَّاعرِ من غيرِ الشَّاعرِ: أمَّا ما تمتازُ بِهِ هذه الرُوحُ من رُوحِ شاعرةٍ مثليها فهو ما يكوُنُ من تَفاوُتِ المقاديرِ الَّتِي يَهَبُها اللَّهُ وحدَه، فيخصُّ شاعراً بِالزِّيادَةِ وأخرَ بِالنَّقْصِ، وَيَهَبُ أسبابها الَّتِي تكوُنُ عنها فيوسِّعُ لِواحدٍ وَيُضَيِّقُ على الآخرِ؛ وإذا تَمَّتْ تلكَ القُوَى وأستحكمتْ تهيأَ منها لِلشَّاعرِ جِهازٌ عَصَبِيٌّ خالِصٌ هو جِهازُ التَّوليدِ لا يمرُّ بِهِ معنىٌ إِلَّا تجسَّدَ فِيهِ بِصورةٍ غيرِ صورتهِ.

وقدِ أَسْتَوْفينا الْكَلَامَ على ذلكِ في مقالِنَا «سِرُّ النَّبوغِ في الأدبِ». وهو لا غَيْرُهُ سِرُّ العَبْقَرِيَّةِ.

فأمثلُ الطَّرِيقِ في نقدِ موهبةِ الشَّاعرِ إدراكُها بِالرُوحِ الشَّعْرِيَّةِ القَوِيَّةِ من نَاحِيَةِ إحساسِها وَالنَّفَازِ إلى بصيرتِها، وَاكتِناهُ^(٢) مقاديرِ الإلهامِ فِيها، وتأمُّلُ آثارِها في الجمالِ، وتَدَبُّرُ طبيعتها الموسيقِيَّةِ في الحِسِّ وَالْفَهْمِ وَالتَّعْبِيرِ، وتَبَيُّنُ قُدْرَتِها على الفَرَحِ وَالْحُزَنِ بِأشجى وَأَرْقَ ما تَهْتَاجُ في النَّفسِ الحَساسَةِ، ومَعْرِفَةُ قُوَّةِ التَّحْوِيلِ في عواطفِها لِلْمَعانِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ تَحْوِيلاً يَجْعَلُ القُوَّةَ أَقْوَى مِمَّا تَبْلُغُ، وَالْحَقِيقَةَ أَكْبَرَ مِمَّا تَظْهَرُ، وتَأْتِي بِكُلِّ شَيْءٍ وَمَعَهُ شَيْءٌ؛ وَلَيْسَ يَنْتَهِي الْنَاقِدُ إلى ذلكِ إِلَّا بِالْبَحْثِ في الْأَغْراضِ أَيِ «المَوَاضِعِ» الَّتِي نَظَّمَ فِيها الشَّاعِرُ وما يَصِلُهُ بِها من أُمُورٍ عَيْشِيَّةٍ وَأَحْوالٍ زَمَنِيَّةٍ وَكَيْفَ تَنالُها من نَاحِيَتِهِ وَمِنْ نَاحِيَتِها وماذا أَبْدَعَ، ثُمَّ في أَيِّ الْمَنازِلِ يَقَعُ شَعْرُهُ من شِعْرِ غَيْرِهِ في تَاريخِ لُغَتِهِ وآدابِها، ثُمَّ نَظَرَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةَ إلى الْحَيَاةِ وَمَسائِلِها وَاتِّساعِهِ لِأَفْراحِها وآلامِها وقُوَّةَ أُمُورِها الرُّوحِيَّةِ في هَذا الْبَحْرِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّجَافِ^(٣) الْمَتَضَرِّبِ الَّذِي يَبْلُغُ في نَفوسِ بَعْضِ الشُّعراءِ أَنْ يَكُونَ كَأَلْأَيَّانوسٍ^(٤) وَفي بَعْضِها أَنْ يَكُونَ كَأَلْمَسْتَنَقِعِ . . . ثُمَّ دِقَّةُ فَهْمِهِ عن وَحْيِ الطَّبِيعَةِ وَالْإِشْرافِ على جَلِيَّةٍ مَعناها بِالْهَمْسَةِ وَاللَّمْسَةِ، وَتَسْقُطُ إلهامُ الْغَيْبِ مِنْها بِالْإِيْماءَةِ وَاللَّحْظَةِ؛ وَهَذا كُلُّهُ لا يَسْتَوَسِقُ لِلنَّاقِدِ الْعَظِيمِ

(١) يخالج النفس: يداخلها ويوحى لها.

(٢) اكتناه: اكتشف.

(٣) الرجاف: المضطرب.

(٤) الأيَّانوس: المحيط.

إِلاَّ إِذَا كَانَ مَعَ رَوْحِهِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا مَحِيطاً بِأَثَارِ الشَّعْرَاءِ فِي لَغَتِهِ،
بَصِيراً بِمَا خَذَهَا، مُحْكِماً لِأَسْبَابِ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَهَا، مُتَصَرِّفاً مَعَ ذَلِكَ بِأَدَاةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ
صِنَاعَةِ اللَّغَةِ وَالْبَيَانِ وَفَنُونِ الْأَدَبِ .

وَإِذَا كَانَ مِنْ نَقْدِ الشَّعْرِ عِلْمٌ فَهُوَ عِلْمٌ تَشْرِيحُ الْأَفْكَارِ ، وَإِذَا كَانَ مِثْلُهُ فَنٌ
فَهُوَ فَنٌ دَرَسِ الْعَاطِفَةِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ إِظْهَارِ الْجَمَالِ الْبَيَانِيِّ
فِي اللَّغَةِ . . .

فيلسوف وفلاسفة...

أَتَأْمَلُ أَلَاَنَ هَذَا أَلْقَلَمَ فِي يَدِي - وَأَنَا أَفَكِّرُ فِيمَا سَأَكْتَبُهُ لِلزَّهْرَاءِ - فَأَرَى نِصَابَ أَلْقَلَمٍ أَضْلَاعاً حُمْراً فِي لَوْنِ الْمَرْجَانِ، تَنْسَرُحُ قَلِيلاً، ثُمَّ تَسْتَدِيرُ، ثُمَّ تَسْتَدِقُّ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا قَادِمَةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهَا قَصْبَةُ رِيشَةٍ مِنْ جَنَاحٍ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا أَلَّلَوْنَ الْأَحْمَرَ الْمَزْهُوُّ يَقُولُ لِلْأَسْوَدِ: إِنَّمَا غَلَطْتُ الَّذِي صَنَعَنِي، فَكَيْفَ أَلْهَمَ فِيَّ الْإِلْهَامَ فَوَسَّمَنِي^(١) بِهَذَا الْمَيْسَمِ مِنْ حُسْنِ وَلَوْنٍ وَتَرْكِيبٍ، ثُمَّ اعْتَرَضَتْهُ الْغَفْلَةُ فَبِكَ فَأَخْطَأَ، وَأَدْرَكَهُ الْعَجْزُ فَلَمْ يُمَيِّزْ، وَدَخَلَ عَلَى رَأْيِهِ أَلَوَهْنٌ^(٢) فَإِذَا هُوَ يَصْلُكَ بِي كَأَلْسِيَّةٍ بَعْدَ الْحَسَنَةِ، وَيُنْزِلُكَ مَنِيَّ مَنَزَلَةَ الْقُبْحِ مِنَ الْجَمَالِ! فَأَيْنَ كَانَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ أَلَّتِي بَلَغَ بِهَا فِي أَحْسَنِ مَا وَفَّقَ إِلَيْهِ حِينَ بَلَغَ فَبِكَ أَسْوَأَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْنَعَ؟ فَيَقُولُ الْأَسْوَدُ: إِنَّمَا فَبِكَ أَنْتَ غَلَطْتَ الصَّانِعَ وَبِكَ أَخْطَأَ جِهَةٌ أَلْفَنَ، فَلَمْ يَزِنْ مِنْكَ مَا كَانَ وَرَنَ مَنِيَّ، وَلَا قَدَّرَ لَكَ مِثْلَ مَا قَدَّرَ لِي، وَجِئْتُ غَلِيظاً غَيْرَ مَقْدُودٍ، وَكُنْتُ إِلَى أَلْعَرَضِ وَلَمْ تَكُنْ إِلَى الطَّوْلِ، وَكُنْتُ أَحْمَرَ وَلَمْ تَكُنْ أَسْوَدَ؛ وَمَا أَرَاكَ إِلَّا فَاسِداً أَلْحَسَنَ، مُتَغَيِّرَ أَلذَّوقِ، وَمَا أَرَاكَ صَنَعَكَ هَذَا أَلرَّجُلُ إِلَّا فِي سَاعَةٍ هَمَّ قَارَبَتْ بَيْنَ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، فَمَا رَجَّحْتُ^(٣) بَيْنَ رَأْيِهِ وَعَمَلِهِ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ عَمَلِهِ وَغَلَطِهِ.

ذَلِكَ مَنْطِقُ أَلَّلَوْنَيْنِ فِيمَا أَدْرَكْتُ مِنْهُمَا، وَكِلَاهُمَا مُخْطِئٌ فِي جِهَةٍ مَا هُوَ مُسْتَدِلٌّ بِهِ أَوْ مُتَنْظَرٌ فِيهِ؛ وَأَلْحَقِيقَةُ مِنْ وَرَائِهِمَا، إِذِ الْحُكْمُ لَيْسَتْ فِي أَحَدِهِمَا لِحُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ، بَلْ هِيَ فِي أَثْنَيْهِمَا جَمِيعاً لِاتِّتْلَافِهِمَا جَمِيعاً، فَلَا تَنْقَسِمُ عَلَيْهِمَا قِسْمَةً مَا؛ لِأَنَّهَا آتِيَةٌ بِأَلْمُقَابَلَةِ بَيْنَ أَثْنَيْهِمَا، وَمَا لَا يَخْرُجُ أَبَداً إِلَّا مِنْ أَثْنَيْنِ فَهُوَ أَبَداً وَاحِداً لَا نِصْفَ لَهُ؛ كَأَلطُفْلِ مِنْ أَبَوَيْهِ: لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أُمِّهِ لِأَنَّكَ لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ^(٤) مِنْ أَبِيهِ.

أَفِي أَلْأَرْضِ كُلِّهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَسِّمَ طِفْلاً وَاحِداً فَيَجْعَلَهُ طِفْلَيْنِ تَعْتَدِلُ بِهِمَا

(٣) رَجَّحَ: دخل بين شيئين بالقوة والمكر.

(٤) شطره: جانبه.

(١) وسمني: طبعني.

(٢) الوهن: الضعف.

الحياء وتمدُّهُما بِروحين من روح واحدة؟ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ هذا الخالقَ الأَرْضِيَّ . . .
إِلَّا فِي طائفتين: الأولى قومٌ من ذاهبي العقولِ يخلقون كلَّ شيءٍ لأنَّهم لا يخلقون
شيئاً؛ والثانية قوم من جبابرة العقول . . . عندنا تعرفُ لهم مِنَ الخلطِ وسُخْفِ
الرأي ما يُريدون أنْ يعلوا بِهِ على الناس، إذْ كَانَ الناسُ لا يجاوزون الحقائق، فظنَّ
هؤلاء أنَّهم إنْ جاوزوها وَعَذُوا عليها خرجوا إلى طبقةٍ فوقَ العقلِ الإنساني.
وللجنون طرفان: أحدهما ألاَّ يعقلَ المجنونُ عنِ الناس، والآخَرُ ألاَّ يعقلَ الناسُ
عنِ العاقل: فذلك ذلك وهذا هذا؛ وكأنَّ في رأسِ كلِّ منهما مُضْمَرَةٌ من قُوَّةِ الخلقِ
تنطوي على محجوبةٍ إلهية، فكلُّ منهما يزيِدُ في الخلقِ ما يشاء، وكلُّ منهما فوقَ
الطبيعةِ لأنَّه من ذوي الأسرارِ المجهولةِ الَّتِي لا تستبينُ عندنا من خفائها، ثُمَّ لا
تخفى عندهم من استبانيتها.

يُضحِكُنِي من جبابرة العقولِ هؤلاء أنَّهم يَرونَ الدينَ مرَّةً عادة، وتارةً
أخترعاً، وحيناً خُرافة، وطوراً استعباداً؛ وكلُّ ذلكَ لهم رأي، وكلُّ ذلكَ كانوا
يعقدونه بِالْحِجَةِ ويشدُّونه بِالْأَدْلِيلِ؛ فلَمَّا جاءَ طاغورُ الشاعِرِ الهنديِّ المتصوِّفِ إلى
مِصر، وجلسوا إليه وسمعوه، خرجوا يتكلَّمون كأنَّما كانوا في معبد، وكأنَّما تنزلتْ
عليهم حقيقتهُ الإلهية، وكأنَّما اتَّضَعَتْ هذه الدُّنيا عنِ المكانِ الَّذِي جلسَ فيه
الرجل، فلا يعرفونه مِنَ الأرض، ولا من هذا العالم؛ بَلْ كانوا في غشيةٍ قد فروا
لها وسكنوا إليها، وما أراهم صُرفوا عن عقولِهِم ولا صُرفَتْ عقولُهُم عنهم؛ ولكنَّ
طاغورَ شاعرٍ فيلسوف، وهم يعرفون أنفُسَهُم مِنَ لصوصِ كُتُبِهِ وآرائِهِ، ويقعون منه
موقعَ السَّفْسطةِ^(١) الْفَارِغَةِ مِنَ الْبُرْهَانِ الْقَائِمِ، وإذا قيسوا إليه كانوا كَالذِّبَابِ تزعمُ
أنفُسُها نسورَ المزابِل، ولكنها لا تُكابرُ في أنَّ من الهزؤ بها قياسُها بِسُورِ الجَوِّ.

لقد ضربَهُم طاغور، لا بِأنَّه لمَسَّهُم، بَلْ بِأنَّهُم لَمَسُوهُ . . . وفضَحَهُم فضيحةً
الْلَوْلُؤَةِ لِلزَّجَاجِ الْمَدْعِي أَنَّهُ لَوْلُؤٌ، وَأَظْهَرَ لَنَا تَجَمُّلَهُمُ الْعَقْلِيَّ كهذه الأصباغِ في وجهِ
الشَّوْهَاء: تذهبُ تتصنَّعُ ولا تدري أَنَّهُ إِنْ كَانَ في أَذْهَانِهَا وَأَصْبَاغِهَا رُوحُ النِّقَاشِ
ففي وجهِها هي معنى الحائِطِ!

لقد قرأتُ كلَّ ما كتبوا عن طاغورِ التَّمَسُّ في هذه الحقيقةِ لِأرى كيف يكونُ
جبابرةُ العقولِ حينَ تنكشفُ عنهم المعاذيرُ وتنزاحُ العللُ وتُنتهكُ الأستار، فإذا هم

(١) السَّفْسطة: تخريصات الفلاسفة ومحاوراتهم.

في كل ما كتبوه لا يُحسّون إلا هذه الحقيقة، ولا يصفون إلا هذا الجس، فلم يُخزهم^(١) عندنا إلا هذا الوصف؛ لا جرّم فكل ما أثبتوا به على أشاعر الفيلسوف قرأناه ذمّاً لهم، وعرفناه قدحاً فيهم، وأخذناه نهمّة عليهم، وكل ما أعظموه من أمره صغر من أمرهم، ولقد جعلوه إنساناً كأنما تنتهي قمّة هذه الدنيا عند قدميه، وتبدأ قدمه من قمّة الدنيا، فما عرفنا من ذلك قياساً لسمو طاغور وأرتفاع نفسه، بل قياساً لاحتطاط أنفسهم وهوان أمرهم وقلة خطرهم؛ فإن الرجل المقلد المخدوع لا يزال يطول في تقليده، ولا يزال يتوعر في الرأي الذي يراه ويعتسف طرق العلم اعتسافاً؛ حتى يرميه الله بأصل من هذه الأصول الإنسانية التي يفلدها؛ فإذا هو مفتحم يتقاصر من طول، ويتسهّل من وعر، ويهتدي من تعسف، وينحط إلى الكوهدة بعد أن كان على الجبل، ويسلم في نفسه، ويدعن^(٢) برأيه، وينقاد من حيث يأبى ومن حيث لا يأبى، ويصبح وقد غمرته تلك النفس أشبه بالظل ممّا يرميه ويفيء به؛ فهو مسخ في تمثيله الصورة، وهو كذب عليها بما يطول ويقصر، وهو على كل أحواله إبهام سخيف مظلم لحقيقة شريفة نيرة.

وأنت أفلا ترى هذا من جبايرة العقول كتلك الشيمة في أخلاق العامة، إذ لا يصلحون أبداً إلا أن يكونوا تبعاً، ولا علم لهم إلا ما يربط في صدورهم من فلان وفلان، ثم يعملون بلا تحقيق، ويحملون بلا تمييز، ثم لا تكون نهمّة أنفسهم مع الرجل العالم - إذا اجتمعوا به - إلا في التسليم له، وأنقاء حقائقه، والنزول عن آرائهم إلى رأيه، والخروج من أنفسهم إلى نفسه!

لقد قلنا من قبل إن جبايرة العقول هؤلاء الذين يابنون إلا أن يكونوا علماءنا وسادتنا ليصرفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا في مساخط الله ويهجموا بنا على محارمه ويركبونا معاصيه - إن هم في أنفسهم إلا عاتة وجهلة وحمقى إذا وزنوا بعلماء الأمم وقيسوا إلى حكماء الدنيا، وما يكتبون للأمة في نصيحته وتعليمها إلا ما يتحوّل من كلمات وجمل في الصحف والكتب إلى أن يصيروا في الواقع فساقاً وفجرة ومُلهدين وساخرين ومُفسدين؛ فالمصيبة فيهم من ناحية العلم الناقص في وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد، وهاتان معاً في وزن المصيبة الكبرى التي يجنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون، وتجديدها فيما يزعمون...

(١) يخزهم: يشعروهم بالمهانة والعار.

(٢) يدعن: يخضع.

لم أنخدع قط في هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبابرة، ولست أضع أمرهم إلا على حقه، فإني لأعرف أن ألهز من قبيلة الأسد، ولكن أسديته على الفأرية وحدها... ولعلم عاقبة الجهل خير للأمة من عواقب علمهم وتخبطهم وحمقاتهم فإنهم قوم مُقلدون، ولهم طباع معتلة زائغة، وعقول لا مساك^(١) لها من دين أو ضمير؛ فما يجنحون إلا إلى بدعة سيئة، أو آفة محذورة، أو فكرة متهمة؛ ولا يعملون إلا ما يشبه الظن بهم، والرأي فيهم؛ من تمدين الأخلاق السافلة وإحاقها بالعلم أو الفلسفة، مع بقاء العقل ناضجاً صحيحاً يحكم على هذا الخبيث كما كان يحكم على ذلك الطيب؛ وليس من سبيل إلى هذا إلا من جهة تحويل الأخلاق، فإن هي أستمسكت ولم تتحول فما هنا موضع النزاع ومحل الخلاف، ولا بد من حرب منا كحرب الاستقلال، ثم حرب منهم كحرب الاستعمار...

فألذي بيننا وبينهم ليس القديم والجديد، ولا التأخر والتقدم، ولا الجمود والتحول؛ ولكن أخلاقنا وتجردهم منها، وديننا والحاذم فيه، وكمالنا ونقصهم، وتوثقنا وأنحلالهم، وأعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي الحبل لا يجد ما يشده.

والآن أنظر إلى قلبي فأرى شطره الأسود ما جعل كذلك إلا ليزيد في جمال حُمريته وبريقها، ويكسبها لمعة لا تأتيها إلا من الأسود خاصة؛ والشر خير إلا إذا بقي محصوراً في موضعه ولم يتجاوزه؛ فإذا تنبّهت الأمة لجبابرة العقول هؤلاء، قلنا لا بأس بالأسود المظلم إذا كاثت حكمته حمراء...

(١) مساك: رابط.

شيطاني وشيطانُ طاغور...

طاغورُ هذا شاعرُ الهند، مرَّ بمصرَ مرورَ شمسِ الشتاءِ باليومِ المطيرِ: لا يقعُ نورُها إلَّا في القلوبِ ممَّا تَسْتَخِفُّ وتستَهوي، ومِمَّا تمتنعُ وتتأبى، ومِمَّا تَرِقُّ وتلطفُ؛ وتنقدحُ بينَ السُّحبِ الهماميةِ فإذا لها مِنَ الجمالِ والسَّحرِ والعجبِ ما يكونُ ليجمره تُخرِجُها السَّماءُ مُعْجِزَةً لِلنَّاسِ فيرونها تُرْسِلُ الشَّعاعَ مرَّةً وتُمطرُ المَاءَ مرَّةً.

لم ألقِ طاغورَ ولكنِّي أنفذتُ إليه شيطاني وقلتُ أوصيه قبلَ أن يخرجَ لوجهه: قد علمتُ أنَّ هذا الرَّجلَ هنديَّ، ولكنَّه إنسان، فما أرضَ أولى به من أرضٍ؛ وأنَّه شاعر، ولكنَّه مخلوق، فما طبيعةٌ أغلبَ عليه من طبيعةٍ؛ وأنَّه حكيم، ولكنَّه تركيبٌ ما جُبِلَتْ لَهُ طينةٌ غيرُ الطينةِ؛ وأنَّه سماويٌّ، غيرَ أنَّه سماويٌّ كعلماءِ الفلكِ: سماؤه في منظارٍ وكتابٍ وقلمٍ وجبر... فأذهبَ إليه فداخِلَ شيطانه، فإنَّك واجدٌ لَهُ من ذلك ما لِكُلِّ الشعراءِ، وربُّما عرفتَ شيطانه من ذوي قرابتِكَ أو خالصةِ أهليكَ، ثُمَّ أئتني كلامه على جهةٍ ما هو مفكِّرٌ فيه، لا على جهةٍ ما هو متكلمٌ به؛ وخذْ ما يهجسُ^(١) على قلبه، ودعْ ما يجري في لسانه؛ فإنَّ هذا سيأتي به إخوانك من «مندوبي الصحف»... وأعلمُ أنَّ كلَّ حكيمٍ مهَيَّءٌ لِمَسائِلَ من حَوْلِهِ كلاماً. غيرَ أنَّ معانيَ مَنْ حَوْلَهُ مهَيَّئةٌ لَهُ مسائلَ أخرى يُفكِّرُ في كلِّ جوابٍ عليها ولا ينطقُ بجوابٍ عليها.

* * *

فحدَّثني شيطاني بعدَ رجوعِهِ قال: حدَّثني شيطانُ طاغورَ قال: لَمَّا هَبَطَ طاغورُ هذا الواديَ نظرَ نظرةً في الشمسِ، ثُمَّ قال: أنتِ هنا وأنتِ هناك، تقربينِ بآثِرٍ وتبعدينِ بآثِرٍ، وتطلعينِ بجوٍّ وتغربينِ بجوٍّ، فلا تختلفينِ وتختلفِ بِكَ الأقاليمُ، ثُمَّ تتغيَّرُ بالأقاليمِ الأُمَمُ، ثُمَّ تتغيَّرُ بالأُمَمِ الأفكارُ والمنازعُ، ثُمَّ تتغيَّرُ بِالأفكارِ والمنازعِ أغراضُها ومصالحُها، ثُمَّ تتغيَّرُ بِمصالحِها وأغراضِها الحقائقُ الإنسانيَّةُ؛

(١) يهجس: يخطر بباله ويحدث به نفسه.

وإنما الباطل والحق فيما تستقبل هذه الحقائق أو تستدبر^(١)، وقد غلبت السياسة على كل شيء حتى أصبحت هذه الحقائق الإنسانية جغرافية، لها شعوب ولها مستعمرات؛ فالإخاء في الغرب سيادة في الشرق، والمساواة هناك امتياز هنا، والحرية في مملكة استبعاد لمملكة، والحق في موضع صفة في موضع، والضيافة في مكان استئكال في مكان؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فلن يتصل الناس بالروح الأعلى إلا من الجهة الواحدة التي لم تتغير ولن تتغير فيهم، جهة الدموع التي لا تختلف في أسود ولا أحمر، والتي لا تنبعث إلا من الرقة والوجد والأحزان والآلام، وهي بذلك نسب كل قلب إلى كل قلب، فلو غمر العالم كله بلاء واحد لا تحرز منه أرض أهلها ولا تتحجر الأمم فيه، لاستلب مطاعم الناس بعضهم في بعض، وأرجع الإنسانية الزائغة إلى مستقرها، فتجردوا من الدنيا وهم في الدنيا، فاتصلوا باللانهاية وهم في النهاية؛ فإن لم يكن بلاء عام ففكر عام في بلاء يميث الشهوات المتطلقة ويكون كالداء تلبس بالجنس الإنساني كالذي تصفه الأديان من جهنم والمصير إليها والحساب عندها والأجزاء على الشر بها، حتى لا تبقى نفس إلا وهي في وثاق من حلالها وحرامها، ولا يبقى شر يتخيل أو يشتهي إلا وهو كالممتاع النفيس بين أربعة جدران تتساقط وتحترق لا يجد في كل اللصوص لصاً، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالحب العام حتى لا يبقى جيش ولا سلاح ولا سياسة ولا دول، ولا تكون الممالك إلا بيوتاً إنسانية بين الواحدة والكل من الشابكة واللحمة ما بين الكل والواحدة، وحتى تقول مضر لإنجلترا يا بنت عمي... فإن استحال كل هذا فالحرية العامة على أن تكون محدودة من كل جهاتها بالشعر، وعلى أن يكون الشعر محدوداً بالطبيعة والطبيعة محدودة بالله، فيتزغ النوم من الأرض لتصل اليقظة بالحلم... من طريق غير النوم.

قال شيطان طاغور: ثم أبتأس طاغور وقال: كل ذلك مستحيل أو كالمستحيل ولكنه في الأمل ممكن أو كالممكن؛ وللفظ معنيان: أحدهما ما يكون، والثاني ما يحسن أن يكون؛ ذلك لا بد له منا لأنه جانب النظام الإلهي، وهذا لا بد لنا منه لأنه جانب الخيال الإنساني؛ ذلك من الطبيعة التي تعمل ولا تتكلم، وهذا من الشعر الذي يتكلم ولا يعمل. آه! إنما السلام العام أن يكون

(١) تستدبر: تتراجع.

الوجود شركة إلهية إنسانية برضى وأتفاق بين الطرفين... ولعمري إن كل المستحيلات ممكنة بالإضافة إلى هذا المستحيل. ثم تبسم طاغور إذ خطر له أنه شاعر عليه أن يصف الوردة ويقول فيها ما يجعلها بيت شعر في كتاب الطبيعة له وزن ونغم، ولكن على الطبيعة قبل ذلك أن تثبتها ناضرة عطرة جميلة تتميز عن غيرها برائحة ولون وشكل.

قال شيطانه: ولما أنتهى من تأمله إلى هذه الخاطرة قدّمت له سيدة هندية عقود الزهر، وبينما هي تقلده إياها قال في نفسه: إن هذه الأزهار من معاني الماء العذب؛ فإذا أنطلقنا في أوهامنا وراء الحب العام والسلام العام فلمن تكون معاني الماء المالح، وهو ثلاثة أرباع الأرض، ومن أزهاره الأسطور الإنجليزي...

حدثني شيطاني قال: حدثني شيطان طاغور قال: ولما استقرّ طاغور في قصر شوقي بك ورأه في مثل حسن الدينار ونقشه ونفاسه، قال: لا جرم هذه أمة أغنت شاعرها، فما أخطئ التقدير، وإن أخطأته فلا أبعُد عن المقارنة إذا حسبت أن هذا الشاعر يطبع لهذه الأمة نصف مليون نسخة من كل ديوان شعر أو دفتر حكمة أو كتاب قصة، ولتني أعرف العربية لأعرف كيف يُبدع هذا الشعب فلسفته في أغانيه المتصلة بغيوم السماء المتكلم بأحسن وأظهر ما يمكن أن يكون ترجمة للحقيقة الخالدة التي يتوارثها شعب خالد.

الشعر فكرة الوجود في الإنسان، وفكرة الإنسان في الوجود، ولا يكفي أن يُخلَق هذا الإنسان مرة واحدة من لحم ودم، بل لا بد أن يُخلَق مرة أخرى من معانٍ وألفاظ، وإلا خرج حيواناً أعجم؛ فالشاعر يُبدع أمة كاملة، إن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة وآدابها العالية وسياساتها الموقفة وما أحسب النهضة المصرية إلا بالأغاني والأناشيد، فتأتي من إنجلترا جنود وتخرج لها من دور الغناء والتمثيل جنود أخرى؛ لقد كنتُ ملهماً حين قلتُ مرة: «إن الله يُخاطبُ الناس عن طريق الموسيقى».

نعم عن طريق الموسيقى، فكل شيء هو موسيقى في نفسه حتى حين يتطاحن الناس ويذبح بعضهم بعضاً، فإن صلصلة^(١) الأسلحة ودوي القنابل وأزيز الرصاص

(١) صلصلة الأسلحة: قعقة السلاح وأصواته.

وتصايح الجند - كل ذلك لحن أعدّه الله جلّت قدرته «وموسيقاه» . . . لجنّازات الأمم .

حدّثني شيطاني قال: حدّثني شيطان طاغور قال: ولما رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصرية - وهي التي دَعَتْهُ إلى إلقاء مُحاضرتِهِ - قال: نعم وحبًا وكرامة، إنّه لا يستقيم في العقل أن تدعُو هذه الجامعة شاعراً روحانياً مثلي إلّا وهي فلَك نيرٌ يُعَدُّهُ الله من نجومِهِ، وما أحسبُ أستاذَ آدابها العربية إلّا تلك الذرّة اللؤلؤيّة التي كانت تُجاورني في طينة الخلق الأزلّيّة، فلو أن الذرات الثمانيّة التي كانت حولنا خلقت في عصرنا هذا وتوزّعت على الأمم الفلسفيّة لكُنّا وإياها كوصايا الله العشر في هذا العصر الماديّ . . . ولملأنا طيّاتها إيماناً بالله، ولصارَ لله - تعالى - في أرضهِ عشرُ آلاَت سماويّة لاسلكيّة بينهُ وبين الخلق، تُباهي الجامعة المصريّة بأنّ فيها إحداها . . . لقد نَعَصَ عليّ هذه الشيخوخة أنّي لم أتعلم العربية، وكيف لي بأن أرتل أناشيد أستاذ الآداب في الجامعة المصريّة لأستمع بِالْحَانِهِ السماويّة في شعرهِ وأغانيهِ، وأسمع الملائكة من هذه المئذنة الإنسانيّة في الجامعة تهتفُ بكلمة الإسلام الرهيبة ضارخةً بحقيقة الوجود في الوجود: الله أكبرُ الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله . . .

قال شيطاني: وكان شيطان الدكتور طه حسين أستاذ الجامعة حاضراً معنا، فلما ألمّ بما في نفس طاغور قال لي: حقاً إنَّ من الخير أن لا يعرف هذا الهنديّ اللغة العربيّة، لأنّه لو عرف اللغة العربيّة لما أرضته اللغة العربيّة ولا آداب اللغة العربيّة ولا أستاذ آداب اللغة العربيّة! فقلت: أسكّت ويحك ودع الرجل في أحلامِهِ، ولا تكن غيمة سمائه المشرقة؛ أما تراه يحلم، أما سمعته يقول: «والحقيقة من حيث هي جمالٌ ليس يعدّله جمال؛ ألست ترى إلى صورة هذه المرأة العجوز أبداعها فنّانٌ ماهر، إنك تنظرُ إلى الصورة فتقرُّ بِجمالِها، ولكن المرأة العجوز التي فيها ليست على شيءٍ من الجمال؛ لكننا جمالُ الصورة أنّها تمثّل هذه المرأة العجوز على حقيقتها فهذه كلمات في سباحات النور، وهي من لغة السماء ذات الكواكب لا من لغة النفس ذات العواطف؛ وإلّا فهل يصحّ في العقل أن تصوّر العجوز التي اضطرب ميزانُ الخلق فيها حتى لا يزن منها إلّا بقايا الخلق وأنقاض العُمرِ وخرائب المرأة . . . يكون بما يظهر من شوهتها وتهديمها وتشنّ جلدها وموت ظاهرها - جمالاً في الصورة لأنّه قبيح في الأصل؟ أفليس لو كان

ذلك صحيحاً لَمُلِئَتْ أَلْمَتاحِفُ وأَلْقَصُورُ بأَلِواحِ أَلْعِجائِزِ، وَلَمَّا بَقِيَتْ عَلى أَلْأَرْضِ عَجُوزٌ إِلا ذَهَبَتْ لِأَحَدِ أَلْمَصُورِينَ تَقُولُ لَهُ: اخلُفْنِي! ...

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ: وَكَانَ طَاغُورُ رَطَبَ أَلَّلْسَانِ فِي مُحَاضَرَتِهِ كَأَنَّ غَابَةَ مِنْ غَابَاتِ أَلْهِنْدِ أَمَدَّتُهُ بِكُلِّ مَا أَعْتَصَرَتْهُ أَلشَّمْسُ فِيهَا مَاءٌ وَحَيَاءٌ وَنَضْرَةٌ، فَهُوَ فِي كَلَامِهِ وَمَعَانِيهِ وَرَقٌّ وَزَهْرٌ وَنَسِيمٌ وَظِلٌّ وَحَفِيفٌ وَتَغْرِيدٌ، يَسْجُرُ أَلنَّاظِرُ إِذْ لَا يَرى أَلنَّاظِرُ شَكْلَهُ أَلْإِنْسَانِي فِيهِ، بَلْ يَرَاهُ شَيْئاً مِنْ خِيَالِهِ كَأَنَّمَا أُنْفَصَلَ مِنْهُ فَتَمَثَّلَ بَشِراً سَوِيّاً، وَلَوْ أَنَّكَ أَطْلَعْتَ يَوْماً فِي أَلْمَرَأَةِ فَإِذَا خِيَالُكَ فِيهَا يَكَلِّمُكَ وَيَسْتَأْنِسُكَ وَيُلَطِّفُ لَكَ، لَمَّا أَدْهَشَكَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَطْرَبَكَ وَلَا أَسْتَخْرِجَ مِنْ عَجَبِكَ وَذَهْوَلِكَ إِلا كَأَلَّذِي يَعْتَرِي نَفْسَكَ حِينَ يُكَلِّمُكَ طَاغُورُ؛ وَتَرَاهُ يَسْتَخْلِصُ أَرَاءَهُ أَلْمَتَصَرِّفَةَ بِكَلَامِهِ مِنْ رُوحِ أَلنَّوَامِيسِ أَلْإِلَهِيَّةِ أَلْمُدْبِرَةِ لِلْكَوْنِ، فَتُحَسُّهُ يُضَيِّفُ إِلَيْكَ زِيَادَةً لَيْسَتْ فِيكَ؛ فَمَهْمَا كَبُرَتْ بِهِ تَصَغَّرَ نَفْسُكَ عِنْدَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ ثُمَّ هُوَ يَتَّصِلُ بِرُوحِكَ مَرَّةً فِي جَلَالِ حُبِّ أَلْأَبِ لِطُفْلِهِ، وَمَرَّةً فِي رِقَّةِ فَرَحِ الطُّفْلِ بِأَبِيهِ؛ فَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ بِمَوْقِفٍ عَجِيبٍ مِنْ مُعْجَزَةِ إِنْسانِيَّةِ تَرْوَعُكَ بِطُفْلِ شَيْخٍ قَدْ أَجْتَمَعَ فِيهِ طَرَفَا أَلْعَمْرِ وَجَاءَ كَأَنَّهُ مَظْهَرُ رُوحِهِ أَلَّتِي لَا عَمَرَ لَهَا.

إِنْسَانٌ كَهْرَبَائِي يُحَاوِلُ أَنْ يَزِيدَ فِي تَرْكِيبِ أَلنَّاسِ عَظَمَةً مِنْ حَدِيدٍ أَوْ عَصَباً مِنْ سِلْكٍ، لِيَتَّصِلَ بِهِمْ جَمِيعاً تِلْكَ أَلشَّعْلَةُ أَلطَّائِفَةِ؛ فَإِذَا هُمْ خَلَقُوا آخِرُ كَأَهْلِ أَلْجَنَّةِ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾؛ وَلَكِنَّهُ بَصُرٌ وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ أَلْمَسْرَحِ بِإِعْلَانِ أَلْسَيْمَا أَلَّتِي تُجَاوِزُهُ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ أَلتَّصَاوِيرِ وَأَلتَّهَاوِيلِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: بَعْدَ قَلِيلٍ تَجِيءُ إِلَى هُنَا لِنَدُنْ وَبَارِيْسَ وَنِيُويُورْكَ وَغَيْرُهَا مِنْ أَرْضِ أَللَّهِ بِنَاسِهَا وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا، يَرَاهَا أَلْجَالِسُونَ رَأْيَ أَلْعَيْنِ وَيَتَّصِلُونَ بِهَا أَتَّصَالاً بَعِيداً لَا يَجْعَلُهُمْ فِيهَا وَلَكِنَّهُ لَا يُخْلِيهِمْ مِنْهَا؛ وَيَجِبُ لِعُمْرَانِ هَذِهِ أَلْأَرْضِ أَنْ يَبْقَى أَهْلُ مِصْرَ فِي مِصْرَ فَلَا يَدْعُوها جَمِيعاً لِيَتَّصِلُوا جَمِيعاً بِمَا تَشْتَاقُهُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ بَارِيْسَ أَوْ غَيْرِ بَارِيْسَ مِنْ حَقَائِقِ أَلْعَالَمِ أَلْكُبْرَى، وَلَا يَحْسُنُ هَذَا أَلاتِّصَالُ إِلا إِذَا خَصَّ وَلَمْ يَعَمَّ، فَيَقُومُ بِهِ أَلوَاحِدُ وَأَلْأَثْنَانِ وَأَلْجَمَاعَةُ وَتَبْقَى أَلْأُمَّةُ بِمَا هِيَ وَكَمَا هِيَ لِأَنَّهَا بِذَلِكَ وَحْدَهُ أُمَّةٌ، كَمَا أَنَّ أَلنَّاسَ بِطَبَائِعِهِمْ نَاسٌ، وَأَلْكَوْنُ بِأَخْتِلَافِهِ كَوْنٌ، فَهِيَ هَاتِ هِيَ هَاتِ أَلْحُبُّ أَلْعَامُ وَأَلْسَلَامُ أَلْعَامُ وَأَلاتِّصَالُ أَلْعَامُ بِأَلْحَقِيقَةِ أَلرُّوحِيَّةِ أَلْعَالِيَا. ثُمَّ تَبَسَّمَ وَقَالَ: مَا أَشْبَهَنِي بِهَذِهِ أَلْسَيْمَا، غَيْرَ أَنَّ شَرِيطِي لَا يَرى فِيهِ أَلنَّاسُ رِوَايَةً مِنْ لَنْدُنْ وَبَارِيْسَ، بَلْ رِوَايَةً وَقَعَتْ حَوَادِثُهَا فِي جَنَّةِ أَلْخُلْدِ ...

فلسفةُ القصة

ولماذا لا أكتبُ فيها . ؟

لم أكتبُ في القصةِ إلّا قليلاً، إذا أنت أردتِ الطريقةَ الكتابيةَ المصطلحَ على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعتُ كلَّ كُتبي ومقالاتي إلّا في قصةٍ بعينها، هي قصةُ هذا العقلِ الذي في رأسي، وهذا القلبِ الذي بين جنبي

أنا لا أعبأ بالمظاهرِ والأغراضِ التي يأتي بها يومٌ وينسخها يومٌ آخر، وأقبلُ التي أتجهُ إليها في الأدبِ إنّما هي النفسُ الشرقيةُ في دينها وفضائلها، فلا أكتبُ إلّا ما يعشها حيّةٌ ويزيدُ في حياتها وسمو غايتها، ويُمكنُ لفضائلها وخصائصها في الحياة؛ ولذا لا أمسُ من الآدابِ كلّها إلّا نواحيها العليا؛ ثمّ إنّهُ يُخيّلُ إليّ دائماً أنّي رسولٌ لغويّ بُعثتُ للدفاعِ عن القرآنِ ولُغتيه وبيانه، فأنا أبداً في موقفِ الجيشِ (تحت السلاح): له ما يُعانيه وما يُكلّفُهُ وما يُحاولُهُ ويفي به، وما يتحاماها^(١) ويتحقّظُ فيه، وتاريخُ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها؛ وكيف أعترضتُ الجيشَ رأيته فنّ نفسه، لا فتك أنت ولا فنّ سواك؛ إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدّى به للحياة والتاريخ.

ألا ترى أنّ تلكَ الرواياتِ تُوضعُ قصصاً، ثمّ تُقرأ فتبقى قصصاً؟ وإنّ هي صنعتُ شيئاً في قرائها لم تزدَ على ما تفعلُ المخدراتُ؛ تكونُ مُسكّناتٍ عصبيةً إلى حين، ثمّ تتقلبُ هي بنفسها بعدَ قليلٍ إلى مهيجاتٍ عصبيةٍ؟

وأنا لا أنكرُ أنّ في القصةِ أدباً عالياً، ولكنّ هذا الأدبَ العالي في رأيي لا يكونُ إلّا بأخذِ الحوادثِ وتربيتها في الروايةِ كما يربّي الأطفالُ على أسلوبٍ سواءٍ في العِلْمِ والفضيلة؛ فالقصةُ من هذه الناحيةِ مدرسةٌ لها قانونٌ مسنون، وطريقةٌ

(١) يتحاماها: يتحاشاه.

مَمَحَصَة، وَغَايَة مَعِيْنَة؛ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَاوَلَهَا غَيْرُ الْأَفْذَاذِ^(١) مِنْ فَلَاسِفَةِ الْفِكْرِ الَّذِينَ تُنْصَبُهُمْ مَوَاهِبُهُمْ لِإِلْقَاءِ الْكَلِمَةِ الْحَاسِمَةِ فِي الْمَشْكَلَةِ الَّتِي تُثِيرُ الْحَيَاةَ أَوْ تُثِيرُهَا الْحَيَاةُ؛ وَالْأَعْلَامُ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْبَيَانِ الَّذِينَ رَزَقُوا مِنْ أَدَبِهِمْ قُوَّةَ التَّرْجُمَةِ عَمَّا بَيْنَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ، وَمَا بَيْنَ الْحَيَاةِ مَوَادِّهَا النَّفْسِيَّةِ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، تَتَخَيَّلُ الْحَيَاةُ فُتُبْدَعُ أَجْمَلُ شَيْعِرِهَا، وَتَتَأَمَّلُ فَتُخْرِجُ أَسْمَى حِكْمَتِهَا، وَتُشْرَعُ فَتَضَعُ أَصَحَّ قَوَانِينِهَا.

وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُمْ مَنْ يَحْتَرِفُونَ كِتَابَةَ الْقِصَصِ، فَهُمْ فِي الْأَدَبِ رِعَاعٌ وَهَمَجٌ، كَانَ مِنْ أَثَرِ قَصَصِهِمْ مَا يَتَخَبَّطُ فِيهِ الْعَالَمُ الْيَوْمَ مِنْ فَوْضَى الْغَرَائِزِ، هَذِهِ الْفَوْضَى الْمَمْقُوتَةُ الَّتِي لَوْ حَقَّقَتْهَا فِي النَّفُوسِ لَمَّا رَأَيْتُهَا إِلَّا عَامِيَّةً رُوحَانِيَّةً مَنْحَطَةً تَتَسَكَّعُ فِيهَا النَّفْسُ مُشْرَدَّةً فِي طَرَقِ رِذَائِلِهَا.

إِذَا قَرَأْتَ الرِّوَايَةَ الْزَائِفَةَ أَحْسَسْتَ فِي نَفْسِكَ بِأَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَسْقُلُ، وَإِذَا قَرَأْتَ الرِّوَايَةَ الصَّحِيحَةَ أَدْرَكْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَعْلُو؛ تَنْتَهِي الْأُولَى فِيكَ بِأَثَرِهَا السَّيِّئِ، وَتَبْدَأُ الثَّانِيَةُ مِنْكَ بِأَثَرِهَا الطَّيِّبِ؛ وَهَذَا عِنْدِي هُوَ فَرْقٌ مَا بَيْنَ فَنِّ الْقِصَّةِ، وَفَنِّ التَّلْفِيْقِ الْقِصَصِيِّ!!.

(١) الْأَفْذَاذُ: النُّوَابِغُ الْمُتَفَوِّقُونَ.

شعر صبري

في الحادي والعشرين من شهر مارس من سنتنا هذه نزع الشعر العربي عن رأسه عمامة المشيخة ونشرها للموت، فكانت الكفن الذي طوي فيه بقيّة شيوخ الأدب: المرحوم إسماعيل باشا صبري.

كان - رحمه الله - من الرجال الذين نشأوا في تاريخ لا يُنشىء رجلاً، وجاءوا في غير زمنهم ليحيى بهم زمنهم بعد؛ وهؤلاء إن لم يكن فيهم قوّة أكبر من القوّة، فهم أقدارٌ وأحداثٌ تولد وتنشأ وتنمو في أسلوب إنسانيّ ليتم بها شيء كان نقصاً، ويحسن شيئاً كان هجئاً، ويوجدُ أمراً كان عدماً؛ ثم ليكون للزمن منها حدودٌ يبدأ عند الواحد منها فيتغيّر فيه ويتحوّل به ويخرج معه في بعض معانيه زمناً جديداً في رجل جديد.

كذلك كان صبري في منحنى من مناحي الشعر، وكان البارودي - رحمهما الله - في منحنى آخر؛ فهما طرفا المخور الذي استدار عليه هذا الفلك ليبدأ بعد تاريخه المميّت تاريخاً حيّاً، وليخرج من الجوّ القاتم في أعراض الأرض إلى الفضاء المشرق بمعاني السماء، ثم لينفض عنه في مهبّ الرياح العلويّة ما لصق به من طباع أهله وأخلاقهم، ويغلق بها ما فتح الزمن عليهم من أبواب هذه الجرفّة، فكان الشعر في حاجة إلى رجل كالمليك، فأصاب رجلين؛ وعلم الله ما رأيت في كل من رأيتهم من الشعراء نفساً تعدّ معهما، ولا خلُقاً يجري في أخلاقيهما، ولا ظرفاً ولا رقة ولا أدباً ولا شيئاً يصلح أن يكون شرحاً منهما أو تأكيداً لشيء فيهما أو تقوية لمعنى من معانيهما، كأنما وجداً ليكون أحدهما مبدأ والآخر نهاية، ولينفردا أنفراد الطرفين من المسافة بالغة ما بلغت.

كان الشعر لعهديهما بقيّة رثّة في معرض خلقي ممّا كان يُسميه أدباء الأندلس بالأغراض المشرقيّة وطريقة المشاركة، وهم يعنون بذلك الصناعة والتكلف للبديع والأنصراف إلى اللفظ واستكراهه على الوجه الذي أرادوا، إلى ما يتشعب من ذلك

ويخرجُ أو يدخلُ في بابِه؛ وقد كانَ هذا ومثله ممَّا يُسأغُ^(١) ويُحتَمَلُ في القرنِ الثامن وأكثَرِ التاسعِ للهجرة، ثُمَّ في أيامِ بعدَ ذلك؛ غيرَ أَنَّهُ بَلَّيَ وتهتَكَ في مُضَرَّ خاصةً ولم يبقَ منه إلى منتصفِ القرنِ الثالثِ عَشَرَ إلَّا رَقْعٌ وخبوطٌ في قصائدٍ ومقاطيعٍ.

ثُمَّ كَانَ أَكثَرُ الشعراءِ يومئذٍ إِنَّمَا يحترفونَ فنَّ الأَدبِ صِنَاعَةَ كسائرِ المِهَنِ والصناعاتِ التي بها قِوَامُ العيشِ لهؤلاءِ المستأكلينَ والمُتَكسبينَ مِنَ السُّوقَةِ والمُرتزِقَةِ.

* * *

ظهرَ أَلبارودي ونبغَ في شعره قبلَ أَن يقولَ صبري الشعرَ بِسنواتٍ، ولكنَّ الأَدبَ الفارسيَّ والجزالةَ العربيَّةَ هما اللَّذنانِ تحوَّلا فيه؛ ثُمَّ نبغَ صبري بعدَ ذلك بِزمنٍ، فتحوَّلَ فيه الأَدبُ الأَفرنجيُّ والرَّقَّةُ العربيَّةُ؛ وهذا موضعُ التَّفَاوُتِ في شِعْرِ الرُّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَقْتَنَصَا الخِيَالَ الشَّعْرِيَّ مِنْ طَرَفِي الأَرْضِ، وكِلَاهُمَا يَذْهَبُ مَذْهَباً ويرجعُ إلى طَبْعٍ ويروضُ شِعْرَهُ على وَجْهِ؛ فَأَلبارودي يستجِرُّ ويجمعُ إلى سبكِه الجيِّدِ قُوَّةَ الفَخَامَةِ وشِدَّةَ الجزالةِ، ثُمَّ يعترضُ الخِيَالَ مِنْ حَيْثُ يَهْبِطُ على النَّفْسِ فِي مَمَرِّ الوَحْيِ؛ وصبري يسترقُّ ويُضَيِّفُ إلى صفاءِ لَفْظِهِ جَمَالَ التَّخْيِيرِ وحلاوةَ الرَّقَّةِ، ويُعارضُ الفَكرَ مِنْ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ؛ وَأَلبارودي لا يرى إلَّا مِيزَانَ اللِّسَانِ يُقِيمُ عليه حروفَهُ وكلماتِهِ، وصبري لا يرى إلَّا مِيزَانَ الذَّوْقِ الَّذِي هُوَ مِنْ وِراءِ اللِّسَانِ؛ وقد يُسَرِّثُ لِكُلِّهِمَا أسبابَ ناحيتهِ فِي أَحْسَنِ ما يتصرَّفُ فيه؛ فجاءَ أَلبارودي حافِظاً كأنَّهُ مجموعةٌ مِنْ دواوينِ العربِ والمولدين، وجاءَ صبري مفكراً كأنَّهُ مجموعةُ أَذْواقٍ وأفكارٍ؛ وهما يشتركانِ معاً فِي التَّلَوُّمِ على صِنْعَةِ الشَّعْرِ والتَّأْنِي فِي عَمَلِهِ وتقليبهِ على وجوهٍ مِنَ التَّصْفُحِ، وتمحيصِهِ بالنَّقْدِ وَالإِبْتِلَاءِ لَفْظاً وَجَمَلَةً جَمَلَةً، ثُمَّ مُطَاوَلَةِ معانيهِ ومُصابِرتِها كأنَّما ينتزعانِ محاسنَها مِنْ أَيْدِي المَلائِكَةِ؛ وَأنا أعرفُ ذلكَ فيهما؛ وقالَ لي صبري باشا مرةً وقد جَارَيْتُهُ فِي بعضِ هذا المَعْنَى: إِنَّهُ يَعْلَمُ هَذَا مِنَ أَلبارودي وَمِنْ نَفْسِهِ. قُلْتُ: أَفِيْلُغُ بِهِ ذَلِكَ أَنَّهُ يَمَحُو بِياضَ أَلْيَوْمِ فِي سِوَادِ بَيْتٍ واحِدٍ؟ قالَ: وَفِي سِوَادِ شُطْرَةٍ أحياناً! . وَلَيْسَ يَنْقُصُهُما هَذَا الأَمْرُ شَيْئاً، فَإِنَّ خَبَرَ زَهِيرٍ فِي حَوَالِيَّاتِهِ معروفٌ، وقد عَمِلَ سَبْعَ قِصائِدَ فِي سَبْعِ سَنِينَ: يَحْوِكُ القَصِيدَةَ مِنْهَا فِي سَنَةٍ.

ونقلوا عن مروانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ أَنَّهُ قالَ: كُنْتُ أَعْمَلُ القَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ

(١) يُسأغُ: يُقْبَلُ.

أشهر، وأحككها^(١) في أربعة أشهر، وأعرضها في أربعة أشهر، ثم أخرج بها إلى الناس؛ فقليل هذا هو الحولي المنقح.

كان مرجع البارودي إلى الحفظ، فنبغ في وثبات قليلة؛ أمّا صبري فأحتاج إلى زمن حتى أستحكم ناحيته وآتته أسبابه على الإجابة، لأن مرجعه إلى الذوق، وهذا يكتسب بالمران وينضج عند نضوج الفكر ولا يأتي بالماء والرونق حتى تأتي له أسباب كثيرة؛ وأنت تعرف ذلك في الرجلين من أوائل شعرهما، فقد رثي البارودي أباه في سن العشرين بأبياته الدالية الشهيرة التي مطلعها:

لا فارسُ اليومَ يحمي السَّرحَ بالوادي طاحَ الرَّدَى بشهابِ الحيِّ والنَّادي
وهي ثمانية عشر بيتاً، وجيدها جيد، وكأنها خرجت من لسان أعرابي؛ وإنما جاءته من صنعة الحفظ، كالذي اتفق للشریف الرضوي في أبياته الخائية التي كتب بها إلى أبيه وعمره أربع عشرة سنة، وكان أبوه معتقلاً بقلعة شيراز ومطلعها.

أُبْلِغَا عَنِّي الْحُسَيْنَ الْوَكَا^(٢) إِنَّ ذَا الطُّودِ^(٣) بَعْدَ بُعْدِكَ سَاخَا^(٤)
وَالشَّهَابَ الَّذِي أَصْطَلَيْتَ لَظَاهُ عَكَسَتْ ضَوْءَهُ الْخَطُوبُ^(٥) فَبَاخَا

هذا على أن البداية كما يقال مزله؛ وقد وفقنا إلى الوقوف على أول ما نُشر من شعر صبري باشا، وذلك قصيدتان نُشرتا في مجلة روضة المدارس في مدح إسماعيل باشا، نُشرت الأولى في العدد الصادر في غاية شوال سنة ١٢٨٧ للهجرة - ١٨٧٠ للميلاد؛ ونُشرت الثانية في عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م؛ وبينهما خمسة أشهر، كانت وثبته فيها ضعيفة متقاصرة، مما يدل على بطء نضجه بطبيعة الأسباب التي تسبب بها إلى الشعر؛ وكانت الروضة يومئذ تنشر لطائف من فحول دهرهم: كالسيد صالح مجدي، ورفاعة بك رافع، ومحمد أفندي قدري «ونابغة الزمان محمد أفندي رضوان»، وغيرهم. وكانت تُستقبل قصائدهم بسجعات داوية مفرقة، هي لذلك العهد أشبه الأشياء بطلقات مدافع التحية للملوك والأمراء؛ فلما نُشرت لصبري قالت في القصيدة الأولى تهنئة بالعيد الأكبر للخديو الأعظم بقلم إسماعيل صبري أفندي». وقالت في الثانية «قصيدة رائية في مدح

(١) أحككها: أنقحها.

(٤) ساخا: ذابا.

(٥) الخطوب: المصائب.

(٢) الوكا: رسالة.

(٣) الطود: الجبل الشامخ.

الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب إسماعيل صبري أفندي من تلامذة مدرسة الإدارة». ومطلع القصيدة الأولى:

سَفَرْتُ^(١) فلاح^(٢) لَنَا هِلَالُ سَعُودٍ وَتَمَا الْغَرَامُ بِقَلْبِي الْمَعْمُودِ^(٣)

ولا شيء فيها أكثر من حروف المطبعة. . ومطلع الثانية:

أَغْرَثْتَ الْغَرَاءَ أُمَ طَلْعَةُ الْبَذْرِ وَقَامَتْكَ الْهَيْفَاءُ أُمَ عَادِلُ السُّمْرِ
وفي هذه القصيدة بيتٌ وقُفْتُ عنده أرى صبري باشا في صبري أفندي كأنه
خيالٌ مولودٌ يَسْتَهْلُ، وذلك قوله:

فَطَوَّلَ مِنَ الْهَجْرَانِ عَلَّ وَقُوفُنَا يَطْوِلُ مَعَا - يَا قَاتِلِي - سَاعَةَ الْحَشْرِ
ويكاد هذا البيت يكون أول انقلابٍ للفكرة فيه: وهو غريب، والتأمل فيه
أغرب، ولكنه يدل على خيالٍ سيَّبُ يوماً على أقطار السموات.

وفي ذلك الزمن عينه كان البارودي شهاباً يتلهَّبُ، وكان قد بلغ مبلغه
وأستجمع أسباب نهايته، بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدته الشهيرة:
أَخَذَ الْكَرَى^(٤) بِمَعَاقِدِ الْأَجْفَانِ وَهَفَا^(٥) السُّرَى^(٦) بِأَعْنَةِ الْفُرْسَانِ

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبري، ولم يكن ليغضى عن احتذاء هذه
الصنعة البارعة ويأخذ في غيرها لولا أن فيه طبعاً مستقلاً يذهب إلى كماله في
أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة في غصنها؛ وأخص أحوال صبري أنه لم يرد أن
يكون شاعراً فجاء أكبر من شاعر، وكان السبب الذي صرفه من ناحية هو نفسه
الذي جاء به من ناحية أخرى.

ينبغ الشاعر بأربعة أشياء لا بد منها: طريقة الدرس التي عالج بها الشعر،
وكتب هذه الطريقة، والرجال الذين هم أمثلتها في نفسه. ثم... ويا لله من ثم
هذه، فهي اللمحة السماوية التي تُشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل، والثلاث
الأولى تُنشئ نبوغاً معروفاً في نوعه ومقداره، ولكن الأخيرة هي طريق القدر التي
لا يُعرف آخرها؛ وإذا تجددت في حياة الشاعر أو اتصلت بتجدد بها نبوغه أو

(١) سفرْتُ: كشفت عن وجهها.

(٤) الكرَى: النعاس.

(٢) لاح: بدا وظهر.

(٥) هفا: خف.

(٣) المعمود: المتيم.

(٦) السرى: السير في الليل.

اتَّصَلَ، فعلى قدر ما يُحِبُّ تَحِبُّهُ^(١) السماء من أسرار الجمال، وهي نفسها أجملُ أسباب الشعر وأجملُ معانيه وأجملُ غاياته، فهي هي المادة التي تُؤَلَّفُ بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعري في هذا الكون كله؛ وإذا أنت نزعْتَ النظرة والابتسامة - وهما عنصرا تلك المادة - من حياة الشاعر، نزعْتَ الحياة نفسها من شعره فما يبقى منه إلا أنه مقبرة للألفاظ والمعاني، وتسمعُ شعره فلا تجزيه^(٢) به أحسن من قولك: يرحمك الله... وصبري لم يدرس الشعر في الكتب أكثر مما درسه في الوجوه والعيون، وقد عالَجَ هذا الشعر في بدايته ليتأتى إليه من طُرُقِهِ البعيدة؛ أما الرجال الذين كانوا أمثله فكانوا رجال الظرف والرقة والنكتة المضربة الشهيرة التي أنفرد بها الطبع المضري ونص عليها علماء البلاغة، كالسكاكي وغيره؛ بل كان عصره كله عصر هذه النكتة، فتحوّلت في طبعه الرقيق المبتكر تحوُّلاً رقيقاً مبتكراً أرجعها إلى الظرف المحض الذي اجتمعت فيه كل طبائع كما يجتمع السحاب من الماء.

ولقد كان في شعره أحق الناس بقول ابن سعيّد المغربي:

أسكان مصرَ جاورَ النيلَ أرضكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحرٌ فما بقي سوى أثر يبدو على النظم والنثر

وإنني أعلم أنه كان دائم الحب: يمزج ذكرى ماضيه بحاضره فيخرج منهما حباً جديداً؛ وكان الرجل كأنه مجروح القلب، فلا يزال يئن حتى في بعض أنفاسه، إذ يرسل النفس الطويل بين هنيهة وأخرى كأنه يريد أن يطمئن أن نفسه فيه، أو أن شيئاً باقياً في نفسه؛ وتلك همهمة لا تكون في شاعر من الشعراء بغير معنى.

كانت النظرة والابتسامة تتمثل له حيث شاء وتعرضه حيث أراد أن يراها، فيجد في كل شيء روحاً من الشعر، ويقرأ لمحاتها متى التمعت^(٣). وكان يعيش في ذات نفسه كأنه معنى في قصيدة هو أمير أبياتها.

فشاعرنا هذا أخرجهُ اثنان: الظرف والجمال؛ وهذا سرُّ إباطه أن يعد من الشعراء لأنه أرفع من أن يدخل بينهم في هذه المِحنة والبلوى التي ابتلوا بها...

ولقد همَّ صبري في أواخر عمره بمحو شعره لو أنه كان في منال يده، على

(١) تحبوه: تعطيه.

(٢) تجزيه: تحسن إليه.

(٣) التمعت: خطرت على باله.

أنَّهُ محا منه بإهماله أكثر ممَّا أثبت ؛ وعَلِمْتُ منه أنَّه لم يدوِّن شيئاً ، وأنَّه ينسى ما يقوله ، فكأنَّه يُوجدُ بسببِ واحدٍ ويمحقُ بسببين ؛ وقديماً كان كبارُ العلماءِ متى انتهوا إلى التحقيقِ رأوا عمرَهم كُلَّهُ بدايةً ورأوا ما فعلوا باطلاً فغسلوا كُتُبَهُم أو أحرقوها ، ولكنَّا لم نعرفِ هذه الطَّبيعةَ في شاعرٍ بعدَ عصرِ الكُتابةِ والتدوينِ ، وإنَّ كانَ بعضهم يأنفُ لنفسِهِ أنْ يُعدَّ مِنَ الشعراءِ وهو مع ذلك يجمعُ يدهُ على شعرِهِ ، كالشَّريفِ الرُّضِيِّ الَّذِي يقولُ :

مَالِكَ تَرْضَى أَنْ تُعَدَّ شَاعِراً بَعْدَ لَهَا مِنْ عَدَدِ الْفَضَائِلِ
ويقولُ في مدحِ أبيه :

إِنِّي لَأَرْضَى أَنْ أَرَاكَ مُمَدِّحاً وَعُلاكَ لَا تَرْضَى بِأَنِّي شَاعِرٌ
ومثلهُ أبو طالبِ المأمونيُّ وآخرون يدَّعونَ ذلكَ دعوى وفي ألسنتِهِم ما ليس في قلوبِهِم .

ولإفراطِ صبري في الظرفِ والجمالِ وقيامِ شعرِهِ على هذينِ الركنينِ ، جاءَ مُقلِّاً من أصحابِ القصارِ ، وزادَ إقلالَهُ في قيمةِ شعرِهِ ، فخرَّجتُ مقاطيعَهُ مخرجَ الشَّيءِ الظَّريفِ الَّذِي يُتَعَجَّبُ منه في وجودِهِ أكثرُ ممَّا يُتَعَجَّبُ منه لِقَلَّةِ وجودِهِ ؛ وبذلكَ ربحَ تعبَ المُكثَرينَ والمُطيلينَ ، إذ كانَ لا يقولُ إلَّا فيما تُؤَاتِيهِ السَّجِيَّةُ^(١) وينزعُ لَهُ الطَّبعُ ، فيدنو ماخذهُ ويكثرُ بقليله ويرمي منه بِمثلِ الحُجَّةِ والبُرْهَانِ ، فيطمسُ بِهِمَا على كلامٍ طويلٍ وجَدَلٍ عريضٍ .

ولا يعيبُ المُقلُّ أنَّه مُقلٌّ إذا كَثُرَتْ حسناته ، بل ذلكَ أعونُ لَهُ على القلوبِ والأنفوسِ إذا أصابت في شعرِهِ ما يُغريها بِطَلَبِ المزيدِ منه ؛ وقد عدُّوا بينَ المُقلِّينَ في الجاهليةِ : طرفةَ بَنِّ العبدِ ، وعبيدَ بَنِّ الأبرصِ ، وعلقمةَ الفحلِ ، وعدِيَّ بَنِّ زيدٍ ، وسلامةَ بَنِّ جندلٍ ، وحصينَ بَنِّ الحُمَامِ ، والمتملمسِ ، والحارثَ بَنِّ جِلْزَةَ ، وأبْنَ كلثومٍ ، وغيرَهم أتينا على أسمائِهِم في الجزءِ الثالثِ من (تاريخِ آدابِ العربِ) ؛ ومن أولئك مَنْ يُعرَفُ بالقصيدةِ الواحدةِ : كطرفة ، ومنهم مَنْ يُعرَفُ بثلاثِ قصائدٍ : كعلقمة ، أو بأربعٍ : كعدي بَنِّ زيدٍ ؛ ومنهم مَنْ يُعرَفُ بالأبياتِ المتفرقةِ ، ولا عبرةَ بِمَا يُنسَبُ إليهم عندَ غيرِ المصححينِ وأهلِ التحقيقِ ، فإنَّ الحَمَلَ على شعراءِ الجاهليةِ كثيرٌ ؛ وقد يعرفونَ الشَّاعِرَ بِأَبِيَّتِ الْفَرْدِ ، لأنَّ العربَ

(١) السَّجِيَّةُ : الطَّبيعةُ دونَ تصنعٍ .

إنَّما يعتبرون الشعرَ بِمقدارِ ما يُحرِّكُ من ميزانِهِ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي هو القلبُ، لا بِالطولِ ولا بِالقصرِ، وقد قالوا في بيتِ النَّابِغَةِ:

ولسْتُ بِمستبِقٍ أخاً لا تلمُّهُ على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المَهْذَبُ؟

إنَّه لا نظيرَ لَهُ في كلامِ العربِ؛ وما ذلكَ إلَّا على الاعتبارِ الَّذِي أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ. وكانوا يسمونَ البيتَ الواحدَ: يتيماً، فإذا بلغَ البيتَينِ والثلاثةَ فهَيَّ نَتْفَةٌ، وإلى العشرةِ تُسمَّى قطعةً، وإذا بلغَ العشرينَ استحقَّ أَنْ يُسمَّى قصيداً.

وكانَ مِنَ الشعراءِ مَنْ يعتمدُ أَنْ لا يجيءَ في شعرِهِ الجِدُّ بغيرِ البيتَينِ والثلاثةِ إلى القِطْعِ الصَّغيرةِ، كشاعرِنا صبري باشا؛ ومنهم عقيلُ بْنُ عُلْفَةَ: كانَ يقصرُ هِجاءَهُ ويقول: يكفيكِ مِنَ القِلَادَةِ ما أحاطَ بِالعنقِ. ومنهم أبو المَهوَسِ، وكان يحتجُّ لذلكَ بأنَّه لم يجدِ المَثَلَ النادرَ إلَّا بيتاً واحداً، ولم يجدِ الشعرَ السائرَ إلَّا بيتاً واحداً؛ ومنهم الجَمَّازُ: قالَ لَهُ بعضُهُم وقد أنشدَهُ بيتَينِ: ما تَزِيدُ على البيتِ والبيتَينِ؟ فقال: أردْتُ أَنْ أنشدَكَ مُذارعةً؟؟؟ وأبْنِ لَنَكِّكَ المِصرِيَّ، وأبْنِ فارِسَ، ومنصورَ الفَقِيهِ الَّذِي كانَ يُقالُ فيه: إذا رَمَحَ بِزوجِيهِ قتلَ. ولا نستقصي في هذا فَلندعُهُ فَإِنَّ لَهُ موضعاً.

غيرَ أَنَّ صبري كانَ لَهُ مع جُودَةِ المقاطيعِ جُودَةُ القصيدِ إذا قصَّدَ، كقومِ عُرفوا بذلكَ في التاريخِ، منهمُ العباسُ بْنُ الأَحنَفِ وسِواه، وكانَ من أسبابِ إقْلالِهِ ما أعلَمَنِي بِهِ من أَنَّ طَريقَتَهُ في أكثرِ ما ينظُمُ معارضةً معنًى يقفُ عليه، أو تضمينُ حِكْمَةٍ، أو ضَرْبُ مَثَلٍ على طَريقَةِ النَّظَرِ والمِلاحِظَةِ، أو تدوينُ خُطْرَةٍ عَرَضَتْ لَهُ، أو لَمَحَةٍ أُوحيَتْ إِلَيْهِ؛ وهو ينزلُ في ذلكَ على النِّصْفَةِ والمعدلةِ فلا ينتحلُ شيئاً ليسَ لَهُ، بل يَدُلُّكَ بنفسِهِ على الأَصْلِ الَّذِي منه أخذَ أو المَثالِ الَّذِي عليه أحتذى.

قالَ لي مرَّةً إِنَّ البَستانيَّ عقدَ حِكْمَةً فارسيَّةً في قولِهِ:

قضيتُ إلهي بِالْعَذابِ فيا تُرى بأيِّ مكانٍ بِالْعَذابِ تُدينُ^(١)

وليسَ عذابٌ حيثُما أنتَ كائنُ وأيِّ مكانٍ لَسْتُ فيه تَكونُ؟

ثمَّ قالَ: فأخذْتُ من هذا المَعْنى وقلتُ:

يا ربَّ أينَ تُرى تُقامُ جهنَّمُ لِلظالمينَ غداً ولِلأَشْرارِ

(١) تدين: تحكم وتقضي.

لم يُبقي عفوك في السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار
يا رب أهلني لفضلك وأكفني شطط العقول^(١) وفتنة الأفكار
ومرّ الوجود يشفّ عنك لكي أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبي مخنة علمي بأنك عالم الأسرار

والفرق بين الشعرين أن البستاني جاء بكلامه على طريقة المتصوفة التي يسمونها طريقة أهل التحقيق، كابن العربي والشُّشُري؛ وأما صبري فأنظر كيف أستوفى وكيف لأعم المأخذ الدقيق الذي لا ينتبه له إلا المطلع الحاذق بصناعة الكلام، كقوله:

إذا ما صديق عَقْنِي^(٢) بِعَدَاوَةٍ وفوَّث يوماً في مقاتله سَهْمِي
تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَسَرَ سَهْمِي فَأَثْنَيْتُ وَلَمْ أَرْمِ
فهذا ينظر إلى قول الحارث بن وِعلَة:

قومي هُم قتلوا أُمِيمَ أَخِي فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
ولكنه ليس بذاك؛ فإنَّ أساس المعنى قوله: «تعرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» وهو من قول العباس بن الأحنف:

وإذا مَدَدْتُ طَرْفِي^(٣) إِلَى غِيٍّ رَكَ مُثَلَّتْ دَوْنَهُ فَأَرَاكَ
فتأمل كيف أبدع في انتزاع المعنى وكيف جعل له معرضاً جديداً وكيف أدّاه أحسن تأدية في لطف وجه كأنه شيء مخترع.

ومن شعره أسائر قوله في العناق وتلازم الحبيبين:

ولمّا التَقَيْنَا قَرَبَ الشُّوقِ جُهْدُهُ شَجِيئِينَ^(٤) فاضالوعة وعَتَابَا
كأنَّ صديقاً في خِلالِ صديقِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِناقِ وَغَابَا
وهذا المعنى على إبداعه فيه متداول، وأصله لِشَار - أَظُنْ - في قوله:

وَبَشْنَا جَمِيعاً لَوْ تُرَاقَ زَجَاجَةٌ مِنْ الْخَمْرِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ^(٥)
فأبدع صبري في أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدة جوهره تتألق؛

(١) شطط العقول: خروجها ومغالاتها وبعدها عن المؤلف.

(٢) عَقْنِي: تركني وأنكر صحبتي وحقي عليه. (٤) شَجِيئِينَ: مشغولين.

(٣) الطَّرْفُ بتسكين الراء: النظر. (٥) لم تَسَرَّبَ: لم تسل لتلاصقهما.

على أنني لا أستحسنُ قوله: «كَأَنَّ صديقاً...» فما هذا بِعِناقِ الْأَصْدِقَاءِ، ولو كان
الصدیقُ راجعاً من سَفَرِ الْآخِرَةِ؛ وإذا غابَ واحدٌ في الْآخِرِ، فَالْآخِرُ حاملٌ به...
وقد أخذتُ أنا هذا الْمَعْنَى منه، ولولاهُ ما أَهْتَدَيْتُ إليه، فقلْتُ في ذلك:

وَلَمَّا أَلْتَقَيْنَا ضَمَّنَا الْحُبَّ ضَمَّةً بها كلُّ ما في مَهْجَتِنَا مِنَ الْحُبِّ
وَشَدَّ الْهَوَى صَدْرًا لِيَصْدِرَ كَأَنَّمَا يُرِيدُ الْهَوَى إِنْغَادَ قَلْبٍ إِلَى قَلْبٍ

وأحسنُ ما تجددَ شعْرُ صبري في الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالْوَصْفِ وَالْجُحْمَةِ، فهي
عناصرُ قلبِهِ وذوقِهِ، ولا يتصرَّفُ معه أقوى ما يتصرَّفُ إلَّا في هذه الْأَغْرَاضِ، ولعلَّهُ
إنْ جاوزَهَا^(١) قَصَرَ معه شيئاً ما وضعُفَتْ أدائُهُ ضعفاً ما، لِأَنَّهُ يَكُونُ شاعراً الصَّنْعَةِ
وهو يَأْبَاهَا ويكرَهُ أنْ يَكُونُ شاعراً من أَجْلِهَا؛ وَقَلَمًا يُجَارِيهِ أَحَدٌ في تلكِ
الْأَغْرَاضِ، وهو الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَهَا؛ وحسْبُكَ أَنَّهُ الْمِثَالُ الَّذِي أَهْتَدَى^(٢) عَلَيْهِ شوقي
بك؛ وقد ينقسمُ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ في رَجْلَيْنِ حِينَ يَقْدَرُ، فإذا لمْ يُوجَدْ أَحَدُهُما لمْ
يُوجَدْ الْآخَرُ، وأنا أرى وأعلمُ أَنَّهُ لولا صبري لَمَّا نَبَغَ شوقي، وكانَ هذا يَخْتَلِفُ
إليه يَعْرضُ عَلَيْهِ شِعْرُهُ ويرْجِعُ بِأَثَارِ ذَوْقِهِ فيه، وكذلك كانَ يَفْعَلُ خَلِيفَةُ الْبَارُودِي
حافظُ بك إبراهيم: وأسترفدُ شوقي من صبري باشا هذا الْبَيْتَ السَّائِرَ:

صونِي جَمَالَكَ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ مِنَ التَّرَابِ وَهَذَا الْحَسَنُ رُوحَانِي

فهو لِصبري باشا، وَالْمُرَافِدَةُ سُنَّةٌ مَعْرُوفَةٌ من قديم، وهي غَيْرُ الْإِنْتِحَالِ وَغَيْرُ
الْسَّرْقَةِ وما يُسَمَّى إِغَارَةً وَغَضَبًا؛ وقد أَسْتَرْفَدَ النَّابِغَةُ زهيراً فَأَمَرَ أَبْنَهُ كَعْباً فَرَفَدَهُ،
وَالْحِكَايَةُ في ذلك مشهورةٌ عنه وعن سواه.

ولم يكنْ في مِصْرَ مِمَّنْ يُحْسِنُ ذَوْقَ الْبَيَانِ وَتَمَيِّزَ أَقْدَارِ الْأَلْفَاظِ بَعْضُهَا من
بَعْضِ وَالْوَانِ دَلَالَتِهَا كَالْبَارُودِيِّ وَصبري وإبراهيمَ الْمُوَيْلِحِيِّ وَالشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ،
رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً؛ وَالْبَارُودِيُّ يَذُوقُ بِالسَّلِيقَةِ، وَصبري بِالْعَاطِفَةِ، وَالْمُوَيْلِحِيُّ
بِالظُّرْفِ، وَالشَّيْخُ بِالْبَصِيرَةِ الْنَفَّاذَةِ؛ وذلك شيءٌ رَكْبُهُ اللَّهُ في طَبِيعَةِ صبري لمْ
يُحْصَلْهُ بِالْدَّرْسِ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَلَهُ بِالْحَسَنِ، ومن أَجْلِهِ كانَ يَفْضَلُ الْبَحْثِيَّ عَلَى
غَيْرِهِ، وهو بلا نِزَاعٍ بَحْثِيٌّ مُضِرٌّ، كما لَقِبُوا أَبْنَ زَيْدُونَ بِحَثْرِيِّ الْمَغْرِبِ؛ وَإِنَّكَ
لَتَجِدُ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ في شِعْرِ الرَّجُلِ كَأَنَّهَا شِعْرٌ مَعَ الشَّعْرِ، فَتَقْفُ عَلَى الْعِبَارَةِ مِنْهَا

(٢) اهتدى: قلّد ونحا نحوه

(١) جاوزها: تخطاها.

وَقَلْبُكَ يَتَنَفَّسُ عَلَيْهَا كَأَنَّمَا إِنَّمَا وُضِعَتْ لِقَلْبِكَ خَاصَّةً، فَهِيَ تَغْمِزُ عَلَيْهِ غَمَزاً وَكَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَاءَتْكَ فِي نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْجَنَّةِ .

وَيَمْتَازُ نَسِيبُهُ بِأَنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ فِي طَهَارَتِهِ وَعِفَّتِهِ ضَوْءاً مِنْ جَمَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَهُوَ عِنْدِي أَنْسَبُ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ الَّذِي صَرَفَ كُلَّ شَعْرِهِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ وَلَوْ أَنَّ عَصْرَهُ كَانَ عَصَرَ أَدبٍ صَحِيحٍ لَأَخْمَلَ كُلَّ شُعْرَاءِ هَذَا الْبَابِ، مِنْ أَبِي رَبِيعَةَ إِلَى طَبَقَةِ عُشَاقِ الْعَرَبِ إِلَى أئِمَّةِ الطَّرِيقَةِ الْغَرَامِيَّةِ لِأَخْرِ الْقُرُونِ السَّابِقِ .
وَمِنْ غَزَلِهِ الْبَدِيعِ قَوْلُهُ :

يَا مَنْ أَقَامَ فُؤَادِي إِذْ تَمَلَّكَهُ مَا بَيْنَ نَارَيْنِ مِنْ شَوْقٍ وَمِنْ شَجَنِ^(١)
تَفْدِيكَ أَعْيُنَ قَوْمٍ حَوْلَكَ أَزْدَحَمَتْ عَطَشِي إِلَى نَهْلَةٍ مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ
جَرَدَتْ كُلَّ مَلِيحٍ مِنْ مَلَا حَتِيهِ لَمْ تَنْقُ فِي ظَبْيِي وَلَا عُضْنِي
وَقَوْلُهُ :

أَقْصَرَ فُؤَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِنَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا
سَلَا الْفُؤَادُ الَّذِي شَاطَرْتَهُ^(٢) زَمَنًا خَفَقُ الصَّبَابَةِ فَأَخْفِقُ وَخَذَكَ الْآنَا
وَيَا رَحِمَةَ اللَّهِ لِلْقَلْبِ الَّذِي يَفْهَمُ هَذَا الْبَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيُجَنُّ بِهِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ
أَسْتَعْدَادٌ لِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْجَنُونِ .
وَمِنْ قَلَائِدِهِ الْغَرَامِيَّةِ قَوْلُهُ :

يَا أَسَى الْحَيِّ هَلْ فَتَشْتَ فِي كَبْدِي وَهَلْ تَبَيَّنْتَ دَاءً فِي زَوَايَاهَا
أَوَاهُ مِنْ خُرْقٍ أَوْدَتْ بِمُعْظَمِهَا وَلَمْ تَزَلْ تَتَمَشَّى فِي بَقَايَاهَا
يَا شَوْقُ رَفَقاً بِأَضْلَاعٍ عَصَفَتْ بِهَا فَالْقَلْبُ يَخْفُقُ دُغْرًا^(٣) فِي حَنَائِيهَا^(٤)
وَلَهُ قَصِيدَةٌ (تَمَثَّلُ جَمَالاً) وَقَدْ نَظَمَهَا لِيُثْقَلَ إِلَى الْفَرَنْسَوِيَّةِ، وَمِنْ عَيُونِهَا
قَوْلُهُ :

وَأَبْتَسَمِي، مَنْ كَانَ هَذَا ثَغْرُهُ يَمْلَأُ الدُّنْيَا أَبْتَسَاماً وَأَزْدِهَاءَ
لَا تَخَافِي شَطَطاً مِنْ أَنْفَسٍ تَعَثُرُ الصَّبُوءَ فِيهَا بِأَلْحِيَاءَ
رَاضَتْ أَلْنَحْوَةَ مِنْ أَخْلَاقِنَا وَأَرْتَضَى آدَابِنَا حَسَنُ الْوَلَاءِ^(٥)

(١) شجن: حزن.

(٢) شاطرته: شاركته.

(٣) دغراً: رعباً.

(٤) حناياها: جنباتها وأضلاعها.

(٥) الولاء: الصحبة.

فلو امتدّت أمانينا إلى ملك ما كدّرت ذاك الصفاء
والشعراء من أول تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون في معنى قوله «لا تخافي
شططاً» الأبيات، وما منهم من وُفق إلى مثل هذا البيت الأخير، وإن كان بعضهم
بلغ الغاية، كابن نباتة السعدي والسري الرفاء وغيرهما.
ومن أبدع ما اتّفق له في الوصف أبيات في الدواق تخلص في آخرها إلى مدح
النبي ﷺ، وهو تخلص ليس في الشعر العربي كله مثله في الإبداع وحسن
الاختراع، يقول فيها:

<p>أكرمي العِلمَ وأمنحي خادميه وأبذلي الصافي المطهر منه وإذا الظلم والظلام استعانا وأستمدّا من الشرور مداداً وأقذني النقطة التي بات فيها ليراع^(١) أمريء إذا خط سطرأ وإذا كان فيك نقطة سوء فأجعلها قسط الذين استباحوا وإذا خفت أن يكون من الصخر فأبخلي بالممداد بخلأ وإن أعطي فإذا غور الممداد طبيباً فأمنحيه الممراد مناً وعرفاً وإذا مهجة الحمائم أسدت^(٢) فأجعلها على المودات وقفاً فإذا لم يكن بقلبك إلا فأجعليه حظي لاكتب منه هذا والله هو الشعر، وما وُفق إلى مثله أحد كائناً من كان في هذا العصر.</p>	<p>ماءك الغالي النفيس الثمين لهداة السرائر المرشدين يوم نخس بأجهل الجاهلين فأجعليه من قسمة الظالمين غضب القاهر المذل كميناً نبذ الحق وأزضى المين^(٢) دينا كونت من خبائث كويننا في السياسات حزمة الأضعفين رجلا ميذ ترجم السامعين ت فيه المئين ثم المئين يصف الداء دائباً مستعيناً وأستطبي معونة المحسين نقطة سرها الزكي المصوناً وهبها رسائل الشيقين ما أعد للإخلاص للمخلصين شرح حالي لسيد المرسلين</p>
--	--

(١) اليراع: القلم.

(٢) المين: الظلم.

(٣) أسدت: قدّمت.

ولا نُطِيلُ بِالنَّقْلِ مِنْ شَعْرِهِ وَتَتَّبِعُ أَغْرَاضِهِ، فَهُوَ كَأَلْأَلْمَاسِ فِي الشَّمْسِ: يَشِعُّ
مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ ضَوْؤُهُ إِلَّا فِي بَعْضِ أَلْوَانٍ مِمَّا يَكُونُ الْأَجْمَلُ فِيهَا كُلُّهُ
جَمَالًا، وَيَمِجُّ^(١) مِنَ الْأَشْعَاعِ مَا لَا تَجِدُ حُسْنَهُ فِي الْأَشْعَاعِ نَفْسِهِ، وَأَحْيَانًا يَرِقُّ كَبَعْضِ
الْبُلُورِ فَيَمْتَصُّ حَرَارَةَ الشَّمْسِ وَيَسْتَوْقِدُ بِهَا فِي ذَاتِهِ لِيُضْرِمَ مَا وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَمَا وَرَاءَهُ
إِلَّا قُلُوبُنَا الْحَزِينَةُ عَلَيْهِ - رَحْمَةُ اللَّهِ - !.

* * *

(١) يَمِجُّ: يَحْتَسِي مَجًّا.

حافظ إبراهيم

فرغْتُ الآنَ من قراءةِ شِعْرِ حافظٍ بعدَ أنْ لم يَعدْ حافظٌ بَيْنَنَا إِلَّا شِعْرُهُ ونَثْرُهُ،
فبِاللَّهِ أَحْلَفُ ما نَظَرْتُ في صَفْحَةٍ مِمَّا بَيْنَ يَدَيَّ إِلَّا وَأَحْسَسْتُ أَنَّ ذَلِكَ الشَّاعِرَ
الْعَظِيمَ يَقُولُ في بَيَانِهِ الرَّائِعِ وَصِنَاعَتِهِ البَدِيعَةِ: أنا هُنا!

ولغةُ هذا الشَّعْرِ المَتَدَفِّقَةُ بِالحَيَاةِ كَأَنَّ كَلِمَاتِهَا القَوِيَّةَ عُرُوقٌ في جِسْمٍ حَيٍّ
مَتَوَثِّبٌ - لم تَخْرُجْ عن أنْ تَكُونَ هِيَ العَرَبِيَّةُ المُبِينَةُ في جِزَالِهَا وَنِصَاعَتِهَا وَدِقَّةِ
تَركِيبِهَا الِلبَّائِيَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ في هَذَا العَصْرِ كُلِّهِ مَنْ يُكَابِرُ أو يُمارِي في أَنَّهَا هِيَ
لِغَةُ حَافِظٍ وَحْدَهُ، كَأَنَّهُ أَرغَمَ التَّارِيخَ أنْ يَحْتَفِظَ بِهِ في أَجْمَلِ آثارِهِ.

وأنا أعرفُ في شِعْرِهِ مَوَاضِعَ مِنَ الاضطرابِ وَالضَّعْفِ وَالنَّقْصِ سَاشِيرٌ إلى
بَعْضِهَا، وَلَكِنِّي على ما أعرفُهُ أَجِدُ هَذَا الشَّعْرَ كَالْتِيَّارِ يُعْبُ عُبَابُهُ^(١) لا يُبَالِي ما تَنَاقَرَتْ
مَنْهُ وما رَكَدَتْ وما وَقَعَ في غَيْرِ مَوْقِعِهِ، إِذْ كَانَتْ عَظَمَتُهُ في أَجْتِمَاعِ مادَّتِهِ لا في أَجْزَاءِ
مِنْهَا، وفي أَلْسَرِّ الذي يَدْفَعُهَا في كُلِّ مَوْضِعٍ لا في المَظْهَرِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ في
مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ؛ فَهُوَ أَبَدًا يَقُولُ لِمَنْ يَتَصَفَّحُ عَلَيْهِ أو يَنْتَقِدهُ: أَنْظِرْ لِمَا بَقِيَ.

تَرْجِعُ صِدَاقَتِي لِحَافِظٍ - رَحِمَهُ اللهُ - إلى سَنَةِ ١٩٠٠، أَوَّلِ عَهْدِي بِالْأَدَبِ
وطلبِهِ، وَقَدْ شَهِدْتُ من يَوْمِئِذٍ بِنَاءَهُ الْأَدَبِيَّ عَالِيًا فَعَالِيًا إلى الذَّرْوَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا،
وَأَخْلَصَ لِي ثِقَتَهُ وَأَصْفَانِي مَوَدَّتَهُ، وَكَانَ هَمَّكَ من أَخِ كَرِيمٍ، وَلَهُ في نَفْسِي مَكَانٌ
لَمْ يُنْكَرْهُ مَذْ عَرَفْتُهُ، وَلَمْ يَضُقْ بِمَحَبَّتِهِ مَنْذُ اتَّسَعَ لَهَا. وَكُنْتُ وَإِيَّاهُ يَرَى أَحَدُهَا الْآخَرَ
من هَذِهِ اللُّغَةِ كَالْجَانِبَيْنِ لِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ: لا يَتَهَيَّأُ في الطَّبِيعَةِ أَنْ يَخْتَلِفَا وَالصُّورَةُ بَعْدُ
قَائِمَةٌ، وَلَا أَنْ يَضْطَرِبَ ما بَيْنَهُمَا وَالصُّورَةُ مِنْهُمَا على وَزْنٍ وَتَقْدِيرٍ.

ولَكِنَّ هَذَا لا يَمْنَعُنِي أَنْ أَقَرَّرَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدِي أَكْبَرَ من شِعْرِهِ - وَلَعَلَّهُ كَذَلِكَ
عِنْدَ كُلِّ مَنْ خَلَطُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ - فَإِنَّهُ يَتَعَاطَلُكَ بِنَفْسِهِ القَوِيَّةِ وبِالْمَعْنَى الَّذِي تُحْسُهُ في

(١) العباب: اليم.

العبقري ولا تدري ما هو؛ وذلك من سِحرِ العبقريين وأثرهم في نفس مَنْ يتَّصلُ بهم، فيتَّسِقُ لهم أمران من أمر واحد، وحظانٍ بحظ، ونصيبان بنصيب؛ لأنَّ مع الإعجابِ بآثارهم إعجاباً آخرَ بالقوَّةِ التي أبدعتْ هذه الآثار؛ ففي ذواتهم المحبوبة يستمرُّ الإعجابُ كالسائرِ على طريقٍ لا موقِفَ عليه، وفي آثارهم يكونُ الإعجابُ في موقفٍ قد أنتهتِ الطريقُ به فوقفَ على حدِّ إنْ بعدَ وإنْ قُربَ.

لا جرمَ كانَ شاعرنا عبقرياً عجيبَ الصنعةِ قويَ الإلهامِ بليغَ الأثرِ في عصره، يُشبهُ تحولاً وقعَ في صورةٍ من صورِ التاريخ، ولكنهُ كذلك في مذاهب^(١) من الشعرِ دون غيرها، فلم يكنْ معه من التمامِ في فنونِ الشعرِ ما يكونُ به الشاعرُ التامُّ أو الأديبُ الكاملُ الأداة؛ وكم من مرَّةٍ كلَّمتهُ في ذلك ونبهتهُ إلى أنَّه كالنمطِ الواحدِ، وأنَّه يجبُ أن يترسَّلَ شعره بينَ النفوسِ الإنسانيَّةِ وأغراضها الكثيرةِ المختلفةِ، فإذا كانتِ السياسةُ من الحياةِ فليستِ الحياةُ هي السياسةُ، ولا ينبغي أن يكونَ شعره كلُّه كشمسِ الصيفِ، فإنَّ للربيعِ شمساً أجملَ منها وأحبَّ كأنَّها مجتمعةٌ من أزهاره وعطره ونسيمه.

ولقد كانَ يفخرُ بأنَّه (الشاعرُ الاجتماعيُّ)، وهذا لقبٌ ميَّزه به صديقنا الأستاذُ محمدُ كرد علي أيامَ كانَ في مِصرَ قديماً، فتعلَّقَ به حافظٌ ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسه وللملكةِ التي آخِضَ بها، قالَ لي يوماً في سنة ١٩٠٣: أنا لا أعدُّ شاعراً إلا مَنْ كانَ ينظِّمُ في الاجتماعيَّاتِ. فقلتُ له: وما لك لا تقولُ بِالعبارةِ المكشوفةِ: إنَّك لا تعدُّ أشاعراً إلا مَنْ ينظِّمُ مقالاتَ الجرائدِ..

ولا بدَّ لي أن أبسِّطَ هذا المعنى في هذا الفصل، فإنَّه كانَ يُخيَّلُ إليَّ دائماً أنَّ شاعرنا (حافظ) خُلِقَ للتاريخِ في أصلِ طبيعته، ثُمَّ زِيدَتْ فيه موهبةُ الشعرِ ليكونَ مؤرخاً حيَّ الوصفِ بليغَ التأثيرِ قويَ التصرُّفِ؛ ومن ثَمَّ جاءَ أكثرُ ما نظمَهُ وأساسُهُ التاريخُ والسياسةُ، وصحَّ له بهذا الاعتبارُ أن يقولَ إنَّه الشاعرُ الاجتماعيُّ، ولكنَّ مادةَ الشعرِ غيرُ روحِ الشعرِ، فإذا كانَ في المادَّةِ اجتماعيٌّ وسياسيٌّ فليسَ في الروحِ إلا الشاعرُ على إطلاقه؛ والاجتماعيَّاتُ ليستْ كلَّ حقائقِ الحياة، وهي بعدَ ذلك معانٍ خاصَّةٌ محصورةٌ في زمنها ومكانها؛ على أنَّ الحقائقَ ليستْ هي الشعرُ، وإنَّما أشعرُ تصويرُها والإحساسُ بها في شكلٍ حيٍّ تلبسُهُ الحقيقةُ منَ النفسِ، فالشاعرُ

(١) مذاهب: ضروب، أنواع.

الاجتماعي شاعر في حيز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فناً، إذ كان الفن إنسانياً وكان شاملاً عاماً؛ والمقاييس التي يطرد عليها الفن الأدبي لا تكون في الزمن ولا في الموضع، بل في النفس الإنسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان، فإذا لم يكن الشعر إنسانياً عاماً يولد كل جيل من الناس فيجده كأنما وضع له وأرتهن^(١) بأغراضه وحقائقه، فهو شعر (كالأخبار المحلية)، وهذا وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد.

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالآشياء التي نحن منها في الإنسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا... فإذا مات اليوم ماتت الجريدة، ثم تولد ثم تموت؛ وقد أدرك المتنبي سر الشعر وأنه قائم على تحويل الشعور الإنساني إلى معرفة إنسانية، فخلد شعره، فلا يمكن أن يمتحي من العربية ما بقيت. وهذا على ما يقدر من وجوه الاعتراض والنقص، وعلى أن المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى، ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والردائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق.

إن هذا الكون مبني في نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه إلا الله وحده، ولكنه مبني في أنفسنا من عمل الحواس، ثم من التعليل والتفسير؛ أما الحواس ففي كل حي، لا تخلق بصناعة ولا عمل؛ وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب، فكلاهما يخلق لإتمام الخلق في الحقيقة، وهي منزلة لا أدري كيف يمكن أن تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي أو السياسي، فترجع به نمطاً واحداً، مع أن الآثار الأدبية وفي جملتها الشعر - إن هي إلا قوى الفكر والإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلها في بواعثها وأسبابها من نفس عالية ممتازة؛ وهذه القوى كثيرة التحول، فيجب ضرورة أن تكون آثارها كثيرة التنوع، وتنوع الصور الفكرية في آثار الشاعر أو الأديب ومجيئها متوافرة متتابعة هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً أو نازلاً، ومُتبعاً أو مُبتكراً، وفيما يضيء من نواحيه وما ينطفئ.

على أن شاعرنا الاجتماعي (كما كان يجب أن يوصف - رحمه الله -) وإن

(١) ارتهن: ارتبط وتقيّد.

كَانَ قَدْ نَفَخَ فِي رُوحِ الشَّعْبِ أَنْفَاساً إلهِيَّةً، وَأَحْسَنَ فِي وَصْفِ حَوَادِثِهِ وَآلَامِهِ وَعُيُوبِهِ، وَأَبْلَغَ الْبَيَانِ فِي كُلِّ ذَلِكَ - فَإِنَّهُ نَزَلَ فِي هَذِهِ الْمُرْتَبَةِ عَنْ وَضْعِهِ الْأَصْحَحِ، فَكَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ بِمَكَانِ الشَّرْطِيِّ فِي الطَّرِيقِ: يَقِفُ لِلْجَرَائِمِ وَالْحَوَادِثِ، عَلَى حِينِ أَنْ مَقَامَهُ الْأَجْتِمَاعِي مِنَ الشَّعْبِ مَقَامُ الْمُعَلِّمِ فِي مَدْرَسَتِهِ: يَجْلِسُ لِلطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ. لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تَجِدَ فِي شِعْرِ الشَّاعِرِ حَوَادِثَ عَصْرِهِ أَكْثَرَهَا أَوْ أَقَلُّهَا، فَإِنَّ فَوْقَ هَذِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا، وَهِيَ أَنْ تَوْجَدَ حَوَادِثَ النُّهْضَةِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي شِعْرِهِ الْعَنْصُرُ النَّارِيُّ مِنَ اللُّغَةِ الشَّعْبِيَّةِ.

عَلَى أَنْ (حَافِظٌ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَدْرَكَ كُلَّ هَذَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ، فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُمِيتَ دِيَوَانَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ جِزْءاً صَغِيراً يَخْتَارُ فِيهِ أَلْفَ بَيْتٍ وَيُسْقِطُ مَا عِداهَا وَإِنْ... وَإِنْ كَانَ فِيهِ شِعْرٌ أَجْتِمَاعِي... وَمَعَ هَذَا النِّقْصِ الَّذِي بَعَثَ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ الزَّمَنِ وَطَبِيعَةُ الشَّاعِرِ مَعاً، فَإِنَّ تَمَامَ حَافِظٍ فِي مَذْهَبِهِ الْأَجْتِمَاعِيِّ الَّذِي نَبَغَ فِيهِ جَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْقُوَّةِ وَفَوْقَ الطَّاقَةِ، لَا يُجَارِيهِ فِيهِ شَاعِرٌ آخَرُ، بِحَيْثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْنَابِغَةَ قَدَرُ الْإِلَهِيِّ لَا يَنْقُصُ مِنْ عَظَمَتِهِ أَنْ يَكُونَ حَادِثَةً وَاحِدَةً تَدْوِي دَوِيَّهَا فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ مُيَسَّرٌ مِنْذُ نَشَأَتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَحْكَمَتْهُ الْمَدْرَسَةُ الْحَرَبِيَّةُ، ثُمَّ قَيْدُهُ الْجَيْشِ، ثُمَّ تَقَادُفُهُ السُّودَانِ، ثُمَّ قَذْفُ بِهِ الظُّلْمِ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ إِمَامُ عَصْرِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي غَايَاتِهِ الْوَعْرَةِ وَمَقَاصِدِهِ الْعُمَرَانِيَّةِ وَمَعَانِيَتِهِ لِإِصْلَاحِ - مَدْرَسَةِ حَرَبِيَّةٍ وَجَيْشٍ وَفَلَاةٍ، فَلَمْ يَكُنْ حَافِظٌ إِلَّا أَلْصَقَ الْإِنْسَانِي الَّذِي أَعَدَّ بِخَصَائِصِهِ لِلتَّبْعِيْرِ عَنْ حَوَادِثِ أُمَمِهِ وَخَصَائِصِهَا، وَكَأَنَّهُ فِي نَقْلَتِهِ مِنَ السُّودَانِ إِلَى مِصْرَ قَدْ أَتَقَلَّ مِنْ جَيْشٍ يُحَارِبُ الْأَقْوَامَ الْأَعْدَاءَ لِأُمَمِهِ، إِلَى جَيْشٍ آخَرَ يُحَارِبُ الْمَعَانِي الْأَعْدَاءَ لِأُمَمِهِ.

وُلِدَ حَافِظٌ إِبْرَاهِيمَ سَنَةَ ١٨٧١، وَكَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي هَدَاهُ إِلَى سِرِّ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَأَرْهَفَ ذَوْقَهُ وَأَحْكَمَ طَبِيعَتَهُ، هُوَ كِتَابُ «الْوَسِيلَةَ الْأَدَبِيَّةَ» لِلشَّيْخِ حُسَيْنِ الْمُرْصَفِيِّ، الْمَطْبُوعُ فِي مِصْرَ لِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً؛ فَفِي هَذَا الْكِتَابِ قَرَأَ حَافِظٌ خِلَاصَةً مُخْتَارَةً مُحَقَّقَةً مِنْ فَنُونِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي عَصُورِهِ الْمُخْتَلِفَةِ وَدَرَسَ ذَوْقَ الْبَلَاغَةِ فِي أَسْمَى مَا يَبْلُغُ بِهَا الذَّوْقُ، وَوَقَفَ عَلَى أَسْرَارِ تَرْكِيبِهَا، وَعَرَفَ مِنْهُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي نَبَغَ بِهَا الْبَارُودِي، وَهِيَ قِرَاءَتُهُ دَوَائِينَ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْ بَعْدِهِمْ، وَحِفْظُهُ الْأَكْثَرَ مِنْهَا؛ فَبَنَى شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمَئِذٍ قَرِيحَتَهُ عَلَى الْحِفْظِ، وَلَمْ يَزَلْ يَحْفَظُ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ؛ إِذْ كَانَتْ قَرِيحَتُهُ كَالَّةِ التَّصْوِيرِ: لَا تُنَبِّهُ لِشَيْءٍ إِلَّا غَلَقَتْهُ وَهَذَا

سبب من أسباب ضعف خياله، ولكنه ردّ عليه من القوة في اللغة ما تناهى فيه إلى الغاية .
وأتفق لذلك العهد أن طُبِعَتْ لزوميات المعري في مِصْرَ، فتناولها حافظ
وأستظهر أكثرها، فكأنّ باعِثَ ميله ونزعه إلى الشعر الاجتماعي؛ والفرق بين
حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري إلى أسرار كثيرة
ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوَّله، يطير هناك ويقع .

وقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية، فاستصعبت عليه أسرار واستغلقت
أخرى من أسرار الخير والشر في الحياة، والجمال والحسن في الخليفة، والجلال
والإبداع في الكون، والإقرار والشك في كل ذلك؛ وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً
لا بأس به، إلا أنه لم يُصَفَّ كما تُصَفَّى الأشياء في عين مُبْصِرة؛ فخطّ وخلط؛
ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً. وتابعه حافظ في
طريقة أخرى سنشير إليها بعد .

وَقُتِنَ شاعرنا بما قرأ في «الوسيلة» من شعر البارودي، فأصبح من يومئذ
تلميذه، وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة
التأليف على نغم الألفاظ وأجرام الحروف، ولكنه لم يدرك شأوَ البارودي في
ذلك؛ لأنّ هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الأدب ما لم يتفق لغيره في عصره،
وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في ألف سنة من تاريخ البلاغة العربية؛
ولذا أتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمتها إلى آخر مدته .

وأبتدأ يعالج الشعر في السودان وينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف
الهم المستولي عليه من جميع جهاته؛ إذ كان يتيماً فقيراً مُشْرِداً، ويرى نفسه شاعراً
تصدّه الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر، كالذي غُصِبَ ميراثه من عرش
وملك، ونُفِيَ إلى غير أرضه، ووضعت روحه بإزاء روح الفقير وقيل لها: عدو ما
من صداقته بُدّ .

ثمّ جاء إلى مِصْرَ واتّصل بالإمام الشيخ محمد عبده، واستقال من الجيش
وفرغ للأدب؛ فبدأ من ثمّ تكوينه الأدبي المندمج المُحْكَم، أمّا قبل ذلك إلى سنة
١٩٠١ التي طبع فيها الجزء الأول من ديوانه، فكان شعره قليلاً ظاهر التكلّف،
وأكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم، وفكر لم ينضج، وموهبة في التوليد
الشعري بينها وبين الاستقلال أمد قريب .

ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٥، وهذا الإمام - رحمه الله - كان من كل نواحيه رجلاً فذاً، وكأنه نبي تأخر عن زمنه؛ فأعطى الشريعة، ولكن في عزمته، ووهب الوحي ولكن في عقله، واتصل بالسر القدسي ولكن من قلبه؛ ولولا هو ولولا أنه بهذا الخصائص، لكان حافظ شاعراً من الطبقة الثانية، فإنه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التي جعلته يصيب الإلهام من كل عظيم يعرفه، وكان له من أثرها هذا الشعر الممتين في وصف العظماء والعظام وهو أحسن شعره.

ولم يجد حافظ من قومه ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحي نفسيته المتاريخية الكبرى، ولا تولاه ملك أو أمير يرغب في أدبه رغبة أديب ملك، أو أديب أمير، ليظهر منه عبقرية جديدة في التاريخ؛ ولا عرف الحب الذي يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفس التاريخية والملكية معاً ويزيد عليهما؛ وهذه الثلاثة التي لم تنفك لحافظ، هي التي لا ينبغ الشاعر نبوغاً يفردّه ويميزه إلا بواحد منها أو بثنين أو بها كلها؛ غير أن (حافظ) وجد في الإمام ما هو أسمى من كل هؤلاء في النفس والجادبية، وعرف فيه من ذوق الأدب والبلاغة ما لم يعرف شاعر في ملك ولا أمير؛ وقد حضر درسه في المنطق وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وخرج منها بذوقه الدقيق وأسلوبه المتمكن، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية وأغراضه الوثابة، وحضر نظرات عينيه وخرج منها بروحانية قوية هي التي تنصرم في شعره إلى الأبد؛ فحافظ إحدى حسنات الشيخ على العالم العربي، وهو خطة من خطته في عمله للإصلاح الشرقي الإسلامي والنهضة المضريّة الوطنيّة وإحياء العربيّة وآدابها؛ وإذا ذكرت حسنات الشيخ أو عدت للتاريخ، وجب أن يقال: أصلح وفعل وفعل وفسر القرآن وأنشأ حافظ إبراهيم...

ومضى شاعرنا موجهاً بفكرة الإمام وروحه، واستمر في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر إذا احترق مجراه: لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري إلى مقاره^(١).

وكان حافظ في بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا، وهو مثله إبطاء في عمل الشعر، وتلوماً على حوكه^(٢)، وأنفراداً بكل لفظة منه، وتقليباً

(٢) حوكه: صياغته.

(١) مقاره: حيث يصل إلى نهاية رحلته.

لِلنَظَرِ فِيمَا بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَةِ، وَاعْتِبَارِ كُلِّ بَيْتٍ كَالْعُرُوسِ: لَهَا مَغْرَضٌ وَجَلِيلَةٌ وَزِينَةٌ؛ فَإِذَا عَمَلَ شِعْرًا أَنْبَتَتْ خَوَاطِرُهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَذَهَبَ وَرَاءَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، وَتَرَكَ هَاجِسَهُ (العقل الباطن) يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِيمَا أَلْتَوَى عَلَيْهِ أَوْ اسْتَصْعَبَ، وَهُوَ وَائِقٌ أَنَّهُ سَيَنْقَادُ وَيَتَسَهَّلُ بِقُوَّةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ الْآنَ فَسَتَكُونُ فِيهِ؛ ثُمَّ يَنْظُمُ مَا يَتَسَمَّحُ إِنْ جَاءَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْقَصِيدَةِ أَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَلَا يَتَّبِعُ فِيهَا نَسْقًا بِعَيْنِهِ، وَإِنَّمَا الْقَصِيدَةُ عِنْدَهُ كُلُّ سَيَجْتَمِعُ مِنْ بَعْدِ، تَهَيُّأً أَجْزَاؤُهُ مُتَّسِقَةً وَمُبَعَثَةً كَمَا يَجِيءُ بِهَا الْإِلَهَامُ وَأَسْبَابُ الْأَتْفَاقِ؛ فَالْقَصِيدَةُ أَوَّلًا فِي أَيْبَاتِهَا، ثُمَّ تَكُونُ أَيْبَاتُهَا فِيهَا، أَيْ ثُمَّ تَرْتَّبُ الْأَيْبَاتُ وَتُنَزَّلُ فِي مَنَازِلِهَا، وَلَا يَنْظُمُ إِلَّا مَتَغْنِيًا، يَرُوضُ^(١) الشَّعْرَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَفَتَّحُ لِلْمَوْسِقَى فَتَسْمَحُ وَتَتَقَادُ، وَهُوَ يَتَّبِعُ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةً مَعْرُوفَةً ذَكَرَهَا أَبُو حَجَّةٍ الْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ «خَزَانَةُ الْأَدَبِ»، وَهِيَ مِنْ وَصِيَّةِ أَبِي تَمَامِ الْبَحْتَرِيِّ، وَكَانَ الْمَتَنِبِيُّ يَعْمَلُ عَلَيْهَا؛ وَبِالْجَمَلَةِ فَإِنَّ (حَافِظَ) يَرْتَهِنُ فِكْرُهُ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي يَنْظُمُهَا وَيَتَوَقَّرُ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا، لَا كَمَا يَفْرُغُ الشَّاعِرُ لِلشَّعْرِ، وَلَكِنْ كَمَا يَتَوَقَّرُ الْمَوْلُفُ الْعَظِيمُ عَلَى كِتَابٍ يُؤَلِّفُهُ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُبْطِئُ فِي نَثْرِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُبْطِئُ فِي الشَّعْرِ، دَلَّنِي بِنَفْسِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَلَى صَفْحَةٍ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ تَرْجُمَةِ الْبُؤْسَاءِ، وَقَالَ: إِنَّهُ تَرَجَمَهَا بِخَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا.

وَحَضَرَتْهُ مَرَّةً يُتَرَجَّمُ أَسْطَرًا مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ (فِي قَهْوَةِ الشَّيْثَةِ) يَخْطُهَا فِي دَفْتَرٍ صَغِيرٍ دُونَ حَجْمِ الْكَفِّ، فَاجْتَمَعَتْ لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْطَرٍ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، وَهَذَا لَا يَعْيبُهُ مَا دَامَ يُرِيدُ قِسْطَ أَلْفَنْ، وَمَا دَامَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلِمَاتِ مِنْ عَالِمِهَا إِلَى عَالِمِهِ هُوَ الْمَتَمَوِّجُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ بِمِثْلِ الْكَوَكِبِ فِي الْأَسْتَوَاءِ وَالْجَاذِبِيَّةِ وَالشَّعَاعِ وَالرُّونَقِ وَالْجَمَالِ.

وَيَرَى مَعَ الصَّنَاعَةِ أَنْ يَكُونَ سَبْكُ شِعْرِهِ سَبْكَ الْبَدَوِيِّ الْمَطْبُوعِ: جَزَلًا سَهْلًا مُشْرِقًا مُمْتَلِئًا مُتَعَادِلَ الْأَجْزَاءِ وَالْتِقَاسِيمِ، يَرِنُ رَنِينًا كَأَنَّمَا قَذَفَتْ بِهِ سَلِيقَةُ أَعْرَابِيٍّ فَصِيحٍ، تَحْتَ ضَوْءِ كَوَاكِبِ الْبَادِيَةِ، عَلَى بَرْدِ الرَّمْلِ، فِي نَسَمَاتِ اللَّيْلِ، حِينَ تَمْتَلِيءُ تِلْكَ النَّفْسُ الْبَدَوِيَّةُ بِحَنِينِ الْحُبِّ، أَوْ شَوْقِ الْجَمَالِ، أَوْ عَظَمَةِ الْقُوَّةِ؛ وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي اتَّبَعَهُ، وَقَفَنِي عَلَيْهِ هُوَ بِنَفْسِهِ فِي سَنَةِ ١٩٠٢، وَقَرَّظَنِي بِهِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيَوَانِي فَقَالَ:

أَنْتَ وَاللَّهِ كَاتِبٌ حَضَرِيٌّ إِنْ عَدَدْنَاكَ شَاعِرًا بَدَوِيًّا

(١) يَرُوضُ: يَجْعَلُهُ سَهْلًا لَيِّنًا.

ولو أنَّكَ أجريْتَ شعراً حافِظاً في أبلغ ما قاله المَطبوعونَ مِنَ الأعرابِ وشعراءِ القرنِ الأولِ، ألتأمَ بِهِ وزادَ عليه في الصناعتِ وبعضِ المعنى؛ وقلَّ أنْ تجدَ في شعرِهِ كلمةٌ يَنبُو بها مكانُها، إلَّا ألفاظاً قليلةً كانَ يستكرِّهُها، يحسبُ أنَّه يستطِرفُ منها ويرى في غرابيتها شيئاً جديداً؛ وهذا من خطأ رأيهِ في الأسلوبِ لأنَّه معَ بلاغتهِ كانَ ينقصُهُ أنْ يكونَ فيلسوفاً في البلاغة، وأنا أرى أنَّه لو تَمَّتْ لَهُ الموهبةُ الفِلسفِيَّةُ لَمَّا جاراهُ شاعرٌ آخر، ولكنَّ الكمالَ عزيزٌ^(١) في البشريَّة؛ وقد عرفتُ رأيَهُ في الأسلوبِ في سنة ١٩٠٦، إذ نشرتُ لَهُ مجلَّةَ الأقلامِ التي كانَ يُصدرُها صاحبُنا الأديبُ جورج طنوس كلماتٍ كانَ يُريدُ أنْ يَضمُنَها كتابَهُ (ليالي سطيح)، أظهرَ فيها رأيَهُ في الشعراء، فقال في إسماعيل صبري: يقولُ الشعرَ لِنفسِهِ لا لِلناسِ. وفي شوقي: أرقُّ الشعراء، طبعاً وأسماهم خيلاً وفي مطران: أسرعُهُم بديهةً وأقدرُهُم ابتكاراً. وقال في - ولم يكن مضي عليَّ إلا ستُّ سنينَ في طلبِ الأدبِ - مِكنارَ راقِي الخيالِ بعيدَ الشوْطِ في ميادينِ الأدبِ، غيرُ ناضجِ الأسلوبِ. فلَمَّا اجتمعْتُ بِهِ فاتحتُهُ في ذلك وسألتُهُ رأيَهُ في الأسلوبِ الناضجِ، فلمْ أَرِ عندهُ طائلاً، وكلُّ ما قالَهُ في ذلك: أنَّ الشَيْخَ عبدَ القاهرِ الجرجانيَّ قرَّرَ أنَّ البلاغةَ ليستُ في اللفظِ ولا في المعنى، ولكنَّها في الأسلوبِ. وعبدُ القاهرِ لم يقلْ هذا ولا قالَهُ غيره، فإنَّ الأسلوبَ عندهُ «طريقةٌ مخصوصةٌ في نسقِ الألفاظِ بعضها على بعضٍ لِترتيبِ المعاني في النفسِ وتنزيلِها»، و«أنَّ المَنزِلَةَ من حَيَزِ المعاني دونَ الألفاظِ، وأنَّها ليستُ لك حيثُ تسمعُ بأذنِكَ، بل حيثُ تنظرُ بقلبك وتستعينُ بِفكرِكَ».

وقد قرَّرتُ لَهُ أنَّ لِلألفاظِ ما يُشبهُ الألوانَ، فليستْ كُلُّها زرقاءَ ولا صفراءَ ولا حمراءَ، ورُبُّ لفظَةٍ رقيقةٍ تقعُ ضعيفةً في موضعٍ فيكونُ ضَعْفُها في موضعِها ذاكُ هو كُلُّ بلاغتها وقوتُها، كفترةِ السكوتِ بين أنغامِ الموسيقى: هي في نفسها صَمْتُ لا قيمةَ لَهُ؛ ولكنَّها في موضعِها بينَ الأنغامِ نغمٌ آخرٌ ذو تأثيرٍ يسكونِهِ لا يَرنينه؛ وهذا من روحِ الفنِّ في الأسلوبِ.

وأدركَ شاعرُنا من يومئذٍ ما سميَّتُهُ «قوَّةُ الضعفِ»، ولعلَّ هذا هو السببُ في أنَّ طبعَهُ رجَعَ يعدلُ بِهِ إلى التسهيلِ، حتَّى إنَّه لَتَقَعُ في شعرِهِ أبياتٌ مُتهافتةٌ فيأتي بها ولا يُنكرُها؛ ولقيني مرةً فأنشدني قولَ الشاعر:

أنا لم أرزقُ محبتَها إنما لعبدٍ ما رزقا

(١) عزيز: نادر صعب المنال.

وجعلَ يُعْجِبُنِي من بلاغةِ قوله (لم أرزق) وأنها مع ذلك ضعيفةٌ مُبْتَذَلَةٌ تجري في منطقي كلِّ عامي، قلت: ولكنَّ (محبَّتها) جعلتها كمحبَّتها...

وضعفَ الموهبةُ الفلسفيَّةُ في حافظٍ عَوْضَهُ ناحيةٌ أخرى من أقوى القوَّةِ في الشعر، وهي اهتداؤه إلى حقيقة الغرض الذي ينظم فيه، وتركه الحواشي والزيادات، وأنصرف قواه إلى دقَّة الوصف حين يصف، وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكره؛ فزاد ذلك في روني شعره ومائه، ونحا به منحى المطبوعين، فخرج يتدفق سلاسةً وحلاوةً، مُمْتَلِئاً من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوَّة التأثير؛ وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً أنفرد به، حتى لأحسب أن هناك روحاً يُمِدُّه في هذه المواقف، وأنَّ الحقيقةَ تبرَّج^(١) له في هذه العظائم خاصةً ليرى منها ما لا يراه غيره؛ وهو يتَّجِدُ بالعظيم الذي يرثيه فيجيدُ فيمنَّ يعرفه إجادَةً منقطعةً النظير، تتبيَّن الفرق بينها وبين شعره فيمنَّ لا يعرفه تلك المعرفة؛ وأحسبه يسأل روحَ العظيم الذي يصفه أو يرثيه: أين المعنى الذي فيه حقيقتك؟ وأين الحقيقةُ التي فيها معنأك؟

والفلسفةُ الشعريةُ كلها أن يحلَّ في الشاعر المُلهَم ذلك السرُّ الجميلُ الجاذبُ والمُنْجذبُ معاً، المستقرُّ والمتحوِّلُ جميعاً، الباطنُ والظاهرُ في وقت؛ فيكتبه الشاعر ما لا يدرُّه غيره، فيقفُ على الجمالِ والحسنِ والركة، ويلهمُ الحكمةَ والبصيرةَ، ويتناولُ الأغراضَ بالتحليلِ والتركيبِ، ويؤتَى التعبيرَ عن كلِّ ذلك في طريقةٍ خاصَّةٍ به هي أسلوبه، وهذا لم يتَّفَقْ على اتِّمِّه وأحسبه في حافظ، فقصرَ به في توليدِ المعاني المبتكرة، ونزلَ به في الغزلِ ووصفِ الجمالِ؛ بيدَ أنَّه اتَّفَقَ له مثلُ هذا الجلالِ بعينه في (الجانبِ المتألم من شعره)، أي الرثاء والشكوى ووصفُ الفجعية؛ ولو ذهبت تستعرضُ المراثيَ في الشعرِ العربي، ومثلتَ بينها وبين رثاء حافظٍ للعظماء الذين خالطهم، كأستاذِ الإمام، وألبارودي، ومصطفى كامل، وثروت، لَرَاعَكَ^(٢) أنك واجدٌ للشعراء ما هو أسمى من معانيه وأقوى من خياله، ولكِنَّكَ لا تجدُ البتَّةَ ما هو أفخرُ وأدقُّ ممَّا جاء به في هذا الباب، كأنه منفردٌ في العربية بهذه الخاصة.

(٢) لراعك: لأدهشك.

(١) تبرَّج: تزيَّن.

وهذا المعري يقول:

وَلَوْ لَا قَوْلُكَ الْخَلَّاقُ رَبِّي لَكَانَ لَنَا بِطَلْعَتِكَ أَفْتَتَانُ

ويقول في شعر آخر:

أُسْهَبَ فِي وَصْفِهِ عِلَاكَ لَنَا حَتَّى خَشِينَا أَلْنَفُوسَ تَعْبُدُهَا

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قِسْتُهُمَا بقول حافظ في رثاء الشيخ محمد

عبده:

فَلَا تَتَّصِبُوا لِلنَّاسِ تِمَثَالُ (عبده) وَإِنْ كَانَ ذِكْرِي حِكْمَةً وَثَبَاتٍ

فَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ يَضْلُوا فَيُؤْمِثُوا إِلَى نَوْرِ هَذَا الْوَجْهِ بِالسَّجْدَاتِ

مع أن معنى حافظ مأخوذ منهما، ولكن أنظر كيف جاء به؟ ويقول المعري في رثاء أبيه

وَلَوْ حَفَرُوا فِي دُرَّةٍ مَا رَضِيَتْهَا لِجِسْمِكَ إِبْقَاءَ عَلَيْكَ مِنَ الدَّفْنِ

ويقول في رثاء غيره:

وَإِخْبُؤَاهُ الْأَكْفَانُ مِنْ وَرَقِ الْمَصِّ حَفِ كَبْرًا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَارِ

وهذان أيضاً كالصعاليك عند قول حافظ في البارودي:

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْ دَعَوْهُ جَوْفَ لَوْلُؤَةٍ مِنْ كَنْزِ حِكْمَتِهِ لَا جَوْفَ اخْدُودِ

وَكَفَّنُوهُ بِدَرْجٍ مِنْ صَحِيفَتِهِ أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَمِيصِ الصَّبْحِ مَقْدُودِ

مع أن (حافظ) ألم بقول المعري. ومن بديع ما اتَّفَقَ لَهُ فِي قَصِيدَةِ (الأمثانِ تتصافحان) قوله يصف السورين:

رَادُوا^(١) الْمَنَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا إِلَى الْمَجْرَةِ رُكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا

أَوْ قِيلَ فِي الشَّمْسِ لِلرَّاجِينَ مُتَجِّعٍ مَدُّوا لَهَا سَبَبًا فِي الْجَوِّ وَأَنْتَدَبُوا

فاقرأ هذين واقراً بعدهما قول المتنبي في سيف الدولة:

وَصُورٌ إِلَى الْمُسْتَضْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَأُورِدَا

فإنك تجد بيت المتنبي صعلوكاً على بيتي حافظ، مع أنه المبتدع السابق.

وأعجب ما عَجِبْتُ لَهُ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شَعْرِ صَاحِبِنَا فِي مَقْطُوعَةٍ يُخَاطَبُ

(١) رادوا: سلکوا.

بها الأمريكان، نشرها في المقطم من ثلاث سنوات أو نحوها، قال:
 وَتَحَذُّثُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيداً حين خِلْتُمْ أَنَّ الْبُرُوقَ كُسَالِي
 وَاتَّفَقَ يَوْمئِذٍ أَنْ كُنْتُ جَالِساً فِي زِيَارَةِ الصَّدِيقِ الْأَسْتَاذِ فُوَادٍ صُرُوفٍ مُحَرِّ
 الْمُقْتَطَفِ، فجاء حافظ، فلم يكذِّ يَصَافِيحُنِي حتى قال: كيف ترى هذا البيت:
 وَتَحَذُّثُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيداً... إلخ؟ فاثبتت عليه الذي يهوى، وهنأته بهذا المعنى،
 وأظهرت له ما شاء من الإعجاب، ولكني أضمرت عجبتي من حسن ما اتَّفَقَ له فإنَّ
 الجمال الشعري في البيت إنما هو في استعارة الكسل للبروق، وهذا بعينه من قول
 ابن نباتة السعدي في سيف الدولة.

وما تمهل يوماً في ندى وردى^(١) إلا قضيتُ لِلْمَحِ الْبَرْقِ بِالْكَسَلِ
 غير أنَّ (حافظ) نقل المعنى إلى حقه، ومكَّن له أحسن تمكين في صدر
 كلامه، وأتمَّ جماله في قوله (حين خِلْتُمْ)، فأقطع المعنى وأنفرد به، وعاد معنى
 السعدي كالمعلوك على باب بيته؛ وكانت هذه المُقَابَلَةُ في المُقْتَطَفِ آخر عهدي
 بحافظ، فلم أره من بعدها؛ رحمه الله!

وما مرَّ بكِ إنما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الأول من ديوانه بعد أن
 استفحل وتخرَّج في مدرسة الإمام، أمَّا في الجزء الأول فله هو صعاك... كقوله
 في الخمر:

خَمْرَةٌ قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا من خدود الملاح في يوم غرس
 فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم:
 مُشْعَشَعَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبِيٍّ كَأَنَّمَا تَنَاولَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا
 وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام من لم ينضج في البيان ولا
 الذوق، لا يكاد يتوهم معه إلا أنَّ في خدود الملاح (خراجات) عُصرت...
 وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خدِّه)، فهي كلمة أكثر نعمة من
 ذلك الخدِّ وأجمل نضرة:

وقول حافظ في مدح الخديو:
 يَا مَنْ تَنَافَسَ فِي أوصافه كَلَمَى تَنَافَسَ الْعَرَبُ الْأَمْجَادِ فِي النَّسَبِ

(١) ردى: موت.

فهو صعلوك على بيت أبي تمام:

تَغَايَرَ الشَّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهَرْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيَهُ سَتَقَتَّيْلُ
ولا نُطِيلُ الْأَسْتِقْصَاءَ، فَإِنَّمَا تُرِيدُ التَّمثِيلَ حَسْبُ.

وكانَ الشَّاعِرُ أَوَّلَ نَشْأَتِهِ يَأْخُذُ فِي طَرِيقَةِ الْمَعْرِيِّ الَّذِي عَمِيَ عَنِ الطَّبِيعَةِ
فَجَعَلَ يَخْلُقُهَا مِنْ فِكْرِهِ وَمَحْفُوظِهِ بِمُبَالَغَاتٍ كَاذِبَةٍ يُغْرِقُ فِيهَا يَحْسِبُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَعْظُمُ
الْحَقَائِقَ فَتَخْرُجُ لَهُ الْأَخِيلَةُ الْكَبِيرَةُ، وَمَا يَدْرِي أَنَّهُ بِهَذَا الْغُلُوِّ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالْأَبَاطِيلِ
الْكَبِيرَةِ. . . وَلَكِنَّ حَافِظَ فِي مَزَاجِهِ وَتَرْكِيبِهِ وَنَشْأَتِهِ كَانَ رَجُلًا مَبْنِيًّا عَلَى الْوُضُوحِ
وَالْقَصْدِ. فَلَمْ يُفْلِحْ فِي طَرِيقَةِ الْمَعْرِيِّ؛ وَوُضُوحُهُ كَذَلِكَ بَاعَدَهُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ
وَابْتِهَامِهَا، وَمِنَ الطَّبِيعَةِ وَالْغَايِهَا، وَمِنَ الْغَزَلِ وَوَسَاوِسِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَدَاهُ إِلَى
الشَّغْفِ بِالْحَقِيقَةِ وَأَسْتَخْلَاصِهَا فِي كُلِّ أَغْرَاضٍ أَلْتَمَسَهَا فِيهَا؛ وَمِنْ ثَمَّ خَلَا شَعْرُهُ
أَوْ كَأَنَّهُ خَلَا. . . . مِنْ أَوْصَافِ الطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا بُلْغَةَ الْفِكْرَةِ الْمَتَامِلِ، وَمِنْ
أَوْصَافِ الْجَمَالِ فِي سِحْرِهِ بُلْغَةَ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ.

وَأَنْتِ فَلَا تَحْسَبَنَّ الشَّاعِرَ يُجِيدُ فِي الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ يُحَسِّنُ الصَّنْعَةَ
وَيُجِيدُ الْأَسْلُوبَ، فَيَكُونُ غَرَضٌ مِنَ الشَّعْرِ سَبِيلًا إِلَى غَرَضٍ، وَفَنٌّ عَوْنًا عَلَى فَنٍّ،
وَتَكُونُ رَقَّةُ الْأَلْفَاظِ وَهَلْهَلَةٌ^(١) النَّسِجِ، وَقَلْبِي، وَكَبْدِي، وَيَا لَيْلَةً وَيَا قَمْرًا، وَيَا
غَزَالًا. . . وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ - غَزَلًا وَنَسِيبًا؛ كَلَّا ثُمَّ كَلَّا، وَالثَّلَاثَةُ كَلَّا أَيْضًا. . .

إِنَّ الْغَزَلَ وَأَوْصَافَ الْجَمَالِ مُوهَبَةٌ فِي الشَّاعِرِ أَوْ الْكَاتِبِ تُسَخَّرُ لَهَا قُوَى هِيَ
أَشْبَهُ فِي مُعْجَزَاتِهَا بِمَا سُخِّرَ لِسَلِيمَانَ مِنْ قُوَى الْجِنِّ وَالرَّيْحِ، غَيْرَ أَنَّهَا قُوَى آلَامٍ
وَلذَاتٍ وَوَسَاوِسٍ؛ تِلْكَ عَظَمَةٌ فِي بَعْضِ الْنَفُوسِ الشَّاعِرَةِ كَعَظَمَةِ الْمُلُوكِ وَالْأَبْطَالِ،
غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَكْمَلُ إِلَّا خَائِبَةً أَوْ مَغْلُوبَةً، فَإِذَا أَنْتَصَرَتْ سَقَطَتْ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَارِيخٍ
وَحَوَادِثٍ وَمِزَاجٍ عَصْبِيٍّ يَهَيِّئُ لَهَا بِرُوحَانِيَّةٍ شَدِيدَةٍ الْجِسِّ شَدِيدَةَ الْفُورَةِ ثَائِرَةً أَبَدًا لَا
تَهْدَأُ إِلَّا عَلَى تَوَلِيدِ مَعْنَى بَدِيعٍ فِي جَمَالٍ مِنْ تَحْبُّهِ أَوْ كَجَمَالِهِ؛ ثُمَّ إِذَا هَدَأَتْ بِذَلِكَ
أَثَارَهَا أَنَّهَا هَدَأَتْ، فَتَعُودُ إِلَى التَّوَلِيدِ، فَلَا تَزَالُ تَبْتَدِعُ وَتُصِفُ كَأَنَّهَا آلَةٌ تَعْبِيرٍ تَدُورُ
بِقَلْبٍ وَعَصَبٍ؛ هُنَاكَ قُوتَانِ: إِحْدَاهُمَا تُؤْتِي الْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ غَرَامًا وَعِشْقًا،
وَالْأُخْرَى فَوْقَ هَذِهِ تُؤْتِي الْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ فِكْرًا وَتَعْبِيرًا؛ وَالْأُولَى تَجْعَلُ صَاحِبَهَا

(١) هليلة: ركافة.

عاشقاً يُحِبُّ ويُدركُ ليس غير، والثانية تجعلهُ مُجِبّاً عملهُ أن ينقلَ من لغةٍ ما في نفسه إلى ما حولهُ، ومن لغةٍ ما حولهُ إلى ما في نفسه؛ فهو مترجمُ النفسِ إلى الطبيعة، ومترجمُ الطبيعة إلى النفس؛ والذي أعرَفُهُ أنَّ (حافظ) لم يُرزقَ لا هذه ولا تلك، فلا طبيعةً فيه للغزلِ وفلسفةَ الجمال؛ ثُمَّ إِنَّ التاريخَ حصرَهُ في (الشاعرِ الاجتماعيِّ) الذي اختارَ أن يمتازَ به، فهو في أكثرِ شعرِهِ كأنَّ ليسَ فيه شخص، بل فيه شعبٌ مأسورٌ غفلَ عن الجمالِ وعن الطبيعة وعن النشوةِ بهما؛ إذ يعيشُ في مُعاناةٍ الحرية لا في التأمُّلِ الجميل، وفي أسبابِ القوة لا في أسبابِ الرقة، ويريدُ أن يعملَ ليُوجدَ حقيقةً قبلَ أن يعملَ ليُدعِ خياله.

ومع ذلك فقد جاء في ديوانِ حافظ غزلٌ قليلٌ كانَ كُلُّهُ متابعةً وتقليداً في فنِّ يحسُنُ التقليدُ إلَّا فيه خاصَّة؛ عملٌ صدرَ لقصيدةٍ مدحَ بها الخديو مطعماً:

كَمْ تَحْتَ أَذْيَالِ الظُّلَامِ مُتَيْمٌ دامي الفؤادِ وليله لا يعلم...
وقلَّدَ ابنَ أبي ربيعة في حكاية حُبٍّ لفقها تلفيقاً ظاهراً، ثُمَّ زعمَ أنَّ الحبيبةَ قالتَ لَهُ في آخرها:

فأذهبْ بِسِحْرِكَ قد عرفتُكَ وأقتصد
وكلمة صاحبةِ ابنِ أبي ربيعة:

أهَذَا سِحْرُكَ أَلَسُوا نَ قَدْ عَرَفْتَنِي الْخَبِرَا
أهَذَا سِحْرُكَ أَلَسُوا؟ ... هذه كلمة لا تخرجُ إلَّا من فمِ حبيبتِهِ آيةً في الظرف، وفيها تجاهلُها وعِزَّانُها وأبتسامُها وإشراقُ وجنتيها، وأكادُ - وألله - أرى فيها تلكَ الجميلةَ وهي تدقُّ بيدها على صدرها دَقَّةً أَلَسْتُ فَهَامَ أَلَسْتُ دَلِّلَ أَلَسْتُ ظَاهِرٍ بِالْدهشةِ لَيْتَنَهْدَ فِيهِ الْكَلَامُ أَلَسْتُ كَلَّمْ مَعَا، أَمَا قَوْلُ حَبِيبَةِ حَافِظِ الْخَشْبِيَّةِ، أَوِ الْحَجَرِيَّةِ ... أَذْهَبَ ... قَدْ عَرَفْتُكَ أَوَقْتَصَد ... فَهَذَا خَلِيقٌ أَنَّ يَكُونُ مِنْ فَمِ قَاضٍ وَهُوَ يَنْصَحُ أَلَسْتُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِفْرَاجِ عَنْهُ ... أَوْ مَأْمُورٍ قَسَمٍ عِنْدَ ضَبْطِ الْحَادِثَةِ!

أكبرُ ظنِّي أنَّ روحَ حافظٍ نفسه هي التي أَوْحَتْ إِلَيَّ أَلَاَّ هَذِهِ (النكتة)، فَإِنَّهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ آيَةً فِي الْبَابِ، وَلَهُ مِنْ أَلْوَادٍ مُحْفُوظَةٍ وَمَخْتَرَعَةٍ مَا لَا يُلْحَقُ فِيهِ؛ وَلَوْ كَانَ كَاتِباً عَلَى قَدَرٍ مَا كَانَ شَاعِراً، وَزَاوَلَ النِّقْدَ وَأَسْتَظْهَرَ لِلْكِتَابَةِ فِيهِ بَتْلَكَ أَلَمَلَكَةِ الْمُبْدَعَةِ فِي التَّنْدِيرِ أَلَتَهَكَّمْ، مَعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْقُوَّةِ فِي أَلَلِّغَةِ أَلَبَيَانِ - لَكَانَتْ

النعمة قد تمت به على الأدب العربي، ولقلنا في شعره وكتابتيه وأدبه ما قال هو في الأستاذ الإمام، فأطلعت نوراً من ثلاث جهات.

وما دُمنّا قد ذكرنا النقدَ فمنَ الكوفاءِ للتاريخِ الأدبيّ أن نذكرَ مذهبَ شاعرنا فيه: فلم يكن عنده منه إلا ذوقُ الكلام، وإدراكُ الثَّغَرِ والنُّبُوّةِ في الحرف، والغِلْطُ والجَسَأةُ^(١) في اللفظ، والضعفُ والتهافتُ في التركيب، ثم ما يجيشُ في الخاطرِ أو يتلجّجُ في الفكرِ من ذوقِ المعنى وإدراكِ كُنْهِهِ والنفاذِ إلى آثارِ النفسِ الحيّةِ فيه؛ فكانَ النقدُ هو الحِسُّ بالكلام كما تلمسُ الحارَّ والباردَ وما بينهما؛ ووصفَ لي مرةً إسماعيل صبري باشا وأرادَ أن يُبالغَ في دِقَّةِ تمييزهِ وحُسنِ بصرهِ بالشعرِ وإدراكِهِ دقائقَ المعاني، فقال: «ذَوّاقُ يا مصطفى» ولم يزد.

ومذهبُ الحِسِّ بالكلامِ هذا وإن صلُحَ أن يكونَ من بعضِ معاني النقد، فلا يتهيأُ أن يكونَ هو النقدُ بِمعْنَاهُ الفِلَسْفِيّ أو الأدبيّ، وهو في جملةِ أمرِهِ كقولِكَ حسنٌ حسن؛ ورديّ رديّ، أمّا كيف كانَ حسناً أو رديئاً، وبماذا ولماذا، فذلك ما لا سبيلَ إليه من مذهب (ذَوّاق)... ولا وسيلةَ لَهُ إلا العِلْمُ المستفيضُ، والأطلاعُ الواسعُ، والحِسُّ المُرْهَفُ، والقُدْرَةُ المتمكّنة، مُضافةٌ كُلُّهَا إلى الأدبِ البارعِ وفلسفَتِهِ الدقيقة؛ ولا نعرفُ لحافظِ كتابةٍ في النقدِ ألبتة، وقد كانَ حاولَ شيئاً من هذا في مقدمة كتابِهِ (ليالي سطيح)، فتناولَ بعضَ خصومِهِ بكلماتٍ رأى هو أنْ يمحّوها بعدَ أن طُبِعَت الكراسةُ الأولى، فأسقطَها وأعادَ كتابةَ المقدمةِ وطبعَها مرةً ثانية، وكانتْ عندي النسخةُ التي محاها، وهذا ما لا أظنُّ أحداً يعرفُهُ الآن؛ رحمَ اللهَ شاعراً كانَ أصفى مِنَ الغمامِ، وكانَ شعرُهُ كأَنَّهُ البرقُ والرعد... .

(١) الجسأة: القسوة والغلظ.

كلمات عن حافظ

ذهبتُ بقلبي إلى كلِّ مكانٍ فوجدتُ أمكنةَ الأشياءِ ولم أجد مكانَ قلبي؛ أيُّها
القلبُ المسكينُ، أين أذهبُ بك؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألتني مرةً: مالك لا ترضى ولا تهتدأ ولا
تستقر؟ وكان يُخيلُ إليَّ أنه هو راضٍ مستقرٌّ هادئٌ، كأنما قضى مِنَ الحياةِ نَهْمَتَهُ^(١)
ولم يبقَ في نفسه ما تقولُ نفسه ليت ذلك لي! . وكنتُ أعجبُ لهذا الخلقِ فيه ولا
أدري ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلِقَ مطبوعاً بطابعِ اليُثم فلم يعرفَ منذُ أدركَ إلا أنه
أَبْنُ الْقَدَرِ: تأتيه الأفراحُ والأحزانُ من يدِ واحدةٍ مُقبَّلةٍ كما تنالُ الصَّبِيَّ الطافُ أبيه
ولطَمَاتُ أبيه . . .

وقد قلتُ له مرةً: كأنك يا حافظُ تنامُ بلا أحلام! فضحك وقال: أو كأنني
أحلمُ بغيرِ نوم . . .

ولقد عرَّفْتُهُ منذُ سنة ١٩٠٠ إلى أن لَحِقَ بربِّه في سنة ١٩٣٢، فما كنتُ أراه
على كلِّ أحواله إلا كاليتيم: محكوماً بروحِ القبرِ، وفي القبرِ أولُهُ؛ ولَمَّا أَرَمَعَ السَفَرُ
إلى اليونانِ قلتُ له: ألا تخشى أن تموتَ هناك فتموتَ يونانياً . . . فقال: أو تراني
لم أمت بعدُ في مصر؟ . . . إنَّ الذي بقيَ هين!

ومن عجائبِ هذا اليتيمِ الحزينِ أنه كانَ قويَّ المَلَكَةِ في فنِّ الضحك، كأنَّ
الْقَدَرَ عَوَّضَهُ بِهِ لِيُوجِدَهُ في الناسِ عطفَ الآباءِ ومحبةَ الإخوة. ولم يخلُ مع فقرِهِ من
ذريعةٍ قويَّةٍ إلى الجاه، ووسيلةٍ مُؤَكَّدَةٍ إلى ما هو خيرٌ مِنَ الغنى؛ فكانتُ أسبابُهُ إلى
الاستاذِ الإمامِ الشيخِ محمدِ عبده، ثُمَّ جَسَمَتِ باشا، ثُمَّ سعدُ باشا زغلول؛ وهذا
نِظامٌ عجيبٌ في زمنِ (حافظ) يُقابلُ الاختلالَ العجيبَ في نفسِ حافظٍ؛ فالرجلُ
كالسفينَةِ المتكفِّتَةِ: تَميلُ بها موجةٌ وتعدِّلُها موجةٌ، وهي بهذه وبهذه تمرُّ وتسير .

(١) نهمته: جوعه .

وأولئك الرؤساء العظماء الذين جعلهم القدر نظاماً في زمنٍ حافظ، كانوا من أفقر الناس إلى ألفكاهة والنادرة، فكان لهم كأثروة في هذا الباب، ووقع إصلاحاً في عيشتهم وكانوا إصلاحاً في عيشه؛ ولو أن الأقدار تشبّه بالمدارس المختلفة، لقُلنا إنَّ (حافظ) تخرّج منها في مدرسة التجارة العليا... فهو كان أبرع من يتاجر بالنادرة.

وهذه النوادر كأنها هي أيضاً صنعت (حافظ) في شكل نادرة؛ فكان فقيراً، ومع هذا كان للمال عنده مُتَمِّم، هو إنفاقه وإخراجُه من يده؛ وكان يتيماً، ولكنّه دائماً مُتَوَدِّد؛ وكان حزيناً، ولكنّه أنيس الطَّلعة؛ وكان بائساً، ولكنّه سليم الصدر، وكان في ضيق، ولكنّه واسع الخلق؛ وتماهى النادرة^(١) فيه أنّه كان طوال عمره مُتَبَسِّطاً مهترأً كأنّ له زمناً وحده غير زمن الناس، فتراكم عليه الهموم وهو مُسْتَنِيمٌ إلى الراحة، ويعتريه من الجوع مثل مكسلة الشَّبع ويُسْتَرْسَلُ إلى البَطَالَةِ وكأنّه مُشْمَرٌ للجِد، ويستمكن الحزن منه في ساعة فيتهدّد حزنه بالساعة التالية...

رأيتُه في أحد أيام بُؤْسِهِ الأولى قبل أن يتصل عيشه، وكان يعدّ قروشاً في يده، فقلت: ما هذه القروش؟

قال: كنتُ أقامِرُ الساعة فأضعتُ ثلاثين قرشاً ولم يبقَ لي غيرُ هذه القروش الملعونة، فهلُمّ نتعش. ودخلَ إلى مطعم كان وراء حديقة الأزيكّة، فزَعَمْتُ لَهُ أَنِّي تعشيت... فأكل هو ودفع ثمنَ طعامِهِ ثلاثة قروش؛ وكنتُ أطلِّعُ في وجهِهِ وهو يأكل، فما أتذكُّرُهُ الآنَ إلّا كما طالعتُهُ بعدَ عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللّواء وقد فاضت أناملُهُ ذهباً وفضّة، وكان - رَحِمَهُ اللهُ - قد أصدرَ الجزءَ الثاني من (البؤساء) ورآني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأتُ معه الكتابَ كُلَّهُ فيما بين الظهر والمغرب؛ وركبنا في الأصيلِ عربةً وخرَجنا ننتزّه، أي خرجنا نقرأ...

وكانَ على وجهِ (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغيّرُ في بُؤْسٍ ولا نعيم، كبياضِ الأبيض وسوادِ الأسود؛ وهذا من عجائب الرجل الذي كان في ذاتِ نفسه فتناً من الفوضى الإنسانية، حتّى لكانه حُلُمٌ شعريٌّ بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لِتَتَمَّمَهُ الطَّبيعة! ومنَ نظرَ إلى (حافظ) على اعتبارٍ أنّه فنٌّ من الفوضى الإنسانية رآه جميلاً

(١) النادرة: النكتة.

جمالَ الأشياءِ الطَّبِيعِيَّةِ لا جمالَ النَّاسِ؛ ففيهِ مِنَ الصَّحراءِ وَالْجبالِ وَالصَّخُورِ
وَالْغِياضِ وَالْبَرَقِ وَالرَّعْدِ وَأَشْبَاهِهَا؛ وَكُنْتُ أَنَا أَرَاهُ بِهَذِهِ الْعَيْنِ فَاسْتَجْمَلُهُ، وَيَبْدُو لِي
جَزْلاً مُطْهِماً، وَأَرَى فِي شَكْلِهِ هِنْدَسَةً كَهِنْدَسَةِ الْكَوْنِ؛ تُتِمُّ مَحاسِنُهَا بِمَقَابِحِهَا وَكَمْ
قُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ يَا حَافِظُ أَجْمَلُ مِنَ الْقَفَرِ...

أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ دَمِيماً شَنِيعَ الْمَرْأَةِ مَتَّفَاوَتْ الْخَلْقِ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مَغْلُوطٌ
فِي تَرْكِيبِهِ...

وَقَدْ سَأَلْتُهُ مَرَّةً: هَلْ أَحَبَّ؟

فَقَالَ: أَلْنِسَاءُ أَتُنْتَانِ: فَإِمَّا جَمِيلَةٌ تَنْفُرُ مِنْ قُبْحِي، وَإِمَّا دَمِيمَةٌ أَنْفُرُ مِنْ قَبْحِهَا!
وَلِهَذَا لَمْ يُفْلَحْ فِي الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ، وَلَمْ يُحْسِنْ مِنْ هَذَا أَلْبَابٍ شَيْئاً يُسَمَّى شَيْئاً؛
وَبَقِيَ شَاعِراً غَيْرَ تَامٍ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لِلشَّاعِرِ كَحَوَاءَ لَأَدَمَ: هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تُعْطِيهِ بِحُبِّهَا
عَالِماً جَدِيداً لَمْ يَكُنْ فِيهِ، وَكُلُّ شَرِّهَا أَنَّهَا تَخْطِئُ بِهِ السَّمَوَاتِ نَازِلاً...

وَتَهَدَّمَ حَافِظٌ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ مِنْ أَثَرِ الْمَرَضِ وَالشَّيْخُوخَةِ، وَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ
أَنْ جَاءَ إِلَى إِدَارَةِ (الْمَقْتَطَفِ) وَأَنَا هُنَاكَ، فَلَمْ يَرِنِي حَتَّى بَادَرَنِي بِقَوْلِهِ: مَاذَا تَرَى فِي
هَذَا الْبَيْتِ فِي وَصْفِ الْأَمْرِيكَانِ:

وَتَّخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيداً حِينَ خِلْتُمْ أَنَّ الْبُرُوقَ كُسَالَى
فَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْمَعْرُوقِ الْمَتَغَضِّينِ وَقُلْتُ لَهُ: لَوْ كَانَ فِيكَ مَوْضِعُ قُبْلَةٍ
لَقَبْلْتُكَ لِهَذَا الْبَيْتِ! فَضَحَكَ وَأَدَارَ لِي خَدَّهُ؛ وَلَكِنْ بَقِيَ خَدُّهُ بِلَا تَقْيِيلٍ.

وَشَهْرَةٌ هَذَا الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ بَنَوَادِرُهُ وَمَحْفُوظَاتِهِ مِنْ هَذَا أَلْفَنْ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ؛
وَكَانَ يَتَقَصَّصُ النُّوَادِرَ وَالْفُكَاهَاتِ وَمُطَارَحَاتِ السَّمَرِ مِنْ مَظَانِّهَا^(١) فِي الْكِتَابِ
وَرِجَالِ الْأَدَبِ وَأَهْلِ الْمُجُونِ، فَإِذَا قَصَّهَا عَلَى مَنْ يُجَالِسُهُ زَادَ فِي أَسْلُوبِهَا أَسْلُوبُهُ
هُوَ، وَجَعَلَ يُقْلِبُهَا وَيَتَصَرَّفُ فِيهَا وَيُبَيِّنُ عَنْهَا أَحْسَنَ الْإِنَابَةِ بِمَنْطِقِهِ وَوَجْهِهِ وَنَبْرَاتِ
فِي لِسَانِهِ وَنَبْرَاتِ فِي يَدِهِ.

وَهُوَ أَصَمْعِيُّ هَذَا أَلْبَابِ خَاصَّةً، يَرُوي مِنْهُ رِوَايَةً عَرِيضَةً، فَإِذَا أُسْتَهْلَ سَخَّ^(٢)
بِالنُّوَادِرِ سَخّاً كَأَنَّهَا قِوَا فِي قَصِيدَةٍ تَدْعُو الْوَاحِدَةَ مِنْهَا أَخْتَهَا الَّتِي بَعْدَهَا.

(١) مَظَانِّهَا: أَمَاكِنُهَا.

(٢) سَخَّ: انْهَمَرَ وَسَالَ.

وقد أذكرتني (ألقوافي) مجلساً حضرته قديماً في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠، وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومي، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدي من بسطة ابن الرومي في قوافيه، فقال له (حافظ): هلم نتساجل في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا؛ وكانت الألفية من وزن: قدرها، أحمرها، أخضرها... إلخ، وجعلت أنا أحصي عليهما؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدي يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ، ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير؛ ثم أنقطع أخيراً وبقي حافظ يسرد له من حفظه الغريب.

أما في النوادر فآل عجيبة التي اتفقت له في هذا الباب أنه جاء إلى طنطا في سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم «محمد محب باشا»، وكان داهية ذكياً وظريفاً ليقاً، وكنت أخالطه وأتصل به، فدعا (حافظ) إلى العشاء في داره؛ فلما مدت الأيدي قال ألباشا: لي عليك شرط يا حافظ. قال: وما هو؟ قال: كل لقمة بنادرة! فتهلل حافظ وقال: نعم، لك علي ذلك، ثم أخذ يقص ويأكل، والعشاء حافل، وحافظ كان نهماً، فما أنقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط؛ وهذا لا يمنع أن ألباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك، فيسرع حافظ ويغالط فيه...

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكك من (حافظ) مرة كما أضحكك به؛ فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير - وهي كأعماله الناقصة دائماً - دعوته للقاء (محاضرة) في نادي المدارس العليا، والنادي يومئذ يجمع خير الشباب حمية وعِلماً وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرفاعي؛ فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظماً عن شكسبير، ومثله تمثيلاً أفرغ فيه جهده، فاطرب وأعجب: ثم سأله (المحاضرة) فأخذ يلقي عليهم من نوادره، وبدأ كلامه بهذه النادرة: عرضت على المعتصم جارية يشتريها، فسألها: أنت بكر أم ثيب؟ فقالت: كثرت الفتوح على عهد المعتصم...

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها... وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له: إنك لم تفلح!

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب في تنبه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه إن

أراد أن يكون شاعره، فأقبل على القصائد السياسية التي كسبهم بها من بعد؛ ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة؛ ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا؛ فقد عرّضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها: أنت بكر أم إيش؟ فقالت: أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين...

وفن (الشعر الاجتماعي) الذي عرّف به حافظ، لم يكن فنه من قبل، ولا كان هو قد تنبّه له أو تحراه في طريقته؛ فلما جاءت إلى مضر الإمبراطورة (أو...يني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها:

فأعذرنا على القصور، كلانا غيرته طواريء الحدثان^(١)

ولقيته بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة، وكان بها مدلاً معجباً، شأنه في كل شعره؛ فأنقذت منها أشياء في ألفاظها ومعانيها، وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن تخاطب بها الإمبراطورة؛ فكأنني أغضبته؛ فقال: إن الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين - أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر، وقالوا لي: إذا نظمت فأنظم مثل هذا «الشعر الاجتماعي»، ثم كأنه تنبّه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها، إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح، ولا أثر فيها لهذا الشعر، على أنه هو الشعر.

وتتابع قصائده الاجتماعية، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي: إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر. وأردت أن أغيظه فقلت له: وما هي الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد؟...

فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين: أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذي ذهب إليه حافظ، وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده، من حديثه أو حديث غيره، فيبني عليها أو يدخلها في شعره، وهو أحياناً رديء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً؛ إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطلة، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبها مها وثرثرتها...

(١) الحدثان: المصائب.

وكنْتُ أولَ عهدي بِالشعرِ نَظْمْتُ قصيدةً مدخْتُ فيها الأستاذَ الإمامَ وأنفذْتُها إليه، ثُمَّ قابلْتُ حافظَ بعدها فقالَ لي: إِنَّهُ هو تلاها على الإمام، وإنَّهُ أَسْتَحْسَنَها؛ قُلْتُ: فماذا كانتَ كلمتُهُ فيها؟ قال: إِنَّهُ قال: لا بأسَ بها...

فأضطربَ شيطاني مِنَ الغضب، وَقُلْتُ له: إِنَّ الشَّيْخَ لَيْسَ بِشاعرٍ، فليسَ لِرأْيِهِ في الشعرِ كبيرُ معنى! قال: ويحك! إِنَّ هذا مَبْلَغُ الاستحسانِ عنده.

قُلْتُ: وماذا يقولُ لك أنت حين تُنشده؟ قال: أعلى من ذلك قليلاً... فأرضاني - والله - أن يكونَ بيني وبينَ حافظ (قليل)، وطمعتُ من يومئذٍ.

وأنا أرى أَنَّ (حافظ إبراهيم) إنَّه هو إلَّا ديوانُ (الشَّيْخِ محمد عبده): لولا أَنَّ هذا هذا، لما كان ذلك ذلك.

ومن أثرِ الشَّيْخِ في حافظٍ أَنَّهُ كانَ دائماً في حاجةٍ إلى مَنْ يَسمَعُهُ، فكانَ إذا عملَ أبيتاً رَكِبَ إلى إسماعيل باشا صبري في القصر العيني، وطافَ على القهواتِ والأنديةِ يُسمَعُ النَّاسَ بالقُوَّة... إذ كانتَ أذنُ الإمامِ هيَ التي رَبَّتِ المَلَكَةَ فيه؛ وقد بيَّنا هذا في مقالنا في (المقتطف).

وكانَ تمامُ الشعرِ الحافظي أن يُنشده حافظٌ نفسَه؛ وما سمعتُ في الإنشادِ أعربَ عَربيَّةً مِنَ البارودي، ولا أعذبَ عذوبةً مِنَ الكاظمي، ولا أفخمَ فخامةً من حافظ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعاً -.

وكانَ أديبنا يُجلُّ الباروديَّ إجلالاً عظيماً، ولَمَّا قالَ في مدحِهِ:

فَمُرْ كُلَّ معنَى فارسيٍّ بِطاعتي وكلَّ نَفُورٍ مِنْهُ أنْ يتودَّدا

قُلْتُ لَهُ: ما معنى هذا؟ وكيف يأمرُ الباروديُّ كُلَّ معنَى فارسيٍّ وما هو بِفارسيٍّ؟

قال: إِنَّهُ يَعْرِفُ الفارسيَّةَ، وقد نظمَ فيها، وعندهُ مجموعةٌ جمعَ فيها كُلَّ المَعاني الفارسيَّةِ البديعةِ التي وَقَفَ عليها؛ قُلْتُ: فكانَ ألَوجهُ أنْ تقولَ له: أعزني المِجموعةُ التي عندكَ...

أما الكاظمي فكانَ يُجافيه ويُباعدُهُ، حتَّى قالَ لي مرةً وقد ذَكَرْتُه بِهِ: «عَقَّقْنَاهُ يا مصطفى!».

وما أنسى لا أنسى فَرَخَ حافظٍ حينَ أَعْلَمْتُهُ أَنَّ الكاظميَّ يحفظُ قصيدةً من قصائده، وذلك أَنَّهُمْ في سنة ١٩٠١ - على ما أذكرُ - أعلنوا عن جوائزٍ يمنحونها

مَنْ يُجِيدُ فِي مَدْحِ الْخَدِيوِ، وَجَعَلُوا الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْبَارودِيِّ وَصَبْرِي
وَالْكَاظمِيِّ، ثُمَّ تَخَلَّى الْبَارودِيُّ وَصَبْرِي، وَحَكَمَ الْكَاظمِيُّ وَحْدَهُ، فَنَالَ حَافِظُ
الْمَدَالِيَةِ الذَّهَبِيَّةَ، وَنَالَ مِثْلَهَا أَلْسَيْدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِي.

وَلَمَّا زُرْتُ الْكَاظمِيَّ وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ مُبْتَدَأً فِي الشَّعْرِ وَلَا أَزَالُ فِي الْغَرْزَمَةِ^(١)
قَالَ: لِمَاذَا لَمْ تَدْخُلْ فِي هَذِهِ الْمُبَارَاةِ؟ قُلْتُ: وَأَيْنَ أَنَا مِنْ شَوْقِي وَحَافِظِ وَفَلَانِ
وَفَلَانٍ فَقَالَ: «لِيَهْ تَخَلِّي هِمَّتَكَ ضَعِيفَةً؟» ثُمَّ أَسْمَعَنِي قَصِيدَةَ حَافِظٍ وَكَانَ مُعْجَبًا
بِهَا، فَتَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَى حَافِظٍ، فَكَادَ يَطِيرُ عَنْ كُرْسِيِّهِ فِي الْقَهْوَةِ.

وَكَانَ تَعَنُّتُ حَافِظَ عَلَى الْكَاظمِيَّ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُضَرِّيٍّ، فَفِي سَنَةِ ١٩٠٣ كَانَتْ
تَصْدُرُ فِي الْقَاهِرَةِ مَجْلَةٌ أَسَمَهَا (الشَّريَا)، فَظَهَرَ فِي أَحَدِ أَعْدَادِهَا مَقَالٌ عَنِ الشَّعْرَاءِ
بِهَذَا التَّوْقِيعِ، وَأَنْفَجَرَ هَذَا الْمَقَالُ أَنْفَجَارَ أَكْبَرَكَانَ، وَقَامَ بِهِ الشَّعْرَاءُ وَقَعَدُوا، وَكَانَ لَهُ
فِي الْغَارَةِ عَلَيْهِمْ كَرْفِيفٌ^(٢) الْجَيْشِ وَقَعَقَعَةَ السَّلَاحِ، وَتَنَاولَتْهُ الصُّحُفُ الْيَوْمِيَّةُ،
وَأَسْتَمَرَّتْ رَجْفَتُهُ الْأَدَبِيَّةُ نَحْوَ الشَّهْرِ؛ وَأَنْتَهَى إِلَى الْخَدِيوِ؛ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ
فِي مَجْلِسِهِ، وَاجْتَمَعَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ أَسَاتِذَةِ الْعَصْرِ السُّورِيِّينَ، كَالْعَلَامَةِ سَلِيمَانَ
الْبُسْتَانِي، وَأَدِيبِ عَصْرِهِ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ الْيَازْجِي، وَالْمُؤَرِّخِ الْكَبِيرِ جُورْجِي زِيدَانَ -
إِذْ كَانَ صَاحِبَ الْمَجْلَةِ سُورِيًّا - وَجَعَلُوا يَنْفَذُونَ إِلَى صَاحِبِ الْمَجْلَةِ دَسِيسًا بَعْدَ
دَسِيسٍ^(٣) لِيَعْلَمُوا مِنْ هُوَ كَاتِبُ الْمَقَالِ.

وَشَاعَ يَوْمَئِذٍ أَنِّي أَنَا الْكَاتِبُ لَهُ؛ وَكَانَ الْكَاظمِيُّ عَلَى رَأْسِ الشَّعْرَاءِ فِيهِ؛
فَغَضِبَ حَافِظٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَمَا كَادَ يَرَانِي فِي الْقَاهِرَةِ حَتَّى أَتَدْرَنِي بِقَوْلِهِ:
وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَنْتَ كَاتِبُ الْمَقَالِ، وَذِمَّةُ الْإِسْلَامِ أَنْتَ صَاحِبُهُ!

ثُمَّ دَخَلْنَا إِلَى «قَهْوَةِ الشَّيْشَةِ»، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: إِنَّ الَّذِي يُغَيِّظُنِي أَنْ يَأْتِيَ
كَاتِبُ الْمَقَالِ بِشَاعِرٍ مِنْ غَيْرِ مُضَرٍّ فَيَضَعُهُ عَلَى رُؤُوسِنَا نَحْنُ الْمَصْرِيِّينَ! . فَقُلْتُ:
وَلَعَلَّ هَذَا قَدْ غَاظَكَ بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ أَلَّا يَكُونَ الَّذِي عَلَى رَأْسِكَ هُوَ شَوْقِي . . .

وَغَضِبَ أَلْسَيْدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِيُّ غَضَبًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، فَاسْتَعَانَ بِالْمَرْحُومِ أَلْسَيْدِ
مُصْطَفَى الْمَنْفِلُوطِيِّ اسْتِعَانَةً ذَهَبِيَّةً . . . وَشَمَّرَ الْمَنْفِلُوطِيُّ فَكَتَبَ مَقَالًا فِي (مَجْلَةِ

(١) الغَرْزَمَةُ: المحاولات الأولى في إنشاد الشعر.

(٢) زَفِيفُ الْجَيْشِ: صَوْتُهُ أَثْنَاءَ تَقْدَمِهِ.

(٣) دَسِيسٌ: جَاسُوسٌ.

سرکيس) يُعارضُ بِهِ مقالَ (الثرى)، وجعلَ فِيهِ الْبَكْرِيَّ على رَأْسِ الشُّعراءِ... ومَدَحَهُ مَدْحاً يَرِنُ رَنِيناً.

أَمَّا أَنَا فَنَتَوَلَّى بِمَا اسْتَطَاعَ مِنَ الدَّمِ، وَجَزَدَنِي مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي جَمِيعاً، وَعَذَنِي فِي الشُّعراءِ لِيَقُولَ إِنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ... فَكَانَ هَذَا رَدّاً نَفْسِيهِ عَلَى نَفْسِهِ.

وَتَعَلَّقَ مَقَالُ الْمَنْفَلُوطِيِّ عَلَى الْمَقَالِ الْأَوَّلِ فَاسْتَهَرَّ بِهِ لَا بِالْمَنْفَلُوطِيِّ؛ وَغَضِبَ حَافِظٌ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَاباً يَذْكُرُ فِيهِ تَعَسُّفَ هَذَا الْكَاتِبِ وَتَحَامُلَهُ، وَيَقُولُ: قَدْ وَكَّلْتُ إِلَيْكَ أَمْرَ تَأْدِيبِهِ...

فَكَتَبْتُ مَقَالاً فِي جَرِيدَةِ (المنبر)، وَكَانَ يُصَدِّرُهَا الْأَسْتَاذَانِ مُحَمَّدٌ مَسْعُودٌ وَحَافِظٌ عَوْضٌ، وَوَضَعْتُ كَلِمَةَ الْمَنْفَلُوطِيِّ الَّتِي ذَمَّنِي بِهَا فِي صَدْرِ مَقَالِي أَفَاجِزُ بِهَا... وَقُلْتُ: إِنِّي كَذَلِكَ الْفِيلَسُوفُ الَّذِي أَرَادُوهُ أَنْ يَشْفَعَ إِلَيَّ مَلِكُهُ، فَأَكْبَ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ حَتَّى شَقَّعَهُ؛ فَلَمَّا عَابُوهُ بِأَنَّهُ أَذَالَ حُرْمَةَ الْفَلَسَفَةِ بِأَنْحَانِيهِ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ وَسَجُودِهِ لَهُ، قَالَ: وَيَحْكُمُ!.. كَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا كَانَ الْمَلِكُ قَدْ جَعَلَ أُذُنِيهِ فِي رِجْلِيهِ...

وَلَمْ يَكُنْ مَضَى لِي فِي مَعَالِجَةِ الشُّعْرِ غَيْرُ سَنَتَيْنِ حِينَ ظَهَرَ مَقَالُ (الثرى)، وَمَعَ ذَلِكَ أَصْبَحَ كُلُّ شَاعِرٍ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيِي فِيهِ؛ فَمَرَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ (بِحَافِظٍ) وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ لَا أَعْرِفُهُمْ، فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ بِي الْمَجْلِسُ قَالَ حَافِظٌ: مَا رَأَيْكَ فِي شَعْرِ أَلْيَازَجِي؟ فَأَجَبْتُهُ، قَالَ: فَالْبُسْتَانِي؟ فَنجيبُ الْحَدَادِ؟ فَفَلَانٌ؟ فَفَلَانٌ؟ فَداودُ عَمُون؟ قُلْتُ: هَذَا لَمْ أَقْرَأْ لَهُ إِلَّا قَلِيلاً لَا يَسُوعُ مَعَهُ الْحُكْمُ عَلَى شَعْرِهِ. قَالَ: فَمَاذَا قَرَأْتَ لَهُ؟ قُلْتُ: رَدُّهُ عَلَى قَصِيدَتِكَ إِلَيْهِ:

شَجَنَّا مَطَالِغُ أَقْمَارِهَا

قَالَ: فَمَا رَأَيْكَ فِي قَصِيدَتِهِ هَذِهِ؟ قُلْتُ: هِيَ مِنَ الشُّعْرِ الْوَسْطِيِّ الَّذِي لَا يَعْلُو وَلَا يَنْزِلُ.

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: أَنْصَفْتُ - وَاللَّهِ -! فَقَالَ حَافِظٌ: أَقْدَمَ لَكَ دَاوُدُ بِكَ عَمُون!... رَحِمَ اللَّهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ!

شوقي

هذا هو الرجل الذي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ مِضَرَ أَخْتَارَتَهُ دُونَ أَهْلِهَا جَمِيعاً لَتَضَعَ فِيهِ رُوحَهَا الْمُتَكَلِّمَ، فَأَوْجَبَتْ لَهُ مَا لَمْ تُوجِبْ لِغَيْرِهِ، وَأَعَانَتْهُ بِمَا لَمْ يَتَّفِقْ لِسِوَاهِ، وَوَهَبَتْهُ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْتِمَكِينِ وَأَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ وَخَصَائِصِهَا عَلَى قَدَرِ أُمَّةٍ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَةً، لَا عَلَى قَدَرِ رَجُلٍ فِي نَفْسِهِ؛ وَبِهِ وَحْدَهُ اسْتَطَاعَتْ مِضَرَ أَنْ تَقُولَ لِلتَّارِيخِ: شعري وأدبي!

شوقي: هذا هو الأسم الذي كَانَ فِي الْأَدَبِ كَالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ: مَتَى طَلَعَتْ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ طَلَعَتْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، وَمَتَى ذُكِرَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ اتَّسَعَ مَعْنَى اسْمِهِ فَدَلَّ عَلَى مِضَرَ كُلِّهَا كَأَنَّمَا قِيلَ الْنِيلُ أَوْ الْهَرَمُ أَوْ الْقَاهِرَةُ؛ مترادفات لا في وَضْعِ اللَّغَةِ وَلَكِنْ فِي جَلَالِ اللَّغَةِ.

رجلٌ عاشَ حَتَّى تَمَّ، وَذَلِكَ بَرَهَانُ التَّارِيخِ عَلَى أَصْطِفَائِهِ لِمِصْرَ، وَدَلِيلُ الْعَبْقَرِيَّةِ عَلَى أَنَّ فِيهِ السَّرَّ الْمُتَحَرِّكَ الَّذِي لَا يَقِفُ وَلَا يَكِلُ وَلَا يَقْطَعُ نِظَامَ عَمَلِهِ، كَأَنَّ فِيهِ حَاسَةً نَحْلَةً فِي حَدِيقَةٍ، وَيَكْبُرُ شَعْرُهُ كُلَّمَا كَبُرَ الزَّمَنُ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ دَهْرِهِ، وَلَمْ يَقْعِ دُونَ أَبْعَدِ غَايَاتِهِ، وَكَأَنَّهُ مَعَ الْأَدْهَرِ عَلَى سِيَاقٍ وَاحِدٍ، وَكَأَنَّ شَعْرَهُ تَارِيخٌ مِنَ الْكَلَامِ يَتَطَوَّرُ أَطْوَارَهُ فِي النَّمُوِّ فَلَمْ يَجْمُدْ وَلَمْ يَرْتَكُسْ^(١)، وَبَقِيَ خَيَالٌ صَاحِبِهِ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ فِي تَدْبِيرِ السَّمَاءِ كَعَرَّاضِ الْغَمَامَةِ، سَحَابُهُ كَثِيرُ الْبَرْقِ مُمْتَلِئٌ مُمَطَّرٌ يَنْصُبُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَيَمْتَلِئُ مِنْ نَاحِيَةٍ.

وَالنَّاسُ يُكْتُبُ عَلَيْهِمُ الشَّبَابَ وَالْكَهُولَةَ وَالْهَرَمَ، وَلَكِنَّ الْأَدِيبَ الْحَقَّ يُكْتُبُ عَلَيْهِ شَبَابٌ وَكَهُولَةٌ وَشَبَابٌ؛ إِذْ كَانَتْ فِي قَلْبِهِ أَلْغَايَاتُ الْحَيَّةِ الشَّاعِرَةِ، مَا تَنْفُكُ يَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضاً إِلَى مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَيَاةِ الشَّاعِرِ الَّتِي خُلِقَتْ فِي قَلْبِهِ، وَلَكِنَّهَا مِنْ حَيَاةِ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْقَلْبِ.

(١) يرتكس: يتراجع.

أقرّر هذا في شوقي - رحمه الله - ، وأنا من أعرف الناس بغيوبه وأماكن الغمزة في أدبه وشعره؛ ولكن هذا الرجل أنفكت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كأنفلات المطرة من سحبها المتساير في الجوّ، فأصبحت مصر به سيّدة العالم العربيّ في الشعر، وهي لم تذكر قديماً في الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملققة، ولم يستفض لها ذكرٌ بنابعة ولا عبقرٍ، وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر في العالم، حتى إن أبا محمد الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الإنشاء في مصر للظاهر بن المستنصر (وقد توفي سنة ٣٤١هـ)، وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار في السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه - سلّم لرسول التجار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها، فيستشيرهم في تخليد هذا الأدب المصريّ بدار العلم إن استجدوه وأرتضوه، كأنّ حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها في مكتبة بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها في عصبة الأمم...

وهذا أحمد بن عليّ الأسواني إمام من أئمة الأدب في مصر (توفي سنة ٥٦٢)، وكان كاتباً شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك - أراد أن يدوّن شعر المصريين، فجمع من شعرهم (وشعر من طراً عليهم) أربع مجلدات، كأنّ الشعر المصريّ وحده إلى آخر القرن السادس للهجرة، في العهد الذي لم يكن ضاع فيه شيء من الكتب والدواوين لا يملأ أربع مجلدات... على اختلافهم في مقدار المجلدة، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم؛ والأسوني نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة.

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب (الأسواني المتوفى سنة ٥٦١) قال العماد الكاتب إنّ له لم يكن بمصر في زمنه شعر منه، وسارت له في الناس قصيدة سمّوها النواحة، وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته بها وخيف عليه؛ فالرجل شعر أهل مصر في زمنه، وحادثه النواحة تجعله في هذا المعنى أشعر من نفسه، على أنّه مع هذا لم يقل إلا من هذا:

يا ربّع أن نرى الأحبّة يَمُوموا هل أنجدوا من بعدنا أم أنتهموا
رَحَلُوا وفي القلب المعنى^(١) بعدهم وجد^(٢) على مرّ الزمان مخيم

(١) المعنى: المقيّد

(٢) وجد: حبّ.

وتعوّضَتْ بِالْأَنْسِ نَفْسِي وَخَشَنَةً لا أوحشَ أَلَّهُ الْمَنَازِلَ مِنْهُمْ . . .

ولولا أَبْنُ الْفَارِضِ وَالْبَهَاءُ زَهِيرٌ وَأَبْنُ قَلَاقِسِ الْأَسْكَندَرِيِّ وَأَمْثَالُهُمْ، وَكُلُّهُمْ أَصْحَابُ دَوَاوِينَ صَغِيرَةٍ، وَلَيْسَ فِي شَعْرِهِمْ إِلَّا طَابِعُ الْنِيلِ، أَيْ الرِّقَّةُ وَالْحَلَاوَةُ - لولا هؤلاءِ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ لِأَجْدَبِ تَارِيخِ الشَّعْرِ فِي مِصْرَ؛ وَلولا أَلْبَارُودِيُّ وَصَبْرِي وَحَافِظُ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ؛ وَكُلُّهُمْ كَذَلِكَ أَصْحَابُ دَوَاوِينَ صَغِيرَةٍ، لَمَّا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشَعْرِهَا فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ؛ عَلَى أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ وَكُلَّ أَوْلَئِكَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضَعُوا تَاجَ الشَّعْرِ عَلَى مِفْرَقِ مِصْرَ، وَوَضَعَهُ شَوْقِي وَحْدَهُ!

وَالْعَجَبُ أَنَّ دَوَاوِينَ الْمُجِيدِينَ مِنْ شُعْرَاءِ الْمَصْرِيِّينَ لَا تَكُونُ إِلَّا صَغِيرَةً، كَأَنَّ طَبِيعَةَ الْنِيلِ تَأْخُذُ فِي الْمَعْنَانِي كَأَخْذِهَا فِي الْمَادَّةِ، فَلَا فَيْضَ وَلَا خِصْبَ إِلَّا فِي وَقْتٍ بَعْدَ أَوْقَاتٍ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ كُلِّ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا؛ وَمِنْ جَمَالِ الْفَرَاشَةِ أَنْ تَكُونَ صَغِيرَةً، وَحَسْبُهَا عِنْدَ نَفْسِهَا أَنْ أَجْنَحَتْهَا مَنَقَطَةً بِالذَّهَبِ، وَأَنَّهَا هِيَ نُكْتَةٌ مِنْ بَدِيعِ الطَّبِيعَةِ!

عَلَى أَنَّكَ وَاجِدٌ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ عَجِيبَةً مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا لَا تُذَكِّرُ مَعَهَا إِلَّا لِبَاذَةً وَلَا أَلْيَاذَةً وَلَا الشَّاهِنَامَةَ وَلَا غَيْرُهَا، وَلَكِنَّهَا عَجِيبَةٌ مَلَأَتْهَا رُوحُ الصَّحْرَاءِ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ أَلْدَوَاوِينَ الصَّغِيرَةُ مِنْ رُوحِ الْنِيلِ؛ وَهِيَ قَصِيدَةُ نَظْمِهَا أَبُو رَجَاءٍ الْأَسْوَائِيُّ الْمَتُوفَى سَنَةَ ٣٣٥هـ، وَكَانَ شَاعِرًا فَقِيهًا أَدِيبًا عَالِمًا كَمَا قَالُوا، وَزَعَمُوا أَنَّهُ اقْتَصَرَ فِي نَظْمِهِ أَخْبَارَ الْعَالَمِ وَقَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، قَالُوا وَسئَلْ قَبْلَ مَوْتِهِ كَمْ بَلَغَتْ قَصِيدَتُكَ؟ فَقَالَ: ثَلَاثِينَ وَمِائَةً أَلْفَ بَيْتٍ . . . وَمَا أَشْكُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَقَعَ لَهُ تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ وَكُتِبَ الْسِيرُ وَقَصَصُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَنَظَمَهَا مُتُونًا مُتُونًا . . . وَأَفْنَى عَمْرُهُ فِي ١٣٠ أَلْفِ بَيْتٍ حَوْلَهَا أَلْتَارِيخُ إِلَى خَيْرِ مُهْمَلٍ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ!

كُلُّ شَاعِرٍ مِصْرِيٍّ هُوَ عِنْدِي جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ، وَلَكِنْ شَوْقِي جُزْءٌ مِنْ كُلِّ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجُزْأَيْنِ أَنَّ الْأَخِيرَ فِي قُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ وَاتِّسَاعِ شَعْرِهِ جُزْءٌ عَظِيمٌ كَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ الْكُلُّ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ شَاعِرٌ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَحْدِيًّا مَا تَرَكَ شَوْقِي، وَقَدْ أَجْتَمَعَ لَهُ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِسِوَاهُ؛ وَذَلِكَ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَارُ لِبِلَادِهِ، فَسَاوَى الْمُمْتَازِينَ مِنْ شُعْرَاءِ دَهْرِهِ وَارْتَفَعَ عَلَيْهِمْ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ هِيَ رِزْقُ تَارِيخِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَدْبُورَةِ الَّتِي لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا لَا تُعْطَى، أَوْ يَزِيدَ مَا تُنْقُصُ، أَوْ يُنْقِصُ

ما تزيد؛ وقد حاولوا إسقاط شوقي مراراً فأراهم غبارهُ ومضى متقدماً، ورجع مَنْ رجع منهم ليغسلَ عينيه . . . ويرى بهما أنَّ شوقي منَ النفسِ المِصْرِيَّةِ بِمنزلةِ المجدِ المكتوبِ لها في التاريخِ بحَرْبٍ ونصر، وما هو بِمنزلةِ شاعرٍ وشعره .

وُلِدَ شاعرُنا سنة ١٨٦٨ في نعمةِ الخديو إسماعيلَ باشا، ونثرَ لَهُ الخديو الذهبَ وهو رضيعٌ في قصةِ ذكرها شوقي في مقدمةِ ديوانهِ القديم، ثُمَّ كَفَّلَهُ الخديو توفيقُ باشا وعَلَّمَهُ وأنفقَ عليه من سَعَةٍ، وأنزلَ نفسَهُ منه منزلةَ أبٍ غنيٍّ كما يقولُ شوقي في مقدمته، ثُمَّ تولَّاهُ الخديو عباسُ باشا وجعلهُ شاعرَهُ وتركَهُ يقولُ:

شاعرُ العزيزِ وما بالقليلِ ذا اللقبِ

وإذا أنت فسرتَ لقبَ شاعرِ الأميرِ هذا بِالأميرِ نفسهِ في ذلكَ العهد، خرجَ لك منَ التفسيرِ: شاعرٌ مُرَهَفٌ مُعانٍ بِأسبابِ كثيرة، ليكونَ أداةَ سياسيَّةٍ في الشعبِ المِصري، تعملُ لإحياءِ التاريخِ في النفسِ المِصْرِيَّةِ، وتبصيرِها بِعَظَمَتِها، وإفحامِها في معاركِ زمنِها، وتهيئتها لِلمدافعةِ، وتصلُ الشَّعْرَ بِالسياسيَّةِ الدِّينيَّةِ الَّتِي توجَّهَتْ لها الخلافةُ يومئذٍ لِتَضْرِبَ فكرةَ أوروبا في تقسيمِ الدولةِ بِفكرةِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ؛ ولا يخرجُ لك شوقي من هذا التفسيرِ على أَنَّهُ رجلٌ في قدرِ نفسه، بل في قدرِ أميرهِ ذلك؛ وكان مُمتليئاً شباباً يغلي غلياناً، ومُعذَّاً يومئذٍ لِمطامعِ بعيدةٍ ملففةٍ حشوها الدِّنياميَّةُ السياسيَّةُ . . .

كنتُ ذاتَ مرَّةٍ أَكلُمُ صديقي الكاتبَ العميقَ فرح أنطون صاحبَ (الجامعة) وكان مُعجباً بِشوقي إعجاباً شديداً، فقالَ لي: إِنَّ شوقي الآنَ في أفقِ الملوكِ لا في أفقِ الشعراءِ! قلتُ: كأنَّكَ نفيتهُ منَ الملوكِ والشعراءِ معاً؛ إذ لو خرجَ من هؤلاءِ لم يكنْ شيئاً، ولو نفذَ إلى أولئك لم يُعدَّ شيئاً، إنَّما الرجلُ في السياسيَّةِ الملتويَّةِ الَّتِي تصلُّهُ بِالأميرِ، هو مرَّةً كوزيرِ الحربيَّةِ، ومرَّةً كوزيرِ المعارفِ .

وهذه السياسيَّةُ الَّتِي ارتاضَ بها شوقي ولابسها من أولِ عهده، واتَّجَهَ شِعْرُهُ في مذهبِها، منَ الوطنيَّةِ المِصريَّةِ، إلى النُّزعةِ الفرعونيَّةِ، إلى الجامعةِ الإسلاميَّةِ، فكانتُ بهذا سببَ بُوغِه ومادةِ مجديهِ الشعريِّ - هيَ بعينِها مادةُ نقائِصِهِ؛ فلقدِ ابتَلَتْهُ بِحُبِّ نفسهِ وحُبِّ الشَّئِ عليها، وتسخيرِ الناسِ في ذلكَ بِمَا وسِعَتْهُ قُوَّتُهُ، إلى غيرِ أَشدَّ من غيرِ الحسناءِ تقشعرُ كُلُّ شعرةٍ منها إذا جاءها الحُسنُ بِثانيةٍ، وهيَ غيرُةٍ وإنَّ كانتْ مدمومةً في صِلَتِهِ بِالآدباءِ الَّذِينَ لَدَّعُوهُ بِالجمْرِ . . . ونحنُ منهم، غيرَ أَنَّها

ممدوحة في موضعها من طبيعته هو؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقي أشعر من شوقي؛ وعندى أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التي رذت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة، فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والأسباب مذبرة مُقْبِلَة، مُتَهَدِّية في كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يُشَبِّهها في الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائماً إلى رائحة الدجاج.

ومؤرخ الأدب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئاً إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديو توفيق والخديو عباس لمصر، كالدلتا بين فرعي النيل؛ وما أصابه المتنبي من سيف الدولة مما أبتعث قريحته وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وأنتزى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الأدب - أصاب - شوقي من سمو الخديو عباس أكثر منه، فكان حقيقاً أن يساوي المتنبي أو يتقدمه، ولكنه لم يبلغ منزلته، لأن الخديو لم يكن كسيف الدولة في معرفته بالأدب العربي ورغبته فيه؛ وسر المتنبي كان في ثلاثة أشياء: في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير، وفي ممدوحه الأديب الملك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية، ثم في ألق عصره المتألق بنجوم الأدب التي لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو في قدرها، ولا يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها، ولا يتركها كالمنطقفة إلا شمس كشمس المتنبي تتفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية.

ولقد والله كان هذا المتنبي كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصابي شيخ الكتّاب في عصره يرأسه أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فيرسل إليه المتنبي: ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولكني إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعني المهلب) لأنني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذا الحال فأنا أجيبك ولا أريد منك مالاً ولا من شعري عوضاً! فأين في دهرنا من شعره عزة الأدب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا في انتظار كلمتها؟

على أن شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعري)، وكل بلاء الشعر العربي أنه لا يجد هذا الجمهور، فالشاعر بذلك مُنْصَرَفٌ إلى معانٍ فردية من

ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم . . . حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قُطع مبتورة من الكون داخله في الحدود لاسية الثياب؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول، ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود، فلا تجد في طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق، ولا ثوابه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يؤغل^(١) فيه، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره، وإذا نفسه تمر على الكون مرّاً سريعاً، وإذا شعره مقطّع قطعاً، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف لا شعور، وكلمات لا حقائق، وظل طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض.

وأجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري أعراقه عنصر عربي، وآخر تركي، وثالث يوناني، ورابع شركسي؛ وهذه كثرة إنسانية لا يأتي منها شاعر إلا كان خليقاً أن يكون دولة من دول الشعر، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي في عينه، كأن هذا دليل طبيعي على أن وراءهما عينين للمعاني تراحماني عيني البصر؛ وما لم يكن التركيب العصبي في الشاعر مهياً للنمو، فأعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا في غير الشعر، وليس في الطبيعة ولا في الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل في غير البلبل؛ ومع كل ما تقدم فقد أعين شوقي على الشعر بفراغه له أربعاً وأربعين سنة، غير مشترك العمل، ولا متقسم الخاطر، على سعة في الرزق وبسطة في الجاه وعلو في المنزلة، وبين يديه دواوين الشعر العربي والأوربي والتركي والفارسي؛ وإن تنس فلا تنس أن شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة، وهو روح الشعر لا روح للشعر يدونه، فسافر ورحل وتقلب في الأرض، وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها بصره ما بين الأندلس والآستانة، وظهيره على ذلك ماله وفراغه؛ وإنما قوة الشعر في مساقط الجو، ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة؛ والطبيعة كالناس: هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء، وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل، وفي بلد هي كالأنثى الجميلة، وفي بلد هي كالرجل

(١) يؤغل: يدخل إلى أقصى ما يمكن.

المُصارع؛ ولن يجتمع لك روح الجِهازِ العصبِيّ على أقواه وأشدّه إلا إذا أطعمته مع صنوف الأَطعمة اللذيذة المفيدة، ألوانَ ألْهواءِ اللّذيذِ المَفيدِ.

وعندي أنّه لا أمل أن ينشأ لمُضَرّ شاعرٌ عظيمٌ في طبقةِ الفحولِ من شعراءِ العالم، إلا إذا أُعيدَ تاريخُ شوقي مُهذَّباً مُنقَّحاً في رجلٍ وهبهُ الله مواهبه، ثمّ تهبهُ الحكومةُ المصريّةُ مواهبها.

والكتابُ الأوّلُ الَّذي راضَ خيالُ شوقي وصقلَ طبعه وصحّ نشأته الأدبيّة، هو بعينه الَّذي كانت منه بصيرةُ حافظٍ وذكرناه في مقالنا عنه، أي كتابُ «الوسيلةِ الأدبيّة» للمرصفي؛ وليس السُرُّ في هذا الكتاب ما فيه من فنونِ البلاغةِ ومختاراتِ الشعرِ والكتابة، فهذا كلّهُ كانَ في مُضَرّ قديماً ولم يُغنِ شيئاً ولم يُخرج لها شاعراً كشوقي، ولكن السُرُّ ما في الكتابِ من شعرِ الباروديّ لأنّه معاصر، والمُعاصرةُ اقتداءٌ ومُتابعةٌ على صوابٍ إن كانَ الصواب، وعلى خطإٍ إن كانَ الخطأ؛ وقد تصرّمت^(١) ألقرونُ الكثيرةُ والشعراءُ يتناقلونَ ديوانَ الممتنبي وغيره، ثمّ لا يجيئونَ إلا بشعرِ الصناعةِ والتكلف، ولا يُخلدُ الجيلُ منهم إلا لما رأى في عصره، ولا يستفتحُ غيرَ البابِ الَّذي فُتحَ له، إلى أن كانَ الباروديّ، وكانَ جاهلاً بفنونِ العربيّةِ وعلومِ البلاغة، لا يُحسِنُ منها شيئاً، وجهلهُ هذا هو كلّ العِلْمِ الَّذي حوّلَ الشعرَ من بعد؛ فيا لها عجيبةٍ من الحكمة! وهي دليلٌ على أن أعمالَ الناسِ ليست إلا خضوعاً لقوانينَ نافذةٍ على الناس. وأكبّ الباروديّ على ما أطاقه، وهو الحفظُ من شعرِ الفحول؛ إذ لا يحتاجُ الحفظُ إلى غيرِ القراءة، ثمّ المعاناةُ والمزاولة، وكانت فيه سليقة، فخرجتُ مخرجَ مثلها في شعراءِ الجاهليّةِ والصدرِ الأوّلِ من الحفظِ والرواية، وجاءتْ بذلك الشعرُ الجزلُ الَّذي نقله المرصفي بإلهامٍ من الله - تعالى - ليُخرجَ به للعربيّةِ حافظٌ وشوقي وغيرهما، فكلُّ ما في الكتابِ أنّه ينقلُ روحَ المُعاصرةِ إلى روحِ الأديبِ الناشئ، فتبعتهُ هذه الروحُ على التمييزِ وصحّةِ الاقتداء، فإذا هو على ميزّةٍ وبصيرة، وإذا هو على الطريقِ الّتي تنتهي به إلى ما في قوّة نفسه ما دامَ فيه ذكاءٌ وطبع؛ وبهذا ابتدأ شوقي وحافظٌ من موضعٍ واحد، وأنتهى كلاهما إلى طريقةٍ غيرِ طريقةِ الآخر، والطريقَتانِ معاً غيرُ طريقةِ الباروديّ.

(١) تصرّمت: انقضت.

تحوّل شوقي بهذا الشعر لا إلى طريقة البارودي، فإنه لا يطبقها ولا تنهياً في أسبابه، وخاصة في أول عهده، وكأذ لغة البارودي فيها من لقبه، أي فيها البارود... ولكن تحوّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال أليشي وأبي النصر وغيرهما، فترك الأحياء وأنطلق وراء الموتى في دواوينهم التي كان من سعاديته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد: كالمتنبي وأبي تمام وألبحري والمعري: ثم أهل الرقة أصحاب الطريقة الغرامية: كابن الأحنف وألبهاء زهير والشاب الظريف والتغفري والحاجري، ثم مشاهير المتأخرين: كابن النحاس والأمير منجك والشرقاوي. وقد حاول شوقي في أول أمره أن يجمع بين هذا كله، فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد، مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحُب الصحيح.

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون همّي إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه، وكيف ألم وكيف لحظ، وكيف كان المعنى منبهة له، وهل أبدع أم قلّد، وهل هو شعر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها، أم نقله نقلاً فجاء من الكتب؛ وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه، ويدقق النظرة في أسرار الأشياء، ويحسن أن يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها؛ أم فكره أسترسأ وترجيماً في الخيال وأخذ للموجود كما هو موجود في الواقع؟ وبالجمله هل هو ذاتية تمر فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياة من نفسه، أم هو تبعية كالسماز بين طرفين: يكون بينهما، وليس منهما ولا من أحدهما؟ في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر، ولا يؤديك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطلقته، أمّا تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله؛ إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره، وليس في تاريخ ما كان إلا نقله كما كان.

وإذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره، ففيه تلك الموهبة التي أسميها حاسة الجو؛ إذ يتلمح بها النوابع معاني ما وراء المنظور، ويستنزلون بها من كل معنى معنى غيره.

انظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ ٢٣ سنة على ما أظن، وهي من شعره السائر:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء

ما تراها تَنَاسَتْ أَسْمِي لَمَّا كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ
إِنْ رَأَيْتَنِي تَمِيلُ عَنِّي كَأَنْ لَمْ تَكْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظْرَةً فَأَبْتَسَامَةً فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

دغ غلطته في قوله (تميل عني)، فإن صوابها: تَمِيلُ؛ إذ هي جوابُ إن الشرطية؛ ولكن تأمل كيف أَسْتَخْرَجَ معانيه؛ وأنا كُنْتُ دائماً وما أزالُ مُعْجَباً بِالْبَيْتَيْنِ الثاني والرابع، لا إكباراً لِمَعْنَاهُمَا، فهما لا شيء عندي، ولكن إعجاباً بِمَوْهَبَةِ شوقي في التوليد، فإنه أَخَذَ أَلَيْتَ الثاني من قول أبي تمام:

أَتَيْتُ فَوَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ
فَمَرَّ الْمَعْنَى فِي ذَهْنِ شوقي كما يَمُرُّ الْهَوَاءُ فِي رَوْضِهِ، وجاءَ نَسِيماً يَتَرَفَّقُ بعدما كَانَ كَالرَّيحِ الْأَسَافِيَةِ بِتَرَابِهَا؛ لِأَنَّ الزَّحَامَ فِي بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ حَقِيقٌ بِسُوقِ قَائِمَةٍ لِلْبَيْعِ وَالْشَّرَاءِ، لَا بِقَلْبِ أَمْرَأَةٍ يُحِبُّهَا، بَلْ هُوَ يَجْعَلُ قَلْبَ الْأَمْرَأَةِ شَيْئاً غَرِيباً كَأَنَّهُ لَيْسَ عَضُوًّا فِي جَسْمِهَا، بَلْ غُرْفَةً فِي بَيْتِهَا. . . وقد سبقَ شاعرُنَا أبا تَمَامٍ بِمَرَا حَلِّ فِي إِبْدَاعِهِ وَذَوْقِهِ وَرِقَّتِهِ.

وَأَلَيْتُ الرَّابِعُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ الظَّرِيفِ:

قَفْ وَأَسْتَمِعْ سِيرَةَ الْأَصْبِ الَّذِي قَتَلُوا فَمَاتَ فِي حُبِّهِمْ لَمْ يَبْلُغِ الْغَرَضَا
رَأَى فَحَبَّ فَسَامٌ^(١) الْوَصْلَ فَأَمْتَنَعُوا فَرَامٌ^(٢) صَبْرًا فَأَعْيَا نِيلُهُ فَقَضَى

وهذه «فَاءات» تجرُّ إلى الْقَبْرِ وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا. . . وَمِمَّا كُنْتُ أَعْيِيهِ عَلَى شوقي ضَعْفُهُ فِي فَنُونِ الْآدَبِ، فَإِنَّ الْأَمِيلِيَّ الْكَاتِبَ الشَّهِيرَ أُنْتَقَدَ فِي جَرِيدَتِهِ «مِصْبَاحُ الشَّرْقِ» أَبْيَاتَ (خَدَعُوهَا) عِنْدَ ظُهُورِ الشُّوْقِيَّاتِ فِي سَنَةِ ١٨٩٩، فَأَرْتَاعَ شوقي وَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ لِيُمْسِكَ عَنِ النِّقْدِ، مَعَ أَنَّ كَلَامَ الْأَمِيلِيَّ لَا يُسْقَطُ ذِبَابَةً مِنْ أَرْتِفَاعِ نَصْفِ مِتر. . . وَمِنْ مُصِيبَةِ الْآدَبِ عِنْدَنَا، بَلْ مِنْ أَكْبَرِ أَسْرَارِ ضَعْفِهِ، أَنَّ شُعْرَاءَنَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالنِّقْدِ، وَأَنَّهُمْ يَفْرُوْنَ مِنْهُ فِرَاراً وَيَعْمَلُونَ عَلَى تَفَادِيهِ وَأَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَ غَيْرَ الشُّعْرِ؛ فَلَا أَلْبَارُودِيَّ وَلَا صَبْرِي وَلَا حَافِظَ وَلَا شوقي كَانَ يُحْسِنُ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَدْفَعَ عَنِ نَفْسِهِ أَوْ يَكْتَبَ فَصْلًا فِي النِّقْدِ الْآدَبِيِّ، أَوْ يُحَقِّقَ مَسْأَلَةً فِي تَارِيخِ الْآدَبِ.

(١) سام: طلب وعانى في الحصول على ما أراد.

(٢) رام: طلب وقصد.

ومن معاني شوقي السائرة:

لَكَ نُضْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي آفَةُ النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا
وكررَه في قصيدة أخرى فقال:

آفَةُ النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا وأذى النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِهَارًا
وَأَلْبِيتَانِ مِنْ شَعْرِ صِبَاهُ أَيْضًا، وهما من قولِ أبنِ الرومي:

وفي النَّصِيحِ خَيْرٌ مِنْ نَصِيحِ مُوَادِعٍ ولا خَيْرَ فِيهِ مِنْ نَصِيحِ مُوَاتِبِ
فَصَحَّحَ شوقي أَلْمَعْنَى وَأَبْدَلَ الْمُوَاتِبَةَ بِالْجِدَالِ، وذلك هو الَّذِي عَجَزَ عَنْهُ أبنُ
الرومي؛ ومن إبداعه في قصيدته (صدى الحرب) يصفُ هزيمة اليونان:

يَكَادُونَ مِنْ دُعْرِ تَفَرُّ دِيَارِهِمْ وتنجو الرواسي^(١) لَوْ حَوَاهُنَّ مَشْعَبُ
يَكَادُ الثَّرَى مِنْ تَحْتِهِمْ يَلِجُ^(٢) الثَّرَى وَيَقْضِمُ بَعْضُ الْأَرْضِ بَعْضًا وَيَقْضِبُ
وهذا خيالٌ بديعٌ في الغاية، جعلَ هزيمَتَهُمُ كَأَنَّهُا لَيْسَتْ مِنْ هَوْلِ الثَّرَى، بلُ
مِنْ هَوْلِ الْقِيَامَةِ؛ وهو مع ذلك مولّدٌ من قولِ أبي تَمَّامٍ في وصفِ كرمٍ ممدوحِهِ أبي
دُلْف:

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهْشُ عِرَاضُهَا^(٣) فتركبُ مِنْ شَوْقِي إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ
فَقَاسَ شَاعِرُنَا عَلَى ذَلِكَ؛ وَإِذَا كَادَتْ أَلْدَارُ تَرْكَبُ إِلَى أَلْرَاكِبِ إِلَيْهَا مِنْ
فَرَجِهَا، فَهِيَ تَكَادُ تَفَرُّ مَعَ الْمَنْهَزِمِ مِنْ دُعْرِهَا؛ وَلَكِنَّ شَوْقِي بَنَى فَأَحْكَمَ وَسَمَا عَلَى
أَبِي تَمَّامٍ بِالزِّيَادَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا فِي أَلْبَيْتِ الثَّانِي:

وَمِنْ أَحْسَنِ شَعْرِهِ فِي الْغَزْلِ:
حَوَتْ أَلْجَمَالَ فَلَوْ دَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي أَلْوْهِمِ حُسْنًا مَا أَسْتَطَعَتْ مَزِيدًا
وهو من قولِ القائل:

ذَا تُ حُسْنٍ لَوْ أَسْتَزَادَتْ مِنْ أَلْحُسْنِ نِ إِلَيْهَا لَمَّا أَصَابَتْ مَزِيدًا
غَيْرَ أَنَّ شَوْقِي قَالَ: لَوْ دَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي أَلْوْهِمِ . . . وَالشَّاعِرُ قَالَ: لَوْ
أَسْتَزَادَتْ هِيَ؛ فَلَوْ خَلَا بَيْتُ شَوْقِي مِنْ كَلِمَةِ (فِي أَلْوْهِمِ) لَمَّا كَانَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ هَذِهِ
أَلْكَلِمَةُ حَقَّقَتْ فِيهِ أَلْمَعْنَى الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ كُلُّ فِلَسَفَةِ أَلْجَمَالِ؛ فَإِنَّ جَمَالَ أَلْحَبِيبِ

(١) الرواسي: الجبال.

(٢) يلج: يدخل.

(٣) عراضها: مفردة عرصة وهي الربوة.

ليس شيئاً إلا ألمعاني التي هي في وهم مُجِبِّهِ؛ فالزيادة تكون من ألوهم، وهو بطبيعته لا ينتهي؛ فإذا لم تبق فيه زيادة في الحُسن فما بعد ذلك حُسن. وقد بسطنا هذا المعنى في صور كثيرة في كتبنا: «رسائل الأحرار»، و «السحاب الأحمر»، و «أوراق الود»؛ فانظره فيها.

ومِمَّا يُتَمُّمُ ذَلِكَ أَلْبَيْتَ قَوْلِ شَوْقِي فِي قَصِيدَةِ الْنَفْسِ:

يا دميّة لا يُستزادُ جَمالُها زِيدِيهِ حُسْنَ الْمُحْسِنِ الْمُتَبَرِّعِ
وهذا المعنى يَقَعُ من نفسي مَوْقِعاً وَلَهُ من إعجابي محل؛ فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت، وهي في موضعها كما ينقطع الحظُّ ثُمَّ يَتَّصِلُ، وكما يستحيل الأمل ثُمَّ يَتَّفِقُ ويسهل؛ وقد علمتُ مأخذَ الشطرِ الأول، أمّا الثاني فهو من قولِ أبنِ الرومي:

يا حَسَنَ الْوَجْهِ لَقَدْ شَنَنْتُهُ فَأَضْمُمُ إِلَى حُسْنِكَ إِحْسَانًا
وفي القصيدة التي رثى بها ثروت باشا وهي من أحسن شعره تجدُ من أبياتها هذا ألبيت النادر:

وقد يموت كثير لا تحسُّهمو كأنهم من هوانِ الخُطْبِ ما وُجِدُوا
وشوقي يعارضُ بهذه القصيدة أبا خالد أبنَ محمدٍ المَهلبِيَّ في دليته التي رثى بها المتوكل، وكان المَهلبِيُّ حاضراً قتلَهُ هو والبَحْترِيُّ، فرثاه كلُّ منهما بقصيدة قالوا: إنها من أجود ما قيل في معناها؛ وبيت شوقي مأخوذ من قول المَهلبِيَّ:

إِنَّا فَقَدْنَاكَ حَتَّى لَا أَضْطَبَارَ لَنَا وَمَاتَ قَبْلَكَ أَقْوَامٌ فَمَا فَقِدُوا
أي لم يُحَسِّنْ موتَهُم أحد؛ ولكن ألبيت غير مستقيم، لأنَّ الذي يموت فلا يفقد هو الخالد الذي كأنه لم يمت؛ فاستخرج شوقي المعنى الصحيح وجعل العدم الذي هو آخر الوجود في الناس، أول الوجود ووسطه وآخره في هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا.

والى ما علمت من قوّة هذه الشاعريّة، ودقّيتها فيما تتأتّى له، ومجيبها بالمعاني النادرة مستخرجة استخراج الذهب، مصقولة صقل الجواهر، معدّلة بالفكر، موزونة بالمنطق - تجدُ لها تهافتاً كتهافت الضعفاء، وغرّة كغرّة الأحداث؛ حتى لتحسب أن طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لاعبة هازلة، أو كأن

للرجل شخصيتين كما يقول الأطباء، فهما تتعاورانِ شعرةً كمالاً ونقصاً، وعُلُوّاً ونزولاً، أو قل هي العربيةُ واليونانيةُ في ناحيةٍ من نفسه، والتركِيَّةُ والشركسيَّةُ في ناحيةٍ أخرى: لتلك الأبتكارُ والبلاغةُ والمنطق، ولهذه التهوِيلُ والمبالغةُ والخلط؛ وشوقي هو بهما جميعاً؛ تفتنه القويَّةُ منهما فيعجبُ بها إعجابُ القوَّةِ، وتخدعه الضعيفةُ فيعجبُ بها إعجابُ الرِّقَّةِ؛ ما أعجبَ بيته الذي قاله في الحنينِ إلى الوطن من قصيدته الأندلسيَّة الشهيرة:

وطني لو شغلت بالخلدِ عنه نازعتني إليه في الخلدِ نفسي

وهذا البيتُ ممَّا يتمثَّلُ به الشبانُ وكتابُ الصحافة، ولم يفتن أحدٌ إلى فساده وسخافةٍ معناه؛ فإنَّ الخلدَ لا يكونُ خُلداً إلَّا بعدَ فناءِ ألفاني من الإنسانِ وطبائعه الأرضيَّةِ، وبعدَ أن لا تكونَ أرضٌ ولا وطنٌ ولا حنينٌ ولا عصبيَّةٌ؛ فكأنَّ شوقي يقول: لو شغلتُ عنِ الوطنِ حينَ لا أرضَ ولا وطنَ ولا دولَ ولا أُمَمَ ولا حنينَ إلى شيءٍ من ذلك - فإني على ذلك أحنُّ إلى الوطنِ الذي لا وجودَ له في نفسي ولا في نفسه... وهذا كله لغوٌ... والمعنى بغدٌ من قولِ ابنِ الرومي:

وحبَّ أوطانَ الرجالِ إليهمو مآربُ^(١) قضاهم الشبابُ هنالكما
إذا ذكروا أوطانهم ذكروهمو عهدُ الصبي فيها فحثوا لذلِكَما

ومنازعةُ النفسِ هي الحنين، ومعنى ابنِ الرومي وإن كان صحيحاً غيرَ أنَّه لا يصلحُ لفلسفةِ الوطنيَّةِ في زمننا.

وإنَّ في شوقي عيبين يذهبانِ بكثيرٍ من حسناته: أحدهما المبالغاتُ التركيَّةُ الفارسيَّةُ ممَّا تنزعُ إليه تركيتهُ ولا مبالغةً في الدنيا تُقاربُها، كقولِ بعضِ شعرائهم إنَّ النملةَ بظفرِها جففتِ الأبحرَ السبعة... وهو إغراقٌ سخيْفٌ لا يأتي بخيالٍ عجيبٍ كما يتوهمون، بل يأتي بهذيانٍ عجيبٍ؛ وإذا كانَ الصدقُ يأنفُ من الكذبِ، فإنَّ الكذبَ نفسُه يأنفُ من هذا الإغراقِ؛ ومن هذه التركيَّةِ في شوقي إضافاتٌ وهميَّةٌ، هي من تلك المبالغاتِ كذيلِ الحمارِ من الحمار: قطعةٌ فيه ودليلٌ عليه وآخرٌ لأوله ولا محلَّ لها في ذوقِ البلاغةِ العربيَّة، كقوله:

(عيسى الشعور) إذا مشى ردَّ الشعوبَ إلى الحياةِ

(١) مآرب: غايات ومقاصد.

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه :

ولو زُلْتُ غُيِّبَ (عَمَرُوا الْأُمُورِ) وأخلى المنابر سَحْبَانَهَا

ويدخل في جنایات هذه التركيبة على شعره تكراره الأسماء المقدسة والأعلام التاريخية : كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع في نظمه ولا تجده أكثر ما تجده إلا السحر كله والبلاغة كلها، على شرط أن يكون القلب هو الذي وضعها في موضعها، وأن لا يضعها إلا على هيئة قلبية، فيكون كأنه وضع نفسه في الشعر ليخفي خفقاؤه الحي في بضعة ألفاظ، وهذا ما لم يحسنه شوقي - والعيب الثاني أن ألفاظ شاعرنا لا يثبت أكثرها على النقد؛ لضعفه في الصناعة البيانية، ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه واعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وإن فسدت بهما البلاغة والشعر؛ انظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير :

قالوا: الحماية زالت قلت لا عجب قد كان باطلها فيكم هو العجب
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الدنيا

قلنا: فإذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقية ما ذنب أو يد أو رجل؛ فإن هذه البقية في لغة السياسة التي تنفذ الألفاظ وحروفها ونقط حروفها... لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً، بل هي (رأس الحماية) بعينه... على أن شوقي إنما عكس قول الشاعر:

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنباً

وهذا كلام على سياقه من العقل، فما غناء قطع ذنب الأفعى إذا بقي رأسها، وإنما ألقى كلها هي هذا الرأس.

ولقد ظهر لي من درس شوقي في ديوانه أمر عجبت له؛ فإنني رأيتُه يأخذ من أبي تمام وأباحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم؛ فربما ساواهم وربما زاد عليهم، حتى إذا جاء إلى المتنبي وقع في البحر وأدركه الغرق؛ لأنه نشأ على رهبة منه كما تشير إليه عبارته في مقدمة ديوانه الأول؛ وقد وصف خيل الترك في قصيدة أنقرة بقوله :

والصبر فيها وفي فرسانها خلقت توارثوه أباً في الروع بعد أب
كما ولدتم على أعرافها ولدت في ساحة الحرب لا في باحة الرحب

وشعره هذا كأنه يرتعد أمام قول المتنبي :

أقبلتها غرر الجياد كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

الشابطينَ فروسَةً كَجُلُودِهَا في ظَهرِها، وَالطعنُ في لَبَّاتِها
فَكَأَنَّها نَتَجَتْ قِياماً تحتهم وكأَنَّهُمْ وَلِدُوا على صَهاوَتِها
فأنظرُ أينَ صِناعةٌ من صِناعَةٍ وأينَ شعرٌ من شعرٍ؟ وقالَ في (صدى الحرب)
يصفُ مدافعَ الدردنيلِ:

قدائفُ تخشى مَهجَةَ المَشي كُلِّها علَّتْ مُضِعِداتِ أَنتِها لا نَصُوبُ
إذا هَبَّ حامِئِها على السُفنِ أَنتُتْ وغانِمُها الأَناجِي فكيفَ المُخَيَّبُ
وهذا الأَستفهامُ (فكيفَ المُخَيَّبُ) أَستفهامُ مُضحِكٌ؛ لِأَنَّهُ إذا كانَ الأَناجِي
غانِماً، فَالمُخَيَّبُ خاسِرٌ بلا سَؤالٍ ولا فلسفَةٍ؛ وَالكَلِمَةُ الشَّعْرِيَّةُ في هذا كَلِمَةٌ هِيَ
قَوْلُهُ (وغانِمُها الأَناجِي)، وهِيَ كَالهَارِبَةِ تَتَوَارَى^(١) خوفاً من بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ:

أَغَرُّ أَعْدائُهُ إذا سَلِمُوا بِالْهَرَبِ أَستَكْبَرُوا الَّذِي فَعَلُوا
فهذا هُوَ الشَّعْرُ لا ذاك؛ على أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ في قصيدةِ (صدى الحرب) أَبياتاً
هِيَ من أَسْمَى الشَّعْرِ، وكانَ شوقي - رَحِمَهُ اللهُ - كانَ يَنظُمُ هذه القَصيدةَ من إِيمانِهِ
ومن دَمِهِ ومن كُلِّ مَطامِعِ دُنْياهِ وآخِرَتِهِ، يَبْتَغِي بِها الشَّهْرَةَ الأَخالِدَةَ في النَّاسِ،
وَالْمَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ عِنْدَ الأَخْدِيوِ، وَنِباهَةَ الشَّأْنِ عِنْدَ الأَخْلِيفَةِ، وَالثَّوابَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛
ولو هُوَ في أَثناءِ عَمَلِها أَسْقَطَ نَصْفَها أو أَكثَرَ لَجاءَتْ فَرِيدَةٌ في الشَّعْرِ العَرَبِيِّ، غَيْرَ
أَنَّ الجِرْصَ كانَ يَغْتَرُّه، وكانَ طَوْلَ عَمَرِهِ مَفْتُوناً بِشَعْرِهِ؛ فَجاءَ في هذا الشَّعْرِ بِالطَّمِّ
وَالرَّمِّ^(٢) كما يَقولون؛ وَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الكَلَامِ الرَّذَلِ السَّاقِطِ بِضَعْفِهِ وَتَهافتِهِ؛ وَلولا تِلْكَ
الْتَرْكِيبَةُ الْفَارَسِيَّةُ وَضَعْفَةُ الأَبيانيِّ، لَما رَضِيَ أَنَّ يَكُونَ ذلكَ في شَعْرِهِ؛ وَلِيتَ شِعْرِي
كيفَ غابَ عَن مِثْلِهِ أَنَّ التَّهْوِيلَ وَالإِغراقَ وَالإِحالَةَ مِمَّا يُهَجَّنُ^(٣) الشَّعْرَ وَيَذْهَبُ
بِأَثَرِهِ في النَّفْسِ وَيُحِيلُهُ إلى صِناعَةٍ هِيَ شَرٌّ مِنَ الصِّناعَةِ البَدِيعَةِ؛ لِأَنَّ هذه تَكُونُ في
الأَلْفاظِ، وَالأَلْفاظُ تَحْتَمِلُ العَبَثَ البَدِيعِيَّ وَيُخْرِجُ بِها الأَمْرَ إلى أَنَّ تَكُونَ ضَرْباً مِنَ
الرِّياضَةِ كَمَعانَةٍ بَعْضِ المَسائِلِ في الجَبَرِ وَالْهَندَسَةِ تَرْكِيباً وَحَلًّا؛ وَلَكِنَّ المَعانِي لا
تَحْتَمِلُ ذلكَ؛ إِذْ هِيَ تَفْكيرٌ لا يَلْتَوِي إِلا فِساداً، وَالْمَعانِي الَّتِي يَأْتِي بِها الشَّاعِرُ يَجِبُ
أَنَّ تَكُونَ فيها مَزيَّةٌ بِخاصَّتِها مِنَ الجَمالِ وَالْبَيانِ، وَأَنَّ تَكُونَ أَخيلَتُها هِيَ الحَقائِقُ
الَّتِي أَوَّلُ مواضِعِها فَوْقَ حَقائِقِ البَشَرِ.

(١) تَتَوَارَى: تَخْتَفِي.

(٢) الطَّمِّ والرَّمِّ: بَقايا ما يَنْتِجُ مِنَ الدِّمارِ.

(٣) يَهَجَّنُ: يَكْرَهُ ولا يَقْبَلُ.

وهناك ضرب آخر من المبالغة يجيء من سقوط الخيال؛ لأن في الأسفل مبالغة كما في الأعلى، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادة في السخرية منه والهزاء به؛ وهذه المبالغة تأتي من جمع أشاتٍ مختلفة وإدماجها كلها في معنى واحد، كهذا الذي حاول أن يدمج الطبيعة كلها في حبيبته فزعم أن فيها من كل شيء، ونسي أن كل قبيح وكل بغض هو من كل شيء...

إن الخيال الشعري يزيع^(١) بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها ممسوخة مشوّهة، ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها؛ وتلك من معجزاته؛ إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى.

ولعلماء الأدب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها؛ قالوا: أعذب الشعر أكذب! يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال: ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك، وما وراءه إلا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها؛ وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذب على الحواس الإنسانية، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعري في الحقيقة؛ إذ تنقل الشيء على غير ما هو في نفسه ليكون شيئاً في نفوسنا، فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما؛ وما هي خمره الشعر مثلاً؟ هي رضاب الحبيبة؛ ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر ل رأى... ل رأى مستنقعا صغيراً. ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يجهز به لرأيت ذلك الرضاب^(٢) يعج^(٣) عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الإلهي بأن جعل رتبته في الوجود وراء النظر الإنساني، رحمة من الله بالناس؛ فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسر الحياة؛ ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع.

ومن سخيّف الإغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل، وهي أبيات يظنّ هو أنّه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الإغراب:

فلو أن أوطاناً تُصوّر هيكلًا دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحمل في الجوارح ميت حملوك في الأسماع والأجفان

(١) يزيع: يحيد ويميل.

(٢) الرضاب: الريق.

(٣) يعج: يمتلئ.

أو كانَ للذكرِ الحَكِيمِ بَقِيَّةٌ لم تأتِ بعدُ - رُئِيتَ في القرآنِ
فهذه فروضٌ فوقَ المستحيلِ بأربعِ درجاتٍ . . . وتصور أنت ميتاً يُحملُ في
الجوارحِ فيترَّمُّ فيها ويبلَى . . . وما زالَ الشاعِرُ في أبياتِهِ يخرُجُ من طامَّةٍ^(١) إلى
طامَّةٍ، حتى قال: رُئِيتَ في القرآنِ، ولو سئلتُ أنا إعرابَ (لو) في هذه الأبياتِ
لقلْتُ: إنَّها حرفُ نقصٍ وتلفيقٍ وعجزٍ . . . وكيف يسوِّغُ في الفرضِ أنْ تكونَ
للقرآنِ بَقِيَّةٌ لم تنزلَ، وَاللَّهُ تعالى يقولُ فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ وَالْأَمْرُ أَمْرُ
دينٍ قد تَمَّ، وكتابٍ مقدَّسٍ خُتمَ، ونبوَّةٍ انْقَضَتْ؛ وَالشاعرُ ماضٍ في غفلتِهِ لم يتنبَّهْ
لشيءٍ ولم يدِرْ أنَّه يفرضُ فرضاً يهدمُ الإسلامَ كُلَّهُ، بل حَسِبَ أنَّه جاءَ بخيالٍ وبلاغَةٍ
فارسيَّةٍ؛ وشوقي في الحقيقةِ كاملٌ كناقصٍ، وإنَّ من معجزاتِ هذا الشاعرِ أنْ يكونَ
ناقصاً هذا النقصَ كُلَّهُ ويُكملُ.

وفي الشوقيَّاتِ صفحاتٌ تكادُ تُغرَّدُ تغريداً، وفيها صفحاتٌ أخرى تَنقُ نقيقَ
الضفادعِ؛ وفي هذا الديوانِ عيوبٌ لا تُريدُ أنْ نقتصمَها؛ فإنَّ ذلكَ يحتاجُ إلى كتابٍ
برأسِهِ إذا ذهبنا نأتي بها ونشرحُ العِلَّةَ فيها ونُخرجُ الشواهدَ عليها، ولكنَّ من عُيوبِهِ
في التكرارِ أنَّ له بيتاً يدورُ في قصائدهِ دورانَ الحِمَارِ في الساقية، وهو هذا البيتُ:

وإنَّما أَلأَمُّ أَلأَخلاقُ ما بَقِيَتْ فإنَّ هُمُومَ ذَهَبَتْ أَخلاقُهُم ذَهَبوا
بل هذا البيتُ:

وإنَّما أَلأَمُّ أَلأَخلاقُ ما بَقِيَتْ فإنَّ تولَّتْ مَضَوا على آثارِها قُدُما
بل هو هذا:

كذا النَّاسُ بِالْأَخلاقِ يَبقى صلاحُهُم ويذهبُ عنهم أَمْرُهُم حينَ تَذَهبُ
بل هو هذا البيتُ:

ولا المصائبُ إذْ يرمى الرجالُ بها بِقَاتِلاتٍ إذا أَلأَخلاقُ لم تُصَبِ
وقد تَكَرَّرَ (فيما قرأته من ديوانِهِ) ثلاثُ عَشْرَةَ مرةً، فعادَ المعنى كطيلسانِ ابنِ
حربٍ الَّذي جعلَ الشاعِرُ يَرْقَعُهُ ثُمَّ يَرْقَعُهُ حتى ذهبَ الطيلسانُ وبقيَتِ الرُّقْع . . .
وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعَيْنِ النادرِ، ولكنَّ أفسدَهُ في الباقي سوءُ ملكةِ الجِرْصِ في
شوقي، أو ضعفُ الحِجْسِ البَيانيِّ، أو ابتذالُهُ الشَّعْرِ في غيرِ موضِعِهِ، أو وهنُ فِكرتِهِ

(١) طامَّة: مصيبة.

الفلسفية من جوانب كثيرة؛ وهذه الأربعة هي الأبواب التي يقتحم منها النقد على شعر صاحبنها، ولو هو كان قد حصنها بأصدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية إلى اليوم، ولكان عسى أن ينقل الشعر إلى طور جديد في التاريخ؛ ولكن الفوضى وقعت في شوقي من أول أمره؛ فأرسل إلى أوروبا لدرس الحقوق وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب والفلسفة، وغامر في سياسة الأرض، وكان الحق أن يشتغل سياسة السماء، وتهالك في مادة الدنيا، وكان الصواب أن يتهالك في معانيها.

إن الفوضى ذاهبة بنا مذهبها في الأدب والشعر، فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه أن يمثلها وحده، فهو يخرج على النظارة في ثياب الملك فيلقي كلاماً ملكياً، ثم يفتل فيجىء في ثوب القائد فيلقي كلاماً حربياً، ثم ينقلب فيعود في هيئة التاجر فيلقي كلاماً سوقياً، ثم يروغ فيرجع في مبادل الخادم، ثم... ثم... يتوارى فيظهر في جلدة بربري... وهذه الفوضى التي أهملتها الحكومة وأهملها الأمراء والكبراء هي حقيقة مؤلمة، ولكن هي الحقيقة!

* * *

وشوقي على كل هذا هو شوقي: أول من أحتفى بتاريخ مصر من الشعراء، وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات، وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه، ولقد ألهمتني قراءة البارع من شعره في أغراضه وفنونه المختلفة أن الله تعالى يُنعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال أرواحهم وقوتها، تجد الآداب لذتها فيهم وسموها بهم، كأن الأمر قياس على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني، فيكون في المعاني ما يعشق بعض الناس، ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان مبلغ الاختصاص والوجد ظهر الفن أبدع ما يرى، كأن المعنى الأدبي يتجمل ويتحجب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكم الحب.

فيا مصر، لقد مات شاعر الذي كان يحاول أن يخرج بالجيل الحاضر إلى الزمن الذي لم يأت بعد، فإذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية، وذكرت مجد شعرك الماضي، فليقل أسأتك يومئذ: كان هذا الماضي شاعراً أسمه شوقي!

بعد شوقي

كَانَ يَتَوَجَّهُ الظَّنُّ عَلَى شَوْقِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَيَزَعُمُ الزَّاعِمُ أَنَّ شَوْقِي هُوَ يُحْيِي شِعْرَهُ، وَهُوَ يَرْفَعُ مِنْهُ، وَهُوَ يُشَيِّعُ حَوْلَهُ قُوَّةَ الْجَذِبِ مِنْ مَغْنَاطِيْسِ الثَّرْوَةِ وَالْمَكَانَةِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَا أَوْفَى عَلَى الشُّعْرَاءِ جَمِيعاً لِأَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ، بَلْ لِأَنَّهُ أَغْنَاهُمْ؛ وَلَا مِنْ أَنَّهُ أَقْوَاهُمْ قُوَّةً، بَلْ لِأَنَّهُ أَقْوَاهُمْ حِيلَةً؛ وَأَنَّ الشَّاعِرَ لَوْ جَاءَ يَوْمُهُ لَبْطَلَ السَّحَرُ وَالسَّاحِرُ، فَتَرْجِعُ الْعَصَا وَهِيَ عَصاً بَعْدَ أَنْ أَنْقَلَبَتْ حَيَّةً، وَيَثُولُ هَذَا الشَّعْرُ إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَتَتَسَيَّمُ الْحَقِيقَةُ بِسَمَتِهَا؛ كَأَنَّ شَوْقِي كَانَ يَعْمَلُ لِشِعْرِهِ بِقُوَّةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا بِقُوَّةِ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ.

فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى رَبِّهِ، وَخَلَا مَكَانُهُ، وَبَطَلَتْ كُلُّ وَسَائِلِهِ، وَنَامَ عَنْ شِعْرِهِ نَوْمَةً الْأَبَدِيَّةِ، وَتَرَكَهُ لِمَا فِيهِ يَحْفَظُهُ أَوْ يُضَيِّعُهُ إِنْ كَانَ فِيهِ حَقٌّ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَاطِلٌ، وَأَصْبَحَ الشَّاعِرُ هُوَ وَمَالُهُ وَجَاهُهُ وَشِعْرُهُ فِي حُكْمِ الْكَلِمَةِ الَّتِي يَقُولُهَا الزَّمَنُ، وَلَمْ تَعُدْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي حُكْمِهِ؛ فَهَلْ أَثْبَتَهُ الزَّمَنُ أَوْ نَفَاهُ، وَهَلْ سَلَّمَ لَهُ أَوْ كَابَرَهُ، وَهَلْ رَدَّهُ فِي أَعْمَارِ الشُّعْرَاءِ أَوْ جَعَلَ الشُّعْرَاءَ بَعْدَهُ أُدُلَّةً مِنْ أُدْلَتِهِ؟

أَوَّلُ مَا ظَهَرَ لِي أَنَّ الزَّمَنَ بَعْدَ شَوْقِي أَصْبَحَ أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَأَصْدَقَ فِي الشَّهَادَةِ لَهُ، كَمَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ بَعْدَ غِيَابِ الْقَمَرِ شَرْحاً طَوِيلًا لِمَعْنَى ذَلِكَ الْضِيَاءِ، وَإِنْ سَطَعَتْ فِيهَا الْكَوَاكِبُ وَتَوَقَّدَ مِنْهَا شَيْءٌ وَتَلَأَلَ شَيْءٌ؛ فَقَدْ دَلَّ الزَّمَنُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ لَمْ يَكُنْ لِشَّاعِرٍ كَالشُّعْرَاءِ يُقَالُ فِي وَصْفِهِ إِنَّهُ مُفْتَنٌ مُجِيدٌ مُبْدِعٌ؛ وَلَكِنَّهُ لِلَّذِي يُقَالُ فِيهِ إِنَّهُ صَوْتُ بِلَادِهِ وَصِيحَةُ قَوْمِهِ.

كَانَتْ تَحْدُثُ الْحَادِثَةُ، أَوْ يَتَخَالَجُ النَّاسُ مَعْنَى مِنَ آلِهِمُ الَّذِي يَعْمَهُمُ، أَوْ يَسْتَطِيرُهُمْ فَرَحٌ مِنَ أَفْرَاحِ الْوَطَنِ، أَوْ يَزُولُ عَظِيمٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ فَيَزِيدُ صَفْحَةً فِي التَّارِيخِ، أَوْ يَنْشَأُ كَوْنٌ صَغِيرٌ مِنْ أَكْوَانِ الْحَضَارَةِ فِي الشَّرْقِ كِبَنُكٍ مُضِرٍّ، أَوْ تَرْتَجُّ زَلْزَلَةٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْتِمَا ارْتَجَّتْ، فَإِذَا كُلُّ قَدٍ وَقَعَ فِي الدُّنْيَا بِهَيْئَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا

في ذهن شوقي، فيرسل قصيدته الشروذ السائرة داوية مجلجلة، فلا تكاد تظهر في مضر حتى تلتقي حولها الأفكار في العالم العربي كله، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسبه، ثم تجاوزه فإذا هي صلة من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها، ثم تجاوزها فإذا هي عاطفة تجمع القلوب على معناها، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هي من هذا كله زعامة مضر على الشعر العربي.

واليوم يقع مثل ذلك فتطير بعض ألفاقيع الشعرية من هنا وثمر ملونة متفحة ماضية على قانون ألفاقيع في الطبيعة: من أن لحظة وجودها هي لحظة فناؤها، وأن ظهورها يكون لظهور فقد لا لتنع.

ولست أماري في أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر، ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة: ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختزه كما اختارت شوقي، وأنه في الحياة كالأواقف على باب ديوان ينتظر أن يعهد إليه، وأن يخرج له التقليد؛ فهو ينتظر وسيستظر.

وهذا عجيب حتى كأنه سحر من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبري ألفد وبين من يشبهونه أو ينافسونه - بضروب خفية من الصرفة والعوائق، لا هي كلها من قوة العبري، ولا هي كلها من عجز الآخرين.

وأعجب من ذا أن (شوقي) كان في العالم العربي كأنه عمل تاريخي متميز من أعمال مضر، غير أنه مسمى باسم رجل؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز - كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التي تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسيها العظمة في الوجودين: من محلها ومن نفس الإنسان.

وأعجب من هذا وذلك أنني لم أر شعراً عربياً يحسن في وصف الآثار المصرية ما يحسن في وصفها شعر شوقي، حتى لأسأل نفسي: هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها ومستجلي حسنها؟

وما بان شوقي على غيره إلا بأنه رجل أفرغ في رأسه الذهن الشعري الكبير، فكان في رأسه مصنع عماله الأعصاب، ومادته المعاني، ومهندسه الإلهام؛ والدنيا ترسل إليه وتأخذ منه؛ وعلامة ذلك من كل شاعر عظيم أن تضع دنياءه على اسمه

شهادتها له ؛ ولهذا ما يكون بعض الشعراء كأنَّ اسمه في وزنٍ اسم مملكة، فإذا قلت : شكسبير وإنجلترا، فهما في العظمة النفسية من وزنٍ واحد، وكذلك أَلمتنبي والعالم العربي، وكذلك شوقي ومصر.

قالوا: كَانَ الْفَرزدَقُ يُنْقَحُ الشَّعْرَ، وَكَانَ جَرِيرٌ يَخْشُبُ (أي يُرسلُ شعره كما يجيء فلا يتنوّق فيه ولا يُنْقَحُه)؛ وَكَانَ خَشْبُ جَرِيرٍ خَيْرًا مِنْ تَنْقِيحِ الْفَرزدَقِ وَلَمْ يَتَنَبَّهُ أَحَدٌ إِلَى الْسَّرِّ فِي ذَلِكَ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا الْسَرُّ الَّذِي كَانَ فِي شَوْقِي بِعَيْنِهِ، سِرُّ الْأَمْتَلَاءِ الرُّوحِيِّ قَدْ أَمَدَّ بِالطَّبْعِ، وَأُعِينُ بِالذُّوقِ، وَأُوتِي الْقُوَّةُ أَنْ يَتَحَوَّلَ بِآثَارِهِ فِي الْكَلَامِ؛ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ فَهُوَ مِنْهُ: يَجِيءُ دَائِمًا قَرِيبًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ، وَلَا يَكَادُ يَنْفِذُ إِلَى شَعُورٍ إِلَّا اتَّحَذَ بِهِ.

وَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ ذَرٍّ أَلْوَاعِظُ الْبَلِيغِ إِذَا تَكَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ نَشَرَ حَوْلَهُ جَوًّا مِنْ رُوحِهِ، فَيَجْعَلُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَتَمَوَّجُ بِأَمْوَاجِ نَفْسِيَّةٍ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ يَعِصِفُ بِالنَّاسِ عَصْفَ الْهَوَاءِ بِالْبَحْرِ يَقُومُ بِهِ وَيَقْعُدُ، وَكَانَ مِنَ أَلْوَعَاطِ مَنْ يُقْلِدُهُ وَيَحْكِيهِ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ بِذَلِكَ يَعْرِضُ الْغَلْطَةَ عَلَى رَدِّهَا وَصَوَابِهَا، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ جَالَسَهُ وَجَالَسَهُمْ: مَا سَمِعْتُ عَمْرُو بْنَ ذَرٍّ يَتَكَلَّمُ إِلَّا ذُكِرَتْ الْنَفْخُ فِي الصُّورِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَحْكِيهِ إِلَّا تَمَنَيْتُ أَنْ يُجِلَّدَ ثَمَانِينَ . . .

فَالْفَرْقُ رُوحَانِيٌّ طَبِيعِيٌّ كَمَا تَرَى، لَا عَمَلَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَلَا لِصَاحِبِهِ، وَهُوَ يُشَبِّهُ الْفَرْقَ بَيْنَ عَاصِفَةٍ مِنَ الْهَوَاءِ وَبَيْنَ نَسِيمٍ مِنَ الرِّيحِ يُرْسَلَانِ عَلَى جِهَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ؛ فَنَفِي نَاحِيَةٍ يَلْتَجُّ أَلْمَاءُ وَيَشُبُّ وَيَتَضَرَّبُ وَيَقْصِفُ قِصْفَ الرُّعْدِ، وَفِي الْأُخْرَى يَتَرَجَّرُ وَيَتَرَحَّفُ وَيَقْشَعُرُ وَيَهْمَسُ كَوَسَاسِ الْحُلَى.

وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ لِلْكَمِّيَّةِ الْوَاجِدَانِيَّةِ فِي النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ أَوْ الْمَمْتَازَةِ؛ فَهِيَ الَّتِي تُعَيِّنُ لِهَذِهِ النَّفْسِ عَمَلَهَا عَلَى وَجْهِ مَا، وَتَهَيِّئُهَا لِمَا يُرَادُّ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا، وَتُقِيمُهَا عَلَى دَائِبِهَا إِلَى زَمَنِ مَا، وَتَخْصُصُهَا بِخَصَائِصِهَا لِغَرَضٍ مَا؛ وَإِذَا أَنْتَ حَقَّقْتَ لَمْ تَجِدِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ إِلَّا فَرْقًا فِي هَذِهِ الْكَمِّيَّةِ ذَاتِهَا مِقْدَارًا مِنْ مِقْدَارٍ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ أَصْغَرُ الْعُلَمَاءِ أَعْظَمَ مِنْ أَكْبَرِ الشُّعْرَاءِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الشَّاعِرُ كَأَنَّهُ تَمْلِيذٌ فِي الْعِلْمِ، ثُمَّ يَكُونُ الْعِلْمُ كَأَنَّهُ تَمْلِيذٌ لِقَلْبِ هَذَا الشَّاعِرِ وَعَوَاطِفِهِ؛ وَلِئِنْ عَجَزَ النَّقْدُ الْعِلْمِيُّ أَنْ يَنَالَ مِنَ الشُّعْرِ الْعَبْقَرِيِّ، لَقَدِيمًا عَجَزَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ.

وَقَدْ كَانَ فَيَمَنْ حَاولُوا إِسْقَاطَ شَوْقِي مَنْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْهُ أَطْلَاعًا عَلَى آدَابِ

الأمم، وأبصر بأغراض الشعر وحقيقته، وكان مع ذلك حاسداً شائناً قد ثَقَبَ في قلبه الحقد؛ والحاسدُ المبغضُ هو في اتساع الكلام وطغيان العبارة أخو المُحِبِّ العاشق؛ فكلاهما يدورُ الدُّمُ في كبده معاني ووساوس، وكلاهما يجري كلامه على أصل مما في سريرته، فلا تجد أحدهما إلا عالياً بمن يحب، ولا تجد الآخر إلا نازلاً بمن يبغض؛ وكان هذا الناقدُ شاعراً، فأنصاف شعره إلى حسده، إلى بغضه، إلى ذكائه، إلى اطلاعه، إلى جهده، إلى طول الوقت وتراخي الزمن؛ وهذه كلها مفرقات نفسية... بعضها أشد من بعض كآبارود، إلى الديناميت، إلى الميلينيت؛ ولكن شوقي كان في مرتقى لم يبلغه الناقد، فأنقلب جهده هذا عجزاً، وأصبح آبارود والتراب في يده بمعنى واحد...

ومن أعجب ما عجبته له من أمر هذا الناقد، أنني رأيتُه يُقرِّرُ للناسِ صواب الحقيقة بزعمه، فإذا هو يُقرِّرُ غلطه وجهله وتعسفه؛ وهو في كل ما يكتب عن شوقي يكون كالذي يرى الماء العذب وعمله في إنبات الروع وتوشيته^(١) وتلويته، فيذهب يعينه للناس بأنه ليس هو البنزين... الذي يُحرك السيارات والطائرات!

تناول شوقي بعد موته فجرده^(٢) من الشخصية، أي من حاسة الشعر، ومن إدراك السر لا يخلق الشاعر الحق لإدراكه والكشف عن حقائقه؛ وكان فيما استدلل به على ذلك أن شوقي لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومي في قوله:

تجدُ الوحوش به كفايتها والطيور فيه عتيدة الطغم
فظباؤه تُضحى بمُنْتَطَح وحمائمُه يُضحى بمُخْتَصِم

وزعم أن ابن الرومي قد ولد بحاسة لم يولد بها شوقي، ولهذه الحاسة اندمج في الطبيعة فأدرك سر الربيع، وأنه غليان الحياة في الأحياء، فالظباء تنتطح من الأشر الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب... لا ناطحة ظباء.

أما شوقي الشاعر الضعيف العاجز لم يولد بمثل تلك الحاسة، فلو أنه شهد ألف ربيع لما أحس هذا الإحساس، ولا استطاع أن يجيء بهذا القول المعجز؛ وكل ذلك من هذا الناقد جهل في جهل، وأعاليل بأضاليل بأباطيل؛ فابن الرومي في هذا المعنى لص لا أكثر ولا أقل، فلم يحسن شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع.

(٢) جرّده: عزاه.

(١) توشيته: تجيله.

قال الجاحظ: يُقالُ في الخِصْبِ (أي الربيع): نَفَسَتْ العنْزُ لِأَخْتِهَا؛ وُخِلْتُ أَرْضاً تَظَالُمُ مِغْزَاهَا (أي تتظالم)؛ قال: لِأَنَّهَا تَنفَسُ شَعْرَهَا وَتَنْصِبُ رُوقَهَا فِي أَحَدِ شِقَائِهَا فَتَنْطَحُ أَخْتَهَا، وَإِنَّمَا ذَاكَ مِنَ الْأَشْرِ، (أي حين سَمِنَتْ وَأَخْصَبَتْ وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا).

فأنت ترى أَنَّ أَبْنَ الرومِيِّ لم يصنع شيئاً إِلَّا أَنَّهُ سَرَقَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ جَمِيعاً، ثُمَّ جَاءَ لِلْقَافِيَةِ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ الْخَفِيفَةِ الَّتِي قَاسَ فِيهَا الْحَمَامَ عَلَى الطَّيْرِ وَالْمِعْزَى... فَاسْتَكْرَهَ الْحَمَامَ عَلَى أَنْ يَخْتَصِمَ فِي زَمَنِ بَعِينِهِ وَهُوَ يَخْتَصِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ؛ وَإِنَّمَا شَرَطُ الزِّيَادَةِ فِي السَّرْقَةِ الشَّعْرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَى الْمَعْنَى فَتَجْعَلَهُ كَالْمَنْفَرِدِ بِنَفْسِهِ أَوْ كَالْمَخْتَرَعِ.

وَلَعَمْرِي لَوْ كَانَ لِلطَّبِيعَةِ مَائَةٌ صُورَةٍ فِي الْخَيَالِ الشَّعْرِيِّ، ثُمَّ قَدَّمَ شَوْقِي لِلنَّاسِ تِسْعاً وَتِسْعِينَ مِنْهَا، لَقَالَ ذَلِكَ النَّاقدُ الْمَتَعَتُّ: لَا، إِلَّا الصُّورَةُ الَّتِي لَمْ يَقْدَمْهَا...

وَكَانَ شَعْرُ شَوْقِي فِي جِزَالَتِهِ وَسِلَاسَتِهِ كَأَنَّمَا يَحْمِلُ الْعَصَا لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ يَرُدُّهُمْ بِهَا عَنِ السُّفْسَفَةِ^(١) وَالتَّخْلِيطِ وَالِاضْطِرَابِ فِي الَّلَفْظِ وَالتَّرَكِيبِ؛ فَكَثُرَ الْأَخْتِلَالُ فِي النَّاشِئِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَجَاؤُوا بِالْكَلَامِ الْمَخْلُطِ الَّذِي تَبَعْتُ عَلَيْهِ رِخَاوَةً الطَّبِيعِ وَضَعْفُ السَّلِيقَةِ، فَتَرَاهُ مَكْشُوفاً سَهْلاً وَلَكِنْ سَهْوَلَتُهُ أَقْبَحُ فِي الذَّوْقِ مِنْ جَفْوَةِ الْأَعْرَابِ عَلَى كَلَامِهِمُ الْوَحْشِيِّ الْمَتْرُوكِ.

وَالْآفَةُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَذْهَبِ يَفْرَضُونَ مَذْهَبَهُمْ فَرْضاً عَلَى الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: دَعُوا اللُّغَةَ وَخَذُونَا نَحْنُ! وَلَيْسَ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْلِيدِ الْأَدَبِ الْأَوْروْبِيِّ، فَكُلُّ مِنْهُمْ عَابِدُ الْحَيَاةِ، مَنْدَمِجٌ فِي وَحْدَةِ الْكُونِ، يَأْخُذُ الطَّبِيعَةَ مِنْ يَدِ اللَّهِ وَيُجَارِي أَلَانَهَا، وَيَفْتَنِي فِي اللَّذَّةِ، وَيُعَانِقُ الْفُضَاءَ، وَيَغْنِي عَلَى قِيَارَتِهِ لِلنَّجُومِ؛ وَبِالْإِخْتِصَارِ: فَكُلُّ مِنْهُمْ مَجْنُونٌ لُغَوِيٌّ...

وَأَنَا فَلَسْتُ أَرَى أَكْثَرَ هَذَا الشُّعْرِ إِلَّا كَالْجَيْفِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْجَيْفَةَ لَا تُعَدُّ كَذَلِكَ فِي الْوُجُودِ الْأَعْظَمِ، بَلْ هِيَ فِيهِ عَمَلٌ تَحْلِيلِيٌّ عِلْمِيٌّ دَقِيقٌ؛ لَقَدْ

(١) السفسفة: الانحطاط.

صدقوا؛ ولكن هل يكذب من يقول: إِنَّ الجيفةَ هي فسادٌ ونتاجٌ وقَدْرٌ في اعتبارِ
وجودنا الشخصي، وجودِ النظرِ وَالشَّم، وَالانقباضِ وَالانبساط، وسلامةِ الذوقِ
وفسادِ الذوقِ!

وكانَ حاسدو شوقي يحسبونَ أَنَّهُ إذا أُزيحَ من طريقِهِمْ ظَهَرَ تقدُّمُهُمْ؛ فلَمَّا
أُزيحَ مِنَ الطَّرِيقِ ظَهَرَ تأخُّرُهُمْ... وهذه وحدها من عجائبه - رحمه الله - .
وقد كان هذا الشاعرُ العَظيمُ هبةً ثلاثةَ ملوكٍ للشعب، فهيئاتُ ينبغُ مثلهُ إِلَّا
إذا عملَ الشعبُ في خِدمةِ الشعرِ والأدبِ عملَ ثلاثةِ ملوك... وهيئات!

الشعرُ العربيُّ في خمسين سنة

إذا اعتبرت الشعرَ العربيَّ قبلَ خمسين سنةَ خَلَتْ (أي قبلَ إنشاءِ المقتطفِ) وتأمَلْتَ جِلْيَتَهُ ومَعرَضَهُ، ونظَرْتَ في منهاجِهِ وطريقَتِهِ، وتصفَّحْتَ معانيَهُ وأغراضَهُ - لم ترَ منه إلَّا شبيهاً بما تراه من بقايا الورقِ الأخضرِ في شجرةٍ ثَقُلَ عليها الظلُّ فهو جامدٌ مُستَوخَمٌ، وحُمٌ في ظلِّها شعاعُ الشمسِ فهو باردٌ يرتعدُ^(١)، فَالحياةُ فيها ضعيفةٌ متهايكةٌ، لا هي تموتُ كالموتِ ولا هي تحيا كالحياةِ، وما ثَمَّ إلَّا ماءٌ ناشفٌ ورونقٌ عليلٌ ومنظرٌ مِنَ الشجرةِ الواهنةِ كأنَّه جسمُ الربيعِ المعتلُّ بدَتِ عروقه وعظامه.

وكانَ ذلكَ الشعرُ فاسدَ السبكِ، مُتَخَلِّفَ المنزلةِ، قليلَ الطلاوةِ، بينَ مديحٍ قد أُعيدَ كلُّ معنًى من معانيهِ في تاريخِ هذه اللُغةِ بما لا يُخصِّيه^(٢) إلَّا الملائكةُ الموكلونَ بإحصاءِ الكذبِ، وبينَ هجاءٍ ساقطٍ هو بعضُ الموادِ التي تشتعلُ بها نارُ الله يومَ تَطْلُعُ على الأفئدةِ، وبينَ غزلٍ مسروقٍ مِنَ القلوبِ التي كانت تُحبُّ وتعشقُ، وبينَ وصفٍ لا عيبَ لموصوفِهِ سواءَ، وشكوى مِنَ الدهرِ يشكو الدهرُ منها، وتحزّنٍ ويأسٍ وندبٍ تجعلُ ديوانَ الشاعرِ كما سَمِيَ أحدُ ظرفاءِ القرنِ الثاني عشرِ للهجرةِ ديوانَ أحدِ أصحابِهِ «بالملطمة...»، وراثٍ كقراءةِ القراءِ في جنازاتِ الموتى، لا فيها عِظَةُ السكوتِ ولا فائدةُ النطقِ، وتغمُرُ كلُّ ذلكَ أنواعٌ مِنَ الصناعاتِ بَيِّنَةُ التعسُّفِ، ضعيفةُ التقليدِ، لا ترى المتأخِّرَ فيها معَ المتقدمِ إلَّا قريباً ممَّا يكونُ عملُ اللَّصِّ في أخذِ المالِ، من عملِ صاحبِ المالِ في جمعيهِ؛ وَالْعَجِيبُ أَنَّكَ إذا اعترضتَ الشعرَ مِنَ القرنِ العاشرِ للهجرةِ إلى القرنِ الثالثِ عشرِ (السادسَ عشرَ للميلادِ إلى التاسعَ عشرَ) رأيتهُ نازلاً من عصرٍ إلى عصرٍ بتدرِجٍ مِنَ الضعيفِ إلى الأضعفِ، حتى كأنَّما ينحطُّ بقوةٍ طبيعيَّةٍ كقوةِ الجذبِ، كلُّما هبطتُ شيئاً أسرعَتْ

(١) يرتعد: يرتجف.

(٢) يخصيه: يعده.

شيئاً إلى أن تلتصق بالأرض، وبعضهم يُسمي هذه العصور بالعصور المظلمة، ولم يتنبه أحد إلى أن في الأدب ناموساً^(١) كنamos رد الفعل، يُخرج أضعف الضعيف من أقوى القوة، وأن انحطاط الشعر في تلك العصور - على أنه لم يكن إلا صناعة بديعية - إنما سببه القوة الصناعية العجيبة التي كانت للشعر منذ القرن السادس إلى العاشر، بعد أن نشأ القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)؛ وكان رجلاً من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها أزمنة وتنتهي عندها أزمنة؛ ففتن الناس بأدبه وصناعته، وصرف الشعر والكتابة إلى أساليب النكتة البديعية؛ وظهرت من بعده عصابته التي يسمونها العصابة الفاضلية، وما منهم إلا إمام في الأدب وعلومه، فكان في مضر القاضي ابن سناء الملك، وسراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، وأضرابهم؛ وكان في الشام عبد العزيز الأنصاري، والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، وأمثالهم؛ فهذه العصابة هي التي تقابل في تاريخ الأدب العربي عصابة البديع الأولى: كمسلم، وأبي تمام، وأبن المعتز، وغيرهم؛ وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وصرفته زمناً، وأحدثت فيه انقلاباً تاريخياً متميزاً؛ بيد أن العصابة الفاضلية بلغت من الصنعة مبلغاً لا مطمع في مثله لأحد من بعدها، حتى كأنهم لم يدعوا كلمة في اللغة يجرى فيها نوع من أنواع البديع إلا جاؤوا بها وصنعوا فيها صنعة؛ وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليه، إلى آخر المائة الثامنة، فلم يتركوا باباً لمَن يأتي بعدهم إلا باب السرقة بأساليبها المعروفة عند علماء الأدب.

ولهذا لا تكاد تجد شعراً عربياً بعد القرن التاسع إلى أول النهضة الحديثة، إلا رأيته صوراً ممسوخة مما قبله؛ وكل شعراء هذه القرون ليسوا بممن وراءهم إلا كالظل من الإنسان: لا وجود له من نفسه، وهو ممسوخ أبداً إلا في الندرة حين يسطع في مرآة صافية؛ ومتى كان الشعراء لا ينشئون إلا على فنون البلاغة وصناعاتها، وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون؛ فما ثم جديد في الأدب والفن إلا ولادة الشعراء وموتهم، وإلا تغير تواريخ السنين... وهذا إذا لم نعد من الأدب تلك الصناعات المستحدثة التي ابتدعها المتأخرون مما سنشير إلى بعضه: كالتاريخ الشعري وغيره.

(١) ناموساً: قانوناً.

إِنَّ الْفَكْرَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَسِيرُ التَّارِيخَ، وَلَا يُقَدَّرُ قَدْرًا فِيهِ، وَلَا يَنْقَلُهُ مِنْ رَسْمٍ إِلَى رَسْمٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كَمَا خُلِقَ مُضْلِحًا خُلِقَ مُفْسِدًا وَكَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوجَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْنَى، وَكَمَا تَطَّرَدُ بِهِ سَبِيلٌ تَلْتَوِي بِهِ سَبِيلٌ أُخْرَى؛ وَمَا أَشْبَهَ هَذَا الْفَكْرَ فِي رَوْعِيهِ بِقِطَارِ الْحَدِيدِ: يَطِيرُ كَالْعَاصِفَةِ وَيَحْمِلُ كَالْجَبَلِ وَيُدْهِشُ كَالْمَعْجِزَةِ، وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَا شَيْءَ لَوْلَا الْقَضِيَّانِ الْمَمْتَدَانِ فِي سَبِيلِهِ، يَحْرِفَانِهِ كَيْفَ أَنْحَرَفَا، وَيَسِيرَانِ بِهِ أَيْنَ أَرْتَمِيَا، وَيَقِفَانِ بِهِ حَيْثُ أَنْتَهِيَا؛ ثُمَّ هُوَ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَلِبُ لِأَوْهَى اخْتِلَالٍ يَقَعُ فِيهِمَا.

لَا جَرَمَ كَانَتْ الْعُصُورُ مَرْسُومَةٌ مَعِينَةٌ النَّمْطِ ذَاهِبَةٌ إِلَى الْكَمَالِ أَوْ مُنْحَدِرَةٌ إِلَى النَقْصِ، حَسَبَ الْغَايَاتِ الْمَحْتَوِمَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا الْفَكْرُ فِي طَرِيقِ الْقَدْرِ الَّذِي يَقُودُهُ. فَهَذِهِ عُلُومُ الْبَلَاغَةِ الَّتِي أَحْدَثَتْ فَنَاءً طَرِيفًا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَأَنْشَأَتْ الذُّوقَ الْأَدَبِيَّ نَشَأَتُهُ الرَّابِعَةَ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللَّغَةِ، بَعْدَ الذُّوقِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْمُحَدَّثِ، وَالْمَوْلُودِ - هِيَ بَعِينُهَا الَّتِي أَضْعَفَتْ الْأَدَبَ وَأَفْسَدَتْ الذُّوقَ وَأَصَارَتُهُ إِلَى رَأْيِنَا فِي شَعْرِ الْمَتَأَخِّرِينَ، كَأَنَّمَا انْقَلَبَتْ عَلَيْهِمْ عُلُومًا مِنَ الْجَهْلِ، حَتَّى صَارَ النَّمْطُ الْعَالِي مِنَ الشَّعْرِ كَأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ؛ إِذْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ، وَلَا حَفْلَ بِهِ؛ لِمُبَايِنَتِهِ لِمَا أَلْفَوْا وَخُلُوهُ مِنَ الْنَكْتَةِ وَالصَّنَاعَةِ؛ وَحَتَّى كَانَ فِي أَهْلِ الْأَدَبِ وَمُدْرِسِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ دِيْوَانَ الْمُتَنَبِّي!

وَلَا يَصِفُ لَكَ مَعْنَى الشَّعْرِ فِي رَأْيِ أَدْبَاءِ ذَلِكَ الْعَهْدِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ١٨٧١:

مَلَلْتُ مِنَ الْقَرِيضِ وَقُلْتُ يَكْفِي	لِأَمْرِ شَابٍ قُوَّتُهُ بِضَعْفٍ
أَحَاوَلْتُ نَكْتَةً فِي كُلِّ بَيْتٍ	وَذَلِكَ قَدْ تَقْصُرُ عَنْهُ كَفِّي
أَجَلُ الشَّعْرِ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْهُ	غَرَابَةُ نُكْتَةٍ أَوْ نَوْعُ لُطْفٍ

يُرِيدُ النُّكْتَةُ الْبَلَاغِيَّةَ وَأَنْوَاعَ الْبَدِيعِ، وَذَلِكَ مَا قَصَّرَتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَكَفُّ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ، حَتَّى لَا يَأْتِيَ الْمَتَأَخِّرُ بِمِثَالٍ فِيهِ إِلَّا وَجَدَتْهُ بِعَيْنِهِ لِمَنْ تَقَدَّمُوهُ عَلَى صُورٍ مُخْتَلَفَةٍ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَمَا يَأْتِي اخْتِلَافُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْحَذَقِ^(١) فِي إِخْفَاءِ السَّرْقَةِ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، وَالْإِلْمَامِ وَالْمَلَاظَمَةِ وَالْتَعْرِيزِ وَالتَّصْرِيحِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَعْرِفُهُ أُمَّةُ الصَّنَاعَةِ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِأَقْوَى أَسْبَابِهِ إِلَّا مَنْ رَزَقَ الْقُوَّةَ عَلَى التَّوْلِيدِ وَالْإِخْتِرَاعِ.

(١) الحَذَقُ: المَهَارَةُ.

إذا عرفت ذلك السر في سقوط الشعر واضطرابه وسفسفته^(١)، لم تر غريباً ما هو غريب في نفسه، من أن بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلم الذي يصحح الرأي، ولا الاطلاع الذي يؤتي الفكر، ولا الحضارة التي تهدب الشعور، ولا نظام الحكم الذي يحدث الأخلاق؛ وإنما كان ضرباً من الجهل وقف حداً منيعاً بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا؛ وكان كالساحل لذلك الموج المتدفع الذي يتضرّب على مد ثمانمائة سنة من القرن السادس إلى الرابع عشر للهجرة؛ ولله أسرار عجيبة في تقليب الأمور وخلق الأحداث ودفع الحياة الفكرية من نمط إلى نمط، وإخراج العقل المبتدع من هيئة إلى هيئة، وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الإنساني في عصر واحد أو عصور متعاقبة، وإقامة بعض الأشخاص حدوداً على الأزمنة والتواريخ؛ فكان الذي أحدث الانقلاب الرابع في تاريخ الشعر العربي، وأنشأ الذوق نشأته الخامسة، هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودي، الذي لم يكن يعرف شيئاً البتة من علوم العربية أو فنون البلاغة؛ وإنما سمّت به الأهمّة لأنه حادثة مرسلّة للقلب والتغيير، فأبعده الله من تلك العلوم، وأخرجته لنا من دواوين العرب، كما نشأ مثل ابن المقفع والجاحظ من فصحاء الأعراب، ويسر له من أسباب ذلك ما لم يتفق لأحد غيره ممّا لا محل لبسطه هنا، ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يذكر في شعر كل عصر من لدن زمننا إلى صدر الإسلام ثم لا تنحط مرتبته - غير كلام البارودي هذا؛ وهو وحده الذي يقابل القاضي الفاضل في أدوار التاريخ الأدبي، على بعد ما بينهما؛ لأنّ شعره هو الذي نسخ آية الصناعة، ودار في السنة الرواة، وكان المثل المحتذى في القوة والجزالة ودقّة التصوير وتصحيح اللغة؛ ولم يشأ الله أن يسبقه إلى ذلك أحد؛ لأنّ النهضة الاجتماعية في هذا الشرق العربي كانت في علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها؛ ولولا ذلك لسبقه شاعر القرن الحادي عشر الأمير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م)؛ فقد اتفقت لهذا الأمير نشأة كنشأة البارودي، فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الأولى، وكان يقلّد أبا فراس الحمداني ويحتذي على مثاله؛ ولكن عصره كان في العصور الهالكة، فخرج أشاعر ضعيفاً كما يخرج كل شيء في غير وقته ولغير تمامه وبغير وسائله الطبيعية.

(١) سفسفة: انحطاط.

ونشأت العصابة البارودية وفيها إسماعيل صبري وشوقي وحافظ ومطران وغيرهم، وأدركوا ما لم يدركه البارودي وجاءوا بما لم يجيء به، واتصل الشعر ببعضه ببعض، وسارت به الصحف، وتناقلته الأفواه، وأنسى ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة المدرسية الحديثة التي جعلت من ترك البلاغة بلاغة؛ لأنها صادفت أوائل الانقلاب ليس غير؛ وبذلك بطل في مصر عصر أبي النصر والليثي والساعاتي والنديم وطبقتهم، وفي الشام عصر أليازجي والكستبي والأنسي والأحذب وأضرابهم، وفي العراق عهد الفاروقي والموصلي والتميمي وسواهم؛ وأستقل الشعر عربياً وخرج كما يخرج الفكر المخترع ماضياً في سبيل غير محدودة.

* * *

لا ريب في أن الطرق التي تتبع في تربية الأمة وتكوين روجها العالمية لا بد أن يكون لها أثر بين في شعر شعرائها؛ فإنما الشعر فكر ينبض وعاطفة تختلج، وما أرى الشاعر الحق من أمته إلا كالزهرة الصغيرة من شجرتها؛ إن لم تكن خلاصة ما فيها من القوة، فهي خلاصة ما في الشجر من معنى الجمال ولونه وملسمه، ولا تعدم مع هذه الصفة أن تكون وحدها الكوكب الساطع في هذا الأفق الأخضر كله. ولقد أطردت النهضة منذ خمسين سنة أو حولها، في الأدب والعلم؛ وفي الفكر والفن والصناعة؛ وأستوى لنا من ذلك ما لم يتفق لهذه الأمة في عصر من عصورها، حتى بلغنا من ذلك أن صرنا كأنما فتحنا أرضاً من أوروبا وتغلبنّا عليها، أو أنشأنا أوروبا عربية وما نزال نعمارها وننقل إليها العلوم والفنون والآداب، ونستخرج لها الأمثلة والأساليب؛ غير أن الشعر العربي مع هذا كله لم يوف قسطه ولم يبلغ مبلغه في مجارة هذه النهضة قوة ابتكار وسلامة اختراع وحسن تنوع، لسببين: الأول أنه لا يزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية: شعر فية لا شعر أمة، فهو يوضع للخاصة لا للشعب. ويدور مع الأغراض والحاجات لا مع الطباع والأذواق؛ وذلك لو تأملت، هو من بعض الأسرار في سمو هذا الشعر وقوة إحكامه وإبداع تنسيقه وجمال توشيح من الدولة العباسية إلى القرن الخامس؛ ثم انحطاطه بعد ذلك وتدنيه شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الأسفل في العصور المتأخرة؛ إذ كانت الفئة التي يوضع لها ويصف أهواءها وأغراضها وتتقبله وتثيب^(١) عليه وتُحسِن وزنه ونقده، هي في الناحيتين كما ترى من طرفي المنظار الذي يُقرب

(١) تثيب: تكافئ.

البعيد، فهي بالنظر في أوله واضحة جليّة مُترامية إلى الجهات، وبالنظر في آخره ضئيلة ممسوخة لا تكاد تُعرف. وما أقضى العجب من غفلة بعض الكتّاب في هذا الزمن إذ يناهضون العربية ويزرون على الفصاحة ويعملون على أنكماش سوادها وتقليل أهلها. وما يدرون أنهم بذلك يسقطون الشعر قبل الكتابة على خطي أو عمود وقلما تجد واحداً من هؤلاء يحسن معالجة الشعر، فإن أصبت له شعراً وجدته لا غناء فيه أو في أكثره، وأين وضعت يدك منه لم تخطيء أن تقع على مثل مما يمثل به عيب من عيوب البلاغة.

وهذه النهضة التي نحن في صدد الكلام عنها أوسع مدى وأوفر أسباباً من تلك التي كانت في الدولة العباسية، بما دخلها من أدب كل أمة، وما اتصل بها من أساليب الفكر: ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها، المتعصبون لها العاملون على بثها في الألسنة، مع أن عصرهم أوسع من عصر الرواة، بكثرة ما أخرجت المطابع من أمهات الكتب والدواوين، حتى أغنت كل مطبعة أدبية عن راوية من أئمة الرواة.

والسبب الثاني الذي من أجله لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلته الواجبة له - سقوط فن النقد الأدبي في هذه النهضة؛ فإن من أقوى الأسباب التي سمت بالشعر فيما بعد القرن الثاني جعلت أهله يبالغون في تجويده^(١) وتهذيب، كثرة النقد والحفاظ. وتتبعهم على الشعراء، وأعتبار أقوالهم، وتدوين الكتب في نقديهم، كالذي كان في دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب، وكالذي صنّفه مهلهل بن يموث في نقد أبي نواس وأحمد بن طاهر، وأبن عمّار في أبي تمام، وبشر بن تميم في البحتري، والآمدي في الموازنة، وألحاتمي في رسالته، والجرجاني في الوساطة، وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل، وأنت من النقد في هذه النهضة بين اثنين: صديق هو الصديق أو عدو هو العدو... فإن ابتغيت لهما ثالثاً فكاتب لا تتعادل وسائل النقد فيه فلا خير في كلامه، أما الناقد الذي استعرض علم العربية وآدابها، وكان شاعراً كاتباً قوي العارضة^(٢)، دقيق الحس ثاقب الذهن، مستوي الرأي بصيراً بمذاهب الأدب متمكناً من فلسفة النقد مبرزاً في ذلك كله - فهذا الخيال يذكّرني كلمة قلّتها يوماً للبارودي إذ قلت له: إن

(١) تجويده: تحسينه وإتقانه.

(٢) قوي العارضة: متمكن من ملكته الشعرية الفنية وحجته.

الشاعر لا يكون لسانَ زمنه حتى يُوجَدَ معه الناقدُ الذي هو عقلُ زمنه؛ فقال: ومنَ ناقدِ الشعرِ في رأيك؟ قلتُ: الكاتبُ وهو شاعر، والأديبُ وهو فيلسوف، والمُصلِحُ وهو موفق؛ فكأنما هوُلْتُ عليه حتى قال - رحمهم الله - «فين دا كلّه؟» قلتُ: فلعلّه لا يُنشئ لنا هذا العقلَ الملتهبَ إلاّ العصرُ الذي يُوجدُ لنا أسطولاَ كأسطولِ إنجلترا.

وعلى ما نزلَ بالشعرِ العُضريِّ من هذين السببين فقد استقلتُ طريقته وظهرَ فيه أثرُ التحولِ العِلْمِيِّ وَالْانْقِلَابِ الْفِكْرِيِّ، وَعَدَلَ بِهِ أَهْلُهُ إِلَى صُورِ الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي أَكْثَرِهِ صُوراً مِنَ الْلُغَةِ، وَأَضَافُوا بِهِ مَادَّةَ حَسَنَةً إِلَى مَجْمُوعَةِ الْأَفْكَارِ الْعَرَبِيَّةِ، وَنَوَّعُوا مِنْهُ أَنْوَاعاً بَعْدَ أَنْ كَانَ كَالْشَيْءِ الْوَاحِدِ، وَاتَّسَعَتْ فِيهِ دَائِرَةُ الْخَيَالِ بِمَا نَقَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُرْتَجَمَةِ مِنْ لُغَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْأَنَاحِيَةِ أَوْسَعُ مِنْ شَعْرِ كُلِّ عَصْرِ فِي تَارِيخِ هَذِهِ الْلُغَةِ: إِذْ كَانَ الْأَوَّلُونَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنَ الْيُونَانِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ، ثُمَّ أَخَذَ الْمُتَأَخِّرُونَ قَلِيلاً قَلِيلاً مِنَ التَّرَكِّيَّةِ؛ أَمَّا فِي الْعَهْدِ الْأَخِيرِ فَيَكَاذُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ كُلُّهُ يَكُونُ مَادَّةَ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ، لَوْلَا ضَعْفُ أَكْثَرِ الْمُخْدَثِينَ مِنَ النَّشْءِ الْجَدِيدِ فِي الْبَيَانِ وَأَسَالِيهِ، وَيُعَدُّهُمْ مِنْ ذَوِقِ الْلُغَةِ وَأَعْتِيَاصِ^(١) مَرَامِهَا عَلَيْهِمْ، حَتَّى خَسِبُوا أَنَّ الشَّعْرَ مَعْنَى وَفَكْرٌ، وَأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ أَدَّى الْمَعْنَى فَهُوَ كَلَامٌ، وَلَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْلُغَةِ وَصَنَاعَتِهَا، وَالْبَيَانِ وَحَقِيقَتِهِ؛ وَحَتَّى صِرْنَا - وَاللَّهِ - مِنْ بَعْضِ الْغَثَاثَةِ وَالرَّكَكَاتَةِ وَالْإِخْتِلَالِ فِي شَرٍّ مِنْ تَوْعُرِ نَظْمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَجَفَاءِ الْفَاطِظِ وَكَرَازَةِ مَعَانِيهِ؛ وَهَلْ تَمَّ فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ تَنْفَرِ الْنَفْسُ مِنَ الشَّعْرِ لِأَنَّهُ وَعَرُّ الْأَلْفَاظِ عَسِيرُ الْأَسْتِخْرَاجِ شَدِيدُ التَّعَسُّفِ، وَبَيْنَ أَنْ تَمَجُّهُ لِأَنَّهُ سَاقِطُ الْفَلِظِ، مَتَسَوِّلُ الْمَعْنَى، مُضْطَرِبُ السِّيَاقِ؟ ثُمَّ تَرَاهُمْ يُنْجِزُونَ الشَّعْرَ كُلَّهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِ نَمْطاً وَاحِداً مِنْ تَسْهِيلِ الْفَلِظِ وَنَزْوِلِهِ، حَتَّى كَأَنَّ هَذِهِ الْلُغَةَ لَا تَنْوَعُ فِي الْفَاطِظِ وَأَجْرَاسِ الْفَاطِظِ^(٢)، مَعَ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنْ أَحْسَنِ مُحَاسِنِهَا وَأَخْصَّ خَصَائِصِهَا دُونَ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، كَمَا أَنَّ كُلَّ تَنْوَعٍ هُوَ مِنْ أَبْدَعِ أَسْبَابِ الْجَمَالِ وَالْقُوَّةِ فِي كُلِّ فَنٍّ؛ وَلَا يَدْرِي أَصْحَابُنَا أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ عِبْتُ فِي عِبْتُ^(٣) إِذَا هُمْ لَمْ يُعْطُوا الشَّعْرَ حَقَّهُ مِنْ صِنَاعَةِ الْلُغَةِ؛ وَهَذَا شَاعِرُ الْفَرَسِ الشَّهِيرُ مُصْلِحُ الدِّينِ السَّعْدِيُّ الشَّيْرَازِيُّ

(١) اعتياص: صعوبة.

(٢) أجراس ألفاظها: موسيقاها.

(٣) عبت: لعب، لا طائل منه.

إمام من أئمة البلاغة في قومه لا يدفع مكانه وشعره مثل من أسمى الأمثلة في جمال المنطق الروحي، وليس في الناس إلا من يسلم له هذا المحل من النبوغ، وهو مع ذلك حين نظم الشعر لم تنفعه نافعة من حكمة أو خيال أو فكر، وذهب في التعسف كل مذهب، وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه إلا صحة الوزن، كقوله في وصف نكبة بغداد وتخريبها:

فَقَدْ تُكَلَّتْ أُمُّ الْقُرَى ^(١) وَلَكُغْبَةِ	مدامع في الميزاب ^(٢) تُسَكَّبُ فِي الْحَجَرِ
عَلَى جُدُرِ الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ نَدْبَةً	عَلَى أَلْعَمَاءِ الرَّاسَخِينَ ذَوِي الْحَجَرِ
نَوَائِبُ ^(٣) دَهْرٍ لَيْتَنِي مِثَّ قَبْلَهَا	وَلَمْ أَرِ عَدَوَانَ السَّفِيهِ عَلَى الْخَبَرِ
مَحَابِرُ تَبْكِي بَعْدَهُمْ بِسَوَادِهَا	وَبَعْضُ قُلُوبِ النَّاسِ تَأْلَفُ بِالْغَدْرِ
لَحَى اللَّهَ ^(٤) مَنْ تُسَدِّي ^(٥) إِلَيْهِ بِنِعْمَةٍ	وَعِنْدَ هُجُومِ الْيَأْسِ أَخْلُكُ مِنْ حَبْرِ

فأنظر أي شعر هذا في الركاكة والأهذيان والسُخْف، وفي خمود الفكر وضعف الروح وذهاب الرونق^(٦)، وتأمل كيف هوى به السعدي من مكانته التي بؤاه إياها أدبه العالي، وكيف سقط إلى حيث ترى، مع أنه في محراب الفكر إمام وراءه صفوف من عصور البلاغة.

ومن ههنا نشأ في أيامنا ما يسمونه «الشعر المنثور»، وهي تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه؛ فليس يضيق الشعر بالمعاني الشعرية، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب؛ ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علة ولايسر سبب، ولا يوفق إلى سبك المعاني فيها إلا من أمدته الله بأصح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان؛ فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ أو فساد العبارة أو ضعف التأليف، ولا تستوي فيه أسمى المعاني مع شيء من هذه العلل وأشباهها، وتراه يلقي بمثل (السعدي) من الفلك الأعلى إلى الحضيض، لا يقيم له وزناً ولا يرعى له مَحَلّاً ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة؛ غير أكثر يحتمل كل أسلوب، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهي إلى العامي الساقط والسوقي البارد؛ ومن شأنه أن ينسبط وينقبض على ما

(١) أم القرى: مكة.

(٢) الميزاب، جمعه ميازب، وهو أنبوب تجري فيه المياه.

(٣) نوائب: مصائب.

(٥) تُسَدِّي: تقدم.

(٤) لحي الله فلاناً: قبحه ولعنه.

(٦) الرونق: الطلاوة.

شئت منه، وما يتفق فيه من الحُسن الشعري فإنما هو كالذي يتفق في صوت المطرب حين يتكلم لا حين يُغني: فمن قال: «الشعر المثور» فأعلم أن معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية وأدعأؤه من ناحية أخرى.

* * *

والذي أراه جديداً في الشعر العربي مما أبدعته هذه النهضة أشياء:

أولاً: هذا النوع القصصي الذي توضع فيه القصائد الطوال، فإن الآداب العربية خالية منه؛ وكان العرب ومن بعدهم إذا ذكروا القصة ألثوا بها اقتضاباً^(١) وجاءوا بها في جملة السياق على أنها مثل مضروب أو حكمة مرسلّة أو برهان قائم أو احتجاج أو تعليل وما جرى هذا المجرى مما لا ترد فيه القصة لذاتها ولا لتفصيل حوادثها، وهو كثير في شعر الجاهليين والإسلاميين، والجيد منه قليل حتى في شعر الفحول؛ فإن طبيعة الشعر العربي تأباه؛ والذين جاءوا به من العصريين لا يجدون منه إلا قطعاً تعرض في القصيدة وأبياتاً تتفق في بعض معانيها وأغراضها مما يجري على أصله في سائر الشعر طال أو قصر؛ والسبب في ذلك أن القصة إنما يتم تمامها بالتبسُّط في سردها وسياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر أوصافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به، وإنما بُني الشعر العربي في أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد، وعلى الشعور لا على الحكاية؛ ولا يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس؛ فهو في الحقيقة عندهم صناعة روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية والفخر والاستطالة ونحوها من المعاني التي هي بسبب من أسباب الانفعال والنزعة؛ فلا جرم كان سبيلهم إلى ذلك هو التحديد لا الإطلاق، وضبط المقادير لا الإسراف؛ إذ كان من شأن هذه الأمور في طبيعة النفس أن ما زاد منها عن مقداره تحوّل وأنقلب في تأثيره، وذلك هو السبب أيضاً في أن هذا الشعر ما لم يكن قائماً على اختيار اللفظ وصناعة العبارة وتصفياتها وتهذيبها واختيار الوزن للمعنى وإدارة الفكر على ما يلفت من ضروب المجاز والاستعارة ونحوها - سقط ورك بمقدار ما ينقصه من ذلك؛ وليس الشأن في إطالة القصيد؛ فمن الشعراء من نظم رويّاً واحداً في أربعة آلاف بيت، ومنهم من نظم تفسير القرآن كله؛ ولكن

(١) اقتضاباً: اختصاراً.

عيبٌ مثل هذا الشعرِ في العربيّة أنّه شعر... وما أخملَ ابنُ الرومي على جلاله محلّه إلاّ طولُ قصائده وسياقه الكلام فيها مع ذلك على ما يُشبه أسلوبَ الحكاية وخروجها مخرجَ المقالة يتحدّثُ بها، فلم تحيَ له إلاّ مقطعاتٌ وأبياتٌ ومات سائرُ شعره وهو حيٌّ وميتٌ على السواء، حتى قالَ فيه صاحبُ الوساطة: «ونحن نستقرئُ القصيدةَ من شعره وهي تُناهزُ المائةَ أو تُربي أو تضعف، فلا نعثرُ فيها إلاّ بالبيت الذي يروقُ أو البيتين، ثمّ قد تنسلخُ قصائدُ منه وهي واقفةٌ تحت ظلّها جاريةٌ تحت رسلها لا يحصلُ منها السامعُ إلاّ على عددٍ القوافي...».

والعجيبُ أنّ بعضَ الكتّابِ في عصرنا ممّن لا تحقيقَ لهم في مثل هذه المسائل، يعدّون أحسنَ محاسنِ ابنِ الرومي ما هو أقبَحُ عيوبه، وقاتلُ الله صناعةَ الكتابة، فكما أنّها لملءُ الفراغ هي كذلك لإفراغ الملائن...

ثانياً: صياغةُ بعضِ الشعرِ على أصلِ التفكيرِ في الإنجليزيّة أو الفرنسيّة أو غيرهما من لغاتِ الأمم، فيخرجُ الشعرُ عربياً وأسلوبه في تأديةِ المعنى أجنبيّ؛ وأكثر ما يأتي هذا النوعُ من أمريكا، وأنا أعجبُ بكثيرٍ منه لما فيه من الغرابة والخسّن.

وما زالتْ أجناسُ الأممِ يضيقُ بعضها بأشياء ويتسعُ بعضها بأشياء فلسنا مُقيدينَ بالفكرِ العربيّ ولا بطريقته، وعلينا أن نُضيفَ إلى محاسنِ لغتنا محاسنَ اللغاتِ الأخرى؛ ولكن من غير أن تُفسدَها أو نحيفَ عليها أو نبيعَها ببيعِ الوُكُس^(١)؛ ومتى كانَ هذا النوعُ من الشعرِ رصيناً مُحكماً جيدَ السبكِ رقيقَ المعروض، كانَ في النهايةِ مِنَ الرقّة والإبداع؛ ولم يأتِ التجديدُ في هذه اللغة إلاّ من هذه الناحية، كالذي تراه فيما أخذَ عبد الحميدُ وابنُ المقفعِ من نمطِ الأداء في اللغةِ الفارسيّة.

ثالثاً: الانصرافُ عن إفسادِ الشعرِ بصناعةِ المديح والثناء، وذلك بتأثيرِ الحريةِ الشخصية في هذا العصر؛ والمدحُ إذا لم يكنْ باباً من التاريخ الصحيح لم يدلّ على سُمُو نفسِ الممدوح، بل على سقوطِ نفسِ المادح؛ وتراه مدحاً حين يُتلى على سامعه، ولكنه ذمٌّ حين يُغزى إلى قائله! وما أبْتُلِيَتْ لغةٌ من لغاتِ الدنيا بالمديح والثناء والهجاء ما أبْتُلِيَتْ هذه العربيّة؛ ولذلك أسبابٌ لا محلّ لتفصيلها.

(١) الوكس: النقصان والتقصير.

رابعاً: الإكثارُ مِنَ الوصفِ والإبداعِ في بعضِ مناحيه والتفتُّن في بعضِ أغراضه الحديثة: وذلك من أسمى ضروبِ الشعر، لا تتفقُ الإجادةُ فيه والإكثارُ منه إلا إذا كانَ الشعرُ حيّاً، وكانتْ نزعةُ العصرِ إليه قويّةً، وكانَ النظرُ فيه صحيحاً؛ ولَمّا وصفَ الشيخُ أحمدُ الكرديُّ (من شعراءِ القرنِ الثاني عشر) السفينةَ وأستهلَّ بهذا الوصفِ مدحَ الوزيرِ راغبِ باشا، عدّوا ذلك حادثه من حوادثِ الأدبِ في عصره، فتأمل!

خامساً: إهمالُ الصناعاتِ البديعيّةِ التي كان يُبنى عليها الشعر، فيُنظَّم البيتُ ليكونَ جناساً أو طباقاً أو استخداماً أو تورية الخ، أو ضرباً آخر من صناعةِ العددِ والحساب، كالتاريخِ الشعريِّ بأنواعه؛ أو صناعةِ الحرف، كالمقلوبِ والمهمَلِ وغيرهما: أو صناعةِ الفِكْرِ، كاللغزِ والمعمّى؛ أو صناعةِ الوضعِ كالتشجيرِ والتطريزِ، إلى ما يلتحقُ بهذا البابِ الذي ذهبَ أهلهُ فلا يتيسَّرُ لأحدٍ من بعدهم أنْ يُجاريهم فيه، وكانتْ لهم في كلِّ ذلكِ عجائبُ استقصيناها بالتدوينِ في موضعها من (تاريخِ آدابِ العرب)؛ بيدَ أنَّ إهمالَ صناعةِ البديعِ شيءٌ وإهمالُ فنِّ البديعِ نفسه شيءٌ آخر؛ ومن هنا جاء ما نراه في بعضِ الشعرِ الحديثِ «والشعرُ المنثور» من الإغراقِ السخيفِ الذي لا يقومُ على أصل، من التعدي في ضروبِ الاستعارة، والبعْدِ في المجاز، والإحالة في الوضع، ونحوها ممّا يرجعُ إلى الجهلِ بطبيعةِ البلاغة، وممّا لا نعدّه إلا ضرباً من الفسادِ يلتحقُ بما كانَ في العصورِ الماضيةِ وإنْ كانَ على الضدِّ منه.

سادساً: النظمُ في الشئونِ الوطنيّةِ والحوادثِ الاجتماعيّةِ، ممّا يجعلُ الشعرَ مُحيطاً بروحِ العصرِ وفكره وخياله، وهو بابٌ لا ينهضُ به إلا قلائل، ولا يزالُ ضعيفاً لم يستحْكَمْ^(١)؛ وقد قالوا: إنَّ للقاضي الفاضلِ أثنيَ عشرَ ألفَ بيتٍ في مدحِ الوطنِ والحنينِ إليه، ولكن لا أحسبُ أنَّ فيها مائةً من نحوِ ما يُنظمُ في هذا العصرِ ممّا أدّى بالشعرَ إلى أنْ يدخلَ في بابِ السياسةِ ويُعدَّ من وسائلها، وفي طرقِ التربيّةِ ويُعدَّ من أسبابها.

سابعاً: استخراجُ بعضِ أوزانٍ جديدةٍ من الفارسيّةِ والتركّيّةِ، وهو قليل، جاء به شوقي في قصيدتين ولم يتابعه أحد، لإفراطِ ذلك الوزنِ في الخِفّةِ حتى رجَعَ إلى

(١) لم يستحكم: لم يتقن ويقو.

أثقل... ثُمَّ نَظَمَ بَعْضُ الشُّعْرِ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قَرِيبَةٍ اَلتَّنَاسُقِ عَلَى قَاعِدَةِ اَلْمَوْشَحِ، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ لَا تَوْشِيحَ، كَمَا يَنْظُمُ بَعْضُ شُعْرَاءِ أَمْرِيكََا وَسُورِيَا؛ وَلَمْ يَحْدُثْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي اَلْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ اَلْقَصِيدَةَ كَانَتْ تُنْظَمُ مِنْ بَحْرِ وَاحِدٍ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهُ وَزْنٌ آخَرُ: وَلَا نَعْرِفُ فِي تَارِيخِ اَلْأَدَبِ قَصِيدَةً تَتَأَلَّفُ مِنْ وَزْنَيْنِ إِلَّا اَلَّذِي، قَالُوا إِنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ اَلصَّمَدِ اَلْمُتَوَفَى سَنَةَ ٩٨٤ هـ (١٥٧٦م) قَدْ اخْتَرَعَهُ وَنَظَمَ فِيهِ أُبَيَّاتُهُ اَلَّتِي مَطَّلَعَهَا:

فَاحَ عَرَفُ اَلصُّبَا وَصَاحَ اَلدِيكَ وَأَنْشَى اَلْبَانُ يَشْتَكِي اَلتَّحْرِيكَ
قُمْ بِنَا نَجْتَلِي مَشْعَشَعَةً تَاهَ مِنْ وَضْفِهِ بِهَا اَلنِّسِيكَ^(١)
وعَارَضَهَا وَلَدَهُ اَلْإِمَامُ اَلشَّهِيرُ بِهَاءِ اَلدِّينِ اَلْعَامِلِيِّ صَاحِبُ اَلْكَشْكُولِ بِأُبَيَّاتٍ قَالُوا: إِنَّهَا سَارَتْ فِي عَصْرِهِ مَسِيرَ اَلْمِثْلِ، وَنَسَجَ عَلَيْهَا شُعْرَاءُ ذَلِكَ اَلْعَصْرِ، كَالنَّابِلْسِيِّ وَغَيْرِهِ، وَمَطَّلَعَهَا:

يَا نَدِيمِي بِمُهْجَتِي أَفْدِيكَ قُمْ وَهَاتِ اَلْكُثُوسَ مِنْ هَاتِيكَ
خَمْرَةٌ إِنْ ضَلَلْتُ سَاحَتَهَا فَسَنَا^(٢) نَوْرَ كَاسِهَا يَهْدِيكَ
على أَنَّ هَذَا اَلْوَزْنَ بِشَطْرِيهِ مُسْتَخْرَجٌ مِنْ اَلْخَفِيفِ، فَلَيْسَ بِاخْتِرَاعٍ كَمَا زَعَمُوا، وَإِنَّمَا هُوَ اِبْتِدَاعٌ فِي اَلتَّأْلِيفِ اَلشُّعْرِيِّ؛ وَقَدْ أَجْتَرَأْنَا بِمَا مَرَّتِ اَلْإِشَارَةُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ كُلُّ مَا تَغَيَّرَ بِهِ اَلرَّسْمُ فِي هَذِهِ اَلصَّنَاعَةِ؛ وَتَرَكْنَا اَلْأَمْثَلَةَ تَفَادِيًا مِنْ اَلْإِطَالَةِ.

وبعدُ فلا ريبَ أَنَّ اَلنَّفْسَ اَلْبَشَرِيَّةَ فِي حَاجَةٍ أَبَدًا مَعَ دِينِهَا اَلرُّوحِيِّ إِلَى دِينِ إِنْسَانِيٍّ يَقُومُ عَلَى اَلشُّعُورِ وَاَلرَّغْبَةِ وَاَلتَّأَثُّرِ، فَيُفَسِّرُ لَهَا حَقَائِقَ اَلْحَيَاةِ، وَيَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ تَغْيِيرِهَا؛ لِيَجْعَلَهَا اَلطَّفَ مِمَّا هِيَ فِي اَللُّطْفِ، وَأَرْقَ مِمَّا تَكُونُ فِي اَلرَّقَّةِ، وَأَبْدَعَ مِمَّا تَتَّفِقُ فِي اَلْإِبْدَاعِ؛ ذَلِكَ اَلَّذِي يَصِلُ بِظَهْوَرِهِ وَإِبْهَامِهِ بَيْنَ اَلْوَاضِحِ وَاَلْغَامِضِ، وَاَلْخَالِدِ وَاَلْفَانِي؛ ذَلِكَ اَلَّذِي لَا يَجْمَلُ اَلْجَمَالَ إِلَّا بِهِ، وَلَا تَسْكُنُ اَلنَّفْسُ إِلَّا إِلَيْهِ؛ ذَلِكَ هُوَ اَلشُّعْرُ!

صُرُوفُ اَللُّغَوِيِّ

كَانَ شَيْخُنَا هَذَا رَجُلًا حَصِيْفًا^(٣) جَيِّدَ اَلْمَنْزَعَةِ حَسَنَ اَلرَّأْيِ، مُمَكِّنًا لَهُ فِيمَا كَانَ

(١) اَلنِّسِيكَ: اَلْعَابِدُ.

(٢) سَنَا: ضَوْءٌ.

(٣) حَصِيْفًا: ذَكِيًّا أَرِيًّا.

يعترضه من مسائل اللغة ، قويًا على الأحوال التي تجري له من أوضاعها فيما يعانیه من النقل ويُزاوله من الترجمة على اختلاف مناحيها وكثرة فنونها، وعلى أنها لا تزال كل يوم تبعث من علم وتحتفل من رأي وتمد مد السيل كأنها دنيا عقلية لا يبرخ عقل الإنسان دائباً يخلق فيها ويبنيها من معاني الكون وأسراره، فلا الكون ينفذ لنتم، ولا هي تتم قبل أن ينفذ الكون.

وثبت شيخنا على ذلك عمر دولة من الدول في خمسين سنة وثيف، يضرب قلمه في السهل والصعب، وفي الممكن والممتنع؛ وإنه ليمر في كل ذلك مرًا لا ينشئ، ويحذو حذوًا لا يختلف، كأن الصعب عنده نسق السهل، والممتنع صوغ الممكن؛ فلو قلت: إنه بُني في أصل خلقه وتركيبه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدت، ولو زعمت أن ذلك القلم الحي لم يكن إلا عرقاً في جسم الإنسانية لكان عسى...

وانتهى شيخنا في العهد الأخير إلى أن صار يعدّ وحده حجة اللغة العربية في دهر من دهورها العاتية، لا في الأصول والأقيسة والشواذ وما يكون من جهة الحفظ والضبط والإتقان، بل فيما هو أبعد من ذلك وأرد بالمنفعة على اللغة وتاريخها وقومها، بل فيما لا تنتهي إليه مطمعة أحد من علمائها وكُتّابها وأدبائها؛ إذ وقع الإجماع على أنه أنفرد في إقامة الدليل العملي على سعة العربية وتصرفها وحسن أنقيادها وكفائيتها، وأنها تواتي كل ذي فز على فنه، وتماد كل عصر بمادته؛ وأنها من دقة التركيب ومطاوعته مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد بجهد وعمله منزلة الجماعات الكثيرة في اللغات الأخرى، كأنها آخر ما أنتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة.

ولا يذهبن عنك الفرق بين رجل حافظ والكتاب أحفظ منه، وهو من الكتاب خرج وإلى الكتاب يرجع؛ وبين رجل يكون ترجماناً من تراجمة العقل الإنساني المعني^(١) بتأويل الكون وتفسيره، والطائر بالألفاظ الإنسانية على أجنحة العلوم والفنون والمخترعات والمعاني؛ فإن ذاك ينقل عن الواقع ثم لا يتعدى هذه المنزلة ولا يتجاوز مئون الألفاظ، وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الألفاظ ومعانيها يجاذبها ويدافعها، ثم لا يزال يضع يده في النسيج الغوي يسدي ويلجم، فهو مدفوع إلى

(١) المعني: المهتم.

المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقه، وأساليب الأخذ والانتزاع؛ وهو مُقيّد
أبداً بِخاصّ المعنى وخاصّ اللفظ على التعيين والتحديد، لا يجدُ فسحةً من
ضيقين؛ فإن لم يكن مثل هذا في منزلة الواضع فهو في المنزلة بعده ولا ريب.

إنما اللغوي الأكبر عندي هو هذا الكون، وما العالمُ باللغة وفنونها إلا وسيلة
لتهذيب الطريقة تهذيباً عقلياً، فيجب من ثَمَّ أن يكون للغوي رأيٌ وعلمٌ وذكاءٌ
وبصر، ويجب أن يطابق النواميس، فلا يتعاضى ما بينه وبينها، لأنّه وسيلة إنطاقها
ليس غير؛ ومن ذلك أرى الدكتور صرّوف في الغاية، فقد كان ينزِعُ في مذهبه
اللغوي منازعَ علميّة دقيقة تُورَنُ وثقاسٌ وتختبر، في حين لا تريغ ولا تهن ولا
تختل، وتراها تنطلق وهي مقيدة، وتتقيّد وهي مطلقة؛ إذ كان لا يعتدُّ اللغةَ عربيّةً
للعرب، بل عربيّةً للحياة؛ وما تهدمه وتبنيه وما تحدّثه وتنسخه فهي على أصولها
فيمن قبلنا، ولكن فروعها فينا نحن وفيمن يلينا وفيمن بعد هؤلاء، فلنا أن نتولاها
على تلك الأصول وعلى ما يشبهها في الطريقة حين تنتقل الحال ويتغير الرسم،
وليلة إن وجبت، ولقياس إن جاز. والدكتور بهذا الاعتبار يشتد في التمسك
بالقواعد والضوابط ولا يترخص^(١) في شيء منها غير أنه لا يكون كأقوام يروَن
الفروع من الجدوع قد خرجت، فيحسبون الثمرات سبيلها من الجدوع أيضاً...
وإن لم تجيء منها فستجىء منها.

عرض لي يوماً أحد هؤلاء اللغويين فانتقد في المقطع قصيدة من القصائد
التي رفعتها إلى الملك فؤاد، وتمحل في نقده ودلّل ببعض ما نقله من كتب اللغة،
فكان فيما تكلم فيه لفظاً (الأزاهر والورود)، فقال إنهما ليسا من اللغة ولم يجريا
في كتبها؛ وكان من رذي عليه أن قلت له: إنَّ العربَ جمَعوا الجملَ ستةَ جموع،
وجمعوا الناقةَ سبعةً لأنها أكرمُ عليهم منه، وإنَّ لكلِّ حياةٍ صورَها الدائرة في
الفاظِها، فالزهرُ والوردُ عند المولدين والمحدثين أكرمُ من الجملِ والناقةِ عند
العرب، أو هذان كهذين؛ ثمَّ هما من خاصّ الألفاظ المولدة، فلنا أن نجمعهما
على كلِّ صورِ الجمع التي يسوغها القياس، لأنَّ ههنا العلةُ الموجبة التي لم تكن
مع العرب فيهما؛ فمن الصحيح أن تقول: زهور، وأزهار، وأزاهر، وأزاهير الخ،
فلما لقيت الدكتور بعد نشر هذا الردِّ هنأني به، ثمَّ قال فيما قال: يحسبون أنَّ

(١) يترخص: يسمع ويتساهل.

العرب هم الجمل والناقطة وليس غير ما أستجمل وما أستنوق... أما هذا الدهر الطويل العريض فليس عندهم شيئاً، وهم يستطيعون أن ينكروا على المولدين ألف كلمة، ولكن هل في استطاعتهم أن ينكروا على التاريخ ألف سنة؟ فذكرت له الأصل الذي قرره أبو علي الفارسي في العربي الصحيح نفسه: من أنه ليس كل ما يجوز في القياس يجب أن يخرج به سماع، فإذا أخذ إنسان على طريقة العرب وأم مذهبهم فلا يسأل ما دليله وما أسماعه وما روايته، ولا يجب عليه من ذلك شيء، حتى قال أبو علي: لو شاء شاعر أو متسع أن يبيّن بالحق الألام أسماً وفِعْلاً وصفة لجاز له، ولكان ذلك من كلام العرب؛ وذلك نحو قولك: خَرَجَ أكثر من دخل، وضرب زيد عمراً، ومررت برجل ضرب وكرم، ونحو ذلك. قال تلميذه ابن جني: فقلت له: أثرتَجَلِ اللغة أرتجالاً؟ قال: ليس بأرتجالٍ لكنه مقيس على كلامهم فهو إذاً من كلامهم.

وسألني مرة عن وجه الخلاف بين ما يُسمونه القديم والجديد، فقلت له: إنَّ الخلاف ليس على جديد ولا قديم، ولكن على ضعف وقوة؛ فإن قوماً يكتبون وينظمون ولكن لم تُقسم ألفصاحه وأبلاغه على مقدار ما يطيقونه من ذلك، ولا يتسع الصحيح لإرائهم في اللغة والأدب، وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضاقوا، ويطاولوه من حيث تقاصروا، وينالوه من حيث عجزوا؛ فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور، فيؤول ذلك بأنه هو يدير الأرض على محورها بحركة قديميه... نحن نقول: أسلوب ركيك، فيقولون: لا بل جديد، ونقول: لغة سقيمة، فيقولون: بل عصرية، ونقول: وجه من الخطأ، فيقولون: بل نوع من الصواب، وهلم جرا أو سخباً... ثم قلت له: أفتجد أنت الرككة واللحن والخطأ والغثاء^(١) وإن أخواتها باباً جديداً أو أمراً مبتدعاً أو شيئاً يحتاج إلى اسم جديد غير اسمه العربي؟ قال: لا، وأنا معك في هذا، وطريقتي في المقتطف أن اللغة في قواعدها عريية، ولكن من قواعدها أن لكل مقام مقالاً، فنحن نكتب كتابةً صحيحة ونريد بها أن ترفع العامة ولا تنزل بالخاصة، فنخدم العربية من الجهتين.

ثم نشر بعد ذلك في عدد شهر مايو سنة ١٩٢٧ مقالاً جعل عنوانه (أسلوبنا

(١) الغثاء: التفاهة والرككة.

في الترجمة والتعريب) وأبتدأه بهذه العبارة: «اللغة جسم حي نام، وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكي لا تنمو وتبلغ حدّها الطبيعي، ولكن إذا كان النمو مشوهاً فلا بد من تقييده وتهذيبه»؛ وكل ما نقوله نحن هو التقييد والتهديب واثقاء الشهوة أن تُلِمَّ باللغة وأسايلها فتترادف على محاسنها بمعاييرها، وتُطمَس^(١) مفاتيحها بمقاييحها^(٢)؛ فإن هذه المعايير والمقايح إذا هي استجمعت وأنساغت في لغة من اللغات لبستها بأشكالها فلا تزال تنكر منها حتى لا تبقى لها وصفاً يُعرف، والحسن وحده هو الذي يُحدُّ بالأوصاف والتعاريف، وهو الذي يدقُّ فيه ويبالغ في قياسه وتقديره، فإن وقع فيه الفضول واختلطت الحدود وضعفت الملاءمة وجرى الوصف ناقصاً وزائداً فقد خرج إلى القبح، وإن خرج إلى القبح لم يعد الناس يحدون له حداً أو يعاونون^(٣) له بقاعدة، ووجدوا فيه كل الأوصاف الجميلة مقلوبة منكّرة، لأنّه هو جمال مقلوب؛ (فتقييد التشويه وتهذيبه) كلمتان فيهما الكلام كله، أو هما المصراعان لهذا الباب؛ ومن أجل ذلك كنّا نعدّ الدكتور من حجّتنا على أصحاب الجديد، لأنّه أوسعهم إحاطة وأكثرهم علماً وأمدّهم عملاً، ثمّ لن يدانيه أحد منهم إلّا إذا جمع لنفسه عميرين، وهل في الجديد رجل ذو عميرين؟ ...

قلنا: إن الشيخ كان في المنزلة التي تلي منزلة الواضع، وقد دفعته العلوم إلى ذلك دفعاً، لأنّه مقيد بخاص المعنى في كل ما يترجم أو يعرب، ثمّ بالخصائص العلمية الدقيقة التي لا تحتل في أدائها ما تحتل المعاني الأدبية؛ وقد تصدّر للكتابة والترجمة منذ شاب هذا العصر، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة في الشرق؛ فلا جرّم لم يكن لغويّاً كأبي عمرو وأبي زيد والخليل والأصمعي وأبي حاتم وأبي عبيدة وأضرابهم ممّن يحملون عن العرب ويؤدّون ما حملوه، ولا كان لغويّاً في طريقة سيبويه والكسائي والزجاج والأخفش واليزيدي وأشباههم ممّن ينظرون في اللغة وعللها وأقيستها وشواذها؛ ولكنّه لغويّ فيما يعمر بين الشرق والغرب، يحمل بلسان ويؤدّي بلسان غيره ويوافق بين المعاني الجديدة والألفاظ القديمة، ويشابك بين خيوط التاريخ في هذه وهذه، ويأخذ اللغة للاستعمال لا

(١) تطمس: تغطى وتمحى.

(٢) مقايحها: بشاعتها.

(٣) يعاون: يهتمون.

لِلحِفْظِ وَالتَّعْلِيمِ لَا لِلتَّدْوِينِ وَلِلْمَنْفَعَةِ لَا لِلْمَبَاهَاةِ وَلِلْفَائِدَةِ لَا لِلتَّنْبُلِ؛ وَيُتَرَجَّمُ وَإِنْ فِي خَيَالِهِ الْعَالَمُ الْوَاسِعَ الَّذِي يَنْقُلُ عَنْهُ بَعْلَمَائِهِ وَأَدْبَائِهِ وَكُتُبِهِ وَمَجَلَّاتِهِ وَمَصْطَلَحَاتِهِ، وَيَكْتُبُ وَإِنْ لَهُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ الدَّقِيقَةُ الَّتِي كَوَّنَتْهَا الْعُلُومُ الرِّيَاضِيَّةُ وَالطَّبِيعِيَّةُ وَالْفَلَسَفِيَّةُ وَغَيْرُهَا؛ فَلَمْ يَكُنْ بَدْءٌ مِنْ أَنْ يَبْتَدِعَ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ طَرِيقَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا وَيُخَالِفُ، وَقَدْ بَسَطَ هُوَ الْقَوَاعِدَ الَّتِي أَخَذَ بِهَا وَجَرَى عَلَيْهَا، فَكُتِبَ فِيهَا مَقَالاً فِي «الْمَقْتَطَفِ» شَهْرَ يُولْيُو لِسَنَةِ ١٩٠٦، وَأَعَادَ نَشْرَهُ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَآيُو لِسَنَةِ ١٩٢٧، وَهُوَ يُوَافِقُ فِيهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ، وَخَاصَّةً الْإِمَامَ الْجَاحِظَ؛ وَمَعَ أَنَّ قَاعِدَةَ الْجَاحِظِ لَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعْرُوفَةً، وَلَكِنْ كِلَا الشَّيْخَيْنِ حَصِيفُ الرَّأْيِ^(١) تَأَمَّ الْإِدَارَةَ فِي عَمَلِهِ، قَوِيَّ الْحِسْبَةِ وَالتَّدْبِيرِ فِيمَا يَأْخُذُ وَمَا يَدَعُ؛ وَخِلَاصَةُ رَأْيِ الدَّكْتُورِ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي الْكَلِمَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ، فَإِنْ أَصَابَ لَهَا مُرَادِفًا فِي الْعَرَبِيَّةِ يَحْدِّدُهَا وَيُفِي بِهَا فَذَاكَ، وَإِلَّا أَمَرَهَا فِي كِتَابَتِهِ وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِقَاعِدَةِ الْقَارِئِ وَمَا هُوَ أَخْفُ عَلَى قَارِئِهِ فِي الْمَثُونَةِ وَأَبْيُنُ لَهُ فِي الدَّلَالَةِ، فَإِنْ كَانَتْهُ الَّلَفْظَةُ الْأَعْجَمِيَّةُ أَوْفَى وَأَشْيَعُ فِي الْأَسْتِعْمَالِ عَدَلَ إِلَيْهَا^(٢)، قَالَ: وَغَنِيَّ عَنِ الْبَيَانِ أَنَّنَا الْتَزَمْنَا أَنْ نُجَارِيَ الْعُلَمَاءَ فِي الْمَصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَفْقَدُ دَلَالَتَهَا بِتَعْرِيبِهَا: كَالْحَامِضِ الْكَبْرِيتُوسِ وَالْكَبْرِيتِيكِ الْخِ، فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْمُلْحَقَاتِ وَالزَّوَائِدِ الَّتِي فِيهَا، مَعْنًى خَاصًّا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِيبِ الْحَامِضِ الْمُرَادِ كَمَا يَعْلَمُ دَارِسُو الْكِيمِيَاءِ؛ قَالَ: فَمَنْ يُسَمِّي الْحَامِضَ الْكَبْرِيتِيكِ بِالْحَامِضِ الْكَبْرِيتِيِّ كَمَنْ يُسَمِّي الْفَرَسَ جِمَارًا لِأَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا رَأْسًا وَذَنْبًا...

وَالْجَاحِظُ يَقُولُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ: إِنَّ رَأْيِي فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنْ هَذَا الَّلَفْظِ أَنْ أَكُونَ مَا دُمْتُ فِي الْمَعْنَى الَّتِي هِيَ عِبَارَتُهَا وَالْمَادَّةُ فِيهَا عَلَى أَنْ أَلْفَظَ بِالشَّيْءِ الْعَتِيدِ الْمَوْجُودِ (يَعْنِي الَّلَفْظَ الْعِلْمِيَّ الْأَصْطِلَاحِيَّ) وَأَدَعَى التَّكَلُّفَ لِمَا عَسَى أَلَّا يَسْلَسَ وَلَا يَسْهَلَ إِلَّا بَعْدَ الرِّيَاضَةِ الطَّوِيلَةِ... وَلِكُلِّ صِنَاعَةِ الْفَاطِظِ قَدْ جُعِلَتْ لِأَهْلِهَا بَعْدَ امْتِحَانٍ سِوَاهَا، فَلَمْ تَلْزُقْ بِصِنَاعَتِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعْنَى تِلْكَ الصَّنَاعَةِ مَشَاكِلَاتٌ.

فَأَنْتَ تَرَى الْجَاحِظَ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْأَلْفَافِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَالْعَامِيَّةِ كَمَا هِيَ مَا دَامَتْ الْمَعْنَى قَائِمَةً، وَقَاعِدَتُهُ هِيَ الْأَخْفُ وَالْأَدْلُ وَالْأَفْهَمُ وَالْأَشْيَعُ، وَهَذَا بَعِينُهُ يَقُولُ الدَّكْتُورُ فِيهِ: «يُشْتَرَطُ فِي حَسَنِ التَّعْبِيرِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْمَعْنَى الْمُرَادَ إِلَى ذَهَنِ السَّامِعِ بِأَقْلٍ مَا يَكُونُ مِنَ الْوَقْتِ وَالْكَلْفَةِ وَالْإِسْرَافِ فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ».

(٢) عدل إليها: مال إليها.

(١) حصيف الرأي: صائبه.

وقد كلّمَنِي بعضُهُم في خطأ الدكتور من ناحية الألفاظ الأعجميّة وإقحامها^(١) في كتابته، وأنّه يجنح إلى ذلك بأوهى سبب؛ ولا أراه خطأ، بل أنا أردُ ذلك إلى ما بيّنته آنفاً من أمرِ الناقلِ وَالوَاضِعِ ولا يُعْجِزُنَا أَنْ نَجِدَ لِصَنِيعِ الدّكتور نصّاً يقومُ بِهِ وينهضُ بِحُجَّتِهِ؛ فقد قالَ أبو علي الفارسي: إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَشْتَقَّتْ مِنَ الْأَعْجَمِيِّ خَلَطَتْ فِيهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَشْتِقَاقِ وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ، فَكَيْفَ بِالْتَعَرِيبِ؟ عَلَى أَنَّهُ لَا خَلْطَ وَلَا أَضْطِرَابَ، إِنَّمَا هُوَ سَبِيلُ الْوَضْعِ، وَحِكْمَةُ الدَّلَالَةِ وَأَنَّ اللَّغَةَ هَكَذَا تَجِيءُ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ النَّحْوِيُّ يَقُولُ لِمَاذَا وَلِأَنّ . . .

وقد أعجَبَنِي حَسَنُ تَقْسِيمِ الدّكتور لقواعدهِ الَّتِي بَسَطَهَا فِي مَقَالِهِ الْمُسْتَفِيزِ^(٢)، حَتَّى إِنِّي لِأَرَاهُ بَاباً جَدِيداً فِي التَّقْسِيمِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ وَاللُّغَةِ لَابْتِدَالِ الْأَلْفَاظِ وَغَرَابِئِهَا، إِذْ لَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا غَرِيبٌ وَمُبْتَدَلٌ وَلَا بَيِّنَاتٌ عَرَبٌ وَمُحَدَّثُونَ.

بيدَ أَنَّ مِنْ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ أَنَّ الْأُسْتَاذَ يَتَرَخَّصُ فِي الْأَلْفَاظِ الْعَامِيَّةِ وَهُوَ يَجِدُ فَصِيحَهَا، وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ: «إِذَا أَسْمَعْتُ الْفَلَّاحَ الْمِضْرِيَّ كَلِمَةً يَذَارِ مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ أَوْ فِي الشَّهْرِ، سَمِعَ كَلِمَةً (تَقَاوَى) مِائَةً مَرَّةً وَأَلْفَ مَرَّةً، فَرَأَيْنَا أَنَّ مُحَاوَلَةَ تَغْيِيرِ لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَمْثَالِهَا ضَرْبٌ مِنَ الْعَبَثِ وَإِضَاعَةٌ لِلْوَقْتِ وَتَضْيِيعٌ لِلْفَائِدَةِ، فَجَارَيْنَاهُمْ فِيْمَا نَكْتَبُهُ لَهُمْ». وَهَذَا مَا كُنْتُ أَجَادِلُهُ فِيهِ وَلَا أَسْلَمُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، لِأَنَّهُ أَغْفَلَ أَصْلًا اجْتِمَاعِيًّا عَظِيمًا، فَإِنَّ عَامِّيَّتَنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصْحَى، وَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مِيرَاثُهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ وَسَائِلُ مَرْجِهِمْ بِالْفَصِيحِ وَرَدِّهِمْ إِلَيْهِ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُهُ الْكُنُومِيسُ الْمَحْتَمَةُ وَلَوْلَاهَا لَمَّا بَقِيَ لِلْفَصْحَى بَقِيَّةٌ بَعْدَ.

وقد كَانَ جَاءَ إِلَى مِضْرَ مِنْ بَضْعِ سَنِينَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرِيكَا هُوَ مِنْ تَلَامِيذِ الدّكتور الْقَدَمَاءِ، فَتَرَحَّ إِلَى ذَلِكَ الْبَرِّ فَاتَّجَرَ فَأَثْرَى وَفَشَتْ لَهُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَلَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيتُ فِي يَدِهِ صَحِيفَةً وَضَعَ فِيهَا مَسَائِلَ فِي اللَّغَةِ وَالنَّحْوِ، وَكَانَ أَعَدَّهَا لِيَسْأَلَ عَنْهَا؛ وَفِي أَوَّلِهَا هَذَا السُّؤَالُ: لِمَاذَا يُقَالُ فَصَحَ الرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُوَ فَصِيحٌ، ثُمَّ يَقُولُ: شَعَرَ شَعْرًا فَهُوَ شَاعِرٌ؟ أَلَمْ يَكُنِ الْقِيَاسُ أَنَّ يُقَالُ شَعَرَ شَعْرَةً فَهُوَ شَعِيرٌ، وَالْفَصَاحَةُ وَالشَّعْرُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ؟

وهذا السُّؤَالُ وَإِنْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ لُغَوًى وَعَبَثًا وَلَكِنَّهُ دَقِيقٌ فِي تَارِيخِ اللَّغَةِ

(٢) الْمُسْتَفِيزُ: الْمَشْبَعُ بَحْثًا وَدِرَاسَةً.

(١) إِقْحَامُهَا: حَشْرُهَا.

وأفنيستها، ولا محل لسيط الكلام عليه في هذا الموضع، غير أنني أنهيت الخبر للدكتور صروف وقلت له: إن صاحبك هذا يضع قواعد اللغة في الميزان الذي في حانوته... وأنت كذلك تعالج بعض الألفاظ أحياناً ببعض الغازات والحوامض.

قلت هذا لأنني لم أسلم له قط فيما كان يراه في مثل البذار والتقاوي، على أنه قيد الكلام بقوله (فيما نكتبه لهم)، وهذا احتراش يدافع عنه بقوة كما ترى.

ولا يمتري أحد في أن هذه النهضة اللغوية التي أدرناها وعملنا فيها لم تكن سوى نمو طبيعي لعمل رجال أفذاذ نظن الدكتور صروف في طبيعتهم، لأنه كان أطولهم جهاداً وأكثرهم عملاً وأظهرهم أثراً؛ وكان المقتطف يجيء لها كل شهر كأنه قطعة زمنية مسلطة بناموس كنamos النشوء، حتى لأنم هذا المقتطف أن يكون عصراً من العصور قد خرج في شكل الكتابة؛ ولقد كاشفني الدكتور في آخر أيامه أنه كان يود لو ختم عمله بوضع معجم في اللغة يصلح أن يقال فيه إنه معجم الشعب، وفصل لي طريقته، إذ كنت أكلّمه في كتاب لغوي أفتخت العمل فيه من زمن ولا يعرف أحد من أمره خبراً فقال لي: خذ بين طريقتي وطريقتك، وأمض أنت في هذا العمل؛ فإني لو وجدت فراغاً لما عدلت بهذا الأثر شيئاً، وما كل سهل هو سهل...

على أن شيخنا هذا لو قد كان تفرغ للغة وتوفر عليها واجتمع لها بذلك العمر وتلك العلوم والأدوات، لكان فيها بأمة من الأشياء الماضية من لدن أبي عمرو بن العلاء إلى الدكتور يعقوب صروف، ولكن لعل الدهر أضيق من أن يتسع أو هو أوسع من أن يضيق... لإمام آخر كأبي علي الفارسي، يفرغ سبعين سنة لفرع واحد من علوم اللغة هو علم القياس والأشتقاق والعِلل الصرفية ويجعله همّة وسدّمه على ما قال تلميذه ابن جنّي: «لا يعتاقه عنه ولد، ولا يعارضه فيه متجر، ولا يسوم به مطلباً، ولا يخدم به رئيساً؛ فكأنه إنمّا كان مخلوقاً له».

وكانت للدكتور طريقة جريئة في ردّ الألفاظ العربية إلى أصولها والرجوع بها إلى أسباب أخذها وأشتقاقها وتصاريقها من لغة إلى لغة، وأعانته على ذلك ثقب فكره^(١) وسعة علمه ودقّة تمييزه وميله الغالب عليه في تحقيق ناموس النشوء وتبيين آثاره في هذه المخلوقات المعنوية المسماة بالألفاظ؛ وكان معجباً بكل ما جاءه من هذا

(١) ثقب فكره: سداه.

أَبَابٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ خَطَا؛ لِأَنَّهُ إِلَى الرَّأْيِ يَقْصِدُ وَلِلطَّرِيقَةِ يُمَكِّنُ وَمَعَ الْحَاضِرِ يَجْرِي .
وهذا بابٌ يحتاجُ إلى التَّسْمُحِ وَالتَّسَاهُلِ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ تَحْقِيقَهُ، وَلَا تَتَّفِقُ
الْحَيْطَةُ فِيهِ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتَلَوَّحَ شَيْءٌ مِنْهُ وَيَسْنَحَ شَيْءٌ وَتَتَلَامَحَ عِلَّةٌ وَيَعْرِضَ
سَبَبٌ؛ ثُمَّ هُوَ فِي الدِّكْتُورِ فِي بَعْضِ الدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِحْكَامِ مَلَكَةِ الْوَضْعِ فِيهِ،
وَنَزْوَعِهِ إِلَى أَنْ يَقْتَسَرَ بِقِيَاسِهِ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْ عِلَلِهِ؛ وَقَدْ تَرَاهُ يَبْعُدُ فِي ذَلِكَ فَيَنْصَبُ
لَكَ الدَّلِيلَ مِنْ وَرَاءِ بَضْعَةِ آلَافِ سَنَةٍ، وَأَنَا السَّاعَةَ أَعَانُ ذَاكِرْتِي وَأَذِيرُهَا مِنْ هُنَا
وَهُنَا لِأَجَدَ، كَلِمَةً، قَالَ لِي مَرَّةً فِي تَارِيخِهَا: إِنَّ الْعَرَبَ أَخَذُوهَا عَنْ الْيُونَانِ حِينَ
كَانَتْ مَكَّةَ نَفْسُهَا جَارِيَةً فِي حَكْمِهِمْ، وَلَكِنْ أُنْسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، إِذْ لِمَ أَرْتَبِطُهَا،
وَإِذْ كُنْتُ لَا أَرَى هَذَا الْمَذْهَبَ وَلَا أَحْسِنُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ قَوْلًا، وَأَعِدُّ كُلَّ مَا يُقَالُ فِيهِ
مِنْ بَابِ تَلْفِيقِ الْأَدْلَةِ، كَأَنَّهُ ذَنْبُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ فِي النَّاسِ مِنْهُ
مِثْلَ غَرَائِزِ الْغَنَمِ . . . فيقول: «إِلَّا تَرَهُ تَنْظَنَّهُ» .

وَالدِّكْتُورُ صُرُوفُ رَجُلٌ مَالِيٌّ فِي الْمَالِ وَفِي الْلُغَةِ جَمِيعًا . فَمَذْهَبُهُ الْقَضْدُ^(١)
فِي الدَّلَالَةِ وَالْقَضْدُ فِي الْوَقْتِ وَالْقَضْدُ فِي الْقُوَّةِ، وَقَدْ صَرَفْتُهُ ثَلَاثُهَا عَنْ الشَّعْرِ
وَعَمَّا كَانَ فِي حَكْمِهِ مِنْ تَحْبِيرِ النَّثْرِ وَتَوْشِيَّتِهِ، عَلَى أَنَّهُ يُحَسِّنُهُمَا لَوْ أَرَادَ وَلَوْ سَخَتْ
نَفْسُهُ بِالْوَقْتِ يُنْفِقُهُ وَلَا يَتَعَرَّفُ قَدْرَ مَا مَضَى مِنْهُ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ، بَلْ فِي سَاعَةِ
الْكُونِ الْكَبِيرِ الَّتِي يَتَعَاقَبُ فِيهَا عَقْرِبَا النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، كَمَا كَانَ يُنْفِقُ الْبَارُودِيُّ يَوْمًا
فِي بَيْتٍ أَوْ بَيْتَيْنِ . . .

وَكَانَ شَيْخُنَا فِي آخِرِ مَجَالِسِي مَعَهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ أَوْ نَحْوِ، أَطْلَعَنِي عَلَى كُلِّ
مَا نَشَرَهُ فِي مَجَلَدَاتِ «الْمَقْتَضَفِ» مِنْ شَعْرِهِ، فَأَعْجَبْتُ بِأَشْيَاءَ مِنْهُ، وَأَشْرْتُ عَلَى صَدِيقِنَا
الْأَسَاتِذِ فُؤَادِ صُرُوفَ أَنْ يُعِيدَ نَشْرَ قَصِيدَةِ الْرَفَاشِ الَّتِي تَرَجَمَهَا الدِّكْتُورُ عَنِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ
فِي نَسْقٍ سَلِسٍ مُوَشَّحٍ الْقَوَافِي، وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا صَاحِبُهَا يَصِفُ مَخَازِي الْمَدِينَةِ:

مَخَازٍ تَوَالَتْ فَصَالَتْ وَصَارَتْ عَلَى اللَّحْمِ دُودًا وَفِي الْعَظْمِ سَوْسًا
وَسَأَلَنِي الدِّكْتُورُ بَعْدَ أَنْ فَرَعْتُ مِنْ شَعْرِهِ: فِي أَيِ طَبَقَةٍ تَعْدُنِي مِنْ شَعْرَائِهِمْ؟
فَفَكَّرْتُ قَلِيلًا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: فِي طَبَقَةِ الدِّكْتُورِ صُرُوفِ! . فَضَحَكَ لَهَا كَثِيرًا .

وَكَانَتْ لَهُ آرَاءُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ غَيْرَ بَعْضِهَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ، وَمِمَّا قَالَهُ لِي
مَرَّةً: إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْلَدَ ذِكْرَهُ فِي هَذَا الشَّرْقِ فَلَا يُنْسَى، لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْمَعَ

(١) القصد: الاعتدال والاقتصاد .

في هذا إلا إذا بنى هَرماً كهَرَمِ الجيزة! . وهي كلمة فلسفية كبيرة تنطوي على شرح طويل يعرفه مَنْ يعرفه .

وقد كادت قاعدةُ القصدِ التي أومأت^(١) إليها تنتهي به في آخر مدته إلى القول بإسقاط الإعرابِ بته، وأظن ذلك خاطراً سَنَحَ لَهُ فأخذ بأوله وترك أن ينظر في أعقابه، فزرتُه مرةً في شهر يناير لسنة ١٩٢٧، وكان يُصَحِّحُ تسويده جواب كتبه عن سؤال ورد عليه في هل يمكن الرجوع إلى اللغة الفصحى في القراءة والتكلم وما الفائدة من ذلك؟ فلما أمر بالجواب على نظره دفعه إلي فقرأته، فإذا هو يرى أن كل حركة من حركات الإعراب والبناء يتهوّر فيها وقت ما؛ قال: فإذا قضيتا على أبناء العربية ألا يتكلموا إلا كلاماً معرباً نكون قد أضعنا عليهم ثلث الوقت الذي يقضونه في التكلم من غير فائدة تُجنى .

ولقد جادلته في ذلك ولججت^(٢) في الخلاف معه، وقلت له: إن هذه قاعدة مالية، ثم إنك أغفلت أمر العادة وما تسرّه، وفي الكلام إيجاز يقوم مع الإعراب، هذا المقام حين لا يكون من الإيجاز بُدٌّ، وفي اللهجات العامية من الحشو ومطأ الأصوات وفساد التركيب ما يذهب بأكثر من ثلث الوقت؛ فأحسبه اقتنع وإن كنت رأيت لم يقتنع .

وإنه ليحضرني بعد هذا كلام كثير في فضائل الدكتور وآدابه وشمائل نفسه الزكية ومنزعه في الأخلاق الطيبة الكريمة، ولو ذهبتُ أفضلُ لخرجتُ إلى الإفاضة في فنون مختلفة، ولكنني أجترى من كل ذلك بأنه كان يظهر لي دائماً كأنه في ظل من محبة الله .

(١) أومأت: أشرت .

(٢) لججت: ألححت إلى آخر حد ممكن .

الشيخ الخضرى

تحوّل الكاتب إلى كتاب، ورجع المُفكر إلى فكرة، وأصبح من كان يُدرس الناس فإذا هو درس يُذكر أو يُنسى، وتناول التاريخ عالماً، من علمائه فجعله نبأ من أنبائه، وكان بينيه فوضعه في بنائه، وقيل: مات الشيخ الخضرى!

آه لو يرجع إنسان واحد من طريق الموت التي أولها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية، وآخرها حيث تجد كلمة: «الآخرة» بلا معنى لا محدود ولا مظنون! وآه لو أستطعنا أن نتكلّم عن الميت كأنه حيّ بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلّم عن الحيّ كأنه مات من زمن! إنني لأكتب هذه الكلمات وكأنني أنظر إلى وجه أبي - رحمه الله - وأشهد ذلك السمّت العجيب، وذلك الوفاّر الذي يغمّر النفس هيبّة وجلالا، وأستروح ذلك الحبّ الذي هو أحد الطرُق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء، ومن المخلوق إلى الخالق، والمبتدئة من السماء إلى الأرض، ومن الخالق إلى المخلوق: طريق الأمّ، وطريق الأب، وطريق الإنسانيّة؛ أكتب وكأنّ يداً من وراء المادة تمسح على قلبي فأجد ثقلة وفترّة، وأستشعر حيناً وشوقاً، وأحسّ هذا القلب يُنازعني إلى قوم ذهبوا بلا رجعة، وفارقوا بلا وداع، وغابوا عتاً بلا خبر؛ دخلوا إلى أنفسهم ولا تحويهم، وخرجوا منها ولا تخلو منهم؛ فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هي الحيرة التي يتركها الميت العزيز للحيّ المتفجع كيما يعرف بأمواته ما هو الموت!

كنا منذ بضع وثلاثين سنة في مدينة المنصورة، وكان أبي يومئذ كبير قضاة أشرع في ذلك الإقليم، فإني لألعب ذات يوم في بهو دارنا إذ طرّق الباب، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخ لم يبلغ سنّ العمامة، ولم أُميّز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم، فكان حدّثاً لكأنه يتسمّ بِسمة الجدّ؛ ورأيتُه لا تموجُ به الجنة كالعلماء، غير أنّها لا تمجّه كالطلبة؛ وكان في يده مجلّد ضخّم لو نطق لقال له: دعني لمن هو أسنّ منك! فما قدّرتُه يزُنْ عشرين مجلداً من مثله، ونظرَ إليّ نظرة كأنّي لا أزال

أزاهها في عينه إلى الساعة، فسَلَّمْتُ عليه فقال: أين الشيخ؟ يعني - الوالد - قلت: خرج أنفأ؛ قال: فادفع إليه هذا الكتاب، وقلْ لَهُ جاء به الخضرى.

ثُمَّ أَغْلَقْتُ أَلْبَابَ وَأَنْتَحَيْتُ جَانِباً وَفَتَحْتُ الْمَجْلَدَ، فَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ لِلْفَخْرِ الرَّازِي، كَانَ قَدْ اسْتَعَارَهُ مِنْ مَكْتَبَتِنَا؛ وَعَرَفْتُ الشَّيْخَ مِنْ يَوْمئِذٍ، وَكَانَ أَسْتَاذاً لِلْعَرَبِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ الصَّنَائِعِ، يَضَعُ كِتَابَ النُّحُوِّ وَالصَّرْفِ مَعَ الْمَطْرَقَةِ وَالْمَنْشَارِ وَالْقَدُومِ، فَيَذْهَبُ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ، وَكَأَنَّهُ لَا يُعَلِّمُ شَيْئاً؛ وَقَلَّمَا كُنَّا نَذْكُرُهُ فِي مَدْرَسَتِنَا، إِذْ كَانَ لَنَا شَيْخٌ فَخْلٌ ثِقَةٌ مِنْ رِجَالِ الْأَزْهَرِ، غَيْرَ أَنَّ الْخَضْرَى كَانَ لَهُ مَوْضِعٌ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ، وَكَانَ يُدَاخِلُ قَوْمًا مِنَ الْخَاصَّةِ يُعْنُونَ بِالْمَسَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَفَلَسَفَتِهَا وَتَقْرِيبِهَا مِنَ الْعَامَّةِ وَالْأَدَهْمَاءِ، وَبِإِشَارَةٍ مِنْ بَعْضِ هَؤُلَاءِ وَضَعَ أَوَّلَ كِتَابِهِ: «نُورُ الْيَقِينِ فِي سِيرَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ»^(١)، وَيَكَاذُ هَذَا الْأَسْمُ يَدُلُّ عَلَى وَزَنِ الْأَسْتَاذِ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَرَاءَ السَّجْعَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ لَمْ يَمِضْ عَلَى وَجْهِهِ لَمْ يُعْرِفْ بِمَذْهَبٍ.

إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: قَوْلًا صَحِيحًا فِي هَذَا الْفَقِيهِ الْعَالِمِ الْمُؤَرِّخِ الْأَدِيبِ الْمُرَبِّي، يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ بِتَيَارِهِ إِلَى مَنَبْعِهِ لِيَعْرِفَ مَبْلَغَ أَنْبِعَائِهِ وَقُوَّةَ جَرِيَّتِهِ وَمَدَّ غُبَاهِ؛ فَمَا كَانَ الْخَضْرَى شَيْئاً قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَدَارِ ذَلِكَ النُّجْمِ الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَهْدَتْهُ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ وَسُمِّيَ، فِي أَسْمَائِهَا «مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ»، لَقَدْ أَخْرَجَتْهُ دَارَ الْعُلُومِ كَمَا أَخْرَجَتْ الْكَثِيرِينَ، وَلَكِنْ دَارَ عُلُومِهِ الْكَبِيرَى كَانَتْ أَخْلَاقُ الْأَسْتَاذِ الْإِمَامِ وَشِمَائِلُهُ وَآرَاءُهُ وَبِلَاغَتُهُ وَهِمَّةُ نَفْسِهِ. أَلَا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَكُونُ هُوَ الْوَاحِدَ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ الْعَدَدُ فِي كُلِّ عَصْرِ، وَأَنْتَ فَكَيْفَ تَأْمَلْتَ الْخَضْرَى فَأَعْلَمْتَ أَنَّكَ بِإِزَاءِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ، عَلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ النَّفْسَيْنِ، بَلْ أَنْتَ مِنَ الْخَضْرَى كَأَنَّكَ تَرَى الشَّيْخَ سَارِياً فِي مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الزَّمَنِ.

كَانَ يَحْضُرُ دُرُوسَ الشَّيْخِ، وَيَخْتَلِفُ إِلَى نَادِيهِ، وَيُنَاقِلُهُ بَعْضَ الرَّأْيِ، وَيُعَارِضُ^(٢) مَعَهُ بَعْضَ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَ يُرْجِعُ إِلَى الشَّيْخِ فِي تَصْحِيحِهَا أَوْ الْإِشْرَافِ عَلَى طَبْعِهَا؛ فَنفَذَ الشَّيْخُ إِلَى نَفْسِهِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الْاسْتِقْرَارِ فِيهَا، فَهُوَ مِنْ بَعْدُ حَرِيصٌ عَلَى وَقْتِهِ، مُجِدِّ فِي عَمَلِهِ، دَائِبٌ عَلَى طَرِيقِهِ، آخِذٌ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ،

(١) الدهماء: الرعاع والسوقة.

(٢) يعارض معه بعض الكتب: يقرأ عليه.

مُضْلِحُ مُرَبِّ غُيُورٍ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ فِي سَمْتٍ وَهَيْبَةٍ، وَجِزَالَةٍ رَأْيٍ، وَشَرَفٍ هِمَّةٍ، وَإِخْلَاصٍ حَقِّ الْإِخْلَاصِ؛ وَمَا أَرَى فَوْضَى عَصْرِنَا هَذَا وَأَنْحِطَاطَهُ وَإِسْفَاقَهُ وَسَخَافَةَ قَوْلِهِمْ: جَدِيدٌ وَقَدِيمٌ، وَجَرِيءٌ وَرَجَعِيٌّ، وَحَرٌّ وَجَامِدٌ - إِلَّا مِنْ خِلَاءِ الْعَصْرِ وَفِرَاقِهِ مِنْ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ، وَحَاجَتِهِ إِلَى إِمَامٍ عَظِيمٍ؛ وَمَتَى أَصْبَحْنَا نَضْرِبُ فِي دَائِرَةِ لَا مَرْكَزَ لَهَا، فَهِيَ الْمَرْبِيعُ وَهِيَ الْمُسْتَطِيلُ وَهِيَ كُلُّ شَكْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ؛ وَالَّذِينَ رَأَوْا طَاغُورَ الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ الْمَتَصَوِّفِ حِينَ نَزَلَ بِمِضَرٍ، وَرَأَوْا سَحْرَهُ وَتَحْوِيلَهُ كُلَّ جَدِيدٍ مَدَّةَ أَيَّامٍ إِلَى قَدِيمٍ، وَإِخْرَاسَهُ هَذِهِ الْأَلْسِنَةَ عَنْ نَقْدِهِ وَمَعَارَضَتِهِ، وَعَنْ مُعَانَدَةِ الْحَقِّ طَيْشًا وَنَزَقًا وَضَلَالًا وَتَجْدِيدًا... . يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُدْرِكُوا مَا أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ، وَيَتَبَيَّنُوا أَلْسَرُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ، وَيَتَمَثَّلُوا مَا كَانَ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ فِي عَصْرِهِ، بَلْ فِي خَلْقِ عَصْرِهِ.

* * *

وَأَنْتَهَى الْخَضِرِيُّ إِلَى مَدْرَسَةِ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ، فَأَلَفَ كِتَابَهُ فِي الْأُصُولِ، اخْتَصَرَ فِيهِ وَهَذَبَ وَقَارَبَ، فَهُوَ كِتَابٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ لَا كِتَابٌ هَذَا الْعِلْمِ، وَأَسَاتِذَةُ الْأُصُولِ قَوْمٌ آخَرُونَ لَوْ أَنْتَ مِنْهُمْ مِثْلُ الشَّيْخِ الرَّافِعِيِّ الْكَبِيرِ، لَرَأَيْتَ الْبَحْرَ الَّذِي يَذْهَبُ فِي سَاحِلِهِ نِصْفُ طَوْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ بَعَثَ الْخَضِرِيُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً يَوْمئِذٍ كَانَتْ مِنْهَا صَدِيقُنَا الْمَرْحُومُ حَفْنِي نَاصِفٍ، وَالشَّيْخُ الْمَهْدِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، اجْتَمَعُوا عَلَى إِبْدَاعِ نَهْضَةٍ فِي التَّأْلِيفِ، فَذَهَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ بِخُصَّةِ الْأَدَبِ، وَفَرَعَ الْخَضِرِيُّ لِلأُصُولِ؛ أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ حَفْنِي بِكَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ثُمَّ لَمَّا اخْتَارَ الْقَائِمُونَ عَلَى الْجَامِعَةِ الْمَصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ صَدِيقُنَا الْعَلَامَةُ الْمُؤَرِّخُ جُورْجِي زِيدَانُ لِدَرْسِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ فِيهَا. طَارَ الْخَبْرُ فِي الْأُمَّةِ بِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا الْقَنْبَلَةَ... . وَشَعَرَ النَّاسُ بِمَعْنَى الْهَدْمِ قَبْلَ أَنْ يَتَهَدَّمَ شَيْءٌ، فَأَضْطَرَّتِ الْجَامِعَةُ إِلَى أَنْ تُنْحَتَ، وَعُهِدَتْ فِي الدَّرْسِ إِلَى الْأُسْتَاذِ الْخَضِرِيِّ، فَأَلْقَى دُرُوسَهُ الَّتِي جَمَعَهَا فِي كِتَابِهِ (تَارِيخُ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ). وَقَالَ فِي مَقْدَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ: «أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وَفَّقْتُ لِتَذْلِيلِ صَعُوبَةِ كِبَرِي. وَهِيَ صَعُوبَةُ اسْتِفَادَةِ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ مِنْ كِتَابِهِ»؛ نَقُولُ: وَعَلَى أَنَّ الشَّيْخَ أَحْسَنَ فِي كِتَابِهِ، وَجَاءَ بِمَادَّةٍ غَزِيرَةٍ مِنْ فِكْرِهِ وَرَأْيِهِ، وَبَسَطَ وَأَخْتَصَرَ، وَبَاعَدَ وَقَرَّبَ، فَإِنَّ كَلِمَتَهُ هَذِهِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ مِنَ التَّارِيخِ أَوْ أَكْبَرَ مِنْ كِتَابِهِ.

وَرَدَّ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى كِتَابِ «الشَّعْرُ الْجَاهِلِيُّ» لِلدَّكْتُورِ طَه حُسَيْنٍ، وَكَانَ رَدُّهُ خُطَابًا أَرَادَ أَنْ يُحَاضِرَ بِهِ طَلَبَةَ الْجَامِعَةِ، لِأَنَّهُ أُسْتَاذُ أُسْتَاذِهِمْ؛ فَكَأَنَّهُ أَرَادَ

جعل أستاذهم هذا تلميذاً معهم، وأبث عليه أُلجامة ما أراد، ولعلها فُطِنَتْ^(١) إلى هذا الغرض؛ ولَمَّا عَلِمَ أَنِّي شرَعْتُ في طبع رَدِّي على الدكتور طه، كَلَمَنِي في استلحاق مقالِهِ وجعلهُ ذيلًا^(٢) في الكتاب، وقدزناه يومئذ في نحو خمسين صفحة أو دونها، وقد سألتُهُ أَنْ يَنْفِي مِنْهُ ما كَانَ في مقادير الرصاص ويقتصر على ما هو في وزن القنابل، فقال: «كلُّهُ قنابل»! . ثُمَّ اتَّسَعَ كِتَابِي وجاورَ مقدارُهُ إلى الضعف، فوسَّعَ هو رَدَّهُ وزادَ فيه وطبَّعَهُ في قريبٍ من ضِعْفِهِ على جِدة.

دغ كتابهُ المشهور (مُهَذَّبُ الْأَغَانِي)، فهذا لا يُقال: إِنَّ الشَّيْخَ أَلْفَهُ، بل أَلْفَتُهُ خمسَ عَشْرَةَ سنة؛ وأظُنُّ كُلَّ ذلك لا يُذكرُ في جنبِ الكتابِ الَّذِي كَانَ يعملُ فيه أخيراً، وهو كتاب «الأدبِ المِصْرِيِّ»، أخبرني أَنَّهُ في جزئين ودعاني إلى دارِهِ لِأَرى (المكتبة الخُضْرِيَّة)؛ ولأُطَّلِعَ على هذا الكتاب، فوَعَدْتُهُ ولم يُقدِرْ لي؛ وقد حَدَّثَنِي أَنَّهُ معنِي أَشدَّ العناية بِاستِجْماعِ الفِروقاتِ الَّتِي يَتمارُ بها الأَدبُ المِصْرِيُّ عن الأَدبِ الحِجازِيِّ وَالشَّامِيِّ وَالْعِرَاقِيِّ وَالْأَنْدَلُسِيِّ، وَأَنَّهُ أَصابَ مِنْ ذلكَ أَشياءَ مَتميِزةٌ مِنْذُ الدَّولةِ الطُّولُونِيَّةِ، يَحِقُّ لِمِصْرَ أَنْ تَقولَ فيها: هذا أدبي؛ وَكَانَ يَكْتُمُ خَبرَ هذا الكتاب، حتَّى إِنَّ صَديقنا الأَسَادَ حَافظَ بكَ عَوضَ صاحِبَ جَريدةِ «كوكبِ الشَّرق»، اقترحَ عَلَيهِ أَنْ يَكْتَبَ فَصلاً في الشُّعراءِ المِصْرِيِّينَ وأَدبِهِم يَعقُدُهُ لِكتابِ حَفلةِ تَكرِيمِ شوقي بكَ؛ ثُمَّ لَقِيَهُ بَعْدَ ذلكَ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: إِنَّ البَحْثَ سائرٌ على أَحْسَنِ وَجوهِهِ!

كَانَ الخُضْرِيُّ يَفْرَحُ لِلِقائِي وَيَهْشُ لي، وَكُنْتُ أَتَبَيَّنُ في وَجهِهِ أَشعةَ رُوحِهِ الصَّافية، وَلَعَلَّهُ كَانَ يَرى بِي في نَفْسِهِ ذلكَ الشَّيْخَ الَّذِي أَعْطاني المَجلدَ، كما كُنْتُ أَرى بِهِ في نَفْسِي ذلكَ التَّلميذَ الَّذِي أَخَذَ المَجلدَ مِنْهُ! على أَنَّ مَرَجَعَ ذلكَ في الْحَقِّ إلى سَعَةِ صَدْرِهِ، وَفُسْحَةِ رَأْيِهِ، وَبَسْطَةِ ذَرْعِهِ، وَسَمُوِّ أَدَبِهِ وَإِنصافِهِ؛ فلا يَحْقِدُ ولا يَحْسَدُ، ولا يَتَجَاوَزُ قَدْرَهُ، ولا يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عَن قَدْرِهِ، ولا يَدْعِي ما لا يُحْسِنُ؛ وقد عَرَفَ قُرَّاءُ «المَقْتَطَفِ» مثلاً مِنْ أخلاقِهِ هَذِهِ أو أَكثَرِها حتَّى اُنْتَقَدَهُ صَديقنا الأَسَادُ عَبْدُ الرَّحِيمِ بَنُ مُحَمَّدٍ، وَتناوَلَ الجِزءَ الأولَ مِنْ كِتابِهِ (مُهَذَّبُ الْأَغَانِي) وَراحَ يَتَقَلَّلُ لَهُ كَجلَمودٍ صَخْرٍ... فوسَّعَهُ الشَّيْخُ وَعَني بِهِ وَرَدَّ عَلَيهِ في «المَقْتَطَفِ»، وَنَعَتَهُ بِالْأَسَادِ الجَهِدِ وَأَنْتَصَفَ مِنْهُ^(٣)، وَأَنْصَفَهُ مَعاً. وَلَقَدْ اقترحْتُ عَلَيهِ مَرَّةً أَنْ

(١) فطنت: تذكّرت وانتهت.

(٢) ذيلًا: تعليقًا تاليًا.

يضع كتاباً في حكمة التشريع الإسلامي وفلسفته، فقال لي: «مُسْ قَدَّه» يعني أن العمل أكبر منه، ولكن هذا نبهه إلى وضع كتابه في تاريخ التشريع الإسلامي.

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١، لم أهده إلى الشيخ، فاشتراه وقرأه، ثم لقيته وسألته رأيه فيه، فقال: (جداً كويس) فكان تقديم (جداً) تقریظاً، و(كويس) تقریظاً آخر؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشيوخ يكاد يموت غماً بهذا الكتاب وما كتبت عنه، وعلى حين كلمني بعضهم مرتين في ترك هذا العمل ونفض يدي منه، لأنه - زعم - عمل شاق بلا فائدة...

وقد زرت الأستاذ الخصري في وزارة المعارف في السنة الماضية، فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يُبثني بقوة في الكرسي، كأنه لم يطمئن بعد إلى أنني جلست، ثم فاض بكلام كثير، فكان فيما قاله: «أنا الآن أعيش في غير زمني!»، وكأنما كان ينعي إلي نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدري ولا أدري، وقال لي: إنه يجلس إلى مكتبه في كل يوم ست ساعات، يقرأ ويؤلف أو ينسخ؛ لأن كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم. قال: ولا يتعريه البرد ولا مرض من أمراضه، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة، وقال: إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن.

* * *

ولنمسيك عند هذا الحد؛ فإن للذكرى غمراً على القلب؛ وبالأجملة فقد كان - رحمه الله - عالماً كالكتاب، وكاتباً كالعلماء؛ فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين، وهو وحده منزلة بين المنزلتين؛ وبذلك تميّز وظهر، فإنه في إحدى الجهتين عقل جريء تمدّه رواية واسعة في علوم مختلفة، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضي حتى كأنه لم يمض، وهو في الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حدّ الصحيفة أو الكتاب، بل لا يزال يلتمس له عقلاً يُخرجُه ويتصرّف به، حتى يكبر عن أن يكون قديماً بختاً فينتظم الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقاً واحداً. لم يكن الشيخ جديداً إلا بالقديم، ولا قديماً إلا بالجديد؛ فإننا لا نعرف قديماً مخضاً ولا جديداً صرّفاً، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سُنّة الحياة؛ وأنت لئن تجد حياً منقطعاً ممّا وراءه، بل أنت ترى الطبيعة قيّدت كل حي جديد إلى أصليين من القديم لا أصل واحد هما أبواه فمنهما يأتي ومنهما

يَسْتَمِدُّوهُمَا أَبَدًا فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَى حِدَّةٍ؛ وَبَعْدُ، فَلَوْ جَارَيْتَ السَّخَافَةَ الْعَصْرِيَّةَ
الْمَشْهُورَةَ لَقُلْتُ: إِنَّ الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ . . . قَدْ أَنْهَدَ رُكْنَ مِنْ أَرْكَانِهِ، وَنَقَصَ قِنطَارُ
كِتَابٍ مِنْ مِيزَانِهِ؛ وَلَكِنْ هَذِهِ السَّخَافَةُ فِي رَأْيِي كَمَا تَرَى مِنْ جَمَاعَةٍ أَتَتَلَوُا^(١) أَنْ
يُطْفِئُوا نَجْمًا فِي السَّمَاءِ لِأَنَّهُ قَدِيمٌ، فَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَجْمَعُوهُ بَيْنَهُمْ وَفَرَّغُوا مِنْ
أَمْرِهِ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ كَيْفَ يُهَيِّئُونَ الْعَرَبَاتِ وَالْمَضَخَاتِ الَّتِي
تَحْمِلُ إِلَى السَّمَاءِ بَضْعَةَ أَبْحَرٍ لِيَصْبُوهَا عَلَى النِّجْمِ . . .

(١) اتتلوا: أجهدوا أنفسهم.

رأي جديد في كتب الأدب القديمة

أدب الكاتب لأبن قتيبة من الدواوين الأربعة التي قال ابن خلدون فيها من كلامه على حد علم الأدب: «وسمنا من شيخوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي «أدب الكاتب» لأبن قتيبة، و «كتاب الكامل» للمبرّد، و «كتاب البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «الأنوار» لأبي علي القالي البغدادي؛ وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

وقد يظن أدباء عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه، وأنها تتوجه على طريقة من قبلهم في طبقة بعد طبقة إلى أصول هذه السلسلة التي يقولون فيها: حدثنا فلان عن فلان إلى الأصمعي أو أبي عبيدة أو أبي عمرو بن العلاء وغيرهم من شيوخ الرواية ونقل اللغة. ولكنها لا تستقيم في آدابنا ولا تعدّ من آلتنا ولا تقع من معارفنا؛ بل يكاد يذهب من يتعرّض منهم بالآراء الأوربية التي يُسمّيها علمه... ومن يترسل إلى التقليد الذي يُسمّيه مذهبه... إلى أن تلك الكتب وما جرى في طريقتها هي أموات من الكتب. وهي قبور من الأوراق، وأنه يجب أن يكون بيننا وبينها من الإهمال أكثر ممّا بينها وبيننا من الزمن، وأن بعث الكتاب منها وإحياءه يوشك أن يكون كبعث الموتى: علامة على خراب الدنيا...

فأما أن يكون ذلك علامة على خراب الدنيا، فهو صحيح إذا كانت الدنيا هي محرّرة جريدة... من أمثال أصحابنا هؤلاء، وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضع إلا لزمننا هذا ولأدبائنا وكتّابنا خاصّة، وكان القدر هو أثبت ذلك القول في مقدمة ابن خلدون لينتهي بنصّه إلينا فنستخرج منه ما يقيمنا على الطريقة في هذا العصر الذي وقع أدباؤه في متسع طويل من فنون الأدب ومضطرب عريض من مذاهب الكتابة وأفق لا تستقرّ حدوده من العلوم والفلسفة... فإن هذه المادة الحافلة من المعاني تحيي آداب الأمم في أوربا

وأمریکا، ولكنها تكاد تَطْمَسُ آدابنا وَتَمَحَقُّنَا^(١) مَحَقًّا تذهبُ فيه خصائصنا ومقوماتنا، وتُحِيلُنَا عن أوضاعنا التَّاريخِيَّةِ، وتُفْسِدُ عقولنا ونزعَاتنا، وترمي بنا مَرامِيهَا بينَ كُلِّ أُمَّةٍ وأُمَّةٍ، حتَّى كَأَنَّ لَيْسَتْ مِنَّا أُمَّةٌ فِي حَيَازِهَا الْإِنْسَانِي الْمَحْدُودِ مِنْ نَاحِيَةِ التَّارِيخِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْبَصَائِفِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْعِلْمِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْآدَابِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَبْثَلِي أَكْثَرَ كُتَّابِنَا بِالْإِنْحِرَافِ عَنِ الْآدَابِ الْعَرَبِيِّ وَالْعَصَبِيَّةِ عَلَيْهِ أَوِ الزَّرَايَةِ لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَسُّهُ قَدْ رُمِيَ فِي عَقْلِهِ لَهْوِيَّةٌ وَخِمَاقِيَّةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ فِي حَقِّهِ سُلْخٌ قَلْبُهُ، وَمِنْهُمْ الْمَقْلُدُ لَا يَذَرِي أَعْلَى قَضْدٍ هُوَ أَمْ جَوْرٍ، وَمِنْهُمْ الْحَائِزُ يَذْهَبُ فِي مَذْهَبٍ وَيَجِيءُ مِنْ مَذْهَبٍ وَلَا يَتَّجِعُ لِقَصْدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ وَكُفَى...

وَقَلَّمَا تَنَبَّهَ أَحَدٌ إِلَى السَّبَبِ فِي هَذَا؛ وَالسَّبَبُ فِي حَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ «كَالْمَكْرُوبِ»: بِذَرَّةٍ طَامِسَةٍ لَا شَأْنَ لَهَا، وَلَكِنْ مَتَى تُنْبِتُ تُنْبِتُ أَوْجَاعاً وَآلِماً وَمَوْتاً وَأَحْزَاناً وَمَصَائِبَ شَتَّى.

السَّبَبُ أَنَّ أَوَّلَكَ الْأَدْبَاءِ كُلَّهُمْ تُمَّ مَنْ يَتَشَبَّعُ^(٢) لَهُمْ أَوْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِمْ، لَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ تَرَى فِي أُسَاسِهِ الْأَدْبِيَّ تِلْكَ الْأَصُولُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَحْضَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى دَرَاةٍ أَلْفَاةٍ وَجَمْعِهَا وَتَصْنِيفِهَا وَبَيَانِ عِلَلِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَمَطَارِحِ أَلْسَانِ فِيهَا، وَالْمَتَادِيَةُ بِذَلِكَ إِلَى تَمَكِينِ الْأَدِيبِ أَلْشَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ أَلْفَاةٍ وَتَطَوُّعِهَا لَهُ، فَيَكُونُ قِيَمًا بِهَا وَتَكُونُ هِيَ مُسْتَجِيبَةً لِقَلَمِهِ جَارِيَةً فِي طَبِيعَتِهِ مُسَدَّدَةً فِي تَصَرُّفِهِ، حَتَّى إِذَا نَشَأَ بِهَا وَاسْتَحْكَمَ فِيهَا أَحْسَنَ الْعَمَلِ لَهَا وَزَادَ فِي مَادَّتِهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا وَكَانَ خَلِيقًا أَنْ يَمُدَّ فِيهَا وَيُحْسِنَ الْمَلَامَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآدَابِ الْأُخْرَى وَيَجْعَلَ ذَلِكَ نَسْجًا وَاحِدًا وَبَيَانًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ، فَيَنْمُو الْآدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي صَنِيعِهِ كَمَا تَنْمُو الشَّجَرَةُ الْحَيَّةُ: تَأْخُذُ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا لِعَنْصُرِهَا وَطَبِيعَتِهَا وَلَيْسَ إِلَّا عِنْصُرُهَا وَطَبِيعَتُهَا حَسْبَ.

إِنَّ «أَدَبَ الْكَاتِبِ» وَشَرْحَهُ هَذَا لِلْإِمَامِ الْجَوَالِقِيِّ وَمَا صُنِّفَ مِنْ بَابِهِمَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَمْعِ مِنَ أَلْفَاةٍ وَالْخَبَرِ وَشَعْرِ الشَّوَاهِدِ وَالْإِسْتِقْصَاءِ^(٣) فِي ذَلِكَ وَالْإِسْطِ فِي أَلْوَجُوهِ وَالْعِلَلِ أَلْنَحْوِيَّةِ وَالْأَصْرَفِيَّةِ وَالْإِمْعَانِ فِي الْتَحْقِيقِ، كُلُّ ذَلِكَ عَمَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ عَلَى حَقِّهِ فِي زَمَانِنَا هَذَا؛ لَهْوٍ لَيْسَ أَدْبًا كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الْمَعْنَى أَلْفَلَسْفِيٍّ لِهَذِهِ أَلْكَلِمَةِ، بَلْ هُوَ أَبْعَدُ أَلْأَشْيَاءِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي كِتَابٍ مِنْ هَذِهِ

(١) تمحقنا: تسحقنا.

(٢) يتشبع: يستقصاء: المتابعة.

(٣) يتشبع: يتحزب.

أَلَكْتَبِ إِلَّا التَّالِيفَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، أَمَّا الْمُؤَلَّفُ فَلَا تَجِدُهُ وَلَا تَعْرِفُهُ مِنْهَا إِلَّا
كَالْكَلِمَةِ الْمَحْبُوسَةِ فِي قَاعِدَةٍ... وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ رُوحُ إِنْسَانٍ بَلْ رُوحُ مَادَّةٍ
مُضْمَتَةٍ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْشَأْ لِيَعْمَلْ فِي عَصْرِهِ بَلْ لِيَعْمَلَ عَصْرُهُ فِيهِ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ فِي
الْكِتَابِ جِهَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مُتَعَيِّنَةٌ، فَتَمَّ تَأْلِيفٌ وَلَكِنْ أَيْنَ الْمُؤَلَّفُ؟ وَهَذَا كِتَابُ ابْنِ قَتِيْبَةٍ،
وَلَكِنْ أَيْنَ ابْنُ قَتِيْبَةٍ فِيهِ؟

وَمَا أَخْطَأَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي تَسْمِيَّتِهِمْ هَذِهِ الْكُتُبَ أَدَبًا؛ فَذَلِكَ هُوَ رَسْمُ الْأَدَبِ فِي
عَصْرِهِمْ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الرِّسْمَ قَدْ انْتَقَلَ فِي عَصْرِنَا نَحْنُ، فَإِنَّا نَحْنُ الْمَخْطُوتُونَ الْيَوْمَ
فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ، كَمَا لَوْ ذَهَبْنَا نُسَمِّي الْجَمَلَ فِي الْبَادِيَةِ «الْكَسْبَرِيْسَ»، وَالْهُودَجَ
عَرَبَةً «بُولْمَانَ».

وَمِنْ هَذَا الْخَطَأِ فِي التَّسْمِيَةِ ظَهَرَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ لِقِصَارِ النَّظَرِ كَأَنَّهُ تَكَرَّرَ عَصْرُ
وَاحِدٍ عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَنِ، فَإِنْ زَادَ الِامْتَاخُرُ لَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مِنَ الْمُتَقَدِّمِ؛ وَصَارَتْ هَذِهِ
الْكُتُبُ كَأَنَّهَا فِي جَمَلِيَّتِهَا قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ الْجَنَسِيَّةِ نَافِذٌ الْجَنَسِيَّةِ نَافِذٌ عَلَى الدَّهْرِ، لَا
يَنْبَغِي لِعَصْرِ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ جَنْسِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ.

هَذِهِ الْكُتُبُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ كَالْخَلِّ: يُسَمَّى لَكَ عَسَلًا ثُمَّ تَذَوُّقُهُ فَلَا يَجْنِي
عَلَيْهِ عِنْدَكَ إِلَّا الْأَسْمُ الَّذِي زَوَّرَ لَهُ؛ أَمَّا هُوَ فَكَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ وَفِي فَائِدَتِهِ وَفِي
طَبِيعَتِهِ وَفِي الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، لَا يَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَتَغَيَّرُ.

الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُعَيِّنُهَا الْوَضْعُ الصَّحِيحُ أَنَّ تِلْكَ الْمُؤَلَّفَاتِ إِنَّمَا وَضِعَتْ لِتَكُونَ
أَدَبًا، لَا مِنْ مَعْنَى أَدَبِ الْفِكْرِ وَفَنِّهِ وَجَمَالِهِ وَفِلْسَفَتِهِ، بَلْ مِنْ مَعْنَى أَدَبِ النَّفْسِ
وَتَثْقِيفِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا وَإِقَامَتِهَا، فَهِيَ كِتَابُ تَرْبِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ قَائِمَةٌ عَلَى أَصُولٍ مُحْكَمَةٍ فِي هَذَا
الْبَابِ، حَتَّى مَا يَقْرُوهَا أَعْجَمِيٌّ إِلَّا خَرَجَ مِنْهَا عَرَبِيًّا أَوْ فِي هَوَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْمِيلِ
إِلَيْهَا؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بُنِيَتْ عَلَى أَوْضَاعٍ تَجْعَلُ الْقَارِئَ الْمُتَبَصِّرَ كَأَنَّمَا يُصَاحِبُ مِنْ
الْكِتَابِ أَعْرَابِيًّا فَصِيحًا يَسْأَلُهُ، فَيُجِيبُهُ وَيَسْتَهْدِيهِ فَيُرْشِدُهُ؛ وَيُخْرِجُهُ الْكِتَابُ تَصَفْحًا
وَقِرَاءَةً كَمَا تَخْرِجُهُ الْبَادِيَةُ سَمَاعًا وَتَلْقِينًا؛ وَالْقَارِئُ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُسْتَدْرِجٌ^(١) إِلَى
التَّعْرِيبِ فِي مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ مِنْ هَوَى النَّفْسِ وَمَحَبَّتِهَا، فَتَصْنَعُ بِهِ تِلْكَ الْفُصُولَ فِيمَا
ذُبِّرَتْ لَهُ مَثَلَمَا تَصْنَعُ كِتَابُ التَّرْبِيَةِ فِي تَكْوِينِ الْخُلُقِ بِالْأَسَالِبِ الَّتِي أُدِيرَتْ عَلَيْهَا
وَالشَّوَاهِدُ الَّتِي وَضِعَتْ لَهَا وَالْمَعَالِمُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي فَضَّلَتْ فِيهَا.

(١) مُسْتَدْرِجٌ: مَدْفُوعٌ بِأَغْرَاءَاتٍ مَا.

ومن ثَمَّ جاءت هذه الكتبُ العربيَّةُ كُلُّها على نَسَقٍ واحدٍ لا يختلفُ في الجملة، فهي أخبارٌ وأشعارٌ ولغةٌ وعربيَّةٌ وجمعٌ وتحقيقٌ وتمحيصٌ، وإنَّما تتفاوتُ بالزيادةِ والنقصِ والاختصارِ والتبسُّطِ والتخفيفِ والتثقيلِ ونحو ذلك ممَّا هو في الموضوع لا في الوضع، حتى لِيُخَيَّلُ إلَيْكَ أنَّ هذه كتبُ جغرافيَّةٍ لِلغةِ وألفاظها وأخبارها؛ إذ كانتْ مثلَ كتبِ الجغرافية: متطابقةً كُلُّها على وصفِ طبيعَةٍ ثابتةٍ لا تتغيَّرُ معالمُها ولا يخلُقُ غيرُها إلَّا الخالقُ - سبحانه وتعالى - .

وإذا تدبَّرتَ هذا الذي بيَّناه لم تُعجب كما يُعجبُ المُتطفِّلون على الأدبِ العربيِّ والمُتخبِّطون فيه من أن يَرَوْا إيمانَ المؤلفين مُتَّصِلًا بكتبهم ظاهرٌ الأثر فيها، وأنَّهم جميعاً يقرُّرون أنَّهم يريدون بها المنزلةَ عندَ اللَّهِ في العَمَلِ لِحياطةِ هذا اللسانِ الَّذي نزلَ بِهِ القرآنُ الكريمُ وتاديتِه في هذه الكتبِ إلى قومهم كما تُؤدِّي الأمانةُ إلى أهلها، حتى لولا القرآنُ لَمَّا وُضِعَ من ذلك شيءٌ ألبتة .

وأنا أَتَلَمَّحُ دائماً العَاملَ الإلهيَّ في كلِّ أطوارِ هذه اللغة، وأراه يُديرُها على حفظِ القرآنِ الَّذي هو معجزُها الكبري، وأرى من أثره مجيءَ تلكَ الكتبِ على ذلك الوضع، وتسخيرَ تلكَ العقولِ الواسعةِ مِنَ الرواةِ والعلماءِ والحفاظِ جيلاً بعدَ جيلٍ في الجمعِ والشرحِ والتعليقِ بغيرِ ابتكارٍ ولا وضعٍ ولا فلسفةٍ ولا زَيِّغٍ عن تلكَ الحدودِ الموسومةِ الَّتِي أومأنا إلى حِكْمَتِها؛ فلو أنَّه كانَ فيهم مجددون من طرازِ أصحابنا من أهلِ التخليطِ، ثُمَّ تَرَكَ لها هذا الشَّأنُ يُتولَّونه كما نرى بالنظرِ القَصرِ والرأيِ العَمَائدِ والهوى المُنحرفِ والكِبَرِياءِ المُصَمِّمةِ والقولِ على أهاجِسِ والعِلْمِ على التَّوَهُّمِ ومجادلةِ الأَستاذِ حيضَ للأَستاذِ بيض... إذن لَضَرَبَ بَعْضُهُم وَجْهَ بَعْضٍ وجاءتْ كُتُبُهُم مُتدَابِرة، ومُسيخُ التاريخِ وضاعتِ العربيَّةُ وفسدَ ذلك الشَّأنُ كُلُّه، فلم يَتَسَقَ منه شيءٌ .

وممَّا تَرَدُّه على قارئها تلكَ الكتبُ في تَربيتِه لِلعربيةِ، أنَّها تُمَكِّنُ فيه لِلصبرِ والمُعانةِ وَالْتَحْقِيقِ وَالْتَوَرُّكِ في البَحْثِ وَالتَّدْقِيقِ في التَّصَفُّحِ، وهي الصِّفَاتُ الَّتِي فَقَدَهَا أَدْبَاءُ هذا الزَّمنِ، فأصبحوا لا يَتَشَبَّهون ولا يُحَقِّقون، وطالَ عليهم أن ينظروا في العربيَّةِ، وثَقُلَ عليهم أن يستبطنوا كتبها؛ ولو قد تَرَبَّؤوا في تلكَ الأسفارِ، وبذلك الأسلوبِ العربيِّ لَتَمَّتِ المُلَآمَمةُ بَيْنَ اللُّغَةِ في قوَّتِها وجزالَتِها وبين ما عسى أن يُنكَرَهُ منها ذوقُهُم في ضعفِهِ وعامِّيَّتِهِ وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السر في أن من لا يقرون تلك الكتب أول نشأتهم، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوب منحط، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غث، ولا يرون في الأدب العربي إلا آراء ملتوية؛ ثم هم لا يستطيعون أن يقيموا على درس كتاب عربي. فيساهلون أنفسهم ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك، ويتورطون في أقوال مضحكة، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور ما دام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها؛ وهم أبداً في إحدى الناحيتين أو في كليهما.

وهذا شرح الجواليقي من أمتع الكتب التي أشرنا إليها، وصاحبها هو الإمام أبو منصور موهوب الجواليقي المولود في سنة ٤٦٥ للهجرة، والمتوفى سنة ٥٤٠، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي؛ أول من درس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد وقرأ الجواليقي على شيخه هذا سبع عشرة سنة، استوفى فيها علوم الأدب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب في النظامية بعد علي بن زيد المعروف بالفصيح.

وما نشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه في تلك المدرسة، فانت من هذا الكتاب كأنك بإزاء كرسي التدريس في ذلك العهد، تسمع من رجل انتهت إليه مما هو بسبيله من الشرح، معني بالتصريف ووجهه مما انتهى إليه من أثر الإمام ابن جني فيلسوف هذا العلم في تاريخ الأدب العربي، فإن بين الجواليقي وبينه شيخين كما تعرف من إسناده في هذا الشرح.

وقد قالوا: إن أبا منصور في اللغة أمثل منه في النحو، على إمامته فيهما معاً؛ إذ كان يذهب في بعض علل النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها، وقد ساق منها عبد الرحمن الأنباري مثلين في كتابه «نزهة الألباء»، ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون في الطبقة العليا من أئمة العربية وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب في التحري^(١) والتدقيق؛ حتى كان من أثر ذلك في طباعه أن اعتاد التفكير وطول الصمت فلا يقول قولاً إلا بعد تدبر

(١) لا يند: لا يفت.

(٢) النحري: التفنيس والتقصي.

وفكر طويل، فإن لم يهتد إلى شيء قال: لا أدري، وكثيراً ما كان يُسأل في المسألة فلا يجيب إلا بعد أيام.

وكان ورعاً قوياً للإيمان، انتهى به إيمانه وعلمه وتقواه إلى أن صار أستاذاً الخليفة المقتفي لأمر الله، فأختص بإمامته في الصلوات، وقرأ عليه المقتفي شيئاً من الكتب، وانتفع بذلك وبأن أثره في توقيعاته كما قالوا.

والذي يتأمل هذا الشرح فضل تأمل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجل إحصاء في اللغة، لا يفوته شيء مما عُرف إلى زمنه، وهو ولا ريب يجري في الطريقة الفكرية التي نهجها ابن جنّي وشيخه أبو علي الفارسي؛ ومن أثر هذه الطريقة فيه أنه لا يتحجر ولا يمنع أقياس في اللغة، ويلجئ ما وضعه المتأخرون بما سمع من العرب، ويروي ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته؛ ومن أمتع ما جاء من ذلك في شرحه قوله في صفحة ٢٣٥، وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده إلا في كتابه، وهذه عبارته:

قولهم: يدي من ذلك فعلة: المسموع منهم في ذلك ألفاظ قليلة، وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا: يدي من الإهالة سَنَخَةٌ، ومن أبيض زهمة، ومن التراب تربة، ومن التين والعنب والفواكه كتنه وكمدة ولزجة، ومن العشب كتنة أيضاً، ومن الجبن نسمة، ومن الجص شهرة، ومن الحديد والشبه والصُفْر^(١) والرصاص سهكة وصدنة أيضاً، ومن الحمأة رذعة ورزعة، ومن الخضاب رذعة، ومن الجنطة والعجين والخبز نسعة، ومن الخل والنبيد خمطة، ومن الدبس والعسل دبة ولزقة أيضاً، ومن الدم شحطة وشرفة ومن الدهن زنخة، ومن الرياحين ذكية، ومن الزهر زهرة، ومن الزيت قنمة، ومن السمك سهكة وصميرة، ومن السمن دسمة ونسمة ونمسة، ومن الشهد^(٢) والطين لثقة، ومن العطر عطرة، ومن الغالية عبة، ومن الغسلة والقدر وجرة، ومن الفرساد^(٣) قننة، ومن اللبن وضرة، ومن اللحم والمرق سميرة، ومن الماء بللة وسبرة، ومن المسك ذفرة وعبة، ومن الثن قنمة، ومن النفط جعدة. انتهى.

فالمسموع من هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعاً فيما نرى، والباقي

(١) الصُفْر: النحاس.

(٢) الشهد: القصدير.

(٣) الفرساد: العسل.

كلُّه أجراه علماء اللغة وأهل الأدب على القياس، فأبدع القياس منها أربعاً وثلاثين كلمة: ولو تدبَّرت كيفية استخراجها ورجعت إلى الأصول التي أخذت منها لأيقنت أنَّ هذه العربية هي أوسع اللغات كافة، وأنها من أهلها كالنبوة الخالدة في دينها القوي: تنتظر كلَّ جيل يأتي كما ودَّعت كلَّ جيل غبر لأنها الإنسانية، لهؤلاء وهؤلاء.

إنَّ ظهور مثل هذا الشرح كالتوبيخ لأكثر كتاب هذا الزمن أن أقرأوا وأدرسوا وخصُّوا لغتكم بشطَرٍ من عنايتكم، وتربُّوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكم، وأصبروا على معاناتها صبر المُحبِّ على حبيبته، فإنَّ ضعفتم فصبر البارِّ على مَنْ يلزمه حقه؛ فإنَّ ضعفتم عن هذا فصبر المتكلف المتجمل على الأقل!

* * *

أَمِيرُ الشَّعْرِ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ

الوجهُ في أفرادِ شاعرٍ أو كاتبٍ مِنَ الماضينِ بِالتَّأليفِ، أنْ تصنعَ كأنَّكَ تُعيدُهُ إلى الدُّنيا في كتابٍ وكانَ إنساناً، وتُرجعُهُ درساً وكانَ عمراً، وتردُّهُ حِكَايَةً وكانَ عملاً، وتنقلُهُ بزمِنِهِ إلى زَمَنِكَ، وتعرضُهُ بِقَوْمِهِ على قَوْمِكَ، حتى كأنَّهُ بعدَ أنْ خلَقَهُ اللَّهُ خِلْقَةً إِيحَادٍ يخلُقُهُ الْعَقْلُ خِلْقَةً تَفْكِيرٍ.

من أَجْلِ ذلكَ لا بُدَّ أنْ يَنْقَضِيَ^(١) الْمُؤَلَّفُ في الْجَمْعِ من آثارِ الْمُتَرْجِمِ وأخبارِهِ، وأنْ يَحْمَلَ في ذلكَ مِنَ الْعَنَتِ ما يَحْمِلُهُ لو هو كانَ يَجْري وراءَ مَلَكِيٍّ مَنْ يُتَرْجِمُهُ لِقِرَاءَةِ كِتَابِ أَعْمَالِهِ كِتَابٌ في يَدَيْهِمَا... ولا بُدَّ أنْ يُبَالِغَ في التَّمَحْيِصِ وَالْمُقَابِلَةِ، وَيُدَقِّقَ في الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْإِسْتِخْرَاجِ، وَيُضِيفَ إلى عَامَّةِ ما وَجَدَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَبَرِ خَاصَّةً ما عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْفِكْرِ، وَيَعْمَلَ على أنْ يُنَقِّحَ ما أَنْتَهَى إِلَيْهِ الْأَمَاضِي في أدبِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا بَلَغَ إِلَيْهِ الْحَاضِرُ في فَتْنِهِ وفلسفَتِهِ؛ وذلكَ من عَمَلِ الْعَقْلِ الْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا والْمُتَرَادِفِ على هَذِهِ الْحَيَاةِ بِمَذَاهِبِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، يُشَبِّهُ عَمَلَ الدَّهْرِ الْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا والْمُتَرَادِفِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ على هَذِهِ الْأَرْضِ، كُلُّ نَهَارٍ أو لَيْلٍ هو آخِرٌ وهو أَوَّلٌ، وكذلكَ الْعُقُولُ كُلُّهَا آخِرٌ من نَاحِيَةٍ وَأَوَّلٌ من نَاحِيَةٍ.

وَالْتَجْدِيدُ في الْأَدَبِ إنَّمَا يَكُونُ من ضَرِيقَتَيْنِ: فَأَمَّا وَاحِدَةٌ فإِبْدَاعُ الْأَدِيبِ الْحَيِّ في آثارِ تَفْكِيرِهِ بِما يَخْلُقُ مِنَ الصُّورِ الْجَدِيدَةِ في اللُّغَةِ وَالْبَيَانِ، وَأَمَّا الْأُخْرَى فإِبْدَاعُ الْحَيِّ في آثارِ أَلْمِيتٍ بِما يَتَنَاوَلُهَا بِهِ مِنْ مَذَاهِبِ النِّقْدِ الْمُسْتَحْدَثَةِ وَأَسَالِيبِ الْفَنِّ الْجَدِيدَةِ وفي الْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ إِيحَادٌ ما لَمْ يُوْجَدْ، وفي الثَّانِي إِمْتَامٌ ما لَمْ يَتِمَّ؛ فلا جَرَمَ كَانَتْ فِيهِمَا مَعاً حَقِيقَةُ التَّجْدِيدِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا، ولا تَجْدِيدٌ إِلَّا من ثَمَّةٍ، فلا جَدِيدٌ؛ إِلَّا معَ الْقَدِيمِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَتْ هَذَا وَحَقَّقْتَهُ أَدْرَكْتَ لِمَاذَا يَتَخَبَّطُ مُتَحَلِّو الْجَدِيدِ بَيْنَنَا وَأَكْثَرُهُمْ يَدَّعِيهِ سَفَاهًا وَيَتَقَلَّدُهُ زُورًا، وَجَمَلُهُ عَمَلُهُم كَوْضِعُ الزَّنَجِيِّ الدَّرُوزِ الْأَبْيَضِ (البودرة)

(١) يَنْقَضِي: يَنْحَوِي وَيَتَابِعُ التَّمَحْيِصِ: التَّقْضِي والتَّحْزِي.

على وجهه ثم يذهب يدعي أنه خرج أبيض من أمه لا من العلبة . . . فإن منهم من يصنع رسالة في شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده في طبعه، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها، ومنهم من يجدد في تاريخ الأدب، ولكن بالتكذب عليه والتفحيم فيه والذهاب في مذهب المخالفة، يضرب وجه المستقبل حتى يجيء مذبراً، ووجه المذبر حتى يعود مقبلاً، فإذا لكل فريق جديد، وينسى أن جديده بالصفة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق.

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض، لا يكلفه ذلك إلا قولاً يقوله وتلفيقاً يدبره، ولكن أذكلك كل من وصف دواء استطاع أن يشفى به؟

وبعد؛ فقد قرأت رسالة امرئ القيس التي وضعها الأديب السيد محمد صالح سمك، فرأيت كاتبها - مع أنه ناشئ بعد - قد أدرك حقيقة الفن في هذا الوضع من تجديد الأدب، فأستقام على طريقة غير ملتوية، ومضى في المنهج السديد ولم يدع الثبوت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأي، ولا قصر في التحصيل والاطلاع والاستقصاء، ولا أراه قد فاتته إلا ما لا بد أن يفوت غيره مما ذهب في إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رخصاً بالغيب وحكماً بالظن.

فإن امرأ القيس في رأيي إنما هو عقل بياني كبير من العقول المفردة التي خلقت خلقتها في هذه اللغة، فوضع في بيانها أوضاعاً كان هو مبتدعها والسابق إليها، ونهج لمن بعده طريقته في الاحتذاء عليها والزيادة فيها والتوليد منها؛ وتلك هي منقبتة التي أنفرد بها والتي هي سرُّ خلوده في كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى ما بقيت اللغة؛ فهو أصل من الأصول، في أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما، حتى لكأنه مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها؛ وكما يقال في أيامنا في أمم الصناعة: سيارة فورد وسيارة فيات، يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربية: استعارة امرئ القيس، وتشبيه امرئ القيس.

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما أنفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ما جاء به النص.

ولقد نبهنا في (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديداً في اللغة، لم يوضع من قبله ذلك الوضع ولم يجر في

استعمال العرب كما أجراه، فهو يَصُبُّ اللِّغَةَ صَبًّا فِي أَوْضَاعِهِ لِأَهْلِهَا لَا فِي أَوْضَاعِ أَهْلِهَا؛ وبذلك يُحَقِّقُ مِنْ نَحْوِ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ مَا لَا نَظْنَ فِلْسَفَةٍ أَلْفَنُ قَدْ بَلَغَتْ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ إِذْ حَقِيقَةُ أَلْفَنُ عَلَى مَا نَرَى أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ كَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهَا لَيْسَ فِي تَرْكِيبِهَا إِلَّا أَلْقُوَّةٌ أَلَّتِي بُنِيتَ عَلَيْهَا، فَإِذَا تَنَاوَلَهَا أَلْصَنَعُ الْحَاذِقُ أَلْمُلْهُمُ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ تَعْبِيرِهِ مَا يُشْعِرُكَ أَنَّهُ خَلَقَ فِيهَا أَلْجَمَالَ أَلْعَقْلِي، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ فِي أَلْخِلْقَةِ نَاقِصَةً حَتَّى أَتَمَّهَا.

وهذا أَلْمَعْنَى أَلَّذِي بَيَّنَّاهُ هُوَ أَلَّذِي كَانَ يَحُومُ عَلَيْهِ أَلرَّوَاةُ وَأَلْعُلَمَاءُ بِأَلشَّعْرِ قَدِيمًا، يُحَسِّنُونَهُ وَلَا يَجِدُونَ بَيَانَهُ وَتَأْوِيلَهُ، فَتَرَى أَلْأَصْمَعِي مَثَلًا يَقُولُ فِي شَعْرِ لَبِيدٍ؛ إِنَّهُ طِيلَسَانُ طَبْرِي. أَيْ مُخَكَّمٌ مَتِينٌ، وَلَكِنْ لَا رَوْنَقَ لَهُ؛ أَيْ فِيهِ أَلْقُوَّةٌ وَلَيْسَ فِيهِ أَلْجَمَالُ؛ أَيْ فِيهِ أَلتَّرَكِيبُ وَلَيْسَ فِيهِ أَلْفَنُ.

وَأَلْعَقْلُ أَلْبَيَانِي كَمَا قُلْنَا فِي غَيْرِ هَذِهِ أَلْكَلِمَةِ، هُوَ ثَرَوَةُ أَللِّغَةِ، وَبِهِ وَبِأَمثَالِهِ تَعَامَلُ أَلتَّارِخُ، وَهُوَ أَلَّذِي يُحَقِّقُ فِيهَا فَنَ أَلْفَاضِلِهَا وَصُورِهَا؛ فَهُوَ بِذَلِكَ أَمْتَدَادُهَا أَلزَّمْنِي وَأَنْتَقَالَهَا أَلتَّارِخِي وَتَخَلَّفُهَا مَعَ أَهْلِهَا إِنْسَانِيَّةً بَعْدَ إِنْسَانِيَّةٍ فِي زَمَنِ بَعْدَ زَمَنِ، وَلَا تَجْدِيدَ وَلَا تَطَوُّرَ إِلَّا فِي هَذَا أَلتَّخَلُّقِ مَتَى جَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَأَلْجَدِيرِينَ بِهِ؛ وَهُوَ أَلْعَقْلُ أَلْمَخْلُوقُ لِتَلْفِيسِ وَأَلتَّوْلِيدِ وَتَلْقِي أَلْوَحْيٍ وَأَدَائِهِ وَأَعْتَصَارِ أَلْمَعْنَى مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِدَارَةِ أَلْأَسْلُوبِ عَلَى كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ أَلْمَعَانِي وَالْأَرَاءِ، فَيَنْقَلِبُهَا مِنْ خِلْقَتِهَا وَصِيغِهَا أَلْعَالِيَةِ إِلَى خَلْقِ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ، هُوَ هَذَا أَلْعَبْقَرِيُّ أَلَّذِي رَزَقَ أَلْبَيَانَ.

وَلِلْسَبَبِ أَلَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَقِيَ أَمْرُ أَلْقَيْسِ كَأَلْمِيزَانِ أَلْمَنْصُوبِ فِي أَلشَّعْرِ أَلْعَرَبِيِّ يَبِينُ بِهِ أَلنَاقِصُ وَأَلْوَافِي؛ قَالَ أَلْبَاقَلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ (الإعجاز): وَقَدْ تَرَى أَلْأَدْبَاءَ أَوَّلًا يُوزَانُونَ بِشِعْرِهِ (يُرِيدُ أَمْرًا أَلْقَيْسِ) فَلَانًا وَفَلَانًا وَيَضْمُونَ أَشْعَارَهُمْ إِلَى شِعْرِهِ، حَتَّى رُبَّمَا وَازَنُوا بَيْنَ شَعْرِ مَنْ لَقِينَاهُ (تُوفِي أَلْبَاقَلَانِيُّ سَنَةَ ٤٠٣ لِلْهَجْرَةِ) وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِي أَشْيَاءٍ لَطِيفَةٍ وَأُمُورٍ بَدِيعَةٍ، وَرُبَّمَا فَضَّلُوهُمْ عَلَيْهِ أَوْ سَوَّوْا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوْ قَرَّبُوا مَوْضِعَ تَقَدُّمِهِ عَلَيْهِمْ وَبَرُورُهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، اهـ.

وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ أَمْرًا أَلْقَيْسٍ أَصْلُ فِي أَلْبَلَاغَةِ، قَدْ مَاتَ وَلَا يَزَالُ يُخْلَقُ، وَتَطَوَّرَتِ أَلدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ يَجِيءُ مَعَهَا، وَبَلَغَ أَلشَّعْرُ أَلْعَرَبِيُّ غَايَتَهُ وَلَا تَزَالُ عَرَبِيَّتُهُ عِنْدَ أَلْغَايَةِ.

وَعَرَضَ أَلْبَاقَلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ طَوِيلَةً أَمْرِي أَلْقَيْسٍ فَاتَّقَدَّ مِنْهَا أَبْيَاتًا كَثِيرَةً، لِيَدُلَّ

بذلك على أن أجودَ شعراً وأبدعهُ وأفصحهُ وما أجمعوا على تقدّمه في الصناعة والبيان، هو قبيل آخر غير نظم القرآن لا يمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها؛ فركب في ذلك رأسه ورجليه معاً... فأصاب وأخطأ، وتعسف وتهذى، وأنصف وتحامل؛ وكل ذلك إمكانية أمرى القيس في ابتكاره ألياني الذي لا يمكن أن يدفع عنه؛ ولما انتقد قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
قال: «فقد قالوا: عنى بذلك أنها كبيضة خدر في صفائها ورقفتها، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق إليها بل هي دائرة في أفواه العرب». ألا ليت شعري هل كان أباقلاني يسمع من أفواه العرب في عصر أمرى القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر)؟
على أن الكناية عن الحبيبة (بيضة الخدر) من أبداع الكلام وأحسن ما يؤتى العقل الشعري، ولو قالها اليوم شاعر في لندن أو باريس بالمعنى الذي أراده أمرؤ القيس - بما فسرّها به أباقلاني - لاستبدعت من قائلها ولأصبحت مع القبلة على كل فم جميل؛ بل هم يمرون في بعض بيانيهم من طريق هذه الكلمة، فيكنون عن البيت الذي يتلاقى فيه الحبيبان (بالعش)، وما يتخذ العش إلا للبيضة. إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته في ثعومتها وترفيها ولين ما حولها، ثم في مسها وحرارة الشباب فيها، ثم في رقتها وصفاء لونها وبريقها، ثم في قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إيّاها، ثم في حذرهم وسهرهم، ثم في أنصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها وجملة القوة إلى حياطتها^(١) والمحمّاة عنها - هي في كل ذلك منهم، ومن نفسها كبيضة الجراح في عثه، إلا أنها بيضة خدر، ولذلك قال بعد هذا البيت:

تجاوزت أحراساً إليها ومغشراً علي حراساً لو يسرون مفتلي
فتلك بعض معاني الكلمة وهي كما ترى، وكذلك ينبغي أن يفسر البيان...

(١) حياطتها: حمايتها.

البؤساء

ترجمَ حافظُ هذا الجزءَ الثاني من البؤساء فطوى به الأول، وكانوا يحسبونَ الأولَ قد عَقِمَتْ بمثلهِ البلاغةُ فلا ثانيَ له. وبين الجزئين زمنٌ لو اتَّسعَ به أديبٌ في قراءةِ كتبِ الأدبِ لَأَسْتَوْعَبَهَا كُلَّهَا، فكأنَّ أرتفاعَ السَّنِّ بِحافظٍ في هذه المدةِ جعلَ منه في قوَّةِ الأدبِ حافظينِ يُترجمانِ معاً.

وما البؤساءُ في ترجمتهِ إلَّا فكرُ فيلسوفٍ تعلَّقَ في قلمِ شاعرٍ فأنعطفَتْ عليه حواشيَ البيانِ من كلِّ نواحيه، وجاءَ ما تدري أشعراً من النثرِ أم نثراً من الشعرِ، وخرجَتْ به الكِتَابَةُ في لَوْنٍ من الصِّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ كأنَّما تنحلُّ عليه أشعةُ الضحى.

ترجمَ حافظُ فوضَعَ اللِّغَةَ بين فكره ولسانه، ووقفَ تحتِ سحابةٍ من السُّحُبِ الَّتِي خَفَقَ عَلَيْهَا جَنَاحُ جبريلَ، فما تخلو كتابتهُ من ظِلٍّ يَتَنَفَّسُ عَلَيْكَ بِرَاحَةٍ الْإِعْجَازِ؛ وتراه يتحدَّرُ مَعَ الْكَلَامِ ويتناولُ منه ويدعُ، فما نزَعَ به الْكَلَامُ منزعاً إلَّا وجدهُ متمكناً منه وأصابه حيثُ أَصَابَهُ كَالْتِيَّارِ جَمْلَةً واحدةً تلفُ أولَ النَّهْرِ وَآخِرَهُ على مدٍّ ما يجري؛ فهو حيثُ كانَ في السَّهْلِ وفي الصَّعْبِ، غيرَ أَنَّهُ يَسْتَسِيرُ في موضعٍ ويستعلنُ في موضعٍ، ويجيشُ ويهدرُ ويتراعى في العمقِ فيدوي دويًّا.

ومن هنا يحسبه بعضهم يجنحُ إلى ما يستجفي من الْكَلَامِ، وإلى استكراهِ بعضِ أَلْفَاظٍ وَالتَّكَلُّفِ لِبَعْضِهَا؛ وإنَّما ذاكَ وضعٌ من أوضاعِ اللِّغَةِ ومذهبٌ من مذاهبِ الْبَلَاغَةِ، ولا بُدَّ أَنْ يَشْتَدَّ الْقَوْلُ ويلين، وأن يكونَ في أَجْرَاسِ الْحُرُوفِ ما في نغمِ الْإِيْقَاعِ؛ وما أشبهه هندسةُ الْبَيَانِ بِهِنْدَسَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تعمُرُ النَّهْرَ وترمي بِالْبَحْرِ وتَقْدِفُ بِالْجِبَلِ الْأَشْمَ؛ وما الْجِبَلُ لو حَقَّقَتْ في وجوهِ التَّنَاسُبِ الطَّبِيعِيِّ إلَّا بحرٌ قد تحجَّرَ فانتثرَتْ أمواجهُ من صخوره، وكلا اثنيهما على ما بين الصَّلابةِ وَاللَّيْنِ تعبيرٌ في أساليبِ الْقُوَّةِ عن الْقُوَّةِ، وتوضيحٌ لِأَقْوَى ما لا يُمكنُ أَنْ يظهرَ، بِأَقْوَى ما لا يُمكنُ أَنْ يخفى.

يُخْطِئُ الضَّعَافُ مِنَ الْكُتَّابِ وبِخَاصَةِ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ... إِذَا حَسِبُوا الْفَصَاحَةَ

العربية قبلاً واحداً من اللفظ الرقيق المأنوس؛ ولقد تجد بعض هؤلاء الضعفاء وإنه يرى في الكلام الجزل المتفصح ما يرى في جمجمة الأعاجم إذا نطقوا فلم يبينوا؛ وإنما هي العربية، وإنما فصاحتها في مجموع ما يطرد به القول؛ والفصاحة في جملتها وتفصيلها إحكام التناسب بين الألفاظ والمعاني، والغرض الذي يتجه إليه كلاهما؛ فمتى فصل الكلام على هذا الوجه وأحكم على هذه الطريقة، رأيت جماله واضحاً بيناً في كل لفظ تقوم به العبارة، من النسيج المهلهل الرقيق، إلى الحبك المحكم الدقيق، إلى الأسلوب المندمج الموثق الذي يسرد في قوة الحديد؛ إذ يكون كل حرف لموضعه، ويكون كل موضع لحرفه، ويكون كل ذلك بمقدار لا يسرف، وقياس لا يخطئ، ووزن لا يختلف؛ وهذه هي طبيعة الفصاحة العربية دون سائر اللغات، وبها أمكن الإعجاز في هذه اللغة ولم يمكن في سواها.

ومتخرج البؤساء أحد الأفراد المعدودين الذين أحكموا هذه الطريقة ونفذوا إلى أسرارها، ففي كل موضع من كتابته موضع روعة، حتى ما تدري أيكتب أم يصوغ أم يصور، وكأنه لا ينقل من لسان إلى لسان، بل من فكر إلى فكر، فترى أكثر جملة كأنها نضى فيها المصباح.

ومن الخواص التي انفرد بها حافظ أنه ظاهر في صناعة الألفاظ ظهور هيجو في صناعة معانيه؛ إذ لا تجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب أو يطيقه؛ وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلف، فلا يحيا الميت إلا بموت الحي؛ وهم في أكثر ما يصنعون لا يعدون أن يصححوا العامية أو يفصحوا بها قليلاً، فيستوي في صناعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا أو ذاك أو ذلك، لأنهم سواسية، ولا تؤتيك كتبهم أكثر مما تؤتيك الاسم المعلق على مسماه.

غير أنك في البؤساء ترى مع الترجمة صناعة غير الترجمة، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة وألفه حافظ مرتين، إذ ينقل عن الفرنسية؛ ثم يفتن في التعبير عما ينقل، ثم يحكم الصناعة فيما يفتن، ثم يبالغ فيما يحكم؛ فانت من كتابه في لغة الترجمة، ثم في بيان اللغة، ثم في قوة البيان؛ وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه لأحق به في العربية من مؤلفه، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه.

وتلك طريقة في الكتابة لا يستعان عليها إلا بالأدب العزيز، والذوق الناضج،

وَالْبَيَانِ الْمَطْبُوعِ؛ ثُمَّ بِالصَّبْرِ عَلَى مُطَاوَلَةِ التَّعَبِ وَمَعَانَاةِ الْكَدِّ فِي تَخْيِيرِ اللَّفْظِ وَتَجْوِيدِ الْأَسْلُوبِ وَتَصْفِيَةِ الْعِبَارَةِ؛ فَلَقَدْ يُنْفِقُ الْكَاتِبُ وَقْتًا فِي عَمْرِ اللَّيْلِ لِيُخْرِجَ مِنْ آخِرِهِ سَطْرًا فِي نَوْرِ الْفَجْرِ، وَبِهَذَا الصَّنِيعِ جَاءَتْ صَفَحَاتُ الْبُؤْسَاءِ عَلَى قَلْبِهَا كَشَبَابِ الْهَوَى؛ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ فَجْرُهُ وَشَمْسُهُ، وَلِكُلِّ لَيْلَةٍ قَمَرُهَا وَنَجْوَمُهَا.

وَالَّذِي نَعْتَمِزُهُ^(١) فِي هَذِهِ التَّرْجُمَةِ أَنَّ الضَّجَرَ يَسْتَبِدُّ أحياناً بِصَاحِبِنَا فَيَسْتَكْرِهُهُ عَلَى غَيْرِ طَبْعِهِ، وَيَرُدُّهُ إِلَى غَيْرِ مَأْلُوفِهِ؛ وَمَنْ ثُمَّ يَضْطَرُّ ذَوْقُهُ وَسَلِيقَتُهُ أَوْ يَذْهَبُ بِهِ عَنْهُمَا، فَيَعْدِلُ بِالْمَعْنَى عَنْ لَفْظِهِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْأَدَبَاءُ فِيهِ، كَاسْتِعْمَالِهِ قَارُنَ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّمَا يَسْتَعْمَلُونَ مَثْلَ بَيْنَهُمَا، أَوْ يُخْلُ بوزنِ الْكَلِمَةِ فِي مِيزَانِ الذَّوْقِ، فَتَرَى الْعِبَارَةَ الْيَابِسَةَ فِي الْجُمْلَةِ الْخَضِرَاءِ الَّتِي تَرَفُّ؛ وَذَلِكَ مَا لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِيِّ فَيَمْنِ أَرْتَهَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُلَابَسَةِ الْقُوَّةِ أَعْلَى فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَلَمْ يُتَنَزَّ عَنْهُ كِتَابٌ إِلَّا ذَلِكَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي أَهْتَزَّتْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.

(١) نَعْتَمِزُهُ: نَجِدُهُ مَغْمِزاً لِلانْتِقَاصِ مِنْ قَدْرِهِ.

الملاحُ النَّائِه

إذا أردتُ أن أكتبَ عن شعري فقرأته، كانَ من دأبي^(١) أن أقرأه منتبهاً أتصفحُ عليه في الحرفِ والكلمة، إلى البيتِ والقصيدة، إلى الطريقةِ والنهج، إلى ما وراءِ الكلام من بواعثِ النفسِ الشاعرة ودوافعِ الحياة فيها، وعن أيِّ أحوالِ هذه النفسِ يصدرُ هذا الشاعر، وبأيِّها يتسبَّبُ إلى الإلهام، وفي أيِّها يتَّصلُ بالإلهامِ به، وكيف يتصرَّفُ بمعانيه، وكيف يسترسلُ إلى طبعه، ومن أين المآتى في رديئه وسقطه، وبماذا يسلكُ إلى تجويده وإبداعه.

ثمَّ كيف جدُّه قريحته وذكاءُ فكره والمَلَكَةُ النفسِيَّةُ البَيَانِيَّةُ فيه، وهل هي جَبَّارَةٌ متعسِّفَةٌ تملكُ ألبانَ من حدودِ اللُّغَةِ في اللفظِ إلى حدودِ الإلهامِ في المعنى، ملكةٌ استقلالٍ تنفذُ بالأمرِ والنهي جميعاً، أو هي ضعيفةٌ رِخوةٌ ليسَ معها إلا الاختلالُ والأضطرابُ، وليسَ لها إلا ما يحِمِلُ الضَّعِيفُ على طبعه المكدودِ كلُّما عَنَفَ به سقط به؟

أتبيِّنُ كلَّ هذا فيما أقرأ من الشعر، ثمَّ أزيدُ عليه انتقاده بما كنتُ أصنعه أنا لو أنني عالجتُ هذا العَرَضَ أو تناولتُ هذا المعنى، ثمَّ أضيفُ إلى ذلك كلِّه ما أثبتُّه من أنواعِ الاهتزازِ التي يحدثها الشعرُ في نفسي؛ فإنِّي لأطربُ للشعرِ الجيِّدِ الوثيقِ أنواعاً من الطربِ لا نوعاً واحداً، وهي تُشَبِّهُ في التَّفَاوُتِ ما بينَ قطرةِ الندى الصافية في ورقِ الزنبقة وقطرةِ الشعاعِ المتألِّقة في جوهرِ الماسةِ وموجةِ النورِ المتألِّهة في كوكبِ الزهرة.

وأكثرُ الشعرِ الذي في أيامنا هذه لا يتَّصلُ بنفسِي ولا يخفُّ على طبعي، ولا أراه يقعُ من الشعرِ الصحيحِ إلا من بعد، وهو مني أنا كالرجلِ يمرُّ بي في الطريقِ لا أعرفه: فلا ينظرُ إليَّ ولا أنظرُ إليه، فما أبصرُ منه رجلاً وإنسانيَّةً وحياةً أكثرَ ممَّا أراه ثوباً وجزءاً وطربوشاً! والعجيبُ أنَّه كلما ضعُفَ الشاعرُ من هؤلاءِ قوِّيَ على

(١) دأبي: عادتي.

مقدار في الاحتجاج لضعفه، وألهم من الشواهد والحجج ما لو ألهم بعده من المعاني والخواطر لكان عسى . . .

فإذا نأرت المعاني الفاظها وأختلفت الألفاظ على معانيها قال: إن هذا في الفن . . . هو الاستواء والأطراد والملاءمة وقوة الحبك؛ وإذا عوَّض وخأته اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلَّف وتساقط ليتحدلق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لفهم شعره قال: إنَّه أعلى من إدراك مُصْريه، وإنَّ عَجْرَفةَ معانيه هذه آتية من أن شعره من وراء اللغة، من وراء الحالة النفسية، من وراء العصر، من وراء الغيب: كأنَّ الموجود في الدنيا بين الناس هو ظلُّ شخصه لا شخصه، والظلُّ بطبيعته مطموس مبهم لا يبين إبانة الشخص. وإذا أهلك الشاعر الاستعارة وأمضى التشبيه وخنق المجاز بحبل - قال لك: إنَّه على الطريقة العصرية وإنما سدَّد وقارب وأصاب وأحكم. وإذا سئى المقالة قصيدة . . . وخلط فيها خلطه وجاء في أسوأ معرض وأقبحه وخرج إلى ما لا يُطاق من الركاكة والغثاثة - قال لك: هذه هي وحدة القصيدة، فهي كلُّ واحد أفرغ إفراغ الجسم الحي: رأسه لا يكون إلا في موضع رأسه ورجلاه لا تكون إلا في موضع رجليه . . .

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحُجج من أصحابها على أنَّها طبقات من القوة، غير أنَّ مُصْداق الشهادة للأقوياء عظامهم المشبوحة، وعضلاتهم المفتولة، وقلوبهم الجريئة، أمَّا الألبسة فهي شهود الزور في هذه القضية خاصة.

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر: فالأول تأخذ من طريقته ومجموع شعره أنَّه ما نظم إلا ليثبت أنَّه قد وضع شعراً، والثاني تأخذ من شعره وطريقته أنَّه إنما نظم ليثبت أنَّه قرأ شعراً . . . وهذا الثاني يُشعرك بضعفه وتلفيقه أنَّه يخدم الشعر ليكون شاعراً، ولكنَّ الأول يُريك بقوته وعبقريته إلى الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعره.

أمَّا فريق المتشاعرين فليُمثِّلْ لهُ القارئ بمن شاء وهو في سعة . . . وأمَّا فريق الشعراء ففي أوائل أمثليته عندي الشاعر المهندس علي محمود طه. أشهد: أنني أكتب عنه الآن بنوع من الإعجاب الذي كتبت به في «المقتطف» عن أصدقائي القدماء: محمود باشا البارودي، وإسماعيل باشا صبري، وحافظ، وشوقي -

رَحْمَهُمُ اللَّهُ وَأَطَالَ بَقَاءَ صَاحِبِنَا - فهذا الشاب المهندِسُ أوتِيَ من هندسةِ البناءِ قوَّةَ التميِّزِ ودِقَّةَ المُحاسبة، ووَهَبَ مَلَكَةَ الْفَضْلِ بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْفُجْحِ فِي الْأَشْكَالِ مِمَّا عَلَّمَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ وما عَلَّمَتْهُ مِنَ الذَّوْقِ وهذا إلى جِلاءِ الْفُطْنَةِ وَصِقَالِ الطَّبْعِ وَتَمَوُّجِ الْخِيَالِ وَانْفِصَاحِ الذاكرةِ وَانْتِظَامِ الْأَشْيَاءِ فِيهَا؛ وبهذا كُلُّهُ اسْتَعَانَ فِي شَعْرِهِ وَقَدْ خُلِقَ مُهَنْدِساً شاعراً، ومعنى هذا أَنَّهُ خُلِقَ شاعراً مُهَنْدِساً؛ وكأنَّ اللَّهَ - تعالى - لم يَقْدُرْ لهذا الشَّاعِرِ الْكَرِيمِ تَعَلُّمَ الْهَنْدَسَةِ وَمُزاولَتِهَا وَالْمَهَارَةَ فِيهَا إِلَّا لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَنْبُغُ نُبُوغُهُ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي زَمَنِ الْفَوْضَى وَعَهْدِ التَّقَلُّلِ، وَحِينَ فسادِ الطَّرِيقَةِ وَتَخَلُّفِ الْأَذْوَاقِ وَتَرَاوُجِ الطَّبْعِ وَوُقُوعِ الْغَلَطِ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ لِانْعِكَاسِ الْقَضِيَّةِ، فيكونُ البرهانُ على أَنَّ هذا شاعرٌ وذاك نابغةٌ وذلك عبقرى - هو عينُ البرهانِ على أَنَّ لا شِعْرَ ولا نُبُوغَ ولا عبقريةَ؛ وهذه فوضى تحتاجُ في تنظيمِها إلى (مصلحة تنظيم) بِالْهَنْدَسَةِ وَأَلَاتِهَا وَالرِّيَاضَةِ وَأَصُولِهَا وَالْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ وَفُنُونِهَا، فجاء شاعرُنَا هذا وفيهِ الطُّبُّ لِمَا وَصَفْنَا؛ فهو يَنْظُمُ شَعْرَهُ بِقَرِيحَةٍ بَيَانِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ، أَساسُها الْإِتْرَانُ وَالضَّبْطُ، وَصَوَابُ الْجِسْبَةِ فيما يَقْدُرُ لِلْمَعْنَى، وإِبداعُ الشَّكْلِ فيما يُنْشِئُ مِنَ الْلفظِ، وألَّا يتركُ البناءَ الشَّعْرِيَّ قائماً لِيَقَعَ إِذْ يَكُونُ واهناً فِي أَساسِهِ مِنَ الصَّنَاعَةِ، بَلْ لِيثبتَ إِذْ يَكُونُ أَساسُهُ مِنَ الصَّنَاعَةِ فِي رَسُوخٍ وَعَلَى قَدَرٍ.

وديوان «الملاح التائه» الَّذِي أَخْرَجَهُ هَذَا الشَّاعِرُ لا يَنْزِلُ بِصَاحِبِهِ مِنْ شَعْرِ الْعَصْرِ دُونَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَقْرَأَهُ وَتَعْتَبِرَ مَا فِيهِ بِشَعْرِ الْآخِرِينَ حَتَّى تَجِدَ الشَّاعِرَ الْمُهَنْدِسَ كَأَنَّهُ قَادِمٌ لِلْعَصْرِ مُحَمَّلاً بِذَهْنِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَأَلَاتِهِ وَمَقاييسِهِ لِيُصْلِحَ ما فَسَدَ، وَيُقيِّمَ ما تَدَاعَى، وَيُرْمِمَ ما تَخَرَّبَ، وَيَهْدِمَ وَيَبْنِي.

ديوانُ الشَّاعِرِ الْحَقِّ هُوَ إِثْبَاتُ شَخْصِيَّتِهِ بِبَراهِينَ مِنْ رُوحِهِ، وَهَنا فِي «الملاح التائه» رُوحٌ قَويَّةٌ فِلْسَفيَّةٌ بَيانِيَّةٌ، تُؤْتِيكَ الشَّعْرَ الْجَيِّدَ الَّذِي تَقْرُؤُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالذَّوْقِ، وَتَراهُ كَفَاءً أَغراضِهِ الَّتِي يَنْظُمُ فِيهَا؛ فَهو مُكثِّرٌ حِينَ يَكُونُ الْإِكْثَارُ شِعْراً، مُقِلٌّ حِينَ يَكُونُ الشَّعْرُ هَوَ الْإِقْلالِ؛ ثُمَّ هُوَ عَلَى ذَلِكَ مَتِينٌ رَصِينٌ، بارِعٌ الْخِيالِ، واسِعٌ الْإِلْحاظَةِ، تَراهُ كَأَنَّ الدَّائِرَةَ: يَصْعَدُ بِكَ مَحيطُها وَيَهْبِطُ لا مِنْ أَنَّهُ نازِلٌ أَوْ عالٍ، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهُ مُلْتَفٌّ مُتَدَمِّجٌ، موزونٌ مَقْدَرٌ، وَضِعَ وَضَعَهُ ذَلِكَ لِيَطوِّحَ^(١) بِكَ.

(١) يطوِّحُ بِكَ: يَأْخُذُكَ فِي كُلِّ اتِّجاءٍ.

هو شعرٌ تعرف فيه فنية الحياة، وليس بشاعرٍ مَنْ لا ينقلُ لك عن الحياة نقلاً
فنياً شعرياً؛ فترى الشيء في الطبيعة كأنه موجودٌ بظاهره فقط، وترأه في الشعرِ
بظاهره وباطنه معاً؛ وليس بشعرٍ ما إذا قرأته، وأسترسلت إليه لم يكن عندك وجهاً
من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة في نفسٍ ممتازة مذكّرة مصورة.

ولهذا فليس من الشرط عندي أن يكون عصرُ الشاعرِ وبيئته في شعره، وإنما
الشرط أن تكون هناك نفسهُ الشاعرِ على طريقتها في الفهم والتصوير، وأنت تثبت
هذه النفس بهذه الطريقة أن لها أن تقول كلمتها الجديدة، وأنها مَحْوَلَةٌ لَهُ الْحَقُّ في
أن تقولها، إذ هي لِلْعَقُولِ وَالْأَرْوَاحِ أَخْتُ الْكَلِمَةِ الْقَدِيمَةِ: كلمةُ الشريعة التي
جاءت بها النبوة من قبل.

وليس في شعرٍ على طه من عصريتنا غيرُ القليل، ولكنَّ العجيب أنَّه لا ينظم
في هذا القليل إلا حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ، كثرثاء شوقي،
وحافظ، وعدلي باشا، وفوزي المعلوف، والطيارين دوس وحجاج، وألملك
العظيم فيصل؛ فإن يكن هذا التدبيرُ عن قصدٍ وإرادة فهو عجيب، وإن كان اتفاقاً
ومصادفة فهو أعجب؛ على أنه في كل ذلك إنما يرمي إلى تمجيد الفن والبطولة في
مظاهرها، متكلمة، وسياسية، ومغامرة، ومالكة.

أما سائر أغراضه إنسانية عامة، تتغنى النفس في بعضها، وتمرح في بعضها،
وتصلي في بعضها؛ وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلا... ظلالاً من الحيرة
أو الشك، كتلك التي في قصيدة «الله والشاعر»، وأظنه يتابع فيها المعري؛ ولست
أدري كم ينخدع الناس بالمعري هذا، وهو في رأيي شاعرٌ عظيم، غير أن له بضاعة
من التلفيق تعدل ما تخرجه «لا نكشير» من بضائعها إلى أسواق الدنيا.

ومما يعجبني في شعر علي طه أنه في مناحي فلسفته وجهات تفكيره يوافق
رأيي الذي أراه دائماً، وهو أن ثورة الروح الإنسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود -
ليست في ظاهر الثورة ولا العراك مع الله كما صنع المعري وأضرابه في طيشهم
وحماقتهم، ولكنهما في الهدوء الشعري للروح المتأملة، ذلك الهدوء الذي يجعل
الطبيعة نفسها تبتسم بكلام الشاعر كما تبتسم بأزهارها ونجومها، ويجعل الشاعر
أداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً؛ فإنَّ العجيب الذي ليس أعجب
منه في التدبير الإلهي للنفوس الحساسة - أن زخرفة الشعر وما يجري مجراه في

ألفن إنما هي ضرب من زخرف الطبيعة حين تبتدع الشكل الجميل لتتمم أغراضها من ورائه؛ ولو نازت الأزهار - مثلاً - على الوجود وخالفه ثورة أولئك الشعراء لما صنعت شيئاً غير إفساد حكمتها هي وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع، ولن تنصر إلا ببقائها أزهاراً، فذلك حربها وسلمها معاً.

وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل، أو إلى الجزالة، تبدو اللغة فيه وعليها لون خاص من ألوان النفس الجميلة يزهر زهو فيكثر منه في النفس تأثيرها وجمالها، وهذه هي لغة الشعر بخاصته؛ ولا بد أن نبه هنا إلى معنى غريب، وذلك أنك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الأدب، فإذا نظموا وخلا نظمهم من روح الشعر - ظهرت الألفاظ في أوزانهم وكأنها فقدت شيئاً من قيمتها، كأن موضعها ثم هو الذي أعلن إفلاسه، إذ أقامه مقام الذي يريد أن يعطي ثم هو إذا وقف لا يصنع شيئاً إلا أن يعتذر بأنه لم يجد ما يعطيه... فهذا كان رجلاً من الناس، وكان في ستر وعافية، فلما وقف موقفه أنقلب مدلساً كاذباً مدعياً فأختلفت به الحال وهو لم يتغير.

وما لأسلوب البياني إلا وسيلة فنية لمضاعفة التعبير، فإن لم يكن هذا ما يعطيه كان وسيلة فنية أخرى لمضاعفة الخيبة؛ وهذا ما تحسه في كثير من شعر النظامين أو البديعيين في العصور الميته، وتحسه في الشعر الميت الذي لا يزال ينشر بيننا.

وعلي طه إذا حرص على أسلوبه وبالغ في إتقانه وأستمر بجريه على طريقته الجيدة متقدماً فيها، متعمقاً في أسرار الألفاظ وما وراء الألفاظ، وهي تلك الروعة البيانية التي تكون وراء التعبير وليس لها اسم في التعبير، معتبراً اللغة الشعرية - كما هي في الحقيقة - تاليفاً موسيقياً لا تاليفاً لغوياً... فإنه ولا ريب سيجد من إسعاف طبعه القوي، وعون فكره المشبوب، وإلهام قريحته المولدة - ما يجمع له النبوغ من أطرافه، بحيث يعدّه الوجود من كبار مصوريه، وتتخذ الحياة من بلغاء المعبرين عنها في العربية؛ ومن ثم تنظمه العربية في سبط^(١) جواهرها التاريخية الثمينة، ويصله السلك بشوقي وحافظ والبارودي وصبري، إلى المتنبي والبحري

(١) سبط: عقد.

وَابْنِ الرُّومِيِّ وَأَبِي تَمَّامٍ، إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، إِلَى الْجَوْهَرَةِ الْكُبْرَى الْمُسَمَّاةِ جَبَلِ
النُّورِ الْبَيَانِيِّ، إِلَى أَمْرِىءِ الْقَيْسِ .

وليس هذا ببعيدٍ على مَنْ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْقَلْبِ :

يَا قَلْبُ عِنْدَكَ أَيُّ أَسْرَارِ	مَا زِلْنَا فِي نَشْرِ وَفِي طَيِّ
يَا ثَوْرَةَ مَشْبُوبَةَ النَّارِ	أَقْلَقْتَ جِسْمَ الْكَائِنِ الْحَيِّ
حَمَلْتَهُ الْعِبَاءَ الَّذِي فَرَّقْتَ	مِنْهُ الْجِبَالَ وَأَشْفَقْتَ ^(١) رَهْبًا
وَأَثَرْتَ مِنْهُ الرُّوحَ فَأَنْطَلَقْتَ	تَحْسُو ^(٢) الْحَمِيمَ ^(٣) وَتَأْكُلُ اللَّهَبَا
وَعَجَبْتُ مِنْكَ وَمَنْ إِبَائِكَ فِي	أَسْرِ الْجَمَالِ وَرِبْقَةِ الْحُبِّ
وَتَلَقَّيْتُ الْمُتَكَبِّرَ الصَّلَفِ	عَنْ ذِلَّةِ الْمَقْهُورِ فِي الْحَرْبِ
وَوَهَمْتُ نَارًا ذَاتَ إِيْمَاضٍ	فَبَسَطْتَ كَفَّكَ نَحْوَهَا فَزِعَا
مَرَّتْ بِعَيْنِكَ لَمَحَّةُ الْمَاضِي	فَوَثَبْتَ ثُمْسِيكَ بَارِقًا لَمَعَا
وَالْأَرْضُ ضَاقَ قِضَاؤُهَا الرَّحْبُ	وَخَلَّتْ فَلَا أَهْلٌ وَلَا سَكَنُ
حَالِ الْهَوَى وَتَفَرَّقَ الصَّحْبُ	وَبَقِيَتْ وَخْدَكَ أَنْتَ وَالزَّمَنُ

ولو ذهبنا نختارُ من هذا الديوانِ لأخترنا أكثرَه، فقصائدهُ ومقاطيعُه تتعاقبُ،
ولكن تعاقبَ الشمسِ على أيامِها: تَظْهَرُ جَدِيدَةُ الْجَمَالِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ، لِأَنَّ وَرَاءَ
الصَّبَاحِ مَادَّةَ الْفَجْرِ، وَكَذَلِكَ تَأْتِي الْقِصَائِدُ مِنْ نَفْسِ شَاعِرِهَا.

(١) أَشْفَقْتَ: خَافَتْ .

(٢) تَحْسُو: تَتَجَرَّعُ وَتَشْرَبُ .

(٣) الْحَمِيمِ: الْمَلْتَهَبِ .

المقتطف والمتنبي

المقتطف شيخ مجلاتنا؛ كلهن أولاده وأحفاده؛ وهو كالجَد الأكبر: زمنٌ يجتمع، وتاريخٌ يتراكم، وأنفرادٌ لا يلحق، وعلمٌ يزيد على العلم بآئه في الذات التي تفرض إجلالها فرضاً وتجب لها الحرمة وجوباً ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق.

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى. وهل هو إلا عرشٌ حيٌّ درجائه الجيل تحت الجيل، وهل هو إلا امتدادٌ مسافته العصر فوق العصر؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم، ويتقدم في الزمن تقدم المخترعات ماضية بالنواميس إلى النواميس، مقيدة بالمبدأ إلى الغاية؛ وهو كالعقل المنفرد بعبقريته: واجبه الأول أن يكون دائماً الأول: فلقد أنشئ هذا المقتطف وما في المجلات العربية ما يغني عنه، ثم طوى في الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغني عنه؛ ثم أسفت^(١) الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الرقصات والمغنيات والممثلات... وبقي هو على وفائه لمبدئه العلمي والسمو فيه والسمو به، كأنما أخذ عليه في العلم والأدب ميثاق كميثاق النبيين في الدين والفضيلة؛ فبين يديه الواجب لا الغرض، وهمه الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها، وهديه الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا، وطريقه في كل ذلك طريق الفيلسوف، من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر، فهو ماضٍ على اليقين، نافذٌ إلى الثقة، متنقلٌ في منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته، ومن ثقته إلى يقينه.

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعد ضخم أفردته للمتنبي. ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف.

(١) أسفت: انحطت.

ولسْتُ أعلو إذا قلت: إن هذه الروح المتكبِّرة قد أظهرت كبرياءها مرةً أخرى، فأعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذي أخرجهُ المقتطف في زهاء ستين ومائة صفحة، تدلُّه في تفكيره، وتوحي إليه في استنباطه، وتنبهه في شعوره، وتبصّره أشياء كانت خافية، وكان الصدق فيها، ليردّ بها على أشياء كانت معروفة، وكان فيها الكذب، ثمّ تعينه بكلّ ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها، لا الحياة التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها.

ولقد كان أول ما خطر لي بعد أن مضيت في قراءة هذا العدد - أن المؤلف جاء بما يصحّ القول فيه إنّه كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله؛ ثمّ لم أكد أمعن في القراءة حتى خيل إليّ أنّه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه؛ وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التي نشرها المقتطف اليوم.

إنّ هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي، فإنّ الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتدّ في الزمن.

وكان الرجل مطويّاً على سرّ ألقي الغموض فيه من أول تاريخه، وهو سرّ نفسه، وسرّ شعره، وسرّ قوّته؛ وبهذا السرّ كان المتنبي كالمليك المغصوب الذي يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً، فهو يتقي السيف بالحدّر والتلفّيف والغموض، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل.

ومن هذا السرّ بدأ كاتب المقتطف، فجاء بحثه يتحدّر في نسق عجيب، متسلسلاً بالتاريخ كأنّه ولادة ونمو وشباب؛ وعرض بين ذلك شعر أبي الطيّب عرضاً خيلاً إليّ أنّ هذا الشعر قد قيل مرةً أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها؛ وبذلك أنكشف السرّ الذي كان مادة التهوّل في ذلك الشعر الفخم، إذ كانت في واعي الرجل دولة أضخم دولة، عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعراً أضخم شعر، وجاءت مبالغاته كأنّها أكاذيب آماله البعيدة متحققة في صورة من صور الإمكان اللغوي.

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سرّ حبه، فقال: إنّه كان يحبّ حوّلة

أخت الأمير سيف الدولة، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة، وكأنها لم ترضيه فقال: إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف؛ وهذا الباب من غرائب هذا البحث، فليس من أحد في الدنيا المكتوبة (أي التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه، والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي؛ ومتى لم يستطع المرء نفيًا ولا إثباتاً في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره، فهذا حسبك إعجاباً يذكرك، وهذا حسبك فوزاً يعد.

ولعمري لو كنت أنا في مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق... فهناك موضع لا بد أن يبحث في القلب الشاعر الذي وضعت فيه الدنيا حكمتها، وطوت فيه القوة سرها، وبث فيه الجمال وحيه؛ وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها...

محمد

عمل الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبه شيء بعمل «كريستوف كولمب» في الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا: لم يخلق وجودها، ولكنه أوجدها في التاريخ البشري، وذهب إليها فقل جاء بها إلى العالم، وكانت معجزته أنه رآها بالعين التي في عقله، ثم وضع بينه وبينها الصبر والمعاناة والجِدْقَ والعِلْمَ حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة.

قرأ الأستاذ كُتُبَ السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل، بقريحة غير قريحة المؤرخ، وفكرة غير فكرة الفقيه، وطريقة غير طريقة المحدث، وخيال غير خيال القاص، وعقل غير عقل الزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأي، وقصد غير قصد الجدال؛ فخلص له الفن الجميل الذي فيها، إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة، وأمرها على إحساسه الشاعر المتوثب، وأستلها^(١) من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهة إلى غرضها الإلهي مُحَقَّقة عجائبها الروحية المعجزة.

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد، وتطاوعت له على ما أشتهى، ولانت في يده كما يلين الذهب في يد صائغه؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأي ولا تعبير، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبداع الخيال، وأسمى الرأي، وأبلغ العبارة؛ إذ أدرك بنظريته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة، فنظمها على قانونها في الحياة، وجمع حوادثها المدونة فصورها في هيئة وقوعها كما وقعت، وأستخرج القِصَصَ المُرسلة فأدارها حواراً كما جاءت في السنة أهلها؛ وبهذه الطريق أعاد التاريخ حياً يتكلم وفيه الفكرة وملائكتها وشياطينها، وكشف ذلك الجمال الروحاني فكان هو الفن، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هي الفلسفة، وأبقى على تلك البلاغة

(١) استلها: ابتدأها.

فَكَانَتْ هِيَ الْبَيَانُ . كَانَتْ السَّيْرَةُ كَاللُّوْلُؤَةِ فِي الصَّدْفَةِ ، فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَعَلَهَا
الْلُّوْلُؤَةَ وَحْدَهَا .

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَفْرَضُ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْفَنِيَّةِ الْبَدِيعَةِ ، فَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ
إِنَّهُ لَا ضَرُورَةَ لَوُجُودِهِ ؛ إِذْ هُوَ الْضَرُورِيُّ مِنَ السَّيْرَةِ فِي زَمَنِ هَذَا ، وَلَا يُغْتَمَرُ فِيهِ أَنَّهُ
تَخْرِيفٌ وَتَزْوِيرٌ وَتَلْفِيقٌ ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ حَرْفٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَنَّهُ آرَاءُ يُخْطِئُ
الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَيُصِيبُ الْمُصِيبُ ؛ إِذْ هُوَ عَلَى نَصِّ التَّارِيخِ كَمَا حَفِظْتُهُ الْأَسَانِيدُ ،
وَلَا يُرْمَى بِالْغَثَاثَةِ وَالْكَرَاكَةِ وَضَعْفِ النَّسْقِ ؛ إِذْ هُوَ فَصَاحَةُ الْعَرَبِ الْفَصَحَاءِ الْخُلَاصِ
كَمَا رُوِيَ بِالْفَاظِهَا ؛ فَقَدْ حَصَّنَهُ الْمُؤَلِّفُ تَحْصِينًا لَا يُقْتَحَمُ ، وَكَانَ فِي عَمَلِهِ مُخْلِصًا
أَتَمَّ الْإِخْلَاصِ ، أَمِينًا بِأَوْفَى الْأَمَانَةِ ، دَقِيقًا كُلَّ الدَّقَّةِ ، حَذِرًا بِغَايَةِ الْحَذَرِ .

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّهَا هَيَّأتِ السَّيْرَةَ لِلتَّرْجُمَةِ إِلَى اللُّغَاتِ الْأُخْرَى فِي
شَكْلِ مَنْ أَحْسَنَ أَشْكَالِهَا يُرْغِمُ هَذَا الزَّمَنَ عَلَى أَنْ يَقْرَأَ بِالْإِعْجَابِ تِلْكَ الْحِكَايَةَ
الْمُنْفَرِدَةَ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ كَمَا أَنَّهَا قَرَّبَتْ وَسَهَّلَتْ فَجَعَلَتْ السَّيْرَةَ ، فِي نَصِّهَا
الْعَرَبِيِّ كِتَابًا مَدْرَسِيًّا بَلِيجًا بِلَاغَةً الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، مُرَبِّيًا لِلرُّوحِ ، مُرْهِفًا لِلذَّوْقِ ،
مُصَحِّحًا لِلْمَلَكَةِ الْبَيَانِيَّةِ .

وَحَسْبُ الْمُؤَلِّفِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ : إِنَّ أَبْنَ هِشَامَ
كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَذَّبَ السَّيْرَةَ تَهْذِيبًا تَارِيخِيًّا عَلَى نَظْمِ التَّارِيخِ ، وَأَنْ تَوْفِيقَ الْحَكِيمِ كَانَ
أَوَّلَ مَنْ هَذَّبَهَا تَهْذِيبًا فَنِيًّا عَلَى نَسْقِ الْفَنِّ .

ديوانُ الأعشاب

أبو ألوفاً شاعرٌ ملء نفسه، مافي ذلك شك، مذهبه الجمال في المعنى يُدعُهُ
كأنما يزهرُ به، والجمال في الصورة يُخرجُها من بيانه كما تخرجُ الغصونُ والأوراقُ
من شجرتها، وله طبعٌ وفيه رقة، وهو يجري من ألبانٍ على عِزق، وسليقته تجعلهُ
ألزمَ لعمود الشعرِ وأقربَ إلى حقيقته، حتى إنَّه ليعُدُّ أحدَ الذين يعتصمُ الشعرُ
العربيُّ بهم، وهم قليلٌ في زمننا، فإنَّ الشعرَ مُنحدرٌ في هذا العصرِ إلى العامية في
نسقه ومعانيه، كما أنحدرَ التمثيل، وكما أنحدرت أساليبُ الكتابة في بعضِ
الصحفِ والمجلات.

وللعامية وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة، ومرجعها إلى روح الإباحة الذي فشا
بيننا ونشأ عليه النشرُ في هذه المدينة التي تعمل في الشرقِ غيرَ عملها في الغرب،
فهناك هناك رخصٌ وعزائم، وهي هنا تسمُح وترخص، في ظلِّ ضعيفٍ من العزيمة؛
وإهمالُ البلاغة العربية الجميلة كما هي في قوانينها ليس إلا مظهرًا لتلك الروح
تقابلهُ المظاهرُ الأخرى، من إهمالِ الخلق، وسقوطِ الفضيلة، وتخثُّبِ الرجولة،
وزيغِ الأنوثة، وفسادِ العقيدة، واضطرابِ السياسة، إلى ما يجري هذا المجرى مما
هو في بلاغة الحياة المميَّنة كالمردولِ والمطرحِ والسفسافِ في بلاغة الكلام
الفصيح؛ كلُّ ذلك في مواضعه، تحللٌ من القيودِ وإباحة وتسمُح وترخص، وكلُّ
ذلك عامية بعضها من بعض، وكلُّ ذلك لحنٌ في البلاغة والخلق والفضيلة
والرجولة والأنوثة والعقيدة والسياسة.

والشعرُ اليوم أكثرُهُ (شعرُ النشر) في الجرائد، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة
الشعر؛ وهذه إباحة صحافيَّة غمرت الصحف، وأخضعت أذواقَ كتَّابها لقوانينِ
التجارة، فإنَّهم لينشرونَ بعضَ القصائد كما تُنشر (الإعلانات): لا يكونُ الحكمُ في
هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة، بل على قدرِ الثمنِ أو ما فيه معنى الثمن!

ومن مادية هذا العصرِ وطغيانِ العامية عليه، أننا نرى في صدرِ بعضِ الجرائد

أحياناً شعراً لا يكون في صناعة الشعر ولا في طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه، ولا أدل على فساد الذوق الشعري، ولكنّه على ذلك الأصل الذي أومأنا إليه يُعدّ كلاماً صالحاً للنشر، وإن يكن صالحاً للشعر.

وهكذا أصبحت العاميّة في تمكّنها تجعل من الغفلة جذقاً تجارياً، ومن السقوط علوّاً فلسفياً، ومن الركافة بلاغة صحفية، ومتى تغيّر معنى الجذق، ودخلته الإباحة، ووقع فيه التأويل، وأحيط بالتمويه والشبه - فالربية حينئذٍ أخت الثقة، والعجز باب من الاستطاعة، والأضعف معنى من التمكين، وكل ما لا يقوم فيه عذر صحيح كان هو بطبيعة التلفيق عذر نفسه.

وأكثر ما تنشره الصحف من الشعر هو في رأي صناعة احتطاب من الكلام... وقد بطل التعب إلا تعب التفتّش والحمل، فلم تعد هناك صناعة نفسية في وشي الكلام، ولا طبع موسيقي في نظم اللغة، ولا طريقة فكرية في سبك المعاني، وبهذه العاميّة الثقيلة أخذ الشعر يزول عن نهجه، ويضل عن سبيله، ووقع فيه التوغرّ السهل... والاستكراه الوحشي في أيام الجاهليّة؛ فما دام الكلام غريباً، والنظم قليلاً، والمآتى بعيداً، والمعنى مستهلكاً، والنسج لا يستوي، والطريقة لا تتشابه - فذلك كله مسخّ وتشويه في الجملة وإن اختلفت الأسباب في التفصيل، وإذا كان المسخّ جاهلياً بالغريب من الألفاظ، والنافر من اللغات، والوحشي من المعاني؛ وكان عصرياً بالركيك من الألفاظ، والنازل من التعبير، والهجين من الأساليب، والسخيف من المعاني؛ ثمّ بالسقط والخلط والاضطراب والتعقيد - فهل بعض ذلك إلا من بعضه؟ وهل هو في الشعر الجميل إلا كسلخ الإنسان الذي مسخّه الله فسلخه من معان كان بها إنساناً، ليضعه في معان يصير بها قزداً أو خنزيراً ليس عليه إلا ظاهر الشبه، وليس معه إلا بقية الأصل؟

فالقردية الشعرية، والخنزيرية^(١) الشعرية، متحققان في كثير من الشعر الذي ينشر بيننا؛ ولكن أصحاب هذا الشعر لا يرونها إلا كملاً في تطوّر الفن والعلم والفلسفة؛ وأنت متى ذهبت تحتجّ لزيف الشعر من قبل الفلسفة، وتدفع عن ضعفه بحجة العلم، وتعتلّ لتصحيح فسادِه بالفنّ - فذلك عينه هو دليلنا نحن على أنّ هذا الشعر قوردي خنزيري، لم يستو في تركيبه، ولم يأت على طبعه، ولم يخرج في

(١) الخنزيرية: نسبة إلى الخنزير.

صورته؛ وما يكون الدليل على الشعر من رأي ناظمه وأقتانه به ودفاعه عنه، ولكن من إحساس قارئه وأهتزازه له وتأثره به.

والشاعر أبو الؤفا جيد الطريقة، حسن السبك، يقول على فكر وقريحة، ويرجع إلى طبع وسليقة، ولكن نفسه قلقة في موضعه الشعري من الحياة؛ وفي رأيي أن الشاعر لا يتم بأدبه ومواهبه حتى يكون تمامه بموضع نفسه الشعري الذي تضعه الحياة فيه؛ والكلام يطول في صفة هذا الموضع، ولكن في الجملة كمنبت الزهرة: لا تركزو زكاءها ولا تبلغ مبلغها إلا في المكان الذي يصل عناصرها بعناصر الحياة وافية تامة، فلا يقطعها عن شيء ولا يرد شيئاً عنها؛ إذ هي بما في تركيبها وتهيتها إنما تتم بموضعها ذاك لتهيئته وتركيبه، فإن كانت الزهرة على ما وصفنا، وإلا فما بُد من مرض اللون، وهرم العطر، وهزال النضرة، وسقم الجمال.

ولولا أن الحكمة وقت الأستاذ أبا الؤفا قسطة^(١) من الألم. وهبته نفساً متألمة حصرتها في أسباب ألمها حصرأ لا مفر منه - لفقدت زهرته عنصر تلوينها، ولخرج شعره نظماً حائلاً مضطرباً منقطع الأسباب من الوحي؛ غير أن جهة الألم فيه هي جهة السماء إليه. ولو هو تكافأت^(٢) جهاته المعنوية الأخرى، وأعطيت كل جهة حقها، وتخلصت مما يلايسها - لارتفع من مرتبة الألم إلى مرتبة الشعور بالغامض والمُبهم، ولكان عقلاً من العقول الكبيرة المولدة التي يحيا فيها كل شيء حياة شعريّة ذات حسن.

ولكن ما دامت الحياة قد وزنت له بمقدار، وطُففت^(٣) مع ذلك وبُخست^(٤)، فقد كان يحسن به أن يقصر شعره على أبواب الزفرة والدعوة واللّهفة، لا يعدوها، ولا يزاوِل من المعاني الأخرى ما ضعفت أداته معه أن تتصرف، أو أنقطعته وسيلته إليه أن تبلغ؛ ويظهر لي أن أبا الؤفاء يحذو على حذو إسماعيل باشا صبري، وهو شبيه به في أنه لم تفتح له على الكون إلا نافذة واحدة؛ غير أن صبري أقبل على نافذته ونظر ما وسعه النظر، أما أبو الؤفا فيحاول أن ينقب في الحائط لجعلها نافذتين.

(١) قسطة: خطه.

(٢) تكافأت: تساوت.

(٣) طُففت: أخسرت في وزنها.

(٤) بُخست: أنقصت حقها.

أما إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّعْرِ أَنْ تَنْزَلَ الْحَيْرَةُ الْفَلَسْفِيَّةُ عَنْ مَنْزِلَتِهَا بَيْنَ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ، أَوْ الْمَشْهُودِ وَالْمَحْجُوبِ، أَوْ الْوَاقِعِ وَالسَّبَبِ، أَوْ الرَّسْمِ وَالْمَعْنَى - فَتَنْقَلِبُ حَيْرَةً مَعاشِيَةً تَسْمَى الْأَشْكَالَ وَالْمَعَانِي بِسْمَتِهَا الْمَادِيَةِ التَّرَابِيَةِ، وَتَقَعُ فِي الشَّعْرِ فَتَقْحَمُ بَيْنَ شَعْرِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ، وَشَعْرِ الْفِكْرِ الْمَتَأَمِّلِ - شَعْرَ الْمَعْدَةِ الْجَائِعَةِ، وَتَضَعُ بَيْنَ أَشْوَاقِ الْكَوْنِ شَوْقَهَا هِيَ إِلَى الطَّعَامِ وَالْثِيَابِ وَالْأَمَالِ . . .

على أَنَّهُ كَانَ الْأَمْثَلُ فِي التَّدْبِيرِ، وَالْأَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ أَنْ يَصْرِفَ أَبُو الْوَفَا هَذَا الشُّعُورَ الْمَادِيَّ الَّذِي يَتَلَذَّعُ^(١) بِهِ، فَيَحْوِلُهُ فَيَجْعَلُهُ بَاباً مِنْ حِكْمَةِ السَّخْرِ الشَّعْرِيِّ بِالدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَحَوَادِثِهَا، كَمَا صَرَّفَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ مِنْ قَبْلُ فَأَخْطَأَ فِي تَحْوِيلِهِ، فَجَعَلَهُ مَرَّةً بَاباً مِنَ الْمَدْحِ وَالنَّفَاقِ، وَمَرَّةً بَاباً مِنَ الْهَجَاءِ وَالْإِقْدَاعِ .

ولو بَدَّلَ الشَّاعِرُ أَبُو الْوَفَا مَجْهُودَهُ فِي ذَلِكَ، وَأَتَّهَمَ الدُّنْيَا ثُمَّ حَاكَمَهَا، وَنَصَّ لَهَا الْقَانُونَ، وَأَجْلَسَ الْقَاضِي، وَأَفْتَتَحَ الْمَجْلِسَ، وَرَفَعَهَا قَضِيَّةً قَضِيَّةً، ثُمَّ أَخَذَهَا حُكْماً حُكْماً، تَارَةً فِي نَادِرَةٍ بَعْدَ نَادِرَةٍ، وَمَرَّةً فِي حِكْمَةٍ إِلَى حِكْمَةٍ، وَأَوْنَةً فِي سَخَرِيَّةٍ مَعَ سَخَرِيَّةٍ - إِذَنْ لَاهْتَدَى هَذَا الْمَتَأَمِّلُ الرَّقِيقُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْ سِرِّ الْمَوْهَبَةِ الَّتِي فِي نَفْسِهِ، فَأَخْرَجَ مَكْنُونَهُ هَذِهِ الْأَنَاحِيَةُ الْقَوِيَّةُ مِنْهَا، فَكَانَ وَلَا رَيْبَ شَاعِرَ وَقْتِهِ فِي هَذَا الْأَبَابِ، وَإِمَامَ عَصْرِهِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ .

على أَنَّ فِي صَفْحَاتِ دِيْوَانِهِ أَشْيَاءَ قَلِيلَةً تُؤْمَى إِلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ، وَلَكِنَّهَا مَبْثُوثَةٌ فِي تَضَاعِيفِ شَعْرِهِ، وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ وَجْهَهُ فِي تَضَاعِيفِهَا؛ وَإِنَّهُ لَيَأْتِي بِأَسْمَى الْكَلَامِ وَأَبْدَعِهِ، حِينَ يَعْمُدُ إِلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَّهْنَا إِلَيْهِ، فَيَصْرِفُ لَهْفَةً نَفْسِهِ إِلَى بَعْضِ وَجْهِهَا الشَّعْرِيَّةِ، كَقَوْلِهِ فِي «حُلْمِ الْعَذَارَى»، وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِهِ وَمَحَاسِنِ شَعْرِهِ:

ها هُما عيناك تُغري	ني على شئى الظنون
فيهما بحرٌ وموْجٌ	وشهـولٌ وخـزونٌ
ووضوْخٌ وغـمـمـوْضٌ	وأضـطرابٌ وسـكـوْنٌ
ومعانٍ بيِّناتٌ	ومعانٍ لا تبين
وتهاويلٌ فنون	من رَشادٍ وجُنون

(١) يتلذذ: يتألم.

وَأَشِيعَاتُ حَيَارَى	مَنْ مَنَى أَوْ مَنْ حَنِينُ
لَيْتَ شَعْرِي أَيْ سِرِّ	خَلَفَ هَاتِيكَ الْجُفُونَ
أَهْ إِنَّ السُّرَّ أَنْبَا	عَنْهُ ذَانِ الطَّائِرَانِ
حِينَ مَا لَا عَلَى غَصَا	نِيهِمَا يَغْتَنِقَانِ...

فهذه أبياتٌ في شعرِ الجمالِ كالمحرابِ ملؤه عابده... .

النجاح وكتاب سر النجاح

ما خلق الله ذا عقل من بني آدم إلا أودع في تركيبه شيئين كالمقدمة والنتيجة، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية، «ليحيا من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة»، ففي تركيب الإنسان قوة الرغبة في النجاح وأن يتأتى إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه، وفي هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويُفضي^(١) منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار، ولكنه قدر ذو راحة قوية خاصة به يستروحها من تحت السماء وهو لا يزال في السماء وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة؛ ولولا أن هذه الخاصية فيه وفي الإنسان منه لما توقرت رغبة في عمل ولا صح نشاط في الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت^(٢) عقدة على العزم.

غير أن في الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلًا، فإذا هي تضر ولا تهدي وكانت تهدي ولا تضر، وإذا هي زائغة عن الحق ملتوية عن القصد وكانت هي السبيل إلى الحق وهي الدليل على القصد؛ وما ينال منها شيء إلا واحد من ثلاث: العجز، وضعف الهمة، واضطراب الرأي.

فأما العجز فمنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بعوده ولكنه غائر فيها بأصول حياته، وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود، إذ هو يولد ويكدر ويكبد ليكون لحمًا وعظمًا وصوفًا ووبرًا وشعرًا وأثاثًا ومتاعًا، وكأنه ضرب آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة.

وأما اضطراب الرأي فمنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كليتهما موقعها، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأي في لغة العقل

(١) يُفضي: يوصل، يؤدي.

(٢) توثقت: ارتبطت وقويت.

معانٍ ثلاثةٍ لكلمةٍ واحدةٍ هي الخيبة، وما أسرارُ النجاحِ إلا الثلاثةُ التي تُقابِلُها وهي القوةُ والعزيمةُ والثباتُ.

ولكنَّ في هذا الإنسانِ طفولةً وشباباً، وهما حالتانِ لا بُدَّ منهما، وهما من الضعفِ والنزقِ بطبيعتيهما، وفيهما يتناقلُ الإنسانُ إلى أغراضِهِ، ويرتدُّ عن صِعابِها، وينخذلُ^(١) دونَ غاياتِها؛ وليسَ يأتي للطفلِ أنْ يدركَ الرجلَ في معانيه، ولا للشابِّ أنْ يبلغَ الحكيمَ في كمالِهِ؛ فكأنَّ هذينِ ليسَ لهما أملٌ في أسبابِ النجاحِ، وكأنَّ كليهما لا يُحسنُ أنْ يطويَ فؤادَهُ على شيءٍ ولا أنْ يجمعَ رأيَهُ على أمرٍ، غيرَ أنْ من حِكْمَةِ اللَّهِ ورحمتهِ أَنَّهُ أرصدَ من نواميسِهِ القويَّةِ لِضعفِ الطفولةِ ونزقِ الشبابِ ما هو سِنادٌ يمنعُ، وموئلٌ^(٢) يعصمُ^(٣)، وقوَّةٌ تُصلحُ؛ وهو ناموسُ القُدوةِ الَّذي يتمثَّلُ في الأبِ والأمِّ والصاحبِ والعشيرِ والمُعَلِّمِ والكتابِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَبْتُ الْحَيَاةِ كُلُّهَا إِنَّمَا هِيَ مُمارَسَةُ لُفْضِيَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي الْإِنْسَانُ أَوْ لَا يَدْرِي.

و«كتابُ سرِّ النجاحِ» الَّذي ترجمَهُ أستاذنا العلامةُ الدكتورُ يعقوبُ صروف في سنة ١٨٨٠، وظهرت طبعتهُ الرَّابِعةُ في هذه الأيامِ، هو - واللَّهِ - في بابِ القُدوةِ ناموسٌ على جِدةٍ، وما رأيْتُ كتاباً تلامَّ نسجُهُ وأستوثُ أجزاءُهُ ووُضِعَ آخِرُهُ على أولِهِ وأنصبَّ كُلُّهُ إلى الغرضِ الَّذي كُتِبَ فِيهِ وجاءَ مَقْطَعاً واحداً في معناه وفائدته - كهذا الكتابِ الَّذي يُعَلِّمُ الضَّعِيفَ كيف يقوى، والعاجزَ كيف يعتمِدُ، والمضطربَ كيف يَثْبُتُ، والمحزونَ كيف يأملُ، واليائسَ كيف يثقُ، والمُنْهَزِمَ في الْحَيَاةِ كيف يُقْبَلُ، والساقطَ كيف ينتهضُ؛ ويُعَلِّمُكَ مع ذلك كيف تُريحُ الكدَّ بالكدِّ، وكيف تُسْقِطُ التَّعبَ بالتَّعبِ، وكيف تمضي عَزيمَتَكَ وتعتقدها وتضربُ كَرَّةَ الْأَرْضِ بِقَدَمِكَ وإن لم تكن مَلِكاً ولا قائداً ولا فاتحاً، وإن كُنْتَ من صميمِ السُّوقَةِ، وإن كُنْتَ من فقركَ وراءَ عَتَبَةٍ واحدةٍ؛ لا أقولُ: إِنَّ هذا الْكِتَابَ عِلْمٌ، فَإِنَّ هذا الْقَوْلَ يَسْقِطُ بِهِ دُونَ مَنْزِلَتِهِ ولا يعدو في وَصْفِهِ أَنْ يجعلَهُ مجموعاً مِنَ الْوَرَقِ الصَّقِيلِ على طبعٍ جيدٍ، مع أَنَّهُ مجموعٌ مِنَ الْأَرْواحِ والعزائمِ وأعصابِ الْقُلُوبِ؛ ولكِنِّي أقولُ في وَصْفِهِ الْعِلْمِيِّ إِنَّ الْمَدَارِسَ تُخْرِجُ مِنَ الْكُتُبِ تلاميذَ... وهذا الْكِتَابُ يُخْرِجُ مِنَ التَّلَامِيذِ رِجَالاً أَقْوِيَاءَ أَشَدَّاءَ مَعْصُوبِينَ عَصِيبَ جَذْوَعِ الشَّجَرِ الْعَاتِي، مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ

(١) ينخذل: يتراجع وينهزم.

(٢) موئل: ملجأ.

(٣) يعصم: يحمي ويمنع.

وصلابتها وصِحَّة العزيمة ومضائها، وتصميم الرأي ونفاذه؛ ومِمَّا يُعطي من قوَّة الصبر والثبات ومُطاولَةِ التعبِ إلى أبعدِ حدودِ الطاقةِ الإنسانيةِ.

وما تَقْرؤه حقَّ قراءتِهِ وتستوفيه على وجهِهِ مِنَ التَّديبِ والإمعانِ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْهُ وقد وَضَعَ في نَفْسِكَ شَيْئاً أعْظَمَ من نَفْسِكَ كائناً مَنْ كُنْتَ وكيف كُنْتَ، فَإِنْ تُكُنْ طِفْلاً خَرَجْتَ رَجْلاً، وَإِنْ كُنْتَ رَجْلاً خَرَجْتَ حَكِيماً، وَإِنْ كُنْتَ حَكِيماً اسْتَحْدَثَ في نَفْسِكَ ما يَجْعَلُكَ بِالْحِكْمَةِ فَوْقَ الدُّنْيَا وَكُنْتَ بِهَا في الدُّنْيَا.

قالَ الأستاذُ المُترجمُ في مقدمته: «أشهدُ لأبناءِ وطني أَنِّي لم أَنتَفِعْ بِكِتَابٍ قَدَرَ ما أَنتَفَعْتُ بِهذا الكِتَابِ». وهذه هِيَ الكَلِمَةُ الَّتِي لا يَقُولُ غَيْرَها مَنْ يَقْرَأُ «سِرُّ النِّجَاحِ»، ولا يُمكنُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَها؛ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ في وَضْعٍ مِنْ فَائِدَةِ النَفْسِ وما يُرْهِفُ حَدَّها وَيُبْعِثُ مَلَكاتِها وَيُسْتَنْهَضُ قُواها وَيُسْتَنْفِذُ سائِلَها على ما يُشْبِهُ القَواعِدَ الَّتِي لا تُؤدِّي إِلَّا إلى نَتِيجَةٍ واحدةٍ مِنْ أَيْنَ أَعْتَبَرْتَهَا، كائنانِ وَاثْنانِ أَرْبَعَةً، وَثَلَاثَةً وَواحدٍ أَرْبَعَةً، وَأَرْبَعَةً وَحداتٍ أَرْبَعَةً، وَهَلُمَّ جِراً...

تلكَ شَهادَةُ المُترجمِ، أَمَّا أَنَا فَأشهدُ لَقَدْ عَرَفْتُ مِنْذُ زَمَنِ طالِباً في الأَزْهَرِ، فَلَمَّا تَعَرَّفَ إِلَيَّ جَعَلَ يَشْكُو وَيَتَبَرَّمُ^(١) وَيَنْفُضُ لِي نَفْسَهُ وَيَقُولُ: الأَزْهَرُ وَعِلْمُهُ وَفَنُونُهُ وَمَسائِلُهُ وَمَشاكلُهُ، وَالْمَتُونُ وما فيها، وَالشُّرُوحُ وما إليها، وَالْحِواشي وما يَرُدُّ وَيَعْتَرِضُ وَيُجَابُ بِهِ وَيُقَالُ فِيهِ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ بِسَاعَةِ مِنَ العَمْرِ، وَكُلُّ سَطْرِ بِيومٍ وَكُلُّ جِزْءٍ بِسَنَةٍ، وَتَرَكْتُ وَرائِي كِذا وَكِذا فَذَانَا وَأَقْبَلْتُ على كِذا وَكِذا عِلْماً، فلا حَصْدْتُ مِنْ هَذِهِ ولا مِنْ تِلْكَ! قُلْتُ: وما يُمَسِّكُكَ وَالْبَابُ مَفْتُوحٌ ولا يَسْأَلُكَ الأَزْهَرُ إلى أَيْنَ ولا تَسْأَلُكَ الدُّنْيَا إِذا خَرَجْتَ إِلَيْها مِنْ أَيْنَ؟ قالَ: وَاللَّهِ ما رَبطَني إلى هَذِهِ الأَعْمَدَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً كامِلَةً على يَأْسٍ وَمَضَضٍ إِلَّا كِتَابُ «سِرُّ النِّجَاحِ» وما أَمْضَيْتُ نَتِيجَةَ مَرَّةٍ على وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ العَيْشِ إِلَّا رَأَيْتُ هَذَا الكِتَابَ قَدْ ضَرَبَ وَجْهَهُ هَذِهِ النِّيجَةَ فَردَّها إلى هَذَا المَكانِ وأَلقاها في هَذَا المُستَقَرِّ، وما هَمَمْتُ بِتَرْكِ الأَزْهَرِ إِلَّا أَنْتَصَبْتُ في وَجْهِهِ كُلِّ الأَبْطالِ الَّذِينَ قَرَأَتْ أَخْبائَهُمْ فِيهِ وَأَمْسَكُونِي، لا مِنْ يَدِي ولا مِنْ رِجْلِي، وَلَكِنْ مِنْ أَعْتِقادِي وإِيمانِي وأَمَلِي!

قُلْتُ: فَوَاللَّهِ لا يَدْعُكَ حَتَّى تَنْجَحَ، وما رَبطَ أَلَلَّهُ على قَلْبِكَ بِهذا الكِتَابِ وَثَبْتَ فَوَإِذَكَ بِالْيَقِينِ الَّذِي فِيهِ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ لَكَ الخَيْرَ كُلَّهُ.

(١) يَتَبَرَّمُ: يَظْهَرُ الضَّجَرُ وَالْمَلَلُ.

أبو تمام الشاعر تحقيق مدة إقامته بمصر

لم يبقَ بُدٌّ من أن نبلغ بالكلام في هذا المعنى إلى مقطع الحق فيه، وأن ننفذ بتحقيقه إلى خاصته، وننتهي من خاصته إلى برهانه؛ فإن علماء الأدباء قديماً وحديثاً ألّفوا خبر أبي تمام كلاماً مُرسلاً يجري في الرواية على طرقها المختلفة، لا على التاريخ في وجهه الممتعين، ويُؤخذ على أنه خبرٌ كالأخبار إن صدق فقد صدق وإن كذب فهو على ما يجيء، إذ لم يكن يعنيه من الشاعر إلا شعره، يحملونه عنه أو يأخذونه من روايته أو يجدونه في ديوانه؛ أما أخبار الشاعر فهي لا تتصل بالكتاب ولا بالسنة، فتجتمع لهم كما تجتمع ويتناولونها كما اتفقت بما دخلها من الكذب والتزييد والتلفيق، وما يكون فيها ممّا يُظهرُ بعضه بعضاً أو ينقض بعضه على بعض؛ والمحقق منهم من يروي الصدق والكذب معاً ليخرج من التبعة، فلا بُدَّ من تبعة في أحد النقيضين؛ وليبرأ بصدق أحدهما من كذب أحدهما كما صنع ابن خلكان في سياق خبر أبي تمام وهذا نص عبارته:

كانت ولادة أبي تمام . . . بجاسم وهي قرية بين دمشق وطبرية، ونشأ بمصر، قيل: إنه كان يسقي الماء بالجرّة في جامع مصر، وقيل كان يخدم حائكاً يعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها.

والذين يعرفون طرق الرواية ومصطلحاتها يُدركون من هذه العبارة أن ابن خلكان ينتفي من أن تكون عليه تبعة أحد الخبرين أو كليهما؛ فإن الرواية متى أفتتح الخبر (بقيل أو يقال) فقد دلَّ على أن هذا الخبر غير مقطوع به؛ إذ تُسمّى هذه الصيغة عندهم صيغة التمريض، فهي لا تُفيد الصحة ولا الجزم بها؛ وظاهر أن أبا تمام لا يمكن أن يكون قد نشأ بمصر ودمشق في وقت معاً.

وإبن خلكان قد وقف على الكتاب الذي عمله الصولي في أخبار أبي تمام ونقل عنه، وهو المرجع في هذا الباب؛ فلا بُدَّ أن يكون هذا الكتاب قد خلا من

تحقيق هذه الرواية، بل نحن نرجح أنه قد خلا منها بثة، فلم يذكر أن نشأة أبي تمام كانت بمضر؛ لأن صاحب الأغاني أغفلها ولم يشير إليها بحرف، مع أنه ينقل عن الصولي نفسه ويقول في كتابه (أخبرني الصولي)، وكذلك أهملها صاحب «مروج الذهب»، وهو ينقل أيضاً عن الصولي؛ وهذا يثبت لنا أن الخبر لم يكن معروفاً يومئذ، وإلا هو التاريخ عند أبي الفرج والمسعودي إن لم يكن هو هذا؟

ولكن ذكرت الرواية في كتاب الأنباري (طبقات الأدباء)، وأقتصر ناقلها على أن أبا تمام نشأ بمضر، وأنه كان يسقي الماء بها، ولم يذكر رواية عمله بدمشق؛ والأنباري متأخر توفي سنة ٥٧٧، فهو بعد موت أبي تمام بثلاثة قرون ونصف، فلا قيمة لروايته، وشأنه شأن غيره من الناقلين؛ ونحن نرى أن هذه الرواية قد ضيعت في مضر نفسها للغرض^(١) من أبي تمام والزراية عليه، وبقيت مروية فيها ثم حُمِلَتْ كما تحمِلُ كل رواية لذاتها لا لتحقيقها، سواء أكانت موجهة على الحق أم معدولاً بها عنه؛ ولا أوضع في المهنة من سقاية الماء في الجامع بالجرة، ولعمري ما ذكرت (الجرة) هنا عبثاً؛ والغلو في التحقير هو بعينه الدليل على الكذب، فهذه الكلمة كآثر المجرم في جريمته...

وبعد، فإننا نقرر أن هذا الشاعر العظيم لم ينشأ بمضر، وأنه وُلِدَ وتأدَّب في الشام ثم قَدِمَ إلى مضر شاعراً ناشئاً يتكسَّبُ بأدبه كما قَدِمَ عليها غيره من الأندلس والمغرب والشام، والعراق، وأنه لم يأت إلى مضر إلا في ولاية عبد الله بن طاهر الأديب الشاعر ألقائد العظيم، وقد جعلت له ولاية مضر والشام والجزيرة في سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خلاف بين المؤرخين، وكانت سنُّ أبي تمام يومئذ بين ٢١ و٢٣ سنة؛ وقد كان أبْنُ طاهر مغناطيساً للشعراء في كل مكان ينزله، حتى قال فيه بعضهم وعزم على الهجرة إلى مضر:

يقول رجال إن مضر بعيدة وما بُعدت مضر وفيها أبْنُ طاهر
وأبعد من مضر رجال نراهم يحضرتنا معروفهم غير طاهر
عن الخير موتى ما تبالي أذرتهم على طمع أم رزت أهل المقابر

وقد قصده أبو تمام إلى مضر، كما قصده بعد ذلك إلى خراسان في سنة ٢٢٠، وهي السنة التي وُضِعَ فيها أبو تمام أو في التي تليها كتاب «الحماسة» كما حققناه ولا محلّ لذكره هنا.

(١) للغرض: للانقاص.

ونحن نسوق أدلتنا على صحة ما ذهبنا إليه في نفي أن يكون أبو تمام قد نشأ بمِصرَ أو جاءنا طفلاً. أو تكون منها طبيعته في الشعر، أو يكون لها أثر في عبقريته:

١ - المُجمَعُ عليه بلا خلاف أن الشاعر وُلِدَ في الشَّامِ، وما دامَ كذا لقد قالت الطبيعة كلمتها في أصل نبوغه وعبقريته، فإنَّ الأديبَ يُولَدُ ولا يُصنعُ كما يقولُ الإنجليز؛ وكلُّ العلماءِ يعرفونه بالطائي! ولا يطعنُ في نسبه إلا مَنْ لا يُحقِّقُ، وهو نفسه يُباهي بطائيته، وذلك كالشرح على كلمة الطبيعة في أسباب نبوغه الوراثية؛ وقد تنقَّلَ الرجلُ بينَ مِصرَ والشَّامِ والعِراقِ وخُراسانَ وأرمينيا وغيرها، فما بلدٌ أولى من بلدٍ بأن يكونَ مثارَ عبقريته.

٢ - إنَّ الشاعرَ إنَّما يتكسَّبُ من شعره يمدحُ مَنْ يهتَزُّ لَهُ أو يُعطي عليه، ولم يمدحُ أبو تمامَ أحداً من أهلِ مِصرَ؛ فإنَّ كانَ مدحُ فيها عبدَ اللَّهِ بنَ طاهرٍ فإنَّما إليه قصدٌ ولهُ جاء؛ وأبْنُ طاهرٍ ليسَ مِصريًّا، وقد جاءَ إلى مِصرَ ورجعَ منها قبلَ أنَ يحولَ عليه الحولُ، فلو أنَّ نشأةَ هذا الشاعرِ كانتَ بِمِصرَ وتادبُّه كانَ فيها لأصبنا لَهُ مدحاً كثيراً في أعيانها وعلمائها؛ إذ هو متى قالَ الشعرَ لا يتكسَّبُ إلاَّ منه؛ وفي ديوانِ الشاعرِ هجاءٌ لأبْنِ الجلودِي نظَّمَهُ في مِصرَ، ولكنَّ أبْنَ الجلودِي ليسَ مِصريًّا، بل هو قائدٌ من قَوادِ المأمُون، ولأه محاربةَ الرُّط سنة ٢٠٥، ثُمَّ أقدمَ بعد ذلك مِصرَ، ثُمَّ وَلِيَ عليها في سنة ٢١٤؛ فكلُّ المِصريَّةِ في شعر أبي تمام هي في هجائه للشاعرِ المِصريِّ يوسفَ السَّراج، ولعلَّها في بعضِ مقاطيعِ أخرى مِنَ الغَزَلِ أو الوصفِ.

٣ - وَلَدَ أبو تمامَ في سنة ١٨٨ أو ١٩٠، وَمِنَ الثَّابِتِ أَنَّهُ كانَ بِمِصرَ في سنة ٢١٤، حينَ نظَّمَ قصيدَتَه الدَّاليةَ والنَّونيةَ في رثاءِ عميرِ بْنِ أَلوليد - وعميرٌ هذا ليسَ مِصريًّا، بل هو مِن خُراسانَ، وكانَ بِمِصرَ عاملاً لأبي إِسحاقَ المَعْتَصِمِ أبْنِ الرُّشيد - فلو كانَ أبو تمامَ قد جاءَ إلى مِصرَ طفلاً كما يُقالُ لكانتَ مُدَّةُ قولِهِ الشعرَ فيها لا تُقِلُّ عن عِشرِ سنواتٍ، مَعَ أنَّ كُلَّ ما نظَّمَهُ وهو فيها لا يبلُغُ عِشرَ قصائدٍ؛ وهذا ديوانُهُ بينَ أيدينا وإليه وحدَهُ المَرَجُّ في الدَّلالةِ على صاحِبِهِ.

٤ - روى المَرمَزبانيُّ في «المَوشح» عنِ العباسِ بْنِ خالِدِ البرمكيِّ قالَ: أولُ ما نبغَ (أي قال الشعرَ) أبو تمامَ الطائيُّ أَتاني بِدمشقَ يمدحُ مُحَمَّدَ بْنَ الجَهمِ فكلَّمْتُهُ فيه فَأَذِنَ لَهُ؛ فدخلَ عليه وأنشدَه، ثُمَّ خرَجَ فَأمرَ لَهُ بِدراهمَ يسيرةٍ، ثُمَّ قالَ: إنَّ عاشَ هذا ليخرِجَنَّ شاعراً.

فهذا نصٌّ على أنَّ الشاعرَ لم يكن يومئذٍ إلَّا في ابتداء الشعر، ولم يكن قد خرجَ شاعراً بعدُ وكان شعرُهُ من الطبقة التي يثاب عليها (بدرهم يسيرة). وأبو تمام بعد ذلك هو نفسه الذي نثر عليه عبدُ الله بن طاهر ألف دينار فترفع أن يمسخها وترك الخدم ينتهبونها، وكان ذلك سبباً في تغيير ابن طاهر عليه.

٥ - نقل ابن خلكان في ترجمة ديك الجن الشاعر الحمصي المشهور، عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي قال: كنت جالساً عند ديك الجن، «يعني بجمص»، فدخل عليه حدث فأنشده شِعراً عمله، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاة دُرجاً كبيراً فيه كثير من شعره، فسلمه إليه وقال: يا فتى تكسب بهذا وأستعين به على قولك. فلما خرج سألتُه عنه فقال: هذا فتى من أهل جاسم، يذكُر أنه من طيء، يُكنى أبا تمام، وأسمه حبيب بن أوس، وفيه أدبٌ وذكاءٌ وله قريحةٌ وطبع. فهذا نصٌّ آخرُ على أنَّ أبا تمام كان يومئذٍ حدثاً - أي غلاماً - وكان لا يزال يطلبُ الأدب، وقد أعانته أستاذه بسخٍ من قصائده يخرجُ بها ويحذو عليها؛ فهو قد نشأ في الشام وتأدَّب فيها.

٦ - نظم أبو تمام قصيدته الألامية «أصب بحميا كأسها مقتل العذل» يصف تقدير الرزق عليه بمصّرٍ وخيبة أملٍ الذي أمله من المال، وفي هذه القصيدة يحنُّ إلى الشام ويستسقي لها ويذكر أرض البقاعين وقرى الجولان التي نشأ فيها: ولا يحنُّ الشاعرُ لأرضٍ إلَّا إذا كان فيها حبه أو شبابه وأدبه، أمّا الطفولة فمنسية بآثارها، إذ لا آثارَ لها في النفس متى شبَّ المرءُ إلَّا بعيداً بعيداً، وإنما الحنينُ لما تعلقَ به الغريزة المميَّزة.

٧ - في هذه القصيدة يقول أبو تمام مخاطباً أحبابه:
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطراً^(١) في أن تمرَّ ولا تُخلَى
وأنوى في لغة الشاعر هي رحيله ليلتكسب شعره؛ ولما رجع عوف بن محلم الشيباني إلى وطنه بعد وفادته على عبد الله بن طاهر في خراسان؛ سئل عن حاله فقال: رجعتُ من عند عبد الله بالغنى (والراحة من النوى)؛ ويؤيده قول أبي تمام في قصيدته تلك:

نأيتُ^(٢) فلا مالا حَوَيْتُ ولم أقم فأمتع، إذ فُجِئتُ بالمالِ والأهلِ

(١) وطراً: غاية وتبّة.

(٢) نأيت: بعدت.

يعني أنه أغترَب مُكرَّهاً يطلبُ الكَسْبَ لا غير، ولا كَسَبَ للشاعرِ إلا من شعره، فهو بنصِّ كلامه عن نفسه قدم إلى مِضرَ شاعراً يتكسَّب ويتعرَّض للغنى كما يصنع غيره.

٨ - في هذه القصيدة الالامية يُقدِّم لنا أبو تمام - رحمه الله - دليلاً يأكل الأدلة، كأنما ألهم من وحي الغيب أننا سنحتاج إلى هذا الدليل يوماً لندفع به عنه؛ فهو يَجُنُّ إلى حبيب له في الشام، ويقول: إنَّ غربةَ النوى آتِي وصفها:

أَتَتْ بَعْدَ هَجْرِ ابْنِ حَبِيبٍ فَحَرَّكَتْ صَبَابَةً مَا أَبْقَى الصَّدُودَ مِنَ الْوَصْلِ
أَخْمَسَتْ أحوالٍ مَضَتْ لَمَغِيبِهِ؟ وشهرانِ بَلْ يومانِ تُكُلُّ مِنَ الثُّكُلِ!

يعني أنه قالَ هذا الشعرَ وقد مضى على إقامته في مِضرَ خمسَ سنوات، وكان قد جاء مِنَ الشَّامِ عاشقاً ذلك العِشْقُ الَّذِي فِيهِ (الصدودُ والوصل)، والطفل لا يُحِبُّ مثْلَ هذا الحُبِّ ولا يَجُنُّ ذلك الحنين؛ فإذا كان الشاعرُ قدِمَ إلى مِضرَ في سنة ٢١٠، كما رجَّحناه، وسُنَّه بين ٢١ و ٢٣ سنة، فيكونُ قد نظَمَ هذه القصيدة في سنة ٢١٥، وعمره يومئذٍ بين ٢٦ و ٢٨ سنة؛ فلو أنَّ أبا تمامَ جاء مِنَ الشَّامِ طفلاً صغيراً فكيفَ للطفل أن يقولَ مثْلَ هذا الشعرِ بعدَ خمسِ سنوات؟ وما هجرُ الحبيبِ «وصبابَةً ما أبقي الصدودُ مِنَ الوصل»؟

٩ - مدحَ شاعرُنا محمدَ بنَ حسانٍ الضبيِّ بِقصيدةٍ نونيةٍ يذكرُ فيها ثقَلَهُ في البلادِ فقالَ فيها:

بِالشَّامِ أَهْلِي، وَبِعَدَادِ أَهْوَى، وَأَنَا بِالرَّقَمَتَيْنِ، وَبِالْفُسْطَاطِ^(١) إخواني
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى^(٢) تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ، حَتَّى تُشَافِهَ بِي أَقْصَى خِرَاسَانِ!

فأنت ترى أنه جعلَ أهله بالشَّامِ، وجعلَ أصدقاءه بِمِضرَ؛ فلو أنه كانَ قد نشأ بها لجعلَ بها أهله؛ إذ لا ينشأُ إلا مَعَ أبيه وأُمِّه؛ والبيتُ الثاني دليلٌ منه هو على أنه لم ينزل بِمِضرَ مُقيماً ولا مُتوطِّناً، بل مُتَنقِلاً كما نزلَ بِغيرها.

١٠ - تقولُ كُتِبَ الْأَدَبُ في مدارسِ الحكومة: إنَّ أبا تمامَ نُقِلَ إلى مِضرَ صغيراً فنشأ بها (وقد بيَّنا فسادَ ذلك)، ثُمَّ خرجَ إلى مقرِّ الخلافةِ فمدحَ المعتمدَ؛ وهذا غيرُ صحيح؛ فإنَّ أبا تمامَ خرجَ من مِضرَ قبلَ أن يدخلها المأمونُ في سنة

(٢) النوى: البعد.

(١) الفسطاط: مصر القديمة.

٢١٦، حين جاءها وقتل بها عبدوساً الفهري؛ فلو كان الشاعر يومئذ لمدح المأمون وذكر هذه الواقعة؛ والمعتصم ولي الخلافة سنة ٢١٨، وديوان أبي تمام يثبت أنه في سنة ٢١٧، كان بالعراق، وقد مدح المأمون بقصيدته الميمية، وذكر في مدحه وقعة الروم، وهذه كانت في تلك السنة.

يخلص من كل ما تقدم أن أبا تمام ولد في الشام وتأدب فيها، وقدم إلى مصر كبيراً يتكسب بالشعر، فأقام بها بين خمس سنين وست، ولم يجد له عيشاً بها بعد قتل عمير بن الوليد الذي قتل في سنة ٢١٤؛ فإنه كان يعيش في كنفه، وقد صرح في قصيدته النونية التي رثاه بها أنه يأمل من بعده في ابنه محمد.

فقدوم الشاعر إلى مصر كان في سنة ٢١٠ أو حواليها، وخروجه منها كان في سنة ٢١٥ أو حواليها، والله أعلم.

القديم والجديد

أقول للأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين «في رفق ولين» وفي عجلة أيضاً: إنني في هذه الأيام ضنين^(١) بما أملك من وقتي أشد الضن، أحسب السماء تتفجّر من يومي في ساعة كالفجر، فلا يصرفني عن تلك الساعة شيء ولا يصرفها عني شيء؛ إذ بين يدي كتاب في الرسائل أعمل فيه وأستعين الله على الفراغ منه في وقت معين، وقد أظلل أو كاد؛ فلا يرى الأستاذ أنني أستطير هذه المرة كالطيرة الأولى، فإن جناحي في فضاء آخر، وإن هذا الكتاب الذي أعالجه لا يجشمني^(٢) عرقاً من القرية كما قالوا قديماً، بل لعله في ألمه أشبه «بعمليّة» تشرح في القلب، وستذهب الدقائق التي أكتب فيها هذه الكلمة مأسوفاً عليها، لأنها ذاهبة بصفتين من كتابي.

وأما بعد، فلا أرى من الإنصاف أن يعمد الدكتور إلى جمل يقتضبه^(٣) من مقالي في مجلة الهلال ثم يهدفها للرد، وكان عسى أن يدفع عنها شيء مما قبلها أو ما بعدها أو يشد منها بعض جهاتها أو يأتي بها في سياق يبين عن معناها.

وزعم الأستاذ أنه لا يفهم من كلامي هذه الجملة «وأنت تعلم أن الذوق، الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً...»، ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة، بل جعلها من قبيل «قصة وقضية»... فتراه يقول: ذوق هو الفهم، وفهم هو الذوق، وفهم ليس بالذوق، وذوق ليس بالفهم، وهلم صاعداً ونازلاً؛ وضرب لنا مثلاً بالموسيقى فقال: «ما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً». وأنا أفسر كلامي بهذا المثل نفسه، أقتصر عليه ولا أعدوه.

(١) ضنين: يخيل.

(٢) يجشمني: يرهقني ويتعبني.

(٣) يقتضبه: يقتطعهن.

نأتي الآن باستاذٍ قد برعَ في الموسيقى وخالطت أعضابه ولحمه ودمه، وندفع إليه قطعةً ملحنةً ونقول له: اسمع وأفهم وأحكم وانتقد؛ يسمعها مرةً بعقله أو لعقله يتبين ما يكون فيها صواباً وما يكون خطأ، ثم ما يعلو عن الصواب من الإجابة والانتقان، وما ينحط عن الخطأ من الإساءة والتخليط؛ فهذا هو الفهم.

ويسمعها مرةً ثانيةً بحسه أو لحسه، فيرى أثر ما فهم، ويديرها في ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذي وضعت له، فإنها لم توضع لتكون أصواتاً، بل لتخلق من الأصوات شيئاً؛ فهذا هو الذوق، وهو كما تراه بعد ألفهم، وناشيء عنه. ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول: إن الذوق في شيء إنما هو فهمه، أو إنما هو عن فهمه، أو إنما ينشأ عن فهمه، فالعبارة في باب المجاز واحدة لا تختلف.

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين، أو مرةً كمرتين إن بلغ أن يكون له في كل أذن واحدة أذنان، يستفتي ذوقه الفني ويحكم للقطعة أم عليها؛ فهذا هو أثر الذوق.

الآن قد حكم الأستاذ وانتقد وجزم برأيه، فندب له فلان يقول: أخطأت وأسأت وجهلت وغفلت، أو تعصبت وحططت في هوى صاحب اللحن؛ فمن أين جاء هذا الخلاف وكيف وقع هذا القول؟ بل كيف ساع لثاني أن يجهل الأول ويرى غير رأيه ويحكم غير حكمه، إلا إذا كان قد فهم غير فهمه فأنشأ له ألفهم ذوقاً وأحدث له الذوق حكماً وجاءت من هذه المقدمات تلك النتيجة التي نسميها النقد، وما هي في الحقيقة إلا الذوق والفهم جميعاً. فالذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها ولا يفهمونها فقد فهموها على مقدار ما استقر في نفوسهم من أساليب التطريب وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة؛ أو لا تراهم يقولون في أمثال هؤلاء: إن لهم آذاناً موسيقية؟ فهذه الأذن هي ألفهم بعينه، لأنها حاسةً اجتمعت من مرانٍ طويل، وقد تقوّم في بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام علم برأسه.

ويقول الأستاذ طه: إنه قد يقرأ كلامي ويفهمه ولا يذوقه، ولكن عدم الذوق هنا هو الذوق؛ وليت شعري ما معنى قول المتنبّي: «ومن يك ذا فمٍ مرٍ».

ولو كان الأستاذ وأمثاله هم في هذا القياس المتر والكيلومتر، لوجب ألا أجد من يذوق كلامي ويعجب به ويغالي فيه ويكون ذنباً من ذنوبي عند الله بإسرافه في

المغالاة، وأنا واجدٌ بكلِّ واحدٍ مثلِ الأستاذ طه عشرةً ومائةً من غيره، ولو خرج هو إلى العالم لَرأى وسمع، وفيهم مَنْ هم أعلى منه كعباً وأمدَّ عُتْقاً وأضحَمَ هامةً وأبدعَ بديعاً وأبلغَ وأزكى وأعلمُ إلى عددٍ من هذه الواوات.

وعجبتُ للدكتورِ يريدُ أن لا يفهم من عبارتي كما يقولُ إلا أن «الذوق هو نفسُ ألفهم، فاللفظانِ يدلّانِ على معنَى واحد، وإذن وإذن وإذن...».

فهو يرى إذا قلتُ له: رأيتُ القمرَ وفلانةً ليلةً كذا فكانتِ إنما هي القمر - أني أقصدُ بهما معنَى واحداً فيقولُ لها: «وإذن» فليسا شيئينِ مختلفينِ وإنما هو شيءٌ واحد، وإذن فكيف صارَ لها وجهٌ في السماءِ ووجهٌ في الأرضِ وبقيتِ مع ذلك امرأةٌ مِنَ الإنس؛ وإذن فهذا كلامٌ لا يفهم...

قال بعضهم إن «لو» تفتحُ عملَ الشيطان، يريدُ أنها أداةُ التمني، والمذهبُ الجديدُ سيضم «إذن» إلى «لو»، ثم ما هي الكلمةُ الثالثةُ يا ترى؟

أنا - مع إعجابي بالدكتورِ أفاضل - أرى أنه مُستهترٌ بأشياء، وأن من خُلِقَ أن ما لا يرضى عنه وما لا يفهمه «ليسا شيئينِ مختلفين». فإذا لم يكن من ألفهم بُدُّ قال: إنه لا يقتنع، فإذا ضايقتهُ وضيقَتِ عليه لم يبقَ إلا ما يقولُ النحاةُ في «أي» التي حيرَهم إعرابُها وبنائها: أي كذا خُلِقَتْ...

وأنا وأمثالي إنما نحِرِصُ أشدَّ الحِرِصِ على هذه اللغةِ لأنها أساسُ الأمةِ الإسلامية فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساسُ ثابتاً متيناً لا يُزعزَعُ شيءٌ ولا يثلمُهُ شيءٌ ولا يُضعِفُهُ شيءٌ؛ والدكتورُ وأمثاله لا يُبالون أن تكونَ هذه الأمةُ كبيوتِ أمريكا المتحركة...

لستُ أنكرُ التجديدَ، بل لعلَّ الدكتورَ يذكرُ مُناقشتي إيَّاه في (الجريدة) وإصراره يومئذ أن ليسَ لأحدٍ أن يدخلَ في اللغةِ كلمة، وأن قولَ الناسِ تنزُّهٌ ومُتنزِّهٌ ونزْهَةٌ إلخ كلها من الكلامِ العاميِّ، وتعلُّقهُ بنصِّ ابنِ سيده في ذلك، وأستخراجي له نصِّ ابنِ قُتيبةٍ وكلاماً كثيراً من استعمالِ العلماء، ثم قوله أحسنت، ولكن لو جئتني باللفظةِ في كلامِ المبردِ والجاحظِ وفلانٍ وفلانٍ ما أقتنعتُ.

إنما أنكرُ شيئاً واحداً، وهو أن يُقالَ مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديدٌ؛ فقد وسَّعَ اللهُ على الناسِ فيما علِموا وفيما جهلوا، ولكن أصحابنا يريدون ألا نكتبَ إلا نمطاً بعينه، ولا نذهبَ إلا مذهباً بعينه؛ لأنَّ كلَّ ذلك هو الجديدُ؛ فأيهما خيرٌ لنا ولهم

وللذين سيُخرجون تاريخَهُم من قبورنا: أن نعتدَّ اللُّغةَ وَالْأدبَ كلَّ ما اجتمعَ من قديمٍ وجديدٍ ونُحكِمَ هذه اللُّغةَ ونحفظها وندفعَ عنها ونجعلَ تجديدَها كتجديدِ الحُسْناءِ في أثوابِها وفي ألوانِها دونَ تشويهٍ ولا مسخٍ ولا مسِّ الجسمِ الجميلِ، أم نقول: هذه الشُّفَةُ وهذا الأنفُ وهذا الموضعُ الممتلئُ الخِدَلُ وهذا الموضعُ الهُضيمُ الناجِلُ وتعالَ يا دكتور هاتِ المَبْضَعَ وَالْمِشْرَطَ وَالْمِقْصَ وَالْمِنْشَارَ وَالْإِبْرَةَ وَالْخِيطَ وإذن ؟

لقد أذكرُ أنِّي رأيتُ في بعضِ مقالاتِ الأستاذِ طه حسين أو في بعضِ ما يُقرَّطُ^(١) به أكتبُ أنَّه قال: إنَّ القديمَ قد أثبتَ دائماً أنَّه أقوى وأمتنُ وأصحُّ؛ فهل رحلَ عن هذا الرأي أم ظهرَ له في الجديدِ ما هو أقوى وأمتنُ وأصحُّ؟ ثمَّ يا أيُّها المملأُ أفتوني ما هو هذا الجديدُ؟ أهو ذاك الخيالُ الشارِدُ المجنونُ، أم تلك الشهواتُ المتوَبِّئةُ المتلهِّفةُ، أم ذلك الأسلوبُ الفُجُّ المستوحِجُّ، أم العاميَّةُ السقيمةُ المملحونةُ؛ أم هو في الحقيقةَ بينَ رغبةٍ في النبوغِ قبلَ أن تَتِمَّ الأداةُ وتستحكمَ الطريقةُ، كما هو شأنُ فريقٍ مِنَ الكُتَّابِ، فيختصرونَ الطَّريقَ بكلمةٍ واحدةٍ هي المذهبُ الجديدُ - وبينَ رغبةٍ في التَّعَصُّبِ لِلْأَدَابِ الْأَجْنِبِيَّةِ كما هو شأنُ فريقٍ آخر - وبينَ رغبةٍ في الحُطِّ من قيمةٍ بعضِ الناسِ ورميهم بِالْجَهْلِ وَالسُّخْفِ وأنَّه لا قيمةَ لِمَا يَجِئُونَ بِهِ، كلُّ ذلك في تعبيرٍ علميٍّ يَصِحُّ أن يكونَ نظريَّةً علميَّةً . . . وقبلَهُم قالها العربُ في القرآنِ الكريمِ: «لو نشاء لقلنا مثلَ هذا، إنَّ هذا إلَّا أساطيرُ الأولين»! فقد شاءوا فلم يقولوا؛ ولو أنَّ المذهبَ الجديدَ فسَّرَ القرآنَ يوماً . . . لَقَالَ في معنى أساطيرِ الأولين إنَّهُم أرادوا المذهبَ القديمَ . . .

ويقولُ الدكتورُ طه: إنَّ هناك قوماً ينصرونَ المذهبَ الجديدَ وليسَ لهم مِن اللُّغاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ وآدابِها حظٌّ، وحظُّهم مِن اللُّغةِ الْعَرَبِيَّةِ وآدابِها موفورٌ؛ ثُمَّ طلبَ رأيي في هؤلاءِ وما أصلُ مذهبِهِمُ الجديدِ؛ فأقول: إنِّي أعرفُ بعضَهُم، وأعرفُ أنَّ أدمغَتَهُم لا يُشَبِّهُها شيءٌ إلَّا جلودُ بعضِ أكتبِ التي ليسَ فيها إلَّا مَثَنٌ وشرحٌ وحاشيةٌ: جلدٌ ملفوفٌ على ورقٍ، وورقٌ ينطوي على قِوَاعِدَ محفوظةٍ، وهم أفقرُ الناسِ إلى الرأْيِ؛ وهذه عِلَّةُ حُبِّهِم لِلْأَسَالِيبِ الْجَدِيدَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى التَّرْجُمَةِ وَنَقْلِ الْأَرَاءِ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ، وبِالْمَعْنَى الصَّرِيحِ الْمَكْشُوفِ: مِنَ الْأَدْمَغَةِ الْمَمْلُوءَةِ

(١) يقرط: ينثني ويمدح ما يراه جيداً.

إلى الأدمغة الفارغة، وفيهم بعض أذكىاء، ولكن ذكاءهم في حواسهم، فإن لم يكن هذا فليقولوا هم لماذا؟

ولو أنك سألت العنكبوت: ما هي الظبية الحوراء العيناء التي تطمعين فيها وتنصين لها كل هذه الأشرار والحبائل؟ لقات لك: مهلاً حتى تقع فتراها! فإذا وقعت رأيتها ثمّة ورأيتها ذبابة...

ولكن ماذا يقول الدكتور في الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده؟ أكان يدعو إلى مذهب جديد في اللغة والأدب ويفتن بالروايات الغرامية وبأسلوب «إميل زولا» في روايته المعروفة وبمثل رواية (ألا جرسون).

إن كان الناس عند الدكتور من بعض الحجج فإن الشيخ وحده بأمة كاملة ممن يعينهم.

وأختم هذه الكلمة بالشكر للأستاذ طه حسين والثناء عليه، ثم إنني مسترسل في عملي، وهذا عذري إليه.

المرأة والميراث

قرأتُ في «المقطم» كلمة الكاتب المعروف سلامة موسى فيما يزعمه إجابات مختصرة عن اعتراضات تهافت^(١) بها رأيه في الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وهو ينصح لمن يريد أن يناقشه أن يقرأ نصّ محاضراته في «السياسة الأسبوعية».

وقد رجعتُ إلى نصّ المحاضرة فإذا الكاتب هو هو في ضعف تفكيره وسوء تقليده، يكاد لا يُمَيِّزُ بين الرأي الصحيح الثابت في نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه، وبين الرأي المتغير في كل نفس بحسبها لأنه قائم على متزج أو غفلة أو مرض في النفس.

ترى الكاتب لا يدعو إلا إلى تقليد أوروبا، وتكاد عباراته في ذلك لا تُحصى ويقول: إن «المُصلح المثمر عندنا هو مُقلد لأوروبا لا غش في تقليده»، فليس إلا أوروبا وتقليدها وإذا لم يكن في أوروبا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شيء...

«مُقلد أوروبا لا غش في تقليده»، وما هو الغش في التقليد؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرَكَ فتدع وتأخذ على بينة في الحالين، وأن تأبى أن تُحمل على طبيعتك الشرقية ما لا تصلح عليه ولا تقوم به؛ وإذا أنقلبَت أوروبا شيعية أو إباحية وجب ألا نغش في التقليد... وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوروبا وتطلع في مِصر كل يوم وجب أن يكون المِصري أعمى ستة أشهر...

والظاهر أن الكاتب يقول بالتقييد لأنه طبيعي فيه... ورأيه في الميراث أنما هو ترجمة... لعمل مصطفى كمال؛ وإن كان مصطفى كمال قد أصلح الترك في سنوات كما يقولون: فبرهان التاريخ لا يخضع للمشتقة ولا لمحاكم الاستقلال ولا يأتي إلا في وقته الذي سيأتي فيه، وسيرى الناس يومئذ ما يكون وهما مما يكون حقيقة.

(١) تهافت: تهاوى ضعفاً.

ويردُ الكاتبُ على رأي الأستاذ الأخلاقي رئيس تحرير «المقطم» في خشيته أن يقتصر الإصلاح على القشور دون اللبّاب، فيقول: إنّه «معتقد أنّ الأُمَّة التي تُشرع في اتخاذ المدينة، الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور... لأنّها أسهل عليها من اللبّاب بل هي لا تستطيع غير ذلك». أكذلك بدأت أليابان؟. وهل كل الطبائع كطبيعة بعض الناس، تستطيع أن تعتلف^(١) قشور المدينة... وتنصرف إلى مدايقها وسفاسفها؟

ولا ريب أن حضرته لا يفهم الدين الإسلاميّ لأنّه ليس من أهله، فهو يُقرنا على ذلك، وهو بذلك يُقرنا على أنّه مُتطفّل في اقتراحه؛ وإنّ الذي يقرأ في محاضراته قوله: «إنّ الطبقة الغنيّة في الأُمَّة هي التي تُقرّر ديانة الأُمَّة...» يستيقن أنّه لا يفهم ديناً من الأديان، وأنّه قصير النظر في أمور الاجتماع وأبواب السياسة؛ وأنّ يمينه وشماله وأمامه ووراءه إنّ هي إلا جهات الزمام الذي ينقاد فيه؛ فلا شخصيّة له، وإنّما يتابع وينقاد للآراء التي يُترجم منها بلا نقد ولا تمييز.

إنّ ميراث البنّات في الشريعة الإسلامية لم يُقصّد لذاته، بل هو مُرتّب على نظام الزواج فيها، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العاملين معاً، فإذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تُقابلها؛ وهذا الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقيّة عالية ينشئ بها طباعاً ويعدل بها طباعاً أخرى، كما بيّناه في مقالنا المنشور في «مقتطف» هذا الشهر - فهو يربأ بالرجل أن يطمع في مال المرأة أو يكون عالة عليها؛ فمن ثمّ أوجب عليه أن يمهرها وأن يُنفق عليها وعلى أولادها، وأن يدع لها رأيها وعملها في أموالها، لا تحدّ إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه؛ وكلّ ذلك لا يُقصّد منه إلا أن ينشأ الرجل عاملاً كاسباً معتمداً على نفسه مشاركاً في محيطه الذي يعيش فيه، قوياً في أمانته، منزهاً في مطامعه، مهيباً لمعالي الأمور، فإنّ الأخلاق كما هو مقرر يدعو بعضها إلى بعض، ويُعين شيء منها على شيء يُمائله، ويدفع قوتها ضعيفها، ويأنف عاليها من سافلها؛ وقد قلنا مراراً إنّه لا يجوز لمُتكلّم أن يتكلّم في حكمة الدين الإسلاميّ إلا إذا كان قويّ الخلق، فإنّ من لا يكون الشيء في طبعه لا يفهمه إلا فهم جدل لا فهم اقتناع.

للمرأة حق واجب في مال زوجها، وليس للرجل مثل هذا الحق في مال

(١) تعتلف: تجعله علفاً تأكله.

زوجهِ؛ وَالْإِسْلَامُ يَحْتَ عَلَى الزَّوْجِ، بَلْ يَفْرُضُهُ؛ فَهوَ بِهَذَا يُضَيَّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ رَجُلًا وَيُعْطِيهَا بِهِ حَقًّا جَدِيدًا، فَإِنَّ هِيَ سَاوَتْ أَخَاهَا فِي الْمِيرَاثِ مَعَ هَذِهِ الْمِيزَةِ الَّتِي أَنْفَرَدَتْ بِهَا أَنْعَدَمَتْ الْمُسَاوَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَتَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ إِذْ لَهَا حَقُّ الْمِيرَاثِ وَحَقُّ النِّفْقَةِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ إِذَا تَسَاوَا.

فَإِنْ قُلْتَ كَمَا يَقُولُ سَلَامَةُ مُوسَى: إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تُنْفِقَ الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ وَأَنْ تَدْفَعَ لَهُ الْمَهْرَ ثُمَّ تُسَاوِيَهُ فِي الْمِيرَاثِ، قُلْنَا: إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا وَأَصْبَحَ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ بَطْلُ زَوَاجِ كُلِّ الْفَقِيرَاتِ وَهُنَّ سَوَادُ النِّسَةِ، إِذْ لَا يَمْلِكُنَّ مَا يَمْهَرْنَ بِهِ وَلَا مَا يُنْفِقُنَّ مِنْهُ؛ وَهَذَا مَا يَتَحَامَاهُ الْإِسْلَامُ لِأَنَّ فِيهِ فِسَادَ الْأَجْتِمَاعِ وَضِياعَ الْجِنْسَيْنِ جَمِيعًا؛ وَهُوَ مُفْضٍ^(١) بِطَبِيعَتِهِ الْقَاهِرَةِ إِلَى جَعْلِ الزَّوْاجِ لِلْسَّاعَةِ وَلِلْيَوْمِ وَلِلْوَقْتِ الْمَحْدُودِ... وَلِإِيجَادِ لُقْطَاءِ الشَّوَارِعِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الزَّوْاجُ لِلْعُمَرِ وَلِلْوُجُوبِ وَلِتَرْبِيَةِ الرَّجُلِ عَلَى آحْتِمَالِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ بِإِيجَادِ الْأُسْرَةِ وَإِنْشَائِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهَا.

مِنْ هُنَا وَجِبَ أَنْ يَنْعَكِسَ الْقِيَاسُ إِذَا أُريدَ أَنْ تَسْتَقِيمَ النُّتِيجَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي هِيَ فِي الْغَايَةِ لَا مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ وَلَا مِنْ حَقِّ الْمَرْأَةِ بَلْ مِنْ حَقِّ الْأُمَّةِ؛ وَمَا نِسَاءُ الشَّوَارِعِ وَنِسَاءُ الْمَعَامِلِ فِي أَوْربَا إِلَّا مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ الْنِّظَامِ الَّذِي جَاءَ مَقْلُوبًا، فَهُنَّ غُلَطَاتُ الْبُيُوتِ الْمُتَخَرِّبَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْمُتَهَدِّمَةِ، وَهُنَّ الْوُجُوبَاتُ الَّتِي أَلْقَاهَا الرِّجَالُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَوَقَعَتْ حَيْثُ وَقَعَتْ!

وَإِذَا أَنْزَاخَتْ مَسْئُولِيَّةَ الْمَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ أَنْزَاخَتْ عَنْهُ مَسْئُولِيَّةَ النِّسْلِ، فَأَصْبَحَ لِنَفْسِهِ لَا لِأُمَّتِهِ؛ وَلَوْ عَمَّ هَذَا الْمَسْخُ الْأَجْتِمَاعَ وَأَسْرَعَ فِيهِ الْهَرَمُ وَأَتَى عَلَيْهِ الضَّعْفُ، وَأَصْبَحَتْ الْحُكُومَاتُ هِيَ الَّتِي تَسْتَوْلِدُ النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُسْتَنْتَجُ بِهَا الْبَهَائِمُ، وَقَدْ بَدَأَ بَعْضُ كُتَّابِ أَوْربَا يَدْعُونَ حُكُومَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الَّذِي أَبْتَلَوْا بِهِ وَلَا يَدْرُونَ سَبَبَهُ وَمَا سَبَبُهُ إِلَّا مَا بَيْنَا أَنْفَاءً.

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً سَامِيَةً، وَهِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَدْعُ نِصْفَ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ لِأَخِيهَا يَفْضُلُهَا بِهِ - بَعْدَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَّهْنَا إِلَيْهِ - إِلَّا لِتُعِينَ بِهَذَا الْعَمَلِ فِي الْبِنَاءِ الْأَجْتِمَاعِيِّ؛ إِذْ تَرَكْنَا مَا تَرَكْنَاهُ عَلَى أَنَّهُ لِمَرْأَةٍ أُخْرَى، هِيَ زَوْجُ أَخِيهَا؛ فَتَكُونُ قَدْ أَعَانَتْ أَخَاهَا عَلَى الْقِيَامِ بِوُجُوبِهِ لِلْأُمَّةِ، وَأَسَدَتْ لِلْأُمَّةِ عَمَلًا آخَرَ أَسْمَى مِنْهُ بِتَيْسِيرِ زَوَاجِ أَمْرَاءٍ مِنَ النِّسَاءِ.

(١) مَفْضٍ: مُؤَادٍ.

فأنت ترى أَنَّ مسألة الميراث هذه متغلِّغلة في مسائل كثيرة لا منفردة بنفسها، وأنها أحكم الحكمة إذا أُريدَ بالرجل رجل أُمِّه وبالمراة امرأة أُمِّها، فأما إذا أُريدَ رجل نفسه وامراة نفسها، وتقرَّر أنَّ الاجتماع في نفسه حماقة، وأنَّ الحكومة خرافة، وأنَّ الأُمَّة ضلالة، فحينئذ لا تنقلب آية الميراث وحدها بل تنقلب الحقيقة.

ومِمَّا نعجب له أنَّ سلامة موسى يتكلَّم في مُحاضرتِه كأنَّ كلَّ الوالدين ذوو مالٍ وعقار، فنصف الأُمَّة على هذا محروم نصف حقِّه وكأنَّه لا يعرف أنَّ السواد الأعظم من الناس لا يترك ما يورث، لا على الربع ولا على النصف؛ وأنَّ كثيراً ممَّن يموتون عن ميراث لا يحيا ميراثهم إلا أياماً من بعدهم، ثمَّ يذهب في الدُّيون، إذ لا تركة مع دين، وكثيرون لا يُسمِنُ ميراثهم ولا يُغني، فلم تبقَ إلا فئات معيَّنة من كلِّ أمة لا يجوز أن تنقلب من أجلها تلك الحكمة الاجتماعية التي هي من حظِّ الأمم كلها لقيام بعض الأخلاق عليها كما بسطناه.

ومِمَّا تشمئزُّ له النفوس الكريمة قول المُترجم في مُحاضرتِه: فلو كانت الفتيات يرثن مثل إخوانهنَّ الذكور، لكان (في ثروتهنَّ) إغراءً للشبان على الزواج...

إنَّ الدين الإسلامي لا يعرف مثل هذا الإسفاف^(١) في الخلق ولا يُقرُّه، بل هو يهدمه هذماً ويوجب على كلِّ رجل أن يحمل قسطه^(٢) من المسؤولية ما دام مُطيقاً إن كره أو رضى، ولعمري، إنَّ تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهي أدلُّ من أسم المحلِّ على بضاعة المحل...

(١) الإسفاف: الإنحطاط.

(٢) قسطه: حظه.

كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة

تلقيتُ كتاباً هذه نسخته :

أكتبُ إليك متعجباً بعد أن قرأت «كلمة كافرة» في «كوكب الشرق» الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر؛ كتبها متصدراً من نوع قولهم؛ حبذا الإمارة ولو على الحجارة... وسمي نفسه «السيد»، فإن صدق فيما كتب صدق في هذه التسمية.

طعن القرآن وكفر بفصاحته، وفصل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب، فعقد فصله بعنوان «العثرات» على ذلك التفضيل، كأن الآية عشرة من عشرات الكتاب يُصححها ويقول فيها قوله في غلط الجرائد والناشرين في الكتابة؛ وبرقع وجهه وجبن أن يستغلن، فأعلن بزندقيته أنه حديث في الضلالة.

على الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب: «القتل أنفى للقتل» على قول الله - تعالى - في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾، فذكرت هذه الآية القائلة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ وهذه الآية: ﴿شَيْطَانٍ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ ثم هممت بالكتابة فأعترضني ذكرك، فألقيت القلم لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك.

ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس؛ جعلت البر فاجراً، وزادت الفاجر فجوراً: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

وأعلم أنه لا عذر لك. أقولها مخلصاً، يُمليها علي الحق الذي أعلم إيمانك به، وتفانيك في إقراره والمدافعة عنه والدود عن آياته؛ ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم

به المؤمنون حين تناوشهم^(١) ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولو عها في البيان القرآني.

ولست أزيدك، فإنّ موقف هذا موقف المُطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين وأذكر حديث رسول الله ﷺ: «مَنْ سُلَّ عِلْماً عِلْمَهُ فَكْتَمَهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجِماً»^(٢) بلجام من نار! أو كما قال...
والسلام عليكم ورحمة الله.

م. م. ش

قرأت هذا الكتاب فأقشعر جِسمي لوعيد النبي صلى الله عليه وسلم، وجعلت أريد الحديث الشريف أستكثر منه وأملأ نفسي بمعانيه، وإنه ليكثر في كل مرة، فإذا هو أبلغ تهكم بالعلماء المتجاهلين، والجهلاء المتعالمين؛ وإذا هو يؤخذ من ظاهره أنّ العالم الذي يكتُم عِلْمَهُ النافع عن الناس يجيء يوم القيامة مُلْجِماً، ويؤخذ من باطنه أنّ الجاهل الذي يبث جهله الضار في الناس يجيء يوم القيامة مُلْجِماً مُبْرَذَعاً... أي: فهذا وهذا كلاهما من حمير جهنم!

والتمسْتُ عدد «الكوكب» الذي فيه المقال وقرأته، ولم أكن أصدق أنّ في العالم أديباً مميّزاً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله وأساء الأدب في وضع آية منه بين عشرات^(٣) الكتاب، فضلاً عن أن يسمو لتفضيل كلمة من كلام العرب على الآية، فضلاً عن أن يلج في هذا التفضيل، فضلاً عن أن يتهوّس^(٤) في هذه اللجاجة؛ ولكنّ هذا قد كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولعمري وعمر أبيك - أيها القارئ -، لو أنّ كاتباً ذهب فأكل فخلط فتضلع فنام فاستثقل فحلّم... أنّه يتكلّم في تفضيل كلمة العرب على تلك الآية، واجتهد جهده وهو نائم ذاهب الوعي فلم يأل تخريفاً واستطالة، وأخذ عقله الباطن يكنس دماغه ويخرج منه (الزبالة العقلية) ليلقيها في طريق النسيان أو في طريق الشيطان - لما جاء في شأوه بأسخف ولا أبرد من مقالة «السيد» فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم، أم وقع من جهة الخلط والخبط ما فعل كاتب الكوكب - فهذا من هذا، طباق سخافة بسخافة...

(١) تناوشهم: تناوشهم وتجادلهم وتصارولهم.

(٢) ملجماً: مربوطاً بلجام في رأسه كالذابة.

(٣) عشرات: أخطاء.

(٤) يتهوّس: يتجنن.

نعم إنَّ مقالة «الكوكب» أفضل من مقالة الكاتبِ الحالمِ . . . ولكنَّ قليلَ الزيت في الزجاجةِ التي أُهديتْ لجُحا لا يُعَدُّ زيتاً ما دامَ هذا القليلُ يطفئُ على ملءِ الزجاجةِ من . . . مِنَ البول!

ولقد تنبأ القاضي الباقلانيُّ قبلَ مئاةِ السنينَ بمقالةِ الكوكبِ هذه فأسفلها أوردَ بقوله :

«فإنَّ أَشْتَبَهَ على مُتَأَدِّبٍ أو مُتَشاعِرٍ أو ناشيءٍ أو مُرَمِّدٍ فصاحةُ القرآنِ وموقعُ بلاغيتهِ وعجيبُ براعتهِ فما عليك منه، إنَّما يُخْبِرُ عن نفسه، ويدلُّ على عجزه، ويُبَيِّنُ عن جهله، ويُصْرِّحُ بِسَخافَةٍ فهمه وركاكةِ عقله» ما علينا . . . يقول كاتبُ الكوكبِ بِالنَّصِّ :

قالتِ العربُ قديماً في معنى القصاصِ : (القتلُ أنفي للقتلِ)، ثُمَّ أَقبلَ القرآنُ الكريمُ على آثارِ العربِ (هكذا) فقال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقد مضتْ سُنَّةُ العلماءِ من أساطينِ البيانِ أنْ يعقدوا المُوازنةَ بينَ مقالةِ العربِ هذه وبينَ الآيةِ الحكيمةِ أيُّهما أشبهُ بِالفصاحةِ (هكذا)، ثُمَّ يَخْلُصونَ منها إلى تقديمِ الآيةِ والبيانِ القرآني . . . ثُمَّ قال : من رأي كاتبِ هذه الكلمةِ تقديمُ الكلمةِ العربيَّةِ على الآيةِ الغرَّاءِ ، (اللهم غفراً) على ثلجِ الصِّدْرِ بِإِعْجَازِ القرآنِ (كلمةٌ لِلوقايةِ مِنَ النِّبَاةِ . . . وإلا فماذا بقي مِنَ الإعْجَازِ وقد عَجَزَتِ آيَةُ؟ زِهْ زِهْ يا رجل . . .).

ثُمَّ قال : إنَّ فيما تُقدِّمُ بهِ الكلمةُ العربيَّةُ على الآيةِ الحكيمةِ (اللهم غفراً) مزايا ثلاثاً: أولى هذه المزايا الثلاث، هذا الإيجازُ السَّاحِرُ فيها؛ ذلك أنَّ «القتلُ أنفي للقتلِ» ثلاثُ كلماتٍ لا أكثر، أمَّا الآيةُ فإنَّها سبعُ كلماتٍ (كذا) وعلى تلكِ فهي أقدمُ عَهْداً وأسبقُ ميلاداً من آيةِ التَّنْزِيلِ (تأمل) حاشا كلامَ اللَّهِ الأقدمِ، والإيجازُ مِيزةُ أيةٍ مِيزة؛ المِيزةُ الثَّانيةُ لِلْكَلمَةِ الاستقلالُ الْكِتابِيُّ وفقدُ التَّعاقِدِ بينها وبين شيءٍ آخَرَ سابقٍ عليها، حتى إنَّ الْمُتمَثِّلَ بِها المُستشْهَدَ يبتدئُ بِها حديثاً مُستَتمّاً ويختتمُه في غيرِ مزيدٍ ولا فضل، فلا يتوقَّفُ ولا يستعينُ بِغيرها، أمَّا الآيةُ فإنَّها منسوقةٌ معَ ما قبلها بِالواوِ، فهي متعاقدةٌ مترابطةٌ معه، لا يتمثِّلُ بِها الْمُتمَثِّلُ حتى يستعينَ بِشيءٍ سِواها، وليسَ الَّذي يعتمدُ على غيره فلا يستقلُّ كالَّذي يعتمدُ على نفسه فيستقلُّ؛ المِيزةُ الثَّالثةُ أنَّ الْكلمَةَ ليستْ مُتَّصِلةٌ في آخرتها بِفضلٍ مِنَ الْقَوْلِ تُغني عنه، على حينِ تَتَّصِلُ الآيةُ بما تُغني عنه مِنَ

القول . ويُعتدُّ كالفصل وهو كلمتا ﴿يَتَأُولَى الْأَيْبِ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وإن كان لا زيادة في القرآن ولا فضول .

ثم قال: إن مدرساً جاءه بالفصل الذي عقده الإمام السيوطي في كتابه «الإنقان» لتفضيل الآية على الكلمة وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة؛ قال: إنها انحطت بعد أن رماها بنظره العالي إلى إربع: «أما الباقيات فمن نسج الانتحال والتزييد»، قال: وأولاهما أن الآية أوجز لفظاً، والكاتب يرى الآية: «سبع كلمات في تحديد ودقة»، قال: إذا لقد بطلت حجة الإيجاز في الآية (اللهم غفراً)، قال: والثانية: «أن في الكلمة العربية تكراراً لكلمة القتل سلمت الآية منه»، ورد الكاتب أن هذا التكرار: «يتحلل طلاوة ويقطر رقة»، (قال): وهذا فمي فيه طعم العسل، (قلنا: وعليه الذباب يا سيدنا...)، والثالثة أن في الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده، وليس كل قتل قصاصاً؛ ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفي صاحبه، فذاك هو القصاص؛ قال: «إذن فالكلمة والآية في قصد القصاص يلتقيان فرسي رهان»؛ والرابعة أن القصاص في الآية أعم يشمل القتل وغيره. وأقر الكاتب أن لآية فضلاً على الكلمة من هذه الناحية، ولكن الكلمة حكمة لا شريعة، وهي من قضاء الجاهلية، فليس عليها أن تبين ما لم يعرفه العرب ولم يخلق بعد، قال: «إذن فليست الكلمة مقصورة عن بيان، متبلدة عن إحسان».

هذا كل مقال به حروفه بعد تخليصه من الكراكرة والحشو وما لا طائل تحته، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا، ولكنا نقدم بين يدي ذلك مسألة، فمن أين للكاتب أن كلمة: «القتل أنفى للقتل» مما صحت نسبته إلى عرب الجاهلية، وكيف له أن يثبت إسنادها إليهم وأن يؤثق هذا الإسناد حتى يستقيم قوله: إن القرآن أقبل على آثار العرب؟...

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية، والتوليد بين فيها، وأثر الصنعة ظاهر عليها؛ فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية؛ ولقد جاء أبو تمام بابتدع وأبلغ من هذه الكلمة في قوله:

وأخافكم كي تُغمِدوا أسياقكم إن الدَّم المُعْبَرُ يخرُسُه الدَّم

(الدم يحرسه الدم)، هذه هي الصناعة وهذه هي البلاغة لا تلك، ومع هذا فكلمة الشاعر مولدة من الآية، يدل عليها البيت كله؛ وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم: «القتل أنفى للقتل»، وأنا مستيقن أن الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذ.

ولو أن مُتمثلاً أراد أن يتمثل بقول أبي تمام فانتزع منه هذا المثل «الدم يحرسه الدم»، أ يكون حتماً من الحتم أن يقال له: كلا يا هذا فإن البيت سبع كلمات فلا يصح انتزاع المثل منه ولا بُد من قراءة البيت بمصراعيه كما يقول كاتب الكوكب في الآية الكريمة ليزعم أنها لا تقابل الكلمة العربية في الإيجاز؟

إن الذي في معاني الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم: «القتل أنفى للقتل» كلمتان ليس غير، وهما «القصاص، حياة»؛ والمقابلة في المعاني المتماثلة إنما تكون باللفاظ التي تؤدي هذه المعاني دون ما تعلقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به؛ إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا في صناعة تركيبهما، ويخيل إلي أن الكاتب يريد أن يقول إن باقي الآية الكريمة لغو وحشو، فهو حميلة على الكلمتين: القصاص حياة، يريد أن يقولها، ولكنه غص بها، وإلا فلماذا يلج في أنه لا بُد في التمثيل، أي لا بُد في المقابلة، من رد الآية بالفاظها جميعاً؟

فإذا قيل: إنه لا يجوز أن يتغير الأعراب في الآية، ويجب أن يكون المثل منتزعا منها على التلاوة، قلنا: فإن ما يقابل الكلمة منها حينئذ هو هذا. «في القصاص حياة»، وجملتها اثنا عشر حرفاً، مع أن الكلمة العربية أربعة عشر؛ فالإيجاز عند المقابلة هو في الآية دون الكلمة.

وأما قوله - تعالى - : ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لو كان الكاتب من أولي الأبواب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها، وأن إعجاز الآية لا يتم إلا بها، إذ أريد أن تكون معجزة زمنية كما سنشير إليه، ولكن أتى له وهو من ألفن البياني على هذا البعد السحيق، لا يعلم أن آيات القرآن الكريم كالزمن في نسقها: ما فيه من شيء يظهره إلا ومن واريه سر يحققه.

ثم إن الإيجاز في الكلمة العربية ليس من «الإيجاز الساحر» كما يصفه الكاتب، بل هو عندنا من الإيجاز الساقط؛ وليس من قبيل إيجاز الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلاً عن أن يشبهه، إذ لا بُد في فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه، فيكون المعنى «القتل أكثر نفعاً للقتل من كذا»، فما هو هذا «الكذا» أيها الكاتب المتعثر؟

أليس تصوُّر معنى العبارة وإحضاره في الذهن قد أسقطها ونزل بها إلى الكلام السوقي المبتذل وأوقع فيها أختلال؟ وهل كانت إلا صناعة شعرية خيالية ملفقة كما أومأنا إلى ذلك آنفاً، حتى إذا أجريتها على منهجها من العربية رأيتها في طريقة هذا الكلام العربي الأمر يكاني كقول ألقائل: «الفرح أعظم من الترح»، «الحياة هي التي تُعطى للحياة»...؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التي زعمها الكاتب لتلك الكلمة، وإن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة فضلاً عن ثلاثة. ولنفرض «فرضاً» أن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم، فما الذي فيها؟

١ - إنها تشبه قول من يقول لك: إن قتلت خصمك لم يقتلك. وهل هذا إلا هذا؟ وهل هو إلا بلاغة من الهذيان؟

٢ - يخرج لشأنه إلا مقررراً في نفسه أنه إما قاتل أو مقتول، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها، فهو من أشنع التكرار وأفظعه.

٣ - إن فيها الجهل والظلم والهمجية، إذ كان من شأن العرب ألا تسلم القبيلة العزيزة قاتلاً منها، بل تحميه وتمنعه، فتقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية؛ فمن ثم لا ينفي عار القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلاً قتلاً وأكل الحياة للحياة، فهذا من معاني الكلمة: أي القتل أنفى لعار القتل، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب.

٤ - إن القتل في هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجيء مقترباً بها، فهو مفتقر إليها في هذا المعنى، وهي تلبسه الإنسانية كما ترى، ولن يدخله العقل إلا من معانيها؛ وهذا وحده إعجاز في الآية وعجز من الكلمة.

وقبل أن نبين وجوه الإعجاز في الآية الكريمة ونستخرج أسرارها، نقول لهذا الطفيلي: إنه ليس كل من استطاع أن يطير في الجو ورقة في قصبة في خيط - جاز له أن يقول في تفضيل ورقته على منطاد زبلين، وأن فيما تتقدم به على المنطاد الكريم ميزات ثلاثاً: الذيل، والورق الملوّن، والخيط...

يقول الله - تعالى - : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ .

١ - بدأ الآية بقوله (ولكم)، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان، وتلتبس في كمالها بنظام النفس، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة؛ فإذا لم يكن هذا متحققاً في الناس فلا حياة في القصاص، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية: القتل أنفى للقتل، أي أقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً، فهذا هو الذي يبقاكم أحياء وينفي عنكم القتل؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجّهة إلى الإنسانية العالية، لتوجه هذه الإنسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة.

٢ - قال: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ ولم يقل في القتل، فقيد بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء ومؤاخذه، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قل أو كثر.

٣ - تُفيد هذه الكلمة «القصاص» بصيغتها (صيغة المفاعلة) ما يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القتال من المنازعة والدفاع، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل؛ ولذا لم يأت بالكلمة من أقتص مع أنها أكثر استعمالاً، لأن الأقتصاص شريعة الفرد، والقصاص شريعة المجتمع.

٤ - من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله - تعالى - سمى بها قتل القتال، فلم يسمه قتلاً كما فعلت الكلمة العربية، لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء، فنة - سبحانه - العدل الشرعي حتى عن شبهه بلفظ الجريمة؛ وهذا منتهى السمو الأدبي في التعبير.

٥ - ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتي في عصور الإنسانية العالمية المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القتال بجنايته إلا شراً من قتل المقتول؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة، على حين أن أخذ القتال لقتله ليس فيه إلا نية قتله؛ فعبرت الآية باللغة التي ثلاثم هذا العصر القانوني الفلسفي، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يجرى عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة.

٦ - ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص، ألتل فما دونه، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرّت بك، فهي

بذلك لُغة شريعة إلهية على الحقيقة، في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها؛ ولذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة؛ فالآية بلفظة (القصاص) تضعك أمام الألوهية بعذلها وكمالها، والمثل بلفظة (القتل) يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها.

٧ - ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما؛ أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس.

٨ - جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة؛ إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدمير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها.

٩ - جاءت كلمة (حياة) منزنة، لتدل على أن ههنا ليست حياة بعينها مقيدة بأصطلاح معين؛ فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية، وقد يكون فيه حياة سياسية، وقد تكون الحياة أدبية، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياة.

١٠ - إن لفظ (حياة) هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفي القتل)، لأن نفي القتل إنما هو حياة واحدة، أي ترك الروح في الجسم، فلا يحتمل شيئاً من المعاني السامية، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفي القتل) تعبير غليظ عامي يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير، كالذي يقول لك: إن الحرارة هي نفي البرودة.

١١ - جعل نتيجة القتل حياة تعبير من أعجب ما في الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالاً، بل يتحول إلى تعبير علمي يسمو إلى الغاية من الدقة، كأنه يقول بلسان العلم: في نوع من سلب الحياة نوع من إيجاب الحياة.

١٢ - فإذا تأملت ما تقدم أنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه، إذ هو موجة للعرب في ظاهره على قدر ما بلغوا من معاني القلب^(١)، ولكنه في

(١) اللب: العقل والقلب.

حقيقته موجّه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع، هم هؤلاء الذين يزّون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي، أو وراثته محتومة، أو حالة نفسية قاهرة، إلى ما يجري هذا المجرى؛ فمن ثمّ يزّون أن لا عقاب على جريمة، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى؛ وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب، وهي تحوّل القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع، فنبّههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم، كأنه يقرّر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي قبل ذلك باللبّ والبصيرة، وفلسفة اللبّ هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا.

١٣ - وانتهت الآية بقوله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهي كلمة من لغة كل زمن، ومعناها في زمننا نحن: يا أولي الألباب، إنّه برهان الحياة في حكمة القصاص تسوّفه لكم، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه، فأجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد.

وبعد، فإذا كان في الآية الكريمة - على ما رأيت - ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة.

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعد أن نشرت مقالة (الكلمة المؤمنة) في (البلاغ)، كتب الأديب الفلسطيني الأستاذ إسعاف النشاشيبي: إن هذه الكلمة مترجمة عن الفارسية، وقد نقلها الثعالبي في كتابه (الإيجاز والإعجاز)، فنشرنا في «البلاغ» هذا التعليق:

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي في كلمته للبلاغ إن عبارة «القتل أنفى للقتل»، ليست بعربية ولا مولدة، بل هي مترجمة؛ أي فهي مطموسة الوجه من كونها أعجمية وقع الخطأ في نقلها إلى العربية، فكانت غلطة من جهتين.

وإنه ليسرني أن تكون فوق ذلك زنجية نُقلت إلى المالطية، ثم تُرجمت إلى العربية، فتكون غلطة من أربع جهات، لا من جهتين فقط... ولكن هذه الكلمة لم يُشر إلى أصلها غير (الثعالبي)، وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأي، بل أشار إلى ترجمتها في صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال: «يُحكى أن فيما تُرجم عن أزدشير...» (ويحكى) هذه ليست نصاً في باب الرواية، وقد يكون هذا الإمام أتقى الله فابتعد بالكلمة وطوّح بها إلى ما وراء بلاد العرب، أو تكون الكلمة أُلقيت إليه على أنها مُشتبه في نسبتها؛ ولو كانت العبارة مترجمة لتناقلها الأئمة مُعزوة إلى قائلها أو لغتها التي قيلت فيها.

ولقد ذكرها العسكري في كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم)، أي العرب أو المولدين؛ ونقلها الرازي في تفسيره، فقال: إن للعرب في هذا المعنى كلمات منها «قتل البعض إحياء للجميع»، وأحسها «القتل أنفى للقتل»؛ وكذلك جاء بها ابن الأثير في كتاب «المثل السائر» ولم يعزها؛ وقال مفسر الأندلس أبو حيّان في تفسيره: إنها تُروى برواية أخرى وهي: «القتل أوقى للقتل»، وكل ذلك صريح في أن خبر الترجمة قد انفرد به الثعالبي.

ولا يقومُ الدليلُ على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسي، فإن كانَ عِلْمُ ذلك عند أحدٍ فليُتفضلْ به مشكوراً مأجوراً.

(تنبيه): نشرنا هذه الكلمةَ ومَضَتْ بعدها سنواتٌ ولم يقف أحدٌ على أنَّ للعبارةِ أصلاً فارسياً، فلم يبقَ عندنا ريبٌ^(١) أنَّها من صنيعِ بعضِ الزنادقةِ وقد ولَّدها مِن الآيةِ الكريمةِ لِيُجرِيها في مَجْرى المَعارضةِ^(٢)؛ وقد كتبَ الأستاذُ الكبيرُ عبدُ القادرِ حمزة صاحبُ جريدةِ (البلاغ) أنَّ تلكَ العبارةَ حِكْمَةٌ مِصْرِيَّةٌ قديمةٌ؛ ولا نمنعُ أنَّ يكونَ هذا، فإنَّ بعضَ الحُكَمِ ممَّا تَتَوَارَدُ عليه العُقُولُ الإنسانيةُ النابغةُ؛ إذ كانتِ الطَبِيعَةُ البَشَرِيَّةُ كأنَّها تُمْلِيهِ؛ غيرَ أنَّ العبارةَ ليستُ في كلامِ الجاهليَّةِ القديمةِ ولا الحديثِ، وألفاظُ المِصْرِيَّةِ غيرُ ألفاظِ العَرَبِيَّةِ، فلم يبقَ إلا توارِدُ الخواطرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ريب: شك.

(٢) المعارضة: المقارنة.

القتل أنفى للقتل

ليست جاهلية

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديب في البلاغ أن الكلمة جاهلية، فتعقبناه بهذا التعليق:

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهري فيما نشره في «البلاغ» أن هذه الكلمة عربية في دعواه، واحتج لذلك بحجج، أقواها زعمه: «أنها وردت بين ثانيا عهد القضاء الذي بعث به سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري؛ ولا ندري أين وجد الكاتب كلمة: «القتل»، فضلاً عن: «القتل أنفى للقتل» - في ذلك العهد المشهور المحفوظ، وقد رواه الجاحظ في «البيان والتبيين»، وجاء به المبرّد في «الكامل»؛ ونقله ابن قتيبة في «عيون الأخبار». وأورده ابن عبد ربه في «العقد الفريد»، وساقه القاضي الباقلاني في «الإعجاز»؛ وفي كل هذه الروايات الموثقة لم تأت الكلمة في قول عمر، بل لا محل لها في سياقه، وإنما جاء قوله: «فإن أحضر بيته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشكك».

أما سائر حجج الكاتب فلا وزن لها في باب الرواية التاريخية وقد أصبح عليها سافلها كما رأيت.

والذي أنا واثق منه أن الكلمة لم تُعرف في العربية إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة، وهذا الإمام الجاحظ يقول في موضع من كتابه (البيان والتبيين)، في شرح قول علي - كرم الله وجهه -: «بقية السيف أئمتي عدداً وأكثر ولداً»، ما نصه: «ووجد الناس ذلك بالبيان للذي صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النجل؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقال بعض الحكماء: «قتل البعض إحياء للجميع».

ولم يزد الجاحظ على هذا، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاتته كما هو

صنيعه في كتبه، خصوصاً وهي أوجز وأعذب مما نسبته لبعض الحكماء؛ وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض...) هي التي زعم الرازي في تفسيره أنها للعرب... فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء البلاغة، وإنما الشأن للتحقيق التاريخي.

ونص الجاحظ في كتاب «حجج النبوة» على أن قوماً منهم ابن أبي العوجاء، وإسحاق بن ألوت، والنعمان بن المنذر: «أشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلاً، وبالإيمان كُفراً، وبالسعادة شقوة، وبالحجة شبهة، كانوا يصنعون الآثار، ويؤلدون الأخبار، ويثبونها في الأمصار، ويطعنون بها على القرآن»؛ فهذا عندنا من ذاك.

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن الكلمة مترجمة عن الفارسية بظهور أصلها في تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الإسلام، فهي ولا ريب مما وُضِعَ على طريقة ابن الرواندي الرندي المُلحِد الذي كان في منتصف القرن الثالث وألف في أطنن على هذه الطريقة: «إنا نجد في كلام العرب شيئاً أبلغ من ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾».

وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم إنما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجِدوا للعامة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل الزيف والضعفاء في العلم - سبيلاً إلى القول في نقض الإعجاز، ومساعاً إلى التهمة، في أن القرآن تنزيل؛ والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان إلى معنى الكفر في الدين، وذلك ما يرمون إليه؛ وهذه بعينها هي طريقة المبشرين اليوم، فكان إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشرين لم يستطع إن يتغير، ولا أن يكون... أن يكون مُجدِّداً...

فهرس المحتويات

٥ السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية
٢٥ قرآن الفجر
٢٨ اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال
٣٤ تجديد الإسلام رسالة الأزهر في القرن العشرين
٤٠ الأسد
٤٧ أمراء للبيع
٥٤ العجوزان ١
٦٠ العجوزان ٢
٦٥ العجوزان ٣
٧١ العجوزان ٤
٧٨ السطر الأخير من القصة
٨٥ عاصفة القدر
٩٦ القلب المسكين ١
١٠٢ القلب المسكين ٢
١٠٧ القلب المسكين ٣
١١٢ القلب المسكين ٤
١١٧ القلب المسكين ٥
١٢٢ القلب المسكين ٦
١٢٨ القلب المسكين ٧
١٣٣ القلب المسكين ٨
١٤٢ القلب المسكين تمة
١٤٨ انتصار الحب
١٥٢ قبلة البارود لا بالماء المقطر . .

١٥٦	شيطان وشيطانة . . .
١٦٣	نهضة الأقطار العربية
١٦٩	لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فنّيته
١٧٦	صعاليك الصحافة ١
١٨١	صعاليك الصحافة . . . ٢
١٨٦	صعاليك الصحافة ٣
١٩٢	صعاليك الصحافة تنمة
١٩٧	أبو حنيفة ولكن بغير فقه !
٢٠٢	الأدب والأديب
٢١١	سرّ النبوغ في الأدب
٢٢٢	نقد الشعر وفلسفته
٢٣٤	فيلسوف وفلاسفة . . .
٢٣٨	شيطاني وشيطان طاغور . . .
٢٤٣	فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها ؟ . .
٢٤٥	شعر صبري
٢٥٧	حافظ إبراهيم
٢٧١	كلمات عن حافظ
٢٧٩	شوقي
٢٩٦	بعد شوقي
٣٠٢	الشعر العربي في خمسين سنة
٣١٣	صروف اللغوي
٣٢٣	الشيخ الخصري
٣٢٩	رأي جديد في كتب الأدب القديمة
٣٣٦	أمير الشعر في العصر القديم
٣٤٠	البؤساء
٣٤٣	الملاح التائه
٣٤٩	المقتطف والمتنبى
٣٥٢	محمد

ديوانُ الأعشاب	٣٥٤
النجاحُ وكتابُ سرِّ النجاح	٣٥٩
أبو تمامُ الشاعرُ تحقيقُ مدَّةِ إقامتهِ بِمِصْرَ	٣٦٢
القديمُ وَالْجديد	٣٦٨
المرأةُ وَالْميراث	٣٧٣
كلمةُ مؤمنةٍ في ردِّ كلمةِ كافرة	٣٧٧
القتلُ أنفى للقتل	٣٨٦
ليست مترجمة	٣٨٦
القتلُ أنفى للقتل	٣٨٨
ليست جاهلية	٣٨٨